

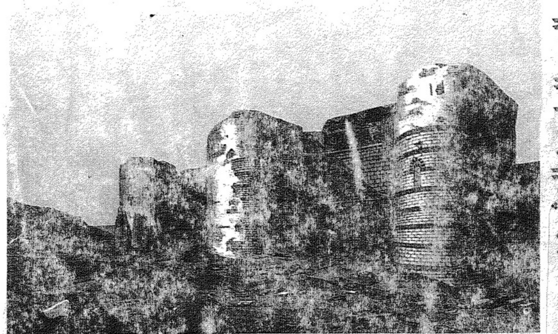
موسوعة

وصف مصر

تأليف علماء الحملة الفرنسية



الجزء الرابع و العشرون



وصف آثار منف/بابيلون/هيلوبوليس
صان الحجر/السويس/الدلتا/الأسكندرية.





مكتبة الأسرة

اهداءات ٢٠٠٤

أسرة المخرج / إبراهيم الصحن

القاهرة

وصف مصر

آثار العصور القديمة

٢٤

الجـزء الرابع والعشرون

وصف مصـر

وصف آثار منف

بابيلون - هليوبوليس

صان الحجر - السويس

الدلتا - الإسكندرية

تأليف

علماء الحملة الفرنسية



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

موسوعة وصف مصر

إشراف : حسين البنهاوى

وصف مصر
الجزء الرابع والعشرون
تأليف : علماء الحملة الفرنسية

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

المقدمة

تتبع منف ـ أولى مدن هذا الجزء ـ مركز البدرشين وتعرف حاليًا باسم ميت رهينة، وقد أسسها الملك مينا أول ملوك الأسرة الأولى لتصبح أول عاصمة لمصر الموحدة، وذكرتها النصوص القديمة باسماء «إنب حج» أى الجدار الأبيض و «منّ نفر» أى ثابت وجميل و «ميت رهن» أى طريق الكباش، واستمرت عاصمة لمصر حتى نهاية عصر الدولة القديمة.

وقد لعبت المدينة دورًا سياسيًا ودينيًا واقتصاديًا هامًا طوال التاريخ المصرى القديم فمنها خرجت إحدى نظريات خلق الكون لدى المصريين القدماء، وعبر فيها الثالوث الشهير بتاح ـ سخمت ـ نفرتم، ولذا فقد حرص ملوك وحكام مصر على إقامة عدة معابد كرست للرب بتاح ولأعضاء الثالوث، لم يتبق منها سوى أطلال معبد بتاح الكبير الذى شيد فى عهد رمسيس الثانى، ومنه خرج تمثال الملك الكبير الذى يزين حاليًا ميدان رمسيس، كما تضم ميت رهينة ثانى أكبر تمثال لأبى الهول بعد تمثال الجيزة، ويؤرخ بعصر الدولة الحديثة، وأطلال معبد لحتحور يرجع للأسرة التاسعة عشرة، وألحقت بالمدينة أشهر وأكبر جبانة فى مصر وهى جبانة منف.

ومن الأحداث الهامة التى ارتبطت باسم المدينة اجتماع الكهان عام ١٩٦ ق.م ليسجلوا شكرهم للملك بطليموس الخامس على إغداقه على معابدهم، ونُسخ هذا القرار بالهيروغليفية والديموطيقية واليونانية وعثرت الحملة الفرنسية على إحدى نسخه عام ١٧٩٩ أسفل قلعة رشيد.

ولم يتبق من منف سوى أطلال متفرقة هنا وهناك نتيجة تعرضها - مثلها مثل طيبة - لضربات قاسية نتجت معظمها عن الاحتلال الأجنبى لمصر مثل سيطرة الآشوريين على المدينة بقيادة آسرحدون ثم آشور بنيبال وأدت إلى تدمير المدينة، ثم نالت الضربة القاضية على يد قمبيز الفارسى الذى خربها وقتل كهنتها وقتل العجل أبيس، ومالبثت المدينة أن لاقت انتعاشًا فى العصر البطلمى والرومانى، إلا أن المرسوم الذى أصدره الإمبراطور ثيودسيوس بتخريب المعابد وتحطيم تماثيل المعبودات قضى على المدينة نهائيًا، وأدى الزحف العمرانى والزراعى وعبث الأيادى إلى القضاء على رونق منف.

ثم يتناول السيد جومار الأهرامات الجنوبية ويبدأ بثلاثة أهرامات من دهشور التى تقع على بعد ١١ كم إلى الجنوب من سقارة، وترجع شهرة هذه المنطقة إلى احتوائها على أول هرم كامل فى مصر، ويخص الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة، ويعرف هذا الهرم باسم الهرم الأحمر حيث قطعت أحجاره الحمراء من محاجر الجبل الأحمر بالعباسية ويصل ارتفاعه إلى ٩٩م تقريبًا كما تضم دهشور هرمًا آخر للملك سنفرو أيضًا وهو الهرم المنحنى أو منكسر الأضلاع أو الجنوبى الذى يمثل المرحلة قبل الأخيرة من مراحل تطور المقبرة الملكية حتى وصلت إلى الشكل الهرمى، هذا بالإضافة إلى أهرامات أمنمحات الثانى وسنوسرت الثالث وأمنمحات الثالث من الأسرة الثانية عشرة.

وبجوار هرم أمنمحات الثانى شيدت مقابر بعض الأميرات، وقد عثر فيها على مجموعة نادرة من الحلى يطلق عليها كنز دهشور، وتعرض الآن فى المتحف المصرى.

أما سقارة فتعد الجبانة الوحيدة فى مصر التى تضم مقابر منذ بداية التاريخ المصرى حتى العصرين اليونانى والرومانى، وقد اشتق اسمها من اسم المعبود سُكر رب الجبانة.

وتضم المنطقة مجموعة هامة من الآثار نذكر منها مجموعة زوسر الهرمية (الهرم المدرج وما يحيط به من منشآت) وترجع لعصر الأسرة الثالثة وتخص

الملك زوسر أو چسر مؤسس هذه الأسرة، وتمثل المجموعة طفرة معمارية هامة أحدثها ايمحتب كبير مهندسى الملك زوسر وتكمن فى استخدام الحجر على نطاق واسع فى المنشآت المعمارية وتغيير تصميم المقبرة من مصطبة إلى هرم مدرج.

ومن الآثار المتميزة الأخرى هرم أوسركاف أول ملوك الأسرة الخامسة ويعرف باسم الهرم المخربش وهرم أوناس ومجموعته الهرمية ويخص آخر ملوك هذه الأسرة، وهرم الملك تتى أول ملوك الأسرة السادسة وهرمى زوجتيه الملكيتين إبوت وخويت ومصطبة شبسسكاف التى تعرف بمصطبة فرعون والهرم الشواف أو هرم الملك چدكارع اسسى وأهرامات ببى الأول ومرى إن رع وببى الثانى، أما مقابر كبار رجال الدولة فأهمها مقابر كا عبر (شيخ البلد) وحسى رع وتى وبتاح حتب ومرروكا وكاجمنى وعنخ ماحور.

وتضم أهرامات الملوك نصوصًا دينية على درجة عالية من الأهمية تعرف باسم «نصوص الأهرامات»، أما مقابر رجال الدولة فتمثل سجلاً حافلاً بالمناظر الرائعة التى تخص الحياة الدينية والدنيوية.

ومن آثار سقارة المتميزة مجمع الفلاسفة والسرابيوم أو مقبرة العجول المقدسة. ثم ننتقل إلى «أبوصير» التى تقع جنوب الجيزة وشمال سقارة، وتعد واحدة من أكثر جبانات العاصمة المنفية ثراءً، وقد اشتق اسمها من بو أوزير أو بوزيرس أى مقر أوزير، وتشتهر هذه المنطقة بما تحويه من معابد الشمس التى ترجع لعصر الأسرة الخامسة وأهرامات بعض ملوك هذه الأسرة: هرم ساحو رع ونفراير كا رع ونى وسر رع ونفر إف رع، أما معابد الشمس فقد عثر على أطلال معبدين لأوسركاف ونى وسر رع وتتميز هذه المعابد بصفة عامة بتصميمها المكشوف والمسلات.

ومن مقابر رجال الدولة الهامة مقبرة بتاح شبسس وتؤرخ بنهاية الأسرة الرابعة وبداية الأسرة الخامسة.

أما منطقة بابيلون فتقع فى مصر القديمة، ومن أشهر ما تحويه من آثار حصن بابيلون الذى شيد فى عهد الفرس ثم أعيد بناؤه فى عهد الإمبراطور أغسطس وأضاف إليه تراچان بعض الإضافات وكانت المنطقة تعرف فى

النصوص المصرية القديمة باسم «بر - حعبى - ر - ايون» بمعنى «بيت حعبى ضم عين شمس»، ثم حوّر هذا الاسم إلى بابيلون فى اليونانية.

تقع عين شمس فى شمال شرق القاهرة وتضم مناطق عرب الحصن وعرب الطوايل والخصوص والمسلة، وكانت تعرف باسم «ايون» فى النصوص المصرية ثم اطلق عليها هليوبوليس أى مدينة الشمس فى اليونانية وأصبحت عين شمس فى العربية.

وقد تمتعت هذه المدينة بمركز وشهرة كبيرين طوال التاريخ المصرى حتى العصر اليونانى ربما لكونها المركز الرئيسى لعبادة الشمس، ولعراقتها الدينية فقد خرجت منها نظرية من نظريات خلق الكون فى الفكر الدينى للمصرى القديم وتعرف باسم نظرية "التاسوع".

ورغم الزحف العمرانى والأنشطة البشرية التى أدت إلى ضياع الكثير من المعالم الأثرية للمدينة إلا أنها تحوى أطلال منشآت ومقابر تؤرخ بفترات مختلفة على مدار التاريخ القديم، كما تشير النصوص إلى اهتمام الملوك بها وتشييدهم المعابد وإقامتهم للمسلات والتماثيل واللوحات والأسوار... فى رحابها، وكانت المدينة مركزًا علميًا للوافدين لدراسة العلوم والفلسفة لاسيما من الإغريق.

ثم يتناول العلماء الفرنسيون آثار الدلتا فى مناطق: تل أتريب - صان - بهبيت - سايس.

تل أتريب:

تتبع محافظة القليوبية وتقع على بعد ٣ كم تقريبًا من بنها على الضفة اليمنى لفرع دمياط، وقد عرفت فى النصوص القديمة باسم (حت - حرى - إيب) أى مقر الوسط ثم أصبحت أتريبس فى اليونانية وتل أتريب بالعربية، وكانت عاصمة الإقليم العاشر من أقاليم الدلتا.

وتؤرخ أقدم الأطلال التى عثر عليها هناك بعهد الملك أحمس أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة، أما أهم آثارها فتتمثل فى مساكن ومعابد وجبانة تؤرخ بالعصرين اليونانى والرومانى، وقد عثر هناك على خبيئة تضم كنزًا من الفضة يزن حوالى ٥٠كم ويرجع للعصر المتأخر.

صا الحجر:

تعد من أهم المواقع الأثرية بمحافظة الغربية، وتقع على بعد ٧كم من مدينة بسيون على الضفة الشرقية لفرع رشيد، وقد عرفت باسم «ساو» فى النصوص القديمة وأصبح سايس فى اليونانية ثم صا الحجر بالعربية.

كانت المدينة عاصمة الإقليم الخامس من أقاليم الدلتا وأحد المراكز الدينية الهامة منذ عصر بداية الأسرات.

وفى عصر الأسرة السادسة والعشرين أصبحت صا الحجر عاصمة لمصر ويعرف هذا العصر باسم (العصر الصاوى) نسبة إلى ساو، وكانت المدينة من مراكز عبادة الربة الحامية نيت، التى شيدت لها معابد هناك، كما عثر فى المدينة على مجموعة من التماثيل عرض بعضها بالمتحف المصرى.

بهبيت: تقع شمال سمنود بمحافظة الغربية وذكرتها النصوص باسم «برحبيت»أى مقر الأعياد، وحرّف إلى بهبيت الحجارة فى العربية نسبة إلى وجود كم كبير من الأحجار الأثرية.

وكانت تتبع الإقليم السمنودى من أقاليم الدلتا، وتمتعت بأهمية خاصة فى العصر البطلمى.

وتحوى المنطقة أحد أهم معابد الربة إيزيس فى الدلتا، وقد شيد من الجرانيت الوردى أو الأشهب من أسوان، وعثر بين أطلاله على حطام أعمدة بتيجان حتحورية وكتل حجرية تحمل اسماء الملوك نخت ـ نبف الثانى وبطليموس الثانى والثالث، ويتميز المعبد بجمال نقوشه التى تمثل العديد من الطقوس الدينية ويظهر بها الأرباب إيزيس وأوزوريس وحورس وأنوبيس ومين، وقد اشتهرت المنطقة كمحجر وأعيد استخدام أحجار آثارها فى أماكن مختلفة من مصر السفلى.

صان الحجر:

تتبع محافظة الشرقية وتعد إحدى قرى مدينة الحسينية وقد أطلقت عليها النصوص اسم «جعنت» وورد الاسم فى التوراة «جوعن» و«جانة» فى القبطية وتانيس فى اليونانية وصان الحجر بالعربية.

وكانت عاصمة مصر فى عصر الأسرة ٢١، وتعد من أشهر العواصم الشمالية وهى من أكبر المناطق الأثرية بالدلتا.

ونظرًا لأهمية المنطقة فقد بدأ الاهتمام بإجراء الحفائر فيها منذ الحملة الفرنسية على مصر حتى الآن، وكشفت هذه الحفائر عن معابد تؤرخ بعهد الملك رمسيس الثانى، وجبانة ملكية لمقابر بعض ملوك الأسرتين ٢١ ـ ٢٢ وبعض الأمراء والقادة العسكريين، ومن الجبانة خرجت قطع رائعة من الحلى وتوابيت وأدوات الحياة اليومية وتمائم ذهبية وفضية، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المسلات واللوحات والتماثيل والآبار.

الإسكندرية :

تحتل مدينة الأسكندرية وآثارها جانبًا كبيرًا مما يتضمنه هذا الجزء، وقد أسست بأمر من الإسكندر الأكبر الذى رأى فى إحدى قرى الصيادين المصرية التى تسمى «رع ـ قدت» أو راكوتيس موقعًا استراتيجيًا، وذلك عندما سار من منف بمحاذاة الفرع الكانوبى لنهر النيل، فأمر بتحصين هذا الموقع وإنشاء مدينة على الطراز اليونانى حملت اسمه فيما بعد، وعهد بذلك إلى مهندسه دينوقراطيس، وقد اكتملت المدينة فى عهد بطليموس الثانى. ويعتمد تخطيطها على تقاطع شوارع مستقيمة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وقد بلغت مساحتها حوالى ٣٠×٨ غلوة، وضمت الأسكندرية خمسة أحياء، حمل كل منها أحد الأحرف الخمسة الأولى للأبجدية اليونانية وهى أحياء:

ألفا : الحى الملكى الذى ضم المعابد والقصور والحدائق والمكتبات والمتاحف.

بيتا : لسكن الأرستقراطيين من اليونانيين.

جاما : لليونانيين.

دلتا : للجاليات الأجنبية مثل السوريين والفرس وغيرهم.

ابسلون: مخصص للمصريين.

هذا بالإضافة إلى الجبانة أو مدينة الموتى (نيكروبوليس) التى تقع خارج أسوار المدينة من ناحية الغرب.

كما أمر الإسكندر أن تربط جزيرة فاروس بالشاطئ بجسر عرف باسم الهبتاستاديوم، وبعد إنشائه تكون ميناءان: الشرقى (بورتوس ماجنوس) والغربى (يونوستوس).

كما أنشأ الرومان مدينة جديدة عرفت باسم «نيكوبوليس» أى مدينة النصر تخليدًا لانتصار أوكتافيوس على مارك أنطونيو فى معركة أكتيوم البحرية.

وبعد وصف المدينة البطلمية والرومانية والعربية وأسوارها، يتناول الكاتب مجموعة من آثار الأسكندرية ولعل من أهمها:

الكتاكومب: وتؤرخ بالعصر الرومانى وتعد الجبانة الرئيسية لكوم الشقافة «لوفوس سميراميكوس» التى تقع فى حى كرموز غرب الأسكندرية ويرجع اسمها لما تحويه المنطقة من كم كبير من كسرات الفخار الناتجة عن تحطم الأوانى التى تناول فيها زوار المقبرة الطعام والتى أصبحت مشئومة نظرًا لارتباطها بالموتى.

وقد حملت الكتاكومب هذا الاسم نظرًا للتشابه فى التخطيط بينها وبين مقابر الكتاكومب المسيحية فى روما، والاسم يعنى المقابر التى نقرت تحت سطح الأرض، وتعد المقبرة الوحيدة فى مصر التى تنتمى لهذا الطراز. وتؤرخ هذه المقبرة بالفترة بين القرن الأول إلى الرابع الميلادى، وتتكون من ثلاثة مستويات أو طوابق نقرت فى الصخر تحت الأرض وتتميز مناظرها بالجمع بين الطابع المصرى والطابعين اليونانى والرومانى. وكانت مقبرة خاصة فى البداية ثم تحولت إلى جبانة عامة، وبالإضافة للمقبرة الرئيسية التى تتكون من بهو صغير وغرفة دفن، تحوى الجبانة أماكن للدفن تعرف باسم «اللوكولى» ودفنات وعظام للخيول.

المسرح الرومانى : من اشهر آثار منطقة كوم الدكة، وقد تم الكشف عنه عام ١٩٦٠، ويأخذ شكل حدوة الحصان، ويتضمن مجموعة من المدرجات من حجر الابستر، وربما كانت أرضيته بالكامل مغطاة بالفسيفساء كما توجد بعض الحجرات المخصصة لممثلين ولحفظ الأدوات هذا بالإضافة إلى خشبة العرض، ويعد المسرح هو المنشأة الوحيدة التى كشف عنها فى مصر تتبع هذا الطراز، ويرجح المتخصصون أن هذا المكان ما هو إلا صالة للموسيقى أو صالة

محاضرات تجرى فيها اللقاءات الثقافية والأدبية والسياسية، وذلك نظرًا لضيق وصغر حجم المكان وخشبة العرض.

معبد السرابيوم وعمود السوارى:

من أهم المناطق الأثرية بالأسكندرية ويتبع حى كرموز وقد كرس سرابيوم الأسكندرية للمعبود سرابيس بالإضافة لمقاصير لإيزيس وحربوقراط عضوى الثالوث الأخرين، وبدئ فى تشييده فى عهد الملك بطليموس الثانى كما أضاف إليه بطليموس الثالث وأضيف إليه فى العصر الرومانى بعض الإضافات لاسيما تلك التى تخص الإمبراطور هادريان، وقد أصاب المعبد تلف شديد أثناء ثورة اليهود فى عهد تراجان، وبعد اعتماد المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية أقيمت على أطلال المعبد كنيسة يوحنا المعمدان.

أما عمود السوارى أو عمود «دقلديانوس» فهو أعلى عمود فى مصر ويبلغ ٢٨م من قطعة واحدة من الجرانيت الوردى بالإضافة إلى القاعدة والتاج.

أما تسميته الأولى فقد أطلقها عليه العرب بعدما قارنوه ـ بسبب ارتفاعه الشاهق ـ بسارى السفينة، وعرف خطأ منذ الحروب الصليبية باسم عمود بومبى، حيث اعتقد البعض أن رأس القائد الرومانى بومبى قد وضعت فى جرة فوق تاج العمود.

ويقع العمود وسط فناء معبد سرابيس أو السرابيوم ويُعتقد أن الفناء كان يحوى ٤٠٠ عمود استخدمت بقاياها كمصدات لمياه البحر ولإقامة تحصينات المدينة، وقد أقام يوستوموس والى مصر الرومانى هذا الأثر للإمبراطور دقلديانوس تعبيرًا عن شكر أهل الأسكندرية له بعد إخماد ثورة المدينة وتخفيض الضرائب بعد حصار دام ثمانية أشهر.

وبالإضافة لهذه الآثار تحوى الأسكندرية عددًا آخر من الآثار الهامة المتميزة مثل الجبانات البطلمية والرومانية والحمامات والفيلات الرومانية ومعبد الرأس السوداء.

كانت هذه هى المناطق الأثرية الرئيسية التى ضمها الجزء الجزء الخامس من وصف الآثار بالإضافة إلى موضوعات عن خليج السويس ومقياس النيل وأهرامات الجيزة وأبى الهول ومقابر جبانة الأهرامات والمحاجر، وسوف يتم تناول هذه العناصر بشىء من التفصيل فى الجزء الثامن والعشرين وبانتهاء هذا الجزء تنتهى أجزاء وصف آثار العصور القديمة بموسوعة وصف مصر وتليها أجزاء دراسات العصور القديمة.

والله ولى التوفيق،

الهرم ١/٨/٢٠٠٣

منى زهير الشايب

الفصل الثامن عشر
وصف عام
لمنف والأهرامات
مصحوب
بملاحظات جغرافية وتاريخية
بقلم السيد / چومار

إن اسم منف لا يقل شهرة عن اسم طيبة، فمنف وطيبة كانتا مقرين لأقوى وأعظم الملوك وعاصمتين لأكبر إمبراطورية شيدت فى عهدها أجمل الآثار كما تطورت فيها الفنون وكان هوميروس ينشد لعظمتها مبهوراً بها.

فكانت منف مقرًا لملوك مصر عندما أتى العبرانيون إليها. أما طيبة فكانت متأخرة فى العلاقات التى بدأت تتفتح مع أوروبا وأفريقيا الشمالية وآشور وآسيا الصغرى.

ولم تكن طيبة مقرًا للفراعنة[1] فمنذ فترة طويلة كانت كل من السلطة والحكم الملكى فى منف، والتى تقع على بعد ٣ شون فقط من النقطة التى يتفرع عندها مجرى نهر النيل إلى فرعين ثم إلى خمسة فروع أخرى فتكون شبكة عريضة أطلق عليها اليونانيون اسم الدلتا حيث يتفرع النهر إلى مائة قناة مختلفة.

---

(١) هكذا اعتدنا تسمية ملوك البلاد القدامى. وهو اسم نوعى استعمله كثير من الكتاب وخاصة بوسويه للإشارة للملوك وليس مستعملاً فقط لملوك مصر القديمة على وجه الخصوص.

وكانت منف تحتل موقعًا متميزًا واستراتيجيًا للتجارة الداخلية والخارجية وإدارة البلاد وبالرغم من إنها أصبحت العاصمة بعد طيبة إلا أنها تعتبر الأقدم فى المنطقة. فطبقًا لقول هيرودوت :بناها مينا أول ملوك مصر واضطر لتغيير مجرى مياه النيل لوضع أساس المدينة فأصبح النيل يصب فى الشرق، وكان النيل يمر خلال جزء من المدينة فقط ليمتد حتى جبال السلسلة الليبية وذلك عكس طيبة التى كانت تنقسم إلى جزأين يمر النيل بينهما.

وكل من تحدث عن مصر من كتاب وشعراء ومؤرخين وجغرافيين باستثناء هوميروس أعربوا عن انبهارهم بمدينة منف وروائعها وعلى وجه الخصوص الأهرامات الشهيرة الشامخة ومن خلال قصصهم تمكنا من تقديم وصف شامل أكثر منه كاف لمصر.

غير أن بعض الاختلافات فى الآراء سببت شيئًا من الغموض؛ فمن الأفضل أخذ العوامل المشتركة بينها لوصف الأماكن المعنية وبهذه الطريقة تتضح الأمور. ونحاول جمع كل العناصر الحقيقية التى تخص تاريخ منف وفى الواقع فعلى الرغم من كل التناقضات الموجودة بين روايات الكتاب وإذا وجدنا إنهم متفقون على بعض الوقائع التى تتفاوت درجة أهميتها، وإذا لم يقم هؤلاء الكتاب باستعارة هذه الوقائع من بعضهم البعض، فلعله من الحقيقى أن تستند هذه الشهادات على أسس قوية وأن يجيزها النقد الدقيق.

القسم الأول

أهرامات الجنوب وبعض الآثار القديمة الموجودة فى ضواحى منف

المبحث الأول : أهرامات الجنوب

قبل مقارنة روايات المؤرخين وحالة الأماكن الراهنة لاكتشاف ما كانت عليه مدينة منف سأحاول أن ألقى نظرة على الأهرامات القائمة جنوب هذه المدينة والآثار القديمة الأخرى فى ضواحيها وبالاتجاه من الجنوب إلى الشمال نقابل أولاً الأهرامات اللاهون وقصر التيه بالفيوم أو مقاطعة أرسينوى القديمة ثم أهرامات ميدوم والمتانية. ولقد تم وصفها فى الفصول السابقة وأدعو القارئ للإطلاع عليها[1].

ويتبقى الإشارة إلى أهرامات دهشور وسقارة وأبى صير فالعديد منها فى حالة جيدة بالإضافة إلى أهميتها.

١ ـ أهرامات دهشور الثلاثة

إن شهرة الهرمين الرئيسيين الواقعان شمال منف تعتبر السبب الذى منع المؤرخين القدامى من ملاحظة أهرامات الجنوب ولا يشيرون إليها فى كتاباتهم على الرغم من أن العديد منها له أبعاد ضخمة، تستحق أن تلفت النظر إليها سواء لأن فضولهم قد أشُبع بمظهر الهرمين الكبيرين لخوفو وخفرع اللذين

(١) ارجع إلى وصف آثار العصور القديمة؛ الفصل ١٦ المبحث السابع والفصل ١٧، المبحث الثالث واللوحة ٧٢ من لوحات العصور القديمة، المجلد الرابع، وشرح اللوحات.

أطلقوا عليهما اسم عجائب الدنيا؛ ولتجنب القيام برحلة طويلة وصعبة بعبور الرمال الحارقة، يبدو أن الرّحالة فى كل العصور قد غضوا الطرف عن الآثار التى تنتمى لنفس النوع وتمتد بطول السلسلة الليبية من منف حتى جنوب أكانتوس(*).

وقد زارها عدد قليل من المؤرخين المعاصرين ولم يسبق لأحد من القدامى وصفها[١]، وخشى المعاصرون الذهاب إليها بسبب الطريق الطويل وإرهاق الرحلة والمخاطر الحقيقية التى يسببها الأعراب البدو. ورغم أن صمت الكُتّاب لا يسمح بالمقارنة بين حالة الأماكن القديمة وحالتها الراهنة. فسوف أقدم للقارئ وصفًا كاملاً للمعالم الأثرية كما وصفها الفرنسيون[٢]. تعتبر دهشور قرية قليلة الأهمية تقع فى زمام أكانتوس. وأول هرم نراه يسمى هرم منية دهشور[٣] ومنه ندرك أن كلمة «هرم» تعنى الأهرامات عند الأعراب، ويقع على بعد ألفى خطوة فى الشمال الغربى عند سفح سلسلة الجبال الليبية وهو مبنى من الطوب النيىء وفى حالة سيئة والطوب من طمى النيل مختلط بالقش ويتراوح طول الطوبة بين ٣٥،٣٢سم[٤] . وعرضها ما بين ١٦- ١٩سم[٥] . أما عن سمكها[٦] فيتراوح بين ١١-١٤سم. وعن قاعدة الهرم حالياً فهى عبارة عن مستطيل طوله مائة خطوة وعرضه ٧٥ خطوة أما ارتفاعه فهو حوالى ٤٢ متراً[٧].

(*) موقع بالقرب من منف (المراجع).

(١) يبدو أن «ديكيل» قد رآها ووصفها فى فقرة فى كتابه «قياس مدار الأرض» وذلك وفقًا لافتراض "لوترون" فى أبحاثه التاريخية والجغرافية عن هذا الكتاب صفحة ٨٧ .

(٢) لقد ساعدتنى الملاحظات والمعلومات القيمة للسيد جراتيان لوبير عن الأهرامات الجنوبية وكذلك ملاحظاتى وخريطة مدينة بنى سويف وزيارتى لمدينة منف وزيارة مقابر سقارة إلى جانب معلومات زملائى أثناء الرحلة.

(٣) فى الجنوب الشرقى من هرم صغير مبنى من الطوب يقع جنوبى سقارة راجع لوحات العصور القديمة، المجلد الخامس.

(٤) اثنان أو ثلاث عشرة بوصة.

(٥) ست أو سبع بوصات .

(٦) أربع إلى خمس بوصات.

(٧) ١٣٠ قدماً.

وينقسم هذا الارتفاع إلى خمسة أجزاء ينقص عرضها تصاعديًا بحوالى $\frac{1}{2}$ ٣ أمتار[١]. وغالبًا ما يوجد هذا التدرج فى أهرامات الجنوب كما يوجد مثله فى أهرامات الجيزة[٢].

وفى الواقع أن المادة التى استخدمت فى هذا البناء ضعيفة جدًا ولا تقاوم مرور الزمن. وحسب وصف هيرودوت يوجد هناك فرق كبير بين أحجار بناء هذه الأهرامات والأحجار المحفوظة حفظًا جيدًا[٣]. وينسب إلى الملك اسخيس بناء جبال الطوب هذه، ولقد تكلمت عن هذا النوع من أحجار الأهرامات[٤]. وأظن أنها هى التى أشار إليها هيرودوت والتى تخص الهرم القريب من قصر التيه.

ونتساءل هل تعتبر هذه الأحجار هى نفس الأحجار المستخدمة فى بناء الأهرامات أو تلك التى يتكون منها السور المحيط بالمدينة وهو الذى أُجبر العبرانيون على بنائه وفقًا لما ورد فى الفصل الخامس من سفر الخروج ؟ يمكن الإجابة على هذا السؤال غير الهام بمعرفة أن هناك مثل هذه الأحجار الكبيرة أخرى صغيرة تم استخدامها فى تشييد المبانى والأرصفة، ويقع الهرم الثانى شمال غربى سلسلة الجبال الليبية على بعد ألف وخمسمائة متراً وارتفاعه ثلاثة وثلاثون مترًا[٥]. وكان الهرم مهدمًا لدرجة تسمح بركوب الخيل والمرور من فوقه. أما الهرم الثالث ويطلق عليه اسم هرم «دهشور» نسبة لاسم القرية الواقعة على بعد ألفين وخمسمائة مترًا من ناحية الغرب من الصحراء. فنجد أن قاعدة الهرم من الناحية الشرقية تقدر بـ ٢٣٥ خطوة[٦]. أما من الناحية الشمالية فتقدر بـ ٢٣٠ خطوة أى حوالى ١٧٤ مترًا[٧] على ١٧٨ مترًا[٨] ويعتبر هرم دهشور الهرم

---

(١) ١٠ أقدام. (٢) انظر اللوحة ١٦ شكلى ١٣ و١٤.

(٣) التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ١٣٦.

(٤) راجع وصف العصور القديمة، الفصل ١٧، المجلد الرابع.

(٥) ١٠ أقدام. (٦) ٥٤٨ قدمًا.

(٧) ٥٣٧ قدمًا.

(٨) وفقًا لريتشارد بوكوك تقدر القاعدة بحوالى ٦٠٥ قدمًا على الواجهة الشمالية و٦٠٠ قدمَ على الواجهة الشرقية ويقدر ارتفاعه من ناحية الشرق بحوالى ٣٣٥ قدمًا (بالقدم الفرنسى ٥٦٧-٥٦٢,٥-٣١٤).

الرئيسى حيث تتميز واجهاته وقمته المدببة بالأحجار السليمة الملساء. والشكل العام للهرم يحوى أضلاعًا مائلة. والجزء السفلى من الهرم مبنى على زاوية أكثر انفراجًا أما الجزء العلوى فهو أضيق مما تسبب فى أن يأخذ الجزء العلوى شكلاً مكسورًا(١) ومداميك الهرم ليست أفقية ولكنها عمودية بالنسبة لميل أضلاع الهرم. وترتفع فتحة الهرم عن القاعدة بحوالى ٦ ٢/٣ أمتار(٢) والفتحة عمودية على رأس الهرم وموجودة عند المدماك الثانى عشر على الواجهة الشمالية كأهرامات الجيزة الثلاثة.

وإذا تسلقنا الناحية الشمالية للهرم، فسوف نصل إلى قمته بمشقة بالغة بسبب شدة الانحدار ونعومة الأحجار التى تسبب الانزلاق، . وسأحاول أن أصف لكم مقاييس فتحة الهرم وتشبه فتحة الهرم الأكبر بالجيزة. يقدر ميلها بحوالى ٢٠ درجة تقريبًا وعمق ممرها كبير يصل إلى أسفل الهرم. ويمكن أن نصل الآن حتى عمق ٢٠٠ قدم ولكن تمنعنا الأنقاض من الاستمرار.

وقد تمكن اثنان من الرحالة فى القرن التاسع عشر من الوصول لآخر الممر فوجدا قاعة واحدة منتظمة مثل القاعات الموجودة بالأهرامات(٣) الأخرى. وتوجد عدة أحجار داخل الممر غير ملتصقة بعضها وبعض بدرجة تسمح بدخول اليد بينها(٤). وتتجه واجهات الهرم نحو الجهات الأربع. واكتشفنا بالقرب من الواجهة الشرقية طريقًا مبنيًا بالأحجار الضخمة على منعطف جبل. وهذا الطريق يؤدى إلى قرية منية دهشور، وكان يستعمل لنقل مواد البناء والأحجار للأهرامات.

---

(١) راجع وصف العصور القديمة، الفصل الحادى عشر، المجلد الرابع.

(٢) ٢٠ قدمًا.

(٣) يعتبر مالتون الإنجليزى هو الأول وقد سافر سنة ١٦٦٠. أما الثانى فهو رسام هولندى يسمى لوبران وسافر سنة ١٩٨٠.

(٤) السيد جراتيان لوبير هو الذى توغل داخل الهرم فى ٥ يناير ١٨٠١ مع الجنرال بودو الذى يعتقد أن سبب وجود هذه المسافات بين أحجار راجع لضخامة كتلتها، أما جراتيان لوبير وجيوفرى وريجينات ولاوى ودوترتر فهم أول أعضاء اللجنة الذين شاهدوا أهرامات دهشور وأهرامات الجنوب فى سقارة وكان بصحبة هؤلاء الجنرالات رينى ولاتوس ودلماس وبودو وموران، والملاحظات التى أفادتنا يرجع الفضل فيها للباحثين الأوائل.

٢ـ أهرامات سقارة التسعة

وإذا ما واصلنا توغلنا من الجنوب إلى الشمال سوف نجد أهرامات سقارة التى تقع على بعد ألفى متر شمالى هرم دهشور وعلى بعد ستة آلاف متر جنوب غربى قرية سقارة.

ويطلق على هذا الهرم اسم الهرم الكبير ومقاييسه تقترب من مقاييس أهرامات الجيزة. وتقدر قاعدة الهرم بحوالى ٢٠٠ متر [1]. وارتفاعه يتكون من ١٥٢ مدماكًا ويقدر المدماك بحوالى ٠,٦٨ متر [2]. أى أن الارتفاع يقدر بحوالى ١٠٣,٣٦ مترًا[3]. وواجهات الهرم الأربعة مدرجة وأغلب أجزائها سليمة وهى ميزة غير موجودة بالهرم الأكبر الواقع غربى الجيزة.

وتوجد فتحة الهرم فى الواجهة الشمالية وترتفع الفتحة عن نهاية احد المداميك قليلاً وتوجد على ارتفاع يقدر بالجزء الثانى عشر من الارتفاع الاجمالى لهرم الجيزة و $\frac{٢}{٩}$ من الارتفاع الإجمالى لهرم سقارة. ونجد أن ممر هرم الجيزة مائل لأعلى بينما نجد ممر هرم سقارة فى وضع أفقى، ويبلغ عرضه ١,٦ متر[4] وارتفاعه ١,١٤ أمتار[5] و هو موازى للقاعدة السفلية[6]. ونجد فى نهاية الممر الأفقى قاعة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٦,٨٢ أمتار[7]، أما عرضها فيبلغ ٣,٤١ أمتار[8]، ويقدر ارتفاعها بحوالى ١٢,٩٩ مترًا[9] وتتكون القاعة من أربعة مداميك ويقدر ارتفاع المدماك بحوالى ٣,٢٥ أمتار[10] وفى الجزء العلوى يرتفع اثنا عشر مدماكًا بارزًا، ويقدر ارتفاع المدماك

---

(١) ٦١٨ قدمًا، وقد حدد جراتيان لوبير قاعدة الواجهة الشرقية بـ٦٢٠ قدمًا أما قاعدة الواجهة الشمالية فتقدر بـ٢٧٠ قدمًا عكس بوكوك الذى أعطى ٦٦٢ خطوة إنجليزية لقاعدة الواجهة الشمالية و٦٩٠ خطوة للقاعدة الشرقية أى ٦٢٠,٥ و٦٤٧ خطوة فرنسية بمتوسط ٦٣٤ خطوة فرنسية.

(٢) ٢٥ بوصة.

(٣) ٣١٦ قدمًا و٨ بوصات وحسب بوكوك يقدر الارتفاع بحوالى ٣٤٥ قدمًا إنجليزية أى حوالى ٣٢٢ قدمًا فرنسية.

(٤) ٣٩ بوصة. (٥) ٤٢ بوصة. (٦) لم يتمكن السيد جراتيان لوبير من أخذ المقاييس بدقة.

(٧) ٢١ قدمًا (٨) ١٠ اقدام و٦ بوصات. (٩) ٤٠ قدمًا. (١٠) ١٠ اقدام.

بحوالى ١,٠٨ متر[١] ونجد أن هذه المداميك مرتبة على شكل خرجات مثل هرم الجيزة مما يجعل عرض سقف وأرض الممر متساويين، والقاعة مبنية من حجر الجرانيت الضخم بإتقان شديد حتى أنه لا يمكنك وضع شفرة سكين بين حجرين. ونجد بآخر القاعة وعلى الزاوية اليمنى ممرًا آخر عريضًا ومرتفعًا مثل الممر السابق ويقدر ارتفاعه بحوالى ٣,٢٤ أمتار وعرضه حوالى ٣,٥٦ أمتار[٢]. ويؤدى بك الممر إلى قاعة ثانية مستطيلة الشكل يقدر طولها من الشمال إلى الجنوب بحوالى ٧,٤٧ أمتار[٣]، ومن الاتجاه الآخر يقدر عرضها بحوالى ٣,٢٥ أمتار[٤]. وهى مبنية من نفس نوعية حجر القاعة الأولى. وقد وجدنا فى جنوب القاعة وعلى بعد ثمانية عشر أوعشرين قدمًا كتلة من الأنقاض متراكمة كمة بعضها فوق بعض.

ويقودنا الممر الثالث إلى القاعة الثالثة، والممر وفقًا لوصف ثقينوت أفقى طوله٤,٢٢ أمتار[٥]. وارتفاعه ١,٩٥ أمتار[٦]. أما عن وصف القاعة فأبعادها من الشمال إلى الجنوب ٧,٩٦ أمتار[٧] ومن الشرق إلى الغرب ٨,٦٦ أمتار[٨] وارتفاعها ١٧,٥٤ مترًا. والجدران بارزة فى المنطقة العليا[٩]. ويوجد فى وسط أرض القاعة حفرة مستطيلة الشكل وغير متساوية فى العمق ويوجد بداخلها تابوت وتبدو هذه المعلومات ناقصة لوصف هذا الهرم المهم ولكن مجموعة الآثار الباقية والمتشابهة من حيث البناء سوف تمدنا بالمعلومات اللازمة.أما عن الأهرامات الأقل أهمية فتقع فى الغرب والجنوب الغربى لسقارة وكذلك باتجاه الشمال الغربى لنفس القرية. وعدد هذه الأهرامات أربعة وهى صغيرة الحجم باستثناء هرم واحد.

---

(١) ٤ بوصات. (٢) من ٩-١٠ أقدام. (٣) ٢٣ قدمًا.
(٤) ١١ قدمًا، وهذه المقاييس غير دقيقة أيضًا.
(٥) ثلاثة عشر قدمًا. (٦) ستة أقدام.
(٧) أربعة وعشرون قدمًا وست بوصات.
(٨) ستة وعشرون قدمًا وثمانى بوصات.
(٩) أربعة وخمسون قدمًا.

الهرم الأول : عند الاتجاه من الجنوب إلى الشمال وهو شديد التهدم.

الهرم الثانى : ينقسم إلى خمسة أجزاء أو درجات كبيرة.

الهرم الثالث : مبنى من الطوب النيىء الضخم.

الهرم الرابع : مبنى من الأحجار وهو متهدم ويشغل تلين مغطيين بالمواد.

ونجد أن الهرم الثانى هوالوحيد الذى يلفت الأنظار إليه وقد أطلق عليه الأعراب اسم مصطبة فرعون مدعين - بسخف - أن الملوك القدماء كانوا يقرون العدل من فوق هذا الأثر.

ويبلغ ارتفاع الدرجات التى يتكون منها الهرم حوالى ١٢,٩٩ مترًا[١]. وعند قياس قاعدة الهرم من الشمال إلى الشرق وجدت حوالى ١٦٠ خطوة[٢] أى حوالى ١٢١ مترًا. ولم يبق للوصف سوى أجزاء من الكساء ولكنها متهدمة إلى لحد كبير. أما عن توزيع وموقع الأهرامات الأربعة فهو شمال إلى شمال غربى سقارة وفى الجنوب نجد أول وأصغر هرم يليه الهرم الثالث. أما عن الهرم الثانى وهو الأهم فيتكون من ٦ درجات وقد أطلق عليه الأعراب (الهرم المدرج) بمعنى أنه هرم له مدرجات[٣] وتوجد حوله عدة مقابر.

وعند قياس قاعدة الهرم وجدت أنها ٩٠,٩٧ مترًا[٤] من الشمال إلى الجنوب و ٨١,٢١ مترًا[٥] من الشرق إلى الغرب. أما عن قياس المدرجات فكل درجة عمودياً حوالى ٨,١٢ مترًا[٦] وأفقياً من ٣,٢ إلى ٣,٩ أمتار. ويقدر الارتفاع الإجمالى للهرم بـ٤٨,٧٣ مترًا[٧] باستثناء المنحدرات. ولتغطية الجدران استعمل الحجر الجيرى الكلسى الأبيض الصلب.

ولقد لاحظنا وجود شرخ كبير من الناحية الجنوبية ويبدو أنه قد تم توسيعه بيد الإنسان. ومكننا هذا الشرخ من معرفة مكونات البناء الداخلى وهومن الحصى. أما عن الأرض المحيطة بالهرم فكانت معبدة بحيث كونت مربعًا بعرض مترين حول القاعدة.

---

(١) ٤٠ قدمًا. (٢) حوالى ٣٦٠ قدمًا. (٣) درجة - المدرجة. (٤) ٢٨٠ قدمًا.

(٥) ٢٥٠ قدمًا. (٦) ١٠ - ١٢ قدمًا. (٧) ١٥٠ قدمًا.

٣ - الأهرامات السبعة شمالى أبى صير

عند الاتجاه غربى قرية أبى صير وبالتحديد نحو جنوب شرقى أكبر أهرامات الجيزة وعلى بعد حوالى أحد عشر ألف مترًا نجد آثار ثلاثة أهرامات متهدمة تجاور بعضهم بعضًا عند سطح السلسلة الجبلية وفتحة وادى صغير والأهرامات مبنية من أحجار، ولم يمنعنا تهدمها من معرفة أنها كانت مكسوة بكساء خارجى، والأهرامات موجهة نحو الشرق ولها نفس المقاييس وهى تقل فى طول أضلاعها عن هرم الجيزة الثالث. ويتوسط الواجهة الشرقية للأهرامات طريق مرتفع وممهد ويتكون من أحجار ضخمة طولها حوالى ٦- ٧ أمتار وأعتقد أن هذه الطريق استعمل لنقل مواد البناء التى استخدمت فى بناء الأهرامات وهو نفس الشىء المتبع فى أهرامات الجيزة. ولقد تكلم هيرودوت[١] عن فن بناء هذا الطريق كما يوجد عدد كبير من الأحجار الضخمة مبعثرة من الحجر الرملى والجرانيت والحجر الأسود مقطوعة ومصقولة ومغطاة بنقوش لحيوانات وأحرف هيروغليفية ولا شك أن هذه الأحجار الصلبة استخدمت فى كساء الأهرامات.

وقد منعت الآثار المجاورة للأهرامات وبعض الثورات السياسية والدينية وصول بعض المواد الجيدة إليها. وإذا تتبعنا طريق السلسلة الجبلية الليبية من هذه الأهرامات فبعد ثلاث ساعات نصل إلى أهرامات الجيزة. وهناك وعلى بعد ألف وخمسمائة مترًا صعودًا تظن أنك على آثار هرم. ثم على بعد ثلاثمائة متر أخرى فى اتجاه الغرب من قرية شبرامنت نلاحظ فى اتجاه الشمال ثلاثة تلال مخروطية الشكل كما توجد آثار لمبانى قديمة تبدو وكأنها لثلاثة أهرامات صغيرة ولكنها مهدمة اليوم تماماً.

وعلى مقربة من هذا المكان اكتشفنا مقبرة عربية وآثارًا لمدينة قديمة مبنية بالطوب ومتجهة عرضًا نحو الوادى.

---

(١) التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ١٢٩.

وهكذا اكتشفنا آثار الأهرامات المبنية من الجيزة إلى دهشور. وذلك على امتداد ثلاثة عشر ألف مترًا، وعدد هذه الأهرامات تسعة عشر هرمًا وثلاثة منها مبنية بالطوب وأخرى من الحجر. ويوجد هرمان يشبهان الهرم الثانى بالجيزة. أما باقى الأهرامات فكلها مهدمة.

وكل هذه المبانى القديمة جديرة بالاهتمام وسأحاول أن أقارن هذه الأهرامات بأهرامات الجيزة وكذلك دراسة ارتفاعها عن الهضبة والأرض الكلسية الممتدة حولها والمغطاة بالحصى أوالرمال المنقولة بالرياح.

المبحث الثانى: بقايا المدن والآثار الأخرى المجاورة دهشور وسقارة

فى الفصل السادس عشر من وصف آثار العصور القديمة تناولت الأماكن القديمة الواقعة جنوبى منف، فعلى الضفة اليسرى نجد مدن نيلوبوليس - هيراكليوبوليس ماجنا - سيون - اسيو - بيم - اكانتوس ومناطق أخرى تحتوى على آثار قديمة وهذا السرد يذكر بعض الآثار للإقليم باستثناء منف والأهرامات.

وتقع مدينة دهشور فى الجهة الجنوبية، وهنا كانت تقع مدينة أكانتوس واسمها مشتق من نبات الأقنثة الكبير أو السنط ذى الأشواك. ومدينة دهشور تقع على المسافة بين منف وأكانتوس حيث توجد أطلال وآثار قديمة باستثناء الأهرامات الثلاثة التى وصفتها سابقا[١] ويعتبر نبات الأقنثة الذى يحيط بالمنطقة يعتبر نباتًا مقدسًا عند قدماء المصريين، وكان يستعمل لحماية مدينة منف من الرياح وزحف رمال الجنوب، وهنا تكمن أهمية العناية بها والحفاظ عليها[٢]. أما عن الأشياء القديمة الموجودة فى سقارة - ولها صلة بمنف كالمنازل - فقد كانت مملوءة بأحجار الجرانيت والبازلت الأسود وكلها منقوشة بالكتابة الهيروغليفية.

---

(١) انظر المبحث الثامن من الفصل السادس عشر من وصف آثار العصور القديمة.

(٢) راجع وصف آثار العصور القديمة، الفصل الحادى عشر، المجلد الرابع، عن نبات الأقنثة، وكذا الفصل السادس عشر.

وإذا اتجهنا إلى الشمال الغربى وصعدنا فوق السهل لوجدنا سهل المومياوات وعندما نتجه غرباً نجد تلين ومن حولهما أهرامات صغيرة وقطع من الرخام والأحجار الكلسية وقطع من الرخام السماقى مختلفة الألوان، إلى جانب قطع من الفخار والأوانى الفخارية والعديد من القطع الخشبية أو الفخارية المزججة.

أما عن السهل الرملى الذى يمتد شمالاً وغربًا فقد خصص ليكون مكان مقابر سكان منف[١]. وحسب رواية رحالة قديم فقد تم الحفر بعمق أمتار عديدة من الأرض على شكل سراديب وقبور نصل إليها عن طريق فتحة من سطح الأرض. ولقد كانت الرمال تسد هذه الفتحات لعمق كبير. ولأنها كانت مغلقة بالرمال فكنا ندخل المقابر عبر الأروقة الأفقية المفتوحة عند سفح الجبل.

ولقد كان ضيق فتحات الآبار المؤدية للمقابر لا يسمح بنزول التوابيت مما كان لا يتناسب مع مراسم الدفن المهيبة عند قدماء المصريين.

وفى الغرب وعلى بعد ثلاثمائة متر من هرم الدرجات الست (الهرم المدرج) يوجد بئر واسع عمقه لا يقل عن ١٥ ـ ١٦ مترًا وفتحتها تنحصر بين ٧-٨ أمتار وهنالك فتحات أقل عرضًا، وكذلك توجد آبار أقل عمقاً حيث لا يتجاوز عمقها من ٤-٥ أمتار.

وزيارة آبار المومياوات تكون ليلاً على ضوء المشاعل وذلك لتجنب مشقة الطريق الشاق فى الرمال الساخنة صباحًا ونجد أن كثيرًا من الرحالة يفضلون الزيارات الصباحية المرهقة حتى يساعدهم فقراء الأعراب من سكان المنطقة الذين يعتبرون هذا العمل تجارة، وفى الحقيقة، فإن هؤلاء الأعراب دائماً ما يسخرون من الأوروبيين حيث يدفنون المومياوات فى الأعماق ثم يريدون بيعها على أساس أنهم اكتشفوا بئرًا جديدًا. ولتجنب الغش نستأجر عددًا محددًا من العمال ونجعلهم يحفرون أمامنا حتى نكتشف مقبرة سليمة وهذا نادر جدًا.

---

(١) أثناء فصل الشتاء فى الفترة التى زرت فيها هذه الصحراء وجدت على الرمال عدة أنواع من النباتات مثل نبات الخبيزة وفصيلة القرفية.....

ومن اليسير اكتشاف ما إذا كان الأعراب قد ردموا هذه الآبار أو نهبوا المقابر.

وهناك احتمال أن تكون فتحات الآبار قد تم استخدامها للتهوية وتسهيل عملية التنفس فى الأروقة والسراديب العديدة المتداخلة فى عمق الأرض أسفل الجبل والتى تم حفرها بنفس الطريقة التى استخدمت فى طيبة. كان يمكن رؤية لفافات من الزعف حول الفتحات قام الأعراب بوضعها لإخفاء الفتحات عن الفضوليين.

والمومياوات الموجودة فى آبار سقارة لم تكن محفوظة جيدًا على عكس مومياوات طيبة ولا نستطيع أن نذكر هنا مومياء واحدة عثر عليها فى مقابر منف ونقارنها بالمومياوات التى تنتمى للدرجة الأولى من بين مومياوات مقابر طيبة. فقد كان يتم تحنيطها بمواد ممتازة وليس بمواد رديئة كالمستخدمة فى مومياوات سقارة، وكان الكثير منها مجهزًا بالنطرون، وكان القماش خشنًا. وكانت عملية ربط اللفائف غير متقنة. وكذلك هناك فرق كبير فى اللفائف والتوابيت والرسومات والطلاء. كما يمكن أن نجد تماثيل وتمائم من الخشب والفايانس ولكننا لم نعثر على أية بردية فى هذه المقابر.

وكل هذا لا يعنى أنه لا توجد أى مومياء محنطة جيدًا إلا فى طيبة ولكن يبدو أن مومياوات طيبة تم إخفاؤها بعناية كبيرة، وربما لم يستطع الأعراب اكتشافها لأنها خبئت بعناية أكثر من مومياوات منف وسقارة. ومما يثير الدهشة أن منف التى تلت طيبة كعاصمة تجهل فن التحنيط فهو فن مكلف، وربما تكون المومياوات المجهزة جيدًا أى تلك التى استغرق تحنيطها ألف يوم من العمل توجد - نادرًا - فى المقابر الأحدث عهدًا فى أعلى الجبل أو بالقرب من سطح الأرض.

ولقد وصف الرحالة المومياوات والمقابر التى اكتشفت فى سقارة. وعلمنا أنهم اشتروا الكثير منها من اليهود أو من أعراب المنطقة كما اشتروا بعض التماثيل الأثرية، وكل هذه الأماكن الأثرية كانت معروفة لأوروبا على عكس منطقة طيبة التى عرفت بعد الحملة الفرنسية على مصر.

وهذا السبب يجعلنا نتطرق إلى كل التفاصيل فى وصف مدينة منف فى أوج مجدها. وسنتجنب مقابر منف ونحاول الاطلاع على ما اكتشفه هؤلاء الرحالة أثناء سفرهم وهم (فال بيتروديللا - دوق شولن و تيفينوت و لوبرين و بوكوك ودوفرمون ...) وننبه القارئ إلى سذاجة الكثير من هؤلاء الرحالة الذين كانوا ضحية غش وخداع الأعراب ونكتفى فقط بهذا العدد القليل من الملاحظات.

وتتصل أغلبية السراديب داخل المقابر بالقاعات وهى ضيقة خاصة بعد تراكم الرمال فيها مما يمنع المرور بداخلها.

وبعد مشقة التوغل وصلنا للأروقة ثم الغرف حيث وجدناها خالية تقريبًا إلا من بقايا مومياوات وعظام وقطع من توابيت مبعثرة على الأرض.

ولاحظت أن لون جلد المومياوات يميل إلى الإصفرار أكثر من اللون الأسود عكس المومياوات التى وجدت بطيبة. وقدحفرت هذه السراديب على أرض غير كلسية وجافة ولكنها موحدة ومتجانسة وتشبه أراضى طيبة تمامًا. وأسفل طبقة الرمال تتكون الأرض من أحجار سجيلية متداخلة مع طبقات من الملح البحرى أو موريات الصودا بالتناوب مع الجمعر، ونجد كذلك عروقًا من الجبس المتبلر.

ونستنتج من وجود طبقات الملح أن مصر غنية بالملح البحرى لدرجة أن النباتات تجدها مبيضة اللون أثناء الصباح. وقد اكتشفنا تحت رءوس المومياوات فى بعض المقابر - ومع عدد كبير من القطع الأثرية - قطع أقمشة قديمة يتفاوت إتقانها ولكنها ذات تنفيذ جيد، ويبدو أن المصريين القدماء كانوا يضعون مع المتوفى قطعة ملابس وكل أدوات العبادة التى استعملها أثناء حياته.

ولم نهتم سابقًا بحالة المومياوات داخل التوابيت ودون شك؛ فإن هذه الدراسات كانت ستفيدنا كثيرًا لمعرفة العادات والتقاليد عند المصريين القدماء.

وقبل أن نتفحص قطع الأقمشة القديمة الموجودة بداخل المقابر سأقدم لكم جنرال فرنسى هو: «رينيه» الذى أهداها إلى معهد فرنسا واحتفظ ببعض هذه

الأقمشة الجميلة فى مكتبة المجمع العلمى[١]. وتستحق هذه الأقمشة الكثير من الاهتمام لجمال شكلها وتطريزها[٢]. وسأحاول أن أعطى لكم تقريرًا كاملاً عن رحلة الجنرال رينيه؛ حيث إنه لم يقم بعملية بحث بالمقابر لضيق الوقت، ولكنه طلب من أهل المنطقة أن يأتوه بما اكتشفوا من أشياء فى المقابر مما دفع السكان إلى أن يعرضوا عليه أشياء قيمة بغرض الكسب السريع. ومن هذه الأشياء مومياء لرجل فى تابوت منحوت من خشب الجميز الملون وأدوات وأوانى فخارية وتماثيل فخارية ورداءين أحدهما كامل والآخر ممزق. وطبقًا لقول أهل المنطقة فإنهم اكتشفوا هذه الأشياء فى قبو بعد تفريغه من الرمال.

وكان الرداء الذى قدمه ذا أكمام قصيرة ومفتوحًا مثل أرديتنا ومربع الشكل وبلغ طوله وعرضه ٩٥ سنتيمترًا، و كان ممزقًا من أحد الجوانب ومفتوحا من أعلى إلى أسفل كالقمصان الحديثة. وكذلك وجدنا قطعة قماش من القميص تم تقصيرها عن طريق ثنية عرضها ١٠ سنتيمترات مما تسبب فى تقصير الطول إلى ٧٥ سنتيمترًا. وهذه القطعة هى الجزء الناقص من الرداء.أما عن فتحة الرأس فكانت حوالى٣٠ سنتيمترًا. ويمكن تضييقها أو توسيعها عن طريق رباط. وكان القماش مصنوعًا على النول ولونه أصفر مطرزًا بألوان داكنة. ويعتقد الكيميائيون أن الأنسجة الداكنة اللون تم استخلاصها من مادة حيوانية. أما الأنسجة ذات اللون الفاتح مثل اللون الأصفر فهى مادة نباتية ولم يذكر إذا كانت المادة الحيوانية منتمية لحيوانات كالنعاج أوالماعز أوالجمال.كذلك بالنسبة للمادة النباتية إذا كانت من القنب الهندى أوالكتان أو القطن[٣]. وسوف نحاول مقارنة هذه المواد حتى تكون الأمور أكثر وضوحًا. ومن اكتشافاتنا أيضاً وجود أقمشة عديدة مصنعة من النباتات ومن القطن الرفيع والناعم وأقمشة أخرى ذات أنسجة متينة مصنوعة من القنب الهندى أو من نبات الكتان وهى أقمشة نادرة وتعرف بمكانتها الرفيعة.

---

(١) وهى موضوعة ومحاطة بقطعتى زجاج على شكل حيوانات خرافية.

(٢) انظر اللوحة ٥، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

(٣) إن التفاصيل التى قدمناها مأخوذة من التقرير الخاص بالمعهد الوطنى بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٨٠٢ وأشرف عليه السيد/ مونجيه باسم اللجنة المكونة من أعضاء الدرجات الثلاثة.

وكان من الصعب التعرف على نوعية الأنسجة الصوفية ومعرفة إذا كانت تنتمى إلى شعر ماعز أو جمال أونعاج أوحيوانات أخرى. كما عثرنا فى طيبة على قطعة قماش من أنسجة حيوانية تشبه شعر الماعز (كشمير) ؛ وهذا النوع من الأقمشة كان يصنع فى الشرق فى العصر القديم.

أما عن الزخرفة الجميلة والتطريز بالغرز[١] الصغيرة على أكمام وأكتاف الرداء فتدل على الإتقان فى المشغولات اليدوية.

كما وجدنا عشرة أجزاء مستطيلة الشكل ومطرزة على الرداء؛ وتوجد على الجزء الأمامى والخلفى والكتفين والرقبة. كما وجدنا قطعتين مطرزتين ومخاطتين بشريط ـ يشبه الحمالات ـ طوله ٠,٢٧ متر وعرضه ٠,٠٣ متر. أما عن القطعة الموجودة على الأكمام فقد كان عرضها ٠,٠٤٥ متر. وهناك قطع أخرى مربعة الشكل ومطرزة أسفل الرداء وعلى كتفيه، وكانت أطولها ٠,٠٩ على ٠,١ متر. وهذه الزخرفة والتطريز كانت عبارة عن رسومات نباتية وحيوانية وأشكال هندسية خيالية، ولم نعثر على أية كتابة هيروغليفية ولا زخارف مصرية قديمة،ولا نستطيع القول أيضًا :إن هذه الأشياء الموجودة بداخل المقابر تنتمى إلى الحضارة اليونانية أوالرومانية برغم من أننا وجدنا بداخل مقابر الملوك زخارف تسمى زخارف متعرجة ويونانية واترورية، وقد استعارها الإغريق فيما بعد واستخدموها فى الزخرفة.

فى الوقت الذى اتبع فيه الفنان المصرى أسلوبًا خاصًا به فى الإبداع والذوق؛ فكان يرسم بحرية وابتكار خيالى متناسق، ولم يكن مقيدًا بشعارات رمزية أودينية، فمجموعة الصور والرسومات وقطع القماش المطرزة التى اكتشفناها فى مقابر الفراعنة تدل على ذلك. ولهذا السبب أعتقد أن الحمالات التى تأخذ شكل الشريط الجميل وتظهر كثيرًا فى أشكال الرجال والنساء تنتمى للديانة المصرية. وأشير أيضاً لوجود حياكة جميلة تم استخدامها لتغطية قطعين فى الرداء وأسفل الأكمام وتوجد هذه الحياكة أيضًا على الحمالات.كما اكتشفنا أن

---

(١) انظر وصف مقابر مدينة طيبة، المجلد الثالث.

بالرداء ثقبًا مرقعًا. ويرتدى الفلاح المصرى فى وقتنا الحالى[١] جلاليب من صوف أسود اللون عليها قطع مربعة مطرزة تشبه القطع التى استعملها الفراعنة على ملابسهم.

وقد عثر الجنرال رينيه على القطعة الثانية من القماش وكان لونها أصفر داكن وهى من أنسجة نباتية وطولها وعرضها متساويان ٠,٤٠ متر وبها تطريز عرضه ٠,٢ متر.

والمعلومات التى قدمتها سوف تفتح لنا مجالا للمقارنة بين رداء سقارة والأردية التى رسمها الرسامون والنقاشون المصريون على جدران المعابد والمقابر.

ويسهل على المرء التعرف على حقيقة الأشياء وكيفية استعمالها عند الفراعنة وذلك من خلال الرسومات.

وإذا تأملنا فى الأقمشة المطرزة والحلى التى كان يرتديها الفراعنة نجد أنها مختلفة الأشكال والألوان فمنها الأقمشة المخططة والموصولة والمرقطة وذات الثنيات وكذلك الشفافة كما نجد نوعًا من الأقمشة له ألوان عدة.

واختلاف أنواع الأقمشة يدل على قدرة الإبداع عند قدماء المصريين. وهذا العمل يستحق بحثًا من نوع خاص.

وقد اكتشفنا أيضاً فى مقابر طيبة أردية مربعة الشكل وبدون أكمام طولها يساوى عرضها[٢] وهى خاصة بعازفى آلة القيثارة، وتختلف عن الأردية التى وجدناها فى سقارة ولكن تشبه أردية السكان الحاليين.

وتختلف أشكال هذه الأردية عن نظيرتها فى سقارة فهى مخيطة من الجوانب ومفتوحة من أسفل وذلك على عكس أردية عازفى القيثارة ذات الجوانب المفتوحة

---

(١) اكتشفنا فى طيبة أثناء الحملة الفرنسية نوعًا من الحمالات مصنوعًا من جلد الماعز الأحمر وعليه كتابة هيروغليفية تدل على جودة الفنون فى العصر القديم.

(٢) انظر اللوحة ٨٩، لوحات العصور القديمة، المجلد الثانى، واللوحة LL المجلد الثانى من لوحات الدولة الحديثة.

والمغلقة من أسفل مع وجود فتحتين للسماح بمرور السيقان، كما أن هذه الأردية ليست لها أكمام. إلا أنها ذات شكل مربع ومتساوية فى الطول والعرض[١].

ويبقى لى الحديث عن القطع القديمة واللافتة للنظر التى اكتشفناها فى المقابر حول هرم الدرجات الست (الهرم المدرج) والمناطق القريبة من سقارة. ولقد جمعنا كل هذه القطع وكونا ثلاثين لوحة موجودة فى آخر المجلد الخامس من هذا المؤلف. كما حاولنا تنظيم وتصنيف هذه القطع القديمة بتقسيمها إلى نقوش و تماثيل وأشكال الإنسان أوالحيوان أو مومياوات بشر وحيوانات وأشكال للجعارين وتمائم ومصابيح وأوانى.

١ ـ نقوش بارزة وتماثيل وقطع أثرية

لقد نقلنا كل القطع القديمة والتماثيل المنحوتة التى وجدناها فى مقابر سقارة إلى منف وذلك لدراسة فن النحت ولأخذ فكرة شاملة عن أسلوب الفنانين وفن قدماء المصريين وطريقة تنفيذه فى ذلك العصر. ولكن من الصعب تمييز العصور المختلفة من خلال الفن المصرى القديم كما ينطبق ذلك على العصرين الرومانى واليونانى.

وقد ظهر أنه تم إدخال أشكال جديدة فى العبادة بين الأشكال والرموز المصرية، وقد أدخلت أشكال غريبة لم يستخدمها المصريون. ولكن قد يكون هذا ناتجاً عن رغبة الفنان وعن خيال غير منتظم. كما يمكننا أن نؤكد أنه إذا كان من الصعب فهم الرموز المصرية؛ فمن المستحيل تخمين معنى هذه التخيلات المعقدة التى ترجع إلى العصرين اليونانى والرومانى.

ونجد فى هذين العصرين أن الأشكال لها طابع خاص فكثيرًا ما نجدها على شكل حيوانات متوحشة. وكذلك اكتشفنا بالقرب من أهرامات سقارة نوعًا من المذابح مزخرف بشكل لثعبانين لهما رأس إنسان، وهذا الشكل موجود فى اللوحة

---

(١) افترض المجمع أن هذا الرداء الموجود فى سقارة مخيط فى الفترة بين قمبيز والقرن الرابع ولم يلبسه نساء أو رجال الدين ولكن كان يخص الطبقة الشعبية المصرية فقط ولون القماش يشير إلى الزمن. ويوجد فى المجمع تقرير عن الرداء قدمته اللجنة المكونة من ثلاثة أعضاء وقد شكلها مونجيه.

٦٩ من المجلد الخامس (شكل١١) ويعتبر مثالاً لهذه السلسلة الغريبة التى لم يعتد عليها قدماء المصريين. وقد بحثنا فى مقابر الملوك والأماكن الأثرية عن هذه الأشكال العجيبة مثل رأس إنسان ذى لحية وجسم ثعبان أو رأس امرأة وجسم ثعبان له صدر لإبراز أنوثتها.

وهذه الصور كان «أوراس» يسخر منها فى أبياته الشعرية قائلاً إن : «النهاية بذيل السمكة» ويعنى أن النهاية ليست بمستوى البداية.

وقد جدنا أن أول هذين الشكلين كان رأسه متوجاً بما يشبه التاج الأنبوبى ولذا كان يقترب من صور«سرابيس» أكثر من أى شخصية دينية أخرى، وسأحاول أن ألجأ للخيال لمقارنة الشكل الأنثوى بالإلهة إيزيس. وعلى أية حال فإن شكل الإله رومانى أو يونانى فشكل الرأس والشعر واللحية يدل على أنه يتصل بعبادة سرابيس كما كان فى عصر البطالمة بالأسكندرية.

أما عن الثعبانين برأس الإنسان فكانا يمثلان نوعًا من الأطر، والأعمدة المصاحبة متوجة بشكل لكأس زهرة اللوتس. ولاحظنا من هذه الأمثلة التغيرات التى أدخلها اليونانيون والرومان على الحضارة القديمة ليجعلوها متجانسة أومتناسبة لذوقهم وديانتهم. واكتشفنا أيضاً فى مقابر سقارة نقوشاً بارزة تشير إلى العصور القديمة سأذكر لكم منها قطعتين : الأولى عبارة عن صفين لكتابة هيروغليفية[١] أما القطعة الثانية فهى لمجموعة من الأشكال متراصة بعضها فوق بعض فى صفوف مختلفة. ولمحنا فى الصف الأخير نساء جالسات على مقاعد بأرجل أسد. وإذا رجعنا إلى الصف الأول تجدهن واقفات ويتميزن بجسم صغير[٢] وجدنا أيضًا بسقارة قطعة لتمثال رجل مصنوع من الحجر الأحمر[٣] ونحت هذه القطعة جدير بالملاحظة، وتبرهن على أن قدماء المصريين كانت لهم صلة وثيقة بالطبيعة بتقليدهم لأشكال الإنسان عن طريق النحت. وقد أشرت

---

(١) انظر اللوحة ٨٤ المجلد الخامس، شكل ٣٦.
(٢) انظر اللوحة ٨٤ المجلد الخامس، شكل ٥.
(٣) انظر اللوحة ٤٧ المجلد الثانى.

إلى هذه الملحوظة مرات عديدة كما أن الأشياء التى اكتشفناها تؤكد ذلك. أما بالنسبة للفنون الأخرى مثل الرسم والنقش فقد كانت تخالف قواعد المنظور الفنى.

وإذا تجاوزنا قوانين فن الرسم وتصور الأشياء بالعين المجردة يتبين لنا أنهم لم يشوهوا الأشكال الجزئية كما فعلت الشعوب القديمة، التى لم يزدهر فيها الفن رغم الجهود المبذولة؛ وذلك لأن فن التصوير والنقش كان محدودًا وناقصًا. وهذا لا يعنى أنى أميل أكثر إلى الحضارة المصرية ولكن القطع الأثرية التى اكتشفناها توضح الفن الجميل والصناعة المتقنة؛ فأجزاء الجسد كانت متناسقة فى التماثيل والتقاسيم توافقت مع الطبيعة. ولقد توصلنا إلى هذه النتائج بعد التأمل والملاحظات الدقيقة فى القطع المنحوتة القيمة. وأعود لأتحدث عن التماثيل ذات النحت المجسم التى لن يعترض أحد من خلالها على العناية الفائقة فى تقليد الحيوانات التى تتميز بها أعمال المصريين القدماء.

كما أن أشكالهم مثل رأس الثور التى اكتشفناها فى مقابر سقارة (لوحة ٨٩، شكل ١٧) توضح ذلك. والقطعة منحوتة من حجر جيرى، وبين القرنين نجد قرصًا مزينًا بشكل لعجل يمثل دون شك صورة للعجل أبيس الثور المقدس عند قدماء المصريين. وأبعاد القطعة حوالى قدمين. ويظهر التقليد بوضوح فى هذا العمل الفنى الذى تنقصه الدقة التى اعتدنا رؤيتها عند شعوب الشرق[1] فطريقة المصرى هى الاختيار المتميز للتصميم وإهماله للتفاصيل الصغيرة فالفنان يظل مرتبطاً بنموذجه.

وذكرنا سابقاً أنّ مذاهب إيزيس المتأخرة تحرص على إدخال أشكال عديدة معها. ففن الخيال عند المصريين القدماء كان موجودًا مثل رأس إنسان فى جسم حيوان أو طائر أو حيوان من ذوات الأربع أو صقر له قناع امرأة وهذا الرمز يتكرر فى الرسومات والنقش أيضاً.

---

(١) نعلم أن الصينيين لا يعطون التفاصيل الكاملة عن الشعر والحواجب.

ونجد صقرًا من خشب مكسو بريش مختلف الألوان ومقلد بطريقة جيدة كما أن ريش الطيور قد تمت محاكاته بعناية ويمكن رؤية هذا النوع من الطيور فى أحدى لوحات المجلد الثانى من لوحات العصور القديمة(١).

وفى مقابر سقارة تم اكتشاف طيور مشابهة منها طائر الصقر وهو مصنوع من خشب الجميز وكان مُذَهَّب الوجه والمنقار والعينين وغالباً ما نجده يطير حول المومياوات المرسومة على ورق البردى. وحاولت أن أشرح هذا الرمز كما رأيناه(٢) فى مناظر الجنازات وعلى لوحة لتقمص الأرواح. فأدركت أنها صورة ترمز لروح الإنسان. وقد عرفنا من شكل حورس وأبولو أن الصقر كان رمزًا للروح عند الفراعنة. وسأذكر بعض نماذج الحيوانات التى اكتشفناها(٣) فى مقابر سقارة(٤). مثل نموذج لقط من البرونز وعدة أشكال أخرى للحيوانات المتميزة وتؤكد هذه القطع التى عثرنا عليها أن الفنون تطورت فى منف وطيبة. وعثرنا كذلك فى سقارة على تمثال ضفدعة(٥) من الفخار المزجج زرقاء اللون،حيث كان المريدون يحملونها معهم كتميمة.

٢ ـ المومياوات

أتتطرق الآن للمومياوات فى مقابر سقارة سواء أكانت لبشر أم لحيوانات.

ولقد أحاطنا علمًا الرحالة السابقون أنهم قد أخرجوا هذه المومياوات من سقارة فقط وزينوا بها مكاتب الأوروبيين أثناء الحملة الفرنسية.

وبعد الوصف الدقيق استطعنا مقارنتها بالمومياوات التى اكتشفت فى مقابر طيبة ونحن نجهل علم التحنيط فى العصر القديم ومدى تقدم قدماء المصريين فى هذه العملية وكيف كانوا يختارون نوعية القماش وطريقة لف المومياء إلى

---

(١) انظر اللوحة ٤٧، المجلد الثانى شكلى ١٤-١٥، واللوحة ٥٦ شكلى ٤-٥.
(٢) انظر وصف مقابر مدينة طيبة، المجلد الثالث، المبحث الثانى عشر.
(٣) حورس ـ أبولو، الكتاب الأول، المقطع السابع.
(٤) انظر اللوحة ٨٧ العصور القديمة، المجلد الخامس شكل ٦٥.
(٥) انظر اللوحة ٨٩ العصور القديمة، المجلد الخامس شكلى ١٩-٢٠.

جانب فن الرسم والنقش الموجود على القطع الأثرية التى أدهشت الرحالة الذين يطوفون فى المدينة الملكية[١].

إلا إن مومياوات سقارة كان تحنيطها سيئاً والقماش لم يكن من النوع الجيد وكانت أقل جمالاً وإتقاناً. ووجدنا عددًا كبيرًا من المومياوات حُنطت بمادة النطرون فقط.

ويمكن القول أن ما قد اكتشف هو من مقابر العامة فى منف خاصة وأنها مثل طيبة مليئة بالآثار. وبدون شك كانت الفنون متساوية بالمدينتين. ومن جانب آخر فقد عثر على قطع فى سقارة تم تنفيذها بعناية أكبر. كما يمكن أن نذكر قناعاً لمومياء مصنوع من خشب الجميز يدل على عمل متقن إلى حد ما[٢]، وكان الحاجبان والعينان مرصعين بالنحاس الأحمر، والقماش رقيق ملصق على خشب ملون باللون الأخضر، على طبقة من معجون الجص[٣]. والأقنعة التى وجدناها توضع على التوابيت وقد يكون لها نفس ملامح المتوفى. وتوجد أربع قطع من نفس النوع تنتمى إلى توابيت مومياوات سقارة وتشبه فى زخارفها مومياوات طيبة تماماً.

وكانت هذه التوابيت من ورق مقوى عليه قماش رفيع ملتصق ومقسمة لجزأين على شكل صندوق. وقد استخدم قدماء المصريين ألواناً مختلفة لطلاء التوابيت وهى مطلية من الداخل والخارج بنفس اللون. والقطعة الأولى فى الشكل رقم ١ مكونة من ثلاث طبقات من القماش الرفيع ملتصقة بعضها ببعض رُسم عليها رسمين لابن آوى باللون الأسود وهذه الحيوانات كانت ترتبط بالجنازات. أما القاعدة التى ترتكز عليها المومياء فهى عبارة عن لفافات صفراء وزرقاء وحمراء متعاقبة. والقطعة الثانية فى الشكل رقم ٢ تمثل راحة القدم مرسومة على قماش وطبقة من معجون الجص وبجوارها صندلين بجانبها شخصان مقيدى الذراعين، واحد منهما أسود اللون وربما أرادوا بذلك أن يقدموا زنجياً من خلال هذه

---

(١) انظر وصف مقابر طيبة.

(٢) انظر اللوحة ٨٩ شكل ٢ العصور القديمة، المجلد الخامس، وراجع شرح اللوحة ١٩.

(٣) سمكها حوالى نصف ملليمتر.

الصور الشائعة فى مقابر طيبة. أما عن القطعة الثالثة شكل رقم ٤ فهى تمثل صندوقاً متقن الصنع.

وموضوع هذا الصندوق هو نفسه الذى يوجد فى عدد كبير من المخطوطات المصرية فنجد حورس جالساً على العرش أمام أوزوريس وإيزيس ويمسك بالمذبة والصولجان وبذلك يكون فى وضع القاضى فى المحكمة، ويظهر باللون الأصفر الغامق على أرضية أو خلفية من اللون الأزرق وأمامه أوانى كانوبية تحتوى على أحشاء الموتى، وهذه الأوانى لها رأس إنسان أوحيوان كالكلب أوالقرد أو ابن آوى أوالصقر. ويكون الرأس أصفر اللون على خلفية من اللون الأخضر. ونجد أعلى هذه الأشكال أزهار اللوتس بأوراقها الخضراء وأزهارها الحمراء، وتبدو الألوان بالية نتيجة للزمن. ولو لم تفسد الرسومات لشاهدنا مذبحاً من ورائه تقف شخصية أمام الأرباب بعد موتها لمحاكمتها على الأعمال التى قامت بها أثناء الحياة. وتتكون هذه القطعة من أكثر من مائة قطعة من القماش الرفيع متلاصقة بعضها ببعض، وتكون قطعة متينة سمكها خمسة عشر ملليمترًا[(١)]. وتمكنا من إعطاء هذا الوصف الدقيق بعد استعمالنا لطبقة من معجون الجص الأبيض وضعناها على الشكل الموصوف[(٢)] ليكون أكثر وضوحاً. وآخر قطعة شكل رقم ٥ عبارة عن صندوق يشبه تماماً الصندوق الموصوف أعلاه. ولم يبق لى إلا الأجزاء التى تستعمل للزخرفة وعدة كتابات هيروغليفية. ولرؤية التوابيت السليمة المصنوعة من الخشب أو من الورق المقوى يجب أن نذهب إلى طيبة، حيث توجد التوابيت بداخل صندوقين أحياناً وهى ملفوفة ومغلفة من الداخل والخارج وعليها رسومات وكتابات هيروغليفية ومزينة بأزهار وتحتوى على أشكال لشخصيات متنوعة بمختلف الألوان.

وكان الشكل الخارجى للتابوت يبدو جميلاً ورائعاً. مما يؤكد اشتراك عدد كبير من الفنانين فى صناعته، وقد استغرق على الأقل عامًا من العمل ودون

---

(١) ستة أسطر.

(٢) انظر شرح اللوحات ستجد التفاصيل عن مختلف الألوان: الأشكال ١ - ٣ - ٤ - ٥.

مبالغة يقدر عمل الفنان الواحد حاليًا ـ وبعملتنا المحلية ـ لا نغالى إذا افترضنا أن قيمة هذا العمل قد تبلغ حوالى أربعة أو خمسة آلاف فرنك.

٣ـ تمائم وأشكال...

كان لقدماء المصريين اعتقادات مختلفة اكتشفناها من خلال عملية البحث بداخل المقابر. وكانت التمائم السحرية يحملها المصريون معهم لحفظهم من الشر والسوء فى الحياة الدنيوية وكانوا يضعون هذه التمائم مع الموتى فى المقابر.

وقد عثر الأعراب والفلاحون فى المنطقة على عدد كبير من هذه التمائم التى اعتنت بها بعثتنا على قلة قيمتها، فهى تقريبًا ليس لها قيمة؛ إذا قارناها بالآثار والمنشآت المعمارية والنحت، ولكن الكتابات الهيروغليفية الموجودة عليها وكذلك زخارفها تستحق الاهتمام.

ولا أحاول أن أتفحص كل التمائم التى أتى بها المكتشفون الفرنسيون عند عودتهم، ولا حتى تلك التى تستحق الدراسة وهى موجودة فى ثلاثين لوحة من المجلد الخامس من العصور القديمة والشرح الموجود على اللوحات كافٍ لحد ما للوصف المادى لهذه التمائم.

وأتوقف قليلاً عند المقتنيات الأثرية التى وجدت بسقارة والتى تعلن عن حالة الفن فى منف. كانت التمائم على شكل مجموعة تصل أحياناً إلى اثنتى عشرة أو أكثر وهى مثقوبة فى الجهة الطولية أو العرضية يتخللها خيط قديم من قطن أو صوف. وجدنا حجرًا أزرق اللون[1] بين تميمتين، وغالباً ما تكون هذه الأشياء القديمة مصنوعة من عجينة مختلفة الألوان وممزوجة بخزف أو عاج. وقد اشتهر قدماء المصريين باستعمال الأحجار ذات الألوان اللامعة. وكانت التمائم غالبًا باللون الأزرق الغامق وأصلها من الفخار، وكان يصنع من الطين النيىء فى قوالب من حجر على شكل قطعتين.

---

(١) انظر اللوحة ٨٥ العصور القديمة، المجلد الخامس، الأشكال ١٧ - ١٩ - ٢٠.

وكان المصريون القدماء يستخرجون الطين من ضفاف النيل ويعتبر أساسًا لكل العجائن المستعملة حيث كونوا عجينة رخوة تضغط فى القوالب لصناعة هذه التمائم الجميلة التى وجدنا منها كميات كبيرة.

واللوحة ٦٧ من العصور القديمة المجلد الخامس تقدم صورة لحربوقراط تعرفنا عليه من خلال إشارة يده اليمنى(١). والشكل الثانى يُظهر طريقة تصفيف الشعر عند الأرباب والكهنة(٢). والثالث يمثل كاهنة فى وضع انحناء(٣). ويبدو الوصف طويلاً ومملاً فى حد ذاته، وسأحاول أن أصف الأشياء المهمة فقط:

اللوحة ٨٥ لنفس المجلد(٤) تقدم تمائم تشبه الأوانى. وأحياناً تكون التمائم الزرقاء مغطاة بأشكال لذباب مختلف الألوان.

واللوحة ٨٥ تعطى مثالاً حيًا(٥) لتميمة على شكل قبضة يد وأخرى على شكل ضفدعة(٦). ولاحظنا أن كل هذه الأشياء والتمائم القديمة خالية من أشكال الآلهة رغم أن كل شىء كان له صلة بالدين عند قدماء المصريين واللوحة ٨٧(٧) تؤكد قولى حيث لا يمكننا التعرف على الأشياء التى لها علاقة بالمعتقدات من خلال الأشكال الهندسية والصور.

وهذا عكس الأشياء التى سنصفها لاحقًا والموجودة فى نفس اللوحة. وهناك شكل آخر متقن الصنع يمثل الإله بس(٨)، وآخر لصقر صغير(٩) وآخر يمثل رأسين لكاهنين صغيرى السن(١٠).

وتوجد قطع محطمة وأشكال لرأس أبيس مكرسة لتحوت(١١) وأخرى لإيزيس ونفتيس(١٢). أما اللوحة ٨٩ فتقدم شكلا لبس ممسكًا بمقبض إناء(١٣) . و كل هذه القطع المذكورة ذات طابع دينى عند قدماء المصريين. ولاحظت من الناحية

---

(١) اللوحة ٦٧ شكلا ١٣-١٤. (٢) نفسه، شكل ٢٠، وانظر كذلك اللوحة ٨٩ شكلى ٢٣-٢٤.
(٣) نفسه، شكل ٢٦. (٤) انظر اللوحة ٨٥ الأشكال ٤-١٠-١١. (٥) نفسه شكلا ١٢-١٨.
(٦) انظر اللوحة ٨٩ الأشكال ١٩-٢٠-٢٥-٢٦. (٧) اللوحة ٨٧ شكل ٨. (٨) نفسه، شكل ٩.
(٩) نفسه، شكل ١٨. (١٠) اللوحة ٨٧ شكلا ٣٧-٤٠-٤٣.
(١١) لوحة ٨٧ شكل ٤٤. (١٢) شكلا ٥٦ و٦١.
(١٣) لوحة ٨٩ شكل ١٦ وهذا الشخص يذكرنا بنفس الصورة فى اللوحة ٨٢ العصور القديمة، المجلد الثانى، واللوحة ٨٧ جدول فلكى.

الفنية أن شكل بس (لوحة ٨٧ شكل ٩) يظهر أعضاءه الصلبة وجسمه القوى (لوحة ٨٧ شكل ٤١).

وتعتبر العين شعارًا لأوزوريس أو الشمس التى تضىء العالم كله بنورها وهى التميمة الأكثر شيوعًا حيث اكتشفناها فى مقابر المصريين القدماء فى شكل تمائم مزدوجة أو بأربعة صفوف مخيطة فى إطار وعليها حاجب متصل بخط مقوس وعدة خطوط أخرى تتدلى من بؤبؤ العين كأنها دموع.

وكان هذا النوع من التمائم الأكثر انتشارًا عند المصريين القدماء وإن كان هناك أشكال وتمائم أخرى[1]. وهناك تميمة مألوفة أيضًا لجعران ونطلق نفس الاسم على التميمة التى تحمل شكل هذه الحشرة والتى توجد على خلفيتها نقوش هيروغليفية كبيرة .

وهناك افتراضات كثيرة لوجود هذه الجعارين فالبعض يفترض استخدامها كعملة والبعض الآخر يفترض أنها تستخدم كتميمة.

أما بالنسبة لىَ فأمتلك خاتمًا مصريًا عليه شكل لجعران وكتابات هيروغليفية أسفله كأنها ختم. ولاحظنا أن كل هذه الأشياء هى أختام مصنوعة من صمغ الصنوبر أو الشمع، وهناك قطع تحمل آثار هذه الأختام. ومما يؤكد هذه الفكرة. أن كل الجعارين مصنوعة من الأحجار الصلبة الشفافة مثل أحجار اليشب واللازورد والعقيق الأحمر[2] وقد نفذ قدماء المصريين كل هذه الأشياء بدقة وعناية خاصة، حيث استخدموا الفخار ومعجون الجص. وكانت الرموز الهيروغليفية تبدو دقيقة جدًا . ولا يستطيع العقل تصور مفعول النار الذى لم يؤثر على هذه الأشكال الدقيقة.

وتوضح اللوحة ٨٧ العصور القديمة المجلد الخامس[3] من بين الأحـــرف الدقيقة التى تحتويها شكل بيضاوى يوجد فى جزئها العلوى بطول ٥ ملليمترات

---

(١) من بين التى وجدت فى سقارة سأذكر شكلا ١٨-٢٥ من اللوحة ٦٧ العصور القديمة، المجلد الخامس، وشكل ٢٥ من اللوحة ٨٧.

(٢) انظر اللوحة ٨٩ العصور القديمة، المجلد الخامس شكل ١٨ . (٣) انظر شكل ٥٥.

بداخله ثلاثة رموز هيروغليفية أحدها لجعران له أرجل ورأس مميزان رغم أن الحشرة منقوشة على ملليمتر واحد فقط[١].

وتترتب الجعارين فى الرسومات بترتيبات مختلفة فمنها حشرات ملتصقة بعضها وبعض ومنها زوجان أوثلاثة أو أربعة أزواج وممكن أن نرى مجموعة من اثنى عشر جعرانا[٢]. وليس شرطاً أن ينتمى كل حيوان لنفس النوع، ويمكن أن يسجل علماء الطبيعة ملاحظات مثيرة حول هذا الموضوع الذى يستحق بعض الاهتمام. والشكل البيضاوى الذى ذكرته منذ قليل يحيط بالكتابات الهيروغليفية الموجودة على ظهر الجعران له علاقة بالخراطيش الموجودة فى لوحات المصريين القدماء ولها شكل شعار بيضاوى مكتوب بداخله اسماء وألقاب. كما لاحظنا ذلك على التمائم التى تأخذ شكل جعران التى تحمل اسم رجل أو إله.

والشكل البيضاوى للجعران فى اللوحة ٦٧ وصف العصور القديمة المجلد الخامس شكل ١٧ يشبه الموجود فى اللوحة ٨٩ شكل ٥٥ وبداخله شكل بيضاوى آخر أصغر منه ومحاط بريش ربما يرمز إلى النصر أو لإبراز اسم أحد الأبطال.

ومن خلال هذا المثل نتوصل إلى الهدف من هذه التمائم فالنقوش البارزة الحربية يوجد بها صقر يحلق أو عقاب يحمل نفس الشعار.

ويحتوى الجعران (لوحة ٦٧ شكل ٢٣) على طائر مشابه وأمامه ريش. أما الموجود فى اللوحة ٨٩ شكل ١٠ فيحتوى على نحلة رمز الملك[٣]. والرموز الموجودة داخل الشكل البيضاوى للجعران تستخدم أحيانًا لزخرفته ويمكن استبدالها بنقوش الأزهار أو أشكال حلزونية[٤]. ومن بين الجعارين التى وجدناها بسقارة لن أذكر إلا عددًا صغيرًا فقط ؛ خاصة وأن المجموعة كبيرة جدًا ومتنوعة وجديرة بالتناول فى دراسة خاصة بها خارج إطار هذا المؤلف.

---

(١) اللوحة ٦٧ العصور القديمة، المجلد الخامس، شكلا ٢٦-٢٧.

(٢) اللوحة ٧٩ العصور القديمة، المجلد الخامس، شكل ٢١.

(٣) الحيوان المنقوش فى شكل ٢٧ (لوحة ٨٩ العصور القديمة، المجلد الخامس) له طابع غريب نوعًا ما.

(٤) انظر اللوحة ٨٩ العصور القديمة، المجلد الخامس، شكل ١٣.

وسنذكر بالتحديد المقاييس التى أعطيت للجعران عند قدماء المصريين وهى تختلف من جعران لآخر حسب مادة الصنع. والأحجار الصلبة التى استخدمت فى صنع الجعارين صغيرة الحجم هى: الستياتيت، والسرينتين والجرانيت والرخام السماقى.

ويبلغ طول الجعران من ١إلى ٣ ديسيمترات أوأكثر. وقد وجدنا جعرانًا عملاقاً من الجرانيت طوله تجاوز المتر وأكثر. ويبدو من الصعب معرفة الهدف من إعطاء هذه الأحجام الضخمة للجعارين. اما بالنسبة للعجائن التى استخدمت فى تشكيل معظم الجعارين التى عثر عليها فى المقابر مجموعة فى قلائد، فألوانها لا تقل فى تنوعها عن شكل وخامة التمائم المصنوعة من الحجر الصلب.

٤ - أوانى ومصابيح

سنتطرق الآن لدراسة بعض القطع القديمة التى اكتشفناها بسقارة وضواحيها وتتعلق بقطع أخرى لا تقل أهمية عن الأولى وتشير إلى مستوى الصناعة عند قدماء المصريين فى الأزمنة السحيقة.

وفى الواقع إن الأوانى والقطع المشابهة للفن المصرى القديم لا تمثل مشكلة لتاجر الآثار كما تفعل الآثار الأخرى. فهى أدوات منزلية بسيطة ليس لها قيمة سوى تلبية الاحتياجات المعيشية وتستخدم كأوانى للبن والنبيذ والزيت ومواد سائلة أخرى وتستخدم أيضاً لتخزين الزيد والعسل وأشكالها لا تسمح بمرور الضوء إلا بقدر يسير، ولقد أشرت من قبل إلى التعدد الذى قدمه الفنان المصرى فى أشكال الأوانى، دون أن يوصم بالذوق الردىء، ولعل أبسط هذه الأشكال يبدو قادراً على إعطاء حكم عادل عليها.

والصورة الموجودة كافية لإعطائكم فكرة عن هذه الأعمال الجيدة دون أن نرجع إلى الأجزاء الأولى من العمل. فمن خلال لوحات المجلد الخامس أرقام ٧٣-٧٤-٧٥-٧٦-٨٤-٨٩ نتعرف على مجموعة الأدوات المنزلية المصنوعة من الفخار وليس عليها أى كتابة هيروغليفية. ومن بين الأوانى المذكورة يوجد إناء كثر استخدامه عند الكهنة لتقديم القربان للآلهة وهذا الإناء دائرى الشكل

وعنقه له شكل عنق القنينة. وقد وجدنا فى مقابر سقارة إناء حالته جيدة[١] وغير مطلى أومنقوش وله نفس الشكل، وكانت فتحة الإناء ضيقة وكذلك شكله مما يؤكد أنه إناء لحفظ العطور. وفى الغالب فإن الأوانى التى تنتهى بطرف رفيع تسكب السائل ببطء على شكل نقط تستعمل لهذا الغرض. وهناك أوانى أخرى تنتهى بجزء مدبب وهذه يمكن أن تثبت فى الأرض أو ترتكز على دعامة أو أرفف ذات دورين. أما أوانى حفظ مومياوات الحيوانات فهى شكلين :

النوع الأول : مصنوع من فخار وهى أوانى طويلة الشكل وجدناها فى المقابر نائمة على الأرض كزجاجات فى قبو.

النوع الثانى : وجدنا منه أربعة أنواع وهى أوانى قصيرة الطول وعريضة القاعدة ولها غطاء على شكل رأس وموضوعة رأسيًا. الرأس الأول لإنسان. والرأس الثانى لقرد. والثالث لابن آوى. والرابع والأخير لصقر.

وهذا الترتيب نجده باستمرار فى الرسومات على المومياوات وعلى ورق البردى.

والأوانى التى ذكرت نطلق عليها اسم «أوانى كانوبية» ولها رأس إنسان أو حيوان وتحتوى على أحشاء الموتى ومصنوعة من حجر الجرانيت أو المرمر أو البرونز ومزينة بكتابات هيروغليفية[٢] وتوجد أسفل الأسرة الجنائزية. ووجدنا من بين الأوانى المتعددة الأشكال المسطحة والمستديرة والعريضة والشكل المخروطى أو الأسطوانى. ولم نكتشف الأوانى التى تستعمل للسوائل وقد نكتشفها أثناء عملية البحث الجارية حيث من الصعب التأكد من العصر الذى صنعت فيه الأوانى مسطحة الشكل ذات اللون الأحمر وهى مصنوعة من عجينة رقيقة جدًا. وتشبه الأوانى التى اكتشفت فى عهد الرومان[٣] والمسيحيين[٤] من حيث زخارفها ويستحيل إثبات إنها مصنوعة من نفس المادة ونفس الألوان.

---

(١) انظر اللوحة ٧٥ العصور القديمة، المجلد الخامس، شكل ١٩ وكذلك اللوحة ٧٦، المجلد الخامس، شكل ٢٠.

(٢) انظر اللوحة ٧٦ العصور القديمة، المجلد الخامس، شكلى ١٤-١٥.

(٣) انظر اللوحة ٧٦ الأشكال ١-٢-٣-٦-٧.

(٤) انظر اللوحة ٧٦ شكل ٧ حيث نجد حافة الإناء مزينة بكتابة مشتبكة بعضها ببعض.

وهناك نوع آخر من الأوانى التى اكتشفناها فى سقارة متميز أيضًا من حيث الشكل الدائرى المسطح ويشبه الدلو. وصناع الفخار فى مصر العليا يصنعون نفس طراز الأوانى من الطين الأحمر(١).

وكان قدماء المصريين يصنعون أوانى للتبريد فاستعمالها كان ضروريًا فى مثل هذا المناخ الحار. وتوارث السكان هذه الحرفة حتى عصرنا الحالى ومازالت مثل هذه الأوانى تستعمل حتى الآن لنفس الغرض(٢)، وكان لهذه الصناعة القديمة دور فى الحياة الاقتصادية عند الفراعنة.

ولن أتناول بالحديث الأوانى الفخارية التى استخدمت للرى والجرار الكبيرة والأوانى المنزلية من الأحجار سهلة التشكيل والفخار المطلى والأوانى الأخرى التى عثرنا على أجزائها أثناء الحفائر فى سقارة(٣).

وقد صادفنا تحت الرديم قطعًا لأوانى من مادة بيضاء صلبة وشفافة تشبه الخزف، وهى مزينة بأشرطة مختلفة الألوان من المعادن المؤكسدة(٤). وكل هذه الأعمال وأخرى لا يمكننى ذكرها كانت مصدرًا للأبحاث والدراسة عن حالة الفنون فى مصر القديمة، وتوصلنا إلى أن قدماء المصريين تقدموا فى الفنون المتعلقة بعلم الكيمياء، وقدمنا ملاحظات أخرى عن صناعة الأوانى الزجاجية حيث اشتهر المصريون القدماء بصناعة الزجاج بطريقة فنية(٥)، وكانوا يطلون الزجاج بالأزرق والأسود وألوان أخرى مختلفة.

وقد وجدنا قطعًا زجاجية ملونة باللون الذهبى وأخرى باللون الأبيض مزينة بخيوط مختلفة الألوان(٦).

---

(١) انظر اللوحة ٨٩ العصور القديمة، المجلد الخامس، شكل ٦.
(٢) انظر اللوحة ٧٦ الأشكال ٢-٩-١٠-١١-٣١-٣٧.
(٣) انظر اللوحة ٧٣ شكل ١٢.
(٤) انظر اللوحة ٧٦ العصور القديمة، المجلد الخامس، شكل ٩.
(٥) انظر اللوحة ٧٦ العصور القديمة، المجلد الخامس، الأشكال ٤-٥-١٢ ولوحات أخرى.
(٦) انظر اللوحة ٧٦ شكلى ٤-٥.

واستخدم المصريون الزجاج لتقليد الأحجار الرفيعة النادرة غير الحقيقية كالزمرد، وكانت هذه المصنوعات الزجاجية تصدر بكميات كبيرة فى هذه الفترة من طيبة ومن منف إلى الغرب. واستوردت روما كميات كبيرة من هذه المواد.

وأُستخدم الزجاج أيضًا فى صناعة الثياب حيث وجدنا أردية مرصعة بالخرز متقن الصنع وكان يستعمل أيضًا لتزيين الأجسام المحنطة.

وكان الأعراب يأتون بالخرز السليم. أما ما وجدناه فقد كان قطعًا أو أجزاء غير سليمة وأحيانًا سليمة.

ووجدنا كميات كبيرة من المصابيح القديمة أثناء الحفائر فى مقابر أسوان حتى منف والأسكندرية، ولكن يصعب تحديد الفترة التى تنتمى إليها. وهناك عدد كبير من المصابيح مزين وعليه كتابات ترجع إلى العصر اليونانى أو الرومانى. وأخرى مزينة بكتابات غير مفهومة وربما أفسد تأثير الزمن الكتابة الهيروغليفية وهى لا تقل قدمًا عن الأولى(١).

والمصابيح لها نفس الشكل وقد صنعت من مادة واحدة هى الطين الأسمر ونجدها عبارة عن قطعة واحدة مسطحة فى الأسفل ليسهل وضعها، ولها فتحتان الأولى لصب الزيت بداخلها والأخرى للفتيلة ويوجد مقبض ليساعد على حمل المصباح.

و وجدنا فى الآثار المصرية القديمة مصابيح برونزية منها ما يعود إلى العصر الرومانى ولقد رسمنا بعضها فى هذا المؤَلَف. ومما لفت انتباهنا مصباحاً صغير الحجم يشبه القزم وآخر على شكل قدم امرأة فى منتهى الأناقة وهذه المصابيح وجدت فى عين شمس(٢).

ووجدنا أشكالاً كثيرة مختلفة لحيوانات منقوشة على المصابيح منها جسم ضفدعة أو رأس كبش... إلخ وهذه الأشكال وجدت فى الغالب على المصابيح المعدنية(٣) والفخارية.

---

(١) اللوحة ٧٣ شكلا ٥-٦، اللوحة ٧٦ شكلا ١٨-١٩ واللوحات ٧٨-٨٦-٨٩.

(٢) انظر اللوحة ٧٧ العصور القديمة، المجلد الخامس.

(٣) انظر اللوحة ٨٧ الأشكال ١-١٦-١٧ واللوحة ٨٦ شكل ٦٣.

ولقد عثرنا فى منف على مصباح يحمل أعلاه شكلا لأسد يركض[١].

أظن أننا حددنا كل الأشياء القديمة التى عثرنا عليها فى سقارة فى عجالة دون أن نكرر كلام الباحثين ولكن حاولنا إعطاء الملاحظات الخاصة فقط.

أبوصير (بوزيرس)

إذا رجعنا إلى الأهرامات الواقعة شمالى قرية أبى صير (أبوصير بنا) وحتى تكتمل معلوماتى فى هذا الميدان سأحاول وصف المكان الذى يقع على مسافة ١١٠٠ متراً فى الجنوب الغربى وأطلق عليه اسم «بئر الطيور» وقد زار هذا المكان العديد من الرحالة.

وعند زيارتى لهذا السرداب[٢] وجدنا مبان عدة من المستحيل زيارتها جميعاً لوجود موانع أثناء المشى نتيجة لانهيار بعض القباب. ولاكتشاف فتحة البئر الضيقة الموجودة وسط الرمال وهذه الفتحة تقدر بـ ١,١٤ متر[٣]، وللدخول من هذه الفتحة لزم علينا الاستعانة بدليل من المنطقة. وبالنزول داخل البئر وجدنا عمقها من ٦,٥ أمتار[٤]، وهناك عدة وسائل للنزول إلى هذا البئر سواء باستخدام السلالم أو عن طريق سلة مربوطة بحبل أوبكرة جر. ونتيجة لانهيار الرمال داخل البئر أرغمنا على تطهير ناحية من الرواق المجاور.

ولأن عملية التطهير تستغرق وقتًا طويلاً قررنا المرور من فتحة ضيقة تكونت بعد الردم واضطررنا للزحف على الرمال وتحركنا بأيدينا بصعوبة بالغة وكانت وجوهنا تواجه الغبار، وكان ارتفاع الرواق قد انخفض من ١,٣ متر إلى ٠,٣ متر[٥] وبالاستمرار فى السير داخل الرواق الضيق ورءوسنا منخفضة أحيانًا نشعر باتساع لكن فى غالب الأحيان كانت كل الممرات مملوءة ومسدودة بالرديم

---

(١) اللوحة ٨٩ شكل ٢٨.

(٢) انظر اللوحة ٤ العصور القديمة، المجلد الخامس، شكل ٢.

(٣) ٤ أقدام. (٤) ٢٠ قدمًا.

(٥) من ٤ إلى ١ قدم انظر اللوحة ٤ العصور القديمة، المجلد الخامس، شكل ٣.

حيث يوجد كثير من الممرات المتقاطعة، وحفرنا عدة قنوات على أرض كلسية رملية قليلة الصلابة تخترقها عروق معدنية من ملح وجبس حيث استحال استعمال البوصلة لتحديد مختلف الاتجاهات.

وبعد أن مررنا من خمسة أو ستة منحنيات وصلنا إلى القاعة قليلة الارتفاع ووجدنا فيها مومياوات وأوعية منظمة على شكل صفوف وأسرة متجاورة أطرافها متعاكسة تمامًا مثل ترتيب الزجاجات داخل قباء النبيذ[١].

والمومياء التى عثرنا عليها لطائر أبيس كانت ملفوفة بلفافات متداخلة مختلفة الألوان، وكان الغطاء مثبتًا بالجبس بطريقة غير متقنة. ورغم الحذر الشديد فى فض اللفائف اندهشنا لأن الحيوان لم يكن فى حالة جيدة.

ومجموعة المومياوات التى كانت بيضاوية وعادية الشكل[٢] كانت عظامها بالداخل مفكوكة ومحطمة ومن النادر وجود جسم متماسك وقوى، فالتحنيط ناقص وربما يرجع ذلك للحرارة العالية نتيجة لاستخدام القار مما تسبب فى حرق العظام والجلد والريش.

وقد وجدنا فى طيبة طائر أبيس محنطًا جيدًا وكان صلبًا ومتماسكًا ومحتفظًا بكل ريشه وألوانه وكان الريش منسقًا جيدًا[٣]. و فتحنا أوعية فخارية داخل سراديب أبى صير[٤] واكتشفنا اثنتى عشرة مومياء صلبة. وكانت العملية شاقة ومتعبة جداً نتيجة الروائح الكريهة المتسربة من الأوعية والرديم وكذلك نقص الهواء. ووجدنا أن منقار طائر أبيس منطو على بطنه وساقيه مرفوعتين لأعلى أما بالنسبة للجناحين فهما ملفوفان بلفافات بحيث يكونان كتلة بيضاوية متناسقة. وتقدر الأوعية الفخارية بغطائها بـ ٠,٥ متر طويلاً[٥]، وهى تقريباً طول المومياء ويستحيل وصف توزيع وترتيب اللفافات.

---

(١) انظر اللوحة ٤ العصور القديمة، المجلد الخامس، شكلى ٤-٥.

(٢) انظر اللوحة ٤ شكلى ٦-٧.

(٣) انظر اللوحة ٥٢ العصور القديمة، المجلد الثانى، وشرح اللوحة.

(٤) أكثر من ٢٠٠ ولقد انشغلنا بهذه العملية أنا والسيد دو روزيير لمدة ساعتين أو ثلاثة.

(٥) ثمانى عشرة بوصة ونصف.

وقد أخذنا عدة أمثلة مختلفة الألوان كمثال فى المجلد الثانى من العصور القديمة، ويمكننا الاطلاع عليها[١] ونسجل إعجابنا بعملية التحنيط والتحضير والتنفيذ المتقن لتحنيط طائر أبيس.

وقد وجدنا عددًا كبيرًا من مومياوات أبيس متشابهة الشكل، حيث كان سكان منف يقدسون هذا الطائر ويعتبرونه رمزاً للحماية. وكانوا يضعونه فى مقابرهم بعد موتهم لذلك سُميت «بئر الطيور»*.

وأعتقد أن المكان الذى وصفته هو مقبرة جماعية لطيور أبيس فربما كانوا يجمعون طيور منف والأماكن المجاورة فى نفس المقبرة. أما الطيور الأخرى من نفس النوع فهى موجودة فى المناطق المجاورة[٢].

إن بئر الطيور تبعد عن منف وعن معالمها الأثرية وكذلك عن قرية أبى صير (بوزيرس) التى لا تقل أهمية. والآثار التى اكتشفناها فى هذه القرية تجعلك تصدق أن العاصمة كانت تمتد حتى الشمال الغربى بصرف النظر عن الأدلة الأخرى[٣] التى يمكن تقديمها، وقد بُنيت المنازل على ركام من قطع كبيرة من الجرانيت والبازلت وأحجار بركانية أخرى وكلها مزخرفة ومنقوشة برموز مقدسة. وعثرنا أيضًا على أوانى من المرمر الأبيض وآثار أخرى[٤] من هذه القطع. وقريباً سنرجع لدراسة حدود عاصمة مصر القديمة من الناحية الغربية، ولم يذكر الكتاب أبا صير كمدينة مميزة، وقد كانت امتدادًا لمنف وبها مقبرة للعجول حسب رأى الكاتب « زويجا» وعدة كتاب آخرين. ويظن «بلينى» أن (بوزيريس) تقع أمام الأهرامات الكبرى.

وهذه الإشارة تبدو غامضة لوضع علاقة بين الاسم القديم[٥] والاسم الحالى ويجب الاعتراف بغموض موقعها الجغرافى. أما الكاتب العربى «عبداللطيف»

---

(١) انظر اللوحة ٥٢ العصور القديمة، المجلد الثانى، الأشكال ١ إلى ٦ وانظر أيضًا وصف مقابر مدينة طيبة، الفصل التاسع.

* كانت هناك مقابر خاصة بالطيور والحيوانات المقدسة . (المراجع)

(٢) وجدنا فى مقابر أبى صير المجاورة مومياوات لقطط وثعابين وحيوانات أخرى.

(٣) انظر أعلاه المبحث الثانى.

(٤) السيد «جراتيان لوبير» رأى حجرًا يحمل كتابات ورموزًا يونانية مع صورة صليب تشبه الصورة التى وجدناها على أبواب الأديرة اليونانية بوادى النطرون.

(٥) التاريخ الطبيعى، الكتاب ٣٦، المقطع ١٢.

فقد ذكر فى كتابه (رواية عن مصر) عدة مرات أباصير. وأعطى تفاصيل غريبة عن القبور المحيطة بها وأكد أنه قد أخذ المقياس لمكان هرم يشبه هرم الجيزة الكبير تمامًا. وهذا الهرم لم يتبق منه إلا نواته[١] فقط. واسم أبى صير له علاقة بتابوزيرس وكان يطلق على عدة مدن قديمة فى مصر. ولا يجب من هنا أن نعتقد أن كل القرى التى تسمى اليوم بوصير أو أبا صير فى مصر العليا أو السفلى قد خلفت قرى قديمة احتوت على مقبرة أوزوريس، ويحتمل أن يكون هذا الاسم مقدس وهو اسم الإله.

واعتقد الكتّاب أن هذا الاسم لم يكن بارزاً فى مدينة بوزيرس وتابوزيرس بينما كان مكتوبًا ومذكورًا بكثرة فى مدينة تافوزيريس[٢] وتوجد مدينة بوزيريس (أبوصير بنا) فى الدلتا وقد أعارت اسمها لقناة بوزيريس أحد فروع النيل وفقًا لوصف بطليموس. ونجد حاليًا على قرب من المدينة اسم أبى صير. وتحمل أماكن كثيرة هذا الاسم مع ألقاب خاصة.

---

(١) رواية عن مصر ترجمة «سلفستر دوساسى» صفحة ٢٠٤ وهذا التقارب ينطبق على الهرم الكبير الذى تكلمت عنه فى نص سقارة.

(٢) أشار إلى هذا الاسم "ديودور الصقلى" وهو يعنى بالنسبة له اسم ثور واسم أوزوريس فى نفس الوقت وهذا غير معقول. ويرى "سلفستر دوساسى" أن هذا التفسير غير مقنع ولكن هذا اسم مقدس ويخص أوزوريس فقط. أما الكاتب "عبداللطيف" فيؤكد هذا فى كتابه صفحة ٢٠٦ - وكتب الاسم بطرق مختلفة فى الكتاب. وأظن أن العرب أخذوا اسم أبى صير من تابوزيريس بحذف حرف (ت) للنطق السليم وترجم اليونانيون اسم بوزيريس إلى ـفوزيريس راجع «زويجا».
(فى نهاية هذا المجلد نجد بقية الوصف).

الفصل التاسع عشر

وصف بابيلون مصر(*)

بقلم السيد/ دو بوا إيميه

مراسل معهد فرنسا وعضو لجنة العلوم والفنون المصرية

تقع قلعة عتيقة فى القاهرة[١] القديمة على بعد ٣٠٠ متر من ضفة النيل اليمنى. وقد أطلق الأوروبيون عليها اسم بابيلون أما العرب فقد سموها قصر الشمع. وتمتد هذه القلعة نحو القاهرة وجبل المقطم ونجد حولها أنقاضاً مختلفة. وتحتوى على مكان خاص بالمسيحيين (بندر). وقد بنى جزء من سور القلعة فى العهد الرومانى وكان من أحجار حمراء ضخمة غير مصقولة وجزء آخر من قواعد متوالية من الدبش والطوب ذى الحجم الكبير.

وكانت الأحجار متوغلة داخل طبقات سميكة من المونة. وهذا البناء الحديث الذى استخدمت فيه مواد رديئة غيرت التخطيط الأصلى للسور حيث يبدو شكل السور حاليًا غير متساو[٢]. وكان طول السور حوالى ثلاثمائة متر أما عرضه فكان حوالى مائة وخمسين أو مائتى متر.

وتوجد أماكن على السور تتكون من صف أحجار يعقبه صف من الطوب، حيث كان ارتفاع الحجر تسعة ديسيمترات. أما الطوب فكان أربعة ديسيمترات

(*) سلم وصف بابيلون إلى اللجنة المصرية يوم ١٤ يونيه سنة ١٨١٣.

(١) يطلق الأوروبيون اسم القاهرة القديمة على مصر العتيقة التى تقع جنوب غربى القاهرة على ضفاف النيل.

(٢) انظر اللوحة ٢٠ شكل ٢ العصور القديمة، المجلد الخامس.

ونصف. ويوجد فى الجهة الجنوبية الغربية وبين برجين باب ذوعقد مقوس. وكان هذا الباب مسدودًا بأطلال رومانية الطراز من أحجار كلسية، وهذه الأنقاض كانت تغطى عقد القوس ولا يظهر منه إلا قطع منقوشة وعقاب على حافة إفريز[1]. ويمكن القول بأن الطابع الهندسى لهذا الباب لا يتمتع بذوق رفيع لكن العناية التى نفذت بها التفاصيل بالرغم من تبديل النقوش إلا إنه من اليسير الاعتراف بأن العمل كان دقيقاً. ويوجد أعلى عقد القوس يساراً أحجار ضخمة عليها كتابات هيروغليفية وقرص مجنح على جانبيه ثعبانان منتصبان. وهذا رمز يضعه المصريون القدماء على عتب أبواب معابدهم.

ومن المحتمل أن يكون هذا الحجر قد أخذ من البنايات المهدمة فى العصر الذى بنى فيه الرومان - المنتصرون على مصر - حصن بابيلون تأكيدًا لهذا الانتصار. ويحتمل أن هذه الأحجار وقعت من أحد المبانى أثناء هذا الغزو.

واعتدنا أن نرى بين الأطلال قطعًا أثرية قديمة ولكن مما يؤسفنا ويثير مشاعرنا، استعمال هذه القطع العتيقة لبناء مبان جديدة. وهذه العملية تهيج أفكارك وتذكرك بالأجيال التى اختفت من الأرض وبالأجيال القادمة وتجعلك تحلم بالماضى والمستقبل معاً.

وإذا بعدت عن الحصن حوالى ثلاثمائة متر متجهًا نحو الشمال ؛ إلى الشمال الشرقى ؛ فسوف تجد جزءًا من سور بنى فى عهد الرومان، وهو ينتمى إلى القلعة. كذلك نجد فى أحد أبراج الحصن سُلماً وقاعة سقفها مرفوع بأعمدة ذات طراز رومانى.

والدخول لقصر الشمع يتم عن طريق باب منخفض جدًا لدرجة أنك تدخل محنى الظهر، تبدو الشوارع ضيقة مما يجعلك تمشيها على الأقدام فقط ؛ والشارع الرئيسى مزدحم بالمحلات. أما المنازل فمنها الخاص وهناك أديرة للراهبات الأقباط اليونانيات وقد وجدنا هذه المنازل والأديرة خالية من آثار العصر القديم.

---

(١) انظر اللوحة ٢٠ شكل ٥ العصور القديمة، المجلد الخامس.

ووصل عدد أديرة الراهبات التى اكتشفناها إلى ستة أديرة ويُطلق عليها حالياً اسم «سان جورج البابيلونى» ويوجد حول الأديرة حدائق من النخل، ويحكى أن السيدة مريم لجأت مع السيد المسيح إلى مصر عندما كانت مضطهدة من «هيرود» واختفت فى مغارة تحت الأرض، وأصبحت هذه المغارة مقدسة ورمزاً للاحترام، وكان القساوسة يتحدوثون عنها مع الناس.

وكان سكان قصر الشمع يستخرجون مياه الشرب ورى الحدائق من بئر عميقة تقع خارج القلعة فى اتجاه النيل وتسحب منها المياه عن طريق بكرة وحبل ثم تمر المياه عبر قناة إلى داخل الحصن(١)، والآثار الموجودة حول قصر الشمع عبارة عن أطلال لمدينة بابيلون، ويقع قصر بابيلون حسب «استرابون»(٢) جنوبى الدلتا تقريبًا أمام أهرامات منف.

وكان الرومان يستخدمون مائة وخمسين عبداً لرفع مياه النيل بآلات مائية.

وتوجد كمية كبيرة من الأنقاض التى تكلمتُ عنها سابقًا فى الجهة الشرقية لأهرامات الجيزة وتنتشر حتى النيل نحو السلسلة العربية حيث تظهر الصخور الجيرية على بعد خمسمائة أو ستمائة متر عن النهر، كما توجد على عدة تلال. وعدد هذه الأحجار قدره «أنطونيانوس» بحوالى اثنى عشر ألف حجراً من بابيلون حتى هليوبوليس وهى تقريبًا المسافة من قصر الشمع حتى مسلة المطرية(٣).

إن جميع الظروف والأدلة المختلفة التى جمعناها تشير إلى أن قصر الشمع كان تحت الحكم الرومانى وكان الحصن يعتبر مقر بابيلون حسب رأى «استرابون».

---

(١) كان الرومان يستعملون شتى الوسائل لنقل المياه إلى القلعة وسنرى ذلك فيما بعد.

(٢) وأبحر بعيدًا فى النهر، ودخل أحد الأفراد إلى حصن بابيلون حيث انسحب بعض البابليين عصيانًا ونجحوا فى التفاوض بإذن من الملوك لبناء مستعمرة لكنها حاليًا خيمة واحدة من ثلاث فرق تحمى مصر، وتوجد حافة تمتد من الخيمة على طول امتداد النيل حيث نجد المياه تنتقل من النهر لأعلى بالعجل أو مسمار قلاووظ ويقوم بهذا العمل مائة وخمسون سجينًا، ومن هنا فإن أى فرد يستطيع رؤية الأهرامات بوضوح ومن الجانب البعيد من النهر عن منف وقريبًا منها.
(الجغرافيا، الكتاب ١٧).

(٣) إن المسلة تحدد موقع هليوبوليس، انظر فيما يلى وصف عين شمس، الفصل الحادى والعشرين.

إن بابيلون مصر حسب رأى «ستيسياس» و «ديودور» و «استرابون» قد شيد من طرف البابليين فى عهد سميراميس الذى احتل مصر. أو بنى على يد أسرى «سيزوستريس» الذى أتى بهم إلى مصر بعد أن أخضع البابليين و هذان الرأيان غير صحيحين وإلا كيف تفسر سكوت "هيرودوت" عن مدينة قديمة مثل هذه وتاريخها مربوط بتاريخ مصر.

وقد بنيت هذه المدينة حسب اعتقادى فى عهد البابليين الذين احتلوا مصر بعد غزو قمبيز[١]. وحسب رأى «فلافيوس جوزيف»[٢]، لم تكن بابيلون قد أقيمت بعد عند مرور «هيرودوت» فى هذه المدينة التى لم تكن ذات أهمية ولا تلفت الأنظار. ورغم أن المؤرخين غير متأكدين من أصل وتاريخ مدينة بابيلون، فإن اسمها ينتسب حسب رأيهم إلى المستعمرين أو العبيد أو إلى جدرانها. ولذلك أطلقوا عليها اسم بابيلون عند تأسيسها.

وقد وضع الرومانيون ثلاث فرق عسكرية تحت قيادة «أغسطس» لحماية مصر. اهتم قياصرة المشرق بتزيين مصر حتى عهد «هراكليوس» الذى سقطت فى عهده مصر فى أيدى المسلمين الذين حاصروا بابيلون بجيشها المكون من يونانيين وأقباط لمدة سبعة أشهر. وبعد ضعف قائد الجيش الذى عزل فى جزيرة الروضة سقط بابيلون مصر عام ثمانى عشرة هجرية. وصارت مصر ولاية تابعة للدولة الإسلامية بقيادة عمرو بن العاص قائد الجيش العربى.

وقد حاول بعض الأبطال اليونانيين المقاومة لحماية الحصن ولكن بعد أيام قليلة استولى عليه المسلمون[٣] وأسسوا فيه مبانى جديدة غيرت من مظهر المدينة وأطلقوا عليها اسم «فسطاط»[٤] وقد أطلق هذا الاسم عمرو بن العاص

(١) البابيلونيون والفرس كونا جيشًا واحدًا.

(٢) الآثار القديمة، الكتاب الثانى، الفصل الخامس.

(٣) مسجد عمرو بن العاص الجميل يقع قرب قصر الشمع.

(٤) أضفنا على اسم الفسطاط اسم مصر وهكذا أطلق العرب الاسم على العاصمة المصرية والقاهرة تمثل هذا الاسم حاليًا وحملت الفسطاط اسم مصر العتيقة الذى أطلقه عليها الأوروبيون. ومصر القديمة سقطت فى عهد «شاور» الذى سلمها للفرنسيين تحت قيادة «عامورى» ملك القدس عام ٥٦٤ هجرية.

وهو اسم عربى يعنى «الخيمة». وبناء على زعم المؤرخين العرب فعندما كان عمرو بن العاص هادم المدن [كذا !] ذاهبًا لفتح الأسكندرية لم يهدم خيمته لكى لا يقلق حمامة تبنى عشاً عليها. ! !

وقد وجد العرب فى حصن بابليون معبدًا للنار خاصًا بالديانة والمذهب الفارسى فأطلقوا عليه اسم «قبة الدخان» [1] ويحتمل أن هذا الاسم اشتق منه اسم قصر الشمع الذى أطلق على الحصن آنذاك.

إن التشابه الموجود بين اسم قصر الشمع واسم بابيلون فريد من نوعه وهو أدبياً يعنى قصر الشمع أما بالكناية فيعنى قصر النور واسم بابيلون يعنى باب الشمس وحسب علماء اللغات الشرقية يعنى أيضاً مدينة النور أوالمدينة المضيئة أومدينة المجد.... إلخ.

وقد هجر ملوك المسلمين قصر الشمع واستقروا فى القاهرة[2] وبعد رحيلهم سقط القصر أطلالاً وحاليًا فقد قصر الشمع رونقه.

ولا يذكر شىء ببهائه، وتذكرك آثار سوره المهدم القديم بمرور شعوب عظيمة وبذكرى هؤلاء المسيحيين والعبيد التعساء الذين كانوا يرتعدون خوفًا من ضياع ثرواتهم وحياتهم واتخذوا جدران هذا القصر الذى شيده الرومان ملجأ لهم. ولم يبق من هذا القصر إلا ذكرى فى ذهن البشر.

---

(١) Qoubbet تعنى قبة. وعند العرب تستعمل لتسمية مبنى دينى.

(٢) «القاهرة» اسم يطلق على عاصمة مصر ويعنى المنتصرة، وقد أطلق هذا الاسم مؤسسها جوهر الصقلى سنة ٣٥٨ هجرية تحت حكم المعز لدين الله أول خلفاء مصر الفاطميين. وهو اسم لم يعد مستعملاً عند المصريين فاستبدلوه باسم مصر، وأحب أن أعرفكم أن الرحالة الذين أطلقوا على قلعة مصر اسم بابليون كانوا مخطئين.

(ارجع إلى وصف آثار القاهرة، الفصل العشرين وآثار تل أتريب وضواحيها، الفصل الثانى والعشرين، فى نهاية هذا المجلد).

الفصل الحادى والعشرون*

وصف عين شمس

بقلم لانكريه(**) ودو بوا إيميه

مهندسى الطرق والكبارى وعضوى لجنة العلوم والفنون المصرية

عن الطريق من القاهرة إلى عين شمس

كنا نقيم فى القاهرة منذ عدة شهور فى انتظار الوقت الذى يسمح لنا فيه بالتجول بحرية فى الأماكن المحيطة بها وعندما سنحت لنا الفرصة، قررنا مع مجموعة من أعضاء لجنة العلوم والفنون المصرية الذين نذكرمنهم ديفيلييه وجولوا[1] الاستفادة من ما منح لنا ومن الحماية لزيارة أطلال مدينة الشمس.

وخرجنا من القاهرة عبر باب مجاور للقلعة فوجدنا أنفسنا فى جبانة شاسعة عمارتها رائعة الجمال وعدد قبابها ومساجدها يشبه إحدى المدن التى وصفها العرب فى قصصهم الخيالية.

وكان سكان هذه المدينة نائمين فى سبات عميق منذ عدة قرون، والسكون رهيب والشىء الحقيقى والأكيد هو سحر هذه المقابر.

(*) التزاما بما ورد فى الأصل الفرنسى تمت ترجمة الفصل العشرين فى الجزء ٢٨ من الترجمة العربية ويخص آثار مدينة القاهرة. (المراجع)

(**) توفى السيد لانكريه قبل بداية كتابة هذه الدراسة ولكنى لا أنكر أن معلوماته ومذكراته ورسوماته قد أفادتنى فى وصف عين شمس. وأعتقد أنى سأكتب اسمى بجانب اسم رجل عزيز على تأثرت بموته كثيرًا وكل الذين عرفوه يرسلون بأطيب مشاعرهم وخاصة دو بوا إيميه.

(١) كنا أربعة وتخرجنا من نفس المدرسة ومنذ طفولتنا ربطنا حب اكتشاف الطبيعة وقطع المسافات البعيدة،كنا نجهل طريق بابيلون على هذه الأرض ولكن هذا المحارب المشهور كان يضع ثقة عمياء فى علمائه (أمثال مونج - برتولى - كفارلى - دولوميو) وكانوا يرافقونه دائمًا وعرضوا علينا الانضمام لأعمالهم فهل نرضى؟ بعد بقائنا فى مصر ٤ سنوات وسط الآلام والأخطار والبهجة رجعنا إلى وطننا.

وتقع مدينة الأموات بين جبل المقطم وجبل رمادى يتكون من تراكم أنقاض القاهرة، وقد زرعت على الرمال الساخنة نباتات بجانب القبور مما يدل على الإيمان والأحاسيس النبيلة.

إن وحدة المكان والسكون المخيم عليه يقلق بعض النساء اللاتى يبكين موتاهن والناس الذين أحبوهن ومازلن أوفياء لهم، وكانت النساء ترتدين الخمار ويبكين وينازعن عند القبور وكن من بعيد يَلُحْن كأشباح ملفوفة فى أكفان الموتى، وسمعنا من أعلى مدينة القاهرة المكتظة بالسكان صوتًا مرتفعًا جدًا، وسمعنا أيضًا أصواتًا من أعلى المئذنة تعلن عن أوقات الصلاة وكانت الرياح تحمل الأصوات عبر هذه المقابر لتنبئك بسرعة الوقت التى كادت أن تخرق صفوف المصلين الخاشعين. ومررنا بالقرب من مقبرة تقف أمامها امرأة ضخمة يبدو أنها فقدت ابنها الغالى وكانت الدموع تهطل من عينيها فسقت تربة القبر وهذا المشهد الأليم أثار أحاسيسنا ومزق قلوبنا.

واجتزنا فى جو من السكون هذه الأماكن الحزينة التى أيقظت الحنين إلى أصدقائنا الذين فقدناهم فى مصر وأهلنا الذين فارقناهم وربما لن نراهم مرة أخرى وإلى وطننا هدفنا الغالى(١).

واتجهنا نحو مسجد كبير يسمى «قبة العدلية» أسسه محارب عظيم أيام الصليبيين وكان شقيق صلاح الدين الملك العادل الذى أطاح «بجوبى» واستولى على القدس والقاهرة وتمت اتفاقية سياسية بين المسلمين والصليبيين. وكان من أسباب هذا الاتفاق بينهم أخت ريتشارد قلب الأسد. واستمر بنا المشى عبر الصحراء نحو طريق بلبيس وكان الطريق عبارة عن ممرات ضيقة رسمتها القوافل على الرمال(١) عند مرورها عليها، وشمالا رأينا أراضى مزروعة وعلى

---

(١) دخلنا حربًا مع سادة البحر ولكننا انهزمنا وتحطم أسطولنا قبالة شواطئ أبى قير، وكان أملنا فى جيشنا الذى كاد يوفر لنا الحماية داخل مصر وكان رجاؤنا البقاء مدى الحياة على أرض مصر، إن بعدنا عن الوطن والخوف ألا نراه ثانية عرفنا مقدار حبنا له، كنا نتمتع بحياة جميلة ومرفهة ولكن حنيننا للناس الذين تركناهم فى فرنسا زاد، وكان كل الفرنسيين الذين غادروا السين والرون واللوار من أجل ضفاف النيل يبكون وطنهم.

اليـمين تمتـد أرض قـاحلة حـتى الجـبل الأحـمـر وهو جـبل صـوانى و كـان اللون الأحمر ظاهرًا على الجبل بين الأحجار الكلسية المحيطة به.

ووجـدنا بالطـريق آثارًا عـرفـتنا أن النيل كـان يسـقى هذه الأراضى الرمليـة وعثرنا أيضًا على حصى مصرى وقطع من أخشاب متحجرة وقطع حشّاد وحجر رملى صوانى، وتركنا طريق بلبيس وتوجهنا نحو قرية تسمى «المطرية» كان شكلها مختلفاً عن قرى مصر التى رأيناها.

وكانت القـرية مـبنية من طوب وطين وجدران حدائقـها مـبنية من الأحـجـار الكلسية وعليها رسومات هيروغليفية منقوشة.

و قرية المطرية غنية بزراعـة الريحان الذى يشبه شجر المستكة الذى يستخرج منه العلك. وهذا العلك كـان مصـدرًا للتجـارة فى القـرون الماضـيـة بهـذه القـرية وحالياً لا توجد أى أشجار ريحان على أرضها.

واكتـشف الرحـالة منبع مـياه جـارية فى قـرية المطرية ويعـتبـر المنبع الوحـيد بمصـر، والمسـيـحـيون الذين سـألتهم قـالوا إن هذه المياه الآتية من نهـر النيل هـى مياه مقدسـة ورمز للتوقير، لأن السيدة مـريم غسلت ابنها فيها واستظلت تحت شجرة الجميز المقدسة ولقد ظهرت عدة معجزات لدى الحجاج المسيحيين الذين شربوا من مياه هذه البئر أو لمسوا هذه الشجرة.

والمسلمون يحترمون هذا المكان لأنهم يعتقدون مع المسيحيين أن السيد المسيح يراهم كرسول من عند الله.

وتحـدثنا مع فـلاحى المطرية فـأرشـدونا إلى مـسلة عـين شـمس الموجـودة من عـصـر الفـراعنة : وكان اسم الفـراعنة لملوك مـصـر القديمـة معـروفًا عند كل الفلاحين المصريين، وتابعنا السـير لمدة ربع سـاعـة شـمـالى المطرية حتى وجدنا آثار هليوبوليس.

---

(١) تعتبر أرض الصحراء متماسكة فتجد أحيانًا بعض الصخور والحصى مفروشًا عليها وآثار المرور عليها تبدو واضحة وأحيانًا تمحوها الرمال المتحركة بالرياح.

مدينة هليوبوليس

تقع أطلال مدينة هليوبوليس (عين شمس حاليًا) على حدود المنطقة الصحراوية وعلى بعد تسعة كيلومترات شمال شرقى القاهرة وستة كيلومترات يمين ضفة النيل. وسور هذه المدينة واضح ومعروف جدًا وهو مبنى بعدد كبير جدًا من الطوب النيىء وقدر سمكه[١] فى أحد الأماكن بثمانية عشر إلى عشرين مترًا وارتفاعه لأربعة إلى خمسة أمتار، ويحيط السور بمساحة ألف وأربعمائة مترًا طولا وألف متر عرضًا[٢]، وقد ظن بعض الرحالة أنه حصن تركى ربما لأنهم لم يروا مثلنا عددًا كبيرًا من المدن القديمة ولاحظوا أن كل المدن القديمة لها حواجز وأسوار مثل مدينة هليوبوليس المبنية من طوب ضخم لا يستخدم حاليًا، ولم يستخدمه الأتراك أو العرب[٣].

وبعد غزو السلطان العثمانى سليم لمصر عسكر على آثار وأطلال هليوبوليس واستخدم المدينة بعد أن أضاف إليها بعض الأماكن كحصن للدفاع ضد العدو. وكان من المستحيل تعلية هذا البناء الضخم فى وقت قصير لتجنب فرار العدو[٤].

وكان فيضان النيل يصب أمام عين شمس مكونًا مستنقعات منتشرة تحافظ على المياه لعدة شهور.

ويوجد بداخل ساحة عين شمس أكوام من الأنقاض المتراكمة وقطع فخارية كونت مكاناً بيضاوى الشكل ونرى بداخله المسلة. كما نجد قناة لصرف مياه النيل نحو أرض هليوبوليس القديمة لتسقى مزارع القمح التى زالت مع الزمن واستبدلت بالمسلة وأعمدة ضخمة، أو بخيام البدو المؤقتة عند مرورهم من هناك، وكذلك هناك أماكن كانت عليها قصور شاسعة وفخمة فى العصر القديم.

---

(١) وجد السيد «مونج» على السور قطع من أحجار كلسية وظن أن السور مغطى من الداخل والخارج بأحجار منقوشة فى العصر القديم ويقدر سمكها بحوالى ٣٦سم وعرف أن الطوب النيىء والملاط قد استعمل فى البناء.

(٢) انظر المسقط الأفقى.

(٣) تحدث ديودور الصقلى عن التلال الاصطناعية التى وضعها سيزوستريس لحماية سكان مصر من فيضان النيل.

(٤) تأسس معسكر السلطان العثمانى على أطلال هليوبوليس حسب الروايات الشعبية.

ولم نعثر على آثار مبانى ولكن وجدنا قطعًا من الأدوات التى تستعمل أثناء البناء وهى من أحجار جيرية أو مرمر أو رخام أو جرانيت وغالباً نجد بها شروخًا وكذلك قطع من حجر الصوان الذى يوجد محجر بالجبل الأحمر.

ووجدنا بواقى أفران وقطع معدنية وكلسية تدل على أن هذه الآثار انتفع بها البشر لاستخراج الجير، كم من تحف أثرية دمرت بهذه الطريقة واختفت؟! لقد صرخنا أمام وحشية الفلاحين لتدميرها ولكن لن نتجرأ أن نتكلم الآن، حتى فى إيطاليا الحديثة التى تفتخر بمعالمها الأثرية وتحت الإدارة الفرنسية للفنون الجميلة شاهدنا مغارات "تاركنيوم "تتحول إلى أفران جيرية وكل الرسم والنقش الموجود على جدرانها وكان يوضح الديانة الغامضة للأتروريين عبر العصور قد دُمر وزال فى لحظة.

وذكر عدد من الرحالة أنهم شاهدوا فى عين شمس تمثالاً مكسورًا يبدو أنه لأبى الهول ولكن وجدنا قطعة صوان ضخمة لونها أحمر مستديرة الشكل وعليها كتابات هيروغليفية.

واعتقد أعضاء لجنة مصر أن هذه القطعة تنتمى فعلا لتمثال أبى الهول وظنوا أنهم تعرفوا على شكل الردف وحركة الرقبة لكن الكتابة الموجودة على الجزء الذى يمثل الردف تسبب نوعًا من الشك.

وعدد تماثيل أبى الهول التى اكتشفناها فى مصر العليا لا تشبه ولا تقارن بما وجدناه[1]. وقد اكتشفنا بجانب هذه القطعة قطعة أخرى من الرخام الصوانى ومكعب من الجرانيت مقياسه حوالى متر وتوجد كل هذه القطع غربى المسلة فى اتجاه أحد منافذ الساحة. واكتشفنا فى القرى المجاورة عدة قطع أثرية قديمة تم نقلها من عين شمس. ولاحظ «جومار» فى قرية «الخصوص» تيجان لأعمدة مصرية من الرخام الصوانى الجميل الذى يصعب نحته. ولم نعثر على مثل هذه

---

(١) احتمال أن هذه الكتابات الهيروغليفية قد خططها بعض المصريين عند مرورهم بعين شمس أو لطلبهم أمنية، ولقد رأينا على مقابر طيبة كتابات هيروغليفية تشبه التى ذكرتها بالأعلى لكن الأحجار التى بنيت بها مختلفة وليست بمثل صلابتها والكتابات كانت جيدة ولم تفسد شكل القطعة الأثرية.

القطع فى صعيد مصر: والأعمدة التى وجدناها كانت من الصوان أو من أحجار جيرية. والقطع والآثار التى اكتشفناها تؤكد أن مدن مصر السفلى كانت تستخدم مواد البناء الثمينة والجيدة عكس مدن طيبة. وتعتبر المسلة القطعة الأثرية الوحيدة الكاملة الموجودة فى مكانها الأصلى ولا يوجد أى اختلاف بين هذه المسلة والمسلات التى رأيناها فى صعيد مصر[1]، وتتكون هذه المسلة من قطعة واحدة من حجر الجرانيت الأحمر ويقدر ارتفاعها بحوالى عشرين مترًا وسبعة وعشرين سنتيمترًا، وعرض أوجه المسلة عند القاعدة يقدر بحوالى ١,٨٤ متر ومن طرفه الأعلى حوالى ١,١٧ متر.

وكانت المسلة مدفونة بعمق ١,٧٨ متر تحت الأرض، ذلك بسبب ارتفاع منسوب الأرض بحوالى مترين نتيجة للرواسب الطينية التى سببتها فيضانات النيل. وقد وضعت المسلة على قاعدة من صوان على أرض مرتفعة بسبب تراكم الأنقاض، ولمحنا آثار مياه فيضانات النيل على المسلة وقدرنا ارتفاعها بحوالى ١,٥٥ متر من الأرض أى حوالى ٣,٣٣ أمتار من القاعدة المبنية عليها.

ونجد ثلاثة من أوجه المسلة عليها كتابات هيروغليفية رتبت بنفس الطريقة أما الوجه الرابع ففيه بعض الاختلافات البسيطة والكتابات الهيروغليفية تتجه نفس الاتجاه على وجهين ولا تنتهى بنفس الطول نحو القاعدة، والخط الأفقى الذى يكون آخر سطر هيروغليفى يساوى ١,٤٦ متر على الوجهين ونجده يساوى ١,٢٤ متر على الآخرين[2].

وكانت الكتابات الهيروغليفية سليمة فى الأعلى وتالفة فى الوسط نتيجة للرياح المحملة برمال الصحراء وحسب قول «استرابون» ربما تلفت نتيجة للحريق الذى أضرمه «قمبيز» حيث أتلف عددًا كبيرًا من المسلات.

---

(١) انظر اللوحة ٢٦ العصور القديمة، المجلد الخامس، رسم المسلة واللوحات ١١-١٢-٣٠ العصور القديمة، المجلد الثالث، مسلات طيبة.

(٢) لمزيد من التفاصيل، راجع شرح اللوحات.

وقد عثرنا على عدد كبير من المسلات فى عين شمس[١] وأغلبها نقلها الأباطرة المختلفون إلى روما وتزين حاليًا أقدم عاصمة فى العالم، باستثناء التى وصفناها سابقًا.

وفى القرن السادس من الهجرة حطم العرب عددًا كبيرًا من هذه المسلات عندما أسقطوها بحثًا عن كنوز مدفونة من الذهب وهو غرضهم الوحيد من هذه القطع الأثرية وقد انخدع العرب لجشعهم [كذا !] .

وروى كتاب الأمة[٢] أن العرب وجدوا تحت هذه المسلات مائتى قنطار من البرونز (تسعة وثمانون كيلوجرامًا) وهم فى الحقيقة لم يتوقعوا كنزًا كهذا.

أما بالنسبة لتماثيل الرجال التى ادعى الكاتب أنها كانت فوق المسلات وكان يجرى منها خيط رفيع من الماء لا يصل أبدًا إلى الأرض. فنعلم جيدًا أن الشرقيين يصدقون مثل هذه القصص الخرافية الشعبية التى لا تصدق.

وقد ذكر الكاتب عبد اللطيف فى ترجمته أن «دى حامر» الذى نقل عن «ساس» أنه رأى خيط الماء عند ثلث ارتفاع مسلة هليوبوليس كان يقف على بعد أربعين خطوة من هذه القطعة الأثرية وكانت قدماه وسط مستنقع تكون من مياه فيضان النيل.

وربما يكون انعكاس الضوء من المسلة يعطى لمعاناً وألوان مختلفة على حجر الجرانيت أو عدم الرؤية الجيدة لتخلخل الهواء كل ذلك جعله يخطئ أو بعد قراءته لأقوال الكتاب العرب الذين ذكرتهم وأشاروا إلى وجود هذا الماء، فعندما يصدق العقل تخطىء العيون.

والمسلة التى رأيناها فى عين شمس تحمل بصمات محاولة إسقاطها، فكانت إحدى زوايا قاعدة المسلة المدفونة تحت الأرض مكسورة مما عرقل جهود رفعها وتثبيتها فى وضعها الأصلى. وكان أسفل هذه القطعة الأثرية شروخ نتجت عن

---

(١) بلينى، التاريخ الطبيعى، الكتاب ٣٦، المقطعان ٨، ٩.

(٢) المقريزى ومحمد عبدالرحيم وعبدالرشيد البكوى.

سقوطها، ولم يبق شىء من هذه المدينة العظيمة ولكن العلوم والآداب تذكرنا دائماً بهذه الحضارة.

واعتبر سكان هليوبوليس الأكثر ثقافة فى مصر[١] حيث اشتهرت مدارس الكهان فى ذلك العصر.

ونجد أن «أودوكس» و «أفلاطون» و «هيرودوت» اهتموا بدراسة علم الفلك والفلسفة والتاريخ عند قدماء المصريين وأثنوا على هذه العلوم، وافتخر الكتاب بها وكتبوا عنها فى كتب مقدسة.

وكانت مدارس الكهنة والمدارس الموجودة فى طيبة ومنف هى الوحيدة التى تنتخب أعضاء لتكوين محكمة الثلاثين وتعنى مجلس أعلى للعدالة، ويمكن مقارنته حسب قول «ديودور» بمجلس الشيوخ فى لاسيدونيا باليونان وبالحزب فى أثينا.

وقد حاولنا سطر تاريخ هليوبوليس ولكن دون جدوى، وسوف نخطط باختصار تقديم لمحة تاريخية عن ظلمات العصور القديمة.

كان قدماء المصريين يحتفلون بالشمس كل سنة فى مقبرة مميزة وتعتبر الاحتفال الدينى الرابع فى مصر[٢] وكانوا يعطون الثور «منيفس» رمز الشمس وكان يشبه الثور «أبيس» وهو رمز دينى خاص، وبنفس المقبرة وحسب قول المصريين القدماء يحلق طائر «العنقاء» ويكون قادمًا من الشرق بعد أن عاش ١٤٦٠ سنة ليموت على كومة من حطب شجر المر واللبان ثم يبعث مرة أخرى من رماده[٣]، وهذه الأسطورة الباهرة تدل على أعمال وأبحاث الكهنة فى علم الفلك بمنف. وكذلك كيفية استخدام الشمس للتوقيت الزمنى ولضبط حساب الزمن بالشمس وفترة ١٤٦٠ سنة التى تتكون من سنوات تسمى سنة توت وبها فترات نسئ وتطابق السنة الشائعة عند المصريين القدماء.

---

(١) «هيرودوت» التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ٢.

(٢) نفسه، المقطع ٥٩.

(٣) نفسه، الكتاب الرابع، والتاريخ الطبيعى لبلينى، الكتاب العاشر.

وتطابق أيضًا السنة الفلكية المكونة من ٣٦٥ يومًا، و٦ ساعات وتحدد فصول السنة. وقد تأثر علم الفلك بالدين والاعتقادات[1]. وكان المصريون يصدقون كهنة هليوبوليس أما كهنة المعابد فكانوا يقدسون ويجسدون الطائر المقدس ويؤمنون بيوم بعثه.

ومدينة هليوبوليس عند قدماء المصريين كانت تتميز بالحكم الملكى وحسب الأسفار الخمسة الأولى من الإنجيل، فأعتقد أن يوسف بن يعقوب قد تزوج «أسينت بنت بوتيفار» كاهن الشمس فى هليوبوليس ويعنى اسم بوتيفار كاهن الشمس الأكبر. وقد أدخل اليهود كلمات غريبة فى لغتهم وأخذوا عناوين واستعملوها على أنها اسماء.

وورد فى ترجمة الإنجيل باللغة اليونانية أن مدينة هليوبوليس أسسها اليهود عندما تم القبض عليهم واستعبادهم وينفى «أوزاب» هذا الكلام لأن هذه المدينة كانت موجودة عند مرور يعقوب على مصر.

وجاء فى النصوص العبرية أن مدينة الرعامة أسسها اليهود وأُستخدم العبيد فى بناء المنشآت الأثرية الضخمة، وساهموا فى تغيير شكل المدن مثل مدينتى بتوم ورمسيس.

وفى عهد سيزوستريس كانت هليوبوليس إحدى حصون مصر وزعم الكاتب ديودور الصقلى أن أمير هذه المدينة شيد سورًا يمتد من بيلوز إلى هليوبوليس لإبعاد العرب والسوريين عنها. وبنى ابن هذا الأمير مسلتين لإحياء ذكرى أحد الأحداث وكما زعم الكاتب إنه رغم قسوة ابيه الفرعون فإنه كان يؤمن بالمعتقدات بعد أن فقد بصره من عشر سنوات حتى أمره أحد الكهنة «أن يطلب أمنية من رب هليوبوليس ليحققها له ثم غسل عينيه ببول امرأة مخلصة لزوجها، وبعد محاولات عديدة بدأها بزوجته ثم نساء أخريات لم يشف إلا من بول امرأة

---

(١) إن عام لم يكن ٣٦٥ يومًا و٦ ساعات فقط أو بصورة غير دقيقة ٣٦٥ يومًا و٢٥/١٠٠ وإنما ٣٦٥ يومًا و٢٤٢٢٤٥ جزءًا من المليون من الساعة وأن فترة النسئ لا تعطى نفس مواعيد الفصول بالتحديد ولكن يوجد فرق حوالى ١١ يومًا ناقصة.

بستانى، اشتهرت المرأة بعدها وتزوجها بعد شفائه ثم حرق كل النساء الأخريات وأطلق على القرية اسم الأرض المقدسة» .

وبعد أن تحقق حلمه وفقًا لما أُمر به بنى فرعون مسلتين من الحجر كان سمك الواحدة حوالى ثمانية أذرع وارتفاعها[١] حوالى مائة ذراع.

ومعتقدات الكهنة وحيلهم تزيد من خشية الشعوب وملوكهم ولن نتجرأ أن نضع هذه القصة كأسطورة رغم أنها تحمل كل الصفات الخرافية. وفى كتاب «بلينى»[٢] نجد اسماء لثلاثة ملوك مصريين شهدت مدينة هليوبوليس فى عهدهم الازدهار والتطور.

ولقد زار «استرابون» تحت حكم أغسطس هذه المدينة حيث كانت فترة حكمه مملوءة بالاضطرابات والثورات مما تسبب فى تهدّم المدينة وتحولها إلى أطلال، وكانت شوارعها تبدو خالية والمبانى عليها آثار شر وعدوان " قمبيز" هذا المحتل المتوحش الذى يهوى هدم المدن وأروع الأماكن الأثرية وحتى استباحة وإهانة الموتى.

ومدارس الكهنة كانت موجودة ولكنها كانت متوقفة عن الأنشطة العلمية ومسخرة لأعمال العبادة والكهنوت. والمرصد الذى درس فيه «أودوكس» قائم وكان الرحالة الرومان يزورونه ويزورون منازل هؤلاء الفلكيين مثل أودوكس وأستاذه أفلاطون. واسم هليوبوليس الذى تطرقنا له من خلال وصفنا يتكون من كلمتين يونانيتين بمعنى «مدينة الشمس» وما زالت آثار هذا الاسم موجودة حتى وقتنا الحالى، والمصريون المعاصرون والجغرافيون العرب يطلقون على أطلال هذه المدينة عين شمس وأحياناً مدينة الشمس.

وهناك تشابه بيْن الاسمين، وكذلك كان اليهود يطلقون على المدينة اسم "ON"[٣] وتعنى شمس باللغة المصرية، وذكر «سيريل» فى تعليقه على الرسول

(١) ديودور الصقلى، كتاب ١ ترجمة القس تيراسون.

(٢) التاريخ الطبيعى، الكتاب ٣٦، المقطع ٩.

(٣) حسب جزء من نص "جيرمى" الفصل ٦٣، البيت ١٣ إن اليهود فى عصره كانوا يسمون هليوبوليس بيت الشمس.

«أوس» لـ لأنه كان ابن القمر، وكان الابن البكر للشمس ؛ فإن أولهما هو ما يحكى عنه المصريون وثانيهما هو الشمس).

ويطلق الأقباط حسب ترجمتهم نفس الاسم فى النسخة القبطية من الكتاب المقدس ويعنى مدينة الشمس.

والحاخامات السبعون الذين ترجموا النص العبرى من التوراة إلى اللغة اليونانيةاستبدلوا كلمة ON بمدينة الشمس.

وليس هناك أدنى شك إنهم لا يدركون جيدًا اسم كل مدينة مصرية باللغة القومية ومقابلها فى اللغة اليونانية. ومن الخطأ رفض هذه المعلومات الضئيلة فى مجال الجغرافيا لعدد كبير من العلماء فى اللغتين، فهؤلاء العلماء كانوا يقطنون فى مصر فى الزمن القريب بعد رضوخ مملكتهم للمقدونيين.

وموقع هليوبوليس الجغرافى كان هدفًا لعديد من العلماء والباحثين من بينهم نجد «لارشر»[١] الذى لم يستطع أن يوفق بين قصص هؤلاء الكتاب، واسترابون وهيرودوت وديودور وبطليموس اعتقدوا وأكدوا أن المدينتين تحملان اسمًا واحدًا فى نفس الوقت.

وكانت أول مدينة فى قمة الدلتا والثانية على قرب منهما فى الناحية الشرقية للفرع البيلوزى وأعتقد أن المدينة الأولى كانت أكثر شهرة وهى التى ذكرها هيرودوت واسترابون وسنتجرأ ونناقش هذا الرأى : وهو وجود مدينتين قريبتين إحداهما من الأخرى والثانية أقل شهرة من الأولى مع أنها تركت آثارها على أرض وفى أذهان المصريين أكثر من الأولى ولاحظنا أن الكُتّاب القدامى الذين ذكرناهم لم يذكروها فى كتبهم وسنكون مجبرين على أن نقول :إن هيـــرودوت واسترابون ... إلخ نسوا المدينة الثانية الموجودة شرقى الدلتا، وكذا فعل ديودور وبطليموس وانطونيانوس على هذه المدينة الموجودة فى الدلتا، وبهدوء تام نتساءل

---

(١) موضوع هليوبوليس فى فهرس الجغرافيا الذى أضافه إلى ترجمة هيرودوت ونذكر أن هذا العالم إهتم بكثير من التفاصيل لهذا الوصف وذلك لمعرفته باللغة اليونانية وهذا السبب جعل عدة كتاب يحددون موقع هليوبوليس بالدلتا.

هل هذا معقول[1]، ويتعدد الوصف والشرح تكثر الاختلافات والمشاكل ولا يوجد داع لوضع مدينة هليوبوليس فى الدلتا التى تكلمنا عن آثارها التى تطابق تماماً وصفنا لموقع المدينة القديمة. وحسب كتاب هيرودوت الثانى المبحثين ٧ - ٩ [2] المبحث ٧ ـ من البحر إلى هليوبوليس. تعتبر مساحة مصر عريضة وواسعة وتتخللها منحدرات وأرضها مروية جيدًا وموحلة ومليئة بالطمى.

وإذا سافرنا عن طريق البحر إلى هليوبوليس ؛ فسوف نجد أن بعد هذه المسافة تشبه المسافة بين أثينا من مذبح الآلهة الاثنى عشر ومعبد جوبيتر الأوليمبى فى بيزا «المبحث ٩ من هليوبوليس إلى طيبة صعدنا النهر لمدة ٩ أيام» (ترجمة لارشر) وقد استنتج السيد لارشر أن مدينة هليوبوليس تقع على درجة واحدة من ضفة الفرع السبنيتى، وإذا أبحرنا من المصب على درجتين من الدلتا نصل لهذه المدينة، وهذه القناة تقسم الدلتا إلى جزأين.

وقد استوعبنا بصعوبة كل الأشياء التى ذكرت فى النص الذى قدمناه. ولا مناقشة على الفرع السبنيتى الذى تكلم عنها أخيرًا هيرودوت فى كتابه الثانى المبحث ١٧، وهذه الحقيقة تنفى الأولى والثانية «للارشر» ومن ناحية أخرى يؤكد « لارشر» رأيه قائلا: أبحرنا من الفرع السبنيتى للوصول لمدينة هليوبوليس، فهل لنا الحق أن نستنتج أن هذه المدينة كانت على النيل ؟ ويمكننا حالياً الذهاب إلى القاهرة عن طريق فرعى النيل رشيد ودمياط دون أن تكون القاهرة على أحد الفرعين ؟.

وذكر قول هيرودوت :كنا نبحر من هليوبوليس للوصول إلى طيبة ؛ فهل لايعتبر هذا دليلاً أو علامة على أن هليوبوليس كانت فى الدلتا ؟ وإذا اعتقدنا

---

(١) تكلم بطليموس عن مدينتى هليوبوليس وحدد موقع إحداهما فى ١/٦ درجة جنوبى قمة الدلتا و١/٣ درجة جنوبى العاصمة الإدارية لهليوبوليس ـ إن هذه المدينة تبدو غريبة فى مناقشتنا ولا يمكن تحديد موقعها نحو مسلة المطرية أو بين فروع النيل أو فى قمة الدلتا.

(٢) سنحاول عبر مناقشتنا شرح نص الكتاب الذين ذكرناهم حتى نجعل القارئ يحكم على المناقشة والشرح والنتائج التى توصلنا إليها.

على الأقل أن هليوبوليس كانت على ضفاف النيل وأن الموقع الذى حددناه لها غير مناسب نجيب أن هذه المدينة كانت على أحد القنوات المتفرعة من النيل[١]، وكانت هذه المدينة مجاورة للنهر وإذا تصورنا أننا نبحر للوصول إلى طيبة كان من الواجب السفر برًا عبر الطرق إلى هذا الميناء وهنا أصبح هيرودوت لا يقول نبحر إلى هليوبوليس ولكن يقول حرفياً من هليوبوليس إلى طيبة الملاحة تستغرق تسعة أيام.

ويريد هيرودوت أن يقول من خلال هذه الجملة إنه لا يتكلم عن موقع هليوبوليس بالنسبة للنهر ولكن يريد أن يشير إلى المسافة الموجودة بينها وبين طيبة، ويمكننا القول حاليًا : إن المسافة من القاهرة إلى أسيوط تستغرق عدة أيام فى النيل رغم أن هاتين المدينتين لا توجدان على ضفافه.

ووجدنا مكان لا يقل أهمية عن هليوبوليس ويقع فى قمة الدلتا[٢] وهذا المكان يساعدنا على تحديد الحد الأعلى لمصر السفلى الذى كان لا يحد الدلتا[٣] وحدها بالنسبة لهيرودوت. وهذا المؤرخ له الحق فى قوله (إن الطريق برًا من البحر حتى هليوبوليس يبين أن مصر عبارة عن أرض فضاء واسعة).

«إن مصر واسعة وعريضة (الكتاب الثانى، المجلد الخامس) وتعتبر ضيقة أعلى هليوبوليس ونستغرق أربعة أيام من الملاحة للوصول إليها». (نفسه، المبحث ٨).

والرحالة يصفون حاليًا الأطلال كما وصفناها تمامًا.

---

(١) قال استرابون كل مدن مصر التى لا تقع على ضفاف النيل تتصل بالنهر عبر قنوات.

(٢) قمة الدلتا كانت فى السابق تميل إلى الجنوب أكثر - ارجع إلى دراسة فروع النيل القديمة التى كتبها دو بوا إيميه.

(٣) المبحث ١٨ - إن سكان كارى وأبيس وهما مدينتان على الحدود الليبية لا يعتبرون أنفسهم من سكان مصر ولكن يعتبرون أنفسهم ليبيين، رغم أنهم أخذوا كل العادات الدينية من مصر لكنهم كانوا يأكلون لحم البقر وأرسلوا إلى كاهن آمون يطلبون السماح بأكل كل أنواع اللحوم لأن سكان خارج الدلتا لا يتكلمون نفس اللغة وغير مشتركين فى كثير من العادات إلا أن الرب رفض طلبهم وقال: إن جميع سكان أرض النيل وفروعه ينتمون لمصر، وكل السكان الذين يعيشون فى المدن الواقعة على ضفاف النيل ويشربون من مياهه يعتبرون مصريين (المبحث ١٩). إن نهر النيل لا يغرق الدلتا فقط ولكنه يغرق كل الأماكن التى تنتمى لليبيا وبعض أماكن الجزء العربى ويمتد الفيضان على كل هذه المساحات التى تقدر بيومين من المشى. (كتاب هيرودوت ترجمة لارشر).

وقد تكلم الكاتب استرابون عن عدة مدن واقعة شرقى الفرع البيلوزى القريب من الدلتا قائلا «تقترب هذه الأماكن من قمة الدلتا (يعنى بين هذه الأماكن) نجد أيضًا تل بسطة فى مقاطعة تل بسطة ومن أعلاهما يقع المكان الإدارى «هليوبليت» (عين شمس) وهنا نجد مدينة هليوبوليس»[١].

«تقع مدينة هليوبوليس على تل مرتفع وتحتوى على معبد الشمس، وأمام هذا التل توجد بحيرات حيث تصب مياه القناة المجاورة».

هل يمكننا أن نستنتج مثل «لارشر» أن هليوبوليس تقع فى الدلتا ؟

بالنسبة لنا نحن نرى شيئًا آخر، وهو أن مدينة هليوبوليس تقع جنوبى تل بسطة، لأن البحيرات التى توجد أمام هليوبوليس تؤكد أن هذه المدينة لا توجد فى قمة الدلتا.

وأرض مصر تتكون من الرواسب الطينية لفيضان النيل ومنحدرة من الجنوب إلى الشمال وتكونت فى صحرائها برك من النهر. وحيث إنه لا يمكن أن تتكون بحيرات بين فرعين ومن نقطة افتراقهما، لكن يمكن أن تتكون من مصب النيل أو على حدود الصحراء. فأنا أطلب من قرائنا أن يتفحصوا الخريطة حتى يقتنعوا بما ذكرته. وسيجدون كذلك قناة تمر بالقرب من هليوبوليس التى أشار إليها استرابون. وهذه القناة تصب فى بحيرة الحجاج التى تقع فى المكان المحتوى على آثار هليوبوليس وقد تكلمنا فى السابق على البحيرات التى تكونت بالقرب من سور المدينة و سنحاول الاستماع إلى استرابون الذى سيبعد الشك عن موقع هليوبوليس، وأطلق اسم ليبيا على الأراضى خارج الدلتا غربى النيل واسم الجزء العربى على الأراضى التى تحدها من الشرق ويضيف إن القسم الإدارى لمدينة

---

(١) يبدو لى من خلال هذه الكلمات كذلك مدينة تل بسطة وقسمها الإدارى أن استرابون لم يريد أن يقول إن تل بسطة تقع فى قمة الدلتا ولكن تقع بين المدن التى تكلمنا عنها فى السابق. ومعرفة موقع الأماكن تبعد الشك ووضع الاحتمالات، بما أن آثار تل بسطة موجودة شمالى بلبيس أى حوالى ٥٠,٠٠٠ متر شمال شرقى قمة الدلتا حاليًا. انظر دراسة دو بوا إيميه عن فروع النيل القديمة. إذا توقعنا أن مدينة تل بسطة تقع على أحد فروع النيل، وكان استرابون سيذكر هذه المدينة وقسمها الإدارى بدلاً من ذكر ضواحى الدلتا وأقاليمها فى كتابه ١٧ الذى تكلم فيه على الجزء الأعلى للدلتا.

هليوبليت (عين شمس) يقع فى الجزء العربى ومدينة «سرسيسوره» (توجد على حافة الهضبة الليبية) توجد فى ليبيا قرب مرصد أودوكس ويوجد أيضًا بالقرب من هليوبوليس مرصد لمراقبة تحركات النجوم والكواكب. ويوجد آخر فى مدينة «سنيد» (قرب الهضبة الليبية) وهذا المكان الإدارى يطلق عليه اسم «ليتوبوليت» ترجمة «لارشر». ولا توجد أدلة حقيقية وإيجابية. فهل نضطر للجوء لتبديل النص أو إدخال بعض التعديلات عليه حتى نستطيع أن نقول إن استرابون حدد موقع هليوبوليس فى الدلتا. إن هذه الطريقة لطرح المشاكل نافعة فهل ستكون مقبولة ؟ واسترابون فى إحدى جمله التى ذكرها قال : إن المدينة الإدارية تسمى «ليتوبوليت» فهل كان هذا الاسم معرضًا للنقد؟ ومن الطبيعى عند الحديث عن مدينة سرسيسوره فى الهضبة الليبية والمدينة الإدارية لليتوبوليت، أن يضيف استرابون أن هذه المدينة الإدارية (يعنى أين تقع المدينة التى تكلم عنها) وتسمى ليتوبوليت مما يناسب قول بطليموس فى تحديد موقعها. و أخيرًا حسب قول «هينيك» الذى ذكره لارشر فإن مرصد هليوبوليس[1] كان فى هذه المدينة بالقرب من مدينة سرسيسوره التى تقع فى ليبيا. أما هليوبوليس الموجودة بالدلتا فهى أحد الاستنتاجات التى لا نستطيع أن نستوعبها.

وحسب موقع هليوبوليس الذى حددناه نجد مرصدُها على ضفاف النيل قريب من قمة الدلتا ومجاور لمدينة سرسيسوره التى تقع على نفس ارتفاع الشاطئ الشمالى. وخطأ «هينيك» ورد عندما اعتقد أن جزءًا من مصر يسمى ليبيا. وحسب استرابون فهى لا تتجاوز الدلتا. ومما قال هذا الكاتب إن ليبيا تمتد على الأراضى الواقعة غربى النيل ومهما اعتقدنا أنها تنتهى عند أعلى الدلتا، وهذا لا يغير شيئًا عن الموقع الذى أعطيناه لهليوبوليس ومرصدها ومدينة سرسيسوره. و بما أن الدلتا القديمة تمتد نحوالجنوب متوازية مع مدينة الشمس

---

(١) الآن هليوبوليس (مدينة الشمس) تكون فى الجزء العربى لكن مدينة سرسيسوره حيث تكون قريبة من المرصد الفلكى لأودوكس فى ليبيا كنوع من برج المراقبة لتكون مرئية أمام مدينة هليوبوليس (مدينة الشمس) وكذلك أمام سنيد وبإشارة من أودوكس الذى دون ملاحظته لبعض حركات الأجسام السماوية هنا يكون اسم ليتوبوليس.

التى تقع فى مدينة المطرية. فإن الكاتب ديودور الصقلى قال إن سيزوستريس[1] أغلق مصر من الناحية التى تطل على المشرق بحائط طوله ألف وخمسمائة غلوة وكان يمتد نحوالصحراء من بيلوز إلى هليوبوليس وذلك كان بسبب منع العرب والسوريين من دخولها (ترجمة القس تيراسون).

وهليوبوليس وبيلوز كانتا من ناحية الصحراء شرقى الدلتا أوهذا موقع المعالم الأثرية لهذه المدن وآثار فرع النيل القديم. وغريب أننا تجنبنا الأدلة الإيجابية لديودور.

ولم يذكر ديودور مدينة هليوبوليس التى كانت موجودة فى عصر سيزوستريس؛ ولكن تكلم عن المكان الذى شيدت فيه مدينة هليوبوليس الثانية؛ حيث أهمل فى مذكراته عنصر الزمن وهذا شىء غير مقبول. والمفروض أن هليوبوليس الجديدة كانت موجودة فى زمانه بينما اختفت المدينة القديمة، وكان من غير الداعى الإشارة إلى المدينة القديمة التى كنا نريد التكلم عنها والعكس صحيح. والشىء الذى يبدو مستحيلاً أن استرابون كان موجودًا فى مصر بعد ديودور.

وعدد كبير من الناس أفسدوا كلام كتاب العصور القديمة وخاصة الكلام المتعلق بمدينة هليوبوليس. ربما لأنهم لا يملكون المعلومات عن المناطق ؛ والشىء الذى يستحيل استيعابه هو أنهم برهنوا بأدلة واستعانوا بقول أفلاطون فى «تيمى» فليس له علاقة بذلك.

ويقول «كريتياس» أحد المتحدثين إن جده فيلسوف كبير لا يقل عن «هوميروس» أو «هيزيود» بعد عودته إلى مصر وانتهائه من كتاب العصور اليونانية القديمة لأن شخصًا سأل جده عن محتويات الكتاب فقال: «يوجد فى

---

(١) وقد تحصن سيزوستريس كذلك بحائط جانب مصر الذى يواجه الشرق كدفاع ضد الغارات القادمة من سوريا والجزء العربى ويمتد الحائط عبر الصحراء من بيلوز إلى هليوبوليس ويقاس طوله بحوالى ألف وخمسمائة غلوة.

مصر على قمة الدلتا». حيث يقسم مجرى نهر النيل مقاطعة تسمى «سايس» ومدينتها الكبيرة تسمى سايس وفى هذه المدينة ولد الملك «أمازيس» والإلهة التى تحمى هذه المدينة تسمى باللغة المصرية «نيت» وباليونانية «مينرف».

«إن سكان سايس أصدقاء لأهل وسكان أثينا ويحكى سولون أنه أستقبل استقبالاً مشرفًا». وقد أخذ هيرودوت واسترابون وبلينى وبطليموس معلومات أثرية غير متشابهة من سايس من الآثار الموجودة فى الدلتا بالقرب من صا الحجر على الشاطئ الأيمن من فرع رشيد. إذًا فكيف يمكننا القول إن هليوبوليس هى التى أشار إليها أفلاطون باسم سايس رغم أن هليوبوليس كانت فى الدلتا ؟ والحق الذى يمكننا قوله إن هليوبوليس تسمى «تزوان» ومن خلال هذا الاسم أخذ أفلاطون اسم سايس. ومقارنة بما جاء فى الإنجيل عن الترجمة السبعينية رأى أن الاسم العبرى (on) لمدينة هليوبوليس والاسم (sin) هو اسم سايس. أما مدينة تزوان فقد أطلق عليها اليونانيون اسم تانيس[1] وهل يمكننا القول إن أفلاطون استبدل اسم سايس بهليوبوليس دون أن يلاحظ هذا الالتباس؟ الذى كان فى أذهان زملائه، وهما اسمان يعنيان مدينتين مختلفتين، فإذا كان يريد أن يتكلم عن هليوبوليس لا يقول الشمس ولا يقول مينرف. وحسب هيرودوت واسترابون[2] كان يقام عيد مينرف فى سايس وعيد الشمس فى هليوبوليس. وقال «بوزانياس»[3] إن سايس تعنى بالمصرية مينرف. وشجرة زيتون تسمى بالعبرية «زايت» ونفس الشىء بالقبطية والمصرية. وأخيرًا حسب المؤرخين من سايس وليس من هليوبوليس، فقد انطلقت مجموعات من المصريين لأثينا لتطويرها وتحضيرها والإتيان بشمار مينرف[4].

---

(١) مدينة تانيس تكلمنا عنها فى أبحاثنا على فروع النيل القديمة وهنا نذكركم فقط بأن الكتاب الأقباط يسمون سايس بـ (سايى) وتانيس بـ (جان) وهذا الاسم الأخير يقترب من اسم تزوان عند اليهود.

(٢) هيرودوت: التاريخ، الكتاب الثانى، المبحث ٥٩ والجغرافيا لاسترابون، الكتاب ١٧.

(٣) وصف اليونان لبوزانياس.

(٤) ديودور الصقلى، تاريخ المكتبة، الكتاب الأول.

وعرفنا تيمى بالارتباط بين أهل سايس وأهل أثينا وقال إنهم أهل ولكن لا توجد أى علاقة بين سكان أثينا وهليوبوليس. وحسب أفلاطون فإن أمازيس كان من مدينة سايس. وحسب هيرودوت فإنه من إقليم سايس لم يذكر أى كاتب إنه كان من إقليم هليوبوليس ويقول هيرودوت إن سولون[١] خرج من أثينا متجهًا إلى مصر لتعلم حضارة وعادات الشعوب ثم اتجه إلى مجلس أمازيس. وإذا ما فكرنا فى مكان ولادة هذا الفرعون، والأشياء الجميلة التى قام بها فى سايس وليس هليوبوليس[٢] وإقامة سلفه «إبريس» فى سايس. وتم دفن هذين الملكين[٣] فى هذه المدينة، نستطيع أن نقول فى النهاية إن هليوبوليس كانت مقرًا لأمازيس وذهب سولون لتعلم حضارة وعادات المصريين فى هذه المدينة. واعتقد لارشر أن استرابون أطلق اسم هليوبوليس على مدينة سايس التى أقام فيها أفلاطون فترة طويلة. وهذان الاسمان ينتميان لنفس المدينة، ولم نجد فى كتاب تيمى أن أفلاطون أقام فى مدينة سايس لكن سولون هو الذى كان يقطن بها لذلك فنحن مضطرون أن نصدق أن لارشر قرأ أفلاطون بدلا من سولون فهل هذا صحيح ؟ وسقراط كان يقيم أيضًا فى إحدى هاتين المدينتين فهل استنتاجه مجرد صدفة؟

وقد ترجم لارشر مقطع تيمى الذى قد ذكرناه سابقًا:

«فى مدينة سايس الكبرى يوجد مكان إدارى يسمى سايتى وهو موجود على قمة الدلتا حيث ينقسم النيل لعدة فروع». وسبق أن تكلمنا عن القمة التى يتفرع عندها النيل.

ويرى أفلاطون أنه من الضرورى أن يذكر أن اسم الدلتا يمثل بالنسبة للمصريين حرفًا من حروف أبجديتهم.

وقد ذكر لارشر كل الأبحاث والمذكرات التى وضعها أفلاطون عن مدينة سايس وتوقف عند الاختلاف الموجود بين مدينة سايس ومدينة هليوبوليس وترجم بطريقته معتقدًا أن له الحق فى ذلك قائلا: إننا لا نستطيع أن نشك فى

---

(١) هيرودوت، التاريخ، الكتاب الأول، المبحث ٣٠.

(٢) نفسه، الكتاب الثانى، المبحث ١٧٥.

(٣) نفسه، المبحث ١٥٩.

تسمية المدينة التى أطلق عليها أفلاطون اسم سايس أونخطئ باسم المدينة التى سماها هيرودوت واسترابون وبطليموس هليوبوليس ؟

وقد حاولنا أن نلاحظ من خلال قول بطليموس «الذى ولد فى بيلوز لا يستطيع أن يخطئ فى مكان هليوبوليس». ناسياً أن بطليموس كتب صفحتين يذكر فيهما أن مدينة هليوبوليس خارج الدلتا.

والدراسة الجغرافية لبطليموس وكذلك مذكرات انطونيانوس تشير إلى أن هليوبوليس تقع شرقى النيل، ولكنها ليست مدينة هليوبوليس الشهيرة التى كانت فى العصور القديمة. وبطليموس الكاتب القديم يُعتبر الوحيد الذى وضع فى مصر مدينتين باسم هليوبوليس وكلتاهما خارج الدلتا، وهذا يجعلك تظن أن مدينة هليوبوليس الثالثة موجودة فى الدلتا على مساحة أرض محدودة.

وقد ذكرنا أن بطليموس وضع مدينة هليوبوليس خارج الدلتا، و لذا نرجو قراءة دقيقة لذلك فى كتاب الجغرافيا المجلد الرابع الذى سيبعدنا عن الشك فى هذا الموضوع.

و المدن التى تكلمنا عنها تقع بين الفرعين البيلوزى والبوبسطى توجد بآخر الدلتا من اتجاه الغرب إلى الشرق.

ويقع الفرع البوبسطى شرقى النيل ويؤكد ذلك بطليموس عند وصفه للدلتا الكبيرة[1]. غير أنه حدد موقع الإدارة لهليوبوليس وعاصمتها شرقى الفرع البوبسطى، وعلى حدود التقسيم الإدارى لهليوبوليس الواقعة أيضًا شرقى نهر النيل. ولا نستطيع تحديد موقع آخر لمدينة هليوبوليس الثانية[2] مع بابيلون وهيروبوليس وهى مدن غير موجودة بالدلتا بدون شك.

---

(١) يسمى الدلتا الكبير مثلما يتدفق نهر كبير يسمى النهر المقدس ويتدفق عبر مصب هيراكليتيكوس إلى ما يسمى الفرع البوبسطى الذى يتدفق عبر مصب البيلوزيوم.

(٢) يظن بعض الأشخاص أن المدينة الثانية التى حددها بطليموس على قناة تراچان وبابيلون وهيروبوليس مما يطابق موقع المطرية ويحدده مكان العاصمة الإدارية لهليوبوليس فى الدلتا التى تقع حسب نفس الجغرافى على ١/٣ درجة شمال هليوبوليس الثانية وهذه فكرة ليس لها أساس وحسب قول بطليموس: «وفى حدود الجزء العربى ومدينة أفروديت وبابيلون ومدينة الشمس والمدينة المقدسة وتتدفق من نهر ترابانوس».
إن أداة ES الوصل فى المفرد ولا يمكن أن تنسبها لمدينة هيروبوليس التى تسبقها وليست هليوبوليس.

ولا داع إلى أن نفترض أن القسم الإدارى لهليوبوليت (عين شمس) يمكن أن يكون فى الدلتا على ضفتى نهر النيل.

ونبحث حاليًا عن مكان العاصمة ولا نبحث عن مكان إدارتها. فإذا كان موقع العاصمة فى ضفة النيل اليسرى ؛ فلماذا قال بطليموس إن موقع الإدارة لهليوبليت (عين شمس) فى شرقى الفرع البوبسطى وكان أيضًا عاصمة الشمس.

ولاحظنا أن موقع مدينتى هليوبوليس موجود شرقى النيل كما حدده بطليموس فى تسلسل أفكاره أثناء وصفه باستثناء خطوط العرض والطول التى قدمها. ولو دققنا فى هذه الأرقام نجد بها أخطاء كبيرة، ولهذا لم نذكرها حتى لا نعاتب لتمسكنا بأدلة ضعيفة ويمكننا إعطاء هذه الأرقام لتكتمل شهادتنا الإيجابية.

وقد لاحظنا أن إحدى مدن هليوبوليس تقع جنوبى الدلتا بحوالى $\frac{1}{6}$ درجة، لأن خطوط العرض والطول لمدينة هليوبوليس الأولى إذا قارناها بخطوط العرض والطول لمدينة هليوبوليس الثانية نجدها خارج فروع نهر النيل. وحسب مذكرات انطونيانوس نجد أن هليوبوليس تحمل اسم هليو وخلال طريقه إلى كليسما لاحظ فى محطات الطريق سقوط مياه السيول فى النهر وأن هذا الطريق محدد (الطريق خلال الجزء العربى عبر النيل) حتى لوكانت هذه الإشارة غير موجودة لا نستطيع أن نظن أن الطريق يمر من ضفة لأخرى لأن المدن التى تمر منها تقع شرقى النيل.

ونضيف أن هليوبوليس تقع حسب وصفنا عند الاتجاه من الجنوب إلى الشمال على مسافة اثنى عشر ألف أعلى سلسلة بابيلون وهى نفس المسافة الموجودة بين آثار بابيلون خلف القاهرة القديمة وهليوبوليس القريبة من المطرية.

إن اسم هليو، يظهر على الطريق من بيلوز إلى منف على بعد أربعة آلاف وهى مجاورة لسيناس القديمة وليس الطريق الذى ذكرته مسبقًا. و ربما كانت مدينتا هليوبوليس موجودتين. وهذه الفكرة مجردة من الاحتمالات ـ وهذا ما سنشرحه

لاحقاً ـ لكى نحصل على نتيجة تدل على أن إحدى مدينتى هليوبوليس تقع فى الدلتا. فهل هذا الاحتمال مقبول ؟.

إن الفـرق فى المسـافـة من أربعـة آلاف و تقل إلـى ألفـين راجع لاسـتخـدام طريقتين مختلفتين. فالمسافة من تو إلى سيناس ليست كالمسافة بين هليو (مدينة الشمس) وسيناس ولأجل ذلك نقرأ :

الطريق من بيلوز إلى منف:
- من تو إلى سيناس القديمة ٢٦ ميلاً
- من سيناس القديمة إلى هليو (مدينة الشمس) ١٤ ميلاً

الطريق فى الجزء العربى:
- من هليو (مدينة الشمس) إلى سيناس القديمة ١٨ ميلاً
- من سيناس القديمة إلى تل اليهودية ١٢ ميلاً
- من تل اليهودية إلى تو ١٢ ميلاً

و فـرق المسـافـة بين تو وهليـو التى تقـدر بـألفـين يعـود إلى الطريق بين منف وبيلوز الذى لا يمر إطلاقًا من هـليـوبوليس ولكن يمر مكان مـرصـدها الـذى يقع خارج المدينة أمام سرسيسوره التى تقع على ضفة النهر.

إن هذا الاحـتـمـال غـيـر مـهم لأن مـذكـرات الوصف تؤكـد أن هليـو (مـدينة الشـمس) لهـا نفس المكان الذى ذكرتـه فى الوصف السـابق. وهـذا لا يثبت وجود مدينتى هليو أو مدينتى سيناس أو مدينتى تو. ويعتبر المثل الوحيد الذى أشار فيه الوصف لوجود مدينتين متجاورتين ويحملان نفس الاسم.

ونسينا أن نشيـر إليهـمـا بهـذه الاسمـاء «سوبريوريس» و «مينوريس» وتـوجــد نسـخـة أخرى من المذكرات بمكتبـة الملك وبهـا المسـافـة بين سـيناس وهـليـو على الطريق من بيلوز إلى منف ونجد ١٧ ميلاً بدلا من ١٤ ميلاً يعنى المسافة بين تو وسيناس تبقى كما هى. وحسب النسـخـة التى اطلعنا عليهـا نجد أن هليـوبوليس من هذا الطريق على مسافة ألف أوألفين شمال أو جنوب هليوبوليس فى المنطقة

العربية. وهذا يدل حسب مذكرات انطونيانوس على أنه بطريقة أو أخرى لا نجد أونرى سوى مدينة واحدة(١).

والتشابه الموجود بين كلمة هليو وقليوب يجعلك تظن أن هليوبوليس كانت موجودة فى عاصمة القليوبية دون أن نهتم بعلم الاشتقاق من أصل الكلمة. ونرفض النتيجة التى توصلنا إليها فقليوب تعتبر مدينة حديثة، والمدينة خالية من المعالم الأثرية ولا يوجد شىء يدل على أنها تنتمى إلى العصور المصرية القديمة. وعندما سألنا أهل المدينة عن سبب وجود أنقاض وأطلال فكانوا يردون أنها أطلال مدينة هليوبوليس القريبة من المطرية. وتشابه الاسماء لا يساعد على الشرح. ونعلم أن مدينة هليوبوليس فقدت رونقها فى عهد استرابون وكانت فى زوال وساعد فى ذلك جفاف أحد فروع النيل وهو الفرع البيلوزى،

---

(١) يعطى انطونيانوس غالبًا مسافات مختلفة فى وصفه بين نفس الأماكن وممكن أن نذكر عدة أمثلة إذا تجاهلنا أخطاء الأرقام التى تسربت فى هذا الكتاب لذلك يجب علينا أن نحصى عدد المدن لوضعها مع بعضها بنفس الاسم فى مواقع متجاورة وهذا شىء لا يعقل. وكنا نأمل أن نجد على خرائطنا المقاييس الدقيقة التى وضعها الرومان فى تسجيلاتهم والتى لا يوجد بها اختلافات. وإذا افترضنا أخذ المقاييس والمسافات بدقة وبواسطة سلسلة القياس (سلسلة = ١٠ أمتار) نتوصل إلى أن تعرج الطرق يسبب فى زيادة المسافة عن الخط المستقيم وأن هذه العملية التى قام بها الرومان بدقة فى محافظتهم المجاورة لروما أوعلى الطرق الكبيرة التى كانت موجودة فى مناطق الإمبراطورية البعيدة عن العاصمة وخاصة فى مصر ذات الطرق الصحراوية عكس وقتنا الحالى. وكانت اتصالاتها عبر نهر النيل فقط وفروعه . وكان مجرى النيل والطرق وعرة ومموجة . وإذا أخذنا فرنسا كمثل نجد أن علامات مسافة الطرق بين أجزاء فرنسا وباريس محددة . وفرنسا وإيطاليا لم تحتويا على آثار كثيرة ورغم ذلك تجد علامات لتدل على المسافات بينها فى طرق عكس مصر التى لا توجد بها أية علامات أو إشارات تدل على المسافات أوالطرق الرومانية هناك . إن الإمبراطوريات القديمة لم تهتم بالمسافة والطرق فكانوا يعتمدون على طيران الطيور من مكان لآخر فى عملياتهم المدنية والعسكرية. ولكن معرفة المسافات وامتدادها كان ضرورياً مما جعلهم يكتبون مذكرات عن المسافات ويوزعونها على موظفى الدولة وكان يصعب تحديد مواقع المدن والمسافات بدقة حسب ما كتبه الرومان فى مخطوطاتهم واعتمدنا أيضًا على مخطوطات العصور القديمة والوسطى. و الشىء الإيجابى والأهم من المسافات هى الآثار والأرض المبنية عليها فالآثار تساعد على تحديد المدن القديمة خاصة إذا احتفظت باسمها أفضل من الاعتماد على المسافات فقط عندما تكون الآثار لا وجود لها. وأوروبا رغم تطور علومها نجد فى كتبها وخرائطها الجغرافية مقاييس غير دقيقة لتحديد بعض الدول بها رغم اهتمامنا بهذه المقاييس وحددنا تقريبًا مواقع المدن العتيقة التى اختفت.

مما دفع سكان المنطقة للاقتراب من النيل من أجل زراعتهم وتجارتهم. ولهذا تكونت مدينة جديدة على أطلال مدينة هليوبوليس واحتفظوا بشىء من آثار الاسم القديم وهذا الاحتمال مبنى على دراسة[١] الأصل اللغوى غير المؤكدة. والشىء الحقيقى هو أن اسم قليوب لم تكن له أى صلة بأسم الشمس عند العرب رغم أنهم أطلقوا على الآثار التى وصفناها اسم مدينة الشمس، مما يدل على أن هذه المدينة بهذا المكان وليست فى قليوب.

وهذا المكان لمع فيه الاسم بشعائر وطقوس دينية خاصة.

وقد أثبتنا من خلال وصفنا أن الكتاب القدامى لم يحددوا موقع هليوبوليس فى الدلتا، وتعتبر شهاداتهم غير متفق عليها لأن الكتاب فى العصور الوسطى والأقباط والجغرافيين العرب اعترفوا بوجود مدينة واحدة فى مصر تحمل اسم هليوبوليس. ورغم وصف أطلالها وذكر رونق حضارتها فقد حددوا موقعها خارج الدلتا فى المكان القديم الذى وجدنا فى ساحته المسلة والسور الكبير المقام على أرض مرتفعة صناعيًا[١]. ومثل هذه المناقشات لا تساعدنا على جمع أدلة عديدة كهذه. ويظن بطليموس فى وصفه إنه لا يعتقد إطلاقًا أن فى إحدى مناطق مصر مدينة أو قرية لها آثار ومعالم مرتفعة مرتبطة بالشمس وتحمل اسم هذا النجم.

ونكرر أنها خارج الدلتا وعلى الآثار المحيطة بالمسلة المجاورة للمطرية وكذلك حسب خرائطنا يجب علينا تحديد موقع العاصمة الإدارية (إقليم هليوبوليت) المدينة المشهورة التى تكلم عنها هيرودوت وديودور واسترابون[٢] وحتى الإنجيل أيضًا.

---

(١) إن اسماء مدن العرب التى تشبه الاسماء اليونانية والمصرية لبعض المدن القديمة نادراً ما نجدهم قد شيدوها على أطلال هذه المدن وغالباً ما نجدها على مسافة بعيدة عنها .

(٢) استرابون كما ذكرنا من قبل يتكلم عن التل المرتفع الذى بنيت عليه هليوبوليس .

(٣) إن وصف هليوبوليس سُلم إلى لجنة مصر فى ١٣ يوليه ١٨١٣ .

الفصل الثالث والعشرون*
وصف آثار صان (تانيس القديمة)
بقلم السيد / لويس كورديه
مفتش مقاطعة فى الفرقة الملكية للمناجم

تقع آثار صان فى الحد الشرقى لمصر السفلى على بعد ٥٠,٠٠٠م جنوب غربى البحر الأبيض المتوسط و ٦٠,٠٠٠م غربى بيلوز و ٢٠,٠٠٠م غربى الصالحية.

وهذه الآثار التى نراها تبين عظمة مصر إلى جانب آثار المنطقة المجاورة لسوريا، فالمقارنة بحساب المثلثات التى وضعها چاكوتان إلى جانب الملاحظات الفلكية التى أعطاها نويه بالنسبة لخطوط الطول والعرض لهذه الآثار توضح إنها محصورة بين خط عرض ٥٤ً ٥٩َ ٣٠ْ وخط طول ٥ً ٣٢َ ٢٩ْ مقارنة بخط الهاجرة بباريس. وباتباع خطوط العرض والطول، إذا انطلقنا من القاهرة عبر فرع النيل الذى يحمل اسم قناة موسى متجهين لدمياط فسوف نصل بسرعة عبر المياه المنحدرة، وكذلك إذا توجهنا من القاهرة عبر القناة بعد عبور بحيرة المنزلة، فسوف نصل إليها بسرعة عبر هذه المياه. وكان من الممكن أن نأخذ الطريق البرى قبل الفيضان مغادرين الصالحية عن طريق القوافل التى تذهب من القاهرة إلى سوريا .

وقد توجهنا من دمياط لاكتشاف الآثار تحت رعاية السيد دولوميو وكنا أربعة نويه وديليل ولونوار وأنا حيث وصلنا يوم ٣٠ نوفمبر ١٧٩٨ ومعنا بعض المعلومات

(*) التزاما بما ورد فى الأصل الفرنسى تمت ترجمة الفصل الثانى والعشرين فى الجزء ٢٨ من الترجمة العربية ويخص آثار تل أتريب (المراجع) .

المهمة عن حالة الأماكن المقصودة وبعض النتائج التى حصلنا عليها مسبقًا سواء من مالوس[١] عن قناة موسى أو من الجنرال أندريوسى[٢] عن بحيرة المنزلة. إن صداقة دولوميو ونصائحه رفعت من معنوياتى كثيرًا حيث كلفنى بقياس الأرض بالخطوات والبوصة واهتم شخصياً بقياس المسافات بين الأماكن الأثرية. وقد خصصنا يومين للأبحاث المهمة ولم نترك حجرًا واحدًا، إلا وحددنا موقعه ودرسنا شكله. ورسمنا مخططًا لهذه الأماكن على ظهر السفينة قبل رجوعنا إلى دمياط.

والمخطط الذى وضعناه دقيق جدًا؛ أما بالنسبة للتفاصيل فهى ليست دقيقة عامة. وفضلنا إعطاء مخطط عام للكتاب مبنى على مقاييس هندسية، وقد رسمه زميلنا فى العمل السيد چاكوتان .

وأنهينا هذا المخطط الأخير بعد إضافتنا لأماكن وتفاصيل العينات التى جمعناها بعد نسيانها[٣]. والملاحظات والعينات التى جمعناها أنا و دولوميو لهذا المخطط أخذت منا أثناء اعتقالنا فى صقلية وكلابرى عند رجوعنا لمصر[٤] ولم يبق معنا إلا العينات الأولية فقط وأوقات اكتشافها.

واعتمدت على مساعدة چاكوتان بملاحظاته وعيناته للوصف الذى سنقرأه .

لقد لمحنا أهرامات صان من مسافة ٢٠,٠٠٠م إلى ٣٠,٠٠٠م على شكل جبل صغير ممتد وذى جانب عريض مسنن . هذا المنظر يُزيل الملل عن شكل سهول منطقة الدلتا. وعندما وصلنا وجدنا أكوامًا من الرديم متراكمة بعضها على بعض وترتفع بمقدار من عشرة إلى ثلاثين مترًا فوق مستوى مياه القناة.

---

(١) انظر التقرير عن هذه المعلومات، الدولة الحديثة.

(٢) انظر دراسة الجنرال اندريوسى عن بحيرة المنزلة، الدولة الحديثة .

(٣) انظر المسقط الأفقى ، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة، اللوحة ٢٨ .

(٤) أضاع دولوميو كل أوراقه وعيناته مما أثر فيه كثيرًا وسأصر على ذكر ذلك. وقد كتب الكونت لاسيبد الصديق الشهير نبذة عنه فى سجل الوفيات وقرأها فى الجلسة الشعبية فى المعهد وطبعت فى مجموعات جريدة المناجم ، العدد ١٢ رقم ٦٩ صفحة ٢٢١.

ولاحظنا من فوق الأنقاض فى الجانب الشمالى الشرقى مصطبة ارتفاعها حوالى ٣٥مترًا وعند الصعود على المصطبة تستطيع أن ترى المنظر العام لجميع معالم المنطقة قبل أن تسير إليها .

والأراضى التى تقع عليها المدينة تمتد باتجاه خط الهاجرة وتكوّن فوق السهول شكلاً دائريًا غير متساو، وتقدر مساحة هذه الأرض بحوالى ١٧٩ هكتارًا (حوالى ١٨ قسمًا من مساحة باريس).

وحاولنا - دون جدوى - اكتشاف الأحجار المتراكمة بعضها فوق بعض وكانت القطع الأثرية محطمة ومقلوبة رأسًا على عقب ومبعثرة على الأرض .

ورأينا مساحة واسعة حولها سور مبنى من الطوب النيىء ومسلة مكسورة ممدودة على الأرض، وشاهدنا أيضًا حجرين ضخمين عليهما نقوش هيروغليفية ومجموعة من الأعمدة مدفونة وتيجانها مبعثرة على الأرض، وتمثالين مكسورين ومقصورة من كتلة حجر مكسورة إلى ثلاثة أجزاء. كما رأينا عدة أحجار شكلها غير عادى وغير معروفة، وهذه القطع الأثرية القديمة هى التى تعطى للرحالة فرصة لدراستها، ولم نر أى مبانى مصرية قديمة إلا برجًا على المصطبة وبعض المقابر الأرضية الواقعة فى الشمال الشرقى.

ورأينا أيضًا على جزيرة واقعة وسط القناة مواجهة للآثار مجموعة من أكوام الطين تبدو مهملة من سنين، ووجدنا منازل ذات مساحات واسعة وهى قريبة من كفر الملاكيم (الشرقية) وهى قرية تبعد حوالى عشرة كيلومترات. وآثار صان تبدو خالية من البشر والسهول المحيطة بها يخيم عليها جو من السكون كان يقلقنى أحيانًا .

وكان بعض التجار من الصالحية يمرون من هناك فى موسم الجفاف متوجهين للقناة لمقايضة البلح بالسمك المملح والملح الذى يصنعه صيادو البُحَيْرة .

وكانت هناك بعض الشجيرات المزروعة على الأرض الممتلئة بالأنقاض وأرض المدينة كانت تبدو بور وجرداء وتتكون فى الغالب من الغرين المختلط بالرمال الناعمة ، ولونها كان رمادى يميل إلى الأحمر الغامق وعند السير عليها كانت

الأقدام تغرس حتى الكمبين. ويوجد فى جميع الأماكن أجزاء من قطع فخارية غير متقنة الصنع وأحجار طينية من أنواع مختلفة وقطع من الأحجار التى استعملها قدماء المصريين فى بناء المنشآت الأثرية، وليس من النادر أن تجد قطع فخارية مزججة أوقطع من الزجاج الأبيض والملون وكذلك قطع صغيرة من الجبس أومن المرمر الأبيض المحبب.

وهذه الأرض القديمة الناتجة من فيضان النهر محاطة بمستنقعات الماء ونباتات مائية مكونة جزر من الأعشاب.

وتبدو حافة القناة غارقة ومغطاة بحقول القصب، ويتغير هذا المنظر نتيجة مرور فصل الشتاء ودخول شهر يونيه حيث تتبخر المياه وتتسرب لداخل القناة وتختفى الأعشاب الخضراء وتتكون شقوق عميقة بالطمى والأشجار الصغيرة الهزيلة مبعثرة هنا وهناك، ويتزهر سطح الأرض بالملح الذى يتكون على شكل أزهار. وكانت الأرض مرتبطة بالآثار الموجودة عليها وتظهر قناة موسى واضحة وسط السهول .

وأثناء موسم الجفاف يقدر عرض قناة موسى بحوالى ستين مترًا وهى عميقة بدرجة كافية تسمح بالملاحة وذلك نتيجة لكثرة المياه التى تصب فيها.

ومن المستحيل الا نتعرف على أنها فرع من فروع النيل ويجب أن نتذكر دائمًا أن هذه القناة تمر على مدن عديدة.

وتنفصل القناة من فرع دمياط فى أعلى مدينة تل أتريب الواقعة جنوب غربى صان على بعد أربعة وعشرين كيلو مترًا.

ومياه القناة تصب فى بحيرة المنزلة فى الشمال الشرقى على بعد اثنين وعشرين كيلو مترًا من الأماكن الأثرية.

ومجرى القناة ممتد حتى مصب النيل فى أم فرج، ويقدر طولها بأكثر من ١٥٠,٠٠٠م . وإذا قارنا حالة الأماكن فى النصوص التقليدية لا نشك أبدًا أن قناة موسى ليست من أقدم فروع التانيسى، ولا يمكننا أن نتعرف على آثار صان

وبينها الآثار القديمة لمدينة تانيس المدينة الملكية للفراعنة التى ترجع أقدميتها إلى عهد موسى وكانت شهيرة ولها أهمية فى ذلك الوقت .

ولا نلح كثيرًا على هذه الأدلة التى ستعطينا تعريفًا مزدوجًا لها، ونعتمد على شهادات الكتاب والجغرافيين فى مقارنة مصر السفلى .

ونرجع إلى التحقيق الذى ورد عن أعمال مالوسى والجنرال اندريوسى وزملائنا جيرار[1] ودو بوا إيميه[2] فى دراساتهم، ونحاول أن نتعرف حسب الأدلة الموجودة على كل القطع الأثرية التى أشرنا إليها سابقًا .

ومحيط أرض المدينة يقدر بسبعة آلاف وثلاثمائة وخمسين مترًا، وطولها من الشمال إلى الجنوب حوالى ألفين وأربعمائة وثلاثين مترًا أما عرضها فيقدر بحوالى ألف وسبعمائة وعشرة أمتار.

ومساحة الأرض عليها آثار مياه الأمطار التى تسقط كل شتاء وهذه الأمطار والرياح تتسبب فى تسوية التربة.

ولاحظنا على هذه الأرض قطعًا من الأوانى القديمة المزخرفة وعدة قطع أخرى مثبتة فى أماكنها.

وآثار المنطقة الجنوبية عليها نقوش قليلة، وكانت الأنقاض على شكل صفوف تشبه الحصن وأغلبيتها تحتل المنطقة الشمالية وتحيط بسهل صغير مربع الشكل يقدر ضلعه بخمسمائة متر .

والساحة تحتوى على حصن مبنى من الطوب النيىء ذكرناه سابقاً. وكانت الساحة مستطيلة الشكل لكن السيد چاكوتان وفقًا لحساباته الهندسية أعطاها شكلاً شبه منحرف وهو تقريبًا شكل متوازى الأضلاع مائل قليلا، وطول الضلع الكبير يقدر بحوالى ثلاثمائة وعشرة أمتار أما الضلع الصغير فيقدر بحوالى مائتين وثلاثين مترًا والمحور يتجه من الشرق إلى الغرب .

---

(١) التاريخ الطبيعى ، المجلد ٢٠ .

(٢) دراسات العصور القديمة ، المجلد الثامن .

وكان هذا البناء متهدمًا وصعدنا على أنقاض هذا المبنى بسهولة وكانت الأنقاض تغطى الجدران التى فقدت كثير من ارتفاعها، ولكن فى بعض الأماكن مازالت تحتفظ بنفس الارتفاع، ولم نتمكن من قياس سمك الجدران بدقة وكان سمكها عند مستوى الأرض حوالى ستة أمتار.

ومقاييس الطوب المستعمل بالبناء كانت حوالى ستة وأربعين سنتيمترًا طولا، واثنين وعشرين سنتيمترًا عرضًا، أما سمكها فكان أربعة عشر سنتيمترًا .

وكان هذا الطوب يتكون من طين النيل المعجون مع القش المدروس مضافًا إليه قليل من الطمى الناعم وكان البناء غير متقن الصنع ولكن يناسب المناخ .

وكان الحصن يتكون من واحد وسبعين طوبة فى المتر المكعب الواحد ممايعنى أن المبنى احتوى على واحد وعشرين ألف وخمسمائة طوبة، إذا افترضنا أن عرض الحصن يقدر سمكه[1] بحوالى خمسة أمتار ونصف، وإذا اعتبرنا أن استخراج الطين من الأرض وخلطه بالقش وتشكيل قوالب الطوب بدقة، وكذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار عملية الدراس والتجفيف ورمى النفايات ونقل الطوب إلى جانب اليد العاملة المستحقة فسوف يمكننا أن نقدر أن صنع ألف طوبة تعادل شغل عامل لمدة سنة.

وكمية العمل الموجودة فى بلد شعبه غير قادر على هذه التكاليف، قدرت بمائتى فرنك فرنسى، لأن بناء الحصن قُدر بأكثر من مليونى فرنك فرنسى.

و كان من الواجب استخدام ثلاثة آلاف عامل لمدة سبع سنوات لتأسيسه، واحتمال أن هذا الحصن كان ارتفاعه أقل من سمكه مما يجعلك تظن أن قاعدة الحصن مدفونة بالأرض المحيطة بها. ومن الجانب الآخرالذى نحاول فيه دراسة أجزاء السور البارزة والمتهدمة قدرنا ارتفاع السور قبل تهدمه فوجدناه يستحق تكاليف ـ ويد عاملة ـ أكثر مما قدرنا فى حساباتنا السابقة، ووجدنا السور

---

(١) الف طوبة تعادل أحدى عشرة الف طوبة من طوب باريس.

مكوناً من أربعة إلى خمسة أماكن مختلفة، وإذا دخلنا من الجهة الشمالية نجد حجرين ضخمين من الجرانيت الأحمر الأسوانى المتفكك، وعثرنا أيضًا على تمثال لامرأة من نفس مادة الجرانيت. وكان التمثال ممدودًا من ناحية على الرمال ويبدو أن الزمن قد أفسده. وكان لهذه المرأة نفس غطاء رأس إيزيس وكانت رجلاها ملتصقتين ويداها مضمومتين إلى جسمها.

وطول التمثال حوالى ثمانية وعشرين ديسيمترًا، وكان موضوعًا فى قطعة حجر منحوتة مستطيلة الشكل ويبدوأنه كان واقفًا بداخل هذا المستطيل . وكان يتم استخدامه كعمود.

وتوغلنا بعد ذلك داخل الحصن فوجدنا أنقاضًا بطول ساحته من الشرق إلى الغرب وهذا الخط من الأنقاض قسم الساحة إلى جزأين الأول ضعف الثانى، وسنحاول وصف هذه الأنقاض المتكونة من حجر الجرانيت الأحمر والواقعة بالناحية الغربية.

وقد جدناها تتكون من ثلاثة وخمسين حجرًا ضخمًا مستطيل الشكل، وكانت مكدسة بعضها على بعض ومدفونة بالرمال. وكان هناك عديد من الأحجار قدرنا مقاييسها بحوالى مترين طولاً وعرضًا. اما سمكها فحوالى متر واحد. وكانت النواحى الكبيرة للأحجارعليها نقوش لأشخاص بلغ طولهم حوالى أحد عشر ديسيمترًا، وكان هناك عدد آخر من الأحجار مقاييسها حوالى ثلاثة أمتار طولاً و مترا عرضًا وسمكها حوالى متر.

وكانت النقوش والكتابات الهيروغليفية تبدو رائعة على هذه الأحجار وتبدو أنها تكون ركائز أعمدة. وتمتد على مساحة شاسعة كمية كبيرة من الأنقاض تغطيها الرمال التى نقلتها الرياح مما صعب رؤية القطع الأثرية الموجودة تحتها .

ومن الصعب إعطاء فكرة عن هذا الأثر الذى كان مدفونًا تحت الرديم أوتحديد مواد بنائه ، وكان موقعه فى الناحية الغربية للحصن يدل على أنه كان باباً للنصر .

ومعظم أشكال الأحجار لا تؤيد هذه الفكرة، و يمكننا أيضًا الاعتقاد بأن الأفاريز وأحجار الزوايا كانت مكسورة أو مدفونة ونعلل ذلك بعدم وجود أى أثر لها، ولم نجد تفسيرًا لوجود قطع من الأعمدة، ويمكن أن نضيف أن الأرض رملية وعليها قطع من أحجار رملية مما يدل على وجود أحجار من هذه المادة، ولقد استعمل القدماء حجر الجرانيت والحجر الرملى فى جميع أنواع البناء باستثناء بناء بوابة النصر.

ورأينا على بعد عشرين مترًا كثباناً رملية متتالية غير منتظمة؛ بينها مسافات واسعة وغير متساوية وعمودية على اتجاه خط الأنقاض، ووجدنا أيضًا على بعد ثلاثين مترًا مسلة جميلة ممدودة على الأرض قاعدتها مدفونة يبلغ طولها حوالى ١١,٢ مترًا[١]. وعليها صف من الكتابة الهيروغليفية موجودة على كل أوجه المسلة.

وبدأت أحجار المسلة الموجودة فى القاعدة فى التحلل مما أتلف بعض الرموز عليها ورأينا على بعد خمسين مترًا، ثلاثة أجزاء من بقايا قمة مسلة أخرى كان طولها يبلغ حوالى خمسة عشر مترًا أوأكثر فى حال تجميع هذه الأجزاء.

ووجدنا الجزء الأعلى للمسلة الثالثة، ويقدر طولها بأقل من أحد عشر مترًا، وتوغلنا نحوالجنوب فوجدنا المسلة الرابعة وهى عبارة عن قطع متجاورة ويقدر طول قطعتين بأكثر من عشرة أمتار.

ووجدنا بين الأنقاض قطعة من عمود مستطيلة الشكل طولها حوالى خمسة أمتار وضيقة فى أحد أوجهها مما جعلنا نظن أنها تنتمى إلى مسلة خامسة تعتبر أصغر من المسلات السابقة.

وابتعدنا بخطوات نحوالشمال فاكتشفنا قطعة لمسلة كبيرة طولها ستة أمتار وقاعدتها منحوتة من كتلة حجر واحدة وعلى كل وجه من أوجه المسلة ثلاثة صفوف من الكتابات الهيروغليفية مما يميزها عن المسلات السابقة وصلنا إلى ثلثى طول الساحة فوجدنا مجموعات من الكثبان الرملية وأعلاها أحجار ضخمة مبعثرة هنا وهناك وأجزاء منها مدفونة بالأرض وتساعد هذه الأحجار

---

(١) انظر إلى رسم هذه المسلة للسيد فيفر اللوحة ٢٩ المجلد الخامس، العصور القديمة .

الضـخـمـة على وضع حـاجـز للرمـال التى تأتى بهـا الرياح وهـذا يوضح تكوين الكثبان الرملية.

وبعض هذه الأحجار لها شكل متوازى المستطيلات ويبلغ طولها من اثنين إلى أربعة أمـتار وبعضهـا يبدو وكأنه قد استعمل كركائز للأعمدة، ولفت أنظارنا حجران مستطيلان من الجرانيت يبلغ سمكهما مترًا واحدًا وطولهما وعرضهما حوالى مترين ونصف.

وقد غُيرَ ضلعان متجاوران بالقطعة وأخذا الشكل الأسطوانى

وتمكنا فقط من رؤية الأوجه الكبيرة للأحجار بسبب وضعها المسطح، لأن أوجهها عليها كتابات هيروغليفية يبلغ ارتفاعها أحد عشر ديسيمتراً. ورسومات الأشخاص على الأحجار تشير إلى أن وضع الحجر الهندسى يضع الأجزاء التى على الشكل الأسطوانى لأعلى .

وأردنا معرفة أشكال القواعد والأضلاع من الكتابات الهيروغليفية والنقش الموجود على الأوجه الكبيرة المقلوبة فاضطررنا إلى الحفر لقلة الوسائل.

وأأسف كثيرًا بعدما سلمت هذه العينات لصديقنا جومار حيث لم نراجع الوضع الهندسى للأوجه التى بدت لنا متوازية الشكل وغير قريبة من نقطة القمة.

ومهما أعطيت من أدلة ومعطيات فإنها غير كافية للدلالة على أن هاتين القاعدتين تنتميان إلى التماثيل الضخمة. وقد وصفتها أنا وجومار بأنها من الآثار النادرة من نوعها وقد وجدناها مدفونة تحت الأرض وكانت تتكون من أحجار وأحيانًا من خشب.

وهذه القطع الأثرية تنتمى إلى المنشآت الدينية ذات القطع العديدة ، و هذا الاحتمال له علاقة كبيرة بالجزأين الكبيرين اللذين ذكرهما جومار فى وصفه لمسلة جزيرة تيبيرين[١] .

والفرق الأساسى بينهما يوجد فى استدارة القمم حيث إنه فى مسلة جزيرة تيبيرين والفيوم، وضعت القمة موازية للمحور الأسطوانى لعرض الوجهين الكبيرين للمسلة .

والحجران الأثريان الموجودان فى صان، والسابق ذكرهما لفتا أنظار الرحالة ليس فقط لندرة نوعهما، ولكن لاحتفاظهما بالنقوش الموجودة عليهما بدرجة الكمال .

و رأينا شمال شرقى أحد الكثبان الرملية قطعة للمسلة السابعة الظاهرة من الأرض بطول أربعة أمتار ونصف وممددة على ضلعها الطولى .

واتجهنا نحو الشرق فوجدنا قطعتين للمسلة الثامنة ممددتين على الأرض بجوار المسلة السابعة وكانتا متساويتين فى الطول الذى يقدر بأقل من أحد عشر مترًا ويكونان الجزء العلوى.

ووجدنا فى نهاية حد الأنقاض وعلى بعد أربعة أمتار - وقبل وصولنا إلى الناحية الشرقية للحصن - المسلة التاسعة، وكانت مسطحة على الأرض وكان جزؤها العلوى مدفونًا بالأرض.

وأخذنا مقاييس قاعدتها من الوجه المكشوف وقدرنا ضلعها بحوالى ستة عشر ديسيمترًا . و سأحاول أن أتأمل قطعًا تنتمى إلى المسلتين الخامسة والسادسة حيث تحتويان على رموز لا تسمح بأى استخفاف بها.

والقطع التى درسناها جعلتنا نستنتج وجود سبع مسلات ويستحيل أن نكون مخطئين لأنه توجد أربع مسلات بقمم كاملة ويمكننا التردد بالنسبة للمسلة

---

(١) انظر دراسة جومار ووصف مسلة ابجيج للسيد كاريستى، العصور القديمة، الفصل ١٧ من المجلد الرابع و اللوحة ٧١ المجلد الرابع .

الرابعة والسابعة والتاسعة فقاعدة الأخيرة ثابتة. وتبدوالمسلة كاملة أوعلى الأقل طولها أكبر من المسلات التى رأيناها باستثناء مسلتين .

وإذا أردنا الاهتمام بعرض الواجهة المكشوفة جزئيًا لأن جزء منها مدفون تحت الأرض، وإذا حاولنا قياس الأضلاع الكبيرة للقطع المنتمية للمسلات الأربعة؛ فسنجد دون شك أن عرض كل قطعة يقل قليلا عن الأخرى.

واستعملنا نفس التجربة بالنسبة لجذع المسلة الرابعة واستبعدت هذه المقاييس لأن مقارنة مقاييس قطعة المسلة السابعة أعطتنا اختلافات صغيرة ولكنها كافية .

وتبعد هذه القطعة حوالى خمسة أمتار عن المسلة الثالثة، وهى الوحيدة التى يمكننا الاقتراب منها، وقطر الجزء السفلى للقطعة تجاوز أصغر ضلع لجذع المسلة السابعة والرابعة.

واستعنا أثناء اكتشافاتنا بالنتائج التى تخص الشروخ الموجودة على الأحجار والاختلافات التى وجدناها فى أحجار الجرانيت والهيروغليفيات عن العلاقة الموجودة بينها.

وأخذنا بعين الاعتبار الأسباب التى تؤدى لتفكك الأحجار مما يجعلها تقل فى عرضها فقد وجدنا ذلك فى بعض القطع الأثرية.

وأتجرأ أخيرًا فأعتقد بأن التفاصيل التى ذكرتها لكم تشرح بطريقة واضحة كيفية تعرف زملائى على المسلات السبع أثناء مرورهم على الأنقاض باستثناء المسلتين الخامسة والسادسة المتشابهتين وهما اللتان تحملان على كل واجهة صفًا واحدًا من الكتابات الهيروغليفية يحتل وسط الواجهة ويستغل ثلث مساحة الوجه، أما بالنسبة لارتفاع السبع قواعد نستنتج إن أكبر مقياس كان لقاعدة المسلة التاسعة التى يقدر طولها بأكثر من عشرين مترًا وبأقل من خمسة عشر مترًا.

وتتميز المسلة الخامسة بصغر حجمها ومقاييسها ولكن المسلة السادسة تهيمن على كل المسلات بكبر مقاييسها التى استنتجناها من القطعة المزينة بثلاثة صفوف هيروغليفية على كل أوجه المسلة .

ولن أغادر مكان الأنقاض دون أن ألاحظ ما اكتشفناه بوسط الساحة،فقد وجدنا بقايا من الزجاج بمختلف الألوان وتمائم من العقيق الأحمر وقطعاً برونزية غير سليمة وقطعاً كثيرة من حجر اللازورد، لدرجة أننى حصلت على كيلوجرام من هذه الأحجار فى ثوان ٍ. وخرجنا من الساحة من الجهة الشرقية فوجدنا فى أسفل الأنقاض قطعة عمود وثلاثة تيجان لأعمدة أخرى وهى على شكل رءوس جرسية مقلوبة ذات طبليات.

ويقدر الارتفاع الإجمالى بحوالى اثنى عشر ديسيمترًا ونصف، والطبليات تعلو تيجان الأعمدة ويقدر ضلعها بحوالى أحد عشر ديسيمترًا، وسمكها حوالى ثلاثة وعشرين سنتيمترًا. أما شكل الرءوس الجرسية فهى مثمنة الزوايا وأوراق النخيل مدلاة وبارزة، وهذه التيجان تشبه التى وجدناها فى معبد قاو الكبير[1]، وقطعة جذع العمود التى تصاحب أحد التيجان تقدر بحوالى مترين وتحتوى أيضًا على الحد الأعلى للعمود، ويقدر قطره بحوالى تسعة ديسيمترات، وينتهى بشكل مثمن الزوايا ينظم لقاعدة التاج. أما باقى جذع العمود فله شكل أسطوانى محاط بأربطة ضيقة ولا يحتوى على كتابة هيروغليفية من حجر الجرانيت الأحمر من أسوان.

وتابعنا سيرنا عبر الأنقاض فوجدنا عدة أحجار ضخمة من حجر الجرانيت مبعثرة فى الناحية الشرقية لقاعدة وقمة العمود.

ورأينا قطع أثرية للبرج الحديث الموجود على الرصيف الذى ذكرناه سابقًا وله شكل مربع مبنى على أساس صلب يقدر ضلعه بحوالى سبعة أمتار .

ويمكننا النزول من الناحية الشمالية لرؤية الهضبة الممتدة للأسفل على مسافة أربعمائة وخمسة مترًا من الرصيف. و تظل القطع الأثرية ثابتة أثناء الفيضان رغم الأرض الضيقة التى لم أزرها، ولكن دولوميو وجاكوتان شاهدا عدة قطع منها فى الآبار ربما كانت تنتمى للمقابر ولاحظا عدة أحجار مسطحة

---

(١) انظر اللوحة ٤١ ، العصور القديمة، المجلد الرابع .

عليها كتابات هيروغليفية ورجعنا بعد هذه الجولة نحو الرصيف الضخم فوجدنا على ظهر التل من الجهة الشرقية حجرًا ضخمًا من الجرانيت شكله غير محدد، ووجدنا أيضًا حطام لنيشة كبيرة من نفس المادة ، والقطعة الأساسية لهذه النيشة توجد فى الجزء الأعلى للمنحدر وهناك قطعتان سقطتا أسفل المنحدر، وتساعدنا هذه القطع الثلاث على ترميم هذه النيشة لو جمعناها، ويمكننا رؤية اللوحة الموجودة بهذا الكتاب وهاهى ذى المقاييس الرئيسية :

الطول الإجمالى	٢٦,٦ ديسيمترًا
السمك الإجمالى	٩ ديسيمترات
الارتفاع الإجمالى	١٥,١ ديسيمترًا
ارتفاع وعمق الفجوة المستطيلة	٦,٨ ديسيمترات
سمك حافة الفجوة	١,٦ ديسيمترا
سمك القطعة الصلبة التى تحتوى على الأفريز	٢,١ ديسيمترا
سمك القطعة الصلبة التى تكون المنحنى العلوى	٣ ديسيمترات

والشق المحيط بالفجوة يقدر بحوالى اثنين سنتيمتر ونصف، والثقوب الموجودة على الزوايا الأربعة للشق تدل على أن النيشة تغلق ببابين وربما كانت تستعمل كمظلة، واندهشنا فى النهاية أن عمل بهذا الحجم لم يكن عليه أى نوع من النحت النقش (١).

واجتزنا جنوبى كتلة الأنقاض المتكونة من المسلات والأعمدة الممتدة على الجانب الجنوبى للرصيف فوجدنا عدة أحجار من الجرانيت والحجر الرملى الصوانى، و خرجنا من هذا المحيط المحصن بالأنقاض بعد تجولنا فيه.

ولا يرى المشاهد أمامه إلا سهلاً فريدًا من نوعه يمتد جنوباً بحوالى ألف متر طولاً وينتهى بسلسلة من التلال الصغيرة تشبه السلاسل السابقة.

---

(١) المجلد الخامس، لوحة ٢٩ .

وحسب تخطيط السيد چاكوتان فإن العرض يقدر ما بين مائتى إلى سبعمائة متر، وكان السهل يبدو متساوياً وبعرض ثابت.

وسأحاول الشرح حسب ملاحظاتنا وربما يرجع ذلك لصعوبة إعطاء حدود الفيضان أثناء فترة الجفاف أو لفرق الارتفاع الذى يسببه فيضان النيل من سنة لأخرى. ويمكننا أن نعتبر أن هذا السهل كان مكاناً لسكان ضاحية مدينة صان القديمة. ووجدنا بالسهل قطعاً أثرية متميزة لمبانى ضخمة .

وسنطلعكم ـ قبل وصف كل هذه القطع الأثرية ـ على ما اكتشفنا فى النهاية الجنوبية للسهل وهو عدة أحجار ضخمة من الحجر الرملى الأحمر الصوانى مبعثرة على الأرض وتمتد هذه الأحجار باتجاه الشمال الغربى بحوالى ثلثى مساحة السهل.

ووجدنا أيضًا قطعة أثرية جميلة من تمثال من حجر البازلت الأسود القديم أو من جرانيت أسوان الأسود ذى الحبيبات الرفيعة جدًا، وربما كان التمثال واقفًا لحربوقراط عليه كتابات هيروغليفية.

ويقدر طوله من الوسط إلى قدميه بحوالى اثنى عشر ديسيمترًا أما بالنسبة للرجلين واليدين فيكونان شكلاً دائريًا على الجزء الأمامى من فخذه الأيسر مما يمنحك شكلاً غير عادى .

والقطع الأثرية الكبيرة الخاصة بالمبانى الضخمة ـ التى سبق وتكلمنا عنها ـ وتقع فى وسط السهل وتبعد عن جنوبى الحصن بحوالى تسعمائة متر وتحتوى هذه القطع على أربعة وعشرين عمودًا من حجر الجرانيت مدفونة تحت الأرض. و كانت الأعمدة متباعدة على مسافات واسعة ومتوازية ومتناسقة بعضها مع بعض فكوّنت طريقًا يتجه من الشرق إلى الغرب.

وأحصينا من الناحية الجنوبية أحد عشر عمودًا ورأينا من الناحية الأخرى ثلاثة عشر عموداً .

وتقدر المسافة بين عمود وآخر بما فى ذلك السمك بحوالى ثلاثة عشر مترًا، وعرض طريق الأعمدة يقدر بحوالى أربعة عشر مترًا. وقدرتها أنا وچاكوتان

بحوالى عشرة أمتار، ووجدنا اثنى عشر عمودًا بتيجانها وكلها كانت من حجر الجرانيت، وكانت هذه الأعمدة مرتبة فى صفين وتتميز عن الأعمدة الأخرى بزيادة بسيطة فى الطول والارتفاع قُدرت بمتر واحد، أما المحيط فقدر بحوالى اثنين وسبعة أعشار المتر، وهذه المقاييس تقريبية لأنه فى غالب الأحيان تكون الأعمدة مكسورة أوغير متوجة.

و وفقًا للعرض الذى قدمناه من البديهى أن يكون صف الأعمدة مكونًا على الأقل من ثلاثين عمودًا يقدر طولها الإجمالى بحوالى مائة واثنين وثمانين مترًا(١)، والتناسق الموجود بين الأعمدة ينفى وجود عدد كبير منها فى الصف الذى ذكرناه .

والمسافة الموجودة بين هذه الأعمدة لا تسمح لنا بالقول بأنها كانت واجهة لبناء؛ إذاً ما المقاييس التى نعطيها لمعبد أو قصر حتى يناسب واجهة بناء كهذه ؟

لنفترض أن دور هذه الأعمدة الضخمة هو تكوين صف من النصب التذكارية والمسافات الموجودة بينها كانت مخصصة للتماثيل أو قطع أثرية أخرى تستعمل للزينة ، ولم نجد عبر هذه الأعمدة أثرًا لأى بناء .

وكان على الأرض عدد كبير من الأحجار الجيرية والأحجار الرملية الصوانية مختلفة الألوان، ووجدنا أيضًا هذا النوع من الأحجار فى عدة أماكن على مساحة المدينة مما جعلنا نستنتج أشياء عديدة.

وتعتبر محاجر المقطم قريبة جدًا حيث تبعد عن منطقة مصر السفلى بحوالى مائة وعشرين كيلومترًا، وكان الفلاحون منذ قرون عديدة يستغلون الأحجار الجيرية وأحجار أسوان للبناء.

وقد عثرنا على عدة مواد وأشياء ضخمة للبناء بالقرب من قناة موسى والبحر تنتمى إلى العصر الرومانى والعربى ولم تتعرض للتخريب والوحشية واستغلال الفُرس.

---

(١) ٥٨٠ قدمًا.

إن الزمن فى صـراع دائم مع البـشـر مما زاد يومـيًـا من إتلاف المسـلات والأعمدة وقطع أثرية عديدة سبق وذكرناها.

وما يدهشنا فى آثار صان، ليس امتداد الآثار المختلفة ولكن وجود القطع الأثرية القديمة التى تعرفك على مدينة تانيس وبواقى مبانيها التى تدلك على أهمية هذه المدينة وشهرتها فى تلك الفترة.

والكتب المقدسة ذكرت مدينة تانيس كثيرًا وقال موسى[١] إنها شيدت بعد مدينة ايـرون بسـبع سنوات، وقـد ازدهرت هذه المدينة فى عـصـر إبراهيم واعتبرت مدينة مقدسة منتمية إلى الأرض الموعودة وهذا من سبعة وثلاثين[٢] قرنًا من الزمان.

واحتفل داوود من ثلاثة آلاف سنة فى حقول تانيس[٣] بالمعجـزات التى نزلت على القائد الدينى لليهود حيث ذكر قوة إله الإسرائيليين. لأن النبى إسحاق ثار ضد شعب مصر الذى كان يعبد الأصنام وكانت سيرته شائنة فاشتكى إلى ملوك تانيس السلوك المختل والشائن لحكام ومستشارى فرعون[٤]، وثار أيضًا إزشيل ضد ملوك اليهود الذين اختفوا فى تانيس[٥] عند قدوم الأشوريين. وقد وصف إزيشيل الدمار الذى أتلف به الآشوريون أهم مدن مصر السفلى. فقد خربت مدينة تانيس التى كان يطلق عليها اسـم تفنيس[٦] وعاتب جيرمى سكان مدينة القدس لأنهم أفسدوا أطفال مدن تفنيس ومنف[٧].

وقاد جيرمى ملوك جودا إلى تفنيس حيث حكى قبل نبوءته تدمير مصر على يد الملك البابلى وأن الله أمره أن يخفى بعض الأحجار تحت عقد القبة الموجودة

---

(١) التوراة الفصل ١٣ آية ٢٣ .

(٢) سفر التكوين فصل ١٣ آية ١٨ فصل ٢٣ آية ٢ و ١٩ ـ فصل ٣٥ آية ٢٧ ـ فصل ٣٧ آية ١٤ .

(٣) الفصل ٧٧ آية ١٢ إلى ٤٣ .

(٤) فصل ٣٠ آية ١٢ .

(٥) فصل ١٩ الآيتان ١١-١٣ .

(٦) فصل ٣٠ الآيتان ١٤-١٨.

(٧) فصل ٢ آية ١٦ .

فى الحصن الكبير المبنى من الطوب بالقرب من باب قصر فرعون[١] وافترضنا أن اليهود قاموا ببناء حصن تانيس الكبير قبل خروجهم من مصر حيث ورد فى سفر الخروج[٢] أن عمال اليهود لم يُستخدموا فقط لتأسيس المبانى الضخمة وتشييد المدن مثل بيتوم ورمسيس[٣] اللتان استخدمتا كمخازن للحكومة ولكنهم أيضًا تعرضوا للإهانة بالأعمال الشاقة التى كلفوا بها[٤]. حيث كانوا يحضرون القش لصناعة عدد معين من الطوب[٥] فإذا لم يسلموا العدد المطلوب يعاقبون[٦]. و وجدنا فى الكتاب المقدس أن كل الحوادث التى وقعت قبل خروج اليهود من مصر كانت قريبة من أرض جيسان فى وادى السبع بيار.

واقتنعنا بشهادات الملك النبى أن الملوك المصريين يقطنون فى تانيس، وليس فى منف أو هليوبوليس كما ظن عدد من الكُتّاب. و كان الإسرائيليون عبيداً لهم حتى جاء موسى إلى المدينة لتحرير اليهود[٧].

وموقع مدينة تانيس استراتيجى وتعتبر ذات أهمية لوجود الفرع البيلوزى للنيل. لأن دخول المدينة يرغم على اختراق ممر النهر الرئيسى فيؤدى إلى طريق سوريا حيث نجد الجيش فى انتظار العدو المحتل الذى قد أُهلك من عبور الصحراء ليقضى عليه[٨]، والموقع التجارى له أيضًا أهمية كبرى. وكان الاتصال التجارى يتم عبر بحيرة المنزلة وبيلوز ؛أحد موانئ مصر القديمة ذات الحركة الكثيرة.

---

(١) فصل ٤٣ الآيات ٧-٨-٩ .

(٢) فصل ١ الآيتان ١١-١٤.

(٣) كانت مدينة رمسيس على أرض جيسان على حافة مصر من ناحية سوريا ومنها انطلق الإسرائيليون بصحبة موسى ، سفر التكوين، فصل ٤٧ الآيات ٦-١١-١٧ وسفر الخروج فصل ١٢ آية ٣٧ وفصل ١٣ آية ١٧.

(٤) سفر الخروج فصل ١ آية ١٤ .

(٥) نفسه فصل ٥ آية ١٢ .

(٦) نفسه فصل ٥ آية ١٤ .

(٧) فصل ١١الآيتان ١٥و١٨ ـ فصل ٢ الآيتان ٣و٧ ـ فصل ٥ الآيتان ٤ و ٢٠ ـ فصل ٧ آية ٤٥ ـ فصل ١ آية ١٤

(٨) فصل ٥ آية ١٢ ـ فصل ٥ آية ١٤ .

وتعتبر تانيس محطة آمنة ونهرها هو الفرع التانيسى الذى يوفر ملاحة هادئة عكس الفرع البيلوزى الذى تمتد الصحراء على طول ضفافه فتكون خطرًا بسبب الأعراب المجاورين له. وكان النشاط والنجاح التجارى بالأسكندرية لم يؤثر على أهمية ميناء بيلوز لفترة طويلة لكن جفاف مياه النيل تسبب فى امتلائه بالرمال مما أثر علـى تانيس. وسقوط هذه المدينة لا يرجع لزمن بعيد. وقد ذكر استرابون وبلينى وبطليموس أهمية هذه المدينة ووصفوها حسب أقوالهم بالمدينة الكبرى .

وكانت المدينة عاصمة لإقليم تانيس فى العصرين اليونانى والرومانى.

وبعد دخول المسيحية أصبحت تانيس مقرًا أسقفيًا ينتمى إلى بطريرك الأسكندرية حيث ذكر لوسيان : يوجد فى هذا المقر اثنى عشر عضوًا من سنة ٣٦٢ إلى سنة ١٠٨٦ وينقل أيضًا مقطعًا من رسالته المكتوبة إلى البابا أونوريوس الثالث من طرف جاك دو فيترى عن سقوط دمياط فى ٥ نوفمبر ١٢١٩ تحت حكم الصليبيين.

وقد استولى الصليبيون على مدينة تانيس وأسقفيتها التى كانت تنتمى لعاصمة دمياط وحسب نفس الكاتب فقد حاصروا الأسقفية الموجودة بتانيس مرتين الأولى كانت سنة ١٣٣١ م والثانية سنة ١٤٢٥ م كذلك أثناء حملة سان لويس سنة ١٤٤٩ م(١) .

وهجر المدينة يرجع إلى تأثير الرمال على ميناء بيلوز، وربما هناك أسباب أخرى ساهمت فى ذلك كتدمير الصليبيين لحدود مصر أو إهمال مصب النهر الفاطمى الذى قلل من العلاقة التى كانت موجودة بين سكان دمياط والسويس. أو اكتشاف طريق تجارى جديد نحو الهند فى القرن الخامس عشر. وأخيرًا لغزو عرب الصحراء للمنطقة بعد أن امتلأ النهر بالرمال. واختفت مدينة تانيس من منطقة الدلتا الصغرى وأصبحت أطلالا تذكرنا بعظمة هذه المدينة.

---

(١) مسيحيو الشرق ، المجلد الثانى، ص ٥٣٥-٥٣٨، والمجلد الثالث ، ص ١١٤٧- ١١٥٠ .

والشىء الصعب هو الاهتمام بهجر السكان للقرى التى تمتد على مسافات شاسعة فى ضواحى مدينة صان. وتشهد على خصوبة هذه القرى آثار قنوات المياه التى تجتازها فى كل الاتجاهات والتلال الأثرية التى تميز مواقع القرى التى اختفت الآن . ولا نستطيع أن نقول أن نقص مياه النيل فى هذه المساحات الكبيرة والمغمورة بمياه قناة موسى طوال السنة جعل السكان يهتمون بالثورة الزراعية دون الثورة الثقافية.

وأهل قرية الملاكيم الواقعة قرب مصب قناة موسى بنوا سدًا ليقلل من غزارة مياه النهر ويحجز المياه فى فترة الفيضان ليستخدمها سكان المنطقة فى الرى.

والمياه المالحة القادمة من بحيرة المنزلة قد أثرت كثيرًا على المزارع حيث أصبحت أراضى المدينة بورًا وغير صالحة للزراعة. ولم تؤثر المياه على القطع الأثرية أوعلى مشاريع الرى القديمة التى نجدها دائمًا وسط مساحات الماء الموجودة بين الأرض والرصيف المستخدم كحزام أو سور[1] فى هذه المنطقة.

ومياه البحيرة غير عذبة وتزداد نسبة الملوحة بها نتيجة لأمواج البحر التى تصب فيها بدفع الرياح والعواصف. وتخترق مياه البحر مدخل فم ديبة وأم فرج.

وغزارة مياه البحيرة والرياح التى تهب عليها تساعد على امتداد المياه خارج حدودها لتغزو أماكن أخرى.

ووجود كل هذه العوامل ليس نتيجة لحجم مياه النيل التى كانت تصب فى البحيرة فى العصر القديم أوحجم المياه التى تصب حاليًا .

وإذا أردنا مقارنة الأماكن الحالية والأماكن من ألفى سنة فى هذه المنطقة أو على طول امتداد ساحل مصر ستجعلنا نبحث عبثًا عن كتلة وكمية الطمى

---

(١) يدل كتاب استرابون على وجود قطع أثرية كثيرة حيث يقول : بين الفرعين التانيسى والبيلوزى يوجد الميناء الضخم والبحيرة الممتدة حيث يوجد كثير من المدن (الجغرافيا، الكتاب ١٧).

المتناسبة مع غزارة مياه النهر التى تترسب كل سنة على الأرض الواقعة قرب الساحل و تمتزج بمياه قناتى رشيد ودمياط اللتين تلقيان بطميهما ورملهما فى البحيرات والبحر .

وقد برهن السيد چيرار بمجموعة ملاحظات مهمة[١] عن ارتفاع الأرض كل قرن فى مصر العليا يعنى من القاهرة إلى الفنتين وقدر بحوالى ١٢٦ ملليمترًا إذا قارنا كمية المياه التى تسبب هذا الارتفاع فى الأرض الزراعية بالصعيد مع كمية المياه التى تسقى ضواحى قناة موسى بكمية المياه التى تصب فى بحيرة المنزلة، نستنتج أن الرواسب قد تراكمت فى منطقة الدلتا العليا بمعنى أن الأرض كادت ترتفع حوالى ثلاثة أمتار وثمانية وسبعين سنتيمترًا[٢] وذلك خلال ثلاثين قرنًا من الزمان .

وإذا قللنا من كمية هذه المياه فإنه يستحيل أن تكفى كمية الطمى المتراكمة فى فترة قصيرة من الزمن كى تؤثر على مستوى الأرض أوانخفاض مياه ومحيط البحيرة أوتسبب جفاف المستنقعات المجاورة حيث تقل نسبة الملوحة فى الأراضى الموجودة حولها .

وكيف يفسر حدوث هذه العوامل التى تعطينا نتائج عكسية؟

تتكون طبقات من الطين والرمال فى قاع البحيرة وضواحيها كل سنة حيث أصبح ترسيبها غير ثابت فقط بل فى تراجع.

وبحيرة المنزلة والبحيرات الشاطئية غمرت الأراضى الزراعية القديمة المأهولة بالسكان وانتشرت هذه المياه المالحة على الأراضى الواسعة التى كانت شديدة الخصوبة فى وقت سحيق من الزمن. وإذا فكرنا فى هذه الظاهرة وتأثيراتها وتغيراتها على عدة حدود بحرية بالدلتا يمكن أن ننسب التغيير

---

(١) التاريخ الطبيعى ، المجلد ١٩ .
(٢) ١١ قدمًا و ٨ بوصات .

التدريجى إلى الفرق بين مستوى الأرض ومستوى مياه البحر. وإذا كان هذا التغيير حقيقى فإنه سيحدث بواحدة من ثلاث طرق:

إذا ارتفع مستوى مياه البحر واتسعت الأرض أو إذا هبطت الأرض من كثرة الرواسب المتراكمة عليها ومستوى مياه البحر ثابت أو إذا ارتفع مستوى مياه البحر فى نفس الوقت الذى هبطت فيه الأرض.

ويصعب اختيار وشرح الطريقة المناسبة لأنه ليس من السهل تحديد العامل الطبيعى الذى حدث بالفعل .

وأهمية هذا السؤال فتحت مجالا للبحث فى أحد فروع الچيولوچيا.

والرد عليه ليس من تخصصى وسوف أعطى ملاحظة واحدة مقترحًا شرحًا بسيطًا، فقد افترضت أن كمية الطمى التى تمتد على حدود الدلتا البحرية قليلة .

إذاً فكيف تكونت الدلتا؟ سنعرف إذا افترضنا أن حركة مياه النهر القديمة ترجع إلى ما قبل الفترات الغامضة فى تاريخ الهنود .

وقد وضعت هذه المعطيات فى انتظار شرح أفضل. ويبدو لى أن إعطاء برهان للرواسب غير القياسية التى ذكرناها سابقًا هو مصدر سؤالنا.

وروى التاريخ أنه منذ خمسة وعشرين قرنًا من الزمان تعرضت مناطق القارات القديمة إلى أكثر من أربعمائة زلزال منها السواحل المغربية وسواحل مصر وسوريا التى عانت من هذه الظاهرة الطبيمية سنوات ١١٥ و ٤٨٠ و ١٢٢٢ ميلادية .

وتخيلنا أن هذه الهزات الأرضية أثرت على الحدود البحرية للدلتا.

ويمكننا مقارنة هذه الظاهرة بهز كتل من الرمال والطمى ممزوجة بالماء فنجد أن المساحة تتجه نحوالفراغ غير المحدود .

وكل هزة أرضية تسبب تراكم الكتل وتسرب عناصرها نحوالأسفل، وهكذا انخفضت رواسب النيل المغطاة بمياه البحر الأبيض المتوسط نحوعمق البحر حاملة معها تربتى البحيرة والأراضى المجاورة لها .

ويحتمل أن كثرة الهزات الأرضية ناتجة عن وجود شق عميق تحت الدلتا على شكل طبق. و سيكون افتراضى لهذا السبب الثانوى حاسماً، إذا برهنا أن السلسلة الجبلية الكلسية الواقعة بالأسكندرية وأبى قير قد هبطت قليلاً عن مستوى البحر عما كانت عليه بالماضى.

وسأحاول تقديم شهادات الباحثين المتفق عليها وأقدم رأيى: إن الـذين يعتقدون أن هذا التغير ثابت ـ وشرحنا سبب الارتفاع التدريجى والعام للبحر الأبيض المتوسط[١] فإذا وصلنا لهذا المنسوب لشاهدناه فى عدة أماكن منذ فترة طويلة .

وبالتأكيد فإن هذه الفكرة لم تسفر عن أى عامل إيجابى منذ العصور القديمة بالقرب من الأسكندرية. بل بالعكس برهنت فى عدة شواطئ على البحر الأبيض المتوسط أن الاهتزازات الأرضية تسببت فى انخفاض أو ارتفاع مستوى مياه البحر. ومختلف الزلازل أثرت فى الموقع الأصلى للشواطئ وعلى مستوى مياه البحر .

وإذا افترضنا أن شاطئ مصر الصغير من ضمن الشواطئ التى تأثرت بهذه الكوارث الطبيعية فإن كل البحر تأثر بهذا الارتفاع على طول امتداده الكبير.

وأتمنى أن تجدوا لى العذر لخروجى عن الموضوع الذى تطرقت إليه عندما اقترحت وسيلة مباشرة لحل هذه المشكلة وهى أن نقوم بأبحاث عميقة فى آثار صان. ويمكننا أن نشك فى أن الأعمدة الأثرية الموجودة على الرصيف وهى التى وضعت سابقاً ليست فى مكانها الأصلى لأنها متباعدة والتيجان التى تحملها مرتبة على خط أفقى. وإذا حكمنا على متوسط قطر التيجان فسوف نجدها ممتدة على أرض عتيقة شديدة العمق ويبدو لى أن هذا العمق أقل من عمق

---

(١) بالنسبة لهذه الافتراضات يوجد مرجع قوى لدولوميو. وأذكر أنى تركت هذه الأبحاث بعد امتحان صعب . أما باقى الملاحظات فتبدو ثابتة وأنا شاهد على ذلك، والمقاييس التى تخص تغير مستوى الماء قدرناها بعدة ديسيمترات فى فترة زمنية تقدر بعشرين قرنًا من الزمان .

قناة موسى مما جعلنى أظن أنها تحت مستوى بحيرة المنزلة والبحر الأبيض المتوسط.

وهنا نرى حدثًا هامًا للمشاهدة إذا اهتممنا بعملية البحث المنظمة وقياس ارتفاع الأرض. مما سيجعل الرحالة فى يوم من الأيام يدركون حقيقة الأشياء كما هى حالياً .

وصف الأعمدة يستحق شهرة أكثر من معبد سرابيس الموجود فى أبى صيرينا (١) .

وآثار صان المشهورة بمعالمها السياسية والدينية جديرة باهتمام من نوع خاص لأن وجودها له علاقة متينة بتاريخ الأسباب الفيزيائية التى تسبب تغيير مساحة الأرض دون توقف .

(١) رحلة بيرسلاك فى الريف، المجلد الثانى، ص١٦٥ .

الفصل الرابع والعشرون
وصف الآثار القديمة الواقعة
فى مضيق السويس
بقلم السيد / ديفيلييه
مهندس الطرق والكبارى

قام عدد من المهندسين بعملية قياس ارتفاع أرض مضيق السويس في الأماكن الأثرية مما جعلهم يكتشفون عدة آثار تمثل أهمية للجغرافيا القديمة. وساهمت فى عملية قياس ارتفاع أرض القناة القديمة بين البحرين فى فترات مختلفة. مما جعلنى أجوب المضيق فى كل الاتجاهات.

ورحلتى الأولى كانت فى المنطقة التى تؤدى إلى سوريا من بلبيس والصالحية والقطية.

أما رحلتى الثانية فكانت من القاهرة إلى السويس بصحبة السيد چيرار حيث اجتزنا وادى التيه الذى سأعطيكم تخطيطاً له فيما بعد.

وقمنا بجولة من السويس نحو وسط المضيق بصحبة السيد دو روزيير واتجهنا أيضًا من بلبيس إلى القطية، وكان هدفنا هوالاطلاع على أخبار الجيش الفرنسى الذى افترقنا عنه منذ فترة طويلة. وكان الجيش يسير فى أرض العريش فى جو من الريبة، وقمنا بعدة تجهيزات لبناء مأوى عسكرى جديد على البحر الأحمر بعد الاستيلاء على العريش .

ورجعت من السويس إلى القاهرة عبر الطريق المباشر، واتبعت فى رحلتى الثالثة أثر قناة البحرين من القاهرة إلى وسط المضيق، و رجعت إلى القاهرة بعد أن قمت بعملية قياس ارتفاعات الأرض مع السيد فيفر. أما رحلتى الرابعة فقد كانت مع السيدين لوبير وشابرول حيث وصلنا إلى ضفاف النيل عبر وادى التيه و لم أكن أمتلك دليلا واكتفيت بالمعلومات التى حصلت عليها فى رحلتى السابقة حيث سرنا على طول خط القناة من القاهرة إلى السويس. أما رحلتى الخامسة كانت بصحبة السيد فيارد حيث تابعنا سيرنا عبر قناة القاهرة وأبى منجى حتى وادى طوميلات، و رأيت عدة آثار قديمة سبق وذكرتها فى رحلتى هذه . وزرت هذه الأماكن الأثرية فى رحلتى الرابعة وسوف أقود القارئ من القاهرة إلى السويس عن طريق بلبيس ووادى طوميلات .

وأتمسك دائمًا بحالة الأماكن الأثرية المهمة والتى من الضرورى معرفتها جيدًا لإصدار حكم سليم على الأسئلة المتعلقة بالآثار القديمة ، وبعد اجتيازى لعاصمة مصر الحديثة سأدخل فى بعض التفاصيل عن القناة الممتدة على طول الصحراء التى كانت تلتقى فى الماضى مع قناة الملوك ، ولأننى لم أدرس هذه القناة وماقيل عنها لذلك يبدو لى أن الموضوع قابل لتطورات ودراسات مهمة . بعد اجتيازى لمدينة القاهرة وجدنا قناة القاهرة تمتد فى خط مستقيم حتى سريقوس وعدة أماكن أخرى خاصة ضواحى هذه القرية، و إن تبدو القناة عريضة نسبيًا وغير متناسقة وتروى أراضى قليلة مما جعلنى أشك أنها تستخدم للملاحة.

والقرى الواقعة فى الشرق تعتبر الوحيدة التى تستخدم مياه القناة لرى حقولها، فالقنوات الصغيرة التى تستخدم لرى الأراضى تصب فى الجزء الأسفل للسهل مكونة بركة الحجاج فى فصل الشتاء وسميت بهذا الاسم لأن قوافل الحج تمر بها فى هذا الوقت .

وتقع قرية أبى زعبل شمالى سريقوس، وتحتفظ ضواحيها بالمياه التى تصلها عبر القنوات الصغيرة المتفرعة من قناة القاهرة التى ذكرناها فى الخريطة التى

وضعناها لمقاطعات مصر[1]. وإذا تتبعنا حدود الأراضى المزروعة فسنجد أن مجرى القناة يتسع ويزداد عمقاً كلما اقتربنا من تل اليهودية الذى يمر بين الآثار التى نراها فى الصحراء فى هذا الموقع.

والأراضى القاحلة التى تحد مصر من القاهرة حتى تل اليهودية عبارة عن شاطئ من الرمال يقدر عرضه بحوالى ألف وخمسمائة مترًا، مملوءًا بحجر الصوان الذى يطلقون عليه اسم حجر مصر، وتحيط بالأرض كثبان رملية بمختلف الارتفاعات يتخللها وديان صغيرة يوجد بها بعض النباتات التى تكاد تلامس التل؛ وهى واقعة بالقرب من الأراضى المزروعة. واكتشفنا أمام تل اليهودية صخرة ضخمة من الحجر الرملى الصلب، ووجدنا كمية كبيرة من هذه الأحجار فى أنقاض تل اليهودية، وهذا الطريق المملوء بالأحجار فى جهته اليمنى، هو الذى كان مغطى ببواقى وأطلال مدينة قديمة أو مبنى مهم ، ويمر عبر هذه الآثار جسر يفتح خلال الفيضانات ويمتد حتى تل يهودية، وشاهدنا الآثار والبواقى المختلفة للعديد من المبانى مثل القرية اليهودية، ومعسكر اليهود ومبانى أونيون و لن أدخل فى المناقشات الخاصة بالمسافات المذكورة فى المذكرات حيث إن منها ما يؤيد الرأى ومنها ما ينفيه، ولكن أذكركم فقط أن أونيون هو معبد لأحد الآلهة وهو يشبه معبد القدس لكنه أصغر منه حجماً. (أسس هذا المعبد أونيوس بضواحى تل بسطة وهليوبوليس بمواد من المعابد القديمة، بموافقة بطليموس فيلوميتور. وطبقًا لما جاء فى التوراة فى نبوءة ايساى[2] يقع معبد أونيون على مسافة مائة وأربعة وثمانين غلوة من منف. وقد أغلق . ودُمر ـ هذا المعبد وانتهت فيه الشعائر الدينية بعد ثلاثمائة وثلاث وأربعين سنة من بنائه بأوامر من فسباسيان الذى أعدمه لوبوس وبولين الذى تولى الحكم من بعده فى مصر. وتل اليهودية مرتفع وممتد جداً ، وقد وجدنا فيه كمية كبيرة من قطع الأحجار الرفيعة والمنحوتة وقطع من البلور.

---

(١) انظر الأطلس، لوحة ٢٤ .

(٢) ارجع إلى كتاب يوسيفوس تاريخ اليهود، الكتاب ١٣ ، فصل ٦ وكتاب حرب اليهود، الكتاب ٧ ، فصل ٣٦ .

وجسر تل اليهودية وقناة زفتى ـ مشتول يلتقيان فى نقاط مختلفة مع قناة أبى منجى، وسكان أبى زعبل والقرى المجاورة لا تصلهم كمية الماء اللازمة من قناة القاهرة، وذلك لانقطاع قناة أبى زعبل نتيجة إهمال السكان مما لا يسمح بزراعة جزء من الأرض ، لأن حدود الصحراء من هذه الناحية تبدو وكأنها بعيدة فى الزمان الماضى .

ومياه الفيضان تغطى هذه المشاكل الناتجة عن الإهمال، و تسربت المياه من شرقى قناة أبى زعبل سنة ألف وثمانمائة من الميلاد، لتدخل الصحراء باتجاه المناير ولم تدخلها من قبل ، وأحيطت قرية الزوامل بمياه قناة أبى منجى، والقناة التى تعبر مدينة القاهرة ـ التى سبق وذكرتها ـ والقريبة من المكان المسدود بأبى زعبل تمر بين تل اليهودية والآثار الموجودة بالصحراء لتلتقى بقناة أبى منجى حيث تتسع القناة فى بعض أجزائها، ربما لأن القناة كانت تستعمل للرى فقط وربما كانت فى الأصل قناة للملاحة .

وهذا ما قد لا حظته وهو شىء ثابت وغير قابل للنسيان .

وأهتم بقناة أبى منجى ومجراها المذكورين فى عديد من الدراسات وسأضيف فقط فى دراسات أصدقائى[1] ؛ أن أجزاء مختلفة من القناة تحمل اسماء مميزة.

وحسب المعلومات التى حصلت عليها من هذه الأماكن. أن هذه القناة تحمل هذه الاسماء المتتالية : أبومنجى ـ زوق ـ مرسى ـ رامرى ـ رامل وسودى .

وامتداد هذه الأفرع المختلفة لم يكن من اختصاصى ولكنى وجدت اسم سودى فى مدخل وادى طوميلات .

وتقع زفتى بالقرب من قناة القاهرة وتلتقى ـ كما ذكرت ـ بقناة أبى منجى. ويشبه ارتفاع زفتى ارتفاع تل اليهودية ، وكذلك بالنسبة لتل الجراد وتل منية حبيب ويطلق عليهما معسكر الرومان و تجتازهما قناة أبى منجى .

---

(١) انظر دراسة السيد لوبير عن قناة البحرين والدولة الحديثة وكذا دراسة السيد دوبوا إيميه عن فروع النيل القديمة ومصباتها فى البحر الدولة القديمة وصف مقاطعة قليوب للسيد جومار.

وهذه الآثار الأربعة لها مظهر واحد حيث لا حظنا أنها مبنية من الطوب الضخم فى فترة زمنية واحدة .

ويختفى مجرى القناة فى رمال قرية شولية، لكنك تجد آثارها على طول طريق بلبيس. وتتسع القناة فى قرية الغيطة، وقد أُستبدل الجزء المملوء بالرمال بفروع صغيرة مختلفة ذكرتها بقدر استطاعتى على الخريطة(١).

وهذه الفروع تُفسح الطريق لكل مياه القناة ولكنها غير صالحة للملاحة حيث إن القوارب الصغيرة تضطر للوقوف عند قرية شولية، و بعض الفروع الأخرى الواقعة أسفل شولية تحمل المياه بقرب جسر بلبيس الكبير . وتمر القناة بعدة منعطفات تصل لحوالى ربع فرسخ من الجسر بالقرب من قرية ميت أمل لتمتد حتى قرية ميت رابح بالقرب من تل شنيق حيث اضطررنا لتركه، ولم نتوقف عند مدينة بلبيس بسبب عدم وجود أى معالم أثرية بها ، وسنواصل سيرنا عبر القناة القديمة تاركين الشاطئ على يميننا .

وهذا الشاطئ شديد الانحدار والامتداد نحوالأفق ويصل لحوالى نصف فرسخ و من أعلى بلبيس وعقب تلين كلسيين، أُبلغنا أن القناة التى كنا مضطرين لتركها بالقرب من تل شنيق تمتد إلى مهينة ثم إلى بطيط. ولقد وجدناها بالقرب من هذه القرية ولم نتمكن من صعودها أونزولها، وعرفنا فقط أنها تمر بالقرب من عمريت ومن جزيرة السواح .

ويحمل الفرع الكبير بالقرب من بطيط المياه إلى جسر سنيكة الكبير الموجود بموقع جسر آخر من الزمن القديم، وينقطع الجسر أحيانًا فى أحد الأماكن فيغلق مدخل الوادى نهائيًا عند دخول مياه النيل ، كما ينقطع أحيانًا جنوبى سنيكة حيث يوجد جسر بعقد واحد أطلق عليه اسم قنطرة أولاد سيف، ومياه هذين القطعين تجتمع بعد مرورها من الجسر فى قناة تسمى بحر أبى أحمد لتصب فى بحيرة تسمى بركة السرجة وتعتمد هذه البحيرة على جسر ثان يجتاز

---

(١) انظر الأطلس لوحة ٢٤ .

الوادى ما بين العباسة وروراني (جنوب شرق العباسة قرب بركة الحاج شرقية) فى اتجاه قليل الانحدار وأقل طولا من الأولى، وقناة بحر البقر تصب فى بركة السرجة، وهذه القناة تنطلق من جسر سنيكة فى مكان يسمى قطا الطربوش يقع بين سنيكة وماسيد وفى هذا المكان ينقطع جسر سنيكة فتصل المياه عبر بحر الطربوش الرامرى، الذى يسحب مياه قناة أبى منجى أسفل بطيط عبر قناة أبى دافر أو سودى، واجتزت الجسر الثانى الممتد من العباسة إلى رورانى؛ حيث تتجمع المياه فى قناة تسمى بحر البواب أو أبو زير، وغُمرت كل الجسور بالمياه وسقطت سنة ألف وثمانمائة.

وسكان القرى لم يعرفوا مصدر هذه المياه المحيطة بها، ويبدو أن القنوات التى تمر بالقرب من الأماكن الأثرية بتل بسطه، قد زودت الوادى بجزء من المياه، وحسب قول شاهد عربى أن الوادى الصغير الذى يقع فى قرية الشيخ ناصر كانت تغمره المياه من اتجاهين .

ومياه قناة أبى منجى كانت تروى منطقة كريم وفى وقت لاحق ارتدت مياه قنوات تل بسطه فى الوادى .

وأُستخدمت بعض المنشآت على جسر سنيكة؛ لخدمة قوافل الحج عند مرورها من الوادى ولهذا سميت ببركة الحجاج .

واجتنب المسافرون طريق السويس وكانوا يمرون مباشرة من العقبة، ولم نتمكن من معرفة التفاصيل عن الأرض الواقعة بين جسر سنيكة، وأرض العباسة حيث كانت المياه تغمر كل المدينة أثناء رحلتنا.

ولم نر مثل فيضان سنة ألف وثمانمائة منذ أكثر من ثلاثين سنة وقد أثر الفيضان، على أرض الوادى الزراعية فأصبحت تحصد بواقى مياه الفيضان فقط، لأن مياه الفيضان الموجودة فى أجزاء الوادى السفلى اختفت بمفعول التبخر أوتسربها فى الأرض وكان ارتفاع مياه النيل كل خمس أوست سنوات صالحًا لزراعة الوادى. وإذا ارتفعت المياه بكثرة تدمر كل شيء .

ويحتجز سكان طوميلات قليلا من المياه فى جسر سنيكة والعباسة حتى يتمكنوا من زراعة بعض المنتجات الزراعية كالذرة والملوخية والبامية والبرسيم، ويعانى سكان المنطقة من فيضان المياه أوقلتها كل سنة، ولم تكن هذه الظاهرة موجودة عند اهتمامهم بقناة السويس الواقعة خلف شمال الوادى حيث كانوا يأخذون المياه الكافية لرى الأراضى دون أن يقطعوا جسر سنيكة أو العباسة، ولاحظنا أن الجسرين مبنيان لحفظ المياه ذات المستوى العالى فى حوض كبير منتظم وذلك لمنع انتشارها فى سهول مصر أو الوادى ، وجسر سنيكة ممتد من جسر بلبيس، ويقع جسر سنيكة والعباسة على بعد مائتى متر غربى رورانى، حيث وجدنا أطلالاً لمدينة قديمة(١)، و المكان مناسب أكثر لموقع مدينة بتوم أو تو أفضل من العباسة التى لا تبعد كثيرًا عن هذه المنطقة ولم نتعرف على آثارها.

وإذا انطلقنا من منطقة الرورانى فسوف نجد جنوبى الوادى مُحاطاً بالكثبان الرملية الممتدة حتى أبى نشابه ويقدر عرضها بفرسخ واحد ونجد فى الناحية الأخرى للوادى منطقة موحدة ومغطاة بالحصى الصغير .

وكان أكبر ارتفاع لمستوى الماء فى العباسة ورأس الوادى ، وقُدر مقياسها بالقرب من العباسة وحسب سكان طوميلات الشريف بحوالى خمسة أمتار(٢)، وتظهر ضواحى العباسة عند انخفاض مستوى الماء ثم تجف أرض رأس الوادى المجاورة وتضيق حدود المياه عند اقترابها من أبى نشابه حيث يظهر أسفل الوادى.

واكتشفنا وسط الوادى الذى يطلق عليه اسم «رأس الوادى» تلاً عليه بواقى سور من الطوب النيىء وعدة قطع من أحجار الصوان والجرانيت وأثر لمدينة صغيرة مهجورة ، ويرتفع هذا التل حوالى عشرين إلى خمسة وعشرين قدمًا وربما يكون جزيرة أثناء فيضان(٣) النيل وقد وجدنا أيضًا جسرًا غير مقطوع فى منطقة الوادى ، وقد هدمت المياه هذا الجسر سنة ألف وثمانمائة .

---

(١) انظر دراسة قناة البحرين، الدولة الحديثة .
(٢) ١٥ قدماً .
(٣) انظر دراسة قناة البحرين، الدولة الحديثة .

وقد انتشرت هذه المياه نحو رأس المولى بعد مرورها من أبى خشاب والمقفر والسبع بيار والشيخ الندى، ويبدو اتساع وكثرة المياه نادراً ولم نر مثله منذ ثلاثين سنة.

ونجد فى منطقة الوادى أراضى طوميلات الزراعية التى تنتهى عند حد جسر رأس الوادى، ويمتد الوادى الطبيعى الذى غمرته مياه سنة ألف وثمانمائة حتى مسافة مترامية الأطراف .

وتقع أبوخشاب أو أبوخشيد على الحافة القديمة لقناة البحرين فى وسط الوادى وفى اتجاه خط طول ٤٥ً ٣٢َ ٢٩°

وفى خط عرض ٤٥ً ٣٢َ ٣٠°

واكتشفنا آثارًا قديمة أطلق عليها العرب اسم أبى خشيد؛ ووجدنا وسط هذه الآثار صرحاً مصريا وعلامات تدل على وجود مدينة مصرية، ونجد هذا الصرح فى اللوحة ٢٩ المجلد الخامس من العصور القديمة الأشكال ٦ و ٧ و ٨ .

وهذه القطعة الأثرية من حجر الجرانيت الأحمر منحوتة على شكل مقعد بمتكأ يجلس عليه جنباً إلى جنب ثلاثة أشخاص مصريين بالحجم الطبيعى أو أكثر قليلا يرتدون مئازر من قماش مخطط أوعليه طيات وعلى رءوسهم تيجان رمزية، وكانت القطعة مرتكزة جيدًا على قاعدتها ومدفونة تحت الأرض حتى صدور التماثيل ولم نتمكن من رؤية النقوش إلا بعد الحفر حولها حيث استطعنا رؤيتها بالكامل وقياسها، ونجد رسم السيد فيشر لهذه القطعة فى اللوحة ٢٩ من المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة ، ونجد أن مسند المقعد يرتفع فوق رءوس الأشخاص حتى قمة التيجان .

والقطعة مغطاة بنقوش هيروغليفية تكون لوحة كاملة ومنظمة ، وكانت أوجه المقعد وظهره وما بين أرجل وتحت أقدام الأشخاص مزينة بطريقة بسيطة .

ورأينا على أكوام الأنقاض التى تغطى المدينة القديمة قطعًا كبيرة من حجر الصوان تشبه التى استخرجت من محاجر الجبل الأحمر بالقرب من القاهرة وأحجار ضخمة من الجرانيت وقطعًا من الرخام. وكل هذه القطع عليها كتابات

هيروغليفية، ووجدنا أيضًا مبانى من الطوب النيىء وقطعاً من الفخار وعدة قطع زجاجية.

والقطع الأثرية التى اكتشفناها تشبه تماماً التى عثرنا عليها فى مصر السفلى على أرض المدن القديمة المهدمة.

وحدد السادة دو بوا إيميه، ولوبير، ودانفيل، موقع مدينة هيروبوليس (تل المسخوطة)، فى مكان أبى خشيد. وقراءة مذكراتهم تعرفك بالأسباب التى دفعتهم لذلك والتى يجب أن أقبلها رغم معارضة السيد دو روزيير والسيد جوسلين، وقد اطلع السيد دو روزيير على مرجع أفاريس[١]، ونقل السيد لوبير رأى السيد جوسلين فى مذكراته عن قناة البحرين[٢] وأصر على تحديد موقع هيروبوليس بالقرب من شواطئ البحر الأحمر بالرغم من أنه لا يعرف هذه المدينة جيدًا.

ويقع شرقى أبى خشيد وعلى بعد خمسة آلاف مترًا مكان يسمى المقفر؛ وتعنى الصحراء. وجدنا فيه أثارًا لمبنى شعبى ربما أُستعمل كمركز للجمارك أو البريد ولحماية الملاحة. ويقع هذا المبنى على الضفة الشمالية للقناة وامتداد الأنقاض حوله تدل على أهميته .

واكتشفنا أيضًا عددًا كبيرًا من أحجار الجرانيت التى استعملنا واحدًا منها كعلامة لقياس المناسيب المختلفة للأرض[٣]. ويطلق العرب على هذا المكان اسم «المقفر بالرمال» وهذا يدل على حالة الأطلال. وقد احتفظنا بهذا الاسم كصفة.

و وجدنا أيضًا فى هذا المكان أساسًا لمبنى واسع يرتفع حوالى أربعين إلى ستين سنتيمترًا فوق الأرض المحيطة به. وشكل المبنى كشكل متوازى الأضلاع قدرت أضلاعه بحوالى ٤٨,٧ مترًا و ٥٢,٦ مترًا وتم بناؤه من الطوب النيىء.

---

(١) انظر دراسة الجغرافيا والشواطئ القديمة للبحر الأحمر ، دراسات العصور القديمة ، المجلد السادس .

(٢) انظر الدولة الحديثة ، المجلد ١١ .

(٣) الدولة الحديثة ، المجلد ١١ .

والترتيب الداخلى للمبنى يأخذ شكل غرف على هيئة محلات شعبية لخدمة التجار والمسافرين إلى مصر[١] . ووضعنا حجر الجرانيت الذى سبق وذكرته وقد استعملناه كعلامة قياس ارتفاعات الأرض فى الزاوية الشمالية الشرقية للمبنى ؛ لأن الأرض المجاورة كانت مملوءة بالقطع الأثرية القديمة والمنتشرة هنا وهناك. وسوف تجدون هذه القطع الأثرية مرسومة فى اللوحة ٢٩ شكل رقم ٥ العصور القديمة المجلد الخامس. مقاييس اتجاهات المبنى وضعت بالتقريب على الخريطة.

وقد غمرت المياه الغزيرة رأس الوادى سنة ألف وثمانمائة- كما ذكرت أعلاه - وامتدت على مساحة شاسعة حتى وصلت لأوراق النخيل فى الحدائق. وكانت سرعة المياه كبيرة وفى اتجاه المقفر قدرت بحوالى أربعة أقدام فى الثانية مما تسبب فى هدم الجسور واندفاع المياه نحو الوادى فنحرت الكثبان الرملية.

وعمق القناة فى هذا المكان كان مغطى بحوالى ٤ أقدام و ٦ بوصات و ٣ خطوط من المياه. وبما أن عمق القناة يقدر بحوالى ١٥ قدمًا و ١٠ بوصات وخطين تحت أقصى مد للبحر الأحمر[٢] نتج عن ذلك وصول المياه لمستوى ١١ قدمًا و٣ بوصات و١١ خطاً من مستوى أقصى مد . وبعد مرور المياه بعدة منعطفات انتشرت وتجمعت فى حوضين كبيرين محيطهما يقدر بحوالى سبعة إلى ثمانية فراسخ .

وهذه البحيرات المتكونة من فيضانات النيل المهولة تقع على مسافة أربعة عشر ألف مترًا شرقى المقفر ومائتى متر من الحد العريض للقناة .

وتتفرع قناة البحرين جهة الشرق وقد حدد موقعها السيد لوبير فى تاباستوم حيث قال اورتليوس[٣] (تُرى حول بحيرة الجزء العربى).

---

(١) المرجع السابق .
(٢) ارجع إلى مساحة الارتفاعات
(٣) الدولة الحديثة ، المجلد ١١ .

ويوجد قبر الوالى الشيخ النيلى على مسافة ثلاثة آلاف وخمسمائة متر جنوب شرقى الآثار ويقع على التل الذى وصلت أسفله المياه سنة ألف وثمانمائة. ووجدنا أيضًا آثار تاباستوم الواقعة على مساحة ثمانية آلاف ومائتى متر من جنوب شرق أكوام على قمتها قطع أثرية مهمة .

وقد اكتشفنا بين الأنقاض أحجار الجرانيت الضخمة والصوان الناعمة وعليها أفاريز مزخرفة تنتمى إلى قمم أعمدة وقُدر محيطها بحوالى ٢٠ قدمًا. وهنا وضع السيد لوبير والسيد دو بوا إيميه معبد السرابيوم الذى ذكرته فى مذكرات أنطونيانوس كمحطة وصل بين هيروبوليس وكليسما[١] .

ووجدنا بعض الآثار فى الجنوب الغربى متكونة من قطع الجرانيت وأحجار الصوان والأحجار الكلسية تشبه تماماً الأحجار الموجودة على أرض الآثار.

وتمتد الأرض الكلسية حتى السلسلة الجبلية قرب بلبيس .

ورأى السيد دوبوا إيميه آثار كليوباتريس[٢] حسب رأيه عند الحدود القديمة للبحر الأحمر ورأيه مقبول عامة. وغادرنا مكان الآثار للذهاب للسويس واجتزنا المناطق السفلى للمضيق التى سبق ووصفناها عدة مرات .

وملاحظاتى الشخصية عن هذا الموضوع نشرت فى آخر دراسة السيد دو بوا إيميه عن الحدود القديمة للبحر الأحمر[٣]. وليست لها أى علاقة بالآثار القديمة ولن أتكلم عن شىء هنا. ووجدنا على حافة الأرض المنخفضة للمضيق صرحًا قديمًا على مسافة ستة إلى سبعة فراسخ من ضواحى السويس.

وقد أتيحت لنا الفرصة لرؤية هذا الصرح وأعنى السيد دو روزيير ولوبير وأنا سنة١٧٩٩. ونشر السيد دو روزيير فى دراسات العصور القديمة المجلد الثامن بحثًا يحتوى على وصف هذا الصرح الذى سأذكره هنا حتى لا أترك نقص فى

---

(١) الدولة الحديثة ، المجلد ١١ .

(٢) نفسه .

(٣) الدولة الحديثة ، المجلد ١٨ .

البحث العام عن الآثار القديمة فى مضيق السويس ولأعلمكم أيضًا عن اختلافى فى الرأى مع السيد دو روزيير بالنسبة لموقع الآثار .

قال السيد دو روزيير «إن الطريق الذى اتبعناه عندما انطلقنا من السويس يبدو أنه لم يشتغل فيه أى أوروبى وبعد مرورنا حول البحيرات التى تصب فى البحر الأحمر اتجهنا نحو الشمال وانحرفنا قليلاً جهة الشرق الممتد حتى القطية» .

وأظن العكس أننا لم نمر من حول البحيرات؛ فلقد اتجهنا أولا نحو الشمال وكان اهتمامنا لمعرفة بلبيس والصالحية حيث أننا لو مررنا من حول البحيرات لتمكنا من معرفة أثر القناة القديمة وبعد رؤيتنا للآثار- التى سيتكلم عنها السيد دو روزيير - نزلنا وادى بين تلين فوجدنا نباتات كثيرة ومعسكرات للعرب وقطعان من الأغنام ترعى بالمنطقة .

واختلاف الرأى بينى وبين السيد دو روزيير عن موقع الآثار منعتنا من تسجيلها على الخريطة. وحاول السيدان لوبير وشبرول وأنا معرفة هذه الأماكن السنة الماضية لحل كل المشاكل ولكن دون جدوى . وهل حقيقى أننا مشينا فى طريق عكسى عندما انطلقنا من بلبيس إلى السويس ؟ ينتظر هذا السؤال حلاً.

ويواصل السيد دو روزيير : «إن الأكوام التى لمحناها على يسارنا بعد سيرنا لمدة ست ساعات ونصف أيقظت انتباهنا . وفى مصر نجد دائمًا آثارًا للمنشآت القديمة».

ووجدنا عدة أحجار ضخمة فى أعلى الأكوام منها كتلة تشبه التمثال الشهير لممنون .

ورأينا أحجار جرانيت أسوان وعليها رموز غريبة الشكل لم نرها على أحجار مصر من قبل وعليها نقش بمختلف الأشكال. وكانت هذه الأحجار مصنوعة بإتقان وجمال رائع مثل التى اكتشفناها فى طيبة لكنها تختلف من حيث الأشخاص فقط .

«ولا يشك أحد فى أن مختلف هذه الأحجار الضخمة تعتبر بواقى صرح بُنى فى هذا المكان. وتدل الأكوام التى تغطيها رمال الصحراء دون شك على بناء قديم له أهمية أثرية حيث وجدنا بها قطعًا تجذب الاهتمام ».

والفرقة التى كنا منضمين إليها لمعرفة الصحراء لها مهمة عسكرية وليست علمية حيث اتبعت خط سيرها وطريقها مبتعدة عنا. ومنعنا الليل من الوقوف لرسم بعض الأشكال والصور المنقوشة فقررنا رسم بعض الأجزاء ونقلنا كل الأشكال المنقوشة عليها .

وستجدون هذه الرسومات فى الأشكال رقم ١و٢و٣و٤ من اللوحة ٢٩ المجلد الخامس للآثار القديمة .

وقد وجدنا قطعة ضخمة من الجرانيت مزينة فى جزئها الأعلى بزخارف مصرية، كما وجدنا فى الجزء السفلى لها شكل يمثل شخصًا جالسًا طوله حوالى ستين سنتيمترًا، ويرتدى رداءً طويلا حتى كعبيه كما سبق ورأينا فى القطع الأثرية القديمة المنقوشة فى برسيبوليس وله نفس غطاء رأس التماثيل المصرية حيث يشبهها تماماً فى الجزء المُغطى للرأس أما الجزء الأعلى فبه فتحات. وهذا الشخص له لحية طويلة وغزيرة تصل حتى صدره، وكان يمسك بيده عصا طويلة مقوسة من الأعلى وتنتهى برأس طويل لثعلب. ورأينا شخصين واقفين بجانبه يقدمان له الولاء .

واكتشفنا كتابات منقوشة على حجر الجرانيت بنفس الرموز التى وجدناها فى آثار بابيلون وفى برسيبوليس القديمة وتعرف باسم رموز برسيبوليس المسمارية، وهى منقوشة بعمق وإتقان على هذا الحجر الضخم والذى يقدر طوله بحوالى متر واحد وارتفاعه ستون سنتيمترًا. و يغطى أحد الأوجه الصغيرة لهذا الحجر نقوش مرتبة على شكل صفوف متوازية عرض كل منها ستة سنتيمترات وطولها ستون سنتيمترًا والصفوف معزولة بعضها عن بعض بخط مستقيم محفورة ولا توجد بين هذه النقوش أية كتابات هيروغليفية .

وهذا ما نستطيع ذكره لكم عن هذه القطع الأثرية المهمة التى يجب زيارتها مرة أخرى لإجراء الدراسات والبحوث عليها .

واكتشفنا عند حد خليج السويس وعلى بعد عشرة آلاف متر من شمالى هذه المدينة آثار أرسنوى التى تمتد لحوالى ألف متر، وتصل مياه البحر إلى سفح هذه الآثار فى فترات المد العالى .

ورأينا على الشاطئ أثرًا لخندق يتجه من الشمال إلى الغرب[١] نحو بواقى أثر القناة القديمة .

ووجدنا فى الشمال وبقرب السويس أكوامًا من الأنقاض تدل على آثار القلزم[٢].

وكان البحارة يترددون باستمرار على خليج السويس والأماكن المجاورة للبحر حيث كانوا يستخرجون المياه الصالحة للشرب لتزويد المنشآت قليلة الأهمية بما يلزمها منه .

وبواقى أثر هذه المنشآت تدل على إنها تنتمى إلى العصر القديم لهذا سنذكرها فيما بعد.

وتقع عيون موسى على مسافة ثلاثة فراسخ جنوب شرقى السويس وكانت موضوع اهتمام السيد مونج الذى نشر عنها فى الدولة العصرية المجلد ١١. ووجدنا فى عيون موسى قطعًا أثرية مدفونة يبدو أنها مورد للسفن. وهذه القطع الأثرية هى بواقى خزانات الماء التى أسست بإتقان لجمع مياه العيون العذبة عن طريق قنوات تحت الأرض، ويقدر طول القناة بحوالى ألف وخمسمائة مترًا وتصل حتى شاطئ البحر. وقد بنيت هذه القناة من خامات رديئة وكان يغطى طولها تتبع انحدار الشاطئ. وكانت القناة مسدودة فى أول مائة متر، أما ما تبقى منها فكان سليماً، وتنتهى على مسافة مائة وثمانية وعشرين مترًا من البحر بأكوام من الأنقاض بدت لنا أنها أنقاض خزانات الماء .

وستجد تفاصيل كثيرة فى مذكرة السيد مونج التى سبق وذكرتها وكذلك السيد لوبير[٣]. وعثرنا أيضًا على أكوام من الأنقاض متكونة من قطع أثرية عبارة عن أوعية وجرار مصنوعة من الفخار الردىء ، كما وجدنا بواقى الأفران التى

---

(١) الدولة الحديثة ، المجلد ١١ والأطلس لوحة ٢٣ .

(٢) انظر الأطلس لوحة ٢ ، والدولة الحديثة .

(٣) الدولة الحديثة ، المجلد ١١ .

كانت تستعمل لصناعة الأوانى الفخارية وخاصة الأوعية التى تستخدم لتخزين الماء .

ودرجة حرارة مياه عيون موسى قليلة الارتفاع. أما المياه التى تغلى فهى نتيجة لتسرب الغازات والكبريت حيث يمكن أن تشم رائحتها من بعيد .

ورأينا أثر القناة المتجهة إلى الشاطئ فى مكان يسمى الأرقدية ويبعد بحوالى ستة آلاف مترًا عن شرقى السويس .

وظن السيد دوبوا ايميه أن إتام تعنى محطة اليهود الثانية(١) الواقعة على مسافة أربعة آلاف مترًا شمال غربى السويس .

ورأينا شرقى بئر السويس ساحتين متجاورتين بعض من أجزائهما مهدم ويرجع بناؤهما إلى عهد السلطان سليم الأول .

ويوجد فى وسط كل ساحة بئر طعم مائها مقزز وله رائحة منفرة بسبب غاز الهيدروجين والكبريت، ورأينا خارج الساحة أنقاضًا، وقناة صغيرة أُستعملت قديمًا لنقل مياه البئر إلى السويس . ووجدنا أيضًا قصرًا قديمًا يقع على بعد أربعة فراسخ شمالى هذه المدينة وبداخله بئر محفورة بعمق مائتين وأربعين قدماً تُسحب منها المياه بآلة مزودة بحبل وتصب فى حوض كبير ثم تترك لتترسب. ويطلق على هذا المكان اسم عجرود أو حيجرود .

وحسب السيد دوبوا إيميه فحيجرود تعنى محطة اليهود الثالثة(٢) .

و عثرنا على عيون الطوارق على بعد ستة فراسخ ونصف جنوب غربى السويس وتقع على شواطئ البحر أسفل الجبل الذى يحد وادى التيه من الشمال.

---

(١) نبذة عن إقامة اليهود فى مصر ، وعن هروبهم فى صحراء مصر، دراسات العصور القديمة، المجلد الثامن .

(٢) نفسه .

والمياه شديدة الملوحة ومتوافرة طوال السنة وتقل نسبة الملوحة أحيانًا حسب غزارة أو ندرة الأمطار .

ووجدنا أكوامًا من الأنقاض بين البحر وعيون الطوارق وبواقى خزانات الماء على شاطئ البحر وقنوات مختلفة تشبه قناة عيون موسى وتنطلق من عدة أكوام وتشبه التى تقع عندها عيون الطوارق، وتلتقى هذه القنوات فى مساحة شاسعة يقدر طولها بحوالى مائة مترًا وتبتعد عن خزان الماء بحوالى خمسمائة وعشرين متراً .

وهذا الخزان يبعد عن البحر بحوالى مائة وثلاثين مترًا مما يدل على أن هذه العيون الموجودة حاليًا لم تكن وحدها فى هذا المكان .

ونزلنا نحو البحر وعلى بعد عشرين خطوة من العيون وجدنا خزانًا تقدر أطواله بحوالى عشرين مترًا على ثمانية عشر مترًا ومبنى من مواد جيدة. ولاحظنا أيضا شمال غربى العيون وعلى مسافة مائتى متر أكوامًا من الأنقاض متكونة من قطع فرن وقطع فخارية نصفها زجاجى تدل على مصنع للأوانى التى يستخدمها البحارة يشبه مصنع عيون موسى تمامًا. ووجدنا فى الجنوب أربعة أفران فى أسفل الجبل الذى يكون فتحة وادى التيه. وقد استخدمت هذه الأفران قديمًا لصناعة الجير الذى يستعمل لمبانى السويس وكان تسخين هذه الأفران بواسطة نبات الأسل الذى يتغذى بالمياه المالحة من العيون المجاورة .

ومررت مرتين فى اتجاهات مختلفة بوادى التيه الذى يؤدى بك من السويس للقاهرة ولم أعثر على أى آثار فقط وجدت منبع واحد للمياه فى جندلى. وعَرَفتُ كل الآثار التى اكتشفناها فى مضيق السويس عبر رحلتى هذه.

وعمليات البحث المتعددة والمعلومات العسكرية وعمليات قياس ارتفاعات الأرض لقناة البحرين ساعدتنا على الاكتشافات . وربما فى رحلات جديدة نقوم بعمليات بحث أخرى .

وهذه الأبحاث جديرة باهتمام الرحالة فى مصر ولكنى أنصحهم بآثار برسيبوليس خاصة وتحديد موقعها الجغرافى بدقة .

الفصل الخامس والعشرون
وصف الآثار الرئيسية الواقعة فى الجزء القديم للدلتا بين فرعى رشيد ودمياط

بقلم السيدين / جولوا ودو بوا إيميه
عضوى لجنة العلوم الفنون المصرية
ومهندسى الطرق والكبارى وفارسين فى جوقة الشرف

لقد تمكنا من إدخال بعض المعلومات عن موقع المدن القديمة التى تعرفنا[١] عليها فى الدلتا فى دراساتنا الخاصة بمصر الحديثة .

وبعض الآثار القديمة ومنها الموجودة فى بعض المدن الحديثة جديرة بالاهتمام وإعطاء تفاصيل كثيرة عنها، وسنحاول أن نقوم بهذه المهمة فى هذا الفصل المخصص لوصف آثار بهبيت وقطع أثرية أخرى رأيناها فى المحلة الكبرى والبواقى الأثرية لمدينة صا الحجر الرائعة .

المبحث الأول: آثار بهبيت

تقع مدينة بهبيت شمالى سمنود على مسافة ثمانية آلاف وستمائة متر، ولا تبعد عن قناة التعبانية التى تتبع من فرع دمياط. ويحيط بآثار مدينة قديمة

(١) أرجع إلى رحلتنا فى الدلتا، الدولة الحديثة ، المجلد ١٥ وإلى الخريطة القديمة لفروع النيل للسيد دو بوا إيميه ودراسات العصور القديمة، المجلد الثامن.

واقعة بقرب هذه القرية سور مربع الشكل تقريبًا قُدرت أطوال أضلاعه بحوالى ثلاثمائة واثنين وستين متراً طولا. أما عرضه فكان مائتين وواحدًا وأربعين مترًا وله خمسة منافذ .اثنان فى الغرب واثنان فى الجنوب وواحد فى الشمال .

وهذا السور مبنى من الطوب النيىء وكانت واجهته مغطاة جيدًا فى الزمن الماضى. وتبدو مساحة الواجهة حاليًا غير منتظمة وغير متساوية، ووجدنا فى وسط هذا السور تلا من قطع أثرية لمبنى جميل بطراز مصرى، تمتد آثاره على مساحة طولها ثمانون مترًا وعرضها خمسون مترًا. ورأينا أيضًا كومة غير منتظمة ومختلطة من أحجار الجرانيت مختلف الألوان وكانت هذه الأحجار مربعة الشكل وبزوايا بارزة ومغطاة جيدًا .

ونظن أن هذه المواد قد استخدمت ولكن إذا تفحصنا هذه القطع الأثرية عن قرب، فسوف نتعرف على أحجار تنتمى إلى سقف مبنى أو أعمدة أو تيجان أو أفاريز أو قواعد أعمدة.

وكل العناصر الهندسية تخص معبدًا مصريًا. وقد أخذنا مقاييس حجر سقف فكان طولها حوالى ٣,٤ أمتار وعرضها ١,٤ متر وسمكها ٠,٧٢ متر وكان على أحد أوجهها نحت لجعران بجناحين ودون شك كان هذا الحجر ضمن واجهة الرواق .

والقطع الأثرية والأحجار التى رأيناها كانت تنتمى إلى السقف. ويبدو أن شقًا عميقًا حدث تحت الأرض مما تسبب فى هبوط الأساس فانهار المبنى بالكامل .

وعثرنا أثناء بحثنا على ثمانية أجزاء من بواقى تيجان لأعمدة وتوقعنا وجود عدد كبير منها. وكانت التيجان على شكل رأس حتحور وكلها متشابهة كالتى اكتشفناها فى معبد دندرة[١] لكنها بحجم أصغر وأقل زخرفة.

وتشابه التيجان التى رأيناها فى معبد بهبيت ومعبد دندرة من حيث الشكل والنقوش والرسومات الموجودة عليها وكذلك مظهر القطع الأثرية تعتبر بالنسبة

---

(١) انظر اللوحة ٢٩ شكل ٢ المصور القديمة المجلد الخامس وإلى اللوحات ٧ و ٩ و ١٢ واللوحة ٢٩ و ٣٠ معبد دندرة للمصور القديمة، المجلد الرابع .

لنا دليلاً كافيًا لمقارنة المقاييس الهندسية لهذين المبنيين لمعرفة المساحة الإجمالية للمعبدين اللذين لم يبق منهما إلا الأطلال .

ولاحظنا أن المسافة بين أطراف تيجان الأعمدة فى بهبيت حوالى ١,٤٦ متر. أما تيجان دندرة فقدرت بحوالى ٢,٠٨ متر. وقطر أعمدة معبد دندرة يقدر بحوالى ٢,١٢ متر. أما معبد بهبيت فهو ١,٥٢ متر.

واستنتجنا أن معبد بهبيت ظهر بمقاس أصغر من معبد دندرة بنسبة ٥ : ٧ .

وواجهة الرواق قدرت بحوالى ثلاثين مترًا طولاً وثمانية عشر متراً ارتفاعاً. أما باقى المعبد فكان طوله أربعين مترًا على الأقل وعرضه خمسة وعشرين مترًا.

وهذه المقاييس متناسبة مع مساحة الأنقاض والقطع الأثرية الممتدة على مساحة ثمانين مترًا طولا وخمسة وأربعين إلى خمسين مترًا عرضًا .

ورأينا أيضاً من كل الجوانب قطعاً أثرية عليها كتابات هيروغليفية لأفاريز نقشها جميل. وقدرنا ارتفاع أحدها بحوالى اثنين وسبعين سنتيمترًا. أما الإفريز السفلى فقدر بحوالى ١,٨٦ متر. ورأينا أيضًا أحجار الجرانيت الضخمة الموجود عليها فتحات ليتسرب منها الضوء للمعبد وكان عرض الفتحة ١,٣٥ متر .

ووجدنا بقرب هذا المكان قطعًا لسلم من حجر الجرانيت صعوده مريح وشكله يشبه تمامًا السلم الموجود فى معابد طيبة، وطول درجة السلم ١,٣٥ متر. ولاحظنا بدهشة أن المساحات كانت مسطحة والزوايا بارزة وعليها نقش متقن رغم صلابة أحجار السلم .

وإذا وجد شك حول تخصيص المعبد أو الإلهة التى قدست فيه، فسنتطرق لدراسة القطع الأثرية التى سبق ووصفناها؛ لأن جدران المعبد الخارجية والداخلية مغطاة بنقوش هيروغليفية بمختلف المشاهد تشبه التى رأيناها فى

معابد مصر العليا والتى تمثل مشهد تقديم القربان لإيزيس التى كان على رأسها قرص محاط بقرون ثور[١] .

وكانت هذه النقوش متباعدة بعضها عن بعض من أعلى لأسفل وعلى شكل صفوف مرصعة بالنجوم وبين جوانبها خط مستقيم من الكتابات الهيروغليفية .

وكانت الأفاريز غنية بالزخرفة الجميلة وهندستها تشبه معبد دندرة الكبير . ورأينا فى معبد بهبيت ودندرة أشكال مزخرفة لإيزيس فى كل مكان.

وكانت الآثار التى اكتشفناها فى معبد بهبيت بينت لنا أن قدماء المصريين كانوا يستخدمون أحجار الجرانيت فى بناء الأعمدة من قطعة واحدة مما جعلنا نلاحظ :

أن عددًا كبيرًا من الأعمدة التى وجدناها بين الآثار القديمة خالية من الرموز المصـــــرية[٢] والكثير منها كانت له زخرفة خيزرانية الشكل وهذا النوع من الزخارف دخيل تمامًا على العمارة المصرية.

وعمود الأسكندرية الذى يسمى عمود بومبى عليه كتابات تدل على أنه على شرف دقلديانوس، والعمود منحوت على الطراز اليونانى والرومانى.

وجميع أبحاثنا عن آثار بهبيت تؤكد أن أعمدة معبد إيزيس كانت مبنية بمداميك من حجر الصوان أو من الحجر وتشبه التى رأيناها فى معابد مدينة طيبة .

واستخدام هذه الطريقة فى البناء عند قدماء المصريين تدل على أن نظامهم الهندسى للبناء يقوم على فكرة استعمال عديد من الأعمدة لبناء صرح وليس عمودًا واحدًا كما كان فى روما القديمة وأوروبا العصرية حيث استعملوا الأعمدة فقط لدعم قواعد الأحجار الضخمة التى تكون أسقف المبانى ومن الطبيعى

---

(١) انظر اللوحة ٢٩ شكل ٣ العصور القديمة، المجلد الخامس .

(٢) وجدنا هذا النوع من الأعمدة فى أسوان وأرمنت والشيخ عبادة فى القاهرة والأسكندرية وعدد كبير من مساجد مدن مصر. (انظر وصف آثار العصور القديمة فى مختلف الأماكن المجلدات ١ : ٥).

وحسب هذه الأعمدة فإنهم لم يزينوا تماثيلهم الضخمة وآلهتهم ومعابدهم التى تحتوى على الأشياء المقدسة وطقوسهم الدينية .

والمسلات التى شيدت للآلهة أو الأبطال من قطعة حجر واحدة ستدرس على حدة.

وغالبية آثار بهبيت من حجر الجرانيت الأسود ومن الجرانيت الأحمر الجميل وأحيانا تكون الأحجار من اللونين. وآثار بهبيت تشكل غموضًا واختلالاً فى نظامها، ويستحيل أن نتعرف على تخطيطها الأصلى، ويبدو مظهرها صامتًا وليس له أى شبه بالقطع الأثرية التى رأيتها فى مختلف المبانى .

ويستطيع الرحالة الذى زار الأماكن الأثرية فى مصر العليا أن يؤسس ذهنيًا معبد بهبيت؛فإذا أعاد قطع الأعمدة المبعثرة على الأنقاض إلى مكانها الأصلى ووضع عليها تيجانها المزينة برءوس إيزيس ثم كللها بالطبليات الواقعة على الأرض ثم أقامها على قواعدها المزينة بأجمل الأفاريز فجأة يظهر أمامه معبد رائع .

ويدخل الرحالة تحت رواق له ستة أعمدة فى واجهته وأربعة فى الجزء الداخلى ويتقدم بداخل قاعة الأعمدة وسقفها مرتكز على أعمدة حيث يجد رواقًا ثانيًا وبعدما يجتاز عدة قاعات يدخل إلى قدس الأقداس التى تذكر فيه الآلهة نبوءتها .

وقدس الأقداس محاط بقاعات غامضة مخصصة لأهم آلهة مصر .وهنا اكتشفنا أثر الممرات السرية وبها يختفى الكهان عن كل الأبصار ويدخلون إلى السرداب الذى ينطلق منه صوت مخيف يُسمعك رضا الإله المحبوب . ووجدنا عند خروجنا من هذا المعبد، سلمًا يؤدى إلى سطح هذا المبنى حيث ترى بناءه بوضوح، واندهشنا للمقاييس الكبيرة للأحجارالتى يتكون منها السقف وكانت منحوتة بإتقان من حجر الجرانيت المستخرج من محاجر أسوان[1] وتقع على بعد مليون متر من بهبيت فى الاتجاه التصاعدى للنهر. وهذه هى الآثار الرئيسية التى وصفناها .

---

(١) ٢٢٥ فرسخًا بـ ٢٥ إلى الدرجة .

وسنرى الآثار التى بنيت فى أماكن أخرى[1] وتخص مدينة إيزيس الجميلة التى ذكرها بلينى وإتيان البيزنطى.

المبحث الثانى: آثار المحلة الكبرى

تقع المحلة الكبرى[2] على بعد ثلاث ساعات سيرًا من سمنود وهى عاصمة محافظة الغربية . ومبانيها عصرية وتحتوى على آثار جديرة بالاهتمام، ربما ترجع إلى المدينة المصرية التى بنيت المحلة الكبرى على أنقاضها أو نقلت القطع الأثرية من مدينة إيزيس أو من سبينيتوس (سمنود) إلى المكان الذى نراه الآن.

وعدد القطع الأثرية كبير وهى من الجرانيت مختلف الألوان أومن أحجار الصوان الضخمة المستخرجة من الجبل الأحمر الواقع بضواحى القاهرة. وتتكون هذه الآثار أيضًا من أحجار مكعبة عبارة عن أحجار رملية صوانية .

وهذا الحجر يشبه أحجار التماثيل الضخمة التى وجدناها فى سهول طيبة. وتجد هذه الأحجار مبعثرة بالشوارع أو استعملت فى بناء المبانى الحديثة. وأغلبية هذه القطع منقوشة وعليها مناظر تشبه النقوش التى تزين معابد مصر العليا.

ومساجد المحلة الكبرى ومساجد القاهرة تحتوى على أعمدة الجرانيت الأحمر الخالية من الرموز المصرية.

وقد وجدنا فى أحدى ساحات هذه المساجد تابوتًا من الجرانيت[3] طوله ٢,٦ مترا وارتفاعه ١,٥٢ متر. وكانت الأوجه الجانبية عليها نقش لإكليلين من الزهور معلقين بحلقتين منفصلتين بمربع بارز من الداخل. ورأينا فى وسط كل منهما نجمة بستة فروع. وكان على الأوجه الأمامية والخلفية إكليل واحد من الزهور دون نجمة.

---

(١) انظر داخل الدلتا، الدولة الحديثة ، المجلد ١٥ .

(٢) ارجع إلى ما كتبناه عن هذه المدينة أثناء رحلتنا داخل الدلتا، الدولة الحديثة ، المجلد ١٥ .

(٣) انظر اللوحة ٣٩ شكلى ١٣ و ١٤ العصور القديمة، المجلد الخامس .

وشكل التابوت وزخافه يدل على طرز يونانية ويجب علينا رسم مخطط له، ويستعمل هذا التابوت حاليًا فى المسجد كميضأة للمصلين حيث نجده فى غرفة بجانب حوض يستخدم للوضوء. واكتشفنا أيضًا تابوتًا من الحجر الكلسى[١] مدفوناً فى الأرض حتى جزئه العلوى.

وكان طول التابوت ١,٩٦ متر وله شكل المومياء تماماً ويمثل جزؤه العلوى محيط رأس المومياء وعرض كتفيها .أما جزؤه الأسفل فيأخذ شكل ساقين متقاربين ويوجد حز مخصص لغطاء يحيط بكل التابوت. وكانت كل التوابيت لها حز لغطاء الغلق ولكن من النادر أن نجد أغطيتها وتعجبنا لرؤية هذه التوابيت التى من المفروض أن تحفظ الموتى وأجسادهم تستخدم كمغسل أو حوض يستخدم للحماية الصحية للبشر.

وأصبحت الأغطية غير نافعة وربما حُطمت عند اقتحام المقابر.

ولم نتمكن من فحص التابوت الذى شغلنا ولا الكتابات الهيروغليفية الموجودة عليه من الخارج. بعد أن تأكدنا أنها ليست موجودة بالداخل. وكان المسجد الذى سبق ووصفناه يحتوى على عدة أشياء مختلفة وقديمة وكانت درجات سلمه مبنية من حجر الجرانيت ومغطاة بالكتابات الهيروغليفية.

ورأينا مئذنة لمسجد ثانى بالمحلة الكبرى جزؤها السفلى من الجرانيت الأحمر. ووجدنا مسجداً ثالثاً به قطعة من الجرانيت الأسود[٢] تشبه تلك التى اكتشفناها فى معابد فيلة، وكانت تضم طائر الصقر المقدس. وكانت هذه القطعة فى وسط المسجد فى مكان مخصص للوضوء وكانت موضوعة على الأرض ومحفورة بحيث تتمكن من احتواء الماء الكافى للمصلين. وقدرنا ارتفاع القطعة بحوالى ١,٧٨ متر. أما قاعدتها فهى مربع طول الضلع ٠,٩٢ متر. ولمحنا فى نفس المسجد طبلية لتاج عمود برأس إيزيس كانت من حجر الجرانيت الأسود وتستخدم كقاعدة لأحد الأعمدة.

---

(١) نفسه ، شكلا ١١ و ١٢ .

(٢) انظر اللوحة ٣٩ شكل ١٠ العصور القديمة، المجلد الخامس .

ووجدنا فى أحد شوارع المحلة الكبرى قطعًا ضخمة من حجر الجرانيت وتابوتًا ثالثًا بزخارف يونانية يشبه تماماً الذى وصفته سابقًا.

ورأينا فى ركن نفس الشارع نوعًا من الدعامات التى بدت لنا من الوهلة الأولى ذات طراز مصرى ولكن بعد فحصها بدقة استنتجنا أنها عربية الطراز، وكانت هذه الدعامة ذات كعيبة (حلية خرزانية على شكل كعب الكاحل) وتاجها مزين بفروع النخيل ويشبه كثيرًا تيجان رواق قاو الكبير.

المبحث الثالث: آثار سايس

تقع آثار مدينة سايس القديمة بالقرب من قرية صا الحجر على بعد ستة آلاف متر من مصب قناة شبين الكوم فى فرع رشيد. ويعتبر التشابه الموجود فى الأسماء أكبر افتراض لأبحاثنا هذه.

وباقى الآثار التى سنوصفها ومختلف التقارب الذى سنستخدمه يوضح ذلك دون شك قبل وصولنا إلى صا الحجر.

وقد مررنا بجانب قناة شبين الكوم التى تمر فى قريتى الهشيمة والنحرية فوجدنا عدة قطع أثرية للمبانى القديمة متمثلة فى أكوام من الطوب مقاييسها كبيرة.

وقرية صا الحجر قليلة الأهمية وتقع بجوار الآثار القديمة المهمة الممتدة من الشمال إلى الشمال الشرقى على شكل كومتين من قطع الطين والطوب النيىء ومغطاتين بشقفات من الفخار والخزف . واستخدم تل الأنقاض هذا كسماد لحقول الذرة.

ووجدنا أيضًا سورًا واسعًا مبنيًا من الطوب النيىء، قدرنا سمكه بأكثر من خمسة عشر متراً وتجاوز فى الارتفاع كل المبانى الكبيرة من نفس النوع الموجودة فى البلد وبخاصة مصر العليا.

وطول السور يقدر بحوالى ثمانمائة وثمانين مترًا وعرضه سبعمائة وعشرين مترًا. والعواصف الممطرة رغم ندارتها فى هذه المنطقة تركت أثر جريان الماء

على الأجـزاء الخـارجـيـة للسور مكونة مجـارى سـيـول غـيـرت من شكل الحـائط القديم.

ورغم ذلك يمكنك أن تتعرف حاليًا على شكل الكساء القديم للسور حيث ترى الطوب الذى بنى به السور ويبلغ طول الطوبة أربعين سنتيمترًا وعرضها ثمانية عشر سنتيمترًا أما ارتفاعها فيبلغ عشرين سنتيمترًا ونجد فى وسط السور كومة ضخمة من الطوب النيىء تظهر من فوقها كل السهول والأراضى المحيطة بالسور، ودون شك تحتوى هذه الكومة على حطام من المبانى الضخمة ربما المعابد أو المبانى الملكية .

ونرى حالياً شقفات من السور أوطوب بأحجام صغيرة مما يدل على أن هذه الأنقاض كانت بقايا مبانى حديثة. ونجد تقريباً فى كل مكان شقفات من قطع فخارية كما سبق ورأيناها فى المدن القديمة المهجورة .

ولم نلحظ على مساحة الأرض أجزاءً هندسية مهمة، لكن لو بحثنا فى أكوام الأنقاض فسنجد بالتأكيد قطعاً مهمة.

ولمحنا مسجدًا يقع بالقرب من السور ويحتوى على حجر الجرانيت المحتمل أنه أخذ من مكان السور. والواجهة الشرقية له تقع على مسافة ألف متر من ضفاف النيل.

وقيمة الآثار تدل على أنها كانت تنتمى إلى المدن العظيمة القديمة فى الدلتا ومن المستحيل رؤية بقايا مدينة سايس القديمة كما سبق أن ذكرنا.

ولاحظ دانفيل فى تصميم سيكارد للخريطة العصرية التشابه الموجود بين اسم صا وسايس واستنتج أن قرية صا تقع مكان العاصمة القديمة فى مصر السفلى[١] وهنا نؤيد رأى الجغرافى الفرنسى الذى علل فقط التشابه البسيط فى الاسماء لكن سنعتمد على وجود الآثار المهمة التى وصفناها .

---

(١) انظر الدراسات حول مصر ، ص ٧٩ .

وشهادة استرابون ستثير الشك حيث وصف هذا الكاتب مجرى النيل وحدد موقع مدينة برسى سبيكولا(١) فوق فتحة الفرع البولبيتى ثم حائط ملزيان فى مقاطعة سايس ومدينة نقراطيس(٢) القريبة من شيديا، وتكلم فيما بعد عن مدينة سبنيتوس(٣) ومدينة سايس عاصمة مصر السفلى التى شُرفت بالإلهة مينرف فى معبد دينى خاص يحتوى على مقبرة أبسماتيك. وبعد أن مر استرابون من الساحل المحتوى على الدلتا السفلى وصف الطريق من شيديا إلى منف(٤) وتكلم أيضًا عن عدة قرى مجاورة لبحيرة مريوط ومن بينها ضيعة الشبريه +. وحدد موقع هرموبوليس. حاليًا دمنهور - أعلى النهر. ثم جنيكوبوليس ومقاطعتها جينكوبوليتان. ووصف فيما بعد مدينة موممفيس ومقاطعتها نتريوتك ثم حدد مدينة نقراطيس فى الشمال عند صعود النيل وأيضًا فى الدلتا وأطلق عليها اسم سايس التى تبعد عن النيل بحوالى ١٢٠ غلوة.

وحدد موقع مقبرة أوزوريس فى الدلتا جنوب مدينة سايس حيث يقال إنه دفن هناك .

واتباع الإرشادات والطرق على خريطة مصر التى خططها مهندسو جيش الشرق الفرنسى تعرفنا موقع مدينة سايس القديمة بالقرب من صا الحجر وهذه القرية تقع يسار الدلتا عند صعود النيل .

وقد وجدنا موقعها يشبه تمامًا الموقع الذى حدده استرابون ، لأن السور الذى وصفناه سابقًا يقع على بعد ألف متر من ضفاف النهر ولكن حسب استرابون فإن المسافة من سايس إلى النيل قدرها حوالى شونين أو مائة وعشرين غلوة أى ما يعادل أربعة وعشرين ألف مترًا ويصعب أن نتفق مع استرابون فى رأيه.

---

(١) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧ ، ص ٨٠١ ، ط ١٦٢٠ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ص ٨٠٢ .

(٤) توجد نقراطيس على يسار الدلتا وعلى النيل بينما تقع مدينة سايس على بعد شونين من النهر ويوجد معبد أوزوريس على مسافة قريبة من سايس حيث يوجد جسده .

وهنا يمكننا القول إننا تجولنا فى كل اتجاهات الجزء العلوى للدلتا ولكن لم نعثر على الآثار التى تدل على وجود عاصمة مصر السفلى التى كان موقعها مخالفاً لهذا المكان . فهل نعرف كل شىء عن النهر الذى يخرج عن مجراه كل سنة ولا يستطيع أن يحافظ على ضفافه ؟.

لقد افترضنا أن المسافة التى تفصل سايس عن مدينة نقراطيس تقدر بحوالى مائة وعشرين غلوة، ولذا يجب تعديل نص استرابون الذى أعطى مقاييس ومعلومات مختلفة فى دراسات لم نتمكن من طبعها ولا تناسب هذا الرأى. وحسب ما ذكرناه تقع مدينة نقراطيس بالقرب من مدينة سايس فى مقاطعة سايس الواقعة فى الدلتا بالقرب من النيل .

واجتزنا الضفة الشرقية لقناة رشيد للوصول إلى الرحمانية فوجدنا أكواماً من القطع الأثرية التى تدل دائمًا عن الأماكن القديمة فى مصر .

ولا شىء يدعونا للدهشة حيث إنها ليست أول مرة نبحث عن موقع مدينة يونانية قديمة دون جدوى . ونعلم أن هناك اختلافاً بين البناء المصرى واليونانى حيث إن البناء المصرى أكثر صلابة وينتمى للعصور القديمة . ويمكن أن نضيف ـ حسب استرابون ـ أن مدينة نقراطيس التى تقع على ضفاف النيل قد اختفت عند فيضان النيل .

وموقع مدينة سايس ونقراطيس الذى حدده بطليموس(١) يطابق الموقع الذى حدده استرابون تماماً بعد ما ذكر مقاطعة كابسيت وعاصمتها كاباسة وتكلم بطليموس عن مقاطعة سايس وعاصمتها سايس الواقعة على ضفاف النهر وحدد موقع نقراطيس غربى هذه المدينة . ونؤيد رأى دانفيل بالنسبة لشرح نص

---

(١) إقليم كباستى وعاصمته كاباسة يقع على خط طول ٣٠َ ٦١ْ وخط عرض ٤٠َ ٣٠ْ .
إقليم سايس وعاصمته سايس يقع على خط طول ٣٠َ ٦١ْ وخط عرض ٥٠َ ٣٠ْ .
وموقع مدينة نقراطيس على ضفاف النهر الكبير خط طول ١٥َ ٦١ْ وخط عرض، ٣٠َ ٣٠ْ .
الجغرافيا، الكتاب الرابع صفحة ١٠٥ و ١٠٦ طبع ونشر سنة ١٦٠٥ .

بطليموس، وقد اعتقدنا مثله[١] أن مدينتى سايس ونقراطيس موجودتان فى الدلتا على نفس ضفة النهر ويمكننا تحديد موقع نقراطيس غربى سايس وليس غربى النيل مما يشرح ويوضح جيدًا إعوجاج ومنعطفات النهر .

وقد أبعد بطليموس الشك عندما حدد موقع نقراطيس على النهر الكبير. وجزءًا من فرع رشيد الذى توجد عليه آثار صا الحجر كان ينتمى قديمًا للفرع الكانوبى[٢] الذى ينحدر نحو كانوب الواقعة أعلى قرية الرحمانية.

ومقبرة أوزوريس التى أشار إليها استرابون تقع دون شك بالقرب من قرية اسديمة حيث نجد آثار المبانى القديمة .

وحدد هيرودوت بالتقريب الموقع الجغرافى لمدينة سايس وأعطى تفاصيل عنها ؛حيث تعتبر سايس أعظم مدينة فى مصر السفلى، وفى عهد هيرودوت كانت سايس مقر آخر ملوك مصر «ابريس» وكان له قصر عظيم[٣] يُرى منه معبد مينرف أجمل معابد مصر. وكان هذا المعبد يحتوى على مقبرة أوزوريس[٤].

وقد بنى أمازيس رواق[٥] المعبد الجديد بالتأمل من حيث ارتفاعه واتساعه وعرض أحجاره، ووضع هناك تماثيل ضخمة عالية. حيث رأينا فى مدينة سايس تمثالاً ضخمًا قدر ارتفاعه بحوالى خمسة وسبعين قدمًا[٦]، ويشبه التمثال الذى نصبه أمازيس فى منف أمام معبد بتاح .

وهذا الملك لم يهتم فقط ببناء الرواق ولكنه اهتم بترميم المعبد[٧] بأحجار ضخمة استخرج جزءًا منها من محاجر منف والباقى من محاجر أسوان. وقد ارتفعت أمام المعبد مسلة كبيرة من حجر[٨]،

---

(١) انظر دراسات عن مصر ، ص ٨٠ .
(٢) انظر ملاحظة السيد لانكريه الفرع الكانوبى، داسات العصور القديمة، المجلد الثامن ، وانظر ايضاً دراسة السيد دوبوا إيميه حول فروع النيل القديمة ومصباتها فى البحر، المجلد الثامن .
(٣) هيرودوت ، التاريخ ، الكتاب الثانى ، المقطع ١٦٣ .
(٤) نفسه ، المقطع ١٧٠ .
(٥) نفسه ، المقطع ١٧٥ .
(٦) نفسه ، المقطع ١٧٦ .
(٧) نفسه ، المقطع ١٧٥ .
(٨) نفسه ، المقطع ١٧٠ .

ورأينا بقرب منها حوض مملوء بالمياه الراكدة، وله شكل أسطوانى(١) وكانت جوانبه مبطنة بالأحجار .

وكان يقام أثناء الليل على حوض سايس عروض لمشاهد غريبة لها علاقة بالإله أوزوريس(٢). والشكل الخارجى لمعبد مينرف أقل أهمية من الشكل الداخلى. فكان الفناء مزينًا بأعمدة ذات طراز نخيلى. وإذا دخلنا من اليسار بالقرب من المعبد نجد فى الساحة المخصصة لمنيرف مقبرة ابريس. حيث بنى سكان سايس فى هذه الساحة كل مقابر الملوك الأصليين لمقاطعة سايس. وهذه المقابر موجودة حاليًا وحسب هيرودوت فإن معبد أمازيس يبعد قليلا عن معبد ابريس(٣) لكن الشىء المدهش فى مدينة سايس هو المقصورة(٤) التى جلب أحجارها الملك أمازيس من محاجر الفنتين، واستغرق نقلها حوالى ثلاث سنوات بأيدى عاملة قُدرت بحوالى ألفى عامل. وكان الطول الخارجى للحجر عشرين ذراع وعرضه أربعة عشر ذراعًا وارتفاعه ثمانية أذرع. أما من الداخل فكان طول المقصورة ثمانية عشر ذراعاً وعشرين إصبعاً أما عرضها فكان اثنى عشر ذراعًا وارتفاعها خمسة أذرع. وإذا أخذنا مقاس الذراع الموجود فى مقاييس مستوى مياه الفيضان فى الفنتين يكون طول الحجر ١١,٦ أمتار وعرضه ٧,٣٨ أمتار وارتفاعه ٤,٢٢ أمتار. أما مقاييس المقصورة الداخلية فهى الطول ٩,٩٢ أمتار والعرض ٦,٣٢ مترًا وارتفاعه ٢,٦٣٥ أمتار. وحسب هذه المقاييس نجد أن الحجم الإجمالى للقطعة كما فُصل من صخر الجرانيت الأسوانى يقدر بحوالى ٣٤٤,٥ مترًا مكعبًا(٥). ويقدر وزنها بحوالى ٩١٤,٨٣٢ كيلوجرامًا(٦). باستثناء الفراغ الذى قُدر بحوالى ١٦٥,٢ مترًا مكعبًا(١) فتكون الكتلة الباقية التى نقلت

---

(١) وجدنا أحواضًا مشابهة فى الآثار قليلة الأهمية بمصر العليا بالقرب من المعابد .

(٢) هيرودوت ، المقطع ١٧١ .

(٣) نفسه ، المقطع ١٦٩ .

(٤) نفسه ، المقطع ١٧٥ .

(٥) ١٠٠٤٧,٦ قدماً مكعبة .

(٦) ١٨٦٨,٨٥٣ رطلاً. وقدر ١٨٦ رطلاً لكل قدم مكعبة.

إلى سايس هى ١٧٨,٣ مترًا مكعبًا[٢] بوزن يعادل ٤٧٦,٠٠ كيلوجراماً[٣]. كان تفريغ الحجر يتم أثناء استخراجه من المحجر دون شك.

ونتساءل أين الصروح التى لا نرى أى أثر لها فى هذه الأماكن؟

إذا شرعنا فى عملية البحث عبر الأكوام الضخمة من الأنقاض الموجودة فى ساحة صا الحجر فسوف نعثر على بعض القطع الأثرية وربما نجد مقصورة اخرى مدفونة بالكامل وسليمة، و كتلة كهذه لا تُهدم ولا تُكسر بسهولة.

وقد استخدمت آثار مدينة سايس لتزيين المدن المصرية ومنها الأسكندرية مع أن عاصمة الدلتا القديمة كان تدميرها أقل من مدينة منف التى اختفت تمامًا.

وهذه العاصمة الثانية لمصر ورغم الدمار الذى أصابها لم نستطع تحديد موقعها منذ فترة طويلة، وكان كل سكان سايس فى أحد أيام السنة وأثناء الليل يقدمون قرباناً ويعلقون المصابيح المضيئة فى الهواء الطلق حول بيوتهم ويطلق على هذه الحفلة حفلة المصابيح المضيئة[٤] .

والمصريون الذين لا يستطيعون الذهاب إلى سايس ينتظرون ليلة القربان، حيث يوقدون المصابيح أمام منازلهم فتكون كل مصر مضيئة فى نفس الوقت.

وتوحى هذه الأنوار بحكمة مقدسة ولكن هيرودوت نفى احتمال أن هذا الحفل أقيم على شرف النور الذى كان مرتبطًا بالإلهة نيت ومتجسدًا ومقدسًا فى هيئتها.

وظن المؤرخون اليونانيون أن سيكروبس من مواليد مدينة سايس وأن مدينة أثينا أسسها سكان سايس. ويستحق اسم هذه المدينة أن يحفظ جيدًا ليس فقط لأنها أعظم مدن الدلتا من حيث آثارها، ولكن لأنها ولدت منها مدينة يونانية (أثينا) باسم مشهور وحضارة وفنون عظيمة .

---

(١) ٤٨١٨,٨٥ قدماً مكعبة .
(٢) ٥٢٢٨,٧٥ قدماً مكعبة .
(٣) ٩٧٢,٥٤٧ رطلاً .
(٤) هيرودوت ، المقطع ٦٢ .

الفصل السادس والعشرون
وصف آثار الأسكندرية وضواحيها
بقلم السيد / سان جينى
كبير مهندسى الطرق والكبارى

ملاحظات تمهيدية (*):

تعتبر الأسكندرية من أهم مدن مصر القديمة فهى غنية بتاريخها ووصف موقعها الجغرافى. وتحتوى على بعض المعالم الأثرية المتميزة، ولها أهمية راجعة لموقع موانئها الاستراتيجية، التى استفاد منها ملوكها وحكامها والعالم المتحضر.

و أصبحت الأسكندرية مقرًا لأقوى الإمبراطوريات فى الفترة التى كانت فيها العلاقات التجارية والودية مزدهرة بين شعوب البحر الأبيض المتوسط المجاورة كاليونان وإيطاليا.

وأضاءت بالمعلومات مدرسة الأسكندرية العظمى وتطورت الثقافة والعلوم والفلسفة والأدب .

وكان التاريخ فى أول هذه الفترة[١] حديثاً وكاملاً وخال من الخرافات واحتفظ بالعادات والتقاليد المختلفة لهذه المدينة المشهورة.. ويُطلعنا التاريخ على

(*) الأرقام الموجودة بين قوسين ( ) تعنى ارجع إلى العناوين والأرقام فى الملحق .

(١) ترجع فترة هيرودوت إلى ٤٤٥ سنة قبل الميلاد وتم قراءة تاريخه أمام جموع اليونانيين فى حفلة يوليه على شرف أثينا منذ أكثر من مائة سنة بعد غزو قمبيز لمصر .

مختلف الأحداث والثورات السياسية التى وقعت فى الأسكندرية؛ حيث كانت هذه المدينة دائمًا فريسة للغزاة رغم أن لها جيش برى وبحرى كطيبة؛ لكنها أصبحت مسرحاً للدمار المستمر كمصر السفلى أكثر من مصر العليا لهذا فإن أطلال هذه المدينة وقطعها الأثرية نادرة الوجود وذلك راجع لانقلاب تربتها فى كل الاتجاهات.

وقد عثرنا على خرائط هندسية مفصلة للكُتّاب القدامى، وتمكنا من وصف الأماكن الأثرية فى الأسكندرية وضواحيها التى ستطلعنا على حالة الآثار الحالية وتأثير الزمن عليها .

ونحن لانريد تاريخ الأسكندرية ولكن نريد وصف آثارها التى تذكرنا بتاريخها .

وسنشير إلى كل الآثار القديمة(١) التى نراها على أرض الأسكندرية وإلى أهم موانئها التاريخية، وكذلك ما سطره (١) التاريخ لنا لتكوين فكرة صحيحة عن آثار الأسكندرية الجميلة التى تحمل رموزًا تذكرنا بتاريخ الفنون الجميلة فى تلك الفترة.

ويجب أن نرسم صورة فى الأذهان عن مختلف التغيرات التى مرت بها المدينة ويستحسن أن يحتوى كل جزء من هذه الصورة على رموز توضح مختلف التطورات فى حضارة هذه المدينة .

ولانحاول كتابة تاريخ خاص ولكن نريد فقط تحديد موقع آثار الأسكندرية عبر الزمن.

---

(١) ويمكننا أن نطلعكم على بعض الحوادث المهمة التى وقعت أثناء هذه الحملة الحديثة والمشهورة التى تُشرف فرنسا والتى ستترك ذكريات عظيمة فى مصر كالتى تركها الذين من قبلنا .

نظرة عامة على تسلسل الأحداث التاريخية
فى الأسكندرية
الفترة الأولى من ١٦٦٣ سنة حتى عهد قمبيز

قامت حضارة مصر على ضفاف النيل حيث ظهرت مختلف الممالك ومن بينها مدينة الأسكندرية التى تفصلها الصحراء الشاسعة.

وازدهرت العلوم والفنون عند قدماء المصريين بينما كان العالم يتخبط فى جهل وهمجية.

وكان سكان أثيوبيا قد اجتازوا شلالات النيل واستقروا شمالى حدوده الطبيعية. وتطورت هذه الحضارة القديمة وامتدت عبر كل المنطقة .

وفى تلك الفترة تأسست مبان جميلة ضخمة نجد أطلالها فى مصر العليا. كما شيدت مدينة منف بالبقايا الأثرية لمدينة طيبة .

وشيدت مدينة الأسكندرية بالبقايا الأثرية وأطلال منف فورثت كل فخامة هذه المدينة.

وكل التحف التى تكون مجموعة القطع الأثرية تمثل أكبر جزء من وصف مصر، قبل تأسيس مدينة الأسكندرية التى تعتبر مدينة قديمة ولكنها حديثة بالنسبة للمدن المصرية القديمة.

وتسلسل الأحداث التاريخية والقطع الأثرية والحضارة القديمة غير كاف لتغيير النظم[١] .

والفراعنة أو الملوك القدماء لمختلف السلالات الملكية تولوا الحكم فى فترة زمنية من ١٦٦٣ إلى ٥٥٢ قبل الميلاد .

---

(١) إن ديودور الصقلى حسب الفترة الزمنية من ألف إلى ألفين وثلاثمائة سنة منذ أوزوريس حتى الإسكندر. أما هيرودوت فحدد الفترة الزمنية حسب عدد الملوك الذين حكموا فى تلك الفترة وقدرها بحوالى ألف ومائة سنة.

وغزا ملك الفرس قمبيز مصر فى هذه الفترة ودمر مدينة منف التى كانت عاصمة لمصر، وكانت قوة روما فى بدايتها أثناء ذلك وبدأت الحضارة والفنون اليونانية الموجودة فى مصر تتطور.

وكانت أرض الأسكندرية عبارة عن ضيعة صغيرة يقطن بها رعاة همجيون (٢).

الفترة الثانية

١٩٣ سنة منذ قمبيز حتى الإسكندر

كانت الأسكندرية تحت حكم خلفاء قمبيز الذين كانوا مشغولين بالمعارك الدامية مع اليونانيين فلم يهتموا بموقع هذه الضيعة(١). و كانت مصر تقوم بثورات عنيفة لمقاومة الاستعمار لكنها دائمًا تسقط فريسة لأعدائها . وثار اليونانيون وأعدوا جيشًا لمحاربة الفرس واستطاعوا هزيمتهم وبعدها ازدهرت الحضارة والفنون .

وأصاب التفكك والفساد المدينة اليونانية وانقسمت أجزاؤها الداخلية وانضمت إلى السلطة المقدونية . ثم احتلها الرومان واستولوا على كل المعارف والعلوم وامتد حكمهم حتى شمل مصر كلها.

وتعرضت الجمهورية الرومانية الجديدة إلى بعض التغيرات التى طرأت على الحكم حيث كانوا يطبقون القوانين البدائية فى حكمهم فأرسلوا نوابهم إلى أثينا ليجلبوا القوانين والتشريعات الجديدة التى تدين بها اليونان لمصر. واضطر الرومان للسيطرة على بعض القبائل المجاورة قبل أن يستولوا على أترورىا .

---

(١) إن المدن المعروفة فى تلك الفترة هى ماريا وممفيس وبعض الأماكن المجاورة.

الفترة الثالثة ٣٠٢ سنة

من حكم الإسكندر إلى حكم أغسطس

أطاح الإسكندر بحكم المملكة الفارسية بآسيا واستولى على مصر سنة ٣٥٢ قبل الميلاد أى حوالى ٢٠٠ سنة بعد غزو قمبيز .

ويجب ألا ينظر التاريخ لهذا الرجل العظيم كمستعمر فقط . ولكن ينظر إلى كيفية تفكيرالإسكندر فى تكوين حضارة جديدة تجمع بين حضارتى مصر وبلاد الشرق القديمة وحضارة اليونان فطور العلاقات التجارية(١). ووقع اختياره على ضيعة صغيرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط فأمر ببناء ميناء مهم فتكونت مدينة الأسكندرية نسبة لاسمه .

وقد نجح الإسكندر بجيشه القوى فى إخضاع بلاد اليونان لسيطرته فأصبحت مصر والأسكندرية تحت الحكم اليونانى فى ظل حكم البطالمة، وكانت البلاد تنعم بالخير وازدهرت الحضارة، وتغيرت أنظمة الإدارة، وصارت مدينة الأسكندرية مركزًا للإشعاع الحضارى للمناطق المجاورة. والحضارة الأوروبية وذوقها الفنى أثر على أسلوب الحضارة الأفريقية .

وأصبحت الأسكندرية مدينة يونانية شُيدت بأطلال منشآت قدماء المصريين مما جعلنا نهتم بآثارها .

وأثناء الفترة الثالثة فى تاريخ مصر اعتُبرت اليونان وطنها الثانى فتطورت العلوم والفنون القادمة من هناك إلى مهد مستعمراتها . وبقيت هذه الحضارة فترة طويلة(٢) تضىء مدينة الأسكندرية، فظلت تنعم بعظمتها ورونقها. وكل الآثار التى نهتم بها وجدت لمعانها الأصلى فى ظل هذه الحضارة.

---

(١) حطم الإسكندر مدينة تير .

(٢) استقبلت الجاليات اليونانية، ومنحت أصلاً مصرياً بصورة ما .

وكانت مصر بالنسبة لليونانيين تعتبر قديمة وتمثل مستعمرة كاملة فى الأسكندرية وحدها التى كانت أعظم مدن العالم القديم .

وكانت روما تتخبط فى الجهل والهمجية منذ ثلاثة قرون، لكنها حرصت على تطوير أسلحتها وحضارتها وتمكنت من الاستيلاء على مدينة قرطاجة واليونان والغاليين وامتدت مستعمراتها حتى آسيا .

الفترة الرابعة ٣٩٢ سنة

من حكم أغسطس حتى إمبراطورية الشرق

احتل أغسطس مصر وحولها إلى مملكة رومانية وكان الاحتلال سهلا بالنسبة لهازم انطونيو الذى كان يريد الاستيلاء على مقبرة كليوباترا ويستلم الحكم بعد آخر بنات البطالمة .

وقبل هذه الفترة وأثناء حرب يوليوس دُمرت كل مبانى الأسكندرية وأحرقت مكتبتها العظيمة وكانت الخسائر لا تعوض، حيث فقدت مدرستها جزءًا كبيرًا من عظمتها التى استفاد منها البطالمة الأوائل واحتفظت هذه الأكاديمية بآثارها حتى الفترة الرابعة، التى وقعت فيها مصر تحت حكم إمبراطورية الشرق سنة ٣٦٤، حيث انقسمت الإمبراطورية الرومانية وأصبحت الأسكندرية تمثل بجانب روما المدينة الثانية فى العالم. وأصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية بعدما توقف حكام روما عن اضطهاد الديانة المسيحية التى لقيت الحماية الكاملة من القسطنطينية. وانتشرت المسيحية فى مصر والأماكن المجاورة لها واهتم رجال الدين والكنيسة بالدين المسيحى وأدخلوه إلى مدرسة الأسكندرية الشهيرة حيث أصبحت المدرسة المسيحية. لها نفس الشهرة أثناء أول أربعة قرون من عصرنا هذا. واحتلت الملكة زنوبيا ملكة بالمير مصر سنة ٢٦٩. واسترجع أوريليوس مدينة الأسكندرية. واستعمرت مصر بعدد من الطغاة

استولوا على الحكم فيها وحاصر دقلديانوس مدينة الأسكندرية ثم احتلها سنة ٢٩٨ .

الفترة الخامسة ٢٧٧ سنة
منذ انقسام الإمبراطورية إلى عهد عمر

كان انقسام الإمبراطورية الرومانية لصالح مصر والأسكندرية أيضًا لأنه فى هذه الفترة الخامسة التى دامت ٢٧٧ سنة، كانت إمبراطورية الغرب تتخبط فى الجهل مما جعل شعوب الشمال[1] يستعمرونها . وتطورت العلوم والفنون على أيدى اليونانيين فى أوروبا رغم الخمول واللامبالاة والنزاعات الدينية التى تعرض لها العلماء والملوك.

واحتفظت مدينة الأسكندرية بمكانتها بين المدن العالمية المهمة. وتطورت وقويت الديانة المسيحية فى كنيسة الأسكندرية وانتشرت فى بلاد الشرق والغرب. وأصبحت العقيدة الدينية متينة وقوية بسبب المجمعات الدينية[2] واضطهاد الخرافات والبدع.

ولجأ عدد من النساك إلى مصر واختفوا فى الصحراء المجاورة للنيل ومدينة طيبة بعد مطاردتهم واضطهادهم .

وأُنشئت عدة أديرة فى الأسكندرية والمقاطعات المجاورة . وكره المسيحيين لعبادة الأوثان فى مصر دفع بهم لتحطيم كل هذه المبانى الدينية بأجزائها وعمارتها المميزة.

وكانت مدينة الأسكندرية مسرحًا للدمار والخراب المسيحى فى عهد الإمبراطورية الرومانية حيث بقيت آثار قليلة.

---

(١) انتهى حكمهم سنة ٤٧٦ وبدأت الإمبراطورية الإيطالية.

(٢) آريوس ونستوريوس .

ولاحظنا أن جميع الديانات القديمة المصرية واليونانية التى كانت تحت حكم البطالمة والرومان، وُجدت آثارها على القطع الأثرية القديمة فى الأسكندرية. وتركت الديانات بصمتها على العادات والتقاليد التى نراها فى البلاد .

وستتاح لنا الفرصة لاكتشاف عدة بصمات من خلال هذا الوصف بعد هذه التغيرات الكبيرة.

وظهر أوتيس بإحدى البدع الدينية فانزعجت لها الكنيسة واستقر فى الأسكندرية ثم توغل داخل الأراضى المصرية بعد غزوه لها واتخذ الأسكندرية عاصمة له حيث اختل النظام بها وسادت الاضطرابات وفصل الأسكندرية نهائيًا عن القسطنطينية وروما.

ورغم كل هذه الانقلابات والاضطرابات[١] فقد ازدهرت التجارة وترعرعت بالأسكندرية.

ومجدت الإمبراطورية الرومانية والقسطنطينية مدينة الأسكندرية فى عهد البطالمة ويمكننا أن ننسب أهم الآثار التى سبق وتكلمنا عنها لهذه الفترات الثلاثة.

الفترة السادسة ٣٢٩ سنة

منذ عهد عمر إلى الخلفاء الفاطميين

فقدت الأسكندرية رونقها وتحولت إلى مدينة حديثة. أثناء غزو عمر[٢] ثانى خلفاء محمد لمصر وفى هذه الفترة المشهورة فى تاريخ العالم ظهر شعب مجهول وديانة جديدة توغلت فى آسيا وأفريقيا لتمتد حتى الجزء الغربى لأوروبا.

---

(١) استولى الفرس على الأسكندرية سنة ٦١٥ .

(٢) هذه العبارة (آثار قديمة) حسب التقسيم لوصف مصر . والمبانى القديمة الموجودة بالأسكندرية أخذت اسم الآثار القديمة.

وخنق الإسلام المسيحية فى الشرق وفى مصر السفلى ودُمرت وخربت عدة مبانٍ أثرية ودينية بعد أن كانت مدينة الأسكندرية أهم مدن البلاد، تعرضت للخراب والدمار[١] وسنحاول توضيح آثارها بالتفصيل فى عدة أماكن.

أسس عمرو مدينة الفسطاط أو القاهرة القديمة بعدما ضارعها بمدينة الأسكندرية وأصبحت مقرًا لحكمه، وبدأت الكثافة السكانية تقل يومًا بعد يوم وبعد حصار المدينة هجرها السكان نهائيًا ونقلت المدينة الحديثة خارج المنطقة.

وهلكت إمبراطورية الشرق فى العصر الإسلامى وخسرت نصف ممتلكاتها وقوتها ولكنها قاومت ثمانى عشرة سنة واستطاعت تكوين جمهوريات صغيرة فى أوروبا الغربية حيث كانت شعوب الشمال فى اضطرابات وفوضى منذ قرنين من الزمن مما دفعها للسعى لتكوين دولة حديثة كدولة روما القديمة.

وكان العرش مفككًا فى الغرب حيث جمع شارلمان بقاياه بعد مائتى سنة.

ويفترض أن يكون هذا الجزء من العالم ذا أهمية ولكنه كان يتخبط فى الجهل والظلام ولم تعد الأسكندرية تهتم بالتجارة البحرية المهمة لها وسقطت مدينة الأسكندرية فى أيدى المسلمين بعد ما كانت أكبر مركز تجارى وبحرى فى ذلك الوقت، واحتفظت بجزء من أهميتها القديمة حيث اهتم الخلفاء العباسيون الذين أسسوا بغداد وخاصة الخليفة الشهير «المأمون» الذى اهتم بالعلوم وتشييد المبانى بهندسة عربية عقب التى بناها اليونانيون . وفى أواخر الفترة السادسة فى تاريخ الإسكندرية تمرد نواب خلفاء بغداد[٢] على مصر على سادتهم وتولوا حكمها حوالى مائة سنة.

---

(١) استولى عمرو قائد جيوش الخليفة على المدينة بعد أن حاصرها أربعة عشر شهرًا.
(٢) سنة ٨٦٨ .

الفترة السابعة ٢٠٢ سنة
منذ الفاطميين إلى صلاح الدين

استولى الخلفاء الفاطميون على مصر سنة ٩٦٩ وأسسوا القاهرة واهتموا بالعلوم والفنون والتجارة وبدأت مدينة الأسكندرية تفقد أهميتها .

وتحول مقر الخلفاء إلى المدينة الجديدة التى أصبحت عاصمة للإمبراطورية المهمة أكثر من مدينة الفسطاط[١] واحتلت الأسكندرية المرتبة الثانية بين مدن مصر.

وتطورت العلاقات بين أوروبا وبلاد المشرق وبدأت الثورات الصليبية تظهر فى العالم المتحضر[٢].

ولم تغير الحملات الصليبية الأولى شيئاً فى مدينة الأسكندرية حتى سنة ١١٧١[٣]. حيث ظهر السلطان صلاح الدين .

الفترة الثامنة ٧٩ سنة
منذ صلاح الدين إلى المماليك

كان السلطان صلاح الدين حاكمًا فى الأسرة الأيوبية وقائد الجيش الكردى والتركمانى. وقد أطاح بالدولة الفاطمية وأخرج الصليبيين من سوريا[٤]. ثم ظهرت عدة ثورات صليبية أخرى ولكن دون جدوى[٥] حيث فشلت ثورة سان لويس ضد مصر ولم تؤثر على هذه المنطقة[٦] .

---

(١) استقر الخلفاء الفاطميون أما خلفاء الجزيرة العربية وبغداد فقد كان لهم حاكم تابع فى مصر أو الفسطاط .

(٢) أول حملة صليبية وكانت سنة ١٠٩٦ أما الثانية فكانت سنة ١١٤٨.

(٣) يجب أن نصدق دانفيل فى أن هذه المدينة كانت تحتفظ بفرقة غير نظامية سنة ١١٦٦.

(٤) استولى صلاح الدين على القدس وسقطت هذه المملكة سنة ١١٨٧ أثناء الحملة الصليبية الثالثة.

(٥) خرجت الحملة الصليبية الرابعة من فينسيا سنة ١٢٠٢ واستولت على مدينة القسطنطينية أما الحملة الخامسة لسان لويس فكانت ١٢٤٨ إلى ١٢٥٠.

(٦) باستثناء مدينة الأسكندرية حيث أحرق الفرنسيين والبنادقة سنة ١٢٥٠ لعدم تمكنهم من الاحتفاظ بها.

وواصل السودانيون حكمهم وحصارهم للقاهرة حتى ظهور صلاح الدين وخلفائه فى مصر وكان ذلك فى صالحها. حيث اهتم صلاح الدين بتأسيس المدارس وحماية الأدب العربى الذى انتفعت بثماره كل المؤسسات بالقاهرة.

الفترة التاسعة ٢٦٧ سنة

منذ المماليك إلى العثمانيين

كون آخر السودانيين مجموعة من العبيد من ضواحى القوقاز وخرج هؤلاء العبيد عن طاعة أسيادهم وأسسوا بعد رحيل سان لويس مملكة وحشية ضخمة فى مصر أُطلق عليها اسم إمبراطورية المماليك وأخذ قائد الجيش اسم السلطان القائد.

ويعتبر تاريخ هذه المملكة مزيجًا من الديمقراطية والعبودية والطغيان الذى تعرضت له مصر والقاهرة وجزء من الأماكن المجاورة لهذه العاصمة التى كانت مسرحًا للثورات اليومية.

وكانت مدينة الإسكندرية تمثل المركز التجارى[1] وليست مقرًا للعلوم وكانت تتدهور كل يوم أكثر فأكثر.

وبينما كانت مصر وعاصمتها القديمة تتخبطان فى الجهل والهمجية خرجت أوروبا من الفوضى وبدأت فى الاهتمام بالعلوم والآداب وعدة اكتشافات هامة كانت بداية لنهضة أوروبا الحديثة.

وسأذكركم بالبوصلة ٢ التى أثرت على مصير الأسكندرية.

---

(١) قام أحد سلاطين المماليك بمساعدة البنادقة برحلة بحرية عبر البرتغال والبحر الأحمر سنة ١٥٠٤ بهدف تنشيط التجارة بمصر والأسكندرية.

الفترة العاشرة ٢٩٩ سنة
منذ السلطان سليم حتى عصرنا الحالى

سقطت دولة المماليك الهمجية سنة ١٥١٧ على أيدى مجموعة من المتوحشين الذين جاءوا من صحراء آسيا العليا ليستعمروا أجمل مقاطعة بقيت لإمبراطورية القسطنطينية[١] وواصلوا سيرهم إلى هذه العاصمة وكل أجزاء مصر . وخلفوا إمبراطورية الشرق والإمبراطورية التى فصلها العرب قديمًا. وأصبحت الإمبراطورية الرومانية تنتمى إلى الأتراك لكن بفضل الحضارة والشجاعة احتفظ الأوروبيون بالنصف الثانى لهذه الإمبراطورية التى قُسمت فى الماضى تحت الإدارة العثمانية المدمرة لكل ازدهار وحكم المماليك. وأُتلفت آثار الأسكندرية ولم يبق جزء من أطلال هذه المدينة التى حصنها العرب ووجدناها فى حالة يرثى لها.

وفتح اكتشاف رأس الرجاء الصالح فى بداية هذه الفترة باب المنافسة لاستكشاف هذه الأماكن الأثرية وجلب الأمم المتحضرة من أوروبا الغربية إلى الهند وتحويل التجارة من الأسكندرية، فاقتصر التبادل التجارى بين الجزيرة العربية ومصر وبعض مدن شمال وشرق البحر الأبيض المتوسط.

إن هذا الاكتشاف الكبير الذى غير من وجه العالم المعروف وفتح نافذة على العالم التجارى وأثر كثيرًا على مدينة الأسكندرية التى كانت علاقتها التجارية متطورة آنذاك تسبب فى سقوط هذه المدينة التى شيدها هذا القائد الشجاع والذى اختار موقعاً استراتيجياً لمدينته المفضلة.

ملخص

إذا تأملنا التاريخ فى اللوحة التى قدمناها، فسوف نلاحظ أن مدينة الأسكندرية تأسست أثناء سقوط مصر القديمة ومدنها وبقيت أطلال فقط. ومرت الأسكندرية بثلاث فترات تاريخية مهمة حيث استولى عليها المقدونيون أو

---

(١) استعمر الأتراك آسيا الصغرى ... أواخر القرن ١٣ ودخلوا أوروبا فى منتصف القرن ١٤ واستولى محمد الثانى على القسطنطينيه وقضى على إمبراطورية الشرق فى منتصف القرن ١٥.

اليونانيون وتحت حكم الإمبراطورية الرومانية عانت من سيطرة حكام روما الذين كانوا خليطاً من اليونانيين والمسيحيين وانحطت المدينة عقب خمس مراحل تاريخية أخرى.

وسقطت على أيدى خلفاء محمد أى خلفاء العرب أو الفاطميين ثم على أيدى السودانيين والأيوبيين والمماليك البحرية والشراكسة. وأخيرًا استولت عليها الإمبراطورية التركية أو القسطنطينية التى كان يخدمها البكوات والمماليك الجدد.

وكل هذه الغزوات وظهور الإسلام وديانة محمد وخاصة الإمبراطوريات الثلاثة الأخيرة أثرت كثيرًا على آثار الأسكندرية ومعالمها وحدث تغيير عام فى هذه المدينة.

وتتضمن هذه الفترات الثمانية على واحد وعشرين قرنا ونصف من الزمان.

واستنتجنا أيضاً أن هذه المدينة بدأ ازدهار علومها وفنونها يقل وعلاقتها التجارية تتدهور. وكان هذا فى الفترة الأولى تحت حكم البطالمة حتى أيام الحملة العظيمة التى كان هدفها الأساسى هو إرجاع كل الاسماء القديمة والعظمة إلى مصر وهذه المدينة.

تقسيم هذه الدراسة

إن هدفنا هو وصف كل الآثار القديمة للأسكندرية وضواحيها ومعرفة كل الأماكن والمعالم الأثرية لهذه المدينة فى فترة ازدهارها وقد قسمنا عملنا إلى ثلاثة أجزاء مهمة ومميزة لمعرفة:

١- وصف الأماكن.

٢- المراحل التاريخية المهمة التى سبق وذكرناها وأعطينا فكرة عن عظمة وقوة الأسكندرية فى تلك الفترة وعن أكبر الأحداث التاريخية التى مرت بها.

٣- توضيح الأبحاث ويحتوى على الجزأين الأولين وعلى المناقشات والملاحظات أثناء هذه الدراسة. والجزء الثالث هو ملحق الدراسة ونجده فى ختامها.

وصف المناطق

نبذة عن الآثار

لتكوين فكرة عامة عن الأسكندرية القديمة، وضواحيها، وما تمثله أطلالها من منظر، لابد من إلقاء نظرة على الخريطة التى تبين لنا سواحلها، ومراسيها، وموانيها، وحدودها القديمة وجوانبها الخارجية(١). والسائح القادم من أوروبا عبر البحر عادة ما يصل عن طريق الطرف الغربى لهذه الخريطة. والشكل الذى يتسم بشدة الاستواء والرتابة لشاطئ أبيض تمامًا، يكاد لا يسمح له بالتعرف على أرض مصر إلا عند اقترابه جدًا منه. ويعتبر البرج المسمى ببرج العرب(٢)، الذى يستخدم فى توجيه البحارة، من أول الأشياء التى يقع بصر السائح عليها فى تلك الأثناء، وهو مقام على موقع يبدو تابعًا لمدينة تابوزيريس(*) القديمة، وربما كان يستخدم فى إرشاد السفن مثلما هو الحال الآن.

والواقع أننا نجد برج العرب فى الوصف الخاص بهذه المدينة، وسرعان ما نلمح بعد ذلك من بعيد عمودًا ضخمًا يتميز بارتفاعه الهائل وانعزاله . على الرغم من كونه خلف المدينة . وقد شاعت تسميته بعمود بومبى. وأخيرًا، نجاوز حدود مدينة شرسونيسوس القديمة التى يطلق عليها اليوم المزار، ونتوغل فيها

---

(١) انظر المجلد الخامس، اللوحة رقم ٣١.

(٢) يقع خارج الخريطة رقم ٣١ من ناحية الغرب.

(*) ابوصير جنوب غربى الأسكندرية (المراجع).

فى المرسى الضخم وبعده فى ميناء أونوست التابع لمدينة الأسكندرية القديمة، وذلك عن طريق أحد المضايق التى يصعب على السفن الحديثة المرور فيها.

وعند نهاية المنحنى الذى يمثله ميناء أونوست يرتفع تل راكوتيس. وهذا الميناء ينحصر ما بين ميناء كيبوتوس الصغير من ناحية الجنوب الشرقى، وشبه جزيرة فاروس من ناحية الشمال الغربى. وعلى الجانب الآخر يشكل امتداد هذا اللسان وبعض الأرصفة الكبيرة ـ وقد ارتبطت بعضها وبعض بصنع الطبيعة والإنسان معًا ـ الميناء الكبير الذى كان لسان لوكياس يضيق مدخله قديمًا ولكنه لا يغطيه الآن إلا جزئيًا. وبالقرب من منتصف محيط هذا الحوض الثانى نرى عن بعد المسلة الكبيرة التى لا تزال قائمة حتى اليوم. وقد كانت هناك منشآت تفصل بين هذين الميناءين الرئيسيين اللذين لا يزالان منفصلين بعد أن غطتهما رمال البحر، وقد أقيمت المدينة الحديثة فوق هذا الرديم.

وخلف هذه المدينة الحديثة كانت توجد مدينة الإسكندر والبطالمة. وكان هناك صف مزدوج من الأسوار المزودة بالعديد من الأبراج يحد جزءًا من مدينة الإسكندر؛ وهو الجزء الواقع داخل النطاق العربى. ووراء هذا الجزء المسوّر تمتد نحو الجنوب الشرقى أنقاض المدينة القديمة التى نجدها أيضًا فى الشمال الشرقى بمحاذاة الشاطئ بعد لسان لوكياس. وبعد ذلك بقليل تنتهى هذ التلال فجأة فى السهل، ويتجه الخط الذى يحدها مباشرة نحو الجنوب. وهناك خط آخر شبه مواز لهذا الخط ويبدأ من أطراف موقع ميناء كيبوتوس ليحد أنقاض المدينة القديمة من ناحية الغرب.

وإذا ما جوبنا ضواحيها ابتداء من الجانب الشرقى لاكتشفنا موقع مدينة نيكوبوليس(*) القديمة التى كانت تربطها بالأسكندرية سلسلة متصلة من المساكن، نجد آثارها على نحو لافت للنظر على المرتفعات التى تمتد بمحاذاة البحر. وعند جنوب شرقى نيكوبوليس توجد مرتفعات حى إيلوزين[1](**) القديم. وبعد ذلك

(*) رمل الأسكندرية. (المراجع).

(١) وضع هذا الحى على خريطة الأسكدرية بعد تكميلها، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة، ناحية الشرق أكثر مما هو عليه فى اللوحة رقم ٣١ التى نستعرض محتوياتها الآن.

(**) بالقرب من النزهة. (المراجع).

وعلى خط مواز لشاطئ البحر متجه من هذا الطرف للخريطة ونحو النقطة التى بدأنا منها نجد أولا بحيرة المعدية وهى من بقايا مصب النيل القديم عند مدينة كانوب(*) الثغرية وكان يفصلها عن مريوط قبل ذلك سد يغذى القناة التى كانت تحمل مياه النيل إلى الأسكندرية.

وبمواصلة تتبعنا لهذا الخط نجد بحيرة مريوط وقد امتلأت اليوم بمياه البحر من خلال فتحة.أما القناة التى تحاذى حدود تلك البحيرة وحدود الهضبة التى تشكلها الأرض، فتطل عليها تلال الأطلال التى تقع فى مواجهة المدينة الحديثة وفى مواجهة النطاق العربى. وهذه التلال نفسها هى التى تبين حدود المدينة القديمة فى ذلك الجزء.

ونقترب بعد ذلك من العمود الكبير القائم على أحد هذه التلال من الأطلال وبمحاذاة بحيرة مريوط حتى أقصى يسار الخريطة، لنلاحظ وجود بعض الخلجان الصغيرة، وبقايا أرصفة صادة للأمواج، وشاطئ جيرى تخترقه محاجر ومقابر تمثل مدينة نيكوبوليس - أو مدينة الأموات - جزءًا منها. وهناك قناة تعترض هذا البرزخ الضيق عند منتصف طوله، ذلك البرزخ هو الذى يوجد المزار فوق نتوئه الشمالى ثم برج العرب الذى شاهدناه أول ما شاهدنا عند اقترابنا من الأسكندرية.

وتوجد بعض الطرق التى كانت تبدأ من المخارج الرئيسية للمدينة وتتصل بأطرافها وبالبلدان المحيطة. والمنطقة التى استكشفناها لتونا كلها جرداء بيضاء ووعرة للغاية، والأرض ملحية ومغطاة بالأحجار، تزيد من صلابتها صخرة جيرية متحللة وقليلة الارتفاع. أما الأجزاء الأقل صلابة من هذه الأرض فليست سوى تراب ورمال وأنقاض، ولانرى فيها إلا بضعة أحراج متناثرة من النخيل، وعددًا كبيراً من السحالى تهيم على الأحجار، وبعض بقايا الآثار التى تم الحفاظ عليها أو التى يمكن التعرف عليها بالكاد. والمرء ليصعب عليه أن يتصور للوهلة الأولى كيف أن حدائق غنّاء كتلك التى وصفتها لنا العصور القديمة استطاعت أن تنبت فى أرض بمثل هذا الجدب. غير أن بعض الأراضى المسوّرة التى لاتزال توجد فيها

(*) كوم سمعدى جنوب أبى قير (المراجع).

نباتات متواضعة بين الأنقاض وقد عنى بها بقليل من السقاية، وبقايا المنشآت التى أقيمت لجلب المياه العذبة إلى الأسكندرية، إنما تفسر لنا هذه الروايات.

وللأسف، فإن كافة الرسومات التى لدينا بل الأرض نفسها إنما تعرض لنا أطلالا فى كل مكان أكثر مما تعرض آثارًا. فإذا انتزعت هذا العمود الضخم وهذه المسلة بأكملها لما تبقى سوى أنقاض. وإذ تشهد هذه الأنقاض بضرورة انهيار وحتمية فناء أقوى الإمبراطوريات، وإذ يصبح بمقدورنا من خلالها الوقوف على الأسباب وتدبرها، ألا يمكن اعتبارها فى مجمل الأمر أثرًا ذا أهمية؟

تقسيم الوصف

تتيح لنا النظرة التى ألقيناها على هذه المجموعة فى مجملها تقسيم الوصف التفصيلى الذى ينبغى أن نقوم به تقسيمًا طبيعيًا ومنهجيًا إلى قسمين رئيسيين:

١- المدينة.

٢- ضواحيها.

وسنراعى فى ذلك الالتزام بنفس الأسلوب الذى اتبعناه فى هذه النبذة العامة عن الأنقاض.

القسم الأول
مدينة الأسكندرية

لمتابعة وصف آثار المدينة بوضوح تام، ينبغى أن نتفحص مليًا كلا من الخريطة الخاصة التى تبين الأنقاض التى نجدها الآن على أرض المدينة القديمة[١]، والخريطة العامة التى استعرضناها لتون التى توضح جزئيًا ما كانت عليه هذه البقايا فيما مضى. وأخيرًا ذلك الرسم الذى يحمل عنوان الأسكندرية بعد ترميمها[٢]، والذى حاولنا أن نضع فيه كل أثر فى مكانه وفقا لدراسة الأطلال مقارنة بشهادة الكتّاب القدامى، وبغرض إعطاء صورة أمينة قدر المستطاع عن الأسكندرية فى أبهى عصورها.

وينبغى أن نضم إلى مساحة المدينة القديمة التى بيّنا حدودها - بين البحر، نيكوبوليس، وإيلوزين، وبحيرة مريوط - وشبه جزيرة الفنار، والموانى، والمساحة التى كانت تفصلها عن بعضها فيما مضى وحاليًا. فهذه الأشياء الأربعة الرئيسية كانت - أساسًا - جزءًا من الأسكندرية القديمة، أو من المبانى والمنشآت التى كانت تابعة لها والتى يرجع إليها وجودها أولا - وهذه الأشياء مجتمعة تشكل الجزء البحرى من هذه المدينة أو المبحث الأول من هذا القسم. أما الجزء الداخلى فنجده فى المبحث الثانى.

---

(١) انظر لوحات الدولة الحديثة، المجلد الثانى، اللوحة رقم ٨٤.

(٢) انظر لوحات العصور القديمة، المجلد الخامس، اللوحة رقم ٤٢.

المبحث الأول : الجزء البحرى
راكوتيس وأحياء أخرى

من أول الأشياء التى يمكن ملاحظتها عند دخول الأسكندرية عن طريق ميناء أونوست تل شديد الارتفاع يشرف عليها وعلى المنطقة المحيطة بأسرها. وقد كان هذا الموقع هو أول ماكان يمكن تمييزه فى مدينة الأسكندرية، فكان أقدم أماكنها المأهولة ومركزها الأساسى. لذا، فمن الطبيعى أن نبدأ هذا الوصف من هناك. وفى هذا الصدد، فإن الترتيب الجغرافى والترتيب الزمنى متفقان.

ولم تعد هناك أطلال قديمة على هذا الجبل فقد كسته الأنقاض فى العصور الحديثة (٤) والواقع أنه قد يمكن - فيما يبدو - أن نجد بعضًا من تلك الأطلال إذا ما استطعنا الوصول إلى الأرض القديمة، فلاريب فى أن هذا الموقع هو ما كان يطلق عليه حى راكوتيس الذى ذكر لنا استرابون أنه كان يشرف (٥) على الترسانات. وسنرى فيما بعد أن هناك فى هذا الموقع عدة ترسانات فى كل من الميناءين.

ويحكى المؤلف نفسه[١] كيف أن ملوك مصر القدماء كانوا قانعين بما كانوا ينعمون به من رفاهية وكانوا راغبين عن استيراد السلع الأجنبية ويشعرون بكره شديد تجاه البحارة الأجانب وبخاصة الإغريق الذين كانوا يندفعون إلى الطمع فى ثروات المناطق الأخرى ونهبها بسبب بؤس بلادهم. ولذلك قاموا بتحصين هذه الأماكن بتزويدها بحامية قاموا بإيوائها فى مكان كان يطلق عليه راكوتيس. ويذكر المؤلف أن ذلك المكان الذى كان آنذاك عبارة عن أحد الكفور يعد الآن جزءًا من الأسكندرية.

ويصرف النظر عن الأنقاض التى تراكمت وعلت فوق هذا الموقع، إلا أنه كان فيما يبدو مرتفعًا بطبيعة الحال نظرًا لاختياره كنقطة دفاع. ولو لم يتم الحفاظ

---

(١) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧.

عليه كقلعة عند تأسيس الأسكندرية لأول مرة، لكانت مبانى المدينة قد غطته. ويذكر استرابون أن هذا الحى كان يرتفع فى ذلك الوقت عن مستوى البحر. وأن اعتياد جلب ركام المدينة الحديثة يزيد من ارتفاع هذه الربوة حتى أننا نراها اليوم (٦).

أما الأرض الفضاء التى كانت تحيط براكوتيس فقد عهد بها نفس هؤلاء الفراعنة إلى رعاة كان لديهم من القوة والإمكانيات مايمكنهم من طرد الأجانب[١]. وهكذا فقد كان يقطن هذه البادية المنفصلة عن مصر قبائل معدمة (٧)، كما هو الحال من وقت لآخر بالنسبة لأرباض الأسكندرية. وكذلك، فقد تغيرت قليلا أخلاق وعادات الرجال فى الشرق مثلما تغيرت طبيعة الأشياء والأماكن.

ذلك هو الموقع الذى اختاره الإسكندر ليؤسس عليه مدينة من نسج الخيال، مقرًا بأنه يصلح ليكون مركز العالم، وأصبحت أكواخ راكوتيس المتواضعة حيًا كبيرًا وبراقًا فى الأسكندرية ـ كما ذكر لنا استرابون ـ واحتفظت لأمد طويل بهذا الاسم. وكان بطليموس عالم الفلك يشير إلى المدينة باسمى الأسكندرية وراكوتيس. ويخبرنا تاسيت أيضًا أن معبد سيرابيس قد أقيم فى الحى المسمى براكوتيس. ويؤكد جابلونسكى[٢] أن السكان الأصليين من المصريين ظلوا طويلا يستخدمون هذا الاسم الأخير واحتفظوا به دائمًا، ويشير إلى أن الأقباط الذين قاموا بتفسير العهد الجديد كانوا كلما ورد ذكر الأسكندرية فى النص الإغريقى؛ ترجموه براكوتى والأمر كذلك بالنسبة لكتب الكنيسة القبطية.

ويبدو أنه كان هناك فعلا أحياء متميزة فى الأسكندرية، وكان يشار إليها بالحروف الخمسة الأولى فى الأبجدية. ولكننا لانستطيع أن نجزم بشأن هذا العدد إلا بالنسبة لاثنين فقط،هما: راكوتيس والبريشيون الذى سنراه فيما بعد. ويدعى الكاتبان اليهوديان فيلون ويوسيفوس (٨) بأن اليهود كانوا قد قاموا

---

(١) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧.

(٢) البانثيون المصرى، الكتاب الثانى، المقطع الخامس.

بتسمية اثنين من أحياء المدينة، غير أننا لسنا على يقين سوى بوجود جزء من مساكنهم بجوار شاطئ البحر وبجوار حى البريشيون كما سنرى لاحقا. وفضلا عن ذلك، فقد كانت هذه التقسيمات واسعة الامتداد بالنسبة لمدينة بهذه الضخامة وهو ما يمكننا أن نتخيله من خلال عددها المحدود، ومن خلال موقع السرابيوم الذى ذكر لنا تاسيت أن حى راكوتيس كان يضمه، كما كان يضم كل المنطقة المجاورة للبحر والجزء الواقع إلى يسار خريطة المدينة القديمة، وأخيرًا من خلال مساحة حى البريشيون والقصور التى سنقف على مقدار اتساعها. أما الأحياء الثلاثة الأخرى التى لا نعرفها فقد كانت تمتد وراء هذين الأولين حتى بحيرة مريوط.

ميناء أونوست

لن نجد فى الجزء الداخلى من الميناء القديم الذى يحيط بأطراف النطاق العربى والمدينة الحديثة آثارًا تذكر تتعلق بالبحيرة على وجه الخصوص. فالآثار التى سنستعرضها فيما بعد كانت ولا تزال تتعلق بجزيرة فاروس.

وعلى الرغم من صعوبة تحديد موقع أرصفة ميناء أونوست القديمة حتى الآن، إلا أنه يسود الاعتقاد بأنها كانت توجد فى الجزء الجنوبى من الميناء القديم، أى بطول الجزء الذى يحيط به البحر من النطاق العربى. فلا يمكن أن نفترض أن هناك جهودًا كانت تبذل لتدمير هذه الأطلال تحت الماء. لذا، فقد كان لابد أن نجد بعضًا منها. ولا تزال توجد فى هذا الجزء من الميناء القديم أنقاض أبنية لتؤكد - فيما يبدو - هذا الشك. ومن المحتمل أيضًا أن العرب الشرقيين عندما قاموا بتضييق نطاق المدينة الإغريقية وهجر الأجزاء غير المأهولة قد احتفظوا داخل حدودهم الجديدة بالأشياء التى ظل استخدامها ضروريًا لهم وجوارها مريح مثل الأرصفة التى سرعان ما مدوا عليها سياجهم، وكذلك القناة المتفرعة من النيل التى كانت تصل فى هذا المكان إلى أسوار العرب وكانت تستخدم فى سد احتياجات منشآت الميناء وتزويد السفن بالماء العذب (٩).

وتوجد فى ميناء أونوست مجموعة من الأجزاء الأثرية ولكنها بعيدة عن حالتها الأصلية؛ إنه رصيف الإبحار وهو الوحيد من هذا النوع الموجود فى ذلك الميناء، ويتكون من جذوع أعمدة. ويقال: إن هذه الجذوع المأخوذة من أنقاض مدينة الإسكندر - كما جرت عليه العادة منذ ما يقرب من تسعمائة عام - كانت قد وضعت على شاطئ البحر لنقلها إلى أوروبا، ولكن الأتراك جعلوا منها بعد ذلك جسرًا ضروريًا فى هذا المكان.

ومهما يكن من أمر، فقد وقعت الأرض التى تطل على ميناء أونوست بأسرها تحت تأثير الزمان والبحر وفعل الإنسان منذ أول ما شهدته الأسكندرية من دمار وخراب حتى العصور الأخيرة، وقد تأثرت المنشآت والمدينة الحديثة خلال تلك العصور ذاتها بقربها من المياه التى جرفتها شيئًا فشيئًا حتى أنه لم يتبق من المنشآت القديمة آثار بقدر ما يوجد فى المناطق التى تم هجرها تمامًا فى وقت مبكر. إن معاينة الأماكن المحيطة بهذا الميناء، وبخاصة وجود المجرى الرئيسى الذى يمتد من الغرب إلى الشرق بطول شواطئ الأسكندرية وهو ما سنراه فيما بعد، لتؤكد أن البحر قد جار على المنطقة الواقعة فى أقصى شرق الميناء القديم. ولابد أن تكون الرياح التى تهب من جهة الشمال الغربى قد ساعدت على ذلك ونزعت إلى غمر الموقع الحالى للمدينة الحديثة بالرمال، بحيث إنه كلما أدى أحد هذه العوامل إلى تدمير جزء من شواطئ ميناء أونوست، قام عامل آخر بتغطية الجزء الثانى (١٠). كل هذه الظروف قد أسهمت فى محو آثار المنشآت التى كانت موجودة حول هذا الحوض أو بداخله.

ويصف استرابون على نحو ممتاز موانى الأسكندرية - كما كانت موجودة فى عصره - فيقول: إن مدخل ميناء أونوست كانت له مزايا على الرغم من أنه كان غير آمن إلى حد ما. والواقع أن حجم هذه المشكلة كان أقل بالنسبة للملاحة قديمًا عنه بالنسبة للملاحة فى وقتنا الحالى نظرًا لأن غاطس السفن فى ذلك الوقت كان أقل بكثير منه الآن (١١). ومن المحتمل أن تكون هذه المشكلة ناجمة عن عيب فى عرض هذا المضيق وعن عادات الملاحين القدماء الذين غالبًا ما كانوا يقدمون فى تلك العصور من سوريا والسواحل الشرقية لمصر أكثر من أى

مكان آخـر، وهو طريق يتـعـارض مع ذلك الذى كـانوا يسلكونه فى نفس اتجـاه الرياح عن طريق هذا الممر داخل ميناء أونوست.

وما من شك فى أنه يقصد بالمزايا التى أشار إليها العالم الجغرافى القديم دون أن يسهب فيها: العمق الشديد لمياه هذا الميناء الذى كان يوفر للسفن الشراعية الحربية وغيرها من السفن الكبيرة المسطحة الوقوف بثبات دون التعرض للكثير من مخاطر التأرجح بسبب الرياح التى كان يتعرض لها هذا المرفأ بشدة، كما ينبغى أن يفهم من ذلك أيضًا الاتساع الذى كان عليه هذا الميناء فى أغلب الظن. والواقع أننى استخدم هذه العبارة لأننا سنرى فيما بعد أن ما كان يطلق عليه «ميناء القدماء» على وجه التحديد كان قليل الاتساع، وأن الميناء الجديد هو ما كان يوصف بأنه كبير. وهناك ميزة أخرى كان استرابون يقصدها بالتأكيد بقوله: إنه لا يحتاج إلى احتياطات كثيرة[1] فهو الملجأ الآمن حتى اليوم فى الجزء الشمالى من الحوض تحت شبه جزيرة فاروس والذى كان يعد جزءًا مما كان أهالى الأسكندرية يسمونه بميناء أونوست (١٢).

ويذكر استرابون يقينًا أن الميناء كان عبارة عن المدخل الغربى. ووفقا لذلك فإنى أعتقد أن هذا المضيق هو ما أطلق عليه فى الخريطة العامة مضيق الدچيرم وأن ميناء أونوست على وجه التحديد كان يقع مباشرة شمال شبه جزيرة فاروس التى كانت تحميه بامتدادها بطول الرصيف الحاجز للأمواج. الذى سنتحدث عنه عما قريب. وبطول النطاق الغربى الحالى وحتى الرأس البارز الذى كان يشكله هذا النطاق، بحيث إنه كان يحده قليلا من الأمام خط يمتد من هذه النقطة إلى رأس جزيرة فاروس وهى ما يطلق عليه اليوم رأس التين، وكان أصغر بكثير من أن يشغل كل المساحة التى يطلق عليها المحدثون الميناء القديم. وبالتالى فهو لم يكن يضم ميناء كيبوتوس الصغير كما كان يعتقد البعض. وكان مفتوحًا من كل الجهات كما نرى، وكان يتكون من كل الجزء المحمى من الرياح من الميناء القديم الحالى وهو الجزء الذى لم يكن يشغله ميناء كيبوتوس وضواحيه (١٣).

---

(١) استرابون، الكتاب ١٧.

وكان يسمى Portus Eunosti وهو مايعنى «عودة حميدة». فهل كان ذلك إشارة إلى أحداث سعيدة جرت فيه؟ أو على أساس تأثير الرياح التى كانت تتحكم بطبيعة الحال فى السفن داخل هذا الميناء؟.

ميناء كيبوتوس

ولا نقع على مزيد من الأطلال القديمة حين نجوب منحنى الميناء القديم الحالى الذى يلى ميناء أونوست فى اتجاه الجنوب الغربى الذى لم نعثر فيه على أية آثار فى الجزء العلوى أو شمال المنحنى: إلا أننا نلاحظ وجود بقايا تجويف طبيعى فى المنطقة التى تحده مايلبث أن يظهر بعد الزاوية البارزة التى تشكلها إحدى التكتلات الرئيسية للمنشآت الموجودة بالنطاق العربى. ويرجع أنه كان يوجد هنا ميناء كيبوتوس الصغير. وتتعدد الأسباب التى تحملنى على وضع هذا الميناء فى هذا التجويف؛ فالحوض حفرته أيدى بشرية بادئ ذى بدء ثم أغلق، وكلها أمور تلاقت تمامًا مع هذا الوضع وطبيعة الأرض المليئة بالحجارة والحصى فى المناطق الأخرى.ويذكر أن خط الصخور الذى يحد المرسى بدءًا من المزار وحتى الأسكندرية لا يمتد حتى النطاق العربى، ولكن على مسافة ليست بالبعيدة من مجموعة الأبراج المشيدة على مسافة قريبة فى اتجاه أمامى فى الماء ويدخل هذا الخط فى السهل ويتجه ناحية الشرق بعيدًا عن البحر. ويشكل هذا الخط ـ فضلا عن ذلك– سهلاً مستديرًا له مدخل ضيق من ناحية المرسى بحيث يعتبر الجزء الساحلى الموجود بين نقطة الانحناء وأصل بداية الخط الذى حددناه فى ميناء أونوست من هذه الناحية بمثابة طمى ترسب زادته الأنقاض المكدسة منذ ذلك الوقت ولكن يعد بلا أدنى شك الحوض الأصلى لميناء كيبوتوس. وكان لابد من الانتهاء من حفره وإغلاقه بجسر يبدأ من النتوءات البارزة فى الأبراج والصخرة المشيدة الموجودة عليها وكذا بقية النطاق العربى. وقد أمكن تدمير هذا السياج بسهولة إثر قيام العرب بترك ميناء كيبوتوس وتقليص حدود المدينة بعد أن وجدوا أن ميناء أونوست كاف (١٥). كما كان للمجارى الساحلية والأمواج الناجمة عن الرياح المثارة التى تحدثنا عنها أثر فى تدميره. وجدير بالذكر أنه تم

الانتهاء من عمليات ردم الحفر فى الأراضى بسهولة نتيجة ذات الأسباب والمنشآت المتتالية للمدينة التى تم نقل وتحريك كافة أجزائها عدة مرات.

وحينما يكون البحر هادئًا ـ يمكن على الأرجح اكتشاف آثار وبقايا الرصيف الحاجز للأمواج فى ميناء كيبوتوس حيث يوجد أسفل البرج الكبير مجموعة بنايات مشيدة فى مكان قريب من الماء تستخدم كأرصفة للركوب أو الشحن وتبدو عليها علامات تدل على أنها من بقايا الجسر القديم (١٧).

ويذكر فى هذا الصدد أن اسم كيبوتوس الذى يعنى هيكل السفينة مأخوذ حقًا من السياج الكامل لهذا الميناء. ذلك السياج الذى تحدث عنه ليون الأفريقى تحت اسم «حوض السلسلة» لأنه كان يغلق بسلسلة مثلما لا يزال يحدث فى موانى عدة بالبحر الأبيض المتوسط وحتى فى تولون حيث تستخدم قضبان من الخشب المزودة بالحديد لغلق الأحواض ليلا (١٨).

ويقول استرابون: إن القناة التى تصل إلى بحيرة مريوط تنتهى فى هذا الميناء. ومن الثابت أنه أضاف إلى تلك القناة صفة «صالحة للملاحة» ويمكن استنتاج أن المقصود هو طرف قناة النيل التى تصب فى مكان تموين السفن بالماء العذب. وعلى ذلك يمكن القول بأن ميناء كيبوتوس يدخل فى نطاق الأسوار العربية التى كانت تأخذ شكل الهلال إلا أنه يمكن تفسير تلك الأوضاع بدراسة الوضع الحالى للأماكن حينما نتعرض للحديث عن تلك القناة الصالحة للملاحة ومكانها الحقيقى (١٩).

ويضيف عالم الجغرافيا المذكور أن المدينة تمتد قليلا حتى وراء القناة: ويبدو ظاهرًا أن ميناء كيبوتوس الذى كان مغلقًا من جميع النواحى لم يكن له أى وجود خارج المدينة سوى الاتصال الملاحى، ويؤكد ذلك الأوضاع التى تحدثنا عنها (٢٠).

ولا يعرف بصورة إيجابية أية فكرة عن استخدام هذا الميناء الصغير وما إذا كان له غرض خاص. ويخبرنا استرابون أنه كانت هناك ترسانات للبحرية وكان الميناء يحظى بأهمية كبيرة. وكانت هناك مشقة فى تعميق الميناء، الأمر الذى استلزم القيام بأعمال ضخمة فى أرض ذات أساس صخرى كما هو الحال فى

بقية الساحل. واتصال هذا الميناء بالبحر المتوسط من ناحية وبداخل مصر من ناحية أخرى عن طريق القناة الصالحة للملاحة وبحيرة مريوط اللتين كانتا مسرحًا لعمليات تجارية كبيرة وحركة ملاحية نشيطة تنتهى فى ميناء كيبوتوس يوضح إلى حد ما الاستخدام الأساسى لهذا الحوض كما يزيد من أهميته التى كانت موضع شك بالنسبة لنا.

ورغم ذلك لم تعد هناك آثار واضحة فى مساحات كبيرة كتلك المساحات، واكتفينا بالتردد فى اختيار مكانه إلى الحد الذى اختفت فيه آثار ازدهار الأسكندرية.

جزيرة فاروس

تقدم جزيرة فاروس التى تسد من ناحية الشمال الغربى النطاق الواسع للميناء القديم مجموعة كبيرة من الأطلال.إذ نجد آثارًا لصهاريج قديمة منحوتة فى الصخر ومطلية بأسمنت فى حالة جيدة. ويلاحظ وجود هذه الصهاريج فى الواجهة الوعرة للصخر وعلى ضفاف البحر ومقدمة الساحل وخارج وداخل الميناء القديم، ويمكن التعرف بسهولة على تلك الأطلال من بين أخرى موجودة على طول الجزء الغربى لهذا الميناء. وتوجد أطلال أخرى فى الصخرتين الموجودتين فيما بعد رأس التين قد تم إعادة تغطية معظمها من الداخل بطبقة من الأسمنت. ويذكر أن هذه الصهاريج كان يتم تغذيتها من قنوات مأخوذة من النيل - كما سنرى - وكذا بمياه الأمطار النادرة فى الأسكندرية رغم أن كمياتها هنا تقل عنها فى مصر العليا.

ويوجد أيضًا فى المنطقة الغربية للجزيرة بقايا مقابر محفورة فى الصخر، وقد أمكن وضع بعض تصميماتها الهندسية. وتمت تغطية جدران هذه المقابر وأسقفها بطلاء عليه بعض الرسومات (٢٢). وتكثر هذه المقابر فى داخل الجزيرة ؛ ولاسيما ناحية النتوء العريض الذى تشكله مباشرة فى الشمال الغربى فى وسط طوله تقريبًا. وتمثل هذه المقابر مجموعة من القطع المرتبطة التى ملأتها الرمال جزئيًا فى الوقت الحالى. ويوجد فى بعضها فجوات منشورية الشكل كتلك التى سنراها بالتفصيل فى مدينة الأموات. وتعتبر الحفر الموجودة فى

جزيرة فاروس من ذات النوع تلك الموجودة فى ساحل نيكروبوليس. ويغطى البحر حاليًا فى كافة أطراف الجزيرة بقايا بنايات، مما يدل على أن قاعه كان مأهولاً بالسكان من قبل ومليئاً بالمنشآت الهامة. فالواقع أن هناك تلاً ظاهرًا يبدو وفقًا لموقعه وحجمه وشكله مكانًا للبلدة التى تحدث عنها قيصر فى الحرب الأهلية. قائلاً: «كان يوجد فى الجزيرة بيوت مصرية وبلدة تصل فى كبر مساحتها مساحة المدينة العادية، وكان السكان يقومون بعمليات السطو فى جميع الأماكن مثلما يفعل القراصنة على كافة السفن التى كانت تبتعد عن طريقها بسبب عدم الحيطة أو سوء الأحوال الجوية» (٢٣). ويضيف هيرتيوس فى حرب الأسكندرية «أن مدينة الفنار الصغيرة كانت تحصنها أبراج عالية متصلة ببعضها وتكاد تكون متلامسة، وكانت تعتبر بمثابة أسوار متصلة. أما عن نوع المبانى التى كانت تضمها المدينة فلم تكن تختلف عن تلك الموجودة بالأسكندرية». ورغم ذلك كانت هذه المنازل أكثر انخفاضًا من تلك الموجودة فى مدينة الأسكندرية لأنه لم يكن يصف ارتفاع كثير منها - فى وصفه فيما بعد - سوى بثلاثين قدمًا. وقد نصب قيصر نفسه سيدًا على فاروس وأتاح الفرصة لنهب البلدة ويبدو أنه قد عاث فسادًا فى كافة أنحاء شبه الجزيرة كما يقول استرابون (٢٤).

ويتناول الكتاب القدامى فى كتاباتهم بالوصف جزيرة فاروس فوصفوها بطرق شيقة تتعلق إلى حد ما بما كانت عليه الأماكن. لقد استمررنا فى تسمية الجزيرة - وبلا أدنى اكتراث - الجزيرة أو شبه الجزيرة: فالواقع والمعروف أن هذه الجزيرة ترتبط منذ فترة طويلة بالأرض الصلبة بل حتى تتصل بها نتيجة عملية توسيع من جراء بعض الترسيبات التى سنتحدث عن سببها، والتى تم فوقها تشييد المدينة الحديثة. وتجدر الإشارة إلى أن هوميروس أقدم هؤلاء الكتاب سواء كعالم جغرافى أو مؤرخ (٢٥) وشاعر قد ذكر على لسان مينيلاس الذى دخل إلى مصر بعد باريس وهيلين (٢٦) عن طريق مدينة كانوب الثغرية بالقرب من جزيرة الفنار أنه «يوجد فى بحر مصر - فى مواجهة النيل - جزيرة ما، تسمى جزيرة فاروس وأن هذه الجزيرة بعيدة عن أحد مصبات النهر بمسافة تعادل ما تقطعه سفينة فى يوم واحد فى ظروف ملائمة».

وقد هيأت هذه الفقرة المجال للعمل أمام المعلقين وعلماء الجغرافيا والمسافرين. ولكن ينبغى أولا ألا نسلم بما قد يقدمه شاعر من إيضاحات حسابية، ويجب الالتفات إلى أن هوميروس لم يكن يقصد بعبارة: «فى مواجهة النيل» سوى «أمام» أو «عموديا» على المجرى العام للنهر، الأمر الذى يعتبر حقيقيًا إذا ما اتجهنا من الفنار واتخذنا ناحية الشمال الشرقى أى الطريق للوصول إلى النيل. ويمكن احتساب المسافة التى يذكرها بالمقارنة مع أى مسافة أخرى للمصبات السبعة للنهر وبالنسبة للمدينة الثغرية إلا أنه لا يوجد ما يدل - فى هذه الفقرة التى تخص هوميروس - على أن الأمر يتعلق بالقيام برحلة من الفنار إلى هذا الثغر: وهذه المسافة يمكن أن تكون نسبية داخل الدلتا التى تقدمت أطرافها ومنافذ النيل فى البحر بصورة أقل فى عهد مينيلاس وبروتيوس أى منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة وفقًا للتقويم المعمول به. ويتعين أن نأخذ فى الاعتبار أن يوم الإبحار يعتبر مقياسًا تقليديًا صغيرًا إلى حد ما. ألا يمكن أن يكون بلينى الذى ذكر هذا التأكيد على لسان هوميروس والذى كتب فى قرن كانت المعلومات الجغرافية منتشرة فيه بصفة عامة ألا يمكن أن يكون قد اكتشف الخطأ إذا ما كان واضحًا جدًا؟ ولكن على العكس فهو يستخدم نفس التعبير فى الوصف الذى يقدمه ويضيف حتى كلمة "ليلة" إلى ما نقصده بيوم ملاحة. وسنجد فى كل مكان نفس التنوع فى قيم المقاييس التى أوضحها القدماء[1].

وفضلا عن ذلك فليس هناك طائل من التفسير الكامل على نحو التقريب للمؤرخ الشاعر إلا إذا استنتجنا أن جزيرة الفنار تغيرت قليلا بالنسبة للأرض المحيطة بالأسكندرية إذا اعتبرنا هذه الحقيقة المهمة القائلة بأنها كانت قبل العصور التاريخية أكثر بعدًا مما هى عليه الآن من الدلتا أو من مصر كما يقصد، وإذا ما تأكد أيضًا هذا التفسير الحاذق الخاص بشكل وبنواحى التقدم فى الدلتا والمعروف عن أبى التاريخ هيرودوت كما قدمه كاملا فى هذا التعبير الجميل: «مصر هبة النيل» [2] (٢٧).

---

(١) هذا التفكير لا ينطبق على جغرافيا هيبارك واراتوستين.

(٢) هيرودوت، التاريخ، الكتاب الثانى.

يضيف مينيلاس «أن للجزيرة ميناءً جيدًا تم احتجازى بداخله».

تلك هى أقدم وأول معلومة خاصة بالحالة التى كانت عليها منطقة الأسكندرية وفاروس قبل تأسيس المدينة[١] ويبدو واضحًا أن الميناء المذكور لم يعد سوى مأوى شكلته فى الشمال الغربى الجزيرة التى كانت تمثل ـ كما سنرى ـ شكلاً منحنيًا فى اتجاه الحصن التركى الموجود حاليًا على هذا الساحل للميناء القديم. ويبدو جليًا أن هذا الميناء الخاص لا يمكن أن يكون هو ميناء قراصنة الفنار ذلك الميناء الذى سنتحدث عنه فيما بعد حيث أن مينيلاس يتباهى بمحاسنه ومميزاته. ومن ناحية أخرى فإن المرور من الخليج الضيق الخاص بالقراصنة عند الفنار كان عملية خطيرة إلى حد ما. ويتحدث هوميروس. بالإضافة إلى ذلك عن عصر لم تكن فيه الموانى الكبيرة قد انفصلت بعد. وبالتالى لم يكن يؤخذ فى الاعتبار سوى بالساحل الجنوبى للجزيرة كمرسى وميناء حقيقى فى هذه المناطق البحرية.

ويذكر فى هذا الصدد أن هيرودوت الذى رحل إلى مصر[٢] فى زمن كان يتم بالكاد التعرض فيه بالحديث عن منطقة الأسكندرية، لم يتحدث قاطبة عن جزيرة الفنار. والأمر الذى يدعو للعجب أنه لم يذكر إطلاقًا ماقاله هوميروس عنها رغم أنه كان على دراية تامة بأعماله.

أما استرابون الذى أعقب على الفور هذين الواصفين للعصور القديمة فقد وصف جزيرة فاروس وصفًا جيدًا قائلا «بأنها جزيرة مستطيلة مجاورة للقارة وقد تشكل بها ميناء مزدوج نتيجة لتعرج الشاطئ الذى يمثل رأسين متقدمتين فى البحر[٣] بينهما ترقد هذه الجزيرة قبالة البحر وفقًا لطولها». ومحورها الكبير الموازى تمامًا للساحل كان بمثابة رصيف حاجز أو سد موضوع فى المقدمة لصد أمواج البحر. ويلاحظ ـ وفقًا لهذا الوضع ـ أنه لم يعد هناك إمكانية فى البحر إلا

---

(١) فى فترتنا الأولى ـ حرب طروادة ١١٨٤ عامًا قبل الميلاد. يمكن أن يكون هوميروس أراد أن يصف الأماكن قبل رحلته إلى مصر وأنه يفترض أن ذلك فى وقت بروتيوس ومينيلاس.

(٢) فى عام ٤٦٠ قبل الميلاد.

(٣) اكرولوكياس فى الشرق وشرسونيسوس فى الطرف الأيسر للوحة ٣١ .

الإقامة خط فاصل واحد داخلى شبيه بذلك الذى يدعم اليوم المدينة الحديثة لتكوين ميناءين هائلين، كما سنرى أن القدماء قد صمموه على الساحة. ويقول كينت كورس: «إن كلا من شكل الجزيرة وحالتها كانا لائقين وإن الإسكندر» لدى عودته من معبد آمون بعد أن قام بدراسة وفحص وضع الأماكن بين البحر وبحيرة مريوط قرر بناء مدينته الجديدة فى جزيرة الفنار ذاتها ولكنه لاحظ أن سطحها لايمكن أن يشمل منشأة كبيرة، لذا اختار المكان الذى توجد به الأسكندرية حاليًا".

وكانت جزيرة الفنار تمتد قبل ذلك من المغرب إلى المشرق بدءًا من أقرب ناحية متطرفة لرأس التين حتى قصر الفنار الحالى. وكانت تلك الجزيرة منفصلة عن القارة بحوالى ٩٠٠ خطوة وسنتحدث عنها فى مكان آخر. ويمكن التكهن بأنه فى عصر استرابون كان جسم الجزيرة نفسه يقتصر على ما ذكر فى «الأسكندرية بعد الترميم» أما عن امتدادها بمجموعة من الصخور تظهر فى مقدمة الخليج الرملى الحالى - حيث كان ميناء قراصنة الفنار - وكذا عن طريق السد الحاجز الموجود حاليًا حتى قصر الفنار الحديث، فقد كان محدودًا للغاية على الأرجح. إلا أن هذا الحاجز الضعيف انهار ودمر جزئيًا من جراء ضربات البحر القوية ولم يبق منه سوى خط الصخور التى نراها اليوم. وتشكل هذه الصخور بالإضافة إلى الجزيرة وجزء من الدكك الصخرية للميناء القديم، الأرض القديمة التى كانت من الضخامة فى العصور السابقة لعهد الإسكندر بحيث تدعو إلى التفكير فى إقامة مدينة عليها (٢٨).

و يقول ديودور الصقلى: إن الإسكندر بالوضع الذى اختاره أعطى لمدينته ميزة انضمام جزيرة الفنار إلى مينائها، فقد امتدت هذه الجزيرة بكل تأكيد بطريقة ما فى الميناء الكبير(٢٩).

فالواقع أن الجزيرة فى مجملها لاتعدو كونها صخرة كلسية رملية قابلة للتحلل السريع بسبب الهواء والماء كما يظهر أساسًا فى الهضبة الواسعة السفلى والأرصفة المحيطة بها. وفى الشمال والجنوب ينحدر الجزء العلوى من جوانبها بصفة عامة، ويسهل فيها ملاحظة الآثار المدمرة سواء الناجمة عن سقوط الأمطار أو البحر والتى تفسد باستمرار المنطقة السفلى. ورغم ذلك يمتد هذا

التآكل إلى أقل مسافة فى الميناء القديم لأن هذا الجزء من شبه الجزيرة فى مأمن من الرياح السائدة وأمواج البحر. وهناك تتكون الهضبة العليا من عدة مقاطع عمودية أو نصف مقلوبة كما لو كان هذا الوضع ناجمًا عن انهيار شبيه بذلك الذى تعرضت له شواطئنا الصخرية فى نورماندى. وتحمل رياح الغرب والشمال الغربى الرمال الناجمة عن تدمير الساحل الخارجى إلى الطرف الشرقى للجزيرة حيث تكون خلفها طمياً يترسب فى الخليج الصغير الذى تحميه الأرصفة فى الشمال وفى قاع ميناء أونوست فى الجنوب. ويتجلى هذا التآكل ظاهرًا فى الطرف الغربى للجزيرة المقطوع عموديًا والمفصول بحاجز من أزهار النباتات المائية التى كانت قبل ذلك جزءًا منه. ويذكر أن عمليات المد والجزر الضعيفة فى البحر المتوسط تسهم أيضًا فى تدمير الساحل.

أما الخليج الموجود فى الشمال والذى اتسع نطاقه بعد انقطاع حاجز الأرصفة ثم زادت حركة البحر من عمقه وردم حتى ظهر للعين المجردة، فلا يمكن أن يكون سوى الميناء الصغير لقراصنة الفنار الذى نتعرض له فى الموضوع رقم (٢٣) من الملحق. وعلى أية حال فإن القصة التى يرويها هيرتيوس عن هجوم فاشل للقيصر تؤكد ذلك بوضوح (٣٠).

وفى معرض حديثه عن الجزيرة بصفة عامة يقول استرابون: "إن القيصر تمكن - فى عهدنا - من اجتياح هذه الجزيرة وتدميرها خلال حرب الأسكندرية التى انحازت خلالها الجزيرة لملوكها. فقد كانت تشكل بمساحتها وسكانها ومواردها موضوعًا ذا أهمية ما فى الشئون العامة للمملكة؛ إلا أنها كانت تحظى بأهمية كبرى فيما يتعلق بالمدينة الكبيرة. ويبدو أن استرابون يريد أن يتحدث عن ضرر كبير للغاية تعرضت له هذه الجزيرة لأنه أضاف قائلا أنه فى عهده أى فى عهد أغسطس أو حوالى نصف قرن بعد الحرب كان بعض البحارة يسكنون رغم ذلك بالقرب من برج الفنار فى الطرف الشرقى للجزيرة ؛ إلا أنه يتعين أن تتم إعادة بناء المدينة والمنشآت الأخرى فى جزيرة فاروس بعد عهد استرابون بقليل مثلما جاء فى نص بلينى الذى يعزى إلى القيصر إيفاد جماعة من المهاجرين هناك لتعميرها (٣١).

برج الفنار

وفيما يتعلق بالمكان الذى نعترف أنه يوجد به برج الفنار الشهير فلا نعرف بقايا آثار أخرى سوى بعض الأعمدة والركائز التى نلاحظ تواجدها تحت الماء حينما يكون البحر هادئًا فى مدخل الميناء الجديد. وربما تكون تلك الآثار بقايا جزء من أساسات الفنار القديم أو بعض المنشآت التى أقيمت على امتداد الهضبة التى تركزت فوقها هذه البناية وملحقاتها.

وفى نفس هذا المكان - الواضح تمامًا على اللوحات الثلاثة - والذى يعلوه القصر الحديث أقيمت مدينة الفنار القديم. ويقول استرابون إن اللسان - الشرقى - لجزيرة فاروس عبارة عن صخرة يحيط بها البحر والأرصفة التى تناولناها بالذكر فى الموضوع السابق (٣٢). ومن ثم يمكن اعتبار صخرة الفنار كما لو كانت رأسًا سبق انفصاله عن الجزيرة الكبيرة.

ويذكر أن يوسيفوس - الذى خلط فى لحظة ما مثلما يفعل معظم المؤلفين القدامى - مابين صخرة الفنار وجزيرة فاروس الكبيرة - يقول «إن الصخرة تحمل برج الفنار وأنه تم فى الأماكن المحيطة بالجزيرة بناء حوائط هائلة كان من شأنها كسر أمواج البحر، وجعلت من الصعب والخطورة دخول الميناء الكبير بسبب ضيق المكان». والمعروف أنه لايمكن التفكير فى إقامة بنايات ومنشآت بهذا الحجم سوى حول صخرة البرج. كما أن هذه البنايات كانت كبيرة بسبب عمق المياه التى تغمر هذه الجزيرة الصغيرة.

ويرجح أن تكون بقايا الركائز التى تحدثنا عنها من قبل عبارة عن أساسات لهذه الحوائط التى تسببت حركة البحر فى تآكل قواعدها (٣٣).

ويستطرد استرابون قائلا: «إن البرج كان مصنوعًا من الحجر الأبيض» والذى كان يستخرج على الأرجح من الدكك الصخرية على الساحل أو من الصخرة ذاتها التى كانت أساسًا له (٣٤). وقد بنىَ هذا البرج على وجه رائع وكان يتكون من عدة طوابق «وكان يعد بالفعل من بين عجائب الدنيا» ويبدو أن

طوابقه كانت تحوى قباباً. ويتحدث عالم الجغرافيا النوبى ـ الذى كان على قيد الحياة وقتذاك منذ أكثر من ٧٠٠ عام ـ عن هذا البرج كما لو كان يتحدث عن بناء لا يزال موجودًا. فيقدم بعض المعلومات المتعلقة بشكله فى ذلك الوقت. ويقول:إن البرج شُيّد من الأحجار الصلبة المتصلة بها عقد وأربطة من الرصاص أو المثبتة بلا أدنى شك بالرصاص (٣٥)، وكان للبرج قاعدة عريضة إلى حد ما حتى يمكن بناء منازل فوقه. وسنرى أن السكان الجدد قاموا أيضًا ببناء مساكن فوق هذه الهضبة أو رفعوا تلك التى كان اليونانيون قد شيدوها فوقها. ويشهد بعض المعلقين القدامى أن البرج كان رباعى الشكل، ويضيف عالم الجغرافيا ذاته أن الجزء الأسفل (ما تحت الأساسات) الذى كان عريضًا للغاية كان يصل حتى منتصف الارتفاع الكلى للبرج، وأن الطابق الذى يعلو القبة الأولى كان يقل كثيرًا من حيث العرض عن سابقه مما كان يشكل قاعدة تستخدم كرصيف حاجز للأمواج. ويفسر ذلكِ بطريقة أشمل فى حديثه عن الطوابق العليا قائلا: إن السلالم كانت تقل طولا كلما ارتفعنا الأمر الذى كان يفيد بأن تلك الطوابق كانت تقل تدريجيًا من حيث الطول مثلما يوضح ارتفاع الطابق الأول أو القاعدة الأساسية، وكانت هناك نوافذ فى كافة النواحى لإضاءة تلك الدرجات.

وكان ذلك كل ما استطعت تجميعه عن شكل الفنار القديم[1] لنرى ما نعرفه عن أبعاده. ولانجد أية معلومات أكثر دقة أو أكثر إجمالا عن تلك التى ذكرناها ولكنها تعطينا فكرة كبيرة عن فخامة البناية. ويؤكد تعليق القيصر وكذا تعليق بلينى ويوسيفوس بل والمؤلفين كافة أن هذا البرج كان على ارتفاع هائل للغاية. ويزعم أحد المعلقين أنه فيما يتعلق بطول البرج يمكن مقارنته بالأهرامات المصرية وأن جوانبه كان لها تقريبا وحدة طولية؛ الأمر الذى كان ـ حسب ما يوضح هذا التعبيرَ ـ يقربها إلى حد ما من طول القاعدة العادية للأهرامات المصرية إذا ما أخذنا فى الاعتبار بالوحدة الأوليمبية التى تبلغ ٩٥ قامة (٣٦). إلا أن الصخرة الحالية للفنار التى لا يزيد أكبر قطر لها عن ٢٠٠ متر بالتقريب.

(١) انظر الموضوع رقم ٣٦ فى الملحق.

تشكل مساحة تكفى بالكاد لاحتواء قاعدة على مثل هذا الاتساع دون التفكير حتى فى مساواتها بالهرم الأكبر بالجيزة الذى يصل عرض قاعدته إلى سبعمائة وستة عشر قدمًا و٦ بوصات من الجوانب. ويحملنا ذلك على التكهن بأن الصخرة المسماة «الماس» - التى لم يتحدث عنها القدماء فى وصفهم الدقيق عن المدخل الضيق للميناء رغم أنها تعتبر بارزة الآن - كانت قبل ذلك جزءًا من هضبة الفنار فصله البحر رويدًا رويدًا وكذا الحواجز الثلاثة التى كانت فى الشمال الغربى[1] وهذا يؤكد ما قلته عن امتداد جزيرة فاروس حتى هضبة الفنار عن طريق سلسلة من الصخور المتصلة تقريبًا.

ويخبرنا عالم الجغرافيا النوبى - الذى تحدثنا عنه من قبل - أن ارتفاع البرج كان يصل إلى ثلاثمائة ذراع أو مائة قامة، الأمر الذى كان يقربه فى المتوسط من ارتفاع الهرم الأكبر الذى وجده الفرنسيون ١٣٨ مترًا أو أربعمائة وواحدًا وعشرين قدمًا وتسع بوصات وثمانية خطوط، وفضلا عن ذلك، تعتبر كل المقاييس التى طرحها المؤلفون القدامى نادرة الدقة ولا أذكرها هنا بصورة عادية إلا لإعطاء فكرة عن أبعاد بعض الأشياء (٣٧).

ويزعم أحد المعلقين القدامى الذين تحدثت عنهم أنه يمكن من قمة الفنار - اكتشاف الأماكن على مسافة حوالى ألف ميل فى عرض البحر[2] ويضيف يوسيفوس قائلا: «إن أنواره كانت تضىء الطريق للملاحين حتى مسافة ثلاثمائة غلوة حتى يمكنهم تفادى الاقتراب من الخطر من أبعد مسافة ممكنة». ولا تزال كل هذه المعلومات القديمة غير واضحة ومشوشة، إذ نجد عند المحدثين معلومات كثيرة أخرى من هذا النوع بل تنطوى حتى على كثير من المغالاة. ويكفى لتكوين فكرة قريبة إلى حد ما عن الأثر الذى تحدثه الأضواء الصادرة من الفنار أن نقول : إنه يمكن رؤية هذه الأنوار على مسافة عشرين ألف وثمانمائة وثمانى وستين قامة هذا إذا ما أخذنا فى الاعتبار انحناء البحر على هذا الارتفاع

---

(١) اللوحة رقم ٨٤.

(٢) حوالى ثلاثون فرسخًا.

وافترضنا ارتفاع الفنار بمسافة أربعمائة قدم. ويتبقى معرفة إذا ما كان البصر يمكن أن يكتشف - فى الأحوال الجوية العادية - أضواء برية على مسافة بمثل هذا البعد (٣٨).

ونستنتج مما سبق أن الفنار كان مخصصًا لاستقبال إشارات ليضىء خلال الليل طريق السفن التى كانت ترسو أو تصل إلى شواطئ موانى الأسكندرية. ويتفق المؤلفون القدامى مع الرحالة المحدثين حول صعوبة المداخل فى هذه الأحواض كما سنرى فى الموضوع الخاص بالميناء الكبير وكذا المخاطر التى يشكلها الشاطئ الذى يحد كافة مناحيها.

لقد سبق وأشرنا إلى أنه - فى عهد هوميروس وقبل أن يوجد فى الأسكندرية برج أو فنار كانت الجزيرة تسمى جزيرة فاروس، وأطلق على الفنار «فاروس» هذا الاسم نسبة للمكان الذى بنى عليه حسبما تفيد البيانات. وقد أصبح هذا الاسم عامًا وشاملاً بسبب جمال الأثر التاريخى وكان يدل حتى على الآثار التى كانت موجودة من قبل مثل الأبراج المشيدة فى لسان سيجيه وبيريه فى أثينا ... إلخ إلا أنها كانت مبنية على أشكال بسيطة جدًا. ويبدو أن برج الأسكندرية كان يعتبر نموذجا للفنارات الأخرى التى بنيت بعد ذلك مثل فنار كابرى وفنار أوستى على وجه الخصوص حيث يلاحظ تشابهه مع هذا النموذج الجديد (٣٩).

ويختتم بلينى وصفه للفنار بدعوتنا إلى تصور مدى عظمة وجمال وأهمية هذا الأثر التاريخى قائلا: إن البرج قد تكلف ثمانمائة تالنت (٢,٤٠٠,٠٠٠ فرنكا على أن يقدر التالنت بألف ريال فرنسى قديم) (٤٠) وأن الملك بطليموس فيلادلفوس قد سمح للمهندس المعمارى بتسجيل اسمه على البرج. ويروى استرابون ما كان مكتوبًا بالنص قائلا «سوسترات دوسنيد» صديق الملوك قد أقام هذا البرج لإنقاذ الملاحين ويستطرد قائلا :إن ما أوضحته الكلمات المسجلة التالية هو «سوسترات دوسنيد بن ديكسيفان إلى الآلهة الحافظة للملاحين». إلا أن لوسيان وقد أشار إلى نوع من المخادعة من جانب المهندس المعمارى، فقد حفر هذا الأخير - بطريقة مستديمة - الكلمات التى تحمل اسمه فى الجزء الأخير وغطاه بطلاء كتب عليه اسم الملك: وما كان من العوامل الجوية إلا أنها أتلفت.

مع مرور الوقت . هذا الطلاء ليبقى اسم المهندس المعمارى واضحًا . ويبدو أنه تم اختلاق هذه القصة لتفسير الطريقة التى تمكن بها فيلادلفوس - الذى كان عظيمًا فى مؤسساته والذى كان قد علق اسمه على العديد من بينها . من إثبات أنه قبل ورضى بألا يظهر اسمه على أثر بمثل هذه العظمة . ورغم ذلك لا يزال الاسم موجودًا كما وصفناه منذ عهد استرابون وبلينى أيرجح أن يكون خلفاء بطليموس الثانى أنصار مفاخر سابقيهم قد لاحظوا . ولابد أن يكون ذلك قد حدث . أن هذا التغيير فى الاسم كان نتيجة بطيئة جدًا لعملية غش وخداع قديمة فأضافوا اسم فيلادلفوس إلى اسم سوسترات ؟ من الأسهل التكهن بأن الأمير قد خول لمهندسه المعمارى . الذى كان يشعر تجاهه بالارتياح . بنقش الكلام الذى ذكرناه متنازلا عن وضع اسمه لأسباب لا نعرفها (٤١).

ومن الصعوبة بمكان أن نتتبع دون توقف أو تشكك وضع بقايا مثل هذا الأثر الهائل خلال كافة العصور كل ما نعرفه حسبما أكد لنا عالم الجغرافيا النوبى منذ سبعمائة عام، أن فنار سوسترات كان لا يزال قائمًا فى القرن الثالث عشر كما قال أبو الفداء وهو أمير وعالم جغرافى سورى كان كاتبًا ذائع الصيت فى عام ١٣٢٠ . وبالتالى لم يكن السلاطين فى مصر خلفاء صلاح الدين قد دمروه بعد، ولكن فى القرن الخامس عشر اختفى هذا الفنار وتم بناء الفنار الحالى. وليس هناك مجال للشك فى أن الفنار الجديد لا يشغل ذات الجزيرة أو اللسان الذى كان عليه برج البطالمة. ويتعين وفقًا لما سبق وحتى يتم اكتشاف معلومات أكثر دقة . أن نفترض أن المماليك هم الذين شيدوا القصر الحديث على أطلال البرج القديم (٤٢).

سد الفنار

توجد كمية كبيرة من المخلفات القديمة اللافتة للنظر التى استخدمت فى عمليات تأسيس أحد السدود فيما بين شبه الجزيرة الحالية التى يوجد عليها الفنار والصخرة التى تركناها . ويقوم جسم هذا السد على صخرة مائية تعتبر بمثابة غطاء عريض، ويتكون السد من جذوع أعمدة من الجرانيت والرخام

والأحجار المعروقة بالمعادن ومواد أخرى من بقايا الأسكندرية القديمة (٤٣). ونجد فى مكان السد جذوع أعمدة جميلة كاملة ومصنوعة من الجرانيت الشرقى المنتشر بكثرة فى صعيد مصر. ونلاحظ حتى فى الجزء العلوى عددًا من تيجان الأعمدة التى تحمل براعم مقطوعة لزهرة اللوتس ومصنوعة من الجرانيت، وهو ما ليس موجودًا فى أماكن أخرى. هذه التيجان موضوعة مع جذوع الأعمدة فى الطريق المغطى المؤدى للسد. ومن بين كتل الأحجار والجرانيت الكثيرة التى ألقيت أسفل الفنار لصد الأمواج الكاسرة ناحية البحر نجد أن كثيرًا من جذوع وقطع الأعمدة تأخذ الشكل اليونانى. وسنلاحظ فى معرض حديثنا عن العمود المسمى عمود بومبى أنه يبدو أن الأغريق لم يتمكنوا من استغلال تلك الكتلة الكبيرة من الجرانيت كما فعل قدماء المصريين ولكنهم استطاعوا أن يستخرجوا من المحاجر الأعمدة ذات الأبعاد العادية التى نراها أو تمكنوا من إضافة بعض اللمسات على كافة أنقاض مدينة منف والمدن الأخرى المهجورة فى مصر العليا (٤٤). ونشاهد فى مكان آخر جزءاً ثلاثى الأخاديد من الجرانيت الأسود وقطعة من إفريز فى حالة جيدة إلى حد ما وقد لا يساورنا الشك ليس فقط فى أن الإغريق صنعوا أكبر كمية من هذه الأعمدة الجرانيتية الموجودة بين أطلال الأسكندرية ولكنهم استخدموا فى تشييد الأجزاء المعمارية للمبانى فى هذه المدينة نفس المادة. (ألا ينجم عن ذلك مبان فى غاية الثراء والصلابة!). لقد تأكدت هذه المزاعم بوجود كمية الجرانيت القليلة التى تركوها فى آثار المصريين القدماء. فالمعروف أن هؤلاء كانوا يستخدمون الجرانيت كثيرًا فى منشآتهم حتى أنهم غطوا به أحد أهرامات الجيزة الثلاثة (٤٥).

لقد أوضحنا أنه لم يكن هناك - فى العصور القديمة - أى بناء كبير فى مكان السد، وأن خط الصخور كان يشكل فى وقت ما اتصالاً مستمرًا مع هضبة الفنار. وحينما انقطعت هذه الوصلة أو دمرت وتلفت تمكن القدماء من عمل أرصفة حجرية ليتمكنوا باستمرار من بلوغ الفنار بطريقة مريحة (حيث صور لنا بعض علماء الجغرافيا هضبة الفنار كما لو كانت جزيرة كاملة) إلا أن أعمالهم انحصرت بالضرورة هنا، كما أن الأرصفة التى أقاموها ظلت على خط الأرصفة

فى مقدمة السد الحالى ؛ لأنهم لم يضعوا حقًا الأساسات غير المتقنة لهذا الجسر ولكنهم أعطوا الفكرة فقط (٤٦).

ويعتبر السد الحالى حديثًا، ويدل على ذلك الطريقة الغريبة التى استخدمت فى بنائه، حيث نجد فيها العديد من بقايا الآثار الجميلة التى تحدثنا عنها. فجذوع الأعمدة تم وضعها بصورة أفقية وبالعرض لسد الصخور البحرية وربط ووصل الجزء العلوى لأساسات الجسر. ومن الطبيعى أن يتم تأجيل بناء السد إلى الوقت الذى كان قد تم فيه بناء القصر الحالى للفنار. لقد سبق وشرحنا أن القصر كان موجودًا فى عام ١٥١٧ خلال غزو الأتراك ولكن تدمير الامتداد الحالى للجزيرة وضرورة إقامة سد فى الخلف كلها عمليات جرت قبل ذلك. ومن المعروف أن حوائط النطاق العربى حيث سنرى أعمدة أفقية تم بناؤها نحو عام ٨٧٥. ومن ثم يتعين وضع بناء السد فى هذه الفترة أى حوالى ٦٤٠ عامًا (٤٧) وأن ننسب إلى العرب فى نهاية القرن التاسع هذا النظام العجيب فى البناء القائم على استخدام أعمدة أفقية فى الحوائط وهو ما سنراه كثيرًا فى حديثنا عن آثار الأسكندرية.

الرصيف الحاجز للأمواج
موقع المدينة الحديثة

تقع المدينة الحديثة، كما نرى، على لسان بين الميناءين وتغطى كافة الآثار التى كانت توجد فى موقعها. والواقع أنه لم يكن هناك سوى أثر رئيسى واحد ولكنه كان من السهل أن يتوارى تحت ما نراه من تراكمات الطين والرمال التى يرسبها البحر، أو تحت المدينة التى تغطى هذه الرمال نفسها؛ إنه الرصيف الكاسر للأمواج المسمى "هبتاستاديوم" حيث لا يوجد أى أثر له، بل إن هناك بعض الشكوك حول الموضع الحقيقى لهذه الكتلة الضخمة وسنتولى فيما يأتى تبديد تلك الشكوك التى سادت بشأن وجهته.

ويطلق استرابون على هذا السد أو هذا المرتفع لفظ جسر وكان يتجه من القارة نحو الجزء الغربى من جزيرة فاروس. وقد ظن بعض المؤلفين الجديرين بالثقة ومنهم دانفيل الحكيم أن هناك خطأ فى هذه الفقرة وأنه كان ينبغى لاسترابون أن يقول:إن الرصيف الحاجز للأمواج كان يصل إلى الجزيرة من ناحية غربى برج الفنار، لا من ناحية الطرف الغربى للجزيرة، ولكن ذلك ليس ما قاله استرابون. فعبارة «يتجه نحو الجزء الغربى» لا تعنى أن هذا الجسر كان يصل إلى هذا الطرف. وعلاوة على ذلك، فإن موقع حى الفنار وغيره من التلال القريبة من المدينة (وهى تلال تؤكد أن الجزيرة كانت من هذه الناحية على شكل نتوء متعرج على شكل ورقة نبات أو رأس خارجى غربى بالنسبة للرأس الشرقى من البرج)، يسمح لنا بأن نفترض مثل دانفيل أن الرصيف المذكور كان يصل إلى الجزيرة فى هذه النقطة التى سنضع فيها هذا الجسر فعلا. ولكن على أية حال لا يمكننا أن نفترض لهذا السد اتجاهًا آخر عكس الذى أخذت به. فكل السلطات التى قابلناها وتلك التى سأذكرها أيضًا فيما يتعلق بمينائى الأسكندرية الرئيسيين، وجزيرة فاروس وضواحيها، وكذلك وصف الرصيف نفسه تتفق كلها على تأكيد هذا الاتجاه.

- ويقول استرابون بشأن هذين الميناءين:إن كلاً منهما يمتد فى الجزء الداخل الذى يشكله الرصيف حاجز الأمواج وتفصل بينهما سلسلة من الصخور طولها سبع غلوات (٤٩). ويشرح معنى كلمة جسر التى أطلقها على هذا السد مضيفًا أن هذا الأخير كان يترك فقط مدخلين للميناء الكبير صالحين للملاحة فى ميناء أونوست. ومن خلال تفاصيل حرب قيصر يتبين لنا أن أحد هذين الممرين كان يقع على طرف الرصيف كاسر الأمواج بالقرب من مدينة الأسكندرية، والآخر على الطرف المواجه بالقرب من جزيرة فاروس. وكان هذا الاتصال يتميز بأنه يسمح للسفن بالدخول إلى الأسكندرية والخروج منها فى أى وقت تقريبًا، نظرًا لاختلاف اتجاه الرياح فى ممرات الميناءين الرئيسيين. ولكن لاحظوا أن استرابون لا يحدد هاتين الفتحتين إلا باعتبارهما تتيحان الدخول أساسًا إلى ميناء أونوست. ذلك لأن الميناء الكبير كان حينئذٍ أهم الموانى، وكان

أونوست يعتبر أحد ملحقاته. ويبدو أيضًا وفقًا لذلك أنه عادة ما كان يتم الدخول إلى ميناء أونوست مرورًا أولا بالميناء الكبير بسبب المشاكل التى يقابلها البحارة فى مضايق ميناء أونوست والتى حذرنا منها استرابون. ويسترسل استرابون قائلا: إنه كان هناك جسر يصل بين هاتين القناتين الصالحتين للملاحة، بمعنى أنه فوق هاتين الفتحتين. اللتين تم إحداثهما بعرض قاعدة الرصيف الكاسر للأمواج أى اللتين يصل طولهما مقدار هذا العرض. أقيم قبو أضيق من جسم السد بل أضيق حتى من الجزء العلوى منه، نظرًا لأنه كان يرى أن هذا الجسر يعد بناءً منفصلا عن الرصيف كاسر الأمواج. وهناك آخرون من المؤلفين القدامى يسمون هذا الرصيف أيضًا جسرًا. والواقع أنه يمكن اعتبار كتل وسط وأطراف هذا السد بمثابة ركيزة وسطى شديدة العرض بالنسبة للكتلة الأولى، وأكتاف بالنسبة لكتل الأطراف. (٥٠).

وسنرى فى حرب الأسكندرية أن يوليوس قيصر أمر بتحصين قصر كان يقع على رأس أقرب جسر لجزيرة فاروس. ويضيف هيرتيوس أن رأس الجسر الآخر، ويقع بالقرب من المدينة، كان محصنًا على نحو أفضل وأنه كان هناك قصر قام أهالى الأسكندرية أثناء الحرب بزيادة تحصيناته وأسلحته. وكلمة «بالقرب» هذه توضح إلى حد ما موقع عِقد الجسر والحصن المجاور للمدينة. أما الاثنان الآخران فلابد أنهما يقعان فى تناسق على الجانب الآخر من الرصيف كاسر الأمواج، وبالتالى سنكتشف أن أطلال هذا الحصن من جهة الجزيرة تطابق التل الرئيسى من بين التلين أو التلال الثلاثة الواقعة غربى الحصن الذى يحدد موقع بلده فاروس. وفوق ذلك، فإننا لم نعد نرى أى أطلال لهذه الحصون ولا لهذه الجسور. فلا يوجد سوى حصن تركى فى الضواحى ويقع على ساحل الميناء القديم ليحل بالتأكيد محل الحصون القديمة.

ويضيف استرابون فى وصفه أن الرصيف كاسر الأمواج لم يكن فى مجمله جسرًا للاتصال مع جزيرة فاروس فحسب، بل كان بمثابة قناة وقت أن كانت هذه الجزيرة مأهولة. ها هو ذا شىء آخر نافع فى هذه المنشأة الكبيرة وتفسير كان لابد أن نصل إليه حول وجود أناس فى الجزيرة. وكنت قد لفت الأنظار إلى ما

يدل على ذلك فى المقابر، والصهاريج، وأطلال البناء التى تحيط بها. ويبدو من خلال عبارات استرابون أن قناة الرصيف الحاجز نفسها عانت كثيرًا مما قام به القيصر من عمليات إتلاف وتخريب كما عانت من إقفار الجزيرة أو ربما يكون حتى قد تم تدميرها تمامًا. ولكننا رأينا كيف تم ترميمها فى عصر بلينى (٥١).

وتعطينا تعليقات قيصر وهيرتيوس القليل من الإيضاح حول نوع بناء الرصيف كاسر الأمواج وبقايا هيئته. فيقولان فقط وفى عجالة أنه؛ إن لم تكن كتلته ضيقة فإن الطريق الذى شق فوقه ضيق. وأغلب الظن أنهما لم يقصدا المعنى المطلق ولكن بالنسبة لعرقلة التحركات العسكرية التى كانت تدور على القمة، فلابد أن ذلك الطريق كان على قدر معقول من العرض لتسهيل الحركة النشيطة لعبور العربات والمشاة. وكان هناك على طرفيه جسران يتسمان بعرض يكفى لهذه المهمة، ولكنهما فيما يبدو أضيق من بقية الطريق. ولا توجد لدينا أى معلومات أدق حول سمك الرصيف الحاجز. ولكن أغلب الظن أنه كان كبيرًا جدًا وكانت المنحدرات تتسم بالميل الشديد والخشونة بحيث كانت قوات قيصر وأهالى الأسكندرية يعبرونها بسهولة (٥٢). ولنستعرض الآن طول هذه المنشأة.

فهذا البناء وإن كان معرفًا باسم «رصيف كاسر للأمواج»، إلا أنه أفسح المجال إلى الكثير من التعليقات التى لم تعد ذات جدوى لنا. وقد ذكر قيصر فى "Bello Civili" أنه يبلغ تسعمائة خطوة. وهو ما يتفق تمامًا مع سبع غلوات أوليمبية تبلغ كل منها خمس وتسعين قامة. ولم تصادفنا اعتراضات قوية تستدعى البحث عن قياس آخر للغلوة (٥٣). وبعد تحديد الوجهة التى لا يمكن أن يخرج عنها الرصيف الحاجز لن يكون علينا سوى تحديد نقطة بدايته وتطبيق طوله على أرض الواقع لنعرف موقعه الحقيقى. لذا، فإنى أظن أنه باتباع الخط الشمالى الغربى تكون الغلوات السبع موجودة بين سور النطاق العربى ـ فى مواجهة هضبة راكوتيس تقريبًا ـ وأول التلين أو التلال الثلاثة الضخمة فى جزيرة فاروس. وهذا الرأى هو الأقرب للواقع فهو يعيد للميناء الكبير كل عمقه القديم ومزاياه الأخرى التى استعرضناها، ويفسح المجال لوجود أعرض ترسيبا للرمال والطين وأكثرها تسطحًا لكى تتكون فى هذا الميناء وفى المكان المتفق عليه. ويملك

هذا المحور تلك الهضاب التى تمثل، على خط واحد، مواقع الحصن، وأكتاف ورءوس جسور من جهة جزيرة فاروس، ويتصل بصخرة راكوتيس - مركز المدينة القديمة والتى كان البحر يغمرها مباشرة - من ناحية الساحل القديم الذى أقيم فوقه النطاق القديم وتم الحفاظ عليه. ويبدأ هذا المحور من نقطة فى هذا النطاق يوجد بالقرب منها باب يسود الاعتقاد بأنه ظل محل استخدام مستمر. ثم يسقط هذا المحور على أرض جزيرة فاروس القديمة. وأخيرًا، يتعامد مع المحور الكبير لهذه الجزيرة، محددًا المسافة الفعلية بالنسبة للقارة (٥٤).

وفى مقدمة النطاق العربى، يوجد فى المدينة الحديثة صهريج يلفت النظر بسبب موقعه غير البعيد عن الرصيف القديم. والواقع أنه لم يستوقفنى هذا الصهريج عند البحث عن موقع الرصيف نظرًا لأننى لست على يقين من قِدَمه. ومن جهة أخرى، فهو يقع فى المقدمة أكثر من أن يكون - فى العصور القديمة - جزءًا من القارة التى يحتمل أنها لم تكن تمتد إلى هذا الحد. وابتداء من مكان ذلك الصهريج فإن طول الغلوات السبع يجاوز جزيرة فاروس بأكملها. وإذا ما بدأنا من الأسوار وعبرنا الصهريج فى اتجاه الهضاب الثلاث، لوجدنا أن الرصيف الحاجز لا يفى تمامًا بالشروط السابقة ولا بأولها على الإطلاق، ذلك الشرط الذى يفترض الامتداد نحو الجزء الغربى من الجزيرة. ودراسة طراز بناء هذا الصهريج الذى يعتقد بأنه قديم إلى حد ما، قد تلقى الضوء على ذلك العصر الذى تخلى عن استخدام سد الغلوات السبع من أجل الاتصال بجزيرة فاروس، والذى شهد تشويه الموانى القديمة بإقامة أبنية أخرى (٥٥).

ويضيف أميان مارسلان الذى ينسب بالباطل بناء الفنار إلى كليوباترا، أن نفس الملكة قد أمرت ببناء الرصيف الحاجز الذى تم تشييده بالنسبة لضخامته بسرعة مذهلة، ويحكى هذا المؤرخ عن هذا البناء وكأنه معجزة. ويبدو أنه كان معجبًا به بشدة وهو ما يمكن أن نستشعره من خلال أسلوبه المتكلف. والواقع أننا لسنا على يقين أن بطليموس هو صاحب بناء الرصيف الحاجز. ولكن كل الشواهد تحملنا على الاعتقاد بأن هذا الأثر كان قائمًا بالفعل قبل مجىء كليوباترا الثانية بوقت كبير، وأغلب الظن فى عصر البطالمة الأوائل أو حتى فى

عهد الإسكندر. فلابد أن بناء بمثل هذه الجدوى قد شيد بمجرد أن شرع فى إصلاح وتحسين المنشآت البحرية فى عصر هذا المؤسس العظيم (٥٦).

ويمكننا أن نقدم افتراضات حول ما آل إليه بعد ذلك الرصيف وحول العصر الذى اختفى فيه تمامًا. فوضع هذه الكتلة بين الميناءين كان يميل دائمًا لإيقاف الحركة المتعاقبة للبحر وراء جزيرة فاروس وردم الميناء الكبير عند الزاوية التى تقع إلى يمين بداية الرصيف كاسر الأمواج فى مواجهة المدينة. وبطبيعة الحال فقد تراكمت الرمال على هذا الرصيف ذاته عندما جاءت حكومات مهملة لم تعن بتنظيف أرضيته ولا بصيانة الممرين الملاحيين اللذين يعبرانه. وفى القرن السادس عشر على وجه الخصوص وفى عهد الفتوحات التركية الذى يعود إلى آخر فتراتنا الزمنية، أهملت مدينة العرب وهجرت شيئًا فشيئًا ونمت المدينة الحديثة على أثر ذلك. والأرجح أنه فى ذلك الوقت هدمت من الرصيف الكاسر للأمواج الأجزاء العلوية التى لم تعد ذات جدوى، والتى كان يمكن استخدامها فى منشآت جديدة. فنحن لم نر أى أثر له كما لم نسمع عن أحد اكتشف مثل هذه الأطلال. ويجوز أن الإنسان قد ساعد الطبيعة فى توسيع[1] هذا الطريق الضيق الذى أصبح موقعًا لمدينة. وبالتالى فبإمكاننا أن نعزى هجر الرصيف الحاجز إلى العرب وبصفة خاصة إلى خلفائهم، ثم اختفائه تمامًا إلى الأتراك (٥٧). وبجوار موقع هذا الرصيف كاسر الأمواج، توجد آثار باقية حتى اليوم من بينها عدد كبير من الأعمدة الملقاة على الأرض والتى سيتناولها الموضوع التالى، وبعضها من الجرانيت ويستخدم قائمًا وعلى طريقة العرب فى المبانى الحديثة. هاهى ذى كل بقايا الأسكندرية القديمة التى ازدانت بها الأسكندرية الجديدة وعلى نحو رائع، وها هى ذى أيضًا المدينة التى خلفت مدينة الإسكندر والبطالمة والرومان، تلك المدينة الضخمة البديعة التى لم تعد اليوم سوى قرية كبيرة بائسة ذات مبانى متواضعة وغير منظمة وتفتقر إلى الميادين العامة. فليس فيها سوى شوارع ضيقة، غير نظيفة وغير ممهدة، وتضم حوالى ثمانية آلاف نسمة[2] ولكنها ظلت

---

(١) بواسطة جملة الأعمدة المقامة على الصخور والتى تناولها الموضوع رقم ٥٧ من الملحق.

(٢) يصل عدد سكان المدينة الحديثة إلى اثنى عشرة ألف نسمة.

تجارية لسبب واحد وهو الموقع المتميز لمينائها، وهو الوحيد من نوعه على هذا الساحل للبحر المتوسط ويتصل بالمحيط الهندى (٥٨).

كتل الأعمدة الأثرية تحت حى القنصليات

لا يزال يوجد الكثير من الآثار كتلك الموجودة عند سد الفنار، بين حى القنصليات والجمرك(١). وهذه المبانى مشيدة من جهة الميناء الجديد على ضفاف الماء. وقد أقيمت على عدد كبير من جذوع الأعمدة الجرانيتية ذات الألوان المتعددة وغالبًا ما يبلغ قطرها نحو ثلاثة وأربعة أقدام. وتعطى هذه الصخور نفس الشكل وتثير نفس الملاحظات العامة التى تثيرها كتل الأعمدة الأولى التى شاهدناها من قبل، ولكن من بين ما نتفحصه الآن هنا لفت نظرنا على وجه الخصوص جزآن من جذع عمود لهما شكل أعمدة الأقصر ذات الجوانب الغليظة المستديرة، التى تضيق سيقانها فى الجزء السفلى منها. كما وجدنا أحد تلك التيجان التى تتعلق عادة بهذا النوع من الأعمدة، وهو عبارة عن قطع مبتور على شكل مجموعة من التعاريق تشبه جوانب الشمام. ولا ينبغى أن ننسى تاج العمود المزين ببراعم زهرة اللوتس الذى وجدناه عند سد الفنار بل علينا أن نضمه إلى نفس الفئة. ويبدو أن كل هذه الأبنية كانت من صنع المصريين القدماء، فهى تحمل كتابات هيروغليفية، كما أن أحد هذه الأجزاء وهو عبارة عن الطرف السفلى لجذع أحد الأعمدة عليه زخارف حادة التعرج مثلما هو الحال بالنسبة لكافة الأعمدة تقريبًا المشيدة من الحجر الجيرى أو الحجر الرملى فى مصر العليا. وأمام هذا المنظر، نجد أنفسنا نحاول الخروج من شك لم نستطع التغلب عليه حتى الآن. والأمر يتعلق هنا بمعرفة ما إذا كان قدماء المصريين قد بنوا أعمدة من الجرانيت أم لا. حيث إننا لم نعثر على أى من هذه الأعمدة فى أبنية مصر العليا. كما أننا نميل لافتراض أن الإغريق والرومان لم يقلدوا هذه الأعمدة لأن أشكالها لا تروق لهم ولا تتفق مع أذواقهم وعاداتهم. ولكنهم عندما كانوا يشيدون معابد

---

(١) اللوحة رقم ٨٤ .

لآلهة مصرية كان لزامًا عليهم تقليد الطراز المحلى مهما بدا غريبًا وشاذًا. أليس لدينا مثال على ذلك فى التماثيل وغيرها من الآثار القديمة التى صنعت فى روما بالجرانيت المصرى؟ والواقع أننا ننزع أيضًا للاعتقاد بأن الكتابات الهيروغليفية المنقوشة على هذه الأجزاء من الأعمدة تحسم المسألة تبعًا للافتراض الأول ولكن ولنفس الأسباب وحتى يكون التقليد متقناً كان لابد للإغريق والرومان من نقل الكتابات الهيروغليفية عن الكهنة المصريين أو أن يطلبوا من هؤلاء تلقينهم إياها. وقد كان مجمع هؤلاء الكهنة لا يزال موجودًا فى عهد الإغريق والرومان. ألم تستخدم هذه الحروف فى عهد بطليموس إبيفان فى الكتابة الثلاثية لحجر رشيد الشهير؟ وهكذا، يكون لدينا على الأقل شك فى أنه لا تزال هناك أعمدة من الجرانيت قام بتشيدها المصريون فى طيبة[١] (٦٩).

أما المحدثون، ومنهم الأتراك بصفة خاصة، الذين أقاموا بيوتًا فى الميناء الجديد، فقد قلدوا العرب فى استخدامهم لهذه الأعمدة الأفقية فى أسوار نطاقهم الواسع، ولكن بمزيد من الدقة والانتظام. فالهدف أساسًا من هذه الأعمدة هنا فى سد الفنار هو تكوين كتل فى الصخور والأساسات، بينما سنرى أن هذا الطراز كان نادرًا فى أسوار العرب إذ كانت الأعمدة تستخدم فى البناء على سبيل التكلف والندرة. ولكن أى كمية كبيرة من الأعمدة استوعبها هذا الاستخدام المزدوج، حيث إن البنائين المحدثين لا يزالون يستخدمونها كل يوم، حتى ولو على حساب تدمير ما كان العرب قد شيدوه بعد أن قاموا هم أنفسهم بتدمير الآثار القديمة. فأى فكرة يمكن أن نكونها من خلال هذا العرض عن عظمة وأبهة المدينة القديمة كذلك، فلابد لنا أن نضم إلى كل هذه الأطلال بالإضافة إلى سد الفنار ورصيف الشحن والركوب الخاص بالميناء القديم أنقاض مسجد الأعمدة الألف، القديمة وكافة المساجد الأخرى التى سنقابلها فيما بعد. وتفسر هذه الملاحظات تجرد أنقاض الأسكندرية من الزخارف تمامًا، وسبب اختفاء العديد من الأعمدة التى كانت لا تزال قائمة عندما شاهدها سيكارد وغيره من الرحالة.

---

(١) ينبغى استثناء آثار الدلتا.

الميناء الكبير

فى معرض زيارة جزيرة فاروس والبرج وصخرة الفنار والسد الحالى التابع لهما والرصيف الكاسر للأمواج نكون قد تتبعنا جزءًا من شواطئ الميناء الجديد. وسنقوم حاليًا بتفحص مكوناته فى مجملها بمعنى مكوناته الداخلية ومرافقه ومضيقه ثم نجوب بعد ذلك بقية محيط دائرته الذى لا يقل أهمية إن لم يكن ليساعدنا على التعرف عليه تمامًا.

لقد فقد هذا الميناء بصفة عامة كثيرًا من عمقه. إذ نرى فيه قيعانًا كثيرة ولا يوجد سوى كمية قليلة من المياه على أجزاء الصخور الموجودة بداخله. ولايوجد فى هذا الميناء أى آثار ملحوظة. ولكن حين نتنزه فى زورق على تلك القيعان فى وقت هادئ نلمح بعض أطلال للمبانى وأجزاء من التماثيل وأعمدة ملقاة. وتوجد أكثر الصخور اللافتة للنظر على وجه الماء ناحية الوسط على بعد حوالى مائتين وخمسين قامة من المدينة الحديثة. وكان الاعتقاد سائدًا بأن هذه الصخور ربما تكون جزيرة أنتيرودس ولكننا سنرى عكس ذلك. من المحتمل أن يكون الإغريق الذين كانوا قد غطوا هذا الميناء بأعمال كثيرة قد استقطعوا جزءًا من هذه الجزيرة التى كانت لا تزال ظاهرة قبل ذلك إلا أننى لم أعثر على أية آثار أخرى سوى الأنقاض التى ما لبثت أن تحدثت عنها.

كان هذا الميناء يأخذ سالفًا نفس الشكل الذى نراه عليه اليوم باستثناء التعديلات التى لاحظناها من قبل، والتى لا نزال نشير إليها فى هذا الموضوع كما فى الموضوعات التى سنتناول فيها بقية أطرافه المحيطة الواسعة. كان مدخله يتسم بصعوبة بالغة مثلما هى الحال اليوم. وقد حرص المؤلفون القدامى وحتى الرحالة المحدثون على ذكر ذلك. وهم يعرضون أيضًا، وفى كلمات قوية للغاية مخاطر شاطئه وكذا ساحل الأسكندرية كله، كما يفسرون فى ذات الوقت كيف كان هذا الملاذ قيمًا بالنسبة لحركة التجارة فى العصور القديمة (٦١). ويكتفى ديودور بتسمية هذا الميناء الفنار، ويتضح أنه يمثل الميناء الرئيسى للأسكندرية أو الميناء ذا الجودة العالية الذى يوجد تحت برج الفنار ذاته والذى

يطل عليه مباشرة، ولا يميز ديودور أى شىء آخر على الساحل المجاور له. ويضيف قائلا: «إن الجزء الباقى كله عبارة عن مرسى محفوف بالمخاطر. ويقول استرابون: «إن الشاطئ كان منخفضًا من الجهتين ولا يوجد به أى ملاذ ومليء بالحواجز وبه منخفضات بحرية وكانت السفن القادمة من أعالى البحر تحتاج إلى إشارة مرتفعة ومضيئة لتتمكن من الوصول إلى مدخل الميناء». ونلاحظ أنه يتحدث فى هذه الفقرة عن الميناء الجديد وأن الفنار قد صنع فيما يبدو لخدمة هذا الحوض كما يشير وضعهما على التوالى. كما تبرهن لنا بقية الروايات أن ميناء الأسكندرية الرئيسى كان يوجد هنا. ويستطرد ديودور قائلا «إنه من بين اللسانين الموجودين فى جزيرة فاروس فإن اللسان الموجود فى الشرق (صخرة الفنار) يقترب أكثر من القارة والرأس المواجه له اكرولوكياس، وأن اللسان الموجود فى الغرب (طرف منطقة رأس التين) لا يقترب من المزار ويذكر أن التقارب ما بين الفنار ولسان لوكياس كان يشكل الميناء ويجعل من مدخله ضيقًا للغاية. يضاف إلى هذه الصعوبة تلك المتعلقة بالصخور الموجودة فى الماء بين هذين الرأسين فبعضها . يغطيه البحر والبعض الآخر يرتفع ليرد الأمواج الكاسرة التى تصل باستمرار إلى الشاطئ». ولا تزال الأحوال على ما هى عليه حتى اليوم فيما يتعلق بصعوبة المدخل. وسنرى أن رأس اكرولوكياس قد تآكل وأصبح قصيرًا جدًا من جراء المياه مثلما حدث للسان جزيرة فاروس ولكن بصورة أقل. وجدير بالذكر أن المضيق يقع شرقى «الماس» وقريبًا جدًا من هذه الصخرة التى يتعين السير عليها كثيرًا لتفادى المنخفضات البحرية الموجودة فى الناحية الأخرى (٦٢).

ويقول كل من بلينى وسولان :إنه لا يوجد سوى ثلاث قنوات (أو مضايق) تؤدى إلى الأسكندرية ويسمونها كالآتى:

تيجاموس وبوزيدؤس أو بوزيدونيوس وتوروس. ويرجح أن هناك مدخلين فى ميناء أونوست أحدهما من ناحية شرسونيسوس. والآخر من ناحية رأس التين أما الثالث فهو الخاص بالميناء الكبير الذى ندرسه، وهو بلا شك المسمى بوزيديوم والملقب بنبتون. ومن ناحية أخرى كان هناك معبد يحمل اسم ذلك الإله فى الميناء الكبير أو جزء من الشاطئ يسمى بوزيديوم وسنتحدث عنه قريباً (٦٣).

وبعد هذه الصعوبات ندرك تمامًا الدافع والفائدة من وراء بناء الفنار واختيار مكانه. ونلاحظ مدى عبقرية وجرأة القدماء الذين كانت الموانى المغلقة ضرورية بالنسبة لهم، والذين فضلوا اختيار هذا الميناء عن بقية مساحة ميناء أونوست وأغلقوه بعد ذلك بعد أن قطعوا المرسى القديم بإقامة الرصيف الحاجز للأمواج المكون من سبع غلوات مستفيدين من بروز فى جزيرة فاروس.

ويقول استرابون: «إن الميناء الكبير مغلق تمامًا بعوامل طبيعية (عند المدخل) والرصيف الكاسر للأمواج (أو بعوامل صناعية) (٦٤)، ويطلق عليه ماكسيموس وهو الاسم الذى عرف به فى العصور القديمة. وتناول يوسيفوس والمؤلفون القدامى ذات الاسم حينما كانوا يقولون ميناء الأسكندرية (يمكن التحقق من التفاصيل التى تتناولها بصدده الفقرات المتعلقة به) إما لأنه كان يمكن الوصول منه إلى كافة الأحواض الأخرى التى كانت عبارة عن تقسيمات وحتى فى ميناء أونوست أحد توابعه أو نتيجة للظروف الأخرى التى سنتعرض لها.

وإذا ما محونا للحظة من الذاكرة الرصيف الحاجز (الذى يفترض أنه موضوع فى الاتجاه الذى ذكرته فيما سبق) نرى بعد فحص الأماكن ووفقًا لما روى عن تاريخ التأسيس لماذا لم يكن أمام القدماء سوى هذا الميناء الذى يشتهر مدخله بالضيق الشديد ولماذا أطلقوا عليه بعد ذلك ماكسيموس. لابد وأنه كان على كفاءة كافية ومجهز تمامًا فقد كانوا غالبًا ما يسمونه لهذا السبب بالميناء(٦٥) . واحتفظ الميناء باسمه الشائع وقد أعطى اسمًا جديدًا لميناء أونوست. وأصبح فضلا عن ذلك هذا الميناء بعد بناء الرصيف الحاجز أكبر الموانى وكان يطلق عليه على سبيل المقارنة ماكسيموس. وكان هذا الميناء أول ما رآه المؤسسون حينما أرادوا وضع منشآتهم وكانوا يستخدمونه فى أهم استخدام؛ فقد جمعوا من حوله مبانيهم الفاخرة التى امتدوا بها أساسًا على طول الجزء الشرقى منه وهو لا يعتبر ذا نفع كبير بالنسبة للبحرية وتركوا منشآتهم ذات المنفعة العامة فى تجويفه الأعمق والأهدأ حول راكوتيس المدينة القديمة، وأحواض أونوست، وكيبوتوس التى كانت من تفريعات الميناء الكبير.

ويقول استرابون[١]: إنه كان عميقًا جدًا حتى فى ضفافه لدرجه أن أكبر السفن كانت تستطيع الاقتراب دون التعرض لأى خطر حتى تلامس الدرجات التى كانت قد بنيت فيه. وهذه الدرجات كانت موجودة فى الجزء المجاور لبداية الرصيف الكاسر حيث سنرى أنه كانت توجد منشآت البحرية المسماة أبوستاز. إلا أن هذا الميناء كان يقسم إلى موان عديدة"[٢]، ولم تكن بلاشك سوى فواصل صغيرة أقيمت على طول الشاطئ لفصل محطات السفن التى تنقل الأصناف المختلفة من البضائع والبشر كما يحدث عندنا. وتعتبر الموانى الصغيرة مثل موانى «الملوك» «وأنتيرودس» وأبو ستاز التى استعرضناها من الأدلة على ما أسرده (٦٦).

ويضيف يوسيفوس إلى هذه الصفات أن الجزء الداخلى من الميناء الكبير كان آمنًا للغاية وكان طوله يبلغ ثلاثين غلوة. وإذا ما أخذنا بمقياس الغلوة الإغريقية الذى يبلغ خمساً وتسعين قامة وقمنا بالقياس حول الميناء الجديد بدءًا من صخرة الفنار وحتى رأس اكرولوكياس الحالى مقتربين من ميناء أونوست بسبب تراكم الرمال الزائد فى الميناء الجديد والاتجاه الغربى للرصيف الحاجز نجد أن هذا المقياس على درجة انضباط عالية جدًا فهو يؤكد كل ما قلناه بصدد شكل ووضع بعض الأشياء ويوضح كيف تقلص الميناء الكبير.

وفيما يتعلق بالعمق والأمان فقد تقلص حجمهما اليوم ويرجح أن السبب واحد لهذين التغيرين. فالرياح الشمالية الغربية التى تعتبر أشد رياح وأكثرها اعتيادًا قد تسببت فى تآكل وتوسيع المضيق وسد داخل الحوض بأنقاض وتركته مفتوحًا لكافة حركات المد فى البحر (٦٧). ويمكن تقدير ارتفاع هذه التراكمات عن طريق عمليات السبر. وتعتبر تلك التى فى مضيق الميناء الكبير هى ذاتها الموجودة بوسط الميناء القديم. وحيث إن قاع هذا الأخير قد زاد إلى حد ما بسبب حطام السفن والأسباب الطبيعية التى أشرت إليها أعتقد أنه يمكن التكهن بأن

(١) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧.
(٢) نفسه .

عمقه الذى تم تقليله كان يبلغ قبل ذلك ستة وثلاثين قدمًا وكان يمثل ذات عمق الميناء الكبير. وعمليات السبر التى تم تحديدها فى وسط هذا الحوض الأخير لم تصل اليوم إلا إلى اثنى عشر قدمًا تقريباً ؛ الأمر الذى يدعو إلى الاستنتاج بأن تراكم الرمال بداخله منذ ألفى عام قد يصل إلى أربعة وعشرين قدمًا.

بقايا محيط الميناء الكبير

وسنستكمل الآن الحديث عن الأطراف المحيطة بالميناء الكبير القديم منذ بداية الرصيف الكاسر وحتى الطرف الأخير للسان القديم لوكياس وسنفحص بقية الآثار الموجودة هناك.

الميدان الكبير

لا نرى أية آثار قديمة فى بداية المكان الذى حددناه بالنسبة للرصيف الكاسر للأمواج؛ لأن هذا الجزء قد أدخل عليه تعديلا من جراء المنشآت المختلفة التى تتالت فى هذه النقطة المهمة؛ ولكن يوجد أسفل تل راكوتيس الصغير مساحة فارغة واضحة إلى حد ما، ونرى قبل السد الغربى بقية هذه المساحة حيث يوجد اليوم جبانة تركية تحتوى على عديد من القبور التى يتميز مظهرها بالثراء والجمال. هنا تم بلاشك فتح الميدان الكبير الذى أخبرنا هيرتيوس أنه كان فى مقدمة القلعة الموجودة على رأس الميناء الأول للرصيف الحاجز وفوقه دارت معارك الجيش السكندرى. ومثل هذه الظروف تستلزم وجود مساحات هائلة إلى حد ما، ونرى أن هذه المساحة واسعة جدًا حقًا. وتشير الرواية التى سردها هيرتيوس واسم أوريا الذى استخدمه بدلا من بلاتيا إلا أن هذا المكان كان خاليًا تمامًا ولم يكن يشكل على الإطلاق جزءًا من داخل المدينة، وأنه كان يفصل الترسانات فى الميناءين، وأنه أمكن وضع السور العربى ما بين هذه الساحة والجزء الأمامى للحائط القديم كلما تقدمنا بالنطاق فى اتجاه البحر الذى كان ينسحب. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المساحة الخالية من المنشآت كادت تترك كما هى وكاد يتم فى الجزء الخارجى بناء الجبانة التى نراها حاليًا

طالما سيتم سُكنى المدينة العربية وطالما أن الضيعة الحديثة تتشكل تدريجيًا.
وهكذا نرى أن المساحة بأكملها سواء داخل أو خارج السور تعتبر مستوية وغالبًا
ما كانت مبانيها قليلة.

الترسانات

وعلى مرمى البصر فى الجزء التالى وعلى يمين رأس الرصيف الحاجز وحتى المسلات، لا نرى أى أثر لأطلال يمكن الاعتراف بها حقا كآثار. ورغم ذلك يرجح أن يكون قد تم وضع أسوار النطاق العربى فى هذه النقطة على شاطئ البحر كلما ابتعد، وأن هذه الأطلال القديمة كانت موجودة أسفل هذه الأسوار سواء فى الداخل أو الخارج، وأن المنشآت القديمة فى الداخل قد أزيلت لتحل محلها المبانى الخاصة بالعرب الشرقيين، وأن الرصيف الرملى الذى اتخذ شكله الأساسى فى هذا المكان قد أزال تلك المنشآت الموجودة بالخارج وغطى أساساتها. ففى هذه النقطة على نحو التقريب حيث لامست المدينة الحديثة النطاق العربى كانت توجد ترسانات البحرية الخاصة بالميناء الكبير بدءًا من الرصيف الحاجز وحتى الشمال الشرقى حسبما ذكر استرابون

وملائمة هذا المكان للترسانات والمواقع البحرية فى الميناء الكبير أكده الشكل المستوى والخاص بالمنشآت الذى لا يزال يحتفظ به الآن الشاطئ فى هذه النقطة. أما عمق المياه فقد كان كافيًا لتعويم بعض السفن التى كانت ذات أشكال مسطحة - بصفة عامة - أكثر من السفن الخاصة بنا وكانت جميعها من السفن الشراعية الحربية التى تستخدم بصفة خاصة فى البحر المتوسط حتى يومنا هذا (٦٨).

المنشآت البحرية

لقد اختلطت الأمور لتوها بالنسبة لى فيما يتعلق بمواقع وترسانات بحرية نافاليا. ويقصد بهذه التسمية أيا منهما. وهاتان المنشأتان متجاورتان عادة حتى إذا ما كانتا متميزتين. والترسانات التى نقصدها كانت مخصصة لخدمة البحرية

وكانت تحتوى بلا شك على العتاد والأشياء الأخرى الخاصة بتسليح السفن. ويتعين - وفقا للمعنى الذى اتبعه استرابون - أن نعتبر هذه المنشآت من ذات النوع الممتد فى الميناء الكبير حسب نفس الاتجاه فى الشمال الشرقى بدءًا من الرصيف الكاسر وحتى المكان الذى يطلق عليه العالم الجغرافى "Apostases"(١). وأنها ربما كانت تضم أيضًا هذا المكان الأخير. وكلمة "Abscessus" التى تعنى حرفيًا "نوعًا من العزلة" تشير إلى أنه كان أكثر الأماكن ملائمة لإيواء السفن بل حتى كان يحتوى على قوالب أو أحواض مغطاة لإمكانية إصلاح هذه السفن بسهولة فى كل الأوقات. والمساحة التى يطلق عليها الآن "الساحة" (٢) وتلك التى تليها فى اتجاه تجويف السور العربى تبدو بشكلها المسطح وقد غطتها الرمال دون وجود أطلال صلبة وفى مكان متقدم على الشاطئ القديم للبحر كما لو كانت بقايا هذه الأحواض التى تسدها (٦٩). ويمكن اعتبار منشآت أبوستاز كما لو كانت تابعة للترسانات ومواقع العمل البحرية.

الوكالة التجارية

يأتى الحديث عن السوق بعد الانتهاء من تناول منشآت أبو ستاز. ويطلق عليه استرابون اسم (الوكالة التجارية) أو السوق ذات الجودة العالية كما لو كان الوحيد من نوعه. والحال أنه كانت هناك أسواق أخرى عادية فى مدينة على مثل هذا الاتساع للاستخدامات العادية اليومية. واستنتج أن هذه الوكالة كانت أساسًا لبيع المنتجات التجارية البحرية. لقد كانت مثل أسواق المال الحديثة لدينا، وبالإضافة إلى ذلك وأيا كانت هذه المنشآت سواء مجرد بورصة أو سوق عادية فإن الوكالة التجارية كانت موجودة فى مكان مناسب تمامًا فى هذه النقطة بين الميناء الكبير ووسط محيط المدينة التى كان الميناء على اتصال سهل بها هى والبحر على السواء (٧٠).

---

(١) بعيدًا وعند المحطة الثانية .

(٢) انظر لوحات الدولة الحديثة، اللوحة رقم ٨٤ .

المسلتان ـ قيصرون

توجد المسلتان[1] فيما بعد وبالقرب من المكان الذى تكهنت بأنه كان مكان الوكالة التجارية.

وقبل الوصول إلى هناك بقليل يوجد على شاطئ البحر فى اتجاه عمق الميناء وبطول الأسوار العربية أطلال من مختلف العصور نالت منها الأمواج وتسببت فى تشوه أشكالها. ويمكن أيضًا أن نميز هناك بعض الأعمدة المتصلة بطريقة أفقية وترتفع قليلا فوق مستوى الماء لتعطى صورة البطاريات الحربية (٧١).

ويقول الأجانب: إن الرحالة المحدثين أطلقوا على هاتين القطعتين الكبيرتين أحاديتى الحجر "مسلتا كليوباترا". ويذكر فى هذا الصدد أن اسم وتاريخ هذه الملكة الشهيرة يوجد فى كل مكان وفى متناول الأوروبيين الأقل تعليمًا وقد بدا لهم أبسط وأسهل أن يعزوا إليها كل ما تبقى من أطلال ملحوظة فى الأسكندرية (٧٢).

وجدير بالذكر أن إحدى هاتين المسلتين قد سقطت أما الأخرى فلا تزال قائمة. والاثنتان مكونتان كما هو معروف من كتلة واحدة من الجرانيت الوردى المصرى أو الشرقى الموجود فى المناطق المحيطة بالشلالات الأولى[2] وتحملان كتابات هيروغليفية من أعلى حتى أسفل[3] وهذا لم يحدث فى جميع الآثار المتبقية لنا من هذا النوع (٧٣).

ورغم أنه يبدو مستحيلا حتى الآن أن نفهم بطريقة متتالية معنى الشعارات أو العبارات المنقوشة على أوجه هذين الأثرين إلا أنه يمكن على الأقل إبداء بعض الملاحظات عن الأشياء الواضحة ورصد أوجه التقارب بين الأشياء المتشابهة. إذا ما بدأنا بأوجه المسلتين نجد أن هناك تطابقًا يجعل من الأثرين بالإضافة إلى الأشياء المتشابهة التى نلاحظها. كما لو كانا توأمين. فواجهات قمتيهما

---

(١) انظر اللوحة رقم ٣٢ ولاحظ فيها مكان برج الرومان وكذا مصباح اجتذاب الأسماك الموجود فوق الصخور عند رأس اكرولوكياس.

(٢) نلاحظ أيضًا وجود مسلة اكرولوكياس لم ينته العمل بها أو قطع صخرتها فى جبل جنوب أسوان.

(٣) انظر اللوحة رقم ٣٣، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

الهرميتين منقوشة، على إحداهما رسومات مزينة من طراز الرسومات الأترورية ولكنها ربما تكون هيروغليفية حيث إننا نجدها مع بقية الكتابات الموجودة على المسلتين. أما واجهة المسلة الأخرى فهى مليئة برسومات دينية[١] وتحمل كل من المسلتين ثلاثة صفوف طولية من النقوش تتطابق مع بعضها من حيث توزيع المجموعات أو الأطر. وغالبًا ما يشمل التطابق و التشابه أيضًا الأشخاص أنفسهم وليس فقط المجموعات. ويذكر أن هذا النوع من الكتابات أو اللوحات تتوازى بعضها مع بعض فى الوضع الأفقى من عمود لآخر. وتحت القمتين الهرميتين مباشرة يلاحظ فى كل مكان وجود ثلاثة صقور مغطاة الرأس بنفس الطريقة وأسفلها ثلاثة أطر متوازية الأضلاع حيث يوجد الثور والمذبة وأوزوريس وحورس أو وجوه مختلفة للآلهة الجالسة ولها رءوس مختلفة لتلعب دورًا يكاد يكون متشابهًا. ثم نرى بعد ذلك ثلاث مجموعات من الرسومات الأترورية ثم ثلاثة جعارين باسطة أجنحتها ومتشابهة تتوسطها بعض الصولجانات أو بعض السيوف. وبعد ذلك يوجد فى كل مكان ستة أهلة وتحتها تتكرر الأطر المستطيلة فى وضع أفقى لتستدير عند الزوايا وتتشابه الأطراف الأربعة لكل وجه تمامًا إذا ما أجدت التعبير. بعد ذلك يبدأ التشابه من حيث المجموعات أو التفاصيل فى الاختفاء فى الاتجاه الأفقى، نعود ونجده فى مكان أسفل قليلا فى الأطر الأربعة متوازية الأضلاع المستديرة والخارجية التى نلاقيها فى الاتجاه الرأسى ثم بعد ذلك فى الصفين التاليين من نفس النوع فى اتجاه القاعدة.

ونلاحظ أن الثلث الأول من طول المسلتين يكاد يتشابه تمامًا من حيث اتجاه النقوش كما يتشابه تمامًا بلا شك من حيث الموضوع العام للكتابات الظاهرة.

ويمكننا الآن عمل ملاحظات مماثلة بين الواجهتين المليئتين بالنقوش لكل مسلة منفصلة ثم بين المناطق العمودية الثلاث على واجهة واحدة، فنلاحظ كلا منها أولا فى الإتجاه الرأسى ثم الاتجاه الأفقى وسنجد بلا شك مزيد من

---

(١) النقش فى القمتين الهرميتين ولاسيما وجود لوحات القرابين يعتبر شيئًا لافتًا للنظر، ولم نلاحظ ذلك على المسلات الأخرى التى لها نفس القمم الهرمية.

الأشياء ولكن يكفى وضع القارئ على الطريق. ويمكننا أن نستخلص من النظرة الأولى التى ألقيناها لتوّنا هذه النتيجة العامة، وهى أن تماثل وتناسق المجموعات يقل فى الاتجاه الرأسى وكلما انتقلنا من مسلتين إلى واحدة، ومن واجهاتها الأربع التى يتم فحصها أفقيًا إلى اثنتين منها، ومن اثنتين إلى واحدة، ومن الصفين الطوليين المتطرفين فى الواجهة الواحدة، وبعقد مقارنة بينهما معًا ثم مواجهتها مع الصف الأوسط نصل إلى ذات النتيجة. وفى النهاية، فإن التفصيلات تتنوع بنفس الترتيب وفى نفس العمود أى أنه حينما يكون هناك أشياء كثيرة متشابهة أو متماثلة متقاربة فإن التشابه والتماثل يسود فى الاتجاه الأفقى. ويبدو لى أنه - وفقًا لإطارات اللوحات الصغيرة وتسلسل أشياء كثيرة فى الاتجاه الرأسى والخلل الذى تمثله فى التتابع العددى فى الاتجاه الأفقى والشكل العام للرسم - أن هذه الأنواع من الكتابات تتم قراءتها فى اتجاه النزول لكل عمود، وإنه يمكن أن نقيم فى نفس الوقت علاقة مؤقتة بديهية أو تناسقية بين جميع المجموعات المأخوذة على شكل أفقى ولاسيما بين الإطارين المتطابقين للمناطق الخارجية، ولكننا نستطيع أن نتمكن من القراءة حتى فى مجموعة منفصلة فى الاتجاه النازل دائمًا (٧٤).

وتجدر الإشارة إلى أن هذه النتائج العامة تتفق واتجاه التفكير البشرى فى أى تكوين أو تصنيف للأشياء. ولإبراز هذه الملاحظة بصورة أقوى سأقدم تفسيرًا افتراضيًا لذلك. سأفترض أنه أريد أن يتم فوق المسلتين رسم موضوع دينى يتعلق بالفلك؛ على سبيل المثال التعبد للشمس أو الإشادة بأوزوريس... إلخ، وأن كلا من العمودين المكونين من كتلة واحدة معًا يشكلان الموضوع بأكمله. ويعتبر كل عمود منفصل بمثابة فصل كبير فى الكتاب وينقسم إلى أربعة أجزاء رئيسية مطابقة لعدد واجهاته. وينقسم كل جزء من هذه الأجزاء إلى ثلاثة أعمدة يوجد بين أولها وآخرها علاقة تناسقية أدق من تلك الموجودة مع قطاع الوسط. وأخيرًا تنقسم هذه القطاعات إلى أطر أو مجموعات تشبه الفقرات فى هذا الجزء الرابع، وتنقسم المجموعات بدورها إلى عدة أفكار وشعارات متساوية أو عدد من الجمل المحتوية على شعارات جماعية وإشارات للأفكار والكلمات بالحروف الهيروغليفية (٧٥).

ويذكر فى هذا الصدد أن مؤلفى هذا النوع من الكتب قاموا بعمل مثل هذا التناسق فى توزيع المواد التى تتناولها مختلف فصول الكتاب وأبوابه أو تقسيماته حتى ينتج هذا التناسق فى الرسم الذى أشرت إليه فيما يتعلق بالوضع الأفقى.

ويمكن أن نتصور الآن كيف تمكن الكهنة والعلماء والفنانون. بنوع من العناية مع التحلى بروح من النظام والتحليل لافتين للنظر بين قدماء المصريين[١] من الاتفاق للخروج بهذا النوع من اللوحات الشاملة التى جعلوا منها لوحات متناسقة من حيث اتساع نطاق الأفكار والكتابات وبالتالى فى رسم الشعارات. ويمكن أن نتصور أيضا كيف تمكنوا من تطبيق نظام مماثل للتوزيع المنهجى ليس فى مجال الدين والفلك فحسب ولكن فى أية نظرية أخرى وفى مجال الأخلاق والتشريع والطب وحتى فى تصنيف التاريخ الطبيعى أو المكتبات... إلخ. ولكننى أعتقد هنا أن موضوع الكتاب فلكى ودينى بصفة خاصة ومرتبط بالزراعة وبالتالى بنظام الرى من النيل. فطيور العقاب والجعران والثور والجوزاء وأبو الهول والقرود والقمر أو الأرض أو رمز التناسل والأدوات الزراعية ورمز الماء وزهرة اللوتس والتمساح وأبو منجل والبط والثعبان... إلخ. كل هذه الرموز والرسومات تشير إلى ذلك بوضوح. وتقسيم الأساطير فى كل مسلة على أربع واجهات وفى اثنى عشر قطاعًا قد يكون له أيضا علاقة بالفصول الأربعة وبشهور السنة الاثنى عشر.

وإذا ما كانت كل الرموز قد رسمت بصورة جيدة جدًا، وإذا ما كانت الأشياء المألوفة التى تمثلها معروفة تمامًا بالنسبة لنا بحيث يمكن أن نسميها، فإننى أعتقد بأنه يمكن قراءة الكتابات الأربع والعشرين أو على الأقل التعرف على معناها التام بأى ملاحظة من تلك التى عرضتها للتو. فالإلمام حتى غير التام بأصل الآلهة والعلوم والفنون والقوانين والعادات فى مصر يكفى لبلوغ هذا الهدف الأخير. والأمر الذى يدل على ذلك هو أن المغزى العام للغاية الذى افترضته لهذه الأساطير غير الكاملة يبدو غير قابل لأن يكون محل اختلاف، فقد أدهشنى شخصيًا منذ الوهلة الأولى.

---

(١) يذكر أن التناسق الجميل لتخطيطاتهم المعمارية وتوزيع رسوماتهم الزخرفية والمنقوشة والتنفيذ الفنى للوجوه ذاتها، كل ذلك يدل على هذا الذهن النظامى بين الفنانين والمصريين الآخرين على السواء.

ويذكر أن كافة هذه الكتابات الهيروغليفية منقوشة بطريقة بارزة داخل تجويف، وهو موضع نظيف جدًا لحفظ ما هو منقوش. ومحفوظ بصورة سليمة.

والمسلة القائمة[١] يصل ارتفاعها إلى ثلاثة وستين قدمًا (٤٦ , ٢٠ مترًا) بدءًا من الزاوية المقطوعة الموجودة فى قاعدتها حتى القمة الهرمية التى تعلوها ويبلغ عرض جانبها سبعة أقدام وثلاث بوصات تم قياسه عند نفس النقطة من القاعدة. ويذكر أن أضلاع هذه المسلة سليمة كما أن الطلاء المغطى للجانبين الغربى والجنوبى فى حالة جيدة إلى حد ما. ومن جهة أخرى يحتمل أن يكون هذا العمل. الذى يعد بلا أدنى شك أثرًا مصريًا. قد حظى على أيدى الفنانين المصريين بنفس درجة الإتقان التى حظيت بها الآثار المختلفة الموجودة فى أماكن أخرى. إلا أنه رغم ذلك ظهرت عليه علامات ومؤثرات الزمن. فالكتابات الهيروغليفية الموجودة فى الجانبين الشمالى والشرقى المطلين على بحر الميناء الجديد تكاد تكون قد مُحيت تمامًا ولهذا السبب لم يمكن رسمها ولكن أمكن فقط أخذ قطعة كاملة من منتصف ارتفاع هاتين الواجهتين (٧٦).

ولايتضح من خلال الرسومات أنه قد تم تقصير قاعدة المسلة. إذ يتوقف أحد النقوش عند الجزء السفلى مثل تلك الموجودة فى الأقصر. والواجهات ذات عرض غير متساو وهو مالم نلاحظه فى الآثار الأخرى من هذا النوع[١] ويقدر هذا الفارق بـ ١٢/١ من العرض.

ويذكر أنه فى اليوم الحادى والعشرين من شهر الحصاد للعام السادس من التقويم الجمهورى (التاسع من يوليو عام ١٧٩٨) كانت هناك عمليات تنقيب لمسافة ١٢ أو ١٥ قدمًا تحت المسلة القائمة مما أتاح إعطاء الرسومات الكاملة بها. فقد تم العثور على كتلة رائعة من الجرانيت تثبتها، يبلغ ارتفاعها مترين (ستة أقدام وبوصة واحدة) وعرضها مترين وسبعة وثمانين سنتيمترًا (ثمانية أقدام وعشر بوصات). وهذه الكتلة يدعمها ثلاث صقالات من حولها. ويلاحظ

---

(١) باستثناء مسلة الفيوم الفريدة التى يبلغ حجم أحد جوانبها ضعف حجم الجانب الآخر.

أن قاعدة المسلة مكسورة من أسفل مثل قاعدة المسلة المحطمة وربما يكون لنفس السبب، إلا أن الكسر فى زواياها زائد. وهذه القاعدة المستديرة بصورة غير منتظمة مثبتة على كتلة الحجر بنوع من الحجارة لتعويض وسد الأجزاء الناقصة ليعطى للمسلة استقرارًا. أما عن درجاتها فهى مصنوعة من الجرانيت ومبنية على الطراز القديم ولايوجد أى أثر لهيروغليفيات إلا على الجزء المكعب. وتبدو الأحجار الخارجية أكثر حداثة. كل هذه الصفات تدل على أن قاعدة المسلة نحتت فى عصر البطالمة فى هذا المكان الذى سنرى أنهم خصصوه لبنائها. ويمكن أن يكون هذا العمود المنحوت من حجر واحد قد انقلب مثل الآخر ثم أعيد رفعه على يد العرب أو الإغريق فى عصر الإمبراطورية الرومانية بعد أن وجدوا أساساته جاهزة ولكن قاموا ببناء الشكل الخارجى الذى لم يكن القدماء ليتركوه ظاهرًا بالتأكيد كما نراه. كل ذلك يفسر التغييرات التى تمكنوا من فعلها فى قاعدة المسلة ولماذا لا تظهر الفجوات الأربعة المربعة التى سنتناولها بعد قليل... إلخ. ولقد رأينا فى الأقصر أن القدماء المصريين الذين اقتبس منهم البطالمة هذه الآثار كانوا يقيموها على قاعدة متوسطة الارتفاع. لقد كون الملوك الإغريق هنا قاعدة على طرازهم الخاص وقاموا بتكييفها على الاستخدام والعمل اللذين خصصوا من أجلهما المسلة أحادية الكتلة.

ورغم أننا لم نتحقق ما إذا كانت الصقالة السفلى هى آخر كل شىء - الأمر الذى كان ليحدد لنا مستوى أرض المدينة فى هذا المكان فى زمن محدد أو يوضح لنا كثيرًا من الأسئلة الجوهرية الخاصة بكل مايتعلق بهذه المسلات - نجد على الأقل أن هذا المستوى كان أقل بكثير من مستوى الأرض الحالى فى المدينة العربية(٧٧).

كانت المسلة المحطمة[1] - حينما وصلنا - لها قاعدة مكسورة ومدفونة إلى نصفها من الطرف الكبير الذى يبدو أن طوله يصل إلى ١٨ قدمًا. وساد الاعتقاد بعد عمليات البحث والتنقيب التى أجريت أنها كانت لها نفس أبعاد المسلة السابقة. وكانت مزينة بكتابات هيروغليفية ولكنها كانت أقدم منها. وكان ارتفاعها

---

(١) الشكلان ٣، ٥ .

يصل إلى ثمانية عشر مترًا واثنين وخمسين سنتيمترًا (سبعة وخمسون قدمًا) بدءًا من القاعدة حتى القمة الهرمية، وهذه الأخيرة كان ارتفاعها مترين وعشرين سنتيمترًا (٧ أقدام) ليصل الطول الكلى للمسلة إلى ثلاثة وستين قدمًا وثمان بوصات وهو أقل طولا من المسلات الموجودة فى طيبة وبعض مسلات روما.

واعتقد الرحالة أن هذه المسلة مكسورة ولكنها ربما كانت محطمة عند القاعدة ولكن فى جزء صغير، إذ يتضح ذلك فى الواجهة رقم ٢ من الطريقة التى تنتهى بها الرسومات الهيروغليفية أسفل العمود. وهذه الواجهة وبالتالى جسم العمود (كما هو فى المسلات الموجودة فى الأقصر) لايمتد أكثر من ذلك. والتشابه مع المسلة الأولى الذى سبق ولاحظته والناجم عن عدم استواء الواجهات يدعونى إلى الاعتقاد بأن هاتين المسلتين تتشابهان فى الطول وأنهما مأخوذتان من مبنى واحد فى مصر العليا كانتا قد صنعتا خصيصًا له.

ويذكر أن الجوانب الأربعة للمسلة الراقدة مكسورة. والسبب أنه يلاحظ وجود أربعة شقوق مربعة فى الأركان الأربعة نرى فيها قطعة على شكل مثلث قائم الزاوية فى الشكل رقم (٣). ولايوجد شك فى أنه كانت هناك مسامير للتثبيت أو أدوات ربط يرجع أنها كانت قطعًا معدنية مثبتة فى القاعدة وأن هذه الفراغات الأربعة كانت مخصصة لكى توضع فيها. وهكذا نرى أن المسلة الموجودة فى ميدان الخيل فى القسطنطينية مثبتة بأربعة مكعبات من البرونز. ونرى فى وصف بلينى أن المسلة البالغ طولها ثمانين ذراعًا التى شيدها فيلادلفوس فى الأسكندرية تكريمًا لأرسينويه (٧٨) وشقيقته وزوجته، كانت موضوعة فوق ستة مكعبات منحوتة فى ذات الجبل. وحينما تم الإطاحة بالمسلة رقم ٣ و ٤ تسببت هذه الدعامات فى تناثر أحجار الزوايا الأربع أو ربما يكون قد تم كسرها للتخلص من هذه الدعامات وتسهيل عملية سقوطها، أو ببساطة للتمكن من رفع المعدن. وهذا الأثر لم يلق نفس مصير المسلة السابقة أى أن يقوم العرب برفعها، ولهذا تعتبر زوايا قاعدته محفوظة فى حالة أفضل من زوايا المسلة الأخرى.

ولم يتم التنقيب بالنسبة لهذه المسلة فى وضع تناسقى بالنسبة لقاعدة المسلة الواقفة. وكان من المحتمل العثور على قاعدتها الخاصة. وكان يمكن الخروج من

هذه العمليات بمزايا أخرى ولاسيما اكتشاف محور المبنى الذى كانتا تزيناه ولكن الوضع العكسى لقاعدتها يمكن أن يساعد على التعرف على هذا الخط.

وما ذكرناه من كسور وتلفيات فى هاتين المسلتين أثناء وضعهما فى هذا المكان يدل على أنهما لم تكونا مصقولتين فى هذا الوقت، وأنهما كانتا مأخوذتين من بعض الآثار المصرية القديمة. وما حدث بعد ذلك يدل على أن أهالى الأسكندرية والبطالمة والرومان وحتى الإغريق فى أحلى عصور فنونهم لم يقوموا باستغلال أو نحت هاتين المسلتين وأنهم قد أخذوها جميعًا من عصر سعيد مثلما فعل أباطرة الرومان فى روما والقسطنطينية. أما بلينى الذى يقدم أصل العديد من المسلات التى كانت موجودة فى عصره فى مصر وفى روما فهو لا يحدد إطلاقًا المكان الذى أخذت منه المسلات الموجودة فى الأسكندرية. ويكتفى بالقول بأنها قد أخذت بناء على أوامر الملك "مسفى" ولا يمكن أن تختلط معها المسلات الأخرى المكونة من كتلة واحدة التى تحدث عنها. ورغم أن هذا الاسم لا يوجد حرفيًا فى القائمة غير التامة والمشوشة لملوك مصر القدامى، فمن المؤكد أن هذا الملك كان يحكم قبل أن توجد مدينة الأسكندرية (٧٩). وهذا يؤكد أن البطالمة لم يقطعوا هذين الأثرين وأن المسلات بصفة عامة (وبصفة خاصة تلك التى تحمل كتابات هيروغليفية رائعة) هى عبارة عن نوع من الأعمال الخاصة بالقدماء المصريين.

ويصف بلينى الأساليب التى استخدمها فيلادلفوس لنقل إحدى هاتين المسلتين. وكانت أهمها فتح قناة تصل حتى قاعدة المسلة وتتجاوزها وإدخال زورق تحت الكتلة صنع خصيصًا لذلك أو نوع من القواعد الناقلة المكونة من زورقين ملتصقين يتم ملئهما بصابورة وتفريغهما بعد ذلك لتدعيم المسلة. ويبلغ حجم مكعب المسلة الواقفة فى الأسكندرية ٢٠, ٧٠ مترًا، كما يبلغ ١٨٥ ليبرة ١٢ أوقية ٤ جرو ٥٣ حبة بوزن القدم المكعبة للجرانيت المصرى.

وما أستطيع أن أكونه من أفكار وملاحظات بهذا الصدد عن المشروعات الكبيرة وعن التقدم الذى نفترضه فى مجالات العلوم وفنون الرسم والنحت والفنون الآلية التى كان يبتكرها القدماء المصريون وكذا عن الجد والصبر اللذين كانا يميزان هذا الشعب، كل هذه الأشياء تتراءى إلى الأذهان من تلقاء نفسها.

وجدير بالذكر أن شكل ووصف هذه المسلة ينطق بكل شيء. وهذه الملاحظات تناولها بالعرض أغلب المؤلفين الذين شملت أوصافهم هذا النوع من الآثار. وسأسجل أيضًا الملاحظة بأن المصريين هم الذين أعطوا إلى أمم أخرى فكرة ونموذج تنفيذ مثل هذه المشروعات الجريئة، وأن الأغريق فى الأسكندرية هم أول من قلدوا جزءًا كبيرًا من هذه المشروعات حينما قاموا بنقل مثل هذه الأحمال الثقيلة إلى بعيد واقتبسوا من المسلات طريقة الرسومات الزخرفية فى فنونهم المعمارية. أما عن الرومان القدماء والأوروبيين المحدثين فقد قاموا بنقل كل ماهو عند أهالى الأسكندرية فى مجالى العمارة والزخرفة والفارق أن الرومان أضافوا إليها عمليات النقل الصعبة لهذه الكتل الثقيلة عن طريق البحر (٨٠).

وشكل هذين الأثرين يولد عديد من الملاحظات العامة. وليس ضروريًا أن نشير إلى أن جسم المسلة عبارة عن جذع هرمى رباعى الزوايا شديد الانبساط ودائمًا ما ينتهى بهريم غير ناقص. ولا تخلو على الإطلاق أية مسلة مصرية - حسبما أعرف - من هذه المميزات لهذا النوع من الآثار باستثناء مسلة الفيوم التى تشذ تمامًا عن المعروف. وفى مسلات الأسكندرية يمكن معاينة الأبعاد الرئيسية. وسنرى وقتما نقارن فيما بينها أنها لا تبتعد بطريقة ملحوظة عن بعض النسب التى استنتجتها من دراسة أكبر عدد من المسلات الجميلة المعروفة فى مصر وفى أوروبا على السواء أى أن ارتفاع القمة الهرمية يساوى إلى حد ما عرض القاعدة الذى ينحصر ما بين $\frac{١}{٩}$ أو $\frac{١}{١٠}$ من الارتفاع الكلى. إننا لا نعرف على الإطلاق أبعاد الأجزاء العليا مثل عرض قاعدة القمم الهرمية لتحديد نسبة صغر جسم المسلة ولكننا نستطيع - بعد التأكد من هذه القياسات الأخيرة - استكمال عمليات التقارب التى عقدتها للتو، والتى تساعد على التوصل إلى مقياس للتناسب فى مثل هذا النوع من الآثار الخاص؛ بالعمارة المصرية. إننا لنشعر - بالإضافة إلى ذلك - أن النسبتين اللتين وضعتا ليستا سوى حدود.

وتجدر الإشارة إلى أن الرموز الهيروغليفية الموجودة على هاتين المسلتين يصل عمقها إلى أكثر من بوصة واحدة على الأطراف التى تظهر عليها الخشونة فى الملمس بخلاف واجهة المسلة التى تكون مطلية (٨١).

ويقـول بلينـى إن الشكل الذى وصـفناه هو عـبـارة عن شـعـار لشكل أشـعـة الشـمس وأن كلمة مسلة كانت تعنى ذلك فى اللغة المصرية القديمة. ويضيف أن هذه الآثار كانت مخصصة لتأليه هذا النجم مؤكدًا أن الكتابات التى كانت على آثار أغسطس فى سـاحة الألعاب الكبرى وفى حقل مـارس كانت تضم شـرحًا للطبيـعة وفقًا لفلسفـة المصريين. وحينما كتب بلينى ذلك كان قـد تم لتوّه نقل هاتين المسلتين إلى روما حيث تمت ممارسـة الطقـوس المصرية الخفية. ففى الوقت الذى تم أخذ هاتين المسلتين من مصـر كان مذهب البلد فيما يتعلق بذلك متحفظًا إلى حد ما للإبقاء على التقاليد العامة والشائعة الخاصة بالمسـلات. ويذكر أن علمـاء الآثار قد وضعوا نظمًا مـختلفة لشـرح مـوضوع تلك الآثار وأن الافتراضات الخاصة بها معقولة تقريبًا، ولا نعرف. وفقًا للملاحظة السابقة. لماذا تعتبر حجة بلينى غير مرفوضة؟ (٨٢).

وكان الاعـتقـاد سائدًا بـأن قـدمـاء المصـريين أخذوا جـزءًا من هـذه المسـلات التى كانت مـخصـصـة لدراسـة حـركـة الشـمس لتسـجيل تحـركـات هذا النجم عن طريق الظل. ولا يؤكد أى شىء فى مـصـر هذا الرأى الذى خـرج من رومـا. ولكن من المؤكد أن البطالمة القـدمـاء الذين كـانوا أول من قـام بمحـاكـاة المصـريين فى ذلك، والذين كانوا أصحـاب مدرسة بارعة فى علم الفلك قد بعدوا على العكس عن هذا المجال كثيرًا حينما بالغوا فى ارتفاع الشكل السفلى لمسلات الأسكندرية، التى لا تظهر على نقطة انطلاق أفقية فى الجـزء السفلـى (٨٣).

ويقـول بلينـى:إن "مـسلتى مـيـسـفى" مـوجـودتان فى الأسكندريـة بالقـرب من الميناء فى مـعـبـد القـيصـر. وليس هنـاك شك فى أن تكون هـمـا تلك المسلتـين الموجودتين حاليًا. فكل ما تقوله عنهما يتعلق بالأماكن التى ندرسـها سـواء من حيث عدد هذه المسـلات ومجاورة الميناء الكبير ومعبد قيصـرون الذى يضمه استرابون فعليًا فى هذا المكان، وأخيرًا يأتى ارتفاعها الذى يصل إلى ٤٢ ذراعًا وفقًا لما يرويه بلينى.

وبعد هذه الجولة الطويلة بين الأطلال التى تكاد تكون مطموسة، نجد فى هذه المسلات أثرًا جميلاً شاملاً لا يزال موجودًا فى مكانه فى هذه المدينة التعيسة. ولكن لا يمكن التعرف بتأكيد على أى شىء من معبد قيصر. إذ يلاحظ على بعد بضع خطوات وعلى شاطئ البحر بعض الأطلال المشكلة لقاعدة منشأة عربية وتابعة لمبنى إغريقى أو رومانى حيث نرى بعض تيجان أعمدة متشابكة على الطراز الدورى للعمارة الإغريقية ترتفع جذوعها من قاع البحر. هذا كل ما يمكن أن نعزيه إلى معبد قيصرون. ولا يوجد حتى أى رسومات تصف هذا المعبد ولكن يجب التخمين أن محوره كان يتجه من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى بين قاعدتى المسلتين[1] أى أن مدخل المبنى كان يتجه إلى البحر حتى يمكن رؤية المسلتين من بعد أو كان مفتوحًا من ناحية المدينة، وأن الجزء السفلى من المعبد كان يتجه ناحية البحر. هذا الاتجاه يتلاءم تمامًا مع أرض المعبد والآثار الموجودة والمساحة الخالية (٨٥).

وتجدر الإشارة إلى أن معبد قيصر كان موجودًا منذ عهد استرابون الذى قضى ٣٢ عامًا فى ظل إمبراطورية أغسطس. وقد يرجح أن أنطونيو نصير وصديق قيصر اضطر إلى تشييده بالاشتراك مع كليوباترا التى كانت عشيقة كل منهما أو على يد أوكتافيوس ابن أخيه ووريثه وخليفته فى الإمبراطورية. ويذكر أن أنطونيو وكليوباترا قد تمكنا من القيام بهذا العمل خلال فترة حبهما الطويلة فى الأسكندرية حيث مضت ١٣ عامًا منذ وفاة قيصر وهو الوقت الذى أصدر فيه المجلس الرومانى قرارًا بتكريم هذا الرجل العظيم بوصفه إلهًا حتى عصر كل من أنطونيو وكليوباترا (٨٦).

ومع ذلك يبدو أنه يوجد لدى العرب فى النطاق العربى جزء من بقايا هذه المبانى الجميلة المحيطة بالميناء الكبير كما يظهر من وضع الأسوار والأطلال.

يذكر أن معبد قيصر قد خضع لهذا التصرف مثلما يظهر من وضع هاتين المسلتين.

---

(١) انظر هاتين القاعدتين فى اللوحة رقم ٨٤ المجلد الثانى، الدولة الحديثة.

البرج المسمى برج الرومان

لقد سبق ودخلنا مرات عديدة فى النطاق العربى الذى سنوضح فيما بعد كل ما يتعلق به فى مكانه، وبعد الانتهاء من الجولة الخاصة بالميناء الجديد والمنطقة البحرية للأسكندرية القديمة حتى لانحول الأنظار تجاه هذا البناء الهائل حقًا والذى لا يعدو كونه تعديلا عرضيًا وعابرًا لهذه الآثار. بيد أننا لا نستطيع أن نمنع توقف نظراتنا منذ الآن على برج كبير[١] يعتبر جزءًا من هذا النطاق نلتقى به بالقرب من المسلتين ومعبد قيصرون.

ويقع هذا البرج فى الزاوية البارزة الناجمة عن التقاء مقدمة البحر تلك التى ترتد فى الجنوب الشرقى. وهذا البرج على شكل مستدير تمامًا ويبدو متلاحمًا عند القاعدة مع أساسات نظام التحصين القديم حيث ترتفع ـ على جزء منها ـ الأسوار العربية التى تنتهى فى هذه النقطة. ولكن البرج يرتبط ـ من الجانب الجنوبى الغربى ببناء ضخم[٢] يبدو أقل قدمًا ولكنه أقدم بلاشك من المنشآت الشرقية العربية.

ويتكون البرج من ثلاثة طوابق داخلية (إذا ماحسبنا الدور الأرضى طابقًا) تغطيها قبة صغيرة بها تجويف غير عميق من فوقها[٣] ويوجد طابق ثالث خارجى يحميه درابزين مرتفع. وجدار الطابق الأرضى به ثقوب فى كل مكان حول التجويفات العشرة المليئة بالفتحات. والقبة الصغيرة التى تغطى الطابق مفتوحة من الوسط وتبدو مجوفة بسبب تسطحها الشديد[٤]. ولا نرى سوى النتوءات التى تنتشر حول المبنى والتى تعتبر ممرًا لهذا العدد الهائل من التجويفات والفتحات التى تزين الجزء العلوى أو الطابق الثانى. وحتى لو كان هذا الشكل قد صنع خصيصًا أو عرضًا فإننا لانصادفه فى أى من الأبراج الكثيرة فى النطاق العربى.

---

(١) انظر المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة، اللوحتين ٣٢ و٣٥، وانظر أيضًا، المجلد الثانى من لوحات الدولة الحديثة، اللوحة ٨٨.

(٢) الشكل رقم ٣، اللوحة رقم ٣٥، a, b, c .

(٣) الشكل رقم ٤ .

(٤) الشكلان رقم ٧ ، ٩ .

ويوجد داخل وحول هذا البرج كثير من عقد القباب على شكل صورة عقد كامل أو أفاريز مسطحة وحوائط وأفاريز قديمة ونوع من الأعمدة المتشابكة الدورية التى تتوجها مجموعة نتوءات تكون تاج العمود لهذا النظام(١). والبرج فى مجمله له شكل جميل إلى حد ما يبدو قديمًا أكثر منه عربيًا كما أن بناءه المطعم بالطوب الأحمر لا يعطيه الشكل الرومانى. ويتعين أيضًا ملاحظة الواجهة التى يعلوها أفريز جميل من الجانب ومداميك من الأحجار الجميلة يصل ارتفاعها إلى حوالى متر واحد تقريبًا(٢) وترتيب الأحجار فى هذا البرج وكذا فى ملحقاته يعتبر منتظمًا وقويًا وجميلاً، وكتل الحجارة ممسوكة جنبًا إلى جنب بدعامات حديد، وتم فتح نوافذ فى جدار الحافة الخارجية دون المساس بأحجاره ولكنها ظهرت دون ترتيب من الخارج مما يدعو إلى الاعتقاد بأن العرب الشرقيين أضافوا لمسات وعدلوا من التوزيع الداخلى للأحجار. وتتأكد هذه الفكرة بفحص القبة العليا المكونة من كتل صغيرة أقل جمالاً من بقية القباب. والحجارة التى تغطى الشكل الخارجى وجزء من الشكل الداخلى للبرج كلسية مسكوكية. ويذكر أن العرب أو الأتراك قاموا باستبدال الأحجار السيئة بغيرها باستخدام الجبس أو الجص. ويذكر فى هذا الصدد أن كسر هذه الأحجار الذى عرفه القدماء فقط - فيما يبدو - أو استغلوا محاجره كما استخدم العرب الكتل الناتجة عن التكسير، عبارة عن أحجار بيضاء جميلة للغاية مرصعة بكريستال صغير ومعادن متبلرة. ولكن أكثر مايلفت نظر المرء هو ترابط وتلاحم أجزائه الذى يعكس عديد من الأشكال المتشابهة لشكل حبة العدس أو شكل القطع المعدنية الصغيرة كلها موضوعة بطريقة غير منتظمة فيما بينها - الأمر الذى دعى إلى تسميته بحجر مسكوكى أو عدسى الشكل (٨٧).

ويطلق الجميع على هذه الأثر برج الرومان وفقًا لشكل معين يتخذه وفارق كبير إلى حد ما عن الأبراج الأخرى الموجودة فى النطاق العربى(٣).

---

(١) الشكل ٣، ٢، والشكل ٩ .

(٢) الأشكال ٢، ٥، ٦ .

(٣) لكى تلمس هذا الفارق يمكن مقارنة المناظر بما ورد فى المجلد الثانى من لوحات الدولة الحديثة، اللوحات من ٨٥ إلى ٩٩ مع المنظر الموجود فى اللوحة رقم ٣٥.

ورغم ذلك فإن هذا الرأى لا يقوم على أسباب ودواعى محددة سوى من خلال تلك البواعث. وبادئ ذى بدء فإن هذا البرج لايحتوى على هذه النسب الدقيقة أو البارعة التى أدخلها العرب أو الإغريق على المبانى العامة وحتى فى العمارة العسكرية، فهو على النقيض ذى أشكال سميكة وقصيرة كانت شائعة لدى الرومان حتى فى المبانى الفاخرة. فالعقد الكامل والأفاريز المسطحة والنتوءات والأعمدة المتشابكة وأشياء أخرى من هذا القبيل نجدها تجعل منه نقيضًا مع الأبراج الأخرى الموجودة فى النطاق العربى حتى مع تلك التى يبدو مظهرها على شكل يونانى من الإمبراطورية الرومانية وهو بالتأكيد ليس بعربى. فلا نجد فيه هذه الأعمدة الأفقية الموجودة فى الأبراج الأخرى وعقد القبة وهذه الموجودة فى الطابق الأول التى تحتوى على ثقوب أو التى قاومت النتوءات فيها مقاومة شديدة والقبة الصغيرة المجوفة قليلا فى الواجهة الثانية الموتورة لا توجد أيضًا فى مكان آخر. فلا نرى فى النطاق العربى سوى عقود مقوسة بها زخارف ناتئة كالعروق العالية وأقواس ودعامات سقف وعقود وزوايا بارزة وحلقات وعقود نصف دائرية. وإذا لم يكن هذا البرج عربيًا فلا يوجد ما يدعو لتشبيهه بما هو إغريقى.

ويبدو أن الاسم الذى أطلق عليه كان موضوعًا فى محله حيث إنه ينتمى إلى جزء من النطاق العربى ويبدو - بالنسبة لوضعه - والشكل الذى يأخذه الشاطئ المتآكل من اليمين والملىء بالرمال من اليسار والمنشآت المتعددة الأنواع والعصور التى أعيد بناؤه فوقها أنه يمثل جزءًا من شاطئ البحر القديم وقد احتفظ العرب الشرقيون ظاهريًا بهذا البرج فى ساحة التدريب الخاصة بهم وخصصوه للدفاع عن المدينة. لقد قلنا خصصوه لأنه كان يمكن أن يكون أصلا تابعًا لمعبد قيصرون كما لاحظت (٨٨).

ويلاحظ أسفل برج الرومان وعلى شاطئ البحر وعلى ارتفاع قليل جدًا فوق الماء بقايا ممر مبلط من هذا الحجر الذى يطلق عليه البازلت. وسنجد آثارًا لمبنى أقيم بعد ذلك على أرضية من الأطلال. ومما لاشك فيه أن هذا ماهو إلا استكمال لسلسلة اتصالات نيكروبوليس وكانوب وبقايا المضيق الشرقى مع الأسكندرية فى العصور القديمة وكلما أظهرت المدينة وضواحيها تغييرات كلما طرأت تعديلات مطابقة على طرف هذه السلسلة.

نبذة عن آثار بقايا شواطئ الميناء الجديد

لقد نحر البحر كثيرًا أنقاض حدود الميناء الجديد ابتداء من برج الرومان حتى رأس لوكياس عند الامتداد الحالى لهذا النتوء والأرصفة التى كانت تتقدم فيما مضى أبعد من ذلك تحت الماء، بحيث نجد فى كل مكان من هذا الساحل فوضى كبيرة فى الأنقاض الأثرية الضخمة بحيث يصعب عرض نبذة عامة عنها هنا قبل تحديد تلك التى يمكن التعرف عليها ولو بصعوبة. وتوجد أساسات هذه الأنقاض فى أماكن كثيرة على مسافات كبيرة تحت سطح الماء، كما لاتزال هناك كمية كبيرة منها فى البحر وكثيرًا ما يستخرج منها أعمدة غاية فى الجمال. وتوجد على الشواطئ كتل مشيدة بالطوب جدرانها الداخلية مطلية بالأسمنت وبها على كل جانب صف من الثقوب لوضع الأقدام عليها والنزول إلى القاع. والقنوات المؤدية إلى هذه الخزانات تجعلنا نفترض أن هذه الخزانات كانت لاستخدام المنازل الخاصة - كما يقول هيرتيوس - والقصور وغيرها من المبانى التى كانت تغطى هذا الشاطئ.

وأغلب الأبنية المتراكمة والأساسات مصنوعة من الطوب وقد التحمت بملاط عالى الجودة حتى أن هناك جوانب ضخمة منها قد قلبها البحر مدمرًا بذلك الشاطئ ويستمر يضرب فيها دون انقطاع منذ قرون ولاتزال سليمة تمامًا. وفى كثير من هذه الأنقاض نلاحظ وجود بلاط مما كان يستخدم فى المساكن، وأحواضًا نصف دائرية، وأشكالاً أخرى متنوعة تحيط بها جدران سميكة. كما يوجد نوع من الخزانات ذات عرض غير متساو عند الأطراف كما لو كانت توابيت حجرية أو أغلب الظن مغاطس يبلغ طولها حوالى مترين وكان معها نوع من الجرار يبدو أنها كانت تستخدم فى تزويد الخزان.

وهناك أيضًا على الحافة العلوية لكل هذا المنحنى - ونجدها مشطورة عموديًا اليوم - أكوام ضخمة من الأنقاض قد تراكمت بصورة عشوائية. كل هذه الأشياء تقابلنا فى ذلك القطاع العمودى والموازى للساحل. ويبين لنا من صغر المجارى، والدرجات، وضيق البالوعات، والأبعاد الصغيرة جدًا للحجرات وعدم تناسبها مع السمك الضخم للأبنية أنه لم يكن هناك خزانات فحسب بل والكثير

من المغتسلات الخاصة المزودة بالماء العذب وبماء البحر. فلا يمكن افتراض أن تكون تلك المغاطس عامة وهى تمتد لتغطى كل هذا الشاطئ المخصص للقصور وغيرها من المبانى المشابهة.

وهناك أمر لافت للنظر فى هذه القنوات، وهو أن انحدار القنوات السفلية يتجه من الأرض نحو البحر. أما القنوات العلوية فكان انحناؤها فى الاتجاه العكسى. والواضح أن الغرض من هذا الوضع كان لتوزيع مياه النيل أو مياه البحر - التى تجلب بالماكينات - فى المغاطس المقامة بين هذه الخزانات ثم لتصريفها بعد ذلك فى الميناء. ولم يكن مستوى مصب القناة السفلية يزيد فى أغلب الأحيان عن مستوى البحر بمقدار ٠,٦٠ م. وهى ملحوظة لاتتفق ورأى أولئك الذين يعتقدون بأن البحر قد انخفض بصورة كبيرة منذ عهد الأغريق وإلا ففيم كانت تفيد هذه القنوات السفلية لو أنها كانت تقع أسفل البحر المتوسط بمسافة ثلاثة أو أربعة أمتار؟ (٨٩).

ومن أهم الآثار التى لاتزال موجودة بطول هذا الشاطئ يوجد منحدر على مساحة كبيرة ويتكون من الحصى والملاط وقد اكتسب من الصلابة مايجعل من الصعب التصديق بأنه لم يكن الصخرة ذاتها. ويبدو أنه لما كان البحر يضرب قديمًا هذا المكان بعنف كما هو الحال الآن، فقد أقيم هذا المنحدر لتخفيف شدته (٩٠). وكذلك نرى كتلة كبيرة من البناء بالطوب تمتد نحو عشرين متر داخل البحر وقد غمر الماء أساساتها المكونة من كتل ضخمة من الطوب المقطوع. ولكن الوضع الأفقى تمامًا للأساس لا يسمح لنا بالتخمين بأن الأرض قد تعرضت للهبوط فى هذا المكان. وفضلاً عن ذلك، فإن حواف هذا المنحى قليلة العمق فى مساحة تمتد إلى أكثر من خمسين متر داخل الماء؛ كل ذلك إنما يؤكد أن البحر كان قد غزا هذه الأرض.

وعلى امتداد هذه المساحة كلها نجد أيضًا الكثير من أنقاض الأبنية التى كانت مصنوعة من الحجر المسكوكى. ومع ذلك فالطوب هو السائد كما يوجد العديد من بقايا الصهاريج على الأطراف الداخلية من الأرض، وصهاريج شبه كاملة بنيت جدرانها وقبابها وأسقفها الداخلية بطوب جميل الشكل يبلغ سمكه

بوصتين. وبعض هذه الصهاريج ليست سوى آبار أسطوانية، والبعض الآخر يقع بالقرب من أحواض لم تغط قط فيما يبدو. وقد رأينا بعض المجارى قد غطى قاعها بطوب بهذا السمك. وهذه الصهاريج مكسوة أيضًا بأسمنت جيرى ممتاز وبطوب مسحوق ويبلغ حجم معظم الطوب الموجود فى المنشآت الأثرية فى الأسكندرية ثمان بوصات مربعة بسمك بوصة واحدة. وهناك طوب آخر ولكن بعدد قليل تبلغ مساحته نحو قدمين، كما يوجد طوب صغير جدًا لا تزيد مساحته عن ثلاث أو أربع بوصات. وتتكون معظم هذه الأبنية من عدة صفوف من الطوب وصفوف أخرى من الحجر الذى يبلغ ارتفاعه ثمان بوصات فقط. وهذه الأعمال مليئة بوجه عام بالكثير من الملاط.

وفى يناير ١٨٠١ بالقرب من شاطئ البحر، بين المسلة ولسان لوكياس، تم العثور وسط أنقاض - لم يكن قد تم التنقيب فيها بعد - على تمثالين من الرخام الأبيض. أحدهما أكبر من الحجم الطبيعى وهو لسبتيموس سيفيروس، والآخر كان بالحجم الطبيعى وكان لماركوس اوريليوس والتمثال الأول فى زى محارب يرتدى رداءًا إغريقيًا، أما الثانى فكانت تكسوه التوجة (وهى عبارة عن ثوب رومانى فضفاض)؛ وهذان التمثالان شبه كاملين، وهما على قدر من الجمال يدعو إلى الحفاظ عليهما وصيانتهما. وسنرى لاحقًا كيف كان لزامًا أن تكون ذكرى سيفيروس محلا للتبجيل فى الأسكندرية (٩١).

البوزيديوم - معبد نبتون

إذا ما تتبعنا الساحل وفحصناه بدقة بعد معبد قيصرون والبرج المسمى ببرج الرومان، لقابلنا أولا أرضًا مسطحة لا توجد فيها قط كتل لافتة للنظر من الأنقاض ولا تدل على وجود أى بناء أثرى، ثم تقابلنا بعد ذلك أول شبه جزيرة صغيرة يكونها الساحل فى هذا المكان، وهى مليئة بالأنقاض وتوجد عند أطرافها جزر صغيرة تشير إلى أنها قد تكون امتدت قديمًا إلى أكثر من ذلك كما سنرى بعد قليل.

وبمواصلة السير نحو الشرق، نجد على بعد مائة متر أنقاضًا تتقدم نحو البحر وهى أضخم الأنقاض الموجودة على هذا الجزء من الساحل[1] ويرجع الفضل فى الحفاظ على هذه الأنقاض أولا إلى أن المبنى كان قد شيد فوق الصخرة التى جهزت فيما يبدو لتستقبله، ثم إلى طبيعة المواد المستخدمة وحسن استخدامها. ونعرض فيما يلى ترتيب الأنواع المختلفة من أجزاء البناء التى كونت جزءًا من هذا الأثر. هناك أولا مدماك من كتل الحجر الجيرى موضوعًا على الصخرة ومقامًا على نفس المستوى الأفقى، وهو مغطى بطبقة مكونة من الدبش الصغير الذى يبلغ حجمه حوالى ١٠سم٣ تقريبًا وقد ألقى فى حمام من الملاط؛ وهذه الطبقة مغطاة بمدماك يتكون من مربعات من الفخار تقوم عليه طبقة أخرى من البناء بالخرسانة. وتختلف هذه الطبقة الأخيرة عن سابقتها فى أنها تحتوى على كتل مربعة من الحجر موضوعة دون انتظام ولا ترتيب وغالبًا كل على حدة ولكنها فى وضع أفقى تمامًا. وفوق هذه الطبقة الرابعة، ويوجد على التوالى مدماكان من الحجر صغير الحجم، وثلاثة مداميك من الطوب حتى مستوى السهل (٩٢). وينبغى أن نلاحظ أن سمك فواصل هذه الطبقات المتتالية مساو تقريبًا لسمك الطوب، وأن الملاط يتكون من الجير والبزولان، كما نجد فيه كمية من أجزاء الحجر الطفحى بحجم ثمرة الجوز الصغيرة، وفضلا عن ذلك فالطوب المستخدم فى هذا البناء مربع الشكل.

وللتأكد من الاستخدام الذى كان هذا المبنى مخصصًا له كان لابد من الاستعانة بتخطيط دقيق. لكن من المؤسف أن الظروف لم تسمح بوضع هذا التخطيط. وعلى أية حال فمن الظاهر أن الجزء الذى نراه منه كان عبارة عن حمام للاستشفاء بالمياه المعدنية. وفى الجزء السفلى من هذا الأثر توجد قباب صغيرة من الطوب تتصل بعضها ببعض كما تتصل بفوهات أفران تشتعل فيها النار التى تسرى فى هذه القباب سواء لتسخين مياه المغاطس أو للاحتفاظ بحرارة حمامات البخار عند درجة معينة. وفوق هذه القباب يمكننا التعرف على

---

(١) وهى الأنقاض المسماة بالقصر المهدوم فى اللوحة رقم ٨٤، الدولة الحديثة.

أسطح مستديرة يبلغ قطرها أربعة أو خمسة أقدام، مكسوة بالطوب وسطحها مزجج في بعض المواضع وتحمل كلها آثار النار ويرجح أن تكون تلك الأجزاء المستديرة عبارة عن مواقد.

وهناك أنابيب من الفخار تخترق كل هذه الكتلة المبنية بالطوب لتحمل المياه من مكان إلى آخر.

أما السطح الواقع أسفل ذلك المسطح ذى القباب المصنوعة من الطوب الذى تحدثنا عنه، فيترك الجزء الذى يوجد به خزانان شبه مهدمين مكشوفًا من جهة الأسكندرية. ويرتفع قاع هذين الخزانين عن مستوى البحر بحوالى خمسين أو ستين سنتيمترًا، ويتكون من طبقة من البناء مغطاة بطبقة من الخرسانة يبلغ سمكها عشرين سنتيمترًا. وهذه الطبقة الأخيرة مكسوة هى نفسها بمربعات صغيرة جدًا من الفخار وقد وضعت مائلة.

ويبدو أن هذين الحوضين كانا يمتلآن - وربما غيرهما أيضًا مما نحره البحر - بواسطة خزان نصف دائرى وجد محفوظًا إلى حد معقول فى الجزء العلوى من هذه الأنقاض. ويوجد هذا الخزان على نفس المستوى الأفقى للأرض الملاصقة له إلى حد كبير جدًا وهو مغطى من الداخل بطلاء أو بترسيبات متبلرة. ونجد نفس هذه الترسيبات فى جزء من قناة كانت تمر خلف المبنى ويرجح أنها كانت تأتى بمياه عذبة ولو أنها كانت ملحية بعض الشىء فى هذه البلاد.

وقبل أن نصل إلى هذه الأنقاض الضخمة - وبعد أن جاوزناها - متجهين من المسلة نحو رأس لوكياس نجد بقايا جسرين راسخين فى اليابسة وكانا يمتدان داخل الميناء. ويتكون هذان الجسران اللذان يبلغ سمكهما أربعة أمتار من أحجار كبيرة يبلغ طولها بالتناوب ثلاثة أمتار ومترًا واحدًا، وقد تراصت على شكل مداميك يبلغ ارتفاع كل منها مترًا تقريبًا.

ووراء هذه المغاطس نفسها نرى على شاطئ البحر سلسلة طويلة من الحجر المنحوت يبدو أنه من بقايا رصيف تم هدم الجزء العلوى منه لاستخدام مواد البناء التى استعملت فيه لتشييد أحد الأبنية الحديثة.

وحتى نوضح تمامًا إلى أى مجموعة من المنشآت الأثرية تنتمى هذه الكتل الإنشائية وشبه الجزيرة تلك التى صادفناها أولا، سنسجل أن استرابون يصف قائلا: «مباشرة بعد معبد قيصرون (٩٣)، يوجد جزء منحنى من الساحل يسمى بالبوزيديوم (وهو عبارة عن كوع ولسان من الأرض) ويبدأ انعطافه عند الوكالة التجارية، وكان مقامًا عليه معبد لنبتون». لقد وجدنا بداية واستطعنا التعرف على أصل هذا المنحنى من الساحل الذى كان مستوى بالتأكيد ثم لم يلبث أن امتلأ بالرمال وازداد ردمًا هناك حيث توجد حدائق فوق موقع الوكالة التجارية. أما الطرف الآخر للكوع الذى كان يمر تحت الجبهة المتقدمة حاليًا من النطاق العربى - حيث سبق أن ذكرت أن الشاطئ بدأ يتآكل من هنا - فلابد أنه كان يمتد حتى الكتلتين المغطتين بالأنقاض ولكنه تلف تحت وطأة أمواج البحر الذى يدخل إلى الميناء الكبير بسهولة أكثر مما مضى وقد دمر كل شىء حتى نتوء لوكياس».

وهناك جزء متميز من الساحل ربما كان مكرسًا بصفة خاصة لنبتون إله البحر، نظرًا لما كان يوفره شكله المسطح من يسر فى عمليات الشحن والتفريغ، ولذلك كان يحمل اسمًا مشتقًا من أحد الألقاب الإغريقية التى كان يلقب بها هذا الإله، كما لو قلنا نبتونيوم. ولقد رأينا أنه كان يوجد هناك معبد لنبتون الذى ربما أطلق اسمه على كل المساحة المحيطة (٩٤). ويواصل العالم الجغرافى قائلا " بعد أن أقام أنطونيوس رصيفًا آخر كاسرًا للأمواج أكثر تقدمًا فى اتجاه وسط الميناء، شيد منزلا ملكيًا أسماه تيمونيوم (٩٥). وقد بنى هذا الملاذ فى نهاية حياته عندما تخلى عنه أنصاره بعد كارثة أكتيوم، فأوى إلى الأسكندرية وقد عزم على العيش وحيدًا مثل تيمون آمرًا أصدقاءه بالابتعاد.

وكان التيمونيوم مقامًا على شاطئ يسمى بالبوزيديوم. وقد عرفنا أن شبه الجزيرة الصغيرة التى قابلناها فى البداية وكانت تنتمى لهذا الشاطئ وكان يوجد على سطحها بقايا بناء وآثار امتداد مصطنع أجرى فى طرفها. وهيئة هذا الجسر وحجمه المتواضع وغير ذلك من الظروف تحمل على التخمين بأن الهدف من هذا الامتداد هو إقامة منزل ترفيهى غير مألوف لشخصية عظيمة تريد الحياة كأى فرد بسيط. كل ذلك يقود إلى التفكير بأن هناك فى المقدمة داخل

الماء كان يوجد التيمونيوم الذى حدد استرابون موقعه بأنه بعد معبد قيصرون مباشرة، وذلك دائمًا باتجاه الأفق حينما ننظر إليه من داخل الميناء.

لقد كان معبد نبتون يقع على الكوع أو البروز الذى كان يمثله منحنى البوزيديوم المختلط بحافة الوكالة التجارية التى تقع بعيدًا جدًا. وكما سبق أن رأينا فقد كان هذا الكوع ينتهى عند طرف الأطلال الضخمة المشيدة من الطوب والحجر المقطوع، كما لم يكن هناك فى المنطقة المجاورة للبحر أى كتل إنشائية ضخمة أخرى يمكن نسبها إلى مبنى بأهمية أصغر معبد. ولا أعتقد أن هناك موقعًا لمعبد نبتون أنسب من اللسان المبنى الذى كان يسمى بالقصر المهدوم نظرًا لهيئته (٩٧).

والواقع أن حجرات حمامات المياه المعدنية الحارة، وهى أكثر ما يلفت النظر من بين الأنقاض، لا تتعارض مع هذا التحديد. ووسط هذه الكتلة التى يبلغ سمكها حوالى ستين مترًا، توجد أبنية أخرى بخلاف المواقد والأحواض. فقد أقيمت فيها حمامات معدنية حارة وأنواع مختلفة من المنشآت، وذلك بعد انهيار المعبد أو فى الوقت ذاته. فالأساسات العظيمة لهذا الأثر القائمة على الصخرة قد اجتذبت المشروعات وعمليات تجديد البناء على مر العصور (٩٨).

ولا توجد لدينا أوصاف للتيمونيوم ولمعبد نبتون أكثر تفصيلا من المعلومات التى أدليت بها لتوى و الكلمات القليلة التى قالها استرابون بشأنها، ولكن من السهل أن نتخيل أن هذا المعبد قد أقيم على مساحة كبيرة وعلى قدر كبير من الروعة فهو قد شيد فى مدينة شديدة الثراء بالآثار ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالبحر، لاسيما وأن هذا المبنى كان مشيدًا على أرض مكرسة لإله البحر على وجه الخصوص.

المسرح

لا توجد هناك أطلال مهمة بين معبد نبتون والرأس التالى له، لكن استرابون عندما وصف محيط الميناء حدد للمسرح موقعًا بعد البوزيديوم مباشرة، دون أن يدلى بأى تفاصيل عنه.

كل ما قاله:إنه كان يقع أعلى جزيرة انتيرودس التى سنتحدث عنها بعد قليل، مما يعنى أنه كان مرتفعًا مثل معبد قيصرون، وقد شيد فوق السهل المجاور لهضبة المدينة التى شاهدناها أكثر من مرة، وأعلى المنحنى الذى تراصت الأشياء التى أجملها فى هذا الجزء من كتابه فى الجغرافيا وكان معظمها بساحل الميناء الكبير. وهكذا كان يقع المسرح خلف الساحل بشكل ملموس، وعندما حددته هنا بالاسم مثلما فعل استرابون ما قصدت إلا ان أوضح مثله أنه كانت تلمح من داخل الميناء واجهة أو طرف لهذا البناء. ومن ثم، فسأبين لاحقًا موقعه بالكامل داخل المدينة. والواقع أنه لا توجد على حافة هذا الجزء من محيط الهضبة العليا بعد البوزيديوم مباشرة تلال من الأنقاض تلفت النظر. ولاشك أنه كان يوجد هناك ميدان أو أرض فضاء واسعة تسمح بأن يرى المرء من الميناء على الأقل جانبًا من الجزء العلوى لهذا المبنى الذى لابد أنه كان على قدر من الارتفاع، كما تسمح بالوصول إليه من الجوانب كافة بسهولة عن طريق منافذ واسعة، وهى ضرورية دائمًا فى الأماكن العامة. أما الميناء المحفور وغيره من المنشآت البحرية فكانت تشغل الجزء الأسفل من الشاطئ وهو ما سنعرض له.

الميناء المحفور

بعد البوزيديوم على شاطئ البحر نجد رصيفًا حاجزًا للأمواج مهدمًا وهو متقدم إلى حد كبير فى الماء ولا يوجد ما أقوله الآن على وجه الخصوص بشأن حالة هذه الكتلة التى لم تعد سوى أطلال لا شكل لها. ويبدو أنه بالقرب من هذا الرصيف حيث نجد الساحل منخفضًا وخال من التلال وغيرها من العوارض الأرضية، كان يقع الميناء المحفور من صنع الإنسان الذى تحدث استرابون عنه، والذى ذكره بعد المسرح مباشرة وحدد موضعه فى شمال هذا المبنى الضخم خلف جزيرة انتيرودس. هذا الشكل العام للساحل فى هذا الموضع كان عرضة لما تحدثه الأمواج من تفتيت وردم ويصلح تمامًا لأن يكون محل عملية تنقيب تتم بمهارة. فالرصيف الحاجز للأمواج الباقى كان بلا شك يغطى جزءًا من الجانب الغربى لهذا الحوض وكان يستخدم كرصيف تحميل، فى حين يوجد على بعد مائتى متر من هذا المكان أنقاض أخرى لمنشآت بارزة كانت تستخدم لنفس

الغرض على الجانب الشرقى. ولم يعط استرابون أى تفاصيل حول هذا الميناء. ولكن نظرًا لأنه ذكر عددًا كبيرًا من الموانى الصغيرة الأخرى ذات الاستخدام الخاص - كما يقول - متحدثًا بوجه عام عن الميناء الكبير وأنه كان ينقسم إلى عدة موانى أخرى، يصبح مؤكدًا أن الذى نتحدث عنه هنا فى هذا المقام كان أحد هذه التقسيمات. ولابد أنه كان يستخدم فى الأغراض الشائعة التى سبق أن عرفنا بها استرابون لذلك لم يقل أى شىء مخصص عنه بينما حدد تمامًا الأغراض الخاصة للموانى الأخرى (٩٩).

ووفقًا لهذه الملحوظة، لابد أن مساحة الميناء المحفور كانت كبيرة، وأنه كان يقترب كثيرًا من ناحية طرفه الشرقى من المنشأة الأولى التى سنكتشفها على أثره على شاطئ الماء. والواقع أننا سنلاحظ أن المساحة الفضاء التى نعزوها له ابتداءً من حاجز الأمواج المهدوم إنما تشغل مساحة كبيرة من كل الجهات، وأن المواقع التى حددتها للمنشآت الأخرى التى ذكرها الكتاب بعيدة إلى حد ما عن هذا الموضع.

جزيرة انتيرودس

لا نلمح للوهلة الأولى أى أطلال أثرية ولا أى كتلة أرضية فى البحر، فى مقدمة موقع حاجز الأمواج المهدم والميناء المحفور أيًا كان هذا الموقع الأخير على وجه الدقة. ومع ذلك فقد يجدر البحث بعناية فى هذا المكان. وحتى يتم ذلك، فإنى أسجل أنه توجد فى الموقع الذى يهمنا مساحة يبلغ عمقها ستة وسبعة وثمانية أقدام، وهى أقل أرقام مسجلة فى هذا الجزء من شاطئ الميناء[1]، حيث تشكل تناقضًا صارخًا مع الأرقام المسجلة فى المناطق المجاورة. وتحدد هذه الأرقام على نحو متناسق من اليمين واليسار الميناء المحفور الذى يوجد تحت تجويفه منخفض بحرى تقترب قمته من خط ٦ وما من شك أن الجزيرة المسماة انتيرودس كانت تقع نحو هذه النقطة، وقد وضعها استرابون شمال القصور الداخلية (وشمال المسرح الذى كانت تجاوره)، وأمام الميناء المحفور (١٠٠).

(١) راجع أرقام هذه المساحات فى اللوحة رقم ٨٤، الدولة الحديثة.

ويضيف استرابون بوضوح أنه كان يوجد فى هذه الجزيرة قصر وأيضا ميناء خاص صغير. ومن المؤكد أن هذا الميناء كان يتكون من خليج صغير فى الجزيرة، أو من الملاذ الذى كان يمثله شاطئها الجنوبى على ذراع البحر، الذى كان يفصلها عن القارة. والأرجح أنه كان مخصصًا للمراكب التى تخدم هذا القصر. أما اليوم فقد اختفى هذا المبنى وميناؤه. وهذا لا يثير الدهشة فالجزيرة نفسها قد اختفت. وربما أنها قد آلت إلى الدمار مثل بقية المنشآت التى كانت تغطى الشاطئ، والسهل المجاور، ونتوء لوكياس. وهناك سبب إضافى قد أدى إلى تآكلها ودمارها، إنه البحر الذى أصبح عنيفًا فى هذا الجزء من الميناء الكبير منذ أن أصبح مدخله الضيق مفتوحًا بفعل الزمن، بعد أن كان الأكرولوكياس والسدود الموجودة تحت البحر وراءه تغطى فيما مضى هذا الجزء من الشاطئ على وجه الخصوص، وبعد بناء الرصيف الكاسر للأمواج. يذكر أن الرياح الشمالية الشرقية كانت هى وحدها تقريبًا التى تعكر صفو الميناء وتضرب هذا السد المنيع ثم تعود لتحمل حتات صخور الشاطئ الخارجى فى الموقع الهادئ لجزيرة انتيرودس. ومن ثم فربما تكونت هذه الجزيرة بداية من هذه العوامل مجتمعة. وهذا الافتراض الذى يثبت عدم صلابة الأرض الطميية يسهم فى تفسير التدمير الشامل لكتلة لابد أنها كانت شديدة الضخامة، بينما نجد حولها الكثير من الأطلال متوسطه الحجم لا تزال باقية.

وكما لاحظنا فلابد أن الميناء المحفور، وجزيرة انتيرودس وقصرها وميناءها الخاص والمنشآت البحرية المحيطة كانت ضخمة، حيث إن استرابون يقول :إن اسم الجزيرة جاء فيما جاء من أنها كانت منافسة لرودس (١٠١).

الميناء المختبئ والمغلق. منظر القصور الداخلية

نجد بعد ذلك رأسًا اخر يتجه من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ومغطى بأطلال[1] من نوع تلك التى وصفناها بوجه عام على هذا الساحل. ولا نستطيع أن نضع آخر موانى استرابون فى أى موضع آخر ولن يكون له موضع

(١) وهى مرسومة فى اللوحة رقم ٨٤ ، الدولة الحديثة.

أنسب من المكان المحيط بهذه الكتلة من المنشآت، وعلى ذلك المنحنى الذى تكونه. ولابد أنه كان صغيرًا كما ينبئ المكان بذلك حيث يسجل العالم الجغرافى عن أنه كان مخصصا لاستخدام الملوك البطالمة الذين كانوا يملكونه ملكية خاصة تقريبًا. وقد كانت قصورهم الداخلية تقع مباشرة جنوب هذا الحوض، تلك القصور التى سنراها بعد قليل والتى اكتشف ركامها - فى رأى استرابون - فى الميناء الكبير، كما شاهدنا المسرح ومعبد قيصرون. ويضع استرابون بداية هذا الميناء بعد جزيرة أنتيرودس والميناء المحفور الذى كان يقع فى مواجهتها على الشاطئ. ويقول، فضلا عن ذلك، أنه كان مغلقًا ومتواريًا بالتأكيد - على عكس الميناء المحفور الذى ما كان من الممكن - إلا أن يكون مفتوحًا جدًا بين طرفيه الطبيعيين أو بين حاجزى الأمواج، وذلك بسبب كبر حجمه وشكل الشاطئ الذى عرفناه. وركام البناء الذى وجدناه على الرأس الصغير الأخير، ويشير أيضًا إلى أن ميناء الملوك كان مغلقًا بصنع الإنسان، وأن هذه المنشآت المائية المقامة على هيئة قوس، وكذا الأبنية التى كانت ترتفع هناك كانت تخبئه بالكامل، ومن ثم فهى تتلاءم تمامًا مع هذا التحديد لموقع ميناء القصور.

لسان نتوء وقصر لوكياس

يبدو أن شكل[1] الطرف الحالى للنتوء الذى وصلنا اليه قد تغير كثيرًا، وإن كانت كتلته سميكة وقوية، مثلما حدث بالنسبة لجزيرة فاروس؛ فصخرتها ذات الطبيعة. وقد صان الأكرولوكياس والصخور التى تعقبه هذا الطرف لزمن طويل. ولكن عندما تخطى البحر هذه الحواجز زادت الأخيرة من حركة الماء على النتوء عن طريق المصدات التى كانت تحدثها هذه المنخفضات البحرية فى نفس الوقت الذى كانت تتركه فيه مكشوفًا. وبالتالى لا توجد هناك وخاصة على السطح العلوى لهذه الرأس أطلال ذات أهمية ؛ حيث إننا لم نر سوى عدد كبير من الأطلال المتواضعة. وعلى الرغم من أنه يتعين تبعًا - للملاحظات السابقة - أن

---

(١) راجع ما ذكر أدناه بشأن طرفه أو رأس اكرولوكياس .

نوضح الأفكار الخاصة بالطرف الأثرى لهذا النتوء، وهو الطرف الذى كان القصر الرئيسى مشيدًا عليه، إلا أنه ينبغى أن نجد خلف ذلك بعض الأطلال، فلابد أن هذا المبنى كان ضخمًا - بل إن استرابون يقول إنه كان هناك قصور عدة فوق لسان لوكياس - بحيث لا يكفيه أن يشغل قاعدة[١] هذا الرأس فحسب بل إن المبانى الملكية كانت تغطى إلى حد كبير كل السهل المجاور كما سنرى. وعلاوة على ذلك - وكما كان قصر لوكياس أبعد الآثار وأول ما هجر الإغريق بالتأكيد ومن بعدهم العرب محتفظين ببعض القصور الداخلية[٢] عندما قاموا بتضييق نطاق المدينة، فلا عجب أن يكونوا قد هدموه بالكامل لاستخدام المواد الداخلة فى بنائه فى ترميم تلك القصور التى احتفظوا بها أو فى تشييد أبنيتهم الجديدة، وهكذا دائمًا كلما انسحبوا من مكان. هذا الافتراض الطبيعى يفسر الجدب والتجرد المطلقين اللذين تتسم بهما هضبة رأس لوكياس.

وهناك يضع استرابون عند مدخل الميناء بداية القصر الذى افترضت لهذا السبب أن يكون القصر الرئيسى فى عصره. ثم يقول بعد ذلك فيما يتعلق بالقصور الداخلية التى رأيناها: إنها كانت تلى تلك المقامة على لسان لوكياس بحيث تتكون بذلك - كما سنرى عند تناولنا الأولى بالتفصيل - سلسلة متصلة من المساكن الملكية. والواقع أن الكُتّاب كافة يقولون بلا تمييز أحيانًا القصر وأحيانًا القصور عندما يتحدثون عن المسافة التى تبدأ من الرأس وحتى النطاق العربى آخذين أيضًا بمساحة عرض كبيرة. ولم يكن إلا توخيًا منى لمزيد من الدقة عندما قلت القصر الرئيسى الذى يحتل النتوء بحصر المعنى (١٠٢).

ويضع استرابون هذا القصر مباشرة على الميناء الصغير الذى شاهدناه لتونا، وقد وضعه بالتالى أدنى القصور الداخلية التى يرينا إياها من الميناء. وكان رصيف الركوب مخصصًا لهذه الأبنية الملكية بلا تفريق بينها نظرًا لأنها كانت تتصل بعضها وبعض.

---

(١) هكذا أسمى قاعدة المثلث الأفقى الذى يكونه السطح العلوى للنتوء.

(٢) سنرى فيما بعد هذه القصور الداخلية.

وسواء افترضنا أن قصر لوكياس كان مسكن البطالمة المعتاد، أو سلمنا بأنه كان مجرد منزل ترفيهى أو ملحق لمساكنهم الداخلية، فمن المؤكد أنه كان لابد وأن يضفى حكام مصر المترفون على بنائه الكثير من الأتساع والتطوير والأبهة الشرقية. فلنتصور الآن هذه الحافة للنتوء الذى تغطيه البيوت الملكية، والقصور الداخلية، وقصر انتيرودس، والمسرح، ومعبد نبتون، والتيمونيوم، والبرج الرومانى، ومعبد قيصر ومسلاته، والسوق (١٠٣) أو الوكالة التجارية، والترسانات، والميدان الكبير، والرصيف الحاجز للأمواج وقلعتيه، والبرج، والضيعة وغيرها من منشآت جزيرة فاروس، والكثير من الموانى الصغيرة والسفن المنتشرة بجوار كل هذه الآثار وغيرها من المبانى العامة أو الخاصة التى لم يسمها استرابون، حتى نستطيع أن نكون فكرة عن البانوراما الرائعة التى كان يمثلها ميناء الأسكندرية الكبير من الداخل.

رأس أكرولوكياس

عند الهبوط من رأس النتوء والتقدم نحو الماء نسير على سلسلة من الصخور الطبيعية والصناعية على حد سواء. وهناك فوق منتصف هذه السلسلة ينتشر نوع من السدود أثرى جدًا ويتسم بوضوح وانتظام الخط الذى يرسمه، وإن كانت وجهته منعطفة وتأخذ شكل الزاوية. وتنتشر أطلال المساكن الحديثة على هذه السلسلة التى تحيط بها أكوام من الدكك الصخرية على وجه الماء. وتصل هذه السلسلة إلى إحدى هذه الصخور ولكنها أعرضها، وقد بنى عليها مسجد مهجور يسمى الفاريون[1] ويمثل هذا المسجد بكل هذه الملحقات الصورة التامة للفنار الحديث ولكن على مستوى أقل منه، وهضبته، وسده، وأرصفته.

وطريق الفاريون متهدم[2] اليوم فى عدة مواضع، خاصة عند بدايته بالقرب من الرأس وعند منتصف طوله تقريبًا. ومن بين المواد التى تكونه يمكننا التعرف على الكثير من أنقاض الأعمدة وكتل ضخمة من الحجر المسكوكى و قد عثر

---

(١) راجع المنظر A ـ اللوحة ٣٢، واللوحات ٨٥، ٨٨، ٩٧، الدولة الحديثة.

(٢) اللوحة ٨٤، الدولة الحديثة.

عليها منحوتة وسط الأطلال وقد استخدمها الإغريق هنا عندما قاموا بترميم السد الأثرى الطبيعى أو الصناعى الذى نحرت فيه الأمواج (١٠٤). ويخبرنا يوسيفوس بأن هذا الجزء من الميناء الكبير كانت تكتنفه أرصفة شيدها الإنسان لكسر الأمواج.

والواقع أننا نجد بصمات الإغريق والعرب فى كل مكان فى هذا السد من الصخور. ويبدو أن نشاط العرب قد اقتصر فيه على الترميم وصيانة أحد هذه الممرات أو الطرق ليصلوا بين المسجد وبعض المبانى المتواضعة وبين اليابسة. وقد اكتسب الملاط الذى استخدموه درجة كبيرة من الصلابة، وإن كان أقل فى جودته من ذلك الذى استخدمه الإغريق.

وحتى يحتاج العرب لأن يصلوا صخرة فاريون بالقارة، فلابد وفقًا لاسترابون أن يكون جزء كبير من هذا الصف من الأرصفة منفصلا عنها؛ فحسب وصفه نرى بوضوح أن الرأس كان يمتد طبيعيًا حتى طرفه الذى كان شديد الاستطالة وينتهى مدببًا كما يبين من اسمه «أكرولوكياس». ومن الصعب أن نحدد على أى موضع من حاجز الأمواج الحالى الذى ذكره يوسيفوس كان ينطبق هذا الاسم المشتق، وما إذا كانت هضبة المسجد الحديث هى التى كانت تشكل هذا الطرف فيما مضى. إلا أن ما يؤكد كل هذه الافتراضات، وخاصة هذا الافتراض الأخير؛ هو أن استرابون عندما جعلنا ندخل من البحر فى الميناء الكبير وعندما رسم. مثله فى ذلك مثل كافة الكتاب القدامى الآخرين. الضيق المفرط للمعبر، أرانا بداية من ناحية اليسار المنخفضات البحرية التى سنراها بعد قليل أمام المسجد، وبعد ذلك مباشرة أشار إلى نتوء لوكياس الذى لم يكن الموضع الذى نبحث عنه أو هذه الصخرة الضخمة التى لاتزال قائمة فوق الماء - سوى قمته. وهكذا انفصل طرف هذا الرأس عن القارة - وحينئذٍ وفى عصر استرابون وضعت الأساسات الإغريقية لهذه الذراع الصناعية التى يتحدث عنها يوسيفوس بل وتكاد تكون قد فقدت تمامًا بحيث إن مدخل الميناء الجديد الذى كان ضيقًا فيما مضى أصبح اليوم شديد الاتساع. وأقول المدخل لا المعبر، فالمعبر دائمًا ضيق بسبب أكوام

الصخور الموجودة تحت الماء. ولم تعد لنا حاجة لبيان أسباب تدمير هذه الصخور التى كانت ظاهرة جدًا قديمًا.

أما المسجد فيبدو أنه كان يستخدم كحصن كما كان قصر الفنار، وذلك نظرًا لموقعه وطرازه الإنشائى وجدرانه المزودة بفتحات تشبه الفتحات المخصصة لرمى السهام. وفقًا لذلك ووفقًا لكل ماسجلناه سابقاً فهناك مجال للاعتقاد بأنه قديمًا لم يكن يوجد على هذا اللسان الضيق سوى أبراج لمراقبة السفن وليست مساكن ممتدة، حيث إنه لم يذكر شيئًا عن هذه الأخيرة، وأكرر أنه لم يشر فى الوهلة الأولى إلا إلى اللسان ورأسه.

ونرى أيضًا أمام الفاريون عندما يكون البحر هادئًا المصدات التى كانت تغلق الميناء الكبير. وعلى ذلك فمن المحتمل ألا يكون رأس الأكرولوكياس الحالى فيما مضى مجرد بداية لهذه السلسلة من أكوام الصخور التى كان يرتفع جزء منها على سطح الماء كما افترضت، بل كان يتقدم لأبعد من ذلك فى البحر. وهذه السلسلة المتآكلة تمتد حاليًا تحت الماء بمقدار ثلاثمائة قامة أبعد من الجزء الظاهر منها على السطح والبالغ عشرة أقدام، ولاتترك سوى فتحة بينها وبين «الماس» مقدارها خمسمائة وبضع قامات. وهكذا كان هذا السياج الدقيق للميناء الكبير مكتملا، ذلك الميناء الذى تغنى بمزاياه كل القدامى، والذى كان يسمح بالكاد بالمرور بين أرصفة لوكياس وأرصفة الفنار. وأخيرًا، فهكذا تآكلت أكثر بروزات الشاطئ صلابة، وهكذا امتلأت تجويفاتها، وهكذا اختفت كل أوجه عدم التباينات فيها تدريجيًا.

الجانب الشرقى لنتوء لوكياس

إذا ما واصلنا الطواف فى الجزء البحرى من الأسكندرية القديمة متتبعين بداية الشاطئ الشرقى لنتوء لوكياس لوجدنا أن هذا الرأس قد تآكل بشدة من هذا الجانب. وعندما يكون البحر هادئًا فإنه يترك مساحة كبيرة مكشوفة من الصخور ومنحوتة على امتدادها. وفى مواجهة الرصيف الذى رأيناه لتونا نجد

أولا قنوات كثيرة حفرت في هذه الصخرة المسطحة لتمرير مياه البحر فى أحواض صغيرة تتسع لجسم إنسان. وقد دمرت هذه القنوات المحفورة بالكامل فى الصخور كما دمرت قبابها ولم يبق منها سوى اثنتين احتفظتا بأجزاء تم التعرف من خلالها على ما كان عليه بناؤها الأول. وعندما تكون هناك بعض الأمواج العالية تمتلأ هذه القنوات، أما عندما يكون البحر هادئًا فلا يصل ارتفاع الماء عن أرضيتها إلا إلى مائة وستين سنتيمترًا. بل لابد أنها كانت تبقى جافة إذا ما جاءت الرياح من جهة اليابسة. ولكن، حتى إذا سلمنا بأنها كانت قديمًا تسمح بمرور الماء الذى يملأ القناة فى الأحواض، فإن ذلك يؤكد أيضًا ما سبق أن ذكرناه بشأن ما كان عليه البحر المتوسط من بعض الانخفاض منذ عصر البطالمة الأوائل، بل إن الحدود التى سجلناها لهذا النقصان التدريجى فى ارتفاعه لتضيق كثيرًا.

وإذا ما تركنا الجزء الواقع حول الرأس لوجدنا على التوالى عددًا كبيرًا من القنوات التى يتراوح عرضها بين قدم واحد وقدمين وتأخذ محيطاتها أشكالا متنوعة. ويتجه انحدار هذه القنوات بوضوح نحو البحر. ويبدأ الكثير منها من آبار دائرية. وفضلا عن ذلك، فإن أغلبها اليوم يوجد مكشوفًا ولا يزيد ارتفاعه عن قدم أو قدمين كما هو الحال بالنسبة للآبار. أما فى المواضع التى لا تكون الأرض فيها متهالكة إلى حد كبير، فإن القنوات تمر تحت الصخرة التى حفرت فيها عرضًا على شكل قباب، ويبلغ ارتفاع هذه القنوات بين ثلاثة وأربعة أقدام من القاع وحتى باطن القناة. وبخلاف هذه القنوات نجد فتحات أخرى أعرض، لابد أن الكثير منها كان عبارة عن غرف أو ربما حمامات.

وتقول الشواهد جميعها :إن نتوء لوكياس كانت تكسوه القصور والحدائق وأن ضواحيه كانت مأهولة جدًا. لذا، فلا مجال للدهشة من أن نجد الإنسان قد وضع بصماته فى كل مكان من الساحل. وفضلا عن أنه كان لابد تبعًا للعادات الشرقية - من إقامة حمامات فى كل منزل يتمتع بقدر من الثراء، فقد كان من الممكن أيضًا أن تنحت داخل هذه الصخرة شديدة الطواعية مساكن تحت الأرض

جافة تمامًا. وبالنسبة للقنوات التى لاتزال موجودة فربما كان بعضها يستخدم فى توصيل المياه داخل الحمامات، أما غالبيتها وكان يتصل كما نلاحظ بآبار ضيقة؛ فلم يكن سوى مجارى فيما يبدو، أو ربما كان يستخدم فى توزيع مياه النيل بغزارة على المساكن المختلفة ولكن لماذا تقام قنوات توزيع بهذه الأحجام الضخمة؟ الواقع أن انحدار البحر يؤكد الرأى الثانى، وهو أن أغلب هذه القنوات لم يكن سوى مجارى.

فعندما يكون البحر هادئًا، فإن قنوات هذا الجزء من الساحل تكون فى مستواه، وهذه الحالة ملحوظة، وهى على عكس الانطباع الشائع لدى بعض الناس بأن البحر قد ارتفع مستواه منذ ألفى عام. لأنه لو كانت هذه القنوات بمثابة مجارى لكانت قد أقيمت بحيث يمكن أن تغسلها مياه البحر وهو فى أهدأ حالاته.

ويفسر شكل الغرف والقنوات المحفورة فى الصخور التغييرات الكبيرة التى طرأت على الشاطئ كله فى وقت قليل، واجتياح البحر التدريجى وإن كان هائلاً. فمن السهل أن نتصور أنه يكفى أن ينحر البحر فى فواصل قليلة السمك وفى حجر قليل المقاومة حتى ينفذ إلى داخل الصخر وداخل التجويفات الشاسعة التى صنعها فيه الرجال.

ونجد أطلالاً تماثل أطلال محيط نتوء لوكياس وأعلاه، وتحف الساحل كله حتى الخط الذى اعتقد أنه كان يحد المدينة الإغريقية من هذا الجانب. وتضاريس الأرض، وبقايا المنشآت والحفائر، وحطام الأوانى الفخارية وغيره من الحطام، ونصوص الكتاب القدامى والموروثات، كل ذلك يؤكد أن المدينة كانت فى وقت من الأوقات تمتد إلى هناك. ومن الواضح أيضًا أن هذه المساحة لم تكن مأهولة فحسب بل مليئة بالثراء. والمرء لتدهشه هذه الفكرة بقدر ما يحزنه ما أصاب هذه الآثار الجميلة من دمار، وبقدر ما تعييه هذه الأطلال المتماثلة التى تغطى كل الجزء البحرى من الأسكندرية القديمة الذى درسناه لتونا.

المبحث الثانى : الجزء الأوسط أو الداخلى من المدينة

حتى يمكننا أن نجوب الآن الجزء الداخلى من المدينة القديمة دون أن يفوتنا أى شىء مهم، سنبدأ من حيث توقفنا متتبعين خطًا وسطًا يدور حول المساحة الكبيرة الموجودة فى الجنوب وعلى يسارنا بحيرة مريوط، وعلى يميننا أسوار العرب حتى طرفها الغربى، ثم ندخل من خلال اتجاه دائرى متسع نحو الشمال الغربى إلى هذا النطاق الحديث ولكنه ملىء بالآثار، ونخترقه فى منتصف طوله للخروج منه عن طريق طرفه الشرقى، ثم نتجه بعد ذلك إلى نتوء لوكياس وخلفية الميناء الكبير.

وسنتجه فى بادئ الأمر مباشرة من شاطئ البحر حيث كنا، إلى الجنوب الشرقى مخترقين تلالا من الأنقاض يصعب التعرف عليها حتى مايقرب من منتصف الخط الذى يفصلها عن السهل الذى يتميز كثيرًا بمستواه المنخفض والمنتظم عن هضبة المدينة القديمة التى تقع على يميننا، وتتسم بارتفاع سطحها وتعرجه. بعد ذلك، ندخل هذا الجزء الذى تركه العرب خارج نطاقهم ويمتد حتى شواطئ القناة وبحيرة مريوط. وفى تصورنا من خلال هجر الغزاة لهذا الجزء أنه أول قطاع أخلى من السكان ودمر، لذلك فهو يمثل مجالاً شاسعًا للأنقاض وتنتشر فيه على مسافات بعيدة بعض التلال وهو عار أكثر من داخل المدينة العربية الشرقية، فلا نجد فيه إلا أقل القليل من الآثار اللافتة للنظر. ومع ذلك فهذه الأكوام من الأنقاض المبينة فى الخريطة تدل تمامًا على المدينة القديمة وتجعلنا نحكم من أول نظرة أنها كانت تمتد إلى هذه الحدود. وقول الجهات المعنية فيأتى ليدعم هذا الدليل.

إن تكوّن هذه التلال التى سنراها كثيرًا، وسنظن أنها فى بداية الأمر كثبانًا رملية إنما يفسره فى حالات كثيرة وجود أحد المبانى الضخمة وقد تم تدميره ثم ترميمه أو إعادة بنائه ثم تقويضه، وهدمه والتنقيب فيه حتى الأساس، ولكن بصفة أعم يفسره التدمير المتوالى للجزر لمجموعات المنازل التى كانت تتكون منها شوارع الأسكندرية. ونحن نتصور كيف أمكن حدوث ذلك، وكذلك صعوبة التعرف على التلال البعيدة عن النطاق العربى، التى تم التنقيب فيها منذ زمن بعيد. ومع

ذلك يبدو أنه عند تأسيس الأسكندرية لم يبذل عناء لتسوية الوعورة الشديدة لهذه الأرض المليئة بالأحجار (وهى عملية بالفعل ضخمة جدًا وغير ذات جدوى)، حيث إن الكثير من تلال المدينة القديمة تقوم على قاعدة من الأكوام المكونة من هذا الحجر الجيرى الرملى المكون من شظايا غير متجانسة وقابلة للتلف بفعل الهواء والأمطار، وتقوم هذه المياه بإذابة الأجزاء سهلة التفتت منها وتجرها معها، كما أنها تسهم أكثر فى محو الأنقاض فى هذه الصحراء التى نكتشفها أمامنا فى الجنوب الغربى، وأعتقد أنها مصدر تلك الرمال التى نراها فى هذه السهول وعلى شاطئ البحر.

الشارع الطولى الكبير - باب كانوب

أول شىء لافت للنظر نقابله بين هذه التلال، ويقع تقريبًا فى منتصف ذلك الخط الممتد من البحر حتى الجنوب الشرقى[1] عبارة عن منخفض من الأرض يمثل فجوة نعتقد أنها كانت أحد شوارع المدينة الإغريقية القديمة، وسيلعب هذه المنخفض دورًا مهمًا فى كل ماهو آت، ويتجه من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى متتبعًا مساحة أحيانًا فضاء من جانب، وأحيانًا محاطة من الجانب الآخر بواجهة أولى للنطاق العربى الذى يضيق فيصبح ذلك الشارع حدودًا طبيعية له. ولكن غالبًا ما تتحدد نفس هذه المساحة بتلال هائلة من الأنقاض ذات اليمين وذات اليسار. ثم يدخل المحور فى هذا النطاق ويخرج من باب المقابر - الذى احتفظ العرب الشرقيون بفتحته المعتادة - ليفضى إلى البحر بطرفه الوحيد. ولابد أن نسجل وفقًا لما ذكره استرابون أن طول المدينة كان يبلغ فقط ثلاثين غلوة تقريبًا، وأن الساحل كان متآكلاً فى هذا الجزء على نحو غير عادى، وأنه بالتالى ربما كان هذا الشارع يتلاقى مع شارع آخر كان يجتاز نيكروبوليس وقد تراجع بعد ذلك ثم بقى فى هذا الطريق الذى يحاذى اليوم قمة المقابر[2].

---

(١) انظر اللوحة رقم ٨٤، الدولة الحديثة - وقد وضعت عند هذا الموقع علامة V على تخطيط الأسكندرية بعد استكمالها بالرسم.

(٢) نرى هذا الشارع فى اللوحتين رقم ٣١، فى الدولة القديمة، ورقم ٨٤، فى الدولة الحديثة.

ولا أدعى أننى أعطيت هذه الافتراضات من الأهمية مالا تستحقه. فقد أردت إعادة المعالم إلى مواضعها اعتمادًا على ما ذكره الكتاب حتى أوفقها فيما بينها وبقية الوصف، أكثر من اعتمادى على حركات الأرض وغيرها من الآثار التى ما كانت لتبقى. ومن ثم، فإن آخر ملاحظاتى تنفع فقط حتى يمكن أن تمتد أطول المقاييس - التى سيبينها لنا ديودور بعد قليل - فى ضاحية نيكروبوليس مباشرة. ولذلك، فإنى أسجل أيضًا أن التوازى بين الخط الذى رسمته وبين الشارع الحالى لباب رشيد شرط ضرورى نسبيًا لكل مانعرفه أو نجده على خريطة الأسكندرية القديمة، وللواجهة الأخرى لأسوار العرب المغاربة وهى الواجهة التى تمتد من واجهة القلعة المثلثة حتى باب العمود. ويرجح أن يكون العرب قد أقاموا بعد ذلك هذا الجزء الأخير من نطاقهم على شارع مواز للشوارع الأخرى، بما أننا نعلم أن كل الشوارع كانت تتوازى مع بعضها البعض.

وفى الاتجاه الذى إخترته للشارع الطولى الكبير وعلى مقربة من بدايته نجد كتلا من الأطلال التى تحدثت عنها، وربما كانت تتعلق بالنطاق الإغريقى والضاحية وباب مدينة كانوب. أما مواضع هذه الأشياء الأخيرة فقد حددتها بعد دراسة أبعاد وتوزيع المدينة الإغريقية، وهو ما سيتسنى لنا معرفته من خلال منخفض الأرض، وكذا من خلال النطاق العربى كلما قابلناه. وعندما قام العرب بتضييق المدينة إلى نصفها من جانب بحيرة مريوط تركوا بالكامل هذه المساحة التى تحيط بنقطة البداية التى نقف فيها، مهجورة ومهدمة. ولهذا السبب ووفقًا للتفسير الذى قدمته لتوى، بقى انخفاض الأرض مع وجود آثار لمجموعات متناثرة ومنعزلة عن بعضها البعض من المنازل، بل إن هناك طريقًا مميزًا جدًا يحاذيها تمامًا فيما عدا الأماكن التى ابتعد فيها عن هذا المنخفض بسبب إقامة النطاق العربى وما ترتب على ذلك من عادات.

ويقول استرابون:إن المدينة كانت مقسمة إلى شوارع تستطيع الخيول والعربات السير فيها. وكان هناك شارعان عريضان جدًا من بين هذه الشوارع، ويحدد اتجاه هذين الآخرين.

فيقول:إنهما يتقاطعان بزوايا قائمة عند منتصفيهما، ويمتد أحدهما طوليًا من نيكروبوليس حتى بوابة كانوب. ويذكر ديودور أن هذا الشارع كانت تكتنفه المعابد والبيوت البديعة. وسنركز فى حديثنا حوله بوجه خاص. لقد رأينا بداية عرضه ومدى روعته، وإننا لنستشعر ما كان عليه تخطيطه وتنظيمه من جمال لاسيما وأن تعامده مع الشارع الكبير المستعرض كان يسمح برؤية بوابات نيكروبوليس وكانوب من أول الشارع إلى آخره.

وواقع الأمر أن انخفاض الأرض الحالى يفى بكل الشروط التى ذكرتها، ولن ينقصنا سوى تحديد ركام البوابتين الأثريتين، أو على الأقل بوابة كانوب وهى الوحيدة التى يذكرها القدامى. وسنرى كيف أنها كانت حتمًا تقع حيث افترضت على وجه التقريب. أما بوابة نيكروبوليس فلا توجد أى أنقاض يمكن التخمين بأنها تتعلق بها، الأمر الذى يتفق والافتراض بأن البحر قد هدمها.

ويخبرنا استرابون أن أرض الأسكندرية كانت تأخذ بطول هذا الشارع وشارع المدينة شكل الكلاميد* وكانت مياه بحيرة مريوط ومياه البحر تحيط بجوانبها الممتدة طوليًا، ويبلغ قطرها حوالى ثلاثين غلوة (ألفان وثمانمائة وخمسون قامة). ومن الواضح أننا نستطيع أن نطبق على الشارع ما يقوله عن طول جوانب المدينة. بل إننا سنرى كيف أن ديودور قد جعل هذا الشارع أكثر طولاً، كما يقدر يوسيفوس، طول المدينة بثلاثين غلوة. والحال أنه انطلاقًا من الحدود التى نقف عندها - والتى يؤكدها يقينا انتهاء الأنقاض - فإن الثلاثين غلوة تجاوز القناة الملاحية التى كانت تصل بين بحيرة مريوط وميناء كيبوتوس الذى أخبرنا استرابون أن المدينة كانت تمتد وراءه.

ويقدر ديودور طول الشارع أو الميدان الكبير - بلا تفريق بينهما - بأربعين غلوة[1] انطلاقًا من إحدى البوابتين وحتى البوابة الأخرى. غير أنه من الثابت أن الغلوة التى استخدمها هذا الكاتب فى قياسه أقصر من تلك التى استخدمها

* الكلاميد هو دثار قصير معقود القبة كان يرتديه جنود الإغريق (المترجم).

(١) تاريخ المكتبة، الكتاب ١٧ .

استرابون ويوسيفوس. وهى اختلافات ربما جاءت بمرور الزمن مثلها فى ذلك مثل غيرها الكثير(١٠٧).

أما تاتيوس، فيقول عن الأسكندرية على لسان بطل روايته: إن سكانها عندما كانوا يجوبون هذا الشارع كانوا يبدون من شدة طوله وكأنهم مسافرون(١٠٨).

القناتان الأولى والثانية الموجودتان تحت الأرض

بتتبعنا للخط المتعرج الذى يقودنا الآن فى الجزء الأوسط من مدينة الأسكندرية نعبر بداية القناة الأرضية الأولى ثم الثانية التى تقع وسط التلال التى تحيط بالخليج فى الشمال. وهذه التلال ركام من الصخور الجيرية وهى من نوع الصخور السائدة عند الساحل، وهذه القمم الصخرية التى تظهر بكل امتدادها تقريبًا إنما تغطيها أرضية من الأنقاض وهو ما حمل من نظروا إليها بصورة عابرة على الاعتقاد بأنها مجرد أنقاض قد تراصت فوق بعضها البعض.

ولن نتحدث تفصيلاً عن الغرض من هاتين القناتين، وسأقتصر على وصفهما كلما قابلناهما تحت أقدامنا حتى لا أعترض كثيرًا منظر وأبعاد المدينة القديمة التى بدأنا نتعرف عليها فى الموضوع السابق.

يقول كورناى لوبرون:إن صهاريج الأسكندرية كانت تمتلئ فى عهده[1] عن طريق مجرى جوفى تحت الأرض يوجد خارج بوابة رشيد ويستمد مياهه من قناة الأسكندرية على بعد ربع فرسخ تقريبًا من المدينة. وهذا المجرى هو الأول من بين تلك المجارى التى نتناولها بالدراسة، وهو مسدود تمامًا اليوم ومهجور. ويبدأ هذا المجرى من القناة أعلى قليلاً من الجسر الثالث. بل لقد كان هناك قديمًا عدد أكبر من هذه المجارى ولكن بعضها مسدود والبعض الآخر لا يصل إلا لبضع حدائق.

---

(١) عام ١٧٠٠ .

أما المجرى الذى نراه بين الجسرين الثانى والثالث لقناة الأسكندرية الكبرى فهو من صنع الرومان أو الإغريق. وهو ضيق جدًا ومن الواضح أنه كان مخصصًا لجلب الماء إلى الجزء الذى يتجه نحوه فى المدينة القديمة. ومن الواضح أيضًا أنه يخرج من تلك القناة التى تحمل ميـاه النيل إلى الأسكندرية فى الوقت الحالى. ولا يزيد عرضه عن خمسة أو ستة أقدام. والجزء السفلى من الحوائط الكتفية مكسو بطبقات مستوية من الأحجار الضخمة المنحوتة. أما الجزء العلوى فمكسو بالطوب الأثرى. وربما كان هذا البناء مغطى بقبة من الطوب، أما اليوم فهو مكشوف على امتداد خمسين خطوة، وفى نهاية هذا الامتداد نرى أن القاع يزداد ضيقًا حيث لا يزيد عرضه عن قدمين. وهذا الجزء مغطى لا بسقف مقوس، بل بسقف من الطوب وقد وضعت قوالب الطوب على التوالى بارزة الواحد فوق الآخر بحيث يتلاقى القالبان الأخيران عند قمة المثلث الذى يشكله مقطع هذا النوع من القباب.

وقد قام العرب الشرقيون بترميم هذا البناء جزئيًا، ولكننا سرعان ما نميز بين الترميم الذى قام به العرب وبين البناء الأصلى والأثرى. وهذه القناة ليست مكشوفة فى موضع آخر بخلاف هذا المكان، غير أنه من الممكن التعرف تمامًا على وجهتها، كما نعرف أنها تنتهى فى مدينة العرب القديمة.

والفتحات المربعة الصغيرة التى نراها فى الجزء العلوى من كل هذه القنوات عبارة عن بالوعات تكون أكبر فى أول المجرى عنها فى بقية امتداد طوله، وكانت تستخدم للنزول فى هذه القنوات الجوفية لتنظيفها ونزح الماء منها عندما كانت تمتلئ من فيضان النيل. وكانت مصبات بعض هذه القنوات مغلقة، ولذا كان يتم فتحها أو فتح سد القناة الرئيسية عندما كانت مياه النيل ترتفع بقدر كاف؛ وهى عملية كانت تصاحبها احتفالات ضخمة. وبعد أن تمتلئ الصهاريج التى كانت تصل إليها هذه المجارى الجوفية، كان يتم إعادة الحاجز وتواصل المياه جريانها نحو البحر.

وهناك كذلك ـ وكما سنرى ـ قناتان جوفيتان أخريان توازيان تلك القنوات، تمثل الثانية فيهما امتدادًا لقناة النيل تحت المدينة العربية.

الشارع الكبير المستعرض
شكل المدينة القديمة وأبعادها

كلما جوبنا هذه التلال التى تحدثت عنها فى بداية الموضوع السابق، وجدنا الكثير من الخطوط المنخفضة التى تجتازها على نحو شبه عمودى على الشارع الكبير الطولى عند منتصفه متجهة من المنطقة المجاورة للرصيف الحاجز المهدم[١] وموانى النهر[٢] على الجزء المسطح من الميناء الكبير حيث كانت توجد الترسانات وغيرها من المنشآت البحرية . بل إن هناك واحدًا من هذه الخطوط يلفت النظر جدًا وتتوافر فيه كل هذه الشروط. فهو ينطلق من عمق أكبر خلجان الميناء القديم للنهر، بجوار الرصيف الحاجز القديم، ويسير تقريبًا مع الجزء المكشوف من القناة الثانية المتوازية التى كانت تصل إلى هذه المنشآت التجارية، والجزء المقبب من نفس هذه القناة، ومنخفضها الشديد وسط التلال. وهو يقطع الشارع الكبير الطولى عند منتصفه بالضبط، كما يقطعه هذا الشارع بنفس الأسلوب تقريبًا. ويمر ـ على يمينه أسفل قلعة كريتان موقع مبنى أثرى ضخم، وعلى يساره قريبًا من القصر المهدم[٣]. ثم يقابل بعد ذلك هضبة كبيرة تتعلق بباب مدينة القمر، ويحاذى معبد قيصرون ثم يسقط بعد ذلك على الجزء المسمى بالبوزيديوم من الميناء الكبير نحو اليمين بحيث تقع الوكالة التجارية على يساره. ويقطع النطاق العربى فى بداية الأمر فى تلك النقطة التى يبدأ هذا النطاق الاتساع فيها فى الجنوب، ويجتازه فى الشمال على شاطئ الميناء الكبير فى جزء أيقنا أن أسوار العرب الشرقيين كانت قد أقيمت فيه فوق أساسات أرصفة أثرية. وأخيرًا، فهو مثل الشارع الكبير الطولى يوازى أسوار الحدائق كافة، وركام القرى وغيرها من الملكيات المجاورة لباب العمود. كذلك فهو يوازى شارع آخر لابد أنه كان يمر من هذا الباب ومن باب البحر.

---

(١) لوحة ٨٤، الدولة الحديثة .

(٢) لوحة ٣١، الدولة الحديثة .

(٣) لوحة ٨٤، الدولة الحديثة .

وأعتقد أن هذا هو موقع الشارع الثانى من الشارعين العريضين اللذين تحدث عنهما استرابون وغيره من الكتّاب، وهما شارعان كانا يتقاطعان بزوايا قائمة عند منتصفيهما. والواقع أن انخفاضهما ليس واضحًا تمامًا بطول امتدادهما بقدر وضوح انخفاض الشارع الطولى الموجود داخل النطاق العربى فى اتجاه باب رشيد، وذلك يرجع لأن العرب الشرقيين لم يحتفظوا بهما طويلاً بقدر احتفاظهم بهذا الأخير، ولأن الأرض التى كانوا يهجرونها كانت باستمرار محل حفائر و تنقيب بل وطمس. وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الواجهة للشارع الكبير المستعرض تتوافر فيها الشروط التى سنستعرضها تفصيلاً فيما يأتى مثلما تتوافر فيها تلك التى عرفناها بالفعل.

ونحن نعرف بداية أن عرض هذا الشارع هو نفس عرض الشارع العمودى عليه. وسنعرف من خلال شكل الكلاميد الذى تتخذه الأرض أن أقصى عرض للمدينة كان يوجد فى مكان هذا الشارع الذى يتعين بالتالى أن يبلغ طوله مقدار عرض هذه المدينة ويخبرنا يوسيفوس أن عرض الأسكندرية لا يقل عن عشر غلوات (تسعمائة وخمسون قامة)، وهو ما يعنى أن طول الشارع المستعرض عشر غلوات. واعتبار تقاطع هذين الشارعين عند منتصفيهما تقريبًا أمرًا على درجة كبيرة من الأهمية هنا لتحديد الموقع المعمور للمدينة الأثرية، بقدر ما كان مهمًا لتحديد حدودها الشرقية والغربية، ولتحديد طول الشارع الكبير الآخر. ذلك أنه فى اتجاه عرض المدينة، يصل النصف الأول للشارع المستعرض إلى الميناء الكبير، أما النصف الثانى فيصل إلى حدود تلال الأنقاض، ويتلاقى النصفان فى وسط الكتلة المشيدة من المدينة العتيقة. أما بقية المسافة ابتداء من حدود التلال تلك وحتى موانى النهر فكانت دائمًا أرضًا فضاء، حتى وإن كانت قديمًا تغطيها بحيرة مريوط، ومقسمة إلى حدائق وربما كانت تتناثر فيها بضع ضواحى فلم يبق منها سوى القليل جدًا من الأطلال.

وأسجل بهذه المناسبة أن القناة الثانية ذات الجزء المكشوف كانت تخدم الإغريق وهذه الضواحى أو هذه الأجزاء من المدينة الموسعة فى عصر الإمبراطورية الرومانية التى قامت فى الفترة من ٣٢٥ إلى ٤٧٦ فى شحن



البضائع والاتصال بخليج موانى النهر لأن الغلوات العشر وهى عرض المدينة بحصر المعنى لم تكن تصل إلى هذه الموانى، وابتداء من طرف هذه الغلوات العشر كانت القناة تبدأ فعليًا فى التحول إلى مجرى مغطى بقبة يحمل مياه النيل إلى الأسكندرية. وفى حديثه ضد فلاكوس يصف لنا فيلون ما كان عليه هذا الشارع من بهاء فيقول: إنه كان يتم عن طريق البحيرة جلب الأسلحة التى تم الاستيلاء عليها داخل مصر، ثم يتم تفريغها فى موانى النهر، وكانت العربات والدواب التى تحملها تسير فى صفوف طويلة على خط يبلغ طوله حوالى عشر غلوات وهى المسافة التى تقع بين موانى النهر وبين الترسانة فى حى القصور. أما تاتيوس فقد جعل بطل روايته يصل إلى الأسكندرية عن طريق بحيرة مريوط. وبالتالى إلى موانى النهر، وقال على لسانه : " عند دخولى الأسكندرية عن طريق باب الشمس استرعى انتباهى جمال هذه المدينة، فبدءًا من هذا الباب وحتى باب القمر كنت أرى من الجهتين صفوفًا من الأعمدة، وفى المنتصف كان يوجد ميدان يجتازه شارع طويل". ومن ثم، فقد كان الميدان أعرض من الشارع الذى يجتازه (١٠٩). ومن السهل على المرء أن يتخيل الشكل الجميل لهذين الشارعين اللذين يتقاطعان، خاصة عند التقائهما، نظرًا لزخرفتهما ومنظر أطرافهما وهى تطل على موانى البحيرة والبحر، وكذلك وهى تطل على أبواب ضواحى نيكوبوليس أو على الأقل نيكروبوليس وقد نتج عن هذا التقاطع ميدان كبير زاد تاتيوس من حجمه، وقال عنه ديودور: إنه كان فى وسط المدينة وكان يتسم بالروعة بسبب شكله وكبر حجمه، وإنه باتصال الشارعين - كان يبدأ من أحد بابى المدينة حتى الباب الآخر. وفى هذه الحالة، فقد كان يبلغ طوله أربعين غلوة على عرض قدره فدان فى الجزء الأوسط منه (١١٠). كما أضاف ديودور أن الإسكندر عندما قام بتخطيط المدينة راعى إتاحة الفرصة لرياح الشمال للمرور فى كافة الشوارع (١١١) لتبريدها وإنعاشها. وبالفعل، فإن هذه الرياح التى تجتاز كل عرض البحر المتوسط تأتى للأسكندرية ببرودة لطيفة جدًا وصحية جدًا. وقد أحاط الإسكندر المدينة بأسوار كانت محل إعجاب لشدة صلابتها ومتانتها ولامتدادها الهائل. فكما كانت تحدها من الجنوب البحيرة الكبيرة ومن الشمال

البحر ذاته، فقد كانت الأسوار لا تترك على الجانبين إلا مدخلاً ضيقًا فى وسطها يسهل الدفاع عنه. وكانت المدينة ـ من هذين الجانبين ـ تشبه درعًا[1] ينتهى أسفله من كلا الجانبين عند ميدان[2] يقع فى وسطه(١١٢). وتجدر الإشارة إلى أن ديودور قد اقتبس الكثير من استرابون فى هذا المقطع إلا أن استرابون يقدم لنا وصفه بمزيد من التفصيل حيث يقول: إن المدينة توفر أسباب الراحة كافة. ثم يصف موقعها بين مساحتين مائيتين تصلان لأغراض التجارة بين القارتين المتقابلتين، أفريقيا وأوروبا، ويذكر أن الرياح الموسمية ترطب مساحتها التى تتخذ شكل الكلاميد،....... إلخ

ويصف بلينى على وجه الخصوص ـ ولكن بصورة شديدة الإيجاز وشديدة الغموض ـ ذلك المعطف الذى اتخذ تخطيط الأسكندرية شكله فيقول:إن المعمارى الذى قام بتخطيطها أضفى عليها شكل كلاميد مقدونى ذى محيط مسنن ويمتد مدببًا جهة اليمين واليسار. وقد جاء بلوتارخ بعد ذلك ليقول: إن المعماريين قاموا برسم نطاق على شكل هلال له ذراعان طويلان ومستقيمان ليضما كل المساحة الداخلة فى هذا النطاق على شكل معطف مقدونى يأخذ فى الضيق شيئًا فشيئًا[3].

وفى البداية فإننا نسلم بأن هذين الامتدادين المدببين، و الذراعين الطويلتين والمستقيمتين كان يوجد بهما المدخلان الضيقان اللذان تحدث عنهما ديودور الصقلى، وكذلك اتساع الشواطئ الذى صوره استرابون عاليه. ولكننى أعترف أنى لا أرى فى ذلك الامتداد ـ أيًا كان ـ أمرًا مؤكدًا، كما لا أعتقد فى تحديد شكله وأكثر منه محيطه، فالكلاميد أيًا كان إغريقى أو مقدونى وسواء كان مدنيًا أو عسكريًا، لم يكن سوى مربع طويل، ولا مجال لافتراض ضرورة اكتمال شكله هنا فى هذا المقام لأن ذلك يعنى ضرورة أن نرسم متوازى الأضلاع هذا بالكامل

---

(١) لا شك أن القس تيراسون استخدم هذه الكلمة، لأن الكلاميد الذى نتحدث عنه هنا كان عبارة عن معطف حربى يستخدم فى الدفاع مثلما كان يستخدمه أيضًا الشباب والرحالة والصيادون .

(٢) سنرى فيما بعد أنه يقصد بذلك شارعًا أيضًا .

(٣) ترجمة أندريه داسييه .

داخل قطع تام حتى نجد كل هذه الاستدارات وكل هذه الاستطالات التى ذكرها كُتّابنا الأربعة. ولكن لماذا، فالمضلع الرباعى قد شوه تمامًا هكذا، فهل كان الكلاميد بمثابة نموذج أكثر من أن يكون مخروطًا وقد استطال شكله وتدبب ؟ أعتقد أنه ينبغى لفهم هذه الأوصاف أن نتخيل هذا المعطف الأثرى حال وضعه على جسم الإنسان أى ممسوكًا على الصدر بمشبك وأطرافه مطوية ومقلوبة على الذراعين وساقطة على الأرض لترفع بعد ذلك بجذبها طوليًا لفرد المثلثات التى تشكلها هذه الأطراف، ثم رسم هذا المنظر فى مجمله على لوحة. وفى هذه الحالة يكون لهذا الرداء شكل خاص يمكن أن نشير إليه كنمط مميز ولافت للنظر لشىء مقلد. وتبعًا لهذه الصورة تقريبًا قمت بالتغيير فى حدود نطاق الأسكندرية متخذًا له ثلاثين غلوة طولا وعشر غلوات عرضًا، وهو ما قد ورد كحدود له، كما تقيدت ببعض الشروط الأخرى اللازمة مثل تقسيم المدينة إلى أربعة أجزاء متساوية من خلال شارعيها الرئيسيين واتباع حركات الأرض، والإبقاء داخل النطاق على الأماكن المهمة التى لابد أنه كان يضمها. فكان يكفى أن نجد على نحو تقريبى وجه الاتساق بين الكلاميد ونطاق المدينة، لأن الخطوط الوسطى التى تصل بين أطراف المحورين غير محددة، مثلها فى ذلك مثل النسب الخاصة والتفصيلية لهذا المعطف المقدونى التى لا نعرفها يقينًا (١١٣).

وعليه، فأنا لم أبحث فى هذه الأمور إلا على سبيل الفضول، ولم أرسم هذه الصورة لتخطيط الأسكندرية بعد ترميمها إلا لإعطاء فكرة عما كان عليه شكل مدينة المقدونيين (١١٤).

ووفقًا لما قاله ديودور عن اتجاه الشمال والجنوب بالنسبة لكافة الشوارع المستعرضة، نستطيع التخمين بأن التوزيع الداخلى للأسكندرية كان يأخذ شكل رقعة الشطرنج. وحتى ننتهى من التعريف بالمدينة القديمة، نستطيع الآن تناول محيطها وتقديم نبذة عن مساحتها. ولكن، نظرًا لأن الكثير من العناصر الموجودة فى الصورة التى أقررتها بالنسبة للنطاق الأساسى للأسكندرية عناصر غير أكيدة وافتراضية، ونظرا لأن المدينة تعرضت لتوسعات كثيرة فى عصور مختلفة (وهو ما نلمسه من خلال أطلالها) وأخيرًا ؛ وحيث إن هذا النطاق قد تعرض

كثيرًا . وفقًا لرواية أميان مارسلان للتخريب والتدمير خاصة فى عهد الإمبراطور أوريليوس، فلا جدوى من حساب مساحة هذه الصورة على وجه الدقة. بل الأهم من ذلك هو معرفة كيف قدرها القدماء فى وقت بعينه، فذلك من شأنه أيضًا إعطاء فكرة عن ضخامة ما قام الإسكندر بتأسيسه فى تلك القرون البعيدة. ولذلك وحتى يمكن عقد المقارنة بين تلك المنشأة الضخمة وبين المدن القديمة والحديثة الرئيسية، ينبغى أن نضيف إليها فى مخيلتنا كل المساحة التى تقع بين حدود الأنقاض وبين صورة الكلاميد، وكذلك الأجزاء البحرية فى الشرق والغرب حتى فى جزيرة فاروس.

وأما كينت كورس فيقول: إن الإسكندر عندما ضم كل المساحة التى كانت موجودة بين البحيرة والبحر، حدد محيط أسوار المدينة بثمانين غلوة(١١٥). والحال أنه تبعًا لما شاهدنا فأنه لو أقيم متوازى أضلاع على طول وعرض المدينة لبلغ على وجه التحديد ثمانين غلوة (أى سبعة آلاف وستمائة قامة) تجذيرية، ولبلغت مساحته السطحية ثلاثمائة غلوة (مليونان وسبعمائة وسبعة آلاف وخمسمائة قامة) مربعة. ويبدو أن ذلك نوع من تربيع الكلاميد نقله لنا كينت كورس أو أجراه بنفسه تأسيسًا على البعدين المعروفين. وهى عملية حسابية تقريبية لتعويض الاختلافات فى المحيط والشكل التى لم يلق لها بالاً فى هذا القياس الطولى لأى دائرة، نظرًا لأن هذا المحيط كان بشكل مخروطى، ولإن الامتداد نحو بابى كانوب ونيكروبوليس يحمل زيادة ضخمة كان لابد من وضعها بصورة ما فى الاعتبار. وبالتالى ونتيجة لكل هذه الملاحظات خاصة تلك المتعلقة بالطرق المختلفة لحساب حدود المدينة بحصر المعنى، وتبعًا للشروح والتعليقات المدونة، أعتقد أنه لا يمكن استبعاد قياسات بلينى التى تحدد المحيط بخمس عشرة خطوة (أى أحد عشر ألفًا وثلاثمائة وأربعون قامة)، والمساحة بستة ملايين وسبع وعشرين ألفًا وتسعمائة وثمان عشرة قامة وخمس وسبعين من مائة من القامة، إذا ما ربعنا متوازى الأضلاع مثل ذلك الذى أقامه كينت كورس. ولكن ما من شك فى هذه الحالة أن بلينى لم يضم فى تحديده المساكن والمبانى المجاورة لنيكوبوليس، والمجاورة لبلدات فاروس، بل ولجزء من نيكروبوليس.

وهناك شيء يسترعى الاهتمام وهو أنه إذا خفضنا - فى تخطيط الأسكندرية القديمة الزوايا الأربع للمضلع الرباعى المحصور داخل الكلاميد التى أعطت مساحة مليونين وسبعمائة وسبعة آلاف وخمسمائة قامة التى استنتجناها من نص كينت كورس، لوجدنا من خلال نظرة سريعة أنها تغطى بالكامل مساحة الأنقاض الموجودة فى الجزء القارى من المدينة دون أن تتضمن على وجه الخصوص نيكروبوليس ونيكوبوليس. وعليه فقد أمكن لى إجراء عمليتى تربيع ؛ الأولى : وسأطلق عليها تربيع كينت كورس بالأسلوب التى وضعته، وأعطت للأسكندرية مساحة كبيرة تليق بمدينة من الطراز الأول.

وبالنسبة للتربيع الثانى، وهو تربيع بلينى، فلابد من تسجيل أن المحيط الإجمالى الذى يبلغ خمسة عشر ألفًا هو ذات محيط روما فى تلك الفترة التى قام اوريليوس بتسويرها فيها. ولذلك لا مجال للدهشة أن القدامى والمحدثين يقولون كثيرًا: إن الأسكندرية كانت تستطيع منافسة روما ذاتها من حيث المساحة. والآن يمكننا أن نعقد المقارنة بين المساحة التى افترضها لكل منهما وفقًا لما ذكره بلينى وبين مساحة المدن الرئيسية فى أوروبا. فباريس تبلغ مساحتها خمسة ملايين وتسعمائة وثمانين ألفًا وسبعين قامة مربعة، ولندن أربعة ملايين ومائتين وأربعة وستين ألفًا، وبرلين ثلاثة ملايين وأربعمائة وتسعة وسبعين ألفًا وثمانمائة وستين، وفيينا ثلاثة ملايين ومائة وواحد وسبعين ألف وثمانمائة وخمسين، أما روما الحديثة فتبلغ مساحتها مليون وتسعمائة وستة وعشرين آلفًا ومائتين وثلاثين فقط. لكن منف التى جعل مؤسسها أوكوريوس محيط نطاقها يصل وفقًا لما أخبرنا به ديودور الصقلى إلى مائة وخمسين غلوة ؛ فقد فاقت فى حجمها كل هذه المدن القديمة والحديثة. فهذه الغلوات المائة والخمسون تساوى أربع عشرة ألفًا ومائتين وخمسين قامة، بينما محيط الأسكندرية لم يكن يبلغ - حتى بحسابات بلينى - إلا أحدى عشرة ألفًا وثلاثمائة وأربعين قامة. وأيًا كان قياس الغلوات المائة والخمسين هذه الذى يجعل من الأسكندرية الأصغر، والذى ربما بالغ فيه ديودور، فهذه المدينة كانت تجاوز باريس فى مساحتها بقدر كبير فماذا يكون الحال لو إننا أضفنا إلى المبانى التى

كان بلينى قد ضمنها فى حساباته، هذه المدن، والبلدات، والقرى، والبيوت الترفيهية، وكلها مرتبطة بعضها ببعض ولا زلنا نرى الكثير من أطلالها ابتداء من شيرسونيسوس حتى كانوب على شواطئ البحر وبحيرة مريوط ؟

و كذلك سنرى فى الوصف الدقيق الذى احتفظ به الكاتب الإغريقى أثينيه لموكب تتويج فيلادلفوس ؛ صورة أخيرة تنم عن المساحة الشاسعة لمدينة البطالمة، وبخاصة طولها. فهذا الموكب الذى ربما بالغ الراوى فى إطالته يفترض امتدادًا هائلا داخل المدينة التى كانت مسرحًا له، مثله فى ذلك مثل انتصارات الرومان قرب نهاية الإمبراطورية. فكان الموكب يسير طوال يوم كامل فى الشارع الكبير فى الأسكندرية وفى وصفه المطول لم يتناول أثينيه إلا موكب باخوس أما الآلهة الأخرى، وعددها كبير، والإسكندر، ووالد ووالدة الأمير المتوج فقد أفرد لكل منهم وصفًا خاصًا به. وكان الموكب يضم أكثر من ألف ومائتى عربة، وسبعة وخمسين ألفًا وستمائة رجل من المشاة، وثلاثة وعشرين ألفًا ومائتين من الخيالة.

القناة الثالثة ـ عمود دقلديانوس

بعد موقع الشارع المستعرض الكبير نجتاز القناة الأرضية الثالثة التى لا تلفت النظر إلا بتشابهها التام مع أولى القنوات الأربع التى لا تزال قائمة، وقد تبين لنا أن عرضها يبلغ قدمين وهو نفس عرض الأولى.

وأهم ما يلفت النظر فى هذه الرقعة الجنوبية الشاسعة من المدينة، وفى الوقت ذاته أبهى ما يوجد ليس فى الأسكندرية وحدها فحسب ؛ بل فى الجزء الأكبر من مصر كلها، وهو أجمل نظرًا لسلامة ونقاء الشكل الذى يتخذه بكتلته الضخمة، كما أنه موضع دهشة مثلما هو الحال بالنسبة لأكبر مسلات طيبة أو روما نظرًا لصعوبة إقامته بثلاث قطع مختلفة، أنه العمود[1] المعروف حتى الآن باسم بومبى الذى كان ينسب إليه بصفة عامة لا لسبب ظاهر آخر سوى إحياء لذكرى الميتة التى لقيها هذا الرومانى الشهير فى مصر. ومن المعروف أن هذا

---

(١) انظر لوحة رقم ٢٤، المجلد الخامس عن لوحات العصور القديمة .

العمود لابد أنه كان يحمل تمثالاً على قمته، فقد كان يكفى إجراء عملية تقريب بسيطة لواقعة تاريخية يعرفها الجميع حتى يعَزى لهذا الحدث المأسوى إقامة هذا الأثر، مثلما حدث بالنسبة لحمامات ومسلات كليوباترا المزعومة. وهذا العمود ليس أول ما يسترعى الانتباه ويثير الدهشة عندما يجوب المرء أرض الأسكندرية فحسب، ولكنه يغلب المدينة والمآذن، والمسلات، وقصر الفنار، بل إنه يرشد السفن فى البحر، كما يرشد العرب فى سهول الصحراء الشاسعة الجرداء.

وعلى الرغم من أن السيد نورى قدم وصفًا خاصًا لهذا العمود الضخم محددًا فيه كافة أبعاده الا إننى سأذكر هنا أهمها، فلا يمكن أن نذكر شيئًا يثير هذا القدر من الإعجاب والدهشة دون أن نذكر الملامح الأساسية التى تكون هذه السمة التى تسترعى انتباهنا لها. وفضلا عن ذلك، فإن هذه الأبعاد ستفعنا فى الملاحظات التى سنسجلها، و ستقتصر على تلك الأبعاد التى لن نقابلها فى أى مكان آخر.

يبلغ الارتفاع الكلى لهذا الأثر سبعة وعشرين مترًا وخمسة وسبعين سنتيمترًا، كما يبلغ طول جذعه المنحوت من قطعة واحدة (فيما عدا الركيزة الصغيرة التى سنتحدث عنها فيما بعد) عشرين مترًا ونصف. أما قطر أكبر مقطع مستعرض له فيبلغ ثمانية أقدام وأربع بوصات. وتبين الرسومات الدقيقة لهذا الأثر أن هذا الجذع من الطراز الدورى، وهو القطعة الوحيدة من بين الثلاث التى تتسم بالذوق النقى الخالص وبالتالى الوحيدة الأثرية. أما التاج وبصفة خاصة القاعدة، فهما قصيران أكثر من اللازم ومن الواضح أنهما قد أضيفا للعمود بعد نحته. وأما الركيزة وهى قطعة أخرى مرتبطة بالجذع فالوزرة بها شديدة الارتفاع. ولما كانت العين قد اعتادت على ضمها لهذا الجذع ضمن تقدير ارتفاع هذا الطراز، فلاشك أن هذه الركيزة تسهم فى إظهار العمود، فى حجم أقل من الطراز الدورى، خاصة مع الشكل الكورنثى للتاج وانعزال العمود، أو على الأقل هذا هو الانطباع الذى تتركه لدينا فى الحال، وهو انطباع نستطيع أن نستشعره عند رؤية اللوحة رقم ٠٣٤ بل إننا لا نندهش كثيرًا من ضخامة الحجم الكلى لهذا الأثر إذا ما رأيناها على مسافة. ولكن إذا ما بدأنا فى مقارنته بنفسه أو

بشىء آخر يبعد عنه قليلا لوجدنا أنفسنا مثقلين من الشكل المهيب لكتلته. وكذلك يمكننا أن نلمس جزءًا من هذا الخداع البصرى إذا ما أخفينا ثم كشفنا على التوالى أسفل اللوحة رقم ٣٤ التى لا نرى فيها سوى رسم أولى للتاج.

وفى هذا المقام قد يجدر بنا عرض بعض الملاحظات بشأن طبيعة وضخامة العمل الآلى للتحكم فى الكتلة أحادية الحجر ثقيلة الوزن التى يتكون منها جذع هذا العمود على الرغم من صعوبة ذلك ومن شدة صلابة الحجر، وإعطائها تناسق ورونق على هذا القدر من الكمال. غير أننا قد عرضنا بالفعل ملاحظات مشابهة فيما يتعلق بالمسلات. والفارق الوحيد والجدير بالتسجيل هنا هو رشاقة مقطع العمود المعد لإحداث دورة كاملة , ولكن دون أن يؤدى إلى دوران هذا الجسم شديد الثقل، وهو ما كان يجعل تنفيذ هذا العمل أصعب بكثير من تنفيذ الأسطح المستوية لأضخم المسلات. والواقع أننى لم أقم بحساب وزن الأجزاء المختلفة لهذا الأثر حسابًا دقيقًا إلا لإعطاء هذه الظروف حقها من التقدير. وقد وجدت أن جذع العمود كان يزن مائتين وتسعة وثمانين ألفًا وثمانمائة وتسعة وستين كيلو جرامًا وأربعة وخمسين سنتيجرامًا، والتاج سبعة وأربعين ألفًا وتسعمائة وواحد وخمسين كيلو جرامًا وتسعةِ وسبعين سنتيجرامًا، والركيزة خمسين ألفًا وخمسمائة وسبعة وستين كيلوجرامًا وسبعين سنتيجرامًا، والقاعدة مائة واثنين وستين ألفًا ومائة وثلاثة كيلوجرامات وتسعة عشر سنتيجرامًا.

وفى ترجمة لهيرودوت[1] يذكر لارشر أنه وجد أن وزن إحدى الكتل المصرية أحادية الحجر قد بلغ سبعة وثلاثين مليونًا وثلاثمائة وستة وثلاثين ألفًا ومائتين وخمسين ليبرة. لكن إضافة إلى أنه بالغ بما يقرب الثلث عندما ذكر أن الثقل النوعى للجرانيت يبلغ مائتين وخمسين ليبرة بدلا من مائة وست وثمانين ليبرة تقريبًا، فإن هذه الكتلة الكبيرة التى ربما تكون قد تجاوزت إلى حد بعيد كافة الكتل من ذلك النوع التى اجترأت يد البشر على تحريكها وتشكيلها، ما كانت على الرغم من ذلك لتسلب عمودنا الرائع ما نسبناه له من تفوق لتونا. لا، فالشعوب المتقدمة فى الفنون والعلوم والموهوبة فى الوقت ذاته بأعلى درجات

(١) الجزء الأول ملحوظة رقم ٤٩٦.

الذوق الرفيع مثل الإغريق والرومان، والتى خلفت شعبًا عملاقًا مثل المصريين، هى وحدها التى استطاعت أن تجمع بين إتقان الجمال المثالى والأحجام الضخمة.

والجذع تالف بالقرب من الركيزة عند الجزء الجنوبى الشرقى أو من جانب الصحراء حيث تم رسم المنظور. ووفقًا لهذا الرسم فإن التلف يسود فى جزء لا بأس به من ارتفاع هذا الجانب ولكنه يظهر بوضوح أكثر فى طرفى الجذع، وبخاصة الطرف الأسفل على ارتفاع خمسة أمتار، والشق أو الصدع أعمق فى محيط الجزء السفلى[1] ويعزى هذا التآكل إلى الاختلاف الملاحظ بين رطوبة وبرودة الليل فى الأسكندرية وبين حرارة منتصف النهار التى غالبًا ما تكون مصحوبة بجفاف. وعلى الرغم من أنه لا يوجد ثلج فى مصر إلا أن هذا الاختلاف فى درجات الحرارة كبير وسريع إلى الحد الذى يجعله يؤدى إلى تفتيت أشد الأحجار صلابة كما يحدث فى أجوائنا، وتنتشر الأبخرة بغزارة أكبر فى الجزء السفلى من الغلاف الجوى ثم تتبدد بصورة فجائية أكثر من الجانب الشرقى، وهو الأكبر جفافاً فى الأسكندرية ومن الجانب الجنوبى وهو الأكثر حرارة. وهكذا فقد رأينا كيف يتضح هذا التآكل فى الجزء الجنوبى الشرقى وفى نفس الارتفاع الذى عادة ما تحدث فيه هذه الظاهرة فى هذا الإقليم. وقد أدركنا فضلاً عن ذلك كيف أن هذا التبخر الفجائى،الذى يتكرر كل يوم يؤدى شيئًا فشيئًا إلى تفتيت الجرانيت نفسه بصورة تماثل ـ ولكن على نحو مصغر ـ ما للجليد والأحوال الجوية السيئة فى مناخنا من أثر سريع (١١٨).

ويميل العمود بصورة ملموسة تجاه الغرب. ويقدر هذا الميل بتسعة عشر سنتيمترًا (سبع بوصات)، ويبدو أنه ناتج عن الأعمال التى جرت فى عصور مختلفة تحت القاعدة، وسوف نشير إليها[2]. أما الجزء السفلى من العمود فقد شُيد بطريقة غير متقنة على الإطلاق فقد وضعت فيه كتل حجرية من كافة

---

(١) هناك مبالغة فى الجزء العلوى من الرسم، وهو ما ذكر فى شرح اللوحة رقم ٣٤ .

(٢) انظرْ الأشكال الأربعة الموجودة على يسار اللوحة رقم ٣٤ .

الأنواع والأشكال والأبعاد دون أدنى ترتيب. بل إننا نجد جذوع أعمدة وضعت أفقيًا، وقطع أخرى رأسية. وأحجار زوايا هذا البناء مبعثرة ومحطمة، كما أننا نرى الطوق الذى يربط بينها متخذًا شكل أذناب السنونوة وقد صنع من الحديد أو البرونز، وأحد كتل الزوايا[١] عبارة عن قطعة جميلة من المرمر عليها كتابات هيروغليفية واضحة للغاية وقد وضعت _ وكذلك الحجر ذاته _ فى فوضى تامة. والجزء المنحوت بهذا الشكل من النوع النادر فى مصر وخاصة فى أطلال الأسكندرية (١١٩).

وفى أساسات هذا البناء[٢] نجد كتلة تلفت النظر بموقعها وبطبيعتها فى آن واحد فهى وحدها تقريبًا تسند العمود، وهى عبارة عن جزء من مسلة مقلوبة مصنوع من نوع من الكتالة، أو على الأصح من ركام مسنن صوانى يميل إلى اللون الرمادى وحصاه أو قطعه المقرنة تظهر بألوانها المختلفة داخل العجينة، إنها المسلة الوحيدة التى رأيناها من هذا النوع فى مصر (١٢٠). ويمكننا أن نلاحظ أن هذا الأسلوب من الدعامات وهذا النوع من الأبنية المحيطة يشبهان ما رأيناه أسفل مسلة معبد قيصرون. أما هنا فقد تم قلب هذا الجزء من المسلة ليكون بمثابة وتد مغلف تمامًا بهذا البناء الذى كان يدعمه بصورة ما عن طريق الاحتكاك نظرًا لنحافته من أسفل. وفى الوقت ذاته كان يمثل مساحة أكبر لاستقبال العمود بسبب العرض المفرط للجزء العلوى منه. أما البناء العلوى الذى نراه فربما أو يبدو أنه كان موضع إصلاح فى عصور مختلفة ؛ ولكن من المستحيل أن يكون تم أبدًا هدم جزء كبير من البناء السفلى الذى يهبط إلى أسفل كثيرًا، وكذلك المسلة ؛ وإلا لسقط الأثر كله. ومن الواضح من خلال كل الوصف الذى سبق ذكره أنه كانت هناك محاولات فى عصور مختلفة للقيام بهذا الهدم سواء كليًا أو فقط للبناء العلوى المحيط، لأننا نرى أن هناك أحجارًا قد انتزعت تاركة دعامة الوسط مكشوفة. أما بوكوك الذى كان قد رآه عاريًا فى أول رحلة له إلى الأسكندرية، فيقول:إنه لدى عودته كان قد تم ترميم كتلة البناء،

(١) انظر موقعه فى نفس اللوحة، شكل رقم ٨ ورسمها التكبيرى فى شكل رقم ٩ .

(٢) نفسه شكل رقم ٢ .

بحيث إن الجزء المتراجع السفلى كان يستخدم كدكة للجلوس عليها، أما الفرنسيون فقد وجدوه مهدمًا من جديد وفى الحالة التى نراه عليها الآن.

وكل هذه المحاولات مفهومة تمامًا فهى إما على سبيل الفضول المحض للوقوف على نظام أساسات أثر يثير الدهشة والإعجاب كهذا، أو نتيجة لأفكار العرب الذين يعتقدون أن هناك كنوزًا مدفونة تحت الأبنية الأثرية، وأن هذه الكنوز وراء تدافع الأوروبيين لزيارتها. ومهما يكن من أمر فيبدو أن العمود ظل دائمًا خلال العصور الحديثة فى نفس المكان الذى شُيد فيه فى العصور القديمة، وأنه لم تكن هناك محاولات فى تلك العصور لهدمه لأن الغرض الذى كان يمكن استخدام حطام هذا العمود فيه ما كان ليعوض التكاليف (١٢١)، حيث كان يوجد الكثير من مثل هذا الحطام بين الأطلال، ولو كانت هناك مثل هذه المحاولات للوحظ عند تقويض الجزء السفلى إن هذا الأثر لم يكن يقوم إلا على جذع المسلة، وأن هذا العمل الصادر عن الفضول البحت قد زعزع الجذع حتى جعله مائلا كما نراه، ولولاه لتوقفت عملية التقويض ولتم ترميم الأساس بالمواد التى نراها فيه.

والواقع أننا لن نعود إلى مناقشة أصل هذا العمود، ولكن سأكتفى بأن أسجل أن شهادة أبي الفدا ـ وهو أمير مثقف. ويقول: إن الأسكندرية تمتلك عمود سيفيروس[1] قد تتفق مع النقش الشهير الذى يقر فقط بأن هذا الأثر كان مكرسًا لدقلديانوس غير أن العمود ـ وكما سجل شاتوبريان بدقة شديدة أقدم بكثير من زمن إهدائه. وطرازه إغريقى من عصر سابق لحكم دقلديانوس. ولكنه لم يكن موجودًا فى عصر بلينى ويوسيفوس، وهما كاتبان جاءا بعد ذلك بفترة وتحدثا عن أكثر آثار الأسكندرية لفتًا للنظر (١٢٢) وإذا حاولنا الرجوع إلى الوراء قدر الإمكان وصولا إلى أصل هذا البناء، فقد نستطيع أن نعزيه إلى

(١) ويطلق عليه أبو الفدا عمود سقنى. وهذه الكلمة حاسمة فهى قلما تسمح بقبول تفسير أحد الرحالة المحدثين القائل بأن العرب يسمون هذا الأثر الصوارى وهو اسم يعنى العمود. وأن الكلمة تكتب بنفس الحروف التى تكتب بها Sévère فى العربية مما أتاح مجالاً للوقوع فى الخطأ.

عصر سبتيموس سيفيروس فى نهاية القرن الثانى. وقد كان الرومان لا يزالون يحتفظون آنذاك بقدر كبير من الذوق الرفيع فى المعمار ليقيموا فى الأسكندرية - وهى المدينة الإغريقية- عمودًا على الطراز الإغريقى . ومن ثم، فربما أقيم هذا العمود أصلا فى عصر سبتيموس سيفيروس، ثم تعرض لعدة إصلاحات وتعديلات مختلفة. ثم قام أحد الولاة واسمه بومبونيوس أو بومبى[1] بإهدائه إلى دقلديانوس (١٢٣). ويتفق هذا الافتراض أيضًا مع ما رأيناه سالفاً خلال البحث والمناقشات التى تمت حول عمليات التهدم والإصلاح وغيرها من الظواهر التى يمكن لهذا الأثر أن يكون قد تعرض لها فى العصور القديمة. ومن ثم فسأسميه "عمود مهدى إلى دقلديانوس" ؛ وذلك لتحرى المزيد من الدقة بما أن الإهداء هو الشىء الوحيد الذى نحن واثقون منه، أو "عمود دقلديانوس" لمزيد من الاختصار. وعلى الرغم من أن بلينى واسترابون لم يتحدثا عن العمود، إلا أنه قد يكون هناك من يقول بأن المعماريين الإغريق قد أقاموه فى عهد البطالمة، لأن استرابون وهو كاتب دقيق جدا وتناول آثار الأسكندرية بصورة أكثر تفصيلا من بلينى. لم ينطق بكلمة عن المسلات التى كانت بالتأكيد موجودة على الأقل فى عصر عالم الطبيعيات هذا. ومن جهة أخرى، ربما وضعت هذه المسلات أمام معبد قيصر فى الفترة ما بين رحلة استرابون وكتابة بلينى. أما بالنسبة للعمود، فقد كانت تشيد أبنية ضخمة فى عصر البطالمة، ولكنها كانت تبنى بكتل متوسطة الحجم وليست مثل هذه النماذج التى كانت القطعة الواحدة منها تحتاج إلى عمل شاق يتفق تمامًا وطابع قدماء المصريين - كما بينا ذلك من قبل- بل لا يبدو حتى أن الملوك الإغريق قد أعادوا نحت قطع ضخمة لاستخدامها بنفس السبب، لأنهم نقلوا المسلات ووضعوها كما وجدوها تقريبًا وهؤلاء الإغريق، بل الرومان فى عصر سيفيروس كانوا أقل استعدادًا لاستخراج مثل هذه الكتل أحادية الحجر من جبال الشلالات، وهو ما يمكن تخمينه على الأقل من خلال الأبعاد المعتدلة للمنشآت التى أقامها الرومان فى مصر فى عصر الإمبراطور

---

(١) ومن هنا ربما جاء اسم عمود بومبى.

هادريان ، فى مدينة الشيخ عبادة. غير أن هذه الأعمدة الخاصة التى تحمل تماثيل أصبحت شائعة الاستعمال فى ذلك الوقت (١٢٤) كما يتضح من عمود تراچان، وانطونيانوس فى روما، وعمود الإسكندر سيفيروس فى الشيخ عبادة. والحال أننا لاحظنا أنه يبدو من المحتمل أن يكون قدماء المصريين قد أقاموا أعمدة من الجرانيت، وبخاصة هذا العمود الإغريقى. ولا نستطيع أيضًا القول بأن الرومان قاموا بإعادة تشكيل عمود مصرى أثرى. بل علينا أن نستنتج من كل ما سبق أن فنانى عصر سبتيموس - على وجه التقريب - قاموا بصقل إحدى المسلات الأثرية ليأخذوا منها هذا الجذع الجميل الذى نراه. وقد رأينا بالفعل مسلات ذات أبعاد تسمح بذلك بما أن العمود لا يبلغ سوى ثمانية أقدام وأربع بوصات فى أكبر قطر له، ومترين ونصف فى الحلية البارزة السفلية (الكعيبة)، وبخاصة تلك المسلة التى يبلغ طولها ثمانين ذراعًا، والتى نقلت إلى الأسكندرية (راجع ملحوظة رقم ٧٨) ولا نعلم مصدرها. فلا وجود لها فى أى مكان على الرغم من سهولة التعرف عليها خاصة من خلال الضلع القائم بدلا من إحدى زواياها، حتى أنقاضها كان لابد من التعرف عليها بسهولة، كذلك نظرًا لضخامتها الهائلة التى تتعارض مع تدميرها بالكامل، وخلوها من النقوش الهيروغليفية كان يشجع على استخدامها ككتلة فى أغراض أخرى، كما أن جمال أبعادها وخامتها كان جديرًا بأن يستفيد به الأباطرة بدلا من تدميرها. ومن ثم فهناك احتمال كبير جدًا أن يكونوا قد شكلوا بها عمود دقلديانوس الكبير.

والربوة الصغيرة التى يقوم عليها هذا الأثر ليست فى الحقيقة سوى كومة من الأنقاض، وكذلك التلال الصغيرة المحيطة كافة. وتأسيسًا على ذلك وعلى حالة ونوع بناء القاعدة، فإننا نعتقد أن أرضية هذه الكومة من الأنقاض أو بعض الدرجات التى كانت مشيدة حولها، مثلما هو الحال بالنسبة لمسلة معبد قيصرون، كانت تغطى هذا البناء البدائى. وقد هبطت هذه الأرض المحيطة شيئًا فشيئًا بفعل الرياح والأمطار فى ذلك المكان الذى نراه فيه، أو أنه تم هدم الدرجات وكشف الأساسات عند القيام بعمليات البحث سواء لاستخدام مواد بناء هذه الأجزاء المتراجعة فى إنشاءات أخرى، أو بحثًا عن الكنوز المزعومة، أو

لمجرد التعصب الأعمى الذى أدى إلى إتلاف وتخريب بقية مبانى الأسكندرية. وبالفعل، هناك احتمال كبير جداً - خاصة ما لم نجد حول العمود آثارًا لأى بناء ضخم ملحق به - أنه كانت توجد ساحة أو فناء مرتبط بهذا الأثر المنعزل، وأنه لم يكن قد شيد من أجل دقلديانوس ولا سيفيروس ولا أى إمبراطور آخر، فوق موقع على حالته البدائية أو مكدس، دون أن يضاف إليه أى بناء يلحق به على الأقل فى مستوى الأرض الطبيعية أو فى مستوى البقعة المحيطة.

والمعلومات المتوافرة لدينا عن البناء الذى ربما كان يحيط بهذا العمود قليلة؛ كما أننا لا نرى سوى القليل من الأطلال. ويبدو أن الكُتّاب العرب هم وحدهم الذين تحدثوا عنه[1] ولكنهم يتسمون بعدم توخى الدقة والمبالغة. وقد اعترفنا بداية لتونا بأن الجذع لم يكن مأخوذًا بشكله وهيئته من بناء آخر فلا يوجد فى أطلال الأسكندرية، على شاطئ البحر أو فى أى مكان آخر عمود من الجرانيت بهذا القطر (بل إننا لا نرى ذلك فى مصر (١٢٥)، ولا فى روما ولا فى أى مكان فى العالم بأسره) يمكن أن يجعلنا نفكر فى أنه كان ينتمى لبناء يضم أعمدة أخرى مشابهة، لكن بعض الرحالة المحدثين وجدوا بالقرب من موقعه قطعًا من أعمدة مصنوعة من نفس الخامة ويبلغ قطرها أربعة أقدام، وبعض الأساسات القديمة ومنشآت على شكل مربع كبير الحجم وكلها أشياء تتفق إلى حد ما مع كتابات العرب فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ومع ذلك فالعمود قائم فى مكان يعد من أكثر بقاع المدينة القديمة ارتفاعًا. بل إنه يشغل أعلى نقطة تقريبًا فى هذا التل ، وهذه القمة لم تكن تمثل هضبة واسعة تسمح بإقامة مبنى ضخم نسبيًا. قد يكون ألحق بهذا الأثر الذى ربما كان هو نفسه جزءًا منه. وأعتقد أن الأساسات القديمة التى نراها قريبًا من العمود تدل بوضوح على أنه قد أقيم فوق أطلال المدينة الأثرية[2]. وبالتالى فى عصور لاحقة لتلك التى شهدت أوج رخائها، فى بداية القرن الثالث مثلا. كذلك، فأسلوب إنشاء أساسات هذا العمود

(١) راجع ما ذكرته سابقًا فيما يتعلق برمميف ميناء كان قباطنة أحد الأساطيل التركية قد أمروا بإنشائه من أجزاء أعمدة استخرجت من أطلال الأسكندرية.

(٢) سنرى عما قريب عند الحديث عن الاستاد إنه كان يوجد فى هذا الحى الكثير من المعابد القديمة التى كانت مهجورة بالفعل فى زمن استرابون.

تؤكد ذلك ؛ لأن القاعدة موضوعة على قطعة من مسلة (١٢٦) وعلى بناء محيط وساند مرتفع جدًا على الرغم من أنه كان متوازيًا، ولابد أن كل ذلك كان يرتكز على عمق كبير على منشآت قديمة، لا على تربة تم جلبها حوله. فلو كان العمود يقوم على الأرض الطبيعية لكان أكثر انخفاضًا ولظهرت القاعدة المغطاة التى نراها أوضح من البناء المحيط القائم على مستوى الأرض الأصلية بصفة عامة. وقد نرى، على الرغم من هذا الترتيب المزعج للأشياء، أجزاء من بقايا جدران المبنى الملحق مرتفعة، على الأقل، فى مستوى قاعدة الساحة أو الدرجات التى تحدثت عنها.

وبناءً على كل هذه الملاحظات، يمكننا أن نخمن أن عمود الأسكندرية قد أقيم منعزلا فوق الأطلال المهجورة للمدينة فى عصر دقلديانوس. وهذا الافتراض يتفق أيضًا والطابع الذى يتسم به أثر مكوّن من قطع غير متجانسة، ومرّمم بطريقة عشوائية إلى حد ما، وقد راق لأحد ولاة مصر أن يخصصه بإهداء جديد للطاغية دقلديانوس.

ملعب تم هجره منذ زمن

حين النزول أسفل هذا التل والاتجاه مباشرة ناحية الجنوب، ندخل فى مضيق صناعى (١٢٧) أو كان على الأقل قد تم حفره فى الصخور. وهو على شكل مستطيل واسع وعميق إلى حد ما تحيط به أطلال مبان رُدمت تحت الأرض؛ ويذكر أن الجزء السفلى من هذا المضيق كان يستخدم فى ألعاب المسابقات العامة وهى المساحة التى كانت تحمل اسمى السيرك فى اللوحة رقم ٨٤ فى لوحات الدولة الحديثة وميدان الخيل[١] فى اللوحة رقم ٣١ فى لوحات الدولة القديمة ولم يكن فى هذا الأثر ما هو لافت للنظر _ فيما يبدو- سوى ذلك البروز (الذى يطلق عليه باللاتينية Spina قياسًا على العمود الفقرى) ولا يزال

(١) كان سكان البلد يسمونها بأسماء عدة من بينها "جرجه".

ظاهرًا منه جزء واضح يرتفع فوق الأرض بقليل[1]. وهذا النتوء تم تجهيزه فى كتلة الصخر التى تم حفرها من الجهتين بعمق أكثر. وكان هذا هو الجزء الرئيسى من المدرجات والملاعب وميادين الخيل الخاصة بالقدماء، وهو أرضية مسطحة طويلة وضيقة كان الرياضيون يقومون بالدوران حولها بخطى واسعة دون الوصول للحافة. ونرى على هذا النتوء آثارًا لأعمدة من الجرانيت كانت تستخدم فى تحديد وتزيين تلك الأرضية (١٢٨).

والطرف الغربى للتخطيط الذى يوجد بعد النتوء محفوظًا فى حالة جيدة إلى حد ما وينتهى على شكل نصف دائرى مثل جميع حلبات اللعب المعروفة.

وقد ساعد شكله هذا على العثور على شكل الطرف الآخر (الذى لم يكن ملحوظًا من أول وهلة) دون الاضطرار إلى المخاطرة بإجراء تعديلات أو إصلاحات فى الرسم. ويبدو أن المدرج المحيط بالساحة كان يتكون من حدين يفصل بينهما ممر أفقى واسع إلى حد ما. أما المنحدر الأعلى الذى لا يتضح شكله تمامًا اليوم على الساحة ولكن يبدو أنه كان طويلا جدًا فقد كان يتيح رؤية الألعاب لأكبر عدد من المشاهدين. وقمة المنحدر المنخفض كان يحيط بها درابزين لا تزال أطلاله موجودة حتى الآن مع أطلال مقاعد المدرج التى كانت تغطى هذا المنحدر. أما السفح فقد كان يرتكز على دكة حجرية يطلق عليها ركيزة مزخرفة فى التفسير الوارد باللوحة ويذكر أن منطقة ما تحت هذه الأساسات كانت مطابقة للممر أو الساحة الوسطى رغم أنها أضيق وكانت تؤدى نفس الدور، فضلا عن أنها كانت تستخدم فى استيعاب مشاهدى الصفوف الأولى وتكوين صف من الأماكن المميزة[2]، إذ كان ارتفاعها يصل إلى سبعة أقدام، كما يلاحظ وجود آثار لمقاعد المدرجات.

ويوجد على الجانب الشمالى للركيزة المزخرفة ناحية الطرف الشمالى

---

(١) انظر أيضًا التخطيط الخامس: الشكل رقم ٢، اللوحة رقم ٣٩ فى المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة والقطاع فى الشكل رقم٣.

(٢) المنصة الخاصة بالأماكن ا" _ . من المعروف أن الشخصيات الرئيسية فى جميع الألعاب يجلسون على هذه القاعدة .

أساسات قاعة صغيرة يمكن أن تكون المنصة الخاصة بالأماكن الأمامية التى كان يجلس عليها الحكام ومديرو الألعاب أو من يعملون معهم فى الإدارة.

وكانت هذه القاعة موجودة على الجانب، قبالة حدود الخروج والعودة على نحو التقريب (١٢٩). وإذا اتجهنا قليلا إلى الشمال ناحية منتصف الخط الموازى لطول الملعب لرأينا أساسات حوض من الطوب المطلى بالأسمنت تصل إليه مياه النيل عن طريق قناة فرعية من قناة الأسكندرية الكبرى.

وفى المكان المواجه فى الجنوب، وفى مضيق كبير إلى حد ما ومتناسق الشكل فى الاتجاه العمودى على مركز الحفر[١] توجد أطلال خزانين موجودين بمحاذاة القمة الخارجية للصخرة. ومن الثابت أن كل هذه الأحواض كانت خاصة بالملعب وتابعة لجهاز الإنشاء إما بغرض استحمام العدائين أو بغرض رى الحلبة بالماء، وكذا المدرج ومنافذه والوقاية من الأتربة لأننا سنرى أن هذا الأثر لم يكن حلقة للألعاب ولم يكن ممكنًا القيام بأى معركة بحرية من خلاله، ولم يكن هناك تجويفات لتتجه إليها هذه المياه[٢].

ومن جميع الجوانب وبخاصة الطرف الشرقى للنتوء نلاحظ وجود أنقاض كثيرة لأعمدة من الجرانيت وجزءًا من مسلة تدعو إلى الاعتقاد بأن النتوء كان مزينًا بها وأن الأثر ذاته كان محاطًا بممرات معمدة، أما تلال الأنقاض التى نراها فى الجنوب والغرب وعند الحدود وجزء من النتوء، فهى تدل على حدوث عمليات هدم وتنقيب كثيرة ونجد أيضًا فى الجزء الشرقى أطلالاً عديدة مطابقة لحدود الجزء المقابل ساعدت على تحديد هذا الطرف الذى يسوده شىء من الفوضى أكثر من الطرف الثانى. وبصفة عامة فإن هذا الأثر قد حفر فى الصخر واستخدم الكثير من أطلاله فى ملء وتطويل الأماكن التى لم تصل إليها الصخرة. و الأمر اللافت للنظر هو أن نصف الدائرة الغربية التى حفرت فى

(١) لا شك أن الرياضيين كانوا ينزلون إلى الحلبة من خلال هذا الممر حيث لا نرى أى مخرج آخر.

(٢) يقصد بكلمة naumachie عرض لمعركة بحرية وكلمة Euripe تعنى فتحة طولية عميقة تستخدم فى ميادين الخيل لحماية المشاهدين من عربات السباق.

الصخرة يرتفع مستواها قليلا عن أرض الحلبة كما يوضح المقطع الثالث،الذى يُظهر أيضًا المساقط المائلة أو العمودية و الزاوية البارزة للنتوء. ويرجع وجود هذا الفارق فى المستوى إلى أن الأرض كانت مغطاة ببلاط من الحجر المقصوب السميك إلى حد ما والذى يأخذ اليوم أشكالا بارزة جدًا. وتتضح بقايا آثار هذا البلاط فى أماكن عديدة وبصورة ظاهرة، ويلاحظ أن عرض حجر التبليط محدود ومنتظم فى كل مكان ويقل عن عرض البلاط المستخدم فى قاع الحوض المحفور فى الصخرة كما لو كان يوجد حولها منطقة أو ممر غير مبلط أو مجهز لتركيب البلاط عليه ولا يوجد- بعد ذلك- ما يشير إلى أن هذه المنطقة كانت فتحة طولية عميقة ردمت. ويلاحظ أنه تم هدم الممر المبلط لاستخدام مواده فى أماكن أخرى ولحرث وزراعة القاع. ويذكر أن حتمية توصيل مياه الأمطار النادرة فى هذا البلد من جميع الجوانب إلى هذا المكان وتمريرها إلى كافة مساحة القاع قد عجلت بعمليات التنقيب بعمق شديد.

فالواقع أن جميع الأجزاء المنخفضة قليلاً حيث يمكن أن تتدفق المياه مزروعة بالشعير كما يتضح من الرسم حيث تظهر كل هذه الخيوط وكذا آثار خطوط المحاريث.

وهذه الأرض المنخفضة اليوم عن مستوى الأرض القديمة للملعب هى أرض رملية كتلك الموجودة فى أنحاء الأسكندرية كافة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا البلاط هو أول دليل على أن هذا المكان لم يكن ملعبًا أو ميدانًا للخيل. فكيف كان يمكن الجرى بخيل الركوب أو بعربات السباق على بلاط من الحجر المقصوب؟ وأين هو المنحدر الذى يدل على إمكانية إنزالها فى هذا التجويف؟ فالمضيق الذى أشرت إليه إنما كان مسدودًا بالخزانات. ترى من أين كانت تنطلق إذن الخيول والعربات؟ ولماذا كان النتوء فى منتصف عرض الحلبة الصغيرة فى حين أن العرف فى الملاعب يجرى بتقسيم الحلبة إلى جزأين غير متساويين لترك مزيد من المساحة فى الجانب الذى تنطلق منه العربات جميعًا تزيد عن تلك الموجودة فى الجزء الذى تصل إليه ذات العربات متفرقة ونلاحظ أن هذه المساحات غير متساوية فى ملعب كاراكالا خارج روما.

وإذا تفحصنا الآن الحلبة بعناية شديدة لرأينا أنها تمثل من حيث العرض الداخلى واحدًا وخمسين مترًا وستين سنتيمترًا (ست وعشرون قامة وقدمان وعشر بوصات) بما فى ذلك الرصيفين أو الممرين المحيطين بالبلاط،اللذين لا يستخدمان فيما يبدو فى السباق. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الست والعشرين قامة ونصف أقل بكثير من ثلث ولكنها لا تزيد كثيرًا عن ربع العرض العادى للملاعب أو ميادين الخيل القديمة إذا ما سلمنا بأن عرضها كان يصل إلى غلوة واحدة أو خمس وتسعين قامة، وعلى هذا يكون العرض الداخلى للحلبة نصف العرض العادى للملاعب إذا ما كانت تصل إلى نصف غلوة أو ٤ جوجير (١٣٠). أما النتوء الذى قيس على المسقط فيبلغ حوالى أربع قامات (إحدى وعشرون قدمًا على الأقل) من حيث العرض الأمر الذى من شأنه تقليص عرض الحلبة من كل جانب للنتوء لتصل إلى اثنتى عشرة قامة إلا ثمان عشرة بوصة. ومن الواضح أن مثل هذه المساحة كانت ضيقة للغاية بالنسبة لسباقات العربات، ويمكن أن نتخيل ذلك إذا ما قورنت مع مساحة الممرات العادية فى الطرق الكبيرة لدينا التى يصل عرضها إلى ثلاث قامات لتسمح لسيارتين تسيران بسرعة متوسطة من أن تتلاقيا دون التعرض لأى خطر. ويمكن عقد مقارنة مباشرة مع عرض ميادين الخيل المشهورة فى العصور القديمة (١٣٠) لتؤيد جميعها الرأى الذى طرحته، وبالتالى فإن هذا المكان كان مخصصًا فقط لسباق الجرى. وسأتحقق من ذلك مرة أخرى بطريقة أكثر إيجابية حينما نجد أن فى جغرافيا (رحلة أناشارسيس الصغير) ورد عرض ملعب أوليمبى مساويًا لعرض الأثر السكندرى.

وحيث إن أبعاد حلبات اللعب القديمة التى أريد مقارنة تلك الحلبة بها قد أعطيت لنا بصورة عامة فى الحاشية ١٣٠ من الإيضاحات دون تخصيص أى شىء يتعلق بالنتوء، سآخذ بالطول الداخلى بين طرفى الركيزة المزخرفة وهو أكثر الافتراضات تباينًا مع افتراضى. والحال، أننى أجد على التخطيط أن هذه المسافة تقدر بمائتين وأربعة وثمانين قامة وثلث. أو ثلاث غلوات مضبوطة أى ثلاثة أرباع طول الملاعب وميادين الخيل التى كانت تبلغ جميعها أربع غلوات (أو

ثلاثمائة وثمانون قامة) وليس هناك مجال للشك فى أن الملعب المدرج الأوليمبى هو المقصود هنا لأن ألعاب سباق الجرى وهذا المكان الذى خصصناه لإقامتها فى مدينة مثل مدينة الأسكندرية كانت ذات تأسيس يونانى(١).

من المعروف أن كلمة ملاعب كانت تطلق فى اليونان على الأماكن المخصصة لسباق الجرى أيًا كان الاختلاف ما بين أبعادها والقياس المسمى بهذا الاسم خاصة فى العصور الأولى؛ وكبر حجم هذه الأماكن المخصصة للسباق لم يتجاوز حدودًا معينة وجاء مطابقًا للملعب المدرج الأوليمبى

وتجدر الإشارة إلى أن الشكل العام لهذه الحلبة يؤكد كل افتراضاتى فهذا الشكل الطويل جدًا والمتناسق هو شكل الملاعب المدرجة التى نجدها فى الملاعب الرياضية وميادين الرياضة فى أثينا، وكذا ملاعب بيزنطة والأوليمب (١٣١).... إلخ.

وإذا لم يكن مؤكدًا تمامًا أن الملاعب المدرجة كانت دائمًا مغلقة من طرفيها بأنصاف دوائر متساوية مثل ملعب الأسكندرية، فمن الثابت على الأقل أن جميع الملاعب الرومانية كانت تنتهى بخط مستقيم فى أحد أطرافها لتصطف فيه عربات السباق، وهو ما لم نجده إطلاقًا فى هذا الملعب المميز. ولا يمكن حتى أن نسميه ملعبًا، فلم يكن يعنى بالنسبة لليونانيين سوى مرادف ميدان الخيل عند الإغريق. ومن ثم يزيد اقتناعى بأن هذا المكان لم يستخدم إلاّ للغرض الذى ذكرته أو فى ألعاب مماثلة مثل المصارعة والملاكمة ورمى القرص والقفز ورمى الرمح (١٣٢) .... إلخ.

وهذا الاتفاق الموجود بين الأطلال والمفاهيم التاريخية الخاصة بالألعاب الرياضية التى كانت تمارس فى هذا الملعب لافتة للنظر. ومن الأهمية بمكان الحصول على مسرح خاص لممارسة سباق الجرى لدى القدماء وهو أثر لا نجده فى أى مكان حسبما أعرف من بين الآثار القديمة، أو لا نجده على الأقل إلا فى المعلومات الناقصة التى استقيناها عن الآثار التى سبق وتحدثت عنها.

---

(١) أقول فى الأسكندرية المدينة اليونانية- لأن الميادين المربعة الكبيرة فى مدينة طيبة والألعاب التى كانت مخصصة لممارستها هناك كانت ذات طبيعة وأصل مختلفين.

فكل التعليقات وعمليات البحث المضنية عن هذا النوع من الألعاب الرياضية أو الخاصة بعدد أو مدة السباقات يمكن أن تتضح عن طريق هذا الرسم. فأغلب الافتراضات الموضوعة عن العادات المتبعة فى هذه الألعاب وتوزيع المشاهدين.... إلخ، يمكن التحقق تمامًا منها هنا أو حتى تصحيحها.

وهكذا لم يمكن حتى الآن تحديد اتساع عرض هذه الملاعب وسنجده مفسرًا تمامًا أو على الأقل سنرى أيًا من المقاييس التى سبق وقدمناها ينطبق عليه ؛ لأنه يبدو أن هذه الأبعاد كانت متنوعة أكثر مما يعتقد. ويسود الاعتقاد أن طول الحلبة الخاصة بسباق الجرى لم يكن يزيد (كما يقال يقينًا) عن غلوة واحدة وسنجد هنا ما يثبت العكس (١٣٣).

ولم أزعم خلال هذا البحث تحديد أشكال وأبعاد الأماكن المختلفة التى كانت مخصصة لممارسة الألعاب العامة للقدماء، فالمادة قليلة ومليئة بالمعطيات المختلفة وغير المؤكدة مما أدى إلى القيام بعمليات بحث غريبة ونادرة حتى هذه الأوقات الأخيرة. وأردت أن أبرهن مع الأخذ فى الاعتبار بهذه الأشكال والأبعاد أن هذه الحلبة لا يمكن أن تكون ملعبًا أو ميدانًا للخيل ولم تكن سوى ملعب مدرج مزدوج ولكنه يخرج عن النسب المعروفة، وأبرهن أيضًا أنه كان من الخطأ الادعاء بأن كل هذه المبانى شيدت على طراز مشترك.

ومن الثابت أن هذا الملعب المدرج كان شيئًا آخر غير ملعب باب كانوب الذى تحدث عنه استرابون. فقد ميز هذا العالم الجغرافى بوضوح الملعب المدرج وميدان الخيل ولم يأخذ فى الاعتبار إلا بواحد من كل نوع كما سنرى وهذا ما يؤكد أيضًا افتراضاتى. وهذا الملعب هو ملعب استرابون الموضوع فى داخل المدينة. وفى حديثنا عن المساحة التى وصلنا إليها والممتدة على الخط الجنوبى الشرقى وحتى الشمال الغربى بجانب القناة والمعابد القديمة التى وجدت هناك شبه مهجورة بسبب بناء معابد نيكوبوليس والألعاب والمدرج.... إلخ، والتى تجتمع كلها فى هذا المكان الأخير ويضيف «كلها» (بما فيها الملعب) وقد تم بناؤها قديمًا

(شمال القناة) أوضح أنها أصبحت اليوم مهملة. وكان هذا الملعب القديم فى نيكروبوليس، الذى تحدث عنه استرابون (١٣٤) وأقول فى نيكروبوليس؛ لأنه كان يجب أن يكون هناك ملعب ومدرج فى نيكوبوليس كما سنتحدث عنه فى مكانه أو ببساطة كانت السباقات والألعاب الأخرى تمارس فى هذا المدرج الذى بناه الرومان.

القناة الصالحة للملاحة - القناة الفرعية الرابعة الموازية

عند خروجنا من الملعب المدرج، فإن الطريق الذى نسلكه يمر بجزء من القناة المحاذية لبحيرة مريوط التى ترجع فجأة وتتجه ناحية ميناء كيبوتوس. ويأخذ عرض هذه القناة ـ البالغ من سبعة إلى ثمانية أمتار ـ فى النقصان ويتقلص تقريبًا ليصل إلى أبعاد آخر قناة موازية. وهذا الفرع يعبر من فوق الأرض. الجزء الجنوبى الغربى من المدينة القديمة ثم من تحت الأرض يمر بعرض المدينة العربية ثم يقوم المكان الحالى[1] بتموين السفن فى ميناء أونوست، ونرى فى طرف هذه القناة ناحية اليسار وفى المرفق ذاته الذى تشكله لكى تدخل إلى المدينة القديمة الشق الذى يوصلها ببحيرة مريوط من جهة وميناء كيبوتوس من جهة أخرى عن طريق القناة الفرعية الخارجة عن النطاق العربى والتى تؤدى إلى البحر. ولم يتحدث أى شخص عن هذه الفتحة اللافتة للنظر ولم نجد لها أى طابع خارجى يتعارض مع اعتبارها أثر قديم. فهى توجد فى مجرى الوادى الصغير الذى رأينا مصبه فى الموضوع الخاص بميناء كيبوتوس..

وهى تشكل امتداد قناة استرابون على طول الطريق من خلال القناة الملاحية. والأرض. التى حفر فوقها هذا الفرع بدءًا من التلال التى تحد القناة الكبيرة الحالية والتى تتوقف بالقرب من الملعب القديم وحتى الممر الأرضى - تعتبر غائرة بصورة كبيرة. ويذكر أن هذا الملعب على مستوى أفقى يشغل مساحة كبيرة ويتكون فيما يبدو من رواسب طمى كونتها المياه رغم أنها لم تعد مغمورة بالماء.

---

(١) تبدو هذه القناة حديثة.

ويلاحظ فضلا عن ذلك أن قناة الاتصال هذه من النقطة التى تتجه منها قلما تبتعد عن انخفاض الأرض التى تقف عليها، ولا يمكن أن تكون هى نهر النيل الذى تحدث عنه هيرتيوس والذى كان يستخدم حسبما يقول فى شرب السكان وملء صهاريج المنازل الخاصة. فأى شكل أعطاه هذا الاسم وهذا الاتجاه الرئيسى لهذه القناة الفرعية القصيرة المفتوحة بين حوضين كبيرين للماء شديد الملوحة ؟، فى حين أن القناة التى اشتقت من ثغر كانوب تستحق أكثر هذا اللقب؟ فالشكل المقصود هنا لا يمكن أن يكون سوى وسيلة إضافية لاتصال الموانى مع بحيرة مريوط (المتصلة هى أيضًا بالمرسى عن طريق فتحة أخرى فى الصخر سنراها فيما بعد). وتجدر الإشارة إلى أن الجزء السفلى من قناة الأسكندرية الكبرى فى النيل الذى كان مخصصًا لملء الصهاريج فى أى وقت والذى تم تكييف القنوات الفرعية الأربع الموازية القديمة وفقًا له، قد وجه ليصب ناحية البحر فى هذا الفرع الصالح للملاحة[1] وذلك فى عصر لاحق لعصر استرابون.

وهذا الفرع كان يمر فى اتجاهه الأول- بين تلين كبيرين تشكلهما بعض الأطلال، وهما ظاهران تمامًا فى اللوحة رقم ٨٤ فى لوحات الدولة الحديثة ويمكن أن تكون تلك هى أنقاض أكتاف حجرية لجسر تم بناؤه فيما بعد فى مكان أبعد ناحية الشرق (وسمى الجسر الأول) كما سنرى بعد قليل.

وحينما قام العرب بعد ذلك ببناء النطاق العربى من ناحية نيكروبوليس احتفظوا بامتداد هذه القناة ومصبها فى ميناء كيبوتوس وفى البحر كى تستخدم كقناة بطول هذا الجزء الملىء بالأسوار. ولكن بعد فترة طويلة حينما تم ردم هذا الميناء الصغير تمامًا، وتم هجر الملاحة من البحيرة إلى البحر قام العرب بتحويل القناة الصالحة للملاحة الموجودة أسفل التلين ووجهوها ناحية الجسر الأول الذى يسمح بمرور الزوارق و أوصلوها كما نرى إلى آخر قناة فرعية، لتسير فيها هذه الزوارق حتى أسفل أسوارهم التى قاموا بتقليصها، ولجلب الماء العذب فى الجزء الذى احتفظوا به من المدينة القديمة. ويرجع حتى الآن أن يكون قد تم بناء الجزء المغطى من هذه القناة بدءًا من ضواحى النطاق العربى فى الجنوب

---

(١) لأن استرابون لا يصف قناة النيل كما لو كانت مفقودة فى هذه النقطة.

الشـرقى وحـتى مـيناء أونوست وقت القـيام بكل هذه التـغـييـرات أو ربما تمت الاستفادة من إحدى هذه القنوات الفرعية الأربع القديمة التى كانت محفورة تحت الأرض لتوزيع مياه النيل فى مدينة الإسكندر والبطالمة.

والقناة الصالحة للملاحة القديمة التى أصابها التشوه بسبب تغييرات الاتجاه والغرض منها وبسبب عدم وجود صيانة واجتياح الرمال والأنقاض قد فقدت كثيرًا من عرضها. وكانت نسب هذه القناة حتمًا فى غاية الجمال لأنها كانت تستخدم كممر لحركة التجارة العظيمة فى البحيرة وفى الأجزاء العليا والسفلى لمصر، بالإضافة إلى مينائى كيبوتوس وأونوست وحتى فى البحر المتوسط يتحدث كل المؤلفين القدامى عن هذا النشاط الكبير للعمليات التجارية، والجسر الأول عربى[1] تمامًا، كما أن وصفه يخرج عن نطاق موضوعى، ولكن وضعه فريد ويبدو الآن بارزًا وخارجًا عن البناء. ترى فيم كان يستخدم؟ وإلى أين كان يؤدى مباشرة؟ إنه لمن العجب معرفة ذلك. ونلاحظ تمامًا أن الجسور الأخرى تستخدم الآن للاتصال ما بين المدينة التركية والأجزاء المزروعة من البحيرة اليابسة ولربطها قديمًا مع بقية الحقول فى القرون التى كانت القناة الكبيرة تظل فيها فترة طويلة مليئة وصالحة للملاحة كل عام. والأوضاع التى تأخذها هذه الجسور تعد على الأرجح بمثابة نقاط مرور للاتصالات القديمة بين سكان المدينة فى عهد الإمبراطورية الرومانية. إلا أن الجسر الأول يعتبر غير مجد الآن وذلك منذ فترة طويلة. ومع ذلك تمكن العرب الشرقيون عند إرجاعهم الجزء الجنوبى الغربى من النطاق من الاحتفاظ ببعض العادات فى أطلال تلك المنطقة التى كانت قد أصبحت ضيعات وحدائق للمدينة العربية. وكان لزامًا على سكان هذه الأحياء الخارجية توفير وسائل للخروج من الخندق المحصن التى كانت القناة الكبيرة تشكله حولهم والاتصال بالمضيق والمقابر ومدينة نيكروبوليس.

وحينما حاولوا تغيير اتجاه القناة الصالحة للملاحة أسفل التلين، اضطروا إلى إحلال الجسر اليونانى أو إيجاد وصلة مساوية إما على الشارع الطولى الكبير فقط أو على عديد من الشوارع الموازية له، وبناء الجسر الأول على بعض

(١) انظر اللوحة ٩٩ الدولة الحديثة، الجسر الثانى المكون من نفس النوع.

أنقاض الطريق القديم[1] من أجل مستلزمات هذه الضيعات والمزارعين والبحارة الذين يسكنوها.

باب نيكروبوليس
الطرف الغربى للمدينة القديمة

نلاحظ من الطرف الآخر للقناة الصالحة للملاحة مقابر واسعة موجودة خارج المدينة، وذلك وفقًا لشكلها المعترف به، وتابعة لمدينة نيكروبوليس كما سنرى. ولهذا السبب نحيل دراسة هذه المقابر إلى الجزء الخاص بالمناطق الخارجة عن المدينة. وإذا ما تتبعنا المنحنى الذى يشكله امتداد النطاق القديم لوصلنا إلى مكان باب هذه الضيعة الذى يجب أن يكون فى مكان ما بضواحيها فى نقطة مجاورة لشاطئ البحر، ونبدأ فى ملاحظة وجود بعض المقابر على الشاطئ الموجود أيضًا خارج حدود الأسوار اليونانية. ويوجد هناك بعض التلال الكبيرة لوضع هذا الباب أو أسوار جانبية لهذا النطاق.

ولا نكتشف أية آثار أخرى فى هذه المنطقة الخارجية عن النطاق العربى ولاسيما فى اتجاه الشارع الطولى بدءًا من الباب القديم من نيكروبوليس حتى القناة الصالحة للملاحة التى تسير بطول القنوات الطولية المحفورة فى مدينة العرب الشرقيين. وبالفعل كان يتعين وجود قليل من المبانى فى هذا الجزء الضيق وفقًا لشكل الكلاميد غير المتجانس، ولأن "المدينة" كما يقول استرابون "كانت تمتد لمسافة قليلة ما بعد القناة". نلاحظ هنا الاتفاق التام بين البراهين المقدمة والآثار الموجودة فى الملعب والتفسيرات التى حاولت تقديمها والأبعاد الرئيسية التى أخذت بها بالنسبة لكل هذه الأشياء فلا عجب ألا نجد أية أطلال حول ميناء كيبوتوس الصغير الذى تم هجره وردمه وقام العرب بإرجاع النطاق العربى من خلفه.

---

(١) نرى فى اللوحة رقم ٨٤ أن محور هذا الجسر موازيًا لواجهتى النطاق العربى ولكل الشوارع الطويلة فى المساحة المربعة. ويمكن أن يكون هذا المحور خاصًا بأحد هذه الشوارع.

ونرى أيضًا الممرات التى تم الحفاظ عليها نتيجة الاستخدام المستمر وهى تابعة للشارع الطولى القديم وقد خرجت من النطاق العربى ووصلت إلى الباب القديم لنيكروبوليس وامتدت إلى مكان هذه البلدة.

ومن الواضح أن كل شىء هنا يرتبط بوضع القناة الصالحة للملاحة (الذى لا اختلاف عليه)، وينتظر أن يلحق بها استرابون الآثار الأخرى التى سنراها عما قريب، وأن مسألة طول المدينة التى تم حلها وفقًا لاعتبارات أخرى جاءت مؤكدة وفقًا لتصريحات هذا الجغرافى. وتبقى المدينة خارج القناة الصغيرة.

آثار النطاق العربى وأبوابه

ندخل إلى المدينة العربية عن طريق الباب المسمى باب المقابر. ولدينا فكرة كاملة عن مدينة الإسكندر ونطاقها لنقارن معها ما سنلاقيه من الآن فصاعدًا (١٣٥). ورغم أن هذه المدينة تنتمى بصفة خاصة إلى الدولة الحديثة إلا أنها تدخل فى نطاق الآثار على الأقل فيما يتعلق بهذا التقارب الذى لا يمكن أن نغفله.

فالنطاق العربى لا يحتاج إلى وصف مكتوب لتوضيح اتجاهاته المختلفة. فهو يتكون من خطين عبارة عن سور خارجى ضئيل السمك وبه مجموعة فتحات يصل ارتفاعه من خمسة عشر إلى عشرين قدمًا على الأكثر، أما النطاق الداخلى الذى يبعد عن النطاق الخارجى مسافة تصل من ستة إلى ثمانية أمتار، فهو يتكون من سور وأبراج كبيرة إلى حد ما. والخط الخارجى الذى بنى من الحجر السميك يبدو قديمًا جدًا ومتماسكًا إلى حد كبير لاسيما من ناحية باب رشيد وتحميه أبراج منتظمة يبلغ قطرها عشرين قدمًا وتفصل بينها مسافة مائة وثلاثين قدمًا تقريبًا، وأسوار النطاق الداخلى أكثر قوة وارتفاعًا من الأسوار السابقة تحصنها من الجوانب أبراج كبيرة على ارتفاع كبير أيضًا. وهذان الخطان موجودان فى كل مكان عدا الأجزاء التى غمرها قبل ذلك مباشرة البحر الذى أفقد الصف الثانى من الأسوار أهميته نتيجة حمايته الطبيعية لها. والجزء الذى نراه فى الواجهة الواقع بين الحصن المثلث الشكل وباب المقابر لا يشذ عن هذه القاعدة، إذ نرى عليه أطلال الخط الداخلى للأسوار والأبراج. ويذكر أنه

كان قد تم هدم هذا الجزء منذ القرن الخامس عشر لتستخدم أطلاله فى بناء المدينة الحديثة.

ومن خلال هذه الملاحظة العامة يمكن التعرف وبسهولة ومن أول وهلة على التغييرات التى طرأت على جميع المناحى والموانى على سبيل المثال منذ بناء النطاق العربى. وهكذا نرى أن خط النطاق العربى يتميز بالبساطة بطول الهلال الذى يشكله على جزء من ميناء أونوست ، وبالتالى يكون هذا الخط الهلالى قد بنى على أساسات النطاق اليونانى، أو على الأقل على أساسات قديمة جدًا. ويتضاعف حجم النطاق العربى الشرقى على الجبهة الموجودة أمام الرصيف الحاجز للأمواج لأن كمية الطمى . الذى كان قد ترسب حول هذا الرصيف . كانت كثيرة أثناء بناء الحصون العربية الأمر الذى أدى إلى سهولة الدخول إليها. وبعد ذلك يأخذ النطاق شكلاً بسيطًا حتى برج الرومان لأن البحر كان لا يزال يغمر هذه الجهة فى ذات العصر، ولم تكن الرمال قد تراكمت بعد على الساحة كما نراها اليوم. ولهذا السبب تم بالقرب من هذا الجزء ردم الميناء الجديد فى كل الأوقات _ بصفة أساسية _ ولكن فى الجنوب الغربى بصورة أكثر. ويذكر أن الطمى المترسب من الرصيف الحاجز للأمواج كان يسهل عمليات الاقتراب (برًا) من المكان من ناحية الغرب. ومن جهة أخرى، كان يوجد - حيثما كنا - وفى عصر البناء العربى _ مجموعة كبيرة من الحصون والأبراج والأبواب تشكل قلعة مربعة الشكل ذات رأس بارز تتصل مع ذلك الطمى المترسب من الرصيف الحاجز للأمواج وتقاوم الهجمات الكبيرة من ناحية هذا السد.

وكل هذه الجبهة - بدءًا من هلال ميناء أونوست حتى برج الرومان تبدو لى _ وللبواعث المختلفة التى كنت أتحقق منها للتو - قد شيدت فوق الأساسات اليونانية. ويجب الاعتراف بأن شكل هذه الأساسات التى تظهر فى بعض الأماكن يعزز تمامًا هذا الافتراض.

ونلاحظ أيضًا أن كتل الحصون والأبراج بصفة خاصة تزداد ضخامة فى الزوايا البارزة الأخرى ولاسيما فى طرفى الجبهة المنحنية التى تظهر أمامنا فى الحصن المثلث الشكل وفى مجموعة الأبراج القوية والجميلة المتقدمة فى البحر، والتى أعتقد أنها حديثة - إلى حد كبير - (عدا ذلك البرج الدائرى الشكل والذى يبدو قديمًا كما سنرى عما قريب).

ويعتقد أن النطاق العربى كان يضم مائة برج. تبقى منها عدد قليل جدًا اليوم منذ أن تم هجر النطاق ذاته وتدميره جزئيًا، أما أبراج الخط الخارجى الذى حددت مسافته وقطره المتوسط فلكل منها درج خاص للصعود إلى الشرفات التى يقوم فيها الدرابزين على صف من العقود ليظهر مقوسًا. وكلها أبراج مقببة وكذا أبراج الخط الداخلى. وسنلاحظ أن الأبراج هنا وهناك تربط أحيانًا ما بين النطاقين باتصال واجهات اليمين مع الخط الداخلى، وأنه كان يتعين المرور تحت الجزء المتوسط من المبنى لنجوب الطريق الدائرى بين الغلافين. والجزء الأكبر من هذه الأبراج؛ ولاسيما الأبراج الموجودة فى الداخل والأبراج الكبيرة فى الخارج وفى الزوايا مشيد على تخطيط واحد خاص بها: فهى تتكون من قطعة نصف أسطوانية بارزة على واجهة جدار الحائط، وقطعة مثلثة غالبًا ما تكون متراجعة داخل النطاق. والتوزيع الداخلى لهذه الأبراج متنوع للغاية، إذ يصل بعضها إلى ثلاثة طوابق وهى مغطاة بجزء مسطح يحيط به درابزين(١٣٦).

ونلاحظ فى بعض هذه الأبراج وجود أعمدة من الجرانيت، وأطلال من الآثار، ترتكز عليها بعض القباب المستديرة. أما تيجان هذه الأعمدة فهى من الرخام أو الحجر مفصولة عن الجذوع بلوح من الخشب سميك إلى حد ما ولكنه قد تلف(١٣٧).

لقد رأينا أن بعض أجزاء النطاق العربى كانت مشيدة على أساسات قديمة حتى أن العديد منها يبدو كما لو كان من أطلال الأسوار اليونانية.

ولقد برهنت على قدم البرج المسمى ببرج الرومان، ويوجد أيضًا ثلاثة أبراج أخرى تبدو عليها مظاهر القدم واضحة ، ولكنها تختلف فى طريقة بنائها عن أبراج العرب الشرقيين. ونرى أولاً برجين على شكل نصف دائرى مشيدين من ذات الحجر المسكوكى المستخدم فى البرج المسمى ببرج الرومان، وتظهر بينهما مسافة على الجبهة الممتدة ابتداء من ميدان الأسكندرية الكبير حتى باب البحرية[1]. وتختلف هذه الأبراج فيما بينها، فربما يكون أحدها قد تعرض

---

(١) انظر اللوحة رقم ٨٤ الدولة الحديثة، وما بعدها حتى اللوحات رقم ٩٠، ٩٧، ٩٨.

لإعادة البناء أو الترميم على يد العرب أو اليونانيين فى الإمبراطورية الرومانية وقد أكملوا الحجر الناقص بجذوع أعمدة من الرخام أو الجرانيت وضعت أفقية (١٣٨). أما البرج الرابع فهو المتمم للجبهة المرتكزة على الحصن مثلث الشكل على شاطئ البحر فى الميناء القديم. ومن المؤكد أن هذا البرج يشبه من الخارج برج الرومان[1] فكل منهما مشيد فى نقاط لم تتغير من النطاق القديم.

ويمكن أن نلاحظ وجود خمسة أبواب رئيسية فى النطاق العربى الشرقى حلت محل المخارج الرئيسية القديمة فى مدينة البطالمة. وسنرى من هنا كيف أن حجم هذه المدينة لم يتقلص إلا بعد أن أدخلت حدودها وفتحاتها الكبيرة فى اتجاه المركز من خلال ثلاثة أو أربعة اتجاهات رئيسية.

وهذه الأبواب هى: ١- إلى الباب المسمى باب المقابر الذى دخلنا منه الآن وقد أقيم لحفظ المخرج القديم ناحية نيكروبوليس. ٢ - باب الجبانة للوصول إلى الرصيف الحاجز للأمواج ثم إلى المدينة الحديثة. ٣- باب الساحة للاتصال بالجزء الخاص بالميناء الكبير الذى يؤدى إليه باب القمر. ٤- باب العمود أو باب سدر فى اتجاه موانى النهر بدلاً من باب الشمس. ٥ - وأخيرًا باب رشيد بالنسبة للمخرج القديم ناحية مدينة كانوب التى أصبحت اليوم أبا قير(١٣٩).

وقد تم بصفة عامة تجليد هذه الأبواب بالجرانيت أو بأعمدة من الجرانيت كانت تستخدم كأكتاف لها. ونلاحظ وجود هذه الأعمدة فى الأبواب الموجودة ناحية الحصن مثلث الشكل وهى من كتل الحجر المسكوكى المصقول ذات الشكل الطويل الجميل. والجلسة والعارضة الخاصة بهذه الفتحات الرئيسية غالبًا ما تتكون من عمود ممدد بالعرض دون أن يعنى حتى بتمهيده، الأمر الذى لم يكن ضروريًا لأن الأتراك لم يكونوا يستخدمون السيارات. والأفاريز الموجودة فى باب رشيد ذى الارتفاع الشاهق مكونة من قطعة واحدة من الجرانيت وكذا العمود الخاص بالمدخل. ولقد رأينا فى واجهة جدار العقد الموجود فى أحد هذه الأبواب أحجارًا مأخوذة من إفريز من الجرانيت له أبعاد كبيرة جدًا (١٤٠).

---

(١) انظر اللوحتين رقم ٨٨، ٨٩ .

ويسـود _ كما يمكن أن نلاحظ _ شيء من اللبس والاختلاط ما بين عصور وطبيعة هذه المنشآت اليونانية والعربية الشرقية والتركية القائمة على أساسات وأسوار المدينة العربية. فالأبراج العربية الشرقية والحديثة تحمل فى أماكن عديدة كتابات بالخطوط الكوفية والعربية، وحوائط هذا النطاق تشترك جميعًا فى أنها مشيدة من قطع الدبش الصغيرة التى تكسوها أحجار مقصوبة ذات حجم كبير، أما الحوائط الداخلة فى مواد بنائها، والتى لم يتم الحصول عليها بعد هدم المبانى القديمة فهى أحسن إلى حد ما من الحجر العدسى ومكونة من مجموعة أصداف متحجرة ومعادن متبلرة مرتبطة فيما بينها بلا أى نظام بنوع من الأسمنت. وهى صلبة وتقترب فى شكلها كثيرًا من الحجر المسكوكى: وكان هذا هو أول بناء ولا نرى أى أحجار عادية سوى فى الأجزاء التى تم إصلاحها أو التى بنيت منذ عهد قريب. فهى أجزاء هشة ورديئة ومليئة بالفراغات. وغالبًا ما يتم طلاء الأسوار من الخارج بنوع من المعجون. وهذه الحواجز تحمل آثارًا وعلامات التآكل والتدمير الذى تحدثنا عنه بالتفصيل فى أماكن أخرى فى معرض حديثى عن الجرانيت ولكن هنا _ حيث مواد البناء كلسية - يصبح من الممكن إضافة تأثير مختلف الأملاح المورياتية التى تتكون أو تتحلل بكميات كبيرة فى أرض الأسكندرية والتى يكون تأثيرها فعالاً جدًا إلى الأسباب الأخرى التى عزونا إليها هذا التدمير الشامل للآثار. ورأينا فى أحد الأبراج كيف أن أحجار الدبش ذابت فى الهواء مثل الجير الحى فى حين بقى المعجون سليمًا كما هو. ونلاحظ نفس الخاصية فى أبراج أخرى بالقرب من الميناء القديم. وغالبًا ما يتم طلاء قبابها بطلاء خاص لصيانتها رغم أنها مصنوعة من الحجر المقصوب.

وقد أمكن صيانة النطاق اليونانى لفترة تعتبر طويلة بعد غزو العرب الشرقيين الذين لم يقوموا ببناء النطاق العربى إلا فى وقت لاحق. (١٤١). ويقول أبو الفدا إن عمرو بن العاص اقتحم النطاق بعد حصار دام أربعة عشر شهرًا فى السنة العاشرة بعد الهجرة (أو حوالى عام ٦٤٠). ورغم أن العرب _ فى أول احتدام لغزواتهم و أول تأجج لعظمتهم _ كانوا بعيدين عن تدمير أى شىء لا يؤثر على تعصبهم[١]، فقد كانت هناك مصالح أخرى جعلتهم يهملون

---

(١) المعروف أن التعصب هو الذى دفع بهم إلى تدمير المكتبة أكثر من الجهل [كذا].

الأسكندرية فضلا عن انخفاض عدد السكان بطريقة كبيرة وفى حوالى منتصف القرن التاسع كما يقول المكين وفى عهد الخليفة المتوكل أى أكثر من قرنين بعد الفتوحات، قام ابن طولون حاكم مصر بهدم الأسوار القديمة وبناء الأسوار التى نراها. وقد تم بعد إجراء إصلاحات وترميمات كثيرة بها ولكنها قلما ترجع إلى الفترة اللاحقة لحملة سليم الأول فى بداية القرن السادس عشر (١٤٢).

وقد استخدمت مواد البناء القديمة فى بناء سور طولون، ومن هنا نشأ هذا اللبس والاختلاط فى استخدام مواد البناء من كافة الأنواع والأشكال. وقد تم تقليص النطاق _ كما نلاحظ _ إلى أكثر من نصفه (١٤٣) ولم يحتفظ إلا بالأجزاء الأساسية والقريبة جدًا من البحرية. أما العرب فقد هجروا ضفاف بحيرة مريوط التى جفت على أثر ردم القنوات العليا المأخوذة من النيل.

ولا يزال هذا النطاق يشكل عملا عظيمًا رغم أن العرب الشرقيين قاموا بتقليصه بصورة كبيرة لأنهم كانوا فى ذلك الوقت مأخوذين للغاية بالأشياء الكبيرة، فقد قاموا بإرجاع حدودهم بطريقة ملحوظة على الجبهة التى ندخل منها، واكتفوا بتحديد نطاق حوض كيبوتوس الذى تركوه خارج السور وكذا القناة الصالحة للملاحة التى كانوا يستخدمونها كخندق للدفاع، ثم أدخلوا ذلك فى نطاق مدينتهم بتحويل طرف القناة _ كما رأينا _ وبناء الجسر الأول فوقها (١٤٤)، وذلك للسيطرة على المياه العذبة.

وتجدر الإشارة إلى أن عديد من الأبراج ومجموعات الأبراج مثل تلك التى نراها على طرفى هذه الجبهة إنما تمثل تكتلات جميلة تقدم حماية كبيرة، وقدرة هذه الأبراج الواسعة وصلابة أسوارها إنما تبعث على اعتبارها بمثابة قلاع، إذ نرى أن النطاق الحالى من شأنه تعزيز العديد من عمليات الحصار أو الهجمات الخطيرة إلى حد ما (١٤٥).

وحينما نلقى نظرة عامة على المدينة العربية لا نرى فيها سوى بضعة كفور ذات بنايات رديئة ولكن بها عددًا لا بأس به من السكان، ونرى أيضًا بضعة أبواب

لحمامات ومسجدين واثنين أو ثلاثة من الأديرة. أما بقية المساكن فيحيط بها كمية من الحدائق الصغيرة حيث قام أصحاب هاتين القريتين بزرع النخيل(١٤٦). والأمر الذى يدعو إلى الدهشة هو ذلك التناقض الموجود بين هذه المساحة الخضراء والأرض القاحلة التى تحمل الأنقاض، وجبلى التراب والطين اللذين أضيف أحدهما إلى يمين المدينة والآخر إلى يسارها، وكذا بقايا الأبراج الهائلة والأسوار العالية. إنها لصورة مستمرة لسلسلة الدمار الذى يلاحقك _ فيما يبدو _ ويرهق العين ويشجى النفس. ويذكر أن التراكمات المتتالية لهذا الركام أدت إلى ارتفاع مساحة التربة التى يتم استغلالها وتقليبها باستمرار فى جميع الاتجاهات من أجل بناء أو تزيين المدينة الحديثة أو من أجل اكتشاف آثار للبيع. ونجد فى هذه التربة بعض من خَبَث المعادن التى تشير إلى وجود بعض القمائن الجيرية التى تم تغذيتها بقطع الآثار الجميلة من الرخام والحجر الجيرى. فالواقع أن المدينة الشرقية لا تزال تحتوى على مجموعة من ركام الآثار ولا سيما قواعد التماثيل والأفاريز وتيجان الأعمدة وقواعد وجذوع الأعمدة. وكثير من هذه القواعد التى تم التنقيب عنها تشكل مثابات آبار أو صهاريج وجذوع أعمدة منشورة كانت تستخدم كرحى للطواحين. ولقد سبق ورأينا تحفة منحوتة من الرخام الأبيض الذى استخدم كما لو كان دبشًا فى أحد الحوائط الرديئة.

ونجد فى كل مكان ولا سيما فى تلال الأنقاض سواء الكبيرة أو الصغيرة كثيرًا من الشقف المصنوعة من الطين والتى يصعب تفسير وجود هذه الكمية الكبيرة منها. ألا يمكن افتراض أن جزءًا منها قد نتج عن تحلل مونة تثبيت الخرسانة وملئها وقد كان القدماء يدخلون كميات منها فى مبانيهم ؟ من النادر أن تكون هذه الكمية الضئيلة من الأنقاض هى الوحيدة التى قاومت تمامًا العوامل الجوية التى تسبب تآكل أشد مواد البناء وأكثرها قيمة التى بنيت منها آثار الأسكندرية (١٤٧).

وتجدر الإشارة إلى أن النطاق العربى يضم آثارًا جديرة بالملاحظة لا تزال قائمة وأساسات بعض المبانى الشهيرة وأماكن للعديد من المبانى بخلاف تلك التى سنتناولها بالبحث فى الموضوعات التالية.

الكاتدرائية السبعينية القديمة (١٤٨)
أو جامع الألف عمود

بعد الدخول من الباب الحديث المسمى بباب المقابر، نجد على يسارنا مباشرة مبنى مربع الشكل عبارة عن جامع أطلق عليه جامع الألف عمود أو الجامع السبعينى. وهذا التخطيط[1] ينطق بكل صفات العصور القديمة بما له من جمال وفخامة وصفاء فضلا عن أن مادة بنائه أى هذه الوفرة من الأعمدة التى تغطى معظم بقية مكوناته هى فى حد ذاتها أثرية. أما المئذنة وحرم الجامع (اللذان لم يمكن رفعهما سوى على تخطيط وأساسات المبنى القديم) فهما حديثان ولا يشكلان سوى الإطار الشامل لكل هذه الآثار، وكان من المنطقى تصنيف هذا الأثر فى الجزء الأول من المؤلف (١٤٩).

ولقد حرص العرب على مراعاة البساطة الشديدة والتناسق التام وفقًا للنماذج الجميلة التى شاهدوها فى الأسكندرية، وقاموا بتطبيق قواعد التصميم والتأليف فى عصر كان أسلوب العمارة فيه يشكل أعرق الفنون[2] وبالتالى فإن الجامع يعتبر قديمًا للغاية. وهذا التخطيط هو ذلك الخاص بالجزء الداخلى لمعظم مبانيهم الدينية، أما المبانى الحديثة فهى متكلفة أكثر فيما يتعلق بالأجزاء المكملة، كما أن أروقتها وصحونها الداخلية ليست على نفس التناسق التام الذى يميز المبنى (١٥٠).

وأكثر ما يشد الانتباه فى هذا المبنى، هذا العدد الكبير لأعمدة الجرانيت وحجر السماق أو الرخام النفيس الذى ساعد فى إعطائه الاسم المألوف الدارج. وهذه الأعمدة ذات طراز يونانى بالتأكيد ومأخوذة من أنقاض الأسكندرية القديمة التى تم جمعها من كل جهة؛ ويالها من فكرة رائعة يمكن أن تنطبع فى النفوس عن العظمة والأبهة التى كانت تحظى بها الآثار فى هذه المدينة وعن عمليات التدمير الهائلة التى جرت وعن التهدم الكبير الذى أصابها نتيجة

---

(١) انظر اللوحة رقم ٣٧ المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة .

(٢) انظر الملحوظة رقم ١٧٢ .

استخدام مواد بنائها فى منشآت أخرى! ويذكر أن جميع هذه الأعمدة لها نسب غير متساوية، وألوانها متنوعة وكذا مواد بنائها وهى مختلطة حسب استخدام العرب الشرقيين لها[١].

وكانت هذه الأعمدة لا تزال قائمة لدى وصولنا إلى الأسكندرية إلا أن أحداث الحرب والاستعدادات التى جرت لإقامة منشآتها فى المدينة أدت إلى تدمير جزء كبير[٢] منها. والصخور التى تكونت منها تلك الأعمدة ومعظمها بدائية تحمل رغم صلابتها الشديدة علامات بينة على التآكل والتدمير، الذى حرصت على شرح قواعده و قوانينه فى معرض حديثى عن عمود دقلديانوس ويزعم بعض الأشخاص أن الترجمة اليونانية الشهيرة للكتاب المقدس قد تمت فى هذه الكاتدرائية ولكن سنرى أن هذه الرواية - المأخوذة من التاريخ الروائى لأحد اليهود المعنيين بالدراسات اليونانية ويحمل اسمًا مزيفًا وهو أريستيه تفيد أولاً بأن الترجمة تمت فى جزيرة فاروس حيث كان يسكن الأحبار الاثنان والسبعون، وليس فى داخل المدينة أو فى حى راكوتيس حيث نوجد. ولكن يمكن تفسير هذا الأمر ببساطة، بأن الرواية المعنية التى ظلت محفوظة منذ فترة طويلة قد طبقت ـ دون أن نعرف ـ على هذا الأثر مما قد يدل على قدم الجامع. وقد نلاحظ أنه كان يوجد هناك مبنى يونانى (ربما يكون أحد هذه الأماكن المقدسة القديمة) التى سنتحدث عنها قريبًا. كان الأساقفة فى عهد تيوفيل يستخدمونه ثم تبعه بناء الجامع بعد ذلك. وكذلك فإن الرأى الأكثر عمومية والأكثر تقريرًا ينحصر فى هذه الكلمات بأن هذا الجامع هو كنيسة قديمة أعاد العرب بناءها.

الصهاريج الأثرية

إذا ما تركنا جامع الألف عمود وعبرنا مباشرة القناة الرابعة المحفورة تحت الأرض؛ فسنجد مجموعة كبيرة من فتحات الصهاريج التى تغذيها هذه القناة.

---

(١) نفس الملحوظة رقم ١٧٢ .

(٢) أقيمت ورش المدفعية فى هذا المكان، أما أطلال الجامع فلم يعد لها وجود اليوم .

ونجد فتحات صهاريج متماثلة فى أماكن عدة بالمدينة القديمة فى الجزء الموجود فى النطاق العربى كما سنلاحظ فيما بعد، وعلى ساحل الخليج فى الريف بالقرب من معبد اليهود والمسجد المسمى سان أثاناس والحصن المسيحى..... إلخ

ونقابل بعض هذه الفتحات منعزلة و متناثرة على نقاط عديدة بل حتى فى كل مكان[١] وقبل التعريف بهذه الصهاريج سأصف[٢] واحدًا منها لافت للنظر من حيث الجمال والقدم والتميز والغرابة وسيعطينا فكرة سليمة إلى حد ما عن الصهاريج الأخرى.

يوجد هذا الصهريج فى النطاق العربى على يمين القناة عند القدوم من بحيرة مريوط بجوار المكان الذى وصلنا إليه. وفن العمارة فى هذا الصهريج فى غاية الجمال. إذ يتكون من سبعة وأربعين عمودًا من الرخام محفوظة فى حالة جيدة وكان خمسة منها موضوعة بطريقة منتظمة على أرض من الرخام الأبيض لتدعم سلسلة أولى من أقواس العقد التى يقطعها عمود أفقى. ومن فوق العمود وفى امتداد محور الأعمدة ترتفع. دون عضادة. أقواس الزوايا البارزة على شكل عقد كامل لتغطى كل الصهريج. ويوجد بها أربع فتحات منها ثلاثة دائرية والفتحة الموجودة فى منتصف الصهريج مربعة على مستوى الأرض العليا. وفى المسقط العمودى لأحد الجوانب الداخلية يوجد ثمان كوات غير نافذة مطابقة لفواصل الأعمدة ولا يمكن على الإطلاق التكهن بالغرض منها. وتوجد تجويفات فى زوايا الحوائط مزينة بحنوذ من كل جهة لتساعد على النزول من الصهريج. وتوجد على جميع الجوانب بعض الأعمدة المستطيلة البارزة قليلا إلى الأمام فى المنطقة السابقة لجسم الصهريج كى تتوافق مع الأعمدة وتحمل مداميك العقد.

وتختلف تيجان الأعمدة فى تفاصيلها ولكنها متناسقة فى كتلتها وفى نسبها العامة كما فى قاعات الأعمدة وأروقة مصر العليا التى تتماثل معها نسبيًا فى

---

(١) فتحات الصهاريج الموجودة فى النطاق العربى هى الوحيدة التى حفظت فى حالة سليمة.

(٢) اللوحة رقم ٣٦ . وقدمنا ثمانية أخرى فى اللوحة رقم ٣٧ للاختيار من بين هذه الآثار العديدة . يجب ملاحظة أن الصهاريج فى الشكلين ٦، ٨ تنتمى إلى الحى الذى نصفه .

مجملها. وكثير من تيجان الأعمدة هذه تحمل زخارف ونقوشًا مماثلة لتلك الموجودة فى تيجان الأعمدة المصرية القديمة، وأخرى تحمل - وهو شيء فريد إلى حد ما - فى نقوشها صليبًا يونانيًا داخل دائرة يشبه الصليب المالطى أو ذلك الخاص بالصليبيين. وهذا الوضع الذى يذكرنا بعصر العبادات المسيحية وقت الإمبراطورية الرومانية إنما يبرهن على أن الصهاريج وحتى عمليات ترميمها كانت سابقة للعرب. ويذكر أن الصهاريج الموجودة فى الضفة اليمنى للخليج المواجهة للجزء المهجور من مدينة الأسكندرية عديدة وبعضها له طابع المبانى اليونانية أو الرومانية ولكن أغلبها تعرضت للتشوه نتيجة عمليات الترميمات الحديثة. وحوائط هذا الصهريج قديمة جدًا ولكن أقواس العقد به لم تتعرض لأى من التلفيات. إلا أن الأعمدة ولا سيما التيجان القديمة المصنوعة من الجرانيت أو التى يدخل فى بنائها أى مادة أخرى أكثر قيمة من الرخام قد رفعت واستبدلت خلال الترميمات التى جرت خلال عصور مختلفة. وقد لا يكون هناك أى تعديلات أخرى سوى رفع الأعمدة القديمة. ويبدو أن عمليات الترميم قد جرت فى عصر الكنيسة البدائية منذ عهد قسطنطين.

وأوجه اختلاف شكل الصهاريج لا نهاية لها، فالصهاريج غالبًا ما تنقسم إلى قواطع عديدة. والصهريج الذى تحدثنا لتوّنا عنه به ضيق مربع الزاوية فى إحدى زوايا مسقطه الأفقى يرجع - كما تفيد الظواهر - إلى إعادة بناء جزء من جانبيه الداخليين لمعالجة بعض حالات تسرب المياه. وهذه الصهاريج غالبًا ما تتكون من ثلاثة أو حتى أربعة طوابق من الأعمدة أو الأروقة المقنطرة. وهذه الأعمدة منحوتة عادة من الجرانيت الأحمر الجيد الموجود فى أسوان، وجدران جوانبها الداخلية من الطوب المطلى بأسمنت لونه طبيعى شديد الصلابة وقد احتفظ بحالته دون أى تلفً أو تغيير. والأرض السفلى للصهريج تنحنى بصورة طفيفة فى اتجاه الآبار والزوايا متصلة جميعها عن طريق منحنى. وفتحة مثل هذه الخزانات غالبًا ما تتكون من جذوع أعمدة ضخمة أو قواعد مجوفة من الرخام والجرانيت (١٥٢). وغالبًا ما توجد هذه الفتحات فوق مستوى مياه القناة المستخدمة فى ملئها حتى تبلغ الحد الأقصى لارتفاعها. ونتيجة لذلك أصبح

لازمًا - فيما مضى مثلما هى الحال الآن - إدخال المياه القادمة من النيل عن طريق القناة الرئيسية فى مجارى خاصة تتفرع فى جميع الاتجاهات، التى رأينا بعضها لا يزال موجوداً. وهذه الفروع محفورة فى معظمها فى الصخرة الصدفية الهشة التى تكون أرض الأسكندرية. وكان يتم بعد ذلك رفع المياه عن طريق الساقية - التى احتفظ المحدثون باستخدامها - ثم يلقى بها فى قنوات و سواقى تنقلها إلى كل خزان.

وتعتبر هذه الصهاريج بلا شك من أعجب وأغرب أطلال آثار الأسكندرية. وإنه لمن المدهش حقًا الجمع بين العدد الكبير والقدرة والروعة فى هذه الخزانات: فأروقتها الجميلة ترتفع بعضها فوق بعض، وقد صممت وبنيت بروعة وصلابة متماثلتين. ترى كم استلزمت من أعمال حفر وبناء وطلاء! فالصناعة اليونانية هنا التى نشأت عن أولى الضروريات لتأسيس مدينة محرومة من المياه، قد وصفت الجهود العظيمة للمصريين القدماء كما لو كانت أعمالا دقيقة جدًا وطبعت عليها ذوقها الصافى وروعتها الطبيعية. وقد توصلت إلى تكوين إسكندرية ثانية تحت الأرض واسعة كالأسكندرية الأولى، وما تبقى اليوم ما هو إلا أكبر وأحلى الآثار المصرية.

يقول هيرتيوس فى تعليقه على حرب الأسكندرية "هذه المدينة تكاد تكون محفورة فى كل مكان فى الجزء السفلى، وهناك منافذ تحت الأرض متصلة بالنيل" (بمعنى القناة المتفرعة من النيل التى سنتحدث عنها فى مكانها). إن هذه القنوات تقوم بتوصيل المياه إلى المنازل الخاصة. وهذه المياه تصفو رويدًا رويدًا بعد أن تتخلى عن رواسبها ليستخدمها أصحاب البيوت وأسرهم لأن المياه التى تصل إليهم (فى الهواء الطلق) عن طريق النهر، مياه عكرة ومليئة بالطمى فتسبب أمراضًا كثيرة، ولكن السكان وطبقة الفقراء يضطرون للاكتفاء بها لأنه لا يوجد أى مصدر للمياه الصافية فى المدينة (١٥٢).

لقد استعرضنا القنوات الفرعية الرئيسية التى لا تزال موجودة فالعديد منها لا يزال يقوم بتوصيل المياه إلى الخزانات حيث يتم رفعها هناك عن طريق سواقى تجرها الجياد إلى قنوات توزعها على صهاريج مختلفة بالمدينة. ولا يزال يوجد

اثنتا عشرة ساقية تستخدم حتى الآن ويذكر أن هذه الصهاريج الخاصة بهيرتيوس وكذا الصهاريج الأخرى تتصل فيما بينها عن طريق مجموعات مطابقة للفروع الرئيسية المنشقة من القناة الكبيرة مثلما هى الحال اليوم. وكانت توضع تحت المنازل التابعة لها، مما يفسر وجود هذا العدد الكبير من الصهاريج متوسطة الحجم التى رأيناها فى كثير من الأطلال ولاسيما أطلال المساكن التى كانت حول الميناء الجديد ولسان لوكياس. وقد تركت الصهاريج الصغيرة حتى تبددت وتم ردم معظم الصهاريج الكبيرة. ويرجح أن تكون الصهاريج الكبيرة التى تستلزم اليوم الحفاظ عليها وصيانتها هى التى كانت تستخدم كخزانات عامة من قبل، فهى تحتاج بشدة إلى ترميم و يذكر أن عددًا كبيرًا منها يستخدم فى رى بعض الحدائق التى أقيمت ـ من أجل تشغيل هذه الصهاريج ـ وسط أنقاض المدينة العربية: وهى أبعد صهاريج عن المدينة الحديثة. وليس نادرًا أن يتم اكتشاف صهاريج جديدة خلال عمليات التنقيب التى تجرى كل يوم بين الأطلال (١٥٤). لقد تركت للانسداد قنوات كثيرة كانت تجرى خارج نطاق العرب الشرقيين الموجود به الصهاريج التى يستخدمها اليوم أتراك المدينة الحديثة، وهى الصهاريج الوحيدة التى يمكن استخدامها (١٥٥) ولقد أهملت الصهاريج الموجودة خارج النطاق منذ فترة طويلة، ومن الثابت وجود مثل هذه الصهاريج ليس فحسب فى المدينة العربية ولكن أيضًا تحت أنقاض المدينة اليونانية والرومانية القديمة. ومن الأهمية بمكان مراعاة هذا الوضع كى يتم التوصل إلى حل مسألة قدم الصهاريج التى وصفتها (١٥٦) وكذا تأكيد وجود عدد كبير من السكان من الأسكندرية اليونانية والرومانية بين الخط الخارجى لأسوار العرب الشرقيين وضفاف بحيرة مريوط. وهناك نتيجة أخرى لإهمال الأتراك المحدثين للصهاريج التى احتفظوا بها وهى أن معظمها كان يستقبل مياه الأمطار التى كانت تغسل الأملاح الوفيرة وتزهر بالتالى كل مساحة أرض الأسكندرية، لأن فتحاتها كانت تحت مستوى الأرض المحيطة بها.

وخلال إقامتنا فى مصر، أمكن إحصاء حوالى ثلاثمائة وثمانية من الصهاريج القديمة المحفوظة، الكبيرة منها والصغيرة، وقد أخذ هذا العدد فى النقصان لأنها لم تعد تتعرض لترميمات منذ فترة طويلة. وهذه الصهاريج تكفى تمامًا لتمويل استهلاك سكان المدينة الحديثة والحيوانات الموجودة بها على مدى ثمانية عشر شهرًا، وكذا تموين السفن الراسية فى الميناء. ولم يتبين أن وجود الحامية الفرنسية العادية قد أدى إلى ندرة أو جدب المياه سوى خلال إقامة حوالى خمسة عشر رجلا من الجيش ـ خلال الحصار الأخير ـ الأمر الذى استدعى اتخاذ بعض الاحتياطات فى توزيع المياه لتحديد الاستهلاك.

ولنتخيل الآن مدى ضخامة المنشآت التى يريد هيرتيوس التحدث عنها، وتكفى لتموين عاصمة تضم مثل هذا العدد الكبير من السكان وتمتد حركة التجارة بها لتشمل أنحاء البحر المتوسط طالما أن السكان الحاليين ـ الذين يبلغ تعدادهم حوالى ثمانية آلاف نسمة ـ وهم ذوو علاقات بحرية محدودة تقريبًا، يحتاجون إلى أكثر من ثلاثمائة من هذه الصهاريج و لنتصور أيضًا الوضع فى مدينة تقع وسط الصحراء على صخرة مجردة تمامًا من الماء العذب لنتأكد أن وجودها كله كان مرتبطًا بخزاناتها. ولنتصور أيضًا كيف كان مهمًا بالنسبة للجيش ـ الذى يحتجز قيصر محاصرًا فى المبانى المجاورة للميناء الكبير أن يقطع عنه مياه النيل أو يدس له السم بها (١٥٧).

السرابيوم ومكتبته

إذا ما واصلنا تتبع خط الوسط بعد جامع الألف عمود والمجموعة الأولى من الصهاريج لصعدنا فوق كومة مستطيلة من الأنقاض ووجدنا فى الطوابق السفلى منها أطلالا مختلفة و نلاحظ ـ بصفة خاصة ـ وجود مجموعة من البنايات المجهزة بالحجر الجيرى تختلط مع بعضها بمداميك مكونة من عدة صفوف من الطوب من ذلك النوع الذى سبق ورأيناه، وطريقة تشييدها قديمة بالتأكيد لأنه يمكن التعرف بطريقة واضحة للغاية على الأسلوب الذى اتبعه القدماء عامة فى الأسكندرية لتشييد مجموعة بنايات ضخمة وعلى فن عمارة الحشو الذى

استخدموه [استخدام الأحجار والملاط لسد الفراغات بين أحجار جدار ما]. وهذه العمارة و كثير من الأنقاض المجاورة موضوعة على مرتفع. وسنرى أن معبد السرابيوم كان أيضًا على مرتفع، كما أن المبنى ذاته كان مرتفعًا للغاية.

يقول استرابون :إن السرابيوم كان شمال القناة الصالحة للملاحة (التى رأيناها) فى اتجاه داخل المدينة وهو موضع يتفق تمامًا والأطلال والتل اللذين أشرت إليهما لتوّى. ويتفق المؤلفون القدامى جميعهم على مراعاة أن هذا المعبد كان فى حى راكوتيس حيثما نوجد وأن سوزومان (١٥٨) يقول : إنه كان مشيدًا فوق تل صغير.

وكان هذا هو موضوع السرابيوم الذى أخبرنا المؤلفون القدامى بصدده عن كثير من الخواص الهامة وقد تحدد مكانه على وجه محتمل. ويقول بوزانياس :إنه كان يوجد فى مصر كثير من معابد سرابيس ولكن معبد الأسكندرية كان أشهرها وأكبرها، وكان معبد منف هو أقدمها. ويضيف أميان مارسلان أنه يوجد بالأسكندرية كثير من المعابد الضخمة بسبب ارتفاع قمتها، و لكن يتجاوزها رغم ذلك السرابيوم. و لن تتمكن تعبيراتنا الضئيلة من نقل وتصوير جمال هذا البناء. فقد كان مزيناً بأروقة كبيرة محمولة على أعمدة وتماثيل تكاد تتحرك من فرط إتقانها، ومجموعة أعمال أخرى لن يظهر أجمل وأروع منها بخلاف مقر السلطة الذى يخلد فى الذاكرة مدينة روما الجليلة.

ويقول روفان الذى كان يسكن فى الأسكندرية فى حوالى النصف الثانى من القرن الرابع (١٥٩) : إن مكان المعبد لم تشكله الطبيعة ولكن تشكل بأيدى بشرية ومجموعة إنشاءات، فهو محمول فى الفضاء ويتم الصعود إليه باجتياز أكثر من مائة درجة. و يمتد من جميع الجهات على شكل مربع وأبعاده كبيرة. أما الجزء السفلى فهو مقبى من كل جهة حتى مستوى بلاط المبنى، ومنطقة ما تحت الأساسات هذه مقسمة إلى ممرات واسعة ودهاليز مربعة ومنفصلة فيما بينها، كانت تستخدم فى أغراض عديدة وخدمات كهنوتية سرية (١٦٠). ومن خارج وفوق هذا الجزء المقبى يوجد من أطراف محيط القاعدة قاعات اجتماعات ومداخل مسقوفة، ومنازل شاهقة الارتفاع يقطنها عادة المندوبون لحراسة ورعاية

المعبد وكذا أولئك الذين كرسوا حياتهم للرهبانية. وخلف هذه المبانى من الداخل، توجد أروقة مربعة الشكل فى كل مكان حول المسقط. وفى وسط السطح يرتفع المعبد و تزينه أعمدة مبنية من مواد جديدة وجميلة الشكل من الخارج وقد استخدم الرخام فى بناء الأجزاء الداخلية بها بوفرة شديدة.

وسنرى فى عمليات البحث والمناقشات (١٦١) رواية تاسيت العجيبة التى يؤكد من خلالها - هذا المؤرخ الحكيم المقدر للتقاليد والسياسى الكبير والكاتب العظيم - أن معبد سرابيس الجديد الذى نهتم به كان لائقًا بعظمة المدينة، فقد بناه بطليموس سوتر فى مكان بحى راكوتيس حيث كانت توجد قديمًا مقصورة مخصصة للإلهيين إيزيس وسرابيس الإله المسئول عن حماية سكان هذه الضيعة القديمة، والأمر الإيجابى والمهم الجدير بالملاحظة هو أن الملوك اليونانيين قد أقروا قيام المصريين القدماء بالتعبد فى مدينتهم الجديدة. ويذكر أنه كان يوجد فى مدينة كانوب معبدًا شهيرًا لسرابيس تحدث عنه استرابون فى الكتاب رقم ١٧ (١٦٢).

والمعروف أن الإله سرابيس إله المصريين القدماء كان يمثل شعار الشمس وقت الانقلاب الشتوى أو كان له وضع أقل من ذلك، وأن الإغريق قد قارنوه بالإله بلوتون إله الجحيم الذى يحمل تمثاله الموجود فى مدينة سينوب بعض الصفات (١٦٣). وجدير بالذكر أن سرابيس القديم إله المصريين كان أيضًا الإله المسئول عن فيضان النيل وعلى أية حال يمكن أن نتصور كيف كان سكان راكوتيس أو الأسكندرية مضطرين لمناصرة الإله المسيطر على الفيضان والتعبد له بسبب وضعهم المعزول وسط صحراء جرداء. ويضيف روفان فى الكتاب الثانى أن مقياس النيل كان موضوعًا فى معبد سرابيس(١٦٤) ثم وضع بعد ذلك فى الكنيسة المسيحية.

ويقول سقراط إن استخدام المقياس فى الكنيسة المسيحية كان من عهد قسطنطين إلا أن جوليان لابوستا المرتد أعاد بعد ذلك النظام القديم الذى توقف بلا شك فى عهد البطريرك تيوفيل وتيودوز بعد تدمير معبد السرابيوم. وتعتبر حجة روفان هى الأوقع فى كل ذلك لأنه كان فى الأسكندرية قبل تدمير المعبد. وسنرى بعد ذلك كيف قام البطريرك بالإطاحة بهذا البناء الرائع.

وفضلا عن توضيح أصل اشتقاق كلمة سرابيس التى تعنى مقياس النيل، سنرى أيضًا فى عمليات البحث أصل اشتقاق كلمة قبر أبيس (١٦٦). ولكن ما الداعى وراء الرغبة فى اشتقاق مغزى اسم إله مصرى قديم من اليونانية ؟ إن ما يهمنا معرفته فى وصفنا لمدينة الأسكندرية هو أن السرابيوم الشهير الموجود فى مدينة البطالمة كان مجرد معبدًا للإله سرابيس.

ويستطرد أميان مارسلان الذى ذكرت نقلا عنه الفقرة الخاصة بمعبد السرابيوم قائلا : «إن هذا المعبد كان يضم مكتبات لا تقدر بثمن. وأشار إلى وجود مجموعة من الكتب، إلا أنه خلط بعد ذلك بينها وبين المكتبة الكبرى ـ كما سنرى ـ فى حى القصور أو حى البريشيون وذلك حينما قال:"إن سبعمائة ألف مجلد قام البطالمة بتجميعها بكل عناية شديدة، تعرضت للتلف حرقًا خلال حرب الأسكندرية حينما أطيح بالمدينة فى عهد قيصر الدكتاتور".

ويقول فيتروف: إنه كان يوجد بالفعل فى الأسكندرية مكتبة غير المكتبة الكبرى ولا يمكن أن تكون سوى مكتبة السرابيوم التى تحدث عنها أميان مارسلان. فقد كانت هذه المكتبة فيما يبدو مشهورة أكثر من قبل آباء الكنيسة(١٦٧)، والمعابد المجاورة التى دمروها، وأن المكتبة الكبرى التى قد تأثرت تمامًا من حريق قيصر لم يتم إعادة بنائها كما ينبغى حتى عصر هؤلاء الأساقفة.

وكل ما نعرفه نسبيًا عن أصل مجموعة المخطوطات الخاصة بالسرابيوم[١] أنها كانت موجودة قبل احتراق المكتبة الموجودة فى حى القصور وكانت مخطوطاتها أقل ثراءً من مخطوطات المكتبة الكبرى، حتى أنها كانت تسمى ابنتها أو المكتبة الصغرى. وكانت هذه المكتبة توجد ـ على الأرجح ـ فى الأقسام الواسعة المحيطة بمعبد سرابيس وقد أعطانا روفان تخطيطاتها وكانت بعيدة جدًا عن الميناء الكبير التى كانت نيران مراكبه المشتعلة تصل إلى المكتبة الكبرى الواقعة فى أقصى الشرق. ولا يحتمل أن تكون مخطوطات السرابيوم قد احترقت بنفس الطريقة. ومن جهة أخرى، لم يتحدث أى شخص عن مثل هذا الحريق المفجع

(١) يعزى بعض المعلقين تأسيس المعبد إلى بطليموس فيسكون ولكن ذلك ليس سوى افتراض.

الذى تعرض له السرابيوم الجميل. ولكن نتمكن رغم ذلك من الاستناد إلى عدد كبير من الحجج المشابهة لحجة أميان ولإمكانية التوفيق بينها، يتعين الأخذ بما تسرده بعضها عن الحريق الذى أشعلته ـ فى أحياء مختلفة ـ القوات المساعدة للسكندريين خلال حرب قيصر (١٦٨)، والاعتراف بأنه كان يوجد ثلاثمائة ألف مجلد فى السرابيوم.

وأياً كان الأمر فقد اتسع حجم مكتبة المعبد المذكور وبعد ذلك بقليل وبطريقة ملحوظة، أما مكتبة بيرجام التى كانت تضم مائتى ألف مجلد والتى أعطاها أنطونيو إلى كليوبترا فقد نقلت من مكانها حيث لم يعد هناك أى وجود للمكتبة الكبرى منذ حريق قيصر. ويمكن التكهن بأن المكتبة الصغيرة هى التى تضاعف حجمها بعد ذلك لتستخدم فى إحياء مكتبات الإمبراطورية الرومانية فى عهد دوميتيانوس(١٦٩). وهى المكتبة التى تولى إدارتها دنيس فى الأسكندرية خلال عصر هذا الإمبراطور حتى عهد تراجان.

وبعد احتراق مكتبة الأسكندرية الكبرى على يد قيصر، وتدمير الحى الذى كان يضم المتحف الذى شيده أوريليان وهو التدمير الذى تحدث عنه أميان مارسلان فى الوصف الذى ذكرته بوصفه حدث سابق للعصر الذى كان يعيش فيه، يبدو واضحًا أن السرابيوم هو الذى حل محل المتحف وأنه فى هذا المكان أقيمت وتدعمت مدرسة الأسكندرية فى صورتها اللامعة حيث قدمها لنا هذا المؤلف فى نهاية القرن الرابع عشر.

وأخيرًا تم تدمير السرابيوم ومكتبته (١٧٠) بعد حوالى عشر سنوات من وفاة أميان مارسلان على أيدى البطريرك تيوفيل (كما سنرى فى مكان آخر) رغم مقاومة السكان وبعض الفلاسفة وعلماء النحو والصرف الذى كانوا قد اجتمعوا فى أحد الحصون كنوع من الحصار. وبعد ذلك بقليل تم فى هذا المكان بناء كنيسة أطلق عليها اسم أركاديوس خليفة تيودوز الكبير الذى كان قد أمر بهدم السرابيوم وكافة الأسكندرية، والأطلال الكثيرة التى سبق ووصفت بناياتها لا بد وأن تكون بقايا البنايات الموجودة تحت الأرض التى تحدث عنها روفان.

معابد أثرية أخرى

توجد فى اتجاه السرابيوم ناحية الملعب المدرج كمية كبيرة من تلال الأطلال مثلما هو الوضع فى أماكن أخرى. وسنجد حول هذا الخط وبين هذه التلال - بالأحرى - بضعة معابد أثرية ترجع حتى عصر استرابون، وقد أشار إليها بالإضافة إلى معبد سرابيس بجانب القناة الصالحة للملاحة. يقول استرابون: إن السرابيوم ومعابد أثرية أخرى[1] موجودة داخل القناة التى تبدأ من البحيرة فى كيبوتوس. ويمكن البحث عن هذه المعابد على مسافة كبيرة نسبيًا خارج النطاق العربى مثلما حدث مع الملعب المدرج، لأن عالم الجغرافيا يضع الملعب الذى سبق وتحدثنا عنه فى نفس التصنيف. و يضيف استرابون أن هذه المعابد كانت شبه مهجورة بسبب تشييد مبان مقدسة عند نيكوبوليس فى عهد أغسطس على الأرجح، لأننا سنرى أن هذا الحاكم قام بتزيين هذه المدينة على نحو كامل. ورغم ذلك كان يوجد عدد هائل من المبانى القديمة فى القرن الرابع عشر وكانت تضم بلا شك مكتبات صغيرة تابعة لمكتبة السرابيوم لأنه - خلال حملة تيوفيل الذى كان قد خول له إلغاء كل هذه المعابد و التخلص منها - قام المسيحيون بتبديد الكتب؛ وأن أوروز وجد الأرفف خالية حينما قام بزيارة المكتبة بعد حوالى عشرين سنة من الحملة.

ومن المحتمل أن يكون المسيحيون قد استفادوا من هذه المبانى لبناء بعض الكنائس مثلما رأينا أنهم شيدوا كنيسة فى مكان السرابيوم وربما يكون أيضًا الجامع المسمى اليوم جامع الألف عمود - الذى أشرت إلى أصله القديم والروايات المتعلقة به - قد أقيم خلفًا لإحدى هذه الكاتدرائيات القديمة المزينة - مثلما هو الحال بالنسبة للجامع - بأعمدة مأخوذة من أروقة واسعة فى السرابيوم الذى تهدم، ومن بعض المعابد المجاورة التى دمرت أيضًا أو تم هجرها.

---

(١) يمكن التحدث عن بناء المعابد فى عصر التأسيس الأول للأسكندرية وأعمال المهندس المعمارى دينوقراطيوس.

ونلاحظ من خلال عمليات البحث هذه والافتراضات أنه قد تم تجميل المدينة منذ البداية بعدد هائل من المبانى العامة فى المناطق المحيطة بالسرابيوم فى حى راكوتيس وفى كل المنطقة الممتدة من الضفة الشرقية للقناة الصالحة للملاحة المشتقة من بحيرة مريوط فى ميناء كيبوتوس. وحينما قال استرابون فى موضع آخر "إن داخل المدينة كان مزينًا بمعابد رائعة" كان يقصد بعضًا من هذه المبانى المقدسة.

الكاتدرائية القديمة
الشائع تسميتها «جامع سان أثاناس»

ونصل إلى المبنى الشائع تسميته جامع[1] سان أثاناس ولقد صنف هذا الجامع من بين الآثار رغم أن يبدو عربيًا من بنائه الخارجى. واستخدامه الحديث، ويبدو أنه ينتمى أيضًا إلى الجزء الثانى من المُؤَلف. ويتكون هذا الجامع - مثل جامع الألف عمود - من العديد من مواد البناء الأثرية والثمينة؛ فهو يضم خاصة تابوتًا حجريًا يعتبر أحلى آثر من بين الآثار المصرية حيث يقودنا - لما يحظى به من أهمية - إلى بقية المنشآت أو القطع القديمة المحيطة به. و يذكر أن وجود مثل هذا البناء أحادى الكتلة فى وضع مركزى بالنسبة للمبنى الذى كان متناسقًا معه، والاحترام الكبير الذى كان يحظى به من قبل المسيحيين والمسلمين على السواء، وشكل هذا الحوض الذى كان يستخدم فى تعميد الأشخاص حديثى التنصر، والرواية القائلة بأن اسم سان أثاناس (١٧١) يعيد إلى أذهاننا دائمًا أنه كان يوجد هنا كنيسة مسيحية قديمة وضعت تحت حمايته وقد أعاد العرب منذ ذلك الوقت بناءها؛ وكذا الروايات الأخرى التى تفيد عامة أنه كان يوجد فى الأسكندرية كاتدرائيات فى غاية الجمال....

---

(١) انظر الدولة القديمة، اللوحات ٣٥، ٣٨، ٣٩.

كل هذه الاعتبارات وغيرها الأقل مصداقية والتى يجب ألا نهملها كافية للاعتقاد بأن هذه الميضأة وضعت هنا فى عصر الكنيسة البدائية وكذا لتصنيف الجامع فى نفس القسم الخاص بالآثار فى المؤلف.

و هاهى ذات الأسباب تدعونى للحديث هنا عن هذا الجامع ولكن بإيجاز قدر المستطاع وتحت بيان حالة الأسكندرية القديمة (١٧٢). إن أول ما يتضح هو أن مسقط المبنى بسيط ومتناسق ولكنه يضم- كما قلت عن المساجد بصفة عامة- عددًا كبيرًا من الصحون فى الجزء الداخلى أكثر من الجوانب، كما أن الواجهة ليس بها سوى صف واحد من الأعمدة. أما بلاط الأروقة فهو من الرخام ومطعم فى معظمه بحجر الفسيفساء الجميل الذى تتضح رسوماته إلى حد ما وتتنوع ألوانه. وبلاط الفناء المربع الكبير الموجود فى الوسط مقطوع أيضًا من الرخام. أما الأعمدة القديمة - المنحوتة جميعها من الرخام الفاخر باستثناء بعض منها منحوت من الجرانيت - فهى فى غاية الجمال وعديدة كما نراها؛ و تختلف هذه الأعمدة فيما بينها وفقًا لاختلاف نسبها وأشكالها وأبعاد التيجان وإذا ما كانت لها قواعد أو لا - ولكن المسافة بينها متعادلة وكلها موضوعة وفق تخطيط متناسق وواسع لدرجة أن أوجه الخلل والتفاوت فى التفاصيل سرعان ما تختفى. والحوائط الجانبية لتلك الأعمدة مغطاة جزئيًا من الداخل بالرخام المطعم بالفسيفساء، والأفاريز العريضة بها مخطوط عليها آيات قرآنية بحروف كبيرة من الفسيفساء المطلى بالميناء. ونجد على هذه الأعمدة كوة من الفسيفساء ومنبر من خشب الجميز المشغول ببراعة، غير أن عوامل الجو قد غطته بطبقة من الألوان المتنوعة. والشكل القديم لهذه الأعمدة يوحى بأنها تنتمى إلى الكاتدرائية المسيحية قبل أن تتحول إلى جامع. وأخيرًا فإن كل هذه الأعمال الفنية تعطى فكرة صحيحة عن الطريقة السعيدة إلى حد ما التى استفاد بها العرب من أنقاض الآثار القديمة، ولكنها تدعو إلى التفكير أيضًا فى عمليات التدمير التى قاموا بها فى هذا المكان حتى فى الوقت الذى كان لهم فيه لمحات واسعة وإبداعية. و نلاحظ أيضًا وجود إطارات أفقية مرسوم عليها بعض الرموز ودائرة البروج ومساقط للمنحنيات المختلفة التى تجوبها الشمس فى مختلف فصول السنة.

و يعتبر هنا المبنى قديمًا للغاية. وحينما ننظر إليه على أنه كان كنيسة بدائية احتلها العرب فى وقت لاحق على الحالة التى وجدوها عليها، نجد أنهم قاموا بعد ذلك بإعادة بنائها. فالمبنى عبارة عن جامع حقيقى من حيث الشكل والتوزيع ولكنه أحد أقدم الجوامع، فالواقع أن المساجد التى يرجع بناؤها إلى العصور الأولى للعرب الشرقيين - وقتما كان الشعب العربى يتحمس لديانته وللفتوحات ولنشر ثقافته والعلوم والفنون - تأخذ طابعًا واضحًا وجليًا من العظمة[1] والثراء، والنقاء فى الرسومات، والفخامة فى التنفيذ. فهى تعكس ذوقًا فريدًا لا تعكسه أحلى المساجد العربية الحديثة ولا سيما مساجد الأمم المسلمة. يقال: إن هذا الجامع بناه أحد الخلفاء الأوائل.

وتبقى الآن معرفة الكنيسة المسيحية التى خلفها هذا الجامع وأى أثر قديم دينى حلت محله هذه الكنيسة يبدو مستحيلاً التوصل إلى اكتشاف هذا الأمر إلا أن هناك حالة بسيطة مرتبطة بفكرتنا الأولى، وهى أن الجامع أعيد بناؤه فى مكان أو باستخدام أنقاض كاتدرائية قديمة أو آثار أكثر قدمًا (١٧٣)، هذه الفكرة قد تضعنا على الطريق السليم. لقد وجد بجانب التابوت المصرى الذى سندرسه عما قريب، وعلى قطعة من الرخام الرمادى تشكل جزءًا من بلاط الجامع، كتابة يونانية مكتوبة بحروف رومانية - وحيث إنها كانت شبه ممحية فلم يمكن من أول وهلة سوى تمييز كلمة Constantinon . ويرجح أن يكون هذا جزءًا من الكنيسة المسيحية القديمة؛ وسأكتفى - لتوجيه الافتراضات دون أن أطيل فى الحديث أكثر من ذلك - بذكر أن قسطنطين كان قد نقل الإمبراطورية اللاتينية إلى اليونان وأنه كان أول من قام - علانية - بحماية الديانة المسيحية وأن سان أثاناس الذى لا تزال تحمل اسمه الكنيسة التى أعيد بناؤها، كان يعيش فى عهد هذا الإمبراطور. ويمكن على الأقل أن ترجح نسبة هذه الكاتدرائية إلى القرن الرابع عشر على نحو التقريب.

---

(١) يبلغ ارتفاع جانب الجامع المسمى بجامع الألف عمود مائة وعشرين مترًا (حوالى ستون قامة) ويصل ارتفاع الجانب فى جامع سان أثاناس إلى واحد وسبعين مترًا.

وكان قد تم فى فناء الجامع بناء مبنى صغير ثمانى الزوايا ينتهى بقبة من الطوب لتغطية الصحن الجميل القديم[1] الذى كان المسلمون يستخدمونه فى الوضوء كما يتضح. وكان هذا الصحن صغيرًا جدًا لإتمام الوضوء إذا ما قورن بالصحون المبنية فى الجوامع الأخرى. ولكن جماله وقيمته الأصلية التى قدرها حق تقديرها كل من العرب والأتراك والمسيحيين والعالم كله جعلتهم يفضلونه لمثل هذا الاستخدام (١٧٤) وقاع هذا الصحن به ثلاث أو أربع فتحات دائرية يبلغ قطرها بوصتين تم فتحها بعد بنائه بفترة كبيرة. ويبلغ طول الصحن ثلاثة أمتار ومائة وستة وعشرين سنتيمترًا، ويبلغ عرضه مترًا وستمائة وستة وعشرين سنتيمترًا من أعلى ومترًا ومائتين وواحدًا وثمانين سنتيمترًا من أسفل، ويصل ارتفاعه إلى مائة وخمسين سنتيمترًا. وأكبر جانبى هذا الصحن الذى تأخذ قاعدته شكل متوازى الأضلاع مستديرًا مثلمًا هو الحال فى المغطس، وهو مصنوع من كتلة واحدة من الرخام، البارع الجمال والمصقول تمامًا ويسميه الإيطاليون "الرخام المصرى الأخضر "[2] ولون هذا الصحن داكن أو أخضر قاتم مرصع بشظايا خضراء وصفراء وبيضاء وسوداء ومائلة للاحمرار، لتشكل أحلى أثر ممزوج. والمعروف أن هذه الصخرة شديدة الصلابة، ولكن هذه الكتلة ذات طبيعة أكثر تجانسًا عن قطع الرخام المسنن العادية (١٧٥) لذلك كان القدماء يفضلونها لتسهيل أعمالهم، لا سيما نقاء المناظر المنقوشة. ومع ذلك يبدو أن هذا العمل كان هائلا واستلزم احتياطات كثيرة لثقب هذه الكتلة رغم ضآلة سمك الجوانب (ثمان بوصات). إلا أنه يتعين الاعتراف بأن العمل والعناية والصبر هى الطابع المميز والسائد لأعمال المصريين القدماء. و سأسرد دليلاً آخر يتعلق بتزيين وزخرفة هذا الأثر المزين والمغطى من الخارج والداخل برموز هيروغليفية عديدة، صغيرة ودقيقة جدًا رسمت بطريقة لائقة، ولا يمكن أن تكون أوضح من ذلك. وبعض هذه الرموز يتعلق فيما يبدو. بممر ستيكس الذى أخذه اليونانيون عن المصريين وأجزاء أخرى من أساطير الجحيم. فنرى أشخاصًا عديدين فى

---

(١) انظر لوحات العصور القديمة، المجلد الخامس، اللوحتين ٤٠ و ٤١ .

(٢) انظر التاريخ الطبيعى، علم المعادن، اللوحة التاسعة والشرح .

قوارب رمزية كتلك التى نراها بكثرة على حوائط المعابد والمقابر فى صعيد مصر. ونجد أيضًا حيوان النمس ممثلاً فى عدة مناظر (١٧٦). والكتابات الهيروغليفية داخل الصحن كميتها أقل من تلك الموجودة خارجه.

و كان من الأهمية أن يجد القارئ هنا وصفًا أكثر تفصيلاً عن هذا الأثر الجميل الذى سبق وقدمه الرحالة المحدثون فى أوروبا حتى ذاع صيته، وكان يجب أيضًا مقارنة أبعاده مع التوابيت الخاصة بملوك وأهرامات منف وأبعاد الصحن الموجود أسفل مسجد القاهرة المبنى فى المكان المسمى بقلعة الكبش. وهذا الأثر أحادى الكتلة يشبه ذلك الموجود فى الأسكندرية من حيث توزيع الزخارف. ونكتفى هنا بالرجوع إلى شروح اللوحات(١).

وليس هناك مجال للشك حسبما يقول من جاب آثار مصر العليا وزار داخل الهرم الأكبر فى ألا يكون صحن الأسكندرية تابوتًا حجريًا آخر. فتوابيت الملوك مستديرة - مثل ذلك التابوت - فى أحد الأطراف ومربعة من الطرف الآخر. وهنا ينقص الجزء السفلى ويبدو حسبما رأينا فى التوابيت الأخرى التى وجدنا أغطيتها فى أماكنها والتى تحمل صورة كاملة، عليها نقوش بارزة لشخصية راقدة على الظهر، كما نرى فى قبور القرن الخامس عشر. و يبدو أنه كان للتوابيت المصرية طريقة إقفال واحدة من نفس المادة لأن المومياء كانت تغطى بأغطية شديدة الصلابة، وهذا ما دفع بعض الأشخاص فى الحملة إلى الاعتقاد بأنه عثر على غطاء هذا التابوت فى أحد شوارع الأسكندرية الحديثة وهو ما لم نتمكن من التحقق منه.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الأثر الثمين لبراعة فنه وقدمه ليعد أيضًا ثمينًا لندرة المناظر المنقوشة عليه والمواد الجميلة المستخدمة فى صناعته على السواء لم نر أى عمل مصنوع من هذا الركام المسنن سوى جزء من عمود كان فى أحد الحدائق المجاورة لميدان الأزبكية بالقاهرة. فالمصريون هم الوحيدون الذين نحتوا هذا النوع من الصخور، وإذا ما كان هناك مجال للمقارنة ما بين مبان ضخمة

(١) انظر الدولة القديمة، المجلد الخامس، اللوحتين ٤٠، ٤١

مختلفة فلا أعتقد أنه يمكن إعطاء عمود دقلديانوس ذات الأهمية والقيمة التى نعطيها لتابوت الأسكندرية.

ومن المحتمل أن يكون هذا التابوت منتميًا إلى المبنى القديم السابق للكنيسة البدائية وكذا للجامع فى أوقات أخرى ولكن لم يتم نقله إلا بعد استخراجه - مثل المسلات - من أحد أقدم المقابر فى مدينة الأسكندرية. ومن المعروف أن مثل هذه التوابيت التى استخدمها المصريون القدماء فى المقابر فى عهد سعيد كانت غريبة على الأسكندرية التى تعتبر المدينة اليونانية والحديثة نسبيًا بالنسبة لمصر القديمة.

ملحق لوصف آثار الأسكندرية وضواحيها
بقلم السيد / سان جينى
كبير مهندسى الطرق والكبارى

أبحاث ومناقشات :

لقد التزمنا فى هذا الملحق بنفس الترتيب ونفس المسيرة المتبعين فى «وصف المناطق» وفى «الاعتبارات العامة والتاريخية»، بحيث يمكن قراءته منفصلا، وفى الوقت ذاته بتسلسل معين. فهو ينقل الرحالة مرة ثانية إلى نفس الأماكن ويتناول بطبيعة الحال من جديد القضايا أو الوقائع التى يهدف إلى توضيحها على نحو أكمل. وهكذا ، نستطيع أن نواصل دون انقطاع قراءة أول جزأين ، دون تتبع خطوة بخطوة الإحالات التى تحمل أرقامًا داخل أقواس ( ) والتى يضمها هذان الجزآن. ومن جهة أخرى ، فان هذه الأرقام تسهل على القارئ هنا دراسة إحالات الموضوعات الخاصة التى يشتمل عليها نص هذين الجزأين والتى يكون من المناسب الرجوع إليها وقد استبعدنا هنا وكما يظهر من العنوان المذكور أعلاه المناقشات التفصيلية أو شديدة الجفاف حول نصوص الكتاب، و آراء الرحالة، والمقارنات الثانوية ..... إلخ

ملاحظة تمهيدية

(١) إن المكان الذى يشغله هذا المبحث داخل المؤلف يوضح تمامًا أنه يتعلق بالأسكندرية القديمة على وجه الخصوص. وقد قام أحد معاونينا بتأليف مبحث

عن الأسكندرية بوجه عام ، ولابد أنه يتناول هذه المدينة فى حالتها الحديثة بصفة أساسية، وبالتالى فإن موقع هذه الكتابة الأخيرة مسجل فى تقسيم فرعى آخر من المؤلف. ومن ثم، فسأمتنع عن كل ما يمكن أن يكون بمثابة وصف للأسكندرية بوضعها الحالى، وليس مجرد مقارنة حتمية بين الوضع أو الحالة القديمة والحالة الحديثة للأماكن. كذلك، فلن أصف تفصيلا المدينة الجديدة، وقرى النطاق العربى، والأديرة ، والحدائق والحمامات، والحصون والمنشآت الحالية، والتجارة والصناعة والأخلاق ، والقوانين والعادات والعبادات الحديثة .....إلخ

ومع ذلك فأنى أعترف أنه من المؤسف أن تكون هذه المدينة موضع كتابتين مختلفتين، وهو ما يضر بوحدة المعلومات التى نقدمها عن وجودها ، وبالتالى عن تاريخها وهذا التقسيم الاضطرارى هو حالة تخص الأسكندرية وحدها. وقد جاء نتيجة عدم احتفاظ أى مدينة أخرى من مدن مصر بموقعها وبنفس اسمها وبأهميتها منذ العصور القديمة وحتى الآن. ولمعالجة هذا الضرر قدر الإمكان سأحرص فى المقارنات التى تكلمت عنها لتوى أن أترك لزميلنا السيد جراتيان لوبير الوصف التفصيلى للحالة الحديثة لكل شىء منذ عصر الهجرة ، والسرد المنفصل للأحداث ابتداء من نفس العصر أو على نحو أدق ابتداء من فتح عمرو بن العاص.

ها هو ذا المنهج العام الذى اتبعته على الدوام وقد التزمت بالحياد قدر المستطاع فى كل مقال من وصفى :-

١- أفحص تفصيليًا الآثار الموجودة فى كل موقع أو الموقع وحده إذا لم يكن فيه أطلال أثرية تلفت النظر.

٢- فى الحالة الأولى . أذكر ماذا كانت تمثل تلك الأطلال ، وفى الثانية أذكر ماذا كان يمثل هذا الموقع ، وأصف الأثر الذى أعتقد أنه كان قائمًا فيه وفقًا لما ذكره الكُتّاب القدماء.

٣- أبين ماذا أصبح الشىء أو المكان، و وضعه الحالى.

٤- أذكر باختصار الأحداث المهمة التى جرت فيه إذا لم يكن هناك بينها تسلسل تاريخى قديم يمكن تصنيفه فى الجزء الثانى (اعتبارات عامة وتاريخية)، أو الجزء الثالث. (أبحاث ومناقشات) .

موجز تاريخى وعام

الحقبة الأولى

(٢) تستطيع أن نقسم كل تاريخ مصر بالنسبة للأسكندرية إلى ثلاثة أجزاء كبرى تختلف تماما فيما بينها ، ونطلق عليها التاريخ القديم والتاريخ الأوسط والتاريخ الحديث. وينبغى أن نعزى للجزء الأول كل ما نعرفه أو نراه أيضًا من روائع مصر القديمة، إلى ملوكها الطبيعيين، أى الفراعنة كما يطلق عليهم الإنجيل، وأساطيرها، وعلومها، وقوانينها، وأخلاقها القديمة، ومدنها طيبة ومنف وغيرها، وأهراماتها، ومسلاتها، ومعابدها و مقابرها، وقصورها، وبحيرة موريس، والمنشآت المتعلقة بالنيل وغير ذلك من المعالم والآثار؛ وللجزء الثانى كل ما هو ناتج عن علاقات مصر بالشعوب التى نبدأ منذ ذلك الوقت فى التعرف على تاريخها شبه المعاصر منذ غزو الفرس، وبالتالى كل ما يخص الأسكندرية القديمة التى تأسست بعد غزو قمبيز، وهى الفترة التى بدأت فيها مصر فى التأغرق؛ أما الجزء الثالث فيندرج فيه كل ما يتعلق بمصر التى أصبحت محمدية بالأسكندرية الحديثة، بعدفتح العرب الشرقيين لها .

الحقبة السابعة

منذ عصر الفاطميين حتى صلاح الدين :

(٣) لم أجد من جانب الفرنجة الذين تحدث عنهم دانفيل ما يؤكد موقع الأسكندرية. كل ما نعرفه هو أن أمورى الأول أحد أواخر ملوك القدس الفرنسيين المعروف عنه التهور والطمع، أرسل فى هذه الفترة (فى عام ١١٦٨) حملة عسكرية أولى ضد القاهرة ودمياط، ثم أرسل حملة ثانية ضد دمياط وحدها. وللأسف فإن هذه الحملة الأخيرة كانت أسوأ من الأولى وأدت إلى

استقدام صلاح الدين من مملكته. ومن ثم أدت إلى دمارها بعد قليل. لكن يبدو أن أمورى ولوزينيان صهره وقائده لم يعبرا الفرع الشرقى للنيل ليتجها إلى الأسكندرية.

وصف المناطق

راكوتيس وأحياء أخرى

(٣) من المعروف أن المصريين المحدثين معتادون على نقل أنواع الركام وقمامة منازلهم خارج مدنهم وإلقائها فى أكوام تصبح شيئًا فشيئًا تلالا حقيقية غالبًا ما تخفى وراءها مدخل هذه المدن. وبمجرد أن أخلى النطاق العربى فى الأسكندرية وأصبح مهجورًا قام سكان المدينة الحديثة الواقعة بالكامل خارجه بحمل نفاياتهم وأنقاضهم إلى هناك. ومما يؤكد أن غلاف هذا الجبل مصطنع هو أن الركام الهائل الذى كونه الفرنسيون هناك، وكذلك أعلى حصن كريتان الذى سنراه، عبارة عن تراب بقايا مواد البناء، وحطام من كافة أنواع الفخار والطوب والرخام والجرانيت ، وحجر السماق والأسمال .

وقد تخيلت أن هناك تحت هذا الركام توجد أنقاض لمبانى أثرية. والواقع أن العادات المصرية التى تحدثت عنها لتوى جاءت على العكس لتؤكد هذا الظن بدلا من أن تقوضه: ففى مصر العليا أمكننا أن نلاحظ باستمرار أن سكان القرى المقامة ـ فوق أسقف المعابد أو فى جوارها قد اختاروا داخل هذه المبانى وأفنيتها مكانًا للتخلص من القمامة والنفايات حتى ازدحمت تمامًا من جراء ذلك.

ومن المحتمل أيضًا أن يكون أهالى الأسكندرية يبتغون فى الوقت ذاته تكوين مرتفع من هذه النفايات ليكون مع الفنار الحديث بمثابة معالم للبحارة ترشد السفن فى البحر وتحل جزئيًا محل الفنار القديم .

(٥) ولد استرابون الذى يذكر لأول مرة فى هذا الجزء من النص فى بلدة أمازى فى كبادوس وقد ترعرع فى عهد كل من أغسطس و تيبيريوس، وكتب مؤلفه فى الجغرافيا فى السنوات الأولى من حكم الإمبراطور تيبيريوس، فى

بداية الحقبة الرابعة من موجزنا التاريخى، ومن ثم خلال ـ أزهى عصور الأسكندرية. وقد كان فيلسوفًا ومؤرخًا. لكن أفضل لقب له هو ذلك الذى منحه إياه مؤلفه فى الجغرافيا، وهو الوحيد الذى وصلنا من بين. مؤلفاته. وكان قد سافر إلى بلدان مختلفة، خاصة من أمينيا حتى توغل فى الصحراء العربية ومصر. وقد أعطى فى مؤلفه وصفًا جميلاً للأسكندرية كما كانت فى عصره، وهو ما يعتبر أكثر المعلومات التى تركها لنا التاريخ القديم عن مبانى هذه المدينة ـ الرائعة تفصيلا بل وأكملها وسترد هذه المعلومات باستمرار فى هذا المبحث وقد اعتمدت على وجه التحديد على اللوحة التى تمثلها هذه المعلومات عن الأسكندرية فى الترميم الذى قمت به فى رسم الأسكندرية بعد الترميم وسأتتبع المترجم اللاتينى ـ لاسترابون فيما أستشهد به أحيانًا من نصوص دون ترجمتها إلى الفرنسية .

(٦) مما يدل على الارتفاع القديم لراكوتيس عن مستوى الأرض التى تكاد تكون فى مثل تسطح البحر، بعض العبارات اللاتينية التى يستخدمها هذا المترجم هنا .

ـ إن ملوك مصر القدماء الذين تحدث عنهم استرابون ـ والذين كانوا يكرهون الملاحة ـ هم الذين أشرت إليهم بالتسمية العامة الفراعنة والذين حكموا خلال الحقبة الأولى. وفى تلك العصور كان المصريون يعتبرون هذه المهنة شائنة. ومن جهة أخرى ، فقد رأينا أن موقع الأسكندرية كان فى كل الأزمنة مناسبًا جدًا ليكون مأوى للملاحين، بما أنه كانت هناك حامية لمنعهم من الاقتراب ولابد أن هذا الرأى حول مزايا هذا الموقع قد ساهم فى جعل الإسكندر يختاره ليؤسس عليه مدينته. وقد أقام الفرنسيون على المرتفع الذى نحن بصدد دراسته حصنًا يسمى كافاريللى وهو على اسم أحد القادة المشهورين وكان يتولى قيادة الهندسة العسكرية وقتل فى حصار عكا. وهكذا ، وبعد مرور عدة قرون، استعاد موقع ضيعة راكوتيس الغرض الأول منه كقلعة ، وكذلك بقية الأرض المحيطة التى كانت فيما مضى مزينة على نحو بديع فقد عادت جرداء كما كانت أصلا.

(٧) لم يكن حول راكوتيس مراع أكثر مما هو موجود الآن، وكان الرعاة من البدو مثل العرب الحاليين. ووفقًا لهليودور، فإن الأرض التى كانت تحيط

براكوتيس كانت تسمى «الشخص الذى يحرث بالنيران»، ويطلق كابيتو لينوس عبارة الجنود الرعاة على جنود الحامية فى الأماكن التى كانت تسمى فى مصر «العسكرية» ومن ثم فإننا نرى أن صحراء الأسكندرية لم تكن مجهولة لملوك مصر القدماء كما كان مزعومًا. بل إن هيرودوت(١) يخبرنا بأنه كانت هناك معركة حاسمة بين أبريس وأمازيس قبل غزو قمبيز بوقت قليل فى موممفيس(*) على شاطئ بحيرة مريوط وبالقرب من راكوتيس ويقول ديودور الصقلى: إن هذه المعركة دارت بالقرب من قرية ماريا وهى أبعد من ناحية الغرب. وقد وقع أبريس أسيرًا خلال تلك المعركة- ثم تم خنقه بعد ذلك. وفى تلك الفترة، كان الفراعنة قد تخلوا منذ وقت طويل عن كرههم ونفورهم تجاه الملاحين والإغريق.

(٨) فيلون يهودى ولد فى الأسكندرية والمعلومات التى نستمدها من كتاباته حول حالة هذه المدينة واليهود الذين كانوا يسكنونها معلومات قيمة. وقد ولد فى أسرة مشهورة وكهنوتية، وقام إخوته فى الدين فى الأسكندرية فى عام ٤٠ تقريبًا بإيفاده على رأس بعثة لدى كاليجيولا ضد إغريق هذه المدينة. وقد ترك مذكرات فى هذا الصدد، أو خطب ضد فلاكوس (ومؤلفات أخرى، وكلها تقريبًا عن الكتاب المقدس). ولم يلق فيلون قبولا من كايوس الذى كان ثائراً لأن يهود الأسكندرية كانوا قد رفضوا وضع تماثيله وصوره فى معابدهم. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء اليهود كانوا دائمًا متمردين شأنهم فى ذلك شأن بقية سكان هذه المدينة القوية . وتدل هذه المذكرات على أنه بذل فى هذه المهمة الكثير من التفانى والحكمة والحزم والموهبة. غير أنه ينبغى عند التعامل مع المعلومات التى تضمها هذه المذكرات حول وضع يهود الأسكندرية توخى الكثير من الحذر نظرًا لميوله الطبيعية والظروف التى كان يكتب فيها .

- أما يوسيفوس، فهو يهودى من بيت المقدس عاش فى عهد نيرون ومات فى عهد دوميتيانوس فى عام ٩٥. وبالإضافة إلى مؤلفيه التاريخ والعصور اليهودية

(١) التاريخ ، الكتاب الثانى ، المقطع ١٦٣ .

(*) كوم أبو بيلو (المراجع) .

القديمة فقد كتب كتابين ضد أبيون وهو عالم نحو فى الأسكندرية وكان عدوًا لدودًا لليهود، وسنعرف فيما بعد أنه كان أحد علماء هذه المدينة. والواقع أن يوسيفوس وفيلون هما الكاتبان الوحيدان اللذان عرفنا منهما عدد أحياء الأسكندرية .

ميناء أونوست

(٩) يوجد مورد السفن الحالى عند ثلث ذلك الهلال الواقع بين زاويتى الجدران المتقدمة فى الماء[١] ويستقبل مياه النيل بعد امتلاء صهاريج المدينة العربية . وهو مبنى ليس ضخمًا ولا يبدو أنه أثرى وربما شيده العرب الشرقيون عند تقلص النطاق العربى. ومن الواضح أنه مجرد جزء من آثار أحد الأطراف القديمة لفروع قناة النيل تلك التى كانت توزع المياه على مر العصور حتى داخل المناطق المتراجعة من المدينة. أما اليوم فلا تستطيع هذه المياه الجريان داخل المورد إلا فى اللحظة الأخيرة من فيضان النهر.

(١٠) وهذا التيار الرئيسى القادم من الغرب إلى الشرق ، والرياح السائدة القادمة من الشمال الغربى كلها عوامل أدت أيضًا إلى مزيد من التلف بالنسبة لشواطئ المرسى المجاور لنيكروبوليس والمقابر التى تليها، ومن المعروف أن الرياح تهب فى هذا الاتجاه خلال معظم فصل الصيف، وبالتالى يكون هذا موسم وصول البضائع التى تأتى من أوروبا والتى غالبًا ما تقطع أقل من خمسة عشر يومًا حتى تصل. ويضاف إلى هذه الأسباب التى أدت إلى اختفاء المنشآت فى ميناء أونوست تلك العادة السيئة التى اعتاد عليها الأتراك منذ ما يزيد على مائتى عام، وهى عادة إلقاء صابور السفن فى هذا الميناء .

(١١) و بما أن المدخل الرئيسى الذى تحدث عنه استرابون ليس إلا أحد المضايق التى تتردد عليها السفن الحديثة، فسأتكلم فى موضع آخر عن كل هذه الممرات معًا، وكذلك عن عمليات السبر التى قام بها مهندسو الطرق والكبارى

---

(١) انظر الدولة الحديثة لوحة رقم ٨٤ .

لتحديدها. ويكفى أن نرى الآن أن عمق مدخل ميناء أونوست كان كافيًا بالنسبة للسفن القديمة.

والواقع أننا نلمس اليوم أكثر تلك المزايا التى تحدث عنها استرابون بسبب غاطس السفن الحديثة التى تجد لنفسها قاعاً كافياً فى الميناء القديم على الرغم من عمليات الردم اليومية التى كان يقوم بها الأتراك. أما الميناء الجديد فكان مرسى مناسبًا للسفن القديمة ولا يستطيع استقبال سفينة حديثة كبيرة نظراً لأنه كان مغلقًا فيما مضى. وهكذا نجد أن المزايا والمساوئ المتبادلة لهذين الميناءين قد تعرضت لتغيير عكسى تمامًا. كذلك فإن الميناء القديم هو الأنسب لبناء سفننا ولأسلوبنا فى إنزالها البحر. ومع ذلك لم نجد لدى وصولنا أى من المنشآت اللازمة للبحرية، وقد كان مهندسو الطرق والكبارى مكلفين بتصميمها؛ ولو أن الأحداث كانت تسمح باتخاذ موقع قوى صلب فى هذا البلد لكانوا قد أقاموا هذه المنشآت حول هذا المنحنى المناسب، وإلى أن يتحقق ذلك، فقد جمع الفرنسيون فى ميناء أونوست كافة منشآتهم المؤقتة مثل ساحات التعمير ومخازن البحرية المبينة فى اللوحات

(١٢) ونتيجة لهذا الملاذ الملائم ، وهذا العمق للمياه، وغيرهما من مزايا الميناء القديم قامت الحكومة التركية فى تعصب أعمى ضد الأجانب بإجبار الأوروبيين غير المسلمين على الرسو فى الميناء الجديد على الرغم من عدم إمكانية ذلك (وكان أولى بهذه الحكومة العمل على اجتذاب هؤلاء الأجانب نظرًا لحاجة تجارتها لهم). وحتى إذا اضطرت إحدى سفنهم الدخول فى الميناء القديم لأى ظرف عارض، كان عليها بمجرد زوال هذا الظرف المرور داخل الميناء الجديد المخصص للمراكب المسيحية . ونحن نعرف أن هذه المراكب تدخل الآن الميناء القديم شأنها فى ذلك شأن سفن المسلمين؛ مما يعد إصلاحًا مناسبًا من تأثيرات الحملة الفرنسية على العادات فى مصر .

(١٣) وعندما يقول استرابون «ومن الباب الغربى»، فإنه يقصد مدخل ميناء أونوست وليس المضيق الغربى للميناء الكبير بين صخرة الماس والفنار. لأنه تحدث عن هذا الميناء الكبير.كما لو كان يتحدث عن المرفأ المثالى، أو عن الميناء

المزدوج الذى يكونه موقع جزيرة فاروس : «وعن الذين كانوا يتجهون إلى هذا الباب الرئيسى» ويصف المدخل الشرقى الضيق ثم المدخل الغربى.

وهناك مراكب صغيرة ذات صالب وأشرعة لاتينية غير مجسرة تأتى عن طريق البحر من مصبات النيل. ومع ذلك فنادراً ما كانت تدخل فى الميناء القديم.

ولتحديد شكل ومساحة ميناء أونوست ، يمكننا أن نسجل أن استرابون يضيف فى وصفه أن هذا الميناء كان يقع قبل أو أمام الميناء المغلق والمحفور بأيدى البشر، أى ميناء كيبوتوس الذى سنراه فيما بعد . ويقول «أمام»، لأنه تحدث لتوه عن جزيرة فاروس التى تقع فى الشمال. وهو يلح قائلا بهذه الطريقة فى موضع آخر: «انطلاقًا من الرصيف الكاسر للأمواج وهو ما يعنى من جهة الميناء الكبير، يوجد ميناء أونوست كما يوجد أعلاه الميناء المحفور المسمى كيبوتوس ». وبما أن هذا الأخير كان محفورًا (فى الأرض بالتأكيد)، أحيانًا أسفل الأول وأحيانًا وراءه. فمن الواضح أن ميناء أونوست كان يحده من هذه الجهة البروز الذى لا يزال يمثله النطاق العربى الحالى ، ورصيف كاسر للأمواج أو بناء آخر كان يغلق ميناء كيبوتوس الصغير. ولو أن ميناء أونوست كانت تغلقه إحدى المنشآت الكبيرة من هذا النوع لكان استرابون ذكر ذلك، كما فعل بالنسبة لميناء كيبوتوس الذى كان رصيفه الكاسر للأمواج أقل ضخامة. و هذه الملاحظات ستسهم فى الوقت ذاته فى تحديد موقع هذا الحوض الثانى .

ولن أهتم هنا ولا فى بقية هذا المبحث بتسجيل أخطاء الكُتّاب أو الرحالة الذين اهتموا بالأسكندرية سواء أكانت أخطاء طبوغرافية أم من أى نوع آخر. بل يكفى بيان هذه الأخطاء وأهم البراهين التى تدحضها عندما تمثل هذه الأخطاء حجة على قدر من الأهمية .

(١٤) حتى نكوّن فكرة عن مدى سرعة العودة من أوروبا إلى ميناء أونوست، يكفى أن نقول: إننا رأينا خلال الصيف مراكب ذات ساريتين تأتى من شواطئ مقاطعة بروفانس الفرنسية وقد قطعت المسافة فى خمسة عشر يومًا، وفى اثنى عشر بل فى تسعة أيام .

ميناء كيبوتوس

(١٥) عندما قلص العرب النطاق الذى كان يضم قبل مجيئهم ميناء كيبوتوس، أمكنهم الاستمرار فى استخدام هذا الميناء لبعض الوقت والاستفادة من التسهيلات التى يوفرها لهم. لذلك أداروا فى هذه النقطة اتجاه النطاق نحو الجنوب الشرقى مكونين أيضًا من هذا الجانب هلالاً كان يضم هذا الميناء الصغير. ولذلك كان هناك منفذ رئيسى لمدينة العرب الشرقيين يطلق عليه باب المقابر .

(١٦) تنزع الرياح والتيارات السائدة دائمًا إلى ردم الخلجان الصغيرة بفعل الدوامات التى تتكون فيها .

(١٧) عندما يقول استرابون :إن ميناء كيبوتوس كان مغلقًا، فإنه يوضح احتمال كونه كذلك بفعل الإنسان أو لأنه كان هناك حرص على أن يترك - فى حفريات الصخور على شاطئ البحر - نتوء يكون بمثابة مركز لسد الإغلاق. ولهذا السبب افترضت كونه جسرًا أو رصيفًا كاسرًا للأمواج على مساحة كبيرة نوعاً ما، على الرغم من أنى قلت :إن فتحة وادى كيبوتوس الصغير فى البحر ضيقة. ومن ثم فقد كان حاجز الأمواج هذا لا غنى عنه لإغلاق هذا الحوض بإحكام وحمايته من الأمواج التى كانت تضرب فيه مباشرة خاصة وقت المد.

(١٨) كتب ليون الأفريقى فى بداية القرن السادس عشر ما يجعلنا نتصور أن ميناء كيبوتوس، الذى تناولته بالعرض فى هذا النص، لم يتم هجره تمامًا إلا منذ غزو الأتراك لمصر. وهذا الافتراض يتفق أيضًا مع تكوين المدينة الحديثة وهجر النطاق العربى.

(١٩) سأتحدث فى مقام آخر عن مصب قناة كيبوتوس الملاحية فى النيل وبحيرة مريوط، وعن العمليات التجارية الكبيرة التى قامت من خلال هذا الاتصال.

(٢٠) نجد فى الملاحظات التى سجلناها لتحديد ميناء أونوست وفى الموقع الذى أقره كمنشأ للرصيف الحاجز للأمواج الذى نراه فى «الأسكندرية بعد

ترميمها»، عدة استدلالات من شأنها أيضًا تأكيد اختيارى لموقع ميناء كيبوتوس، ولكن دون أن يكون فى ذلك أى افتراض أوقياس دائر، وعلى ذلك ولما كان منشأ الرصيف الحاجز يبلغ عمقه فى الأرض سبع غلوات فى الاتجاه الجنوبى الغربى أعمق من هلال جدران النطاق العربى، وإذ يقول استرابون «من ميناء أونوست إلى سبتاستاديوس (اتجاه الشمال)»؛ فإن ميناء كيبوتوس الذى كان محفورًا فى الأرض ما كان ليحفر فى الصخر عند راكوتيس ومع ذلك لا يمكننى إخفاء أن عددًا قليلاً من الرحالة المحدثين يحددون موقع هذا الميناء الأخير فى الجزء الغائر الذى يوجد فيه مورد السفن: والآن يمكننا أن نحكم على هذين الافتراضين .

(٢١) إن لقب مكسيموس الذى يطلق على الميناء الجديد الذى سبق أن رأيناه والذى يمكن مقارنة مساحته ، يفسح المجال لأن نلاحظ بوجه عام من بين كل الموانى التى نراها هنا أن ميناء أو نوست وهو أكبر من الميناء الجديد بالنسبة لاستخدامات البحرية فى الوقت الحالى، لم يكن كذلك بالنسبة لعادات القدماء، وأنهم كانوا يطلقون كلمة موانى على الأماكن الأكثر حماية من الرياح والأكثر انحصارًا والأكثر ضيقاً عند المدخل سواء بفعل الطبيعة أو بفعل الإنسان ، مثل ما نطلق عليه اليوم كلمة حوض. ومما يؤكد ذلك أنهم كانوا يميزون فى الميناء القديم ذاته بين أونوست وكيبوتوس ، فى اتجاه هذا المكان الغائر الذى ترسو سفننا اليوم بجرأة خارجه. ومن ثم فإن الميناء الحالى كان إلى حد كبير مرسى بالنسبة للقدماء.

جزيرة فاروس

(٢٢) لو أن رسومات المقابر كانت حقًا من الأرابسك ، كما أتذكر أن بعضها كان يبدو هكذا ـ فهى لا تعدو كونها رسومات حديثة على أثر قديم.

(٢٣) يحيلنا الكتاب الثالث «للحرب الأهلية» وكتاب «حرب الأسكندرية» إلى نهاية الحقبة الثالثة من الموجز الزمنى والعام مقتريًا بذلك من القرن الذى عاش فيه استرابون وكلمة «متعدد الحضور» التى يستعملها قيصر فى حديثه عن أعمال القرصنة التى كان يقوم بها قراصنة الفنار تدل على أن هذه الأعمال لم

تكن مقصورة على شاطئ الجزيرة، ولكنها كانت تمتد في جميع أنحاء مصر، وبالتالى فإن هؤلاء القراصنة كانوا بحارة؛ ولذلك سنرى فى «حرب الأسكندرية» أنه كان لديهم ميناء كبير فى جزيرة فاروس.

وربما كانت البلدة التى يتحدث عنها قيصر تعتبر ضاحية أيضاً بالنسبة لمدينة الأسكندرية؛ حيث إنها كانت تتصل بلا عائق بجزيرة فاروس من خلال جسر أورديم كما سنرى.

(٢٤) هيرتيوس بانسا :قنصل وكان رفيقًا لقيصر فى الحروب التى وصفها هذا الأخير. وكان قد كتب خلال حرب الأسكندرية أو بعدها بوقت قليل بحيث قدم معلومات قيمة جدًا عن هذه المدينة ، ولو أنها أقل صحة وأقل دقة من المعلومات التى قدمها الجغرافى استرابون. ولم يعش هيرتيوس بعد وفاة قيصر إلا عامًا واحدًا.

وسلسلة الأبراج شبه المتلاصقة التى يتكون منها نطاق بلدة فاروس والتى يصفها هيرتيوس كانت على شكل أسنان مستديرة وكانت تمثل نوعًا فريدًا من الحصون. ووفقًا لطريقة القدماء فى الهجوم والدفاع عن المواقع، وهى طريقة كانت تجعلهم يستخدمون الأبراج كثيرًا فى الهجوم والدفاع، فإننا نتصور أنهم لم يكونوا يحتاجون مثلما نحتاج دائمًا إلى جدران كبيرة بين الحصون ، وأن هذه الأجزاء من الحصون كانت على العكس ضعيفة جدًا، وأنهم باختصارها أو بإزالتها إزالة شبه تامة ـ كما هو الحال هنا ـ كانوا يرفعون كثيرًا درجة المقاومة، ومن ثم فلابد أن تكون بلدة الفنار شديدة المنعة كما يدل على ذلك الأسلوب الذى استولى به الرومان عليها. والمعلومات التى يقدمها هيرتيوس عن ارتفاع بعض منازل جزيرة فاروس معلومات مثيرة من حيث إنها تعطينا فكرة عن مساكن أهالى الأسكندرية. و كان ارتفاع الطوابق لا يزيد على ثلاثين قدمًا و ربما كان هناك طابق على الأقل أعلى الطابق الأرضى، ومن النادر أن تتكون المنازل الحديثة فى هذا البلد من طوابق أكثر من ذلك. وقد شيد الأوروبيون محجرًا صحيًا فوق تل بلدة فاروس.

ونرى أيضًا من خلال الصهاريج والمقابر وبقايا الأبنية التى تناولتها فى وصفى أن الجزيرة كلها كانت مأهولة. وتوجد الأطلال داخل الجزيرة أقل مما توجد على شواطئها، حيث كان الجزء الداخلى مهيئًا أكثر للقيام ببعض الزراعة فيه. ويبدو من خلال هيريتوس وغيره من الكُتّاب أنه بالإضافة إلى البلدة، كانت توجد هناك بيوت ترفيهية ومبانى تابعة لميناء أونوست الذى كان يمتد بطول الجزء الغربى من الجزيرة. وكانت مياه النيل وهى ضرورية لكل هذه المساكن تجلب إليها بواسطة قناة كانت تقطع موقع المدينة الحديثة .

(٢٥) وفقاً للوحات أروندل الرخامية، فقد عاش هوميروس فى القرن التاسع الميلادى تقريبًا أى أربعمائة عام قبل قمبيز وخمسمائة عام قبل هيرودوت. وبالتالى فما يقوله عن جزيرة فاروس يصور لنا حالة الأماكن فى وقت سابق لكل ما نعرفه وهو ما يتعلق بالحقبة الأولى. وهوميروس ليس أكثر الشعراء إجادة فحسب، بل هو أيضًا من أفضل علماء جغرافيا العصور القديمة ومؤرخيها. وعندما نريد أن نبحث عن معلومات عن جغرافيا وتاريخ أقدم العصور فإننا نضطر بصورة شبه دائمة للجوء إليه والاستعانة به. وكان قد سافر إلى مصر حسبما أخبرنا ديودور الصقلى.

(٢٦) قام بروتيوس ملك الوجه البحرى إبان حرب طروادة باحتجاز باريس وهيلينا اللذين ألقت بهما العاصفة على الساحل. وكان حكيمًا وحاد الذهن وكتومًا وحذرًا؛ ومن هنا جاء هذا الافتراض بأنه كان مطلعًا على المستقبل وكان يتحول مثلما تخيل الإغريق. ويتحدث أميان مارسلان عنه فيما يخبرنا به عن الفنار.

(٢٧) إن المسافة التى أشار إليها هوميروس من جزيرة فاروس إلى النيل ربما تفهم على أنها الفرع الرئيسى الذى يرى هيرودوت أنه فرع الوسط الذى يقسم الدلتا إلى شطرين.

ونستطيع أن نتصور من خلال الفقرة التالية لهيرودوت مدى قصر مقياس المسافات الذى كان يطلق عليه «يوم ملاحى». وكان السير نحو عالية النهر من

هليوبوليس إلى طيبة يستغرق تسعة أيام أى أربعة آلاف وثمانمائة وستين غلوة، اى ٨١ شونا(١). وذلك يعنى أن اليوم الملاحى يقدر بخمسمائة وأربعين غلوة.

أما بلينى الذى توفى بعد استرابون بحوالى سبعين عامًا تقريباً والذى أظهر اتساع معرفته فى مؤلفه المذهل، فقد كانت لديه معلومات جيدة عن الأماكن. فضلاً عن أنه يقيس اليوم الملاحى بأربع وعشرين ساعة ، فأنه يسجل أيضاً أن الأمر يتعلق بسرعة السفينة الشراعية. والحقيقة أنه أقر المسافة التى نحن بصددها بين جزيرة فاروس وأرض مصر، وليس النيل. لكن هذا النهر كان فى عصر هوميروس يحمل اسم أيجيبتوس مصر والذى منحه للبلد ذاته قبل أن يحمل اسم النيل المأخوذ من اسم أحد ملوك مصر واسمه نيلوس. (ووفقًا لما أخبرنا به ديودور كان نيلوس هذا خليفة لمندس، وعرف عنه أنه منح اسمه للنهر الذى كان يسمى من قبل بإيجيبتوس). ولكن ألا تعتبر هذه الطريقة فى كتابات هوميروس تفسيرًا لصحة ما يكتبه ؟ ألا يمكن أن يفهم أن الدلتا كانت تكون أرض مصر بحصر المعنى وأن أقليم الأسكندرية الذى كان يفصله عنها صحارى (بل والبحر أو بحيرات شاسعة) كانت طبيعته مختلفة تمامًا، و لم يكن أساسًا جزءًا من هذا البلد المزروع ؟

عندما أتناول أصل بحيرة مريوط والأرض التى تحيط بها من بعيد، سنرى أنه ربما تكونتا بنفس القاعدة العامة التى تكونت بها الدلتا وبقية مصر. وبالتالى فإننا إذا أردنا أن ندرك المسافة التى تحدث عنها هوميروس أو بلينى بالنسبة للأراضى المصرية بصفة عامة فربما كانت تحسب فى عصر قديم جدًا مباشرة من أمام جزيرة فاروس حتى بعد الطرف الجنوب الشرقى الحالى لبحيرة مريوط(٢) .

(٢٨) نستطيع مقارنة الشكل القديم للجزيرة مع شكل شبه الجزيرة الحالية فى اللوحات الثلاث التى نتابعها باستمرار , وهى اللوحات رقم ٨٤ ، ٣١ ، ٤٢.

---

(١) التاريخ ، الكتاب الثانى ، المقطع ٩ .

(٢) راجع الخريطة المائية، الدولة الحديثة، المجلد الأول، اللوحة رقم ١٠ ب .

ولابد أن الامتداد الطبيعى لهذه الجزيرة من خلال سلسلة صخرية بالقرب من برج الفنار كان موجودًا، وأن الامتداد الصناعى الذى نراه اليوم كان عملاً متواضعًا فى العصور القديمة (إذا كانت هناك أعمال من هذا النوع موجودة فى ذلك الوقت) لأن الكتاب لم يتحدثوا عنه ، ولو أنه كان بناءً ضخمًا لما كانوا قد أغفلوا ذكره هكذا ، لأننا من جهة أخرى نعرف أن برج الفنار الأثرى كان مقامًا على «صخرة جزيرة»، وأن كافة الكتاب يشيرون إلى أن الرصيف الحاجز للأمواج الذى سنراه عما قريب كان يصل من اليابسة إلى جسم جزيرة فاروس الكبيرة بحصر المعنى .

(٢٩) كان ديودور يكتب مؤلفاته فى روما فى عهد أغسطس، وعاش فى عهد يوليوس قيصر. ويقول: إنه كان موجودًا فى مصر فى حياة بطليموس. ومن ثم، سيكون لشهادته وزن كبير جدًا طوال هذا المبحث، وخاصة فيما ننشغل به من بحث لأنه على الرغم من أن هذا الكاتب يحب كثيرًا القصص الخرافية، إلا إننا سنلاحظ أن التفاصيل التى يقدمها هنا ليست من تلك النوعية؛ فعباراته وما تحمله من إحساس ومعنى لا تصدر إلا عن رجل كان قد رأى ميناء الأسكندرية. ومن هذه الناحية وفيما يتعلق بالأزمان والعصور فسأضع دائمًا ديودور فى مصاف يوليوس قيصر، وهيرتيوس واسترابون. وعلاوة على ذلك فإن هذا المؤرخ يتميز ـ بالنسبة لأقدم الوقائع ـ بأنه أضاف إلى الملاحظات التى سجلها بنفسه معلومات استمدها من المؤرخ والجغرافى هيكاتيوس المالطى الذى كان قد سافر إلى مصر فى فترة حكم داريوس بن هيستاسب بعد قمبيز بوقت قليل وقبل هيرودوت بوقت طويل .

وسنرى أيضاً من خلال نص هيرتيوس نفسه : «إن جزيرة الفنار المواجهة للأسكندرية «تُكوِّن» الميناء (أى الميناء النموذجى أو الميناء الجديد الحالى) ، وأنه أياً كانت الطريقة التى يوجه بها السد الذى كان يفصلها عن ميناء أونوست (الرصيف الحاجز للأمواج)، فلابد أن جسم الجزيرة كان له امتداد ضيق على الأقل كما أتصور حتى تكون كلمة «تُكَوِّن» لفظًا صحيحًا.

(٣٠) جار البحر على جزيرة فاروس من كافة الجوانب باستثناء جهة الجنوب بالقرب من الحصن التركى . وتدل بقايا الأبنية التى يغطيها الآن بامتداد محيط الجزيرة على التدمير المستمر للشاطئ.

و نستطيع أن نجوب كل مساحة صخور البحر التى تظهر على سطح الماء والتى تحد رأس التين على مسافة خمس وعشرين أو ثلاثين خطوة. وترتفع هذه الصخور عدة أقدام عن مستوى الماء، وهى عبارة عن صخرة من الحجر الرملى الكلسى وهى من ذات طبيعة الصخور التى تكون مركز الجزيرة : أما الجزء الأكثر لينًا منها فقد تحول إلى رمال بفعل الماء، ولم يبق إلى حد ما سوى هيكل جزء من الجزيرة، وهو الجزء الذى كان متقدمًا حتى هذا المكان وربما إلى أبعد منه. ونستدل بسهولة على أن هذا الرصيف كان فيما مضى قاعدة لجزء من الجزيرة كانت مقامة عليه مساكن، من خلال بقايا الصهاريخ المنحوتة فى الصخر التى نجدها فيه ولازالت مكسوة بالطلاء. وقد رأينا أيضًا أن بعضًا من هذه الصهاريخ موجود على الساحل الغربى للجزيرة.

وكذلك نرى فى الخليج الرملى الصغير لقراصنة الفنار الكثير من النباتات البحرية المجففة التى تحدد خط البحر؛ وهو ما يدل أيضًا على أن التيارات والرياح السائدة التى تمتد على طول الساحل تقريبًا من الغرب إلى الشرق، بل الأمواج التى تنحر فى الأرصفة الموجودة فى المقدمة تعد بمثابة مقاومة لها، وكلها تنزع باستمرار إلى ردم الأجزاء الغائرة هنا من الساحل. وستسهم هذه النزعة فى أن تفسر لنا كيف امتلأت بسهولة هذه الساحة المتراجعة الواقعة بين امتداد الجزيرة وأرض المدينة الأثرية القديمة. بل لقد أقيمت فيها جبانة تركية كبيرة والكثير من المنازل. وهناك أيضًا طاحونة هواء على الشاطئ المنخفض والرملى للخليج الصغير. ووجود مبنى من ذلك النوع فى مصر أمر لافت للنظر ولكنه أقل لفتًا للنظر فى الأسكندرية التى تعتبر مدينة أوروبية أكثر من غيرها من المدن. وقد أقام الفرنسيون طاحونة واحدة فى جزيرة الروضة بالقرب من القاهرة. أما طاحونة الأسكندرية فلها ثمانية أجنحة تكون معًا مسطحًا مستديرًا خاضعًا تقريبًا بالكامل لفعل الرياح التى لا يفقد منها على هذا النحو إلا اليسير.

وبالتـالى فـقـد كـانت أرض الجـزيرة، وطرفـهـا الملىء بـالحصى الذى تغطيـه الأنقاض اليوم، وطرفها المتصل بالمدينة الحديثة، تمثل معاً شاطئاً منخفضاً يميل لونه إلى البياض وتكسوه كمية صغيرة من الرمال قليلة الخصوبة إلى حد كبير، غير أن أهالى الأسكندرية القـدماء قاموا بتخصيبهـا. وحتى اليوم تبدو هذه الأرض شبه المهجورة تمامًا ملائمة جدًا لزراعة بعض أشجار التين التى وجدناها نظرًا لارتداد حرارة الشمس هناك. وإنبات هذه الأشجار كان وفيرًا، وكانت تغلف بحبال من الأسل وسعف النخل لوقايتها من رياح البحر ولفحات الشمس وكذلك من النهب. وكانت تستقبل من أعلى مياه الأمطار وندى الصيف الغزير. بل إن بعض الرحالة قد رأوا بذر كمية صغيرة من القمح فى الجزء الصغير من الأرض النباتية الموجودة فى هذه البقعة. وقد أتلفت أشجار التين فى الحروب الأخيرة ، ولكن يظل من السهل معرفة مدى استفادة القدماء من النباتات فى تجميل بيوتهم فى فاروس من خلال ما شاهدناه حول الأسكندرية.

وتحت هذه الطبقة من التربة مباشرة توجد الصخرة اللينة الجيرية الشبيهة بصخرة الشاطئ. فنلاحظ فى فصل الشتاء وجود حوض ماء مالح فى جزء من السطح يجف فى الربيع ويعطى ملحًا غزيرًا فى الصيف.

وكان الفرنسيون قد وضعوا مدفعيتهم عند رأس شبه الجزيرة. ونظرًا لبعد المسافة لم يكن ممكنًا انتظار حدوث تأثير كبير لاتصالها بالمزار. ولما كان مدى آلات القدماء أقصر بكثير من مدى مدفعيتنا، فقد كانوا يفضلون السياج الضيق للميناء الجديد، وسنرى أيضًا أن ذلك الميناء كان ميناؤهم الرئيسى.

(٣١) بالنسبة لإعادة تشييد أبنية جزيرة فاروس، فمن الصعب توفيق نص استرابون مع نص بلينى وسولان ،اللذين يطلقان عليها إحدى مستعمرات الدكتاتور قيصر. وحقيقى أن سولان جاء بعد بلينى بوقت قليل ونقل عنه، فقد كان يكتب وهو لا يزال شابًا عندما كان عالم الطبيعيات الرومانى فى مرحلة الشيخوخة، ولكن يبدو أن الاثنين - اللذين عاشا بعد استرابون بوقت طويل (بما أن بلينى مات بعده بحوالى سبعين عامًا). قد عثرا على المستعمرة التى اتسمت

رقعتها وقاما بتعمير الجزيرة التى كانت فى عصر استرابون لاتزال فى بداية نشأتها، وكانت مقصورة على عدد ضئيل من البحارة الذين سبق وأشار إليهم. وهذه جملة بلينى المختصرة: «الجزيرة المتصلة بقنطرة الأسكندرية حيث مستعمرة الدكتاتور قيصر، فاروس» وكان من الطبيعى أن يفترض بلينى أن هؤلاء السكان الجدد قد عمل على استقرارهم يوليوس قيصر الذى كان يقوم فى نهاية كل حروبه - طبقًا لسويتون - «بنقل ثمانين ألف مواطن رومانى فى المستعمرات وراء البحر».

برج الفنار

(٣٢) إذا كانت تعبيرات استرابون - الذى شاهد بنفسه الأماكن واعتاد على الدقة التامة - صحيحة (الجزء الخارج فى البحر إلى الجزيرة كان من الأحجار التى كانت تحيط بالبحر، وكان يوجد هناك برج... إلخ) فإنها تؤكد وجود هذا الامتداد للجزيرة فى الماضى بسلسلة من الصخور التى أشرت إليها، كما تبين فى نفس الوقت أن المسافة بين هضبة الفنار وجزيرة فاروس كانت صغيرة جدًا لدرجة أنه يمكن اعتبار هذه الهضبة كجزء من الجزيرة، وأنها من جهة أخرى يمكن أن تكون قد ضمت إلى الجزيرة بأى عمل فنى ربما يكون السور الحالى الذى نراه فى اللوحتين ٣١و ٨٤ جزء منه. ولكن هذا العمل الفنى كان فى الماضى غير ذات قيمة كبيرة حتى إن استرابون لم يذكره أو ربما لم يبدأ فى عمله إلا بعده.

وتفاصيل حرب قيصرفى الأسكندرية لاتتعارض مع هذا الافتراض. وكل هذه الملاحظات ضرورية للتوفيق بين الكتاب القدامى الذين يعتبرون صخرة البرج تارة كجزيرة صغيرة منفصلة وتارة أخرى كجزء من جزيرة فاروس نفسها، (وهذه الملاحظات ستفيد أيضًا عندما أتناول السور الحالى بصفة خاصة.) وفى الواقع إن تعليق قيصر سيفيلى دو بيللو يقول بطريقة إيجابية: «إن برج الفنار يوجد بداخل جزيرة فاروس التى أخذ اسمه منها». ويقول يوسيفوس كذلك: «إن هذه الجزيرة تدعم البرج».

(٣٣) إن الإنشاءات التى يفترضها هذا المؤرخ اليهودى ليست خالية من أى أساس بالرغم من عمق المياه الحالى خاصة من جهة الممر فى الميناء الجديد. ولقد دمر البحر أساسات هذه الإنشاءات، ولكن القاع كان قديمًا فى متناول البنائين الذين كان لهم دون شك أساليب للبناء فى البحار المشابهة لبحارنا.

(٣٤) من المحتمل أن سكان الأسكندرية كانوا أثناء قيامهم بأعمال الحفر لمقابرهم الضخمة وصهاريجهم يستخرجون الأحجار التى يستخدمونها وفقًا لحالتها المختلفة فى أجزاء الإنشاءات الجديدة. غير أن التغطية الظاهرية والمعتنى بها لمبانيهم كانت تتكون من هذه الأحجار ذات الطبيعة المشابهة لكل الأحجار المجاورة التى نجدها الآن على شكل كتل جميلة فى منشآت المدينة العربية. وعند صقله يكون لون هذا الحجر أصفر مائلا للحمرة وليس أبيض مثل الحجر الذى ذكره استرابون. ولكن يمكن أن تكون هضبة الفنار قد زودت بحجارتها فى بناء البرج لأن من الواضح أنه تم استغلال الهضبة لتسوية الأساسات أو على الأقل لبناء القصر الحديث. فنشاهد كثيرًا من آثار هذا الاستخدام.

(٣٥) يبدو لى فى بداية الأمر أنه لم تكن الأربطة التى تربط أحجار البرج بعضها ببعض ـ والتى تحدث عنها عالم جغرافية النوبة ـ هى التى صنعت من الرصاص إذ أنه فى هذه الحالة ستكون هذه الكلاليب ضعيفة جدًا وبلا أى تأثير. لكن لو كانت الأربطة مصنوعة من الحديد ومثبتة فقط بالرصاص فمن المحتمل أنه لن يفوته أن يذكر المعدن الأول (الحديد) الذى يشكل القوة الأساسية للربط.

ومن المحتمل جدًا أن تكون هذه الأربطة مماثلة لتلك التى وجدناها فى الجدران القديمة لأحد المعابد فى طيبة وتتكون من مفتاح خشبى ويوجد فى كل طرف منه جزء مستدير ويثبت هذا المفتاح فى حز شق فى منتصف كل حجر من الحجرين المتجاورين، كما أنه من المحتمل أن تكون الأحجار مثبتة بالرصاص ـ وهو المعدن الوحيد الذى ذكره العالم الجغرافى ـ كدليل على القوة والعناية والنفقات التى تجمعت فى هذا العمل.

(٣٦) يقر بليدور بأن ارتفاع برج الفنار الإجمالى يبلغ مايعادل ثمانية طوابق. ولكنى لا أدرى من أين استقى هذه المعلومة حول عددهم حول طول كل جانب من القاعدة الذى يبلغ ١٠٤ قامة طبقًا له. ومن المحتمل أنه استند على المقارنة ـ التى قيل إنها يمكن أن تعقد ـ بين ضخامة برج الفنار وضخامة اهرامات مصر. بالفعل إن الهرم الأكبر الذى وجدنا أن الطول يبلغ ٧١٦ قدمًا و٦ بوصات لكل جانب من القاعدة تم قياسه أو تقديره مسبقًا من قبل رحالة كثيرين وأن بعض هذه التقديرات تقترب من هذا الرقم: ١٠٤ قامة. والبعض الآخر قد أعطى هذه القيمة إلى الغلوة التى استخدمت بدلا من ٩٥ قامة .

إذا فنستطيع أن نحكم مما قيل فى النص بضخامة المبنى القديم للفنار حيث إن ساحة الحصن الحالى ومساحته أصغر بكثير ويبدو بنفس حجم مدينة عادية وأنه يمكن أن يسع تقريبًا كل سكان الأسكندرية الحديثة مع حامية كبيرة للدفاع عنها.

(٣٧) إن المقياس الذى يبلغ ٣٠٠ ذراع الذى أورده عالم جغرافية النوبة ليس سوى مقياس تقريبى. والشك الذى ينتج عنه يزداد مع عدم تحديد نوع الذراع المقصودة هنا. ونحن نعرف أن الذراع قد تغيرت كثيرًا فى مختلف الأزمنة ومختلف البلاد علاوة على ذلك أن العالم الجغرافى يساوى بين ٣٠٠ ذراع وبين مائة قامة للإنسان، بينما فى العادة يحسب ٤ أذرع لهذا القياس الأخير. ويزعم كالوس أن الذراع المصرى ـ الذى يبلغ عند فريريه و دانفيل و بيلى مايساوى ٢٠ بوصة و٦ خطوط ـ قد زادت فى عهد البطالمة والرومان والعرب. وأقر علماء آثار آخرون أن الذراع قد تغير فى أزمنة مختلفة وأنه لم يكن له نفس القيمة فى مصر كلها؛ واسترابون يقول ذلك بالفعل. ولن أدخل هنا فى صعوبات النظم الكفيلة بتحقيق توافق بين كل هؤلاء الكتاب القدماء الذين قد لايتمتعون بالدقة فى مقاييسهم أو حتى تعرضوا للتحريف فى نصوصهم. ولن أتناول هذه المسائل إلا عندما يتوقف تحديد نوع ومكان وشكل أى شىء مهم عليها؛ وفى أية حالة أخرى ألا يكفينا أن نعلم أن هذا الشىء كان اكثر أو اقل اهمية وأن الكاتب

الفلانى القديم يقيسه بمقاييس كالذراع... إلخ ؟ وان كاتبًا آخر معاصرًا وذا ثقة يقدر هذا الشىء بكذا؟

(٣٨) ينبغى ألا نأخذ حرفيا كلام يوسيفوس عندما يقول إن أنوار الفنار كانت تنير للملاحين حتى مسافة ٣٠٠ غلوة؛ وهذه المسافة تساوى ٢٨,٥٠٠ قامة أو عشرة أميال بحرية. ويجب أن نفهم من هذا ومن كل مايذكره الكتاب المختلفون أن نور الفنار كان يمكن تمييزه من هذه المسافة. وفى الواقع أن ٣٠٠ غلوة لاتبتعد كثيرًا عن ٢٠,٨٦٨ قامة التى توصلت إليها بحساباتى. ولن أعود هنا إلى كل ماقيل عن عظمة ارتفاع البرح وعن المسافة التى نرى منها نوره ، ولكن هناك أسطورة عربية متعلقة بهذا الموضوع لاقت تأكيدًا كثيرًا بدرجة لاتسمح بأن تظل فى طى الكتمان، فيزعم أهل الشرق أن الإغريق كانوا قد وضعوا فى أعلى البرج مرآة كبيرة من الصلب المصقول كانت تعكس صورة السفن التى تصل قبل أن تدخل مرمى البصر. ولكن هذه المرآة لكى تعكس الأشياء المتوارية بعيدًا فى الأفق كان يجب أن توضع أعلى بكثير من عين المشاهد الذى كان موجودًا بالفعل فى مكان مرتفع أعلى البرج. فماذا كانت فائدة المرآة فى اكتشاف أى شىء أبعد قليلا مما يجرى من أعلى هذا المرصد ؟ وكانت الأشياء تبدو غير واضحة للعين المجردة على بعد ٢٠,٨٦٨ قامة و المرآه لم تكن تستطيع أن توضح هذه الأشياء.

(٣٩) يبدو أن فنار الأسكندرية كان يضاء باستخدام نار عادية من الخشب، وقد استخدمت هذه الطريقة طويلا فى أوروبا حتى تم ابتكار استخدام حزمة مصابيح ذات تيار هوائى مزدوج موضوعة على هرم ذى جوانب عديدة مضاءة ومعتمة بالتبادل وتدور حول محور رأسى بواسطة ساعة بحيث ينتج عنها ضوء متقطع لايمكن للملاح أن يخلط بينه وبين ضوء النجوم أو أى شىء على الساحل ولا يتسبب فى حوادث مؤسفة نتيجة هذا الخلط. ولذلك يقول بلينى «الخطر فى استمرار النيران لا فى حكم وتقييم النجم لأنه يبدو بعيدًا ويشبه الأجسام الملتهبة».

«وكان الملاحون الضالون يتجهون إلى مكان آخر ويلقوَن بأنفسهم فى رمال مرمرية». ويضيف أنه فى عهده كان يوجد فى أماكن عديدة فنارات شبيهة بفنار

الأسكندرية وذكر منها فنارى بوزول و راهتى كما كان يوجد فى بوسفور تراس. ويقول سويتون إن الإمبراطور كلاوديوس أمر ببناء فنار اوستى على غرار فنار الأسكندرية. ولكن للأسف ليس لدينا وصف أكثر تفصيلا للفنار الأول أو الثانى.

إن هيروديان المؤرخ الإغريقى من القرن الثانى إلى القرن الثالث الميلادى يعرفنا الشكل العام لهما عندما قارنهما بمنصات تتكون من مجموعة منشورات موضوعة بعضها فوق بعض إلى الخلف، وهذا يكمل الفكرة التى قدمها عالم جغرافية النوبة.

إن برج كوردوان وكل الفنارات الحديثة أقيمت منذ ذلك الوقت على غرار البرج القديم. ومن المدهش أن نعقد تقاربًا جديدًا بين عظمة إنشاءاتنا وإنشاءات القدماء بالرغم من أن الصخرة التى يرتكز عليها برج كوردوان يمكن أن تبلغ فى المياه الضحلة - ٥٠٠ قامة طولا و ٢٠٠ عرضًا: وهى محاطة بأرصفة صخرية تغطيها مياه البحر بثلاثة أو أربعة أقدام. والبناء بدأ فى عهد هنرى الثانى وفى وقت بدأت فيه الفنون الواردة من إيطاليا فى تفتح أفكارنا ثم انتهى البناء فى عهد هنرى الرابع . وكان نور الفنار يشاهد على بعد فرسخين فى البحر وذلك أثناء الإصلاح الأول الذى تم فيه فى سنة ١٧٢٠ والذى أسعد البحرية. (فنحن نرى إذًا عدم فائدة أن يصل نور فنار الأسكندرية بعيدًا ونقدر مبالغة المؤرخين فى هذا الشأن).

إن برج كوردوان كان يبلغ حينئذ ١٧٥ قدمًا ارتفاعًا من القاعدة حتى دوارة الريح وكان هناك أربعة طوابق من الغرف ، وكان قطر الكتلة الصخرية التى تشكل ماتحت الأساسات إحدى وعشرين قامة وفى الأزمنة الأخيرة تم رفع قمة البرج و كذلك المصباح ، ولكننا نرى أن هذا الفنار - الذى كان منذ ٥٠ عامًا أجمل فنار فى أوروبا - أقل كثيرًا من عجيبة الأسكندرية.

(٤٠) لقد قدرت الثمن الذى تكلفه البرج بـ ٢ مليون وأربعمائة الف فرنك بحساب العملة المستخدمة فى أثينا، لأن الرومان كانوا يستخدمون العملة الأثينية، وإذا قارنا ذلك المبلغ بعملة الأسكندرية فسيكون الضعف تقريبًا.

(٤١) ينسب بلينى كذلك إلى نفس المعمارى الذى يتحدث عنه بناء حدائق معلقة فى عاصمته. كنيد إن بطليموس الثانى (فيلادلفوس) ثانى ملوك البطالمة هو الذى رفع الأسكندرية إلى قمة الازدهار كما ستتاح لنا الفرصة لنرى ذلك من خلال الوقائع الموجودة فى هذه الدراسة. فكثير من المبانى الكبيرة الدالة على عظمته تحمل اسمه، ومن بينها وأهمها بلاشك قنال البحر الأحمر الذى أتمه وأطلق عليه نهر بطليموس.

توفى لوسيان الكاتب الإغريقى وصاحب الأساطير فى سنة ١٨٠ ميلادية. فكيف يكون الوحيد الذى يقص حيلة ساسترات بينما الجغرافيون الرومان الذين زاروا الأماكن قبل تقسيم مصر إلى مقاطعات بمدة طويلة وبعده بقليل لايذكرون تلك الرواية؟وللتأكد من صحة الواقعة، ويجب أن نفترض أن الطلاء الذى وضعه سوسترات فوق اسمه، والذى استمر دون تغيير فى عهد البطالمة ولمدة أكثر من ثلاثة قرون سقط فجأة بين عهد بلينى وعهد، لوسيان، فكيف يقول أميان مارسلان إن برج الفنار العالى - هكذا يسميه - كان قد تم بناؤه فى عهد كليوباترا آخر ملوك البطالمة ؟ (من المحتمل أنه يتحدث عن هذه الملكة). لا أستطيع إلا أن أقر بأن هذا الادعاء لايفسر بالشك فى أن الخدعة المنسوبة لسوسترات قد تحيط بالمؤسس الحقيقى. وهذا الشك كان سائدًا منذ عهد لوسيان ومارسلان، والأخير هو كاتب من نهاية القرن الرابع: ولكن كل مايقوله هذا الكاتب قام بتكذيبه كل الذين سبقوه والذين ينسبون بناء الفنار إلى بطليموس الثانى.

(٤٢) الصرح الحالى للفنار الذى نرى رسمه فى اللوحة ٨٧ يتكون من ساحة كبيرة يشغل الحصن جزءًا صغيرًا منها، وهذه الساحة نفسها كانت أقل سعة مما تحت أساسات الفنار الإغريقى ، كما أن مساحة الصخرة أقل اتساعًا من ذى قبل. ونرى أيضًا المنازل التى شُيدت فيها على غرار منازل القدماء: ولكن على أثر هذه التقلصات ووفقًا لتعبيرات عالم جغرافية النوبة فإن المنازل القديمة أو تلك التى شُيدت بعدها فى عهده كانت موجودة داخل البرج نفسه أو ماتحت الأساسات .وهذا يقدم لنا فى النهاية فكرة كبيرة عن حجمه. وقد هدم

الفرنسيون هذه المنازل وحتى بعض الشوارع التى كانت موجودة بحيث جعلوا منها حصنًا يدافع عنه جيدًا من طريق ثلاث ساحات.

وهذا الحصن ذو الشكل المربع والمتناسق يشبه إلى حد كبير حصون الإقطاع القديمة. وهناك بالفعل شبه كبير بين هذه المنشآت القوطية والمنشآت فى عهد الصليبيين، وهى الفترة التى اتصل فيها الشرق كثيرًا بأوروبا. وشكله جميل جدًا ومنظره ذو تأثير بديع. فالمئذنة طويلة ومرتفعة جدًا وهى خاصة بمسجد متهدم فى الحصن. وقد بحثنا دون جدوى عما إذا كان أهل الأسكندرية قد احتفظوا فى التسمية العربية لهذا المبنى بأثر لتسمية الفنار القديم : بيد أنهم يطلقون عليه «قصر». أما الفرنجة الذين خلطوا بين كل شىء فقد أطلقوا عليه «الفنار الكبير» ليفرقوا بينه وبين فنارهم الصغير الموضوع على رأس لوكياس بدلا من أن يطلقوا على هذا الأخير الاسم المصغر ويطلقون على الآخر الفنار فقط.

وعند وصولنا وجدنا فى الفنار الحديث بخلاف منازله وشوارعه بقايا كثيرة للمدينة القديمة مثل الأحواض الرخامية، والمقابر، الأعمدة الجرانيتية، تيجان الأعمدة.... إلخ، وكذلك أشكال من الفتحات من نوع خاص يميز المبانى العربية. وقد رأينا أسلحة نارية طويلة. وبقايا عربات مدافع ، ومدافع يعلوها الصدأ متناثرة هنا وهناك فى الحفر، وقذائف من الأحجار من كل الأحجام بعضها كان ضخمًا ويذكرنا بتلك الأحجار التى ينقلها الأتراك عبر مضيق الدردنيل. وقد رأينا أيضًا فى بعض القاعات فسيفساء جميلة وبقايا أسلحة ربما يرجع تاريخها إلى أزمنة أبعد من زمن الهجرة، ورأينا خوذات وأقواسًا وسهامًا وسيوفًا كبيرة.

وعلاوة على ذلك سنقدم وصفًا دقيقًا للفنار الحديث فى بحث السيد جراتيان لوبير ولكل مايتعلق بالأسكندرية منذ حصار عمرو. ولكن المقارنة المختصرة التى قمنا بها بين المبنيين كانت ضرورية لكى نبين عظمة وضخامة المبنى القديم.

سور الفنار

(٤٣) توجد البقايا القديمة لسور الفنار بصفة خاصة فى جانب الرصيف الذى يطل على البحر إما لحمايته ـ كما سبق أن قلت ـ وإما أن هذه البقايا

جاءت من مبانى كانت موجودة بين الجزيرة وقصر الفنار. ونجد كذلك كثيرًا من الأجزاء المشابهة عندما نسير على شاطئ الميناء الجديد بدءا من النقطة التى تحاذى المضايق حتى قرب الحصن المربع الذى كان يستخدم كمخزن للبارود. (١) كما يوجد الحجر المسكوكى على شكل كتل متوازية السطح. وسأبين طبيعتها عند الحديث عن البرج المسمى برج الرومان.

(٤٤) سنرى من ملاحظاتنا حول الأجزاء القديمة الموجودة فى حى القناصل أن المصريين القدماء قد استطاعوا أن يصنعوا أيضًا أعمدة من الجرانيت لأننا وجدنا عمودين منحوتين على طريقتهم، ولكنهم بالتأكيد لم ينحتوا تلك الأعمدة ذات الشكل الإغريقى التى نجدها بكثرة فى آثار الأسكندرية.

وبما أننا لانجد أعمدة مصرية قديمة من الجرانيت، إلا تلك التى تحدثت عنها، فإنه من المسموح أن نقول إنها يمكن أن تكون تقليدًا للأسلوب المصرى صنعها فنانون إغريقيون واضطروا لاستخدامها ـ على غير هواهم ـ فى البناء وأن هذين العمودين كانا جزءًا منه.

(٤٥) بالرغم من أن المصريين القدماء قد استخدموا الجرانيت بكثرة فى معابدهم فى الصعيد فإننا لم نعد نجد اليوم إلا بعض التماثيل وبعض المسلات وسقف قاعة فى الكرنك وسقف الغرفة فى الهرم الأكبر وبعض المقاصير أحادية الحجر وبعض التوابيت.. وغالبية هذه الأشياء المصنوعة من الجرانيت لم يمكن استخراجها ولذا فقد ظلت فى أماكنها. ومن جهة أخرى إذا كان من المحتمل أن المصريين القدماء قد صنعوا أعمدة من الجرانيت فإن الإغريق قد نزعوها كلها أو عدلوا فيها. ولذلك فلم يكن أمامهم سوى إجراء بعض الرتوش ولم يستغلوا الجرانيت بكميات كبيرة ولكن فقط للحصول على بعض الأعمدة التى يحتاجون إليها. فالإنشاءات العملاقة كلها تنتمى إلى السلف أما الأعمال الفنية التى تنم عن الذوق فقد بقيت من نصيب الخلف.

---

(١) انظر اللوحة ٨٤ .

(٤٦) لانستطيع أن نفترض ـ كما فعل البعض ـ أن السور الحديث للفنار كان بقية من الهبتاستاديوم القديم الذى سنراه فى الموضوع التالى. فإذا كان هذا المرتفع الذى يتجه تقريبًا من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى يشكل بروزًا ملحوظًا على مقربة من البرج ، فإن علماء الجغرافيا كانوا قد ذكروه ، بالإضافة إلى أن طول الهبتاستاديوم كاد يتجاوز الحد بهذه الإضافة. وبذلك لن يحمل الاسم الذى سمى به. إن السور الحديث يقع بين القصر وشبه الجزيرة الحالية للفنار وليس بين جزيرة فاروس والقارة كما كان الهبتاستاديوم. وعرضه يبلغ ٨ أقدام وهذه المسافة ضيقة جدًا نظرًا لكونه وسيلة اتصال رئيسية من المدينة إلى جزيرة فاروس المكتظة بالسكان والتى تشهد تجارة واسعة. بالرغم من أن الهبتاستاديوم كان فى نفس الوقت طريق صعب [١] إلا أنه كان بالتأكيد أكثر عرضًا لمرور العربات.

(٤٧) فى نفس الوقت الذى ازدحم فيه الهبتاستاديوم نجد أن اتصال جزيرة فاروس مع الفنار من خلال الصخور أمام السور العالى كان مقطوعًا بسبب البحر. وكان يتعين عمل إصلاحات فى الجزء من الطريق الذى صانه القدماء بجوار البرج أو حتى عمل سور جديد هو السور الحالى: إننى لا أعتقد أن هذا الجزء من الرصيف القريب من المدينة الحديثة يكون جزءًا من الهبتاستاديوم القديم الذى تم إصلاحه.

ونوع بناء كتلته العليا وكذلك قاعدته يثبت أنه ليس قديمًا. ولذلك يجب أن أفحصه ببعض التفصيل. إنه متعرج بالكامل وبه زوايا كثيرة. وهذا الوضع كان من شأنه ليس فقط الاستفادة من الصخور المتناثرة على الأرض بل منع الطريق المغطى من أن تطأه المدفعية. وهو نظام لانعتقد أن القدماء قد اتبعوه.

والسور به فتحات تمر من خلالها قنوات تصل مابين البحر والميناء الجديد. ولايمكن أن نخلط بين مجرى العيون وبين القنطرتين الأكبر حجمًا الموجودتين

---

(١) يوليوس قيصر ـ بيللو سيفيلى .

فى الهبتاستاديوم من أجل اتصال الميناء الكبير وقناة أونوست. وهذه القنوات تم عملها لاجتياز الصخور التى تستخدم كأساسات ولكى لايتعرض المبنى الضعيف والمهدد بأمواج البحر العالى لمزيد من التدمير عندما تسمح للأمواج بالمرور. وبدلا من ذلك فربما يكون القدماء قد بنوا كاسر أمواج ضخمًا وقويًا وتجنبوا دخول الأمواج العاتية فى مينائهم الرئيسى الذى اشتهر بالهدوء وضيق الفتحة فى الأزمنة القديمة. وأقيم حائطان متوازيان على جوانب غطاء الرصيف. وهذان الحائطان بهما فتحات على الطراز العربى.

الهبتاستاديوم

مكان المدينة الحديث

(٤٨) بالرغم من ملاحظته الخاصة برسالة استرابون فإن دانفيل لم يوجه الهبتاستاديوم فى جهة مخالفة لوجهة ذلك الكاتب . غير أنه إذا ما أقررنا بوجود خطأ فى النص اللاتينى ونفترض أنه كان يجب وضع كلمة شرقى بدلا من كلمة غربى ونقرب اتجاه الهبتاستاديوم من السور الحديث للفنار الذى يعتقد البعض أن الإسكندر هو الذى بناه. وبهذه الطريقة فإننا لن نجد أبدًا سبع غلوات (*) كما يدل الاسم هبتاستاديوم - طولا لكاسر الأمواج.

(٤٩) سيكون ذلك تدميرًا للميناء الجديد - أهم ميناء عند القدماء - من أجل زيادة غير مجدية لمرسى ميناء أونوست الكبير جدًا بالنسبة لهم. وعندما قاموا ببناء رصيف لربط جزيرة فاروس بالقارة وإنشاء مينائهم الكبير لماذا ضحوا بالمرفأ الذى يشكل مأوى لهم أسفل الامتداد الشرقى لجزيرة فاروس؟ وكيف كونت هذه الجزيرة الميناء الكبير إذا كانوا قد أبعدوها خارج وغرب الهبتاستاديوم؟ لقد ثبت أن هذا الميناء الكبير قد غطى بالرمل أكثر من قناة أونوست، وهذا يثبت أن كاسر الأمواج كان موجودًا على يسار المدينة الحديثة. واسترابون يؤكد ذلك أيضًا عندما يصف انخفاظًا يشكله الميناءان فى مواجهة

(*) الغلوة عند الإغريق هى مقياس يتراوح بين ١٤٧ - ١٩٢ مترًا . (المترجم) .

الهبتاستاديوم . وإذا نقلت السور بأكمله فى جانب أحد الميناءين فلن يكون هناك انخفاض على هذا الجانب من الهبتاستاديوم.

(٥٠) إن وضع القنطرتين يجب أن يتلاحم مع طول واتجاه كاسر الأمواج، وبالرغم من أن الميناءين لم يتصلا فإن الملاحة اليوم - وبصفة خاصة الملاحة مع رشيد وباقى مصر - تمر من مدخل الميناء الجديد للوصول إلى الأسكندرية.

(٥١) عندما قال استرابون إن الهيبتاستاديوم كان قنطرة ماء ظننت أنه ينبغى أن أترجم بقية الجملة هكذا : «وقت أن كانت جزيرة فاروس مأهولة» وليس «انتظارا لأن تكون الجزيرة مأهولة» ، لأنه يتكلم بعد ذلك عن إخلاء سكان هذه الجزيرة على يدى قيصر.

(٥٢) مما سبق ووفقًا للعمق القديم للمياه - التى نقيسها عند سبر الأعماق فى أونوست فمن المحتمل أن السور البحرى بنى بالأحجار. لقد قام المقدونيون بمحاولة شهيرة لإنشاء هذا النوع من البناء عند حصار تاس وذلك لاجتياز جزء من البحر يبلغ عرضه ٤ غلوات وعميق جدًا ويتعرض لرياح عنيفة آتية من أفريقيا. وفى الأسكندرية لم تكن تواجههم كل هذه الصعاب ولكن أعمالا لاتتطلب وقتًا طويلا. وإننى أقدر أن عمق المياه كان يتراوح بين ٣٠ إلى ٣٦ قدمًا فى هذا المكان، ولذلك لم يستخدموا الخشب كما فعلوا فى تاس. فهذه الأشجار بالإضافة إلى أنها كادت تضر بصلابة هذا البناء الذى كان مفترضًا أن يدوم طويلاً فإنها كادت تعرقل، الهبتاستاديوم وتغطى الموانئ. ولنفس الأسباب فإن بناءهم الحجرى لم يرتفع إلا أقل ارتفاع ممكن تحت البحر. وكانت المنحدرات المبنية تنظم جوانب السور البحرى وأسفل الأعمدة فى الميناءين حتى لايعوق مرور السفن تحت هذه القباب. ويعد أن تم عمل هذه الدعائم بكثافة كافية سواء لتدعيم القباب أو لاستخدامها كقاعدة للحصنين استطاعوا أن ينتهوا من باقى الطول بينهما باستخدام الأحجار ومواد البناء. وهذه الدعائم كانت عملاً عظيمًا، فالعمل فى مجمله يفترض كثيرًا من الموارد والمعرفة عند القدماء فى الإنشاءات المائية.

(٥٣) هناك أنواع عديدة من مقياس الغلوة أقرها الجغرافيون لكى نفسر ونوفق بين المؤرخين. وقد وضعنا ثلاثة مقاييس رئيسية منها فى اللوحات التى

ندرسها . المقياس الأصغر محدد بـ ٥ قامات بدلا من ٥٠ بالإضافة إلى كسر متغير يضيفه إليه دانفيل. وهذا المقياس لايقترب أبدًا من $\frac{1}{٧}$ طول كاسر الأمواج الذى يعطيه هيرتيوس. فإذا بدأنا من أمام تل راكوتيس بقليل - ويجب أن نبحث عن أساس الهبتاستاديوم عنده - فإن سبع غلوات (٥١ قامة) تنتهى تقريبًا فى منتصف المدينة الحديثة. أما الغلوة المتوسطة (أى ٧٦ قامة) التى يراها دانفيل. قريبة من ٩٠٠ قدم فإنها لاتتفق أبدًا مع هذا المقياس الأخير ويضطر الجغرافى الفرنسى إلى أن يفترض أن هيرتيوس لم يرذ أن يقدم سوى مقياس تقريبى. ويمثل هذا أول صعوبة وهى التوفيق بين هذا الكاتب والكُتّاب القدامى. وأخيرًا هناك مقياس آخر، فعندما لم يجد دانفيل أن مقياس ٥٠ إلى ٥١ قامة والذى سمى «مقياس هيرودوت» أو «مقياس مصر القديمة» مناسبا لأن يطبق سبع مرات بين المدينة والكتلة القديمة لجزيرة فاروس فإنه استنبط من نفس هذه المسافة نوعًا جديدًا من الغلوة يبلغ ٧٦ قامة. غير أن هذا العالم الجغرافى كان يعمل على خريطة حديثة للأسكندرية قام بوضعها أحد الفرنسيين - يجهل اسمه - وفيها لم تكن محددة النقطتين الفاصلتين للهبتاستاديوم، فكان مسموحا له - وهو يحاول تحديدها بكثير من المنطق - أن يبدأ من هذا الطول المعروف لتحديد مقياس مناسب لتقدير أبعاد كل آثار الأسكندرية: ولكن غايتى هنا هى العكس بالضبط . إننى أريد - عن طريق غلوة معلومة أن أعثر على مكان السور البحرى. ومما سبق يتضح أننى سأدور فى حلقة مفرغة إذا أردت أن أصل إلى نتيجة ما فى أبحاثى حول الأسكندرية باستخدامى غلوة دانفيل. بينما أجد الغلوة الأوليمبية التى تساوى ٩٥ قامة ويتفق تماما مع ٩٠٠ قدم عند هيريتوس أجدها قادرة ومناسبة للتوافق مع الأشياء التى أبحث عنها. ويقر دانفيل بأن هذا المقياس الأخير كان الأكثر استعمالا فى عهد استرابون. بالإضافة إلى ذلك. أليس من الطبيعى هنا أنه عندما تحدث الإغريق عن الأسكندرية - المدينة اليونانية - وخاصة عن الهبتاستاديوم الذى سمى كذلك نسبة إلى كلمة مأخوذة من لغتهم فإنهم استخدموا المقياس الإغريقى ؟ ويقول دانفيل إن المقياس الذى يبدو أنه اخترعه كان معروفًا فى العصور القديمة ولكن ليس بالقدر الذى يمكن أن ينصب إليه هذه التقديرات الأخيرة.

(٥٤) إن سبع غلوات تصل عموديًا على الساحل الشرقى لجزيرة فاروس. لماذا كان يقال دائمًا فى الماضى أن المسافة بين هذه الجزيرة والقارة كانت سبع غلوات أو ٩٠٠ قدم. إذا كان يجب اتباع اتجاه مائل كما فعل الكثير من الكُتّاب للوصول إلى هذه الأرقام؟ وهذه الطريقة فى التفسير ستجعل كل المقاييس ممكنة. فالقدماء على العكس لم يقدروا أن يفهموا من هذه العبارات إلا مسافة عمودية على محور السور البحرى أو على الساحل إذا كان متشابهًا، أو إذا لم يكن متماثلا فقد فهموا أن المقصود هو الجزء الأكثر قربًا من اليابسة مثلما افترضت ذلك الجزء المتمثل فى القوس الغربى للجزيرة. وهذا المقياس الأوليمبى ـ أكثرها طولا ـ إذا ما وجه نحو برج الفنار فإنه يصعب الوصول إليه. وهو يؤكد تخمينى حول السورين المختلفين عن الهبتاستاديوم وصخور الفنار ويصل كاملا فى مياه الميناء الكبير.

(٥٥) إن الصهريج الذى يقابل الهبتاستاديوم إذا ما اصطف على خط الفنار ليس له صفات وليس شيئًا مهمًا بحيث أنهم آثروا أن يحددوا نقاطًا أخرى أكثر أهمية. وفى البداية فإنه من غير المحتمل أن يكون قد بنى داخل كاسر الأمواج بسبب صعوبة هذا البناء وبسبب العمق والعرض اللذين يستلزمهما فى هذا السور الضيق. إذ أنه يجب أن يكون واسعًا جدًا لأن سكان المدينة الحديثة كانوا يستخدمونه كثيرا وكذلك الحامية التى تدافع عن الأسكندرية خلال الحصار فى نهاية الحملة الفرنسية. غير أن القدماء كانوا يستطيعون الاستغناء عن الصهريج باستخدام خزانات على طرف الهبتاستاديوم الذى كان يستخدم كقنطرة ماء وليس كصهريج. وهذا الأمر ماكان يغفل عن ذكره الجغرافيون أمثال استرابون. وأخيرًا لم يكن الطريق الضيق فى أعلى المنتزه يوفر مساحة كافية لخدمة الصهريج. وأعتقد بإن زمن الصهريج يرجع إلى فترة تالية على عهد استرابون وكاسر الأمواج. وبه فتحة صغيرة دائرية ضعيفة ولاشىء من حوله ينم عن جمال قديم. وحسب علمى فلا أحد نزل فيه، ومع ذلك فمن المدهش أن نتفقده وأن نحدد من خلال صفات بنيانه إن كان يرجع للإغريق أو للعرب أو حتى للأتراك. أما بالنسبة لى فإننى أعتقد أن الصهريج بنى على يد المؤسسين الأوائل للمدينة

الحديثة لكى يخدمها، أكثر من اعتقادى أن بناه شعوب لم تكن فى حاجة إليه عندما سكنوا المدينة القديمة ولم يكن الهبتاستاديوم مغطى بالرمال.

وأخيرًا إذا ماقسنا سبع غلوات من نفس النقطة الأكثر تقدمًا من الساحة العربية التى اختارها دانفيل نحو الجزء الغربى من الجزيرة، فإنها تصل داخل مياه ميناء أونوست حيث لايوجد أى أثر لكاسر الأمواج وتتجاوز قليلا موقع بلدة فاروس على خرائطنا. وفى خريطة دانفيل تعتبر هذه المسافة هى الجزيرة لأن هذه الخريطة غير صحيحة ومحتمل أن الافتراضات الخاطئة أو المعطيات غير الصحيحة هى التى أدت إلى أن عالم الجغرافية أخذ يبحث عن مقياس آخر غير ٩٥ قامة.

(٥٦) توفى أميان مارسلان عام ٣٨٠ فى عهد ثيودسيوس الأكبر وفالنتينيان الثانى . وكان قد خدم فى عهد قسطنطين وجوليان وفالين. وكتب تاريخ روما وقد امتدح هذا الكتاب لحياده ودقة أحداثه ولأنه يكشف عن عقل مثقف درس العلوم والفنون. والإدعاءان اللذان نسبناهما لم يكذبا قليلا هذه الصفات الأخيرة. إنه يقول: إن دوافع كليوباترا معروفة وكانت تحتم وتجعل ضروريًا مشروعها لبناء الهبتاستاديوم. وجزيرة الفنار - التى وضع فيها هوميروس قصته الشعرية الجميلة عن بروتيه وهو يرعى كلاب البحر - تبعد عن ساحل المدينة بمسافة ألف قدم. (وهذا أيضًا مقياس جديد) ولكن أيًا من الأنواع الثلاثة للغلوة لايجعلها تتفق مع شهادات العصر القديم واسم السور البحرى «وكانت الجزيرة تخضع للضرائب التى يجمعها سكان رودس». وقد حضر بعض منهم يطلبون زيادة كبيرة فى هذه الضرائب فاصطحبت الملكة هؤلاء الجباة معها إلى أماكن التسلية حول المدينة بحجة أن يشاهدوا حفلات كبيرة وأمرت أثناء ذلك أن تستمر أعمال البناء بلاتوقف، وفى خلال سبعة أيام أقيم كاسر أمواج طوله ٧ غلوات وربط الجزيرة المجاورة باليابسة. وعندما تجولت بعد ذلك فى هذه الأماكن قالت: «إن سكان رودس يخطئون، إنهم يفرضون الضرائب عن حق الملاحة على الجزر وليس على اليابسة».

. بالإضافة إلى ذلك فإن صفة المخادعة التى يلصقها مارسلان بهذه الملكة قد يتبين منها أنها الثالثة التى تحمل هذا الاسم وآخر ملكات مصر. غير أن الهبتاستاديوم كان موجودًا منذ حرب الأسكندرية ولم يكن قيصر قد وضع هذه الأميرة على العرش، وعلى الأقل لم تكن قد انفردت بالعرش وتتمتع بالحق المطلق فى التعامل مع الأجانب مثل سكان رودس. إن رولان وهو يذكر تزتزيه الشاعر اليونانى وعاش فى القرن الثانى عشر وكتب أبياتًا سياسية تروى حكايات متنوعة مكتوبة بأسلوب لبق ومليئة بأشياء لاجدوى منها ـ قال: إن الملكة كليوباترا شيدت الهبتاستاديوم على يد المعمارى دريفان وهو من مواليد جزيرة قبرص. وأنها كافأته بأن أعطت له وظيفة بالقرب منها ، وهى إدارة مبانيها. ولكننا نعتقد أنه من الأفضل أن ننسب هذا العمل لبطليموس الثانى أو بالأحرى إلى والده سوتر، ذلك لأننا رأينا أن المعمارى سوسترات ـ الذى كان يعيش فى عهد بطليموس الثانى ـ كان ابن دريفان الذى عاش بالتالى فى عهد أول هؤلاء الملوك. وأن دينوقراطيس فى عهد الإسكندر لم يبن سوى المنشآت الرئيسية على اليابسة.

(٥٧) بالإضافة إلى أسباب التراكمات الناتجة من السور البحرى وانسداد قنوات الاتصال التى تحافظ على تيار مائى بين الميناءين، فإنه يجب أن نعتبر أن امتداد جزيرة فاروس حتى البرج منذ قديم الزمن كان يزيد جهود وتحركات البحر العرضية فى غمر الميناء الكبير ودعم المياه حتى رأس لوكياس.

إن بقايا الجزيرة كانت من أسباب هذا الازدحام وكانت التيارات تسقط من رأس لوكياس وتصطدم بالهبتاستاديوم فيعمل التيار المضاد على استقرارها. والرأس نفسه قد تعرض لتآكل بفعل الأمواج وأخذ يضخم من حجم بقاياه المتراكمة . وكان يتيح حرية أكثر للمياه والرمال بسبب توسع الممر المائى . وكل الأسباب الأخرى التى تميل إلى تكوين البرزخ الحالى للمدينة الحديثة كانت تعمل كل يوم بسهولة أكبر لابد أن تأثيرات مشابهة ولكن بدرجة أقل قد حدثت فى

ميناء أونوست بفعل المياه ضد ساحل نيكروبوليس ، وبفعل تراكم ما تحمله هذه المياه فى جزيرة فاروس: وبذلك تغطى كاسر الأمواج من الجانبين.

وهذا التراكم قد حدث أساسًا فى عهد العرب ومن جاءوا بعدهم من الذين كانوا يسكنون المدينة العربية. ولكن عندما كان كل شيء ينهار من حول الأتراك أرادوا أن يقتربوا من البحر ويتركوا العزلة التى كانوا فيها فى هذه المدينة فذهبوا ليسكنوا وادى الهبتاستاديوم ذا الطمى واستطاعوا استخدام أجزاء من كاسر الأمواج فى بناء مساكنهم وتوسعة المكان بنقل الأنقاض. ونشاهد بعضها فى الأرصفة الأفقية التى تظهر فى الجانب الجنوبى الشرقى للميناء الجديد ، فهى تحمل أجمل مبانى الأسكندرية حاليًا وهى الفنادق والمحلات أو المنازل التى يسكنها مختلف القناصل.

(٥٨) لم أذهب بعيدًا فى المقارنة بين الأسكندرية القديمة والحديثة لأنها تظهر كاملة من الوصف الذى يحتوى عليه هذه الدراسة ومن جهة أخرى أن الأسكندرية الحديثة معروفة جدًا للأوروبيين لدرجة أن بيلون الذى سافر فى سنة ١٥٣٠ إلى مصر فى عهد فرانسوا الأول أعلن أن وصفه لن يكون سوى تكرار لما قيل. على أنه طبقًا لتقسيمات الكتاب، فإن المدينة التركية تشكل جزءا مما أطلق عليه الدولة الحديثة. وأود أن أشير إلى أن مزايا الموقع وموانى الأسكندرية حقيقية لدرجة أنها مازالت موجودة بالرغم من اكتشاف رأس الرجاء الصالح وممارسات حكومة القهر والجهل للباشوات والمماليك ، وقد تستطيع هذه المدينة أن تسترد الجزء الأكبر من ازدهارها الأول كما بينا ذلك فى افتتاحية الدراسة حول القنال من البحر الأحمر إلى البحر المتوسط .

ويتعين على أن أضيف لكى أعطى دقة أكثر إلى ماسبق أن أوردته فى هذا النص أن الأسكندرية كمدينة مسلمة مازالت تحتفظ ببعض الشبه وبعض النظام فى ترسيم شوارعها الرئيسية، وبعد رحيل الفرنسيين بخمسة أعوام حرمت المدينة من المياه النقية التى كانت متوافرة بها وأن سكانها تقلصوا حينذاك إلى حوالى خمسة آلاف نسمة.

كتل الأعمدة القديمة أسفل حى القنصليات

(٥٩) نعلم أنه أثناء حكم الإغريق فى الأسكندرية قاموا بإدخال آلهتهم إلى مصر بالإضافة إلى أسلوب عملهم ، وأنهم تبنوا جزءًا من عادات هذا البلد . فنحن نجد من بين المعالم ذات الطابع المصرى المقلد كثيرًا من التماثيل وأجزاء أخرى تحمل حروفًا هيروغليفية.

(٦٠) عند تفقدنا الآثار المتهدمة أو القائمة سنجد أن آثار الأسكندرية التى دمرها العرب كانت مصنوعة من مواد آتية من منف التى كانت زينت بدورها ببقايا طيبة. والجرانيت المصرى هو فى الحقيقة مادة تثير الإعجاب ويعتبر أثمن مورد للمصانع الكبرى بسبب كثرته وجمال صقله وألوانه وعدم قابليته للكسر. وربما يكون هناك عمود يحتفظ بجماله بعد تعرضه لكل الاستخدامات التى ذكرتها موجود فى محال تركى اليوم ومصدره أقدم قصر أو أجمل معبد فى مصر القديمة. وكثير من المنازل الحديثة لها فناء وأروقة مزينة بأعمدة قديمة من الجرانيت.

والتوزيع الداخلى الذى ينجم عنه والخاص بمنازل الأسكندرية بديع جدًا كما نستطيع أن نراه فى اللوحات . ويبدو لى كاستمرار للنماذج الجيدة للعمارة التى عرفها سكان الأسكندرية.

ومازال الأتراك يستخدمون الأعمدة المصنوعة من الرخام فى مبانى المدينة الحديثة، وهى تأتى من تهدم آثار مدينة الإسكندر. فنشاهد كل يوم هؤلاء الناس يذهبون لاستخراج الأعمدة من بين الأطلال ، ولكن المعين بدأ ينضب. وهم يقطعون بالمنشار أسطوانة العمود من كل نوع ويستخدمونها فى عمل رحى الطواحين التى يديرها حصان أو حمار. والطواحين من هذا النوع مازالت حتى الآن منتشرة فى الأسكدرية عن سائر مدن مصر.

الميناء الكبير

(٦١) يقول ديودور: «منذ رأس ليبيا حتى يافا الشامية وهى مسافة تبلغ خمسة آلاف غلوة (أى ٢٠٨ فرسخًا فرنسيًا) ليس هناك ميناء سوى الفنار». إن

عدم وجود المرفأ شىء يثير العجب فى مثل هذه المساحة الكبيرة من البحر المتوسط ويشعر بقيمة الملاذ الذى كانت توفره الأسكندرية. وهنا نرى أن الميناء والمدينة نفسها يطلق عليها كلمة «الفنار» كما هو الحال عند هوميروس. ونلاحظ عند بلوتارخ أن كليوباترا كان يطلق عليها لقب ملكة الفنار بسبب عظمة وشهرة المكان ومعالمه. ويستأنف ديودور قائلا: «كل الباقى عبارة عن مرسى يحف بالخطر للذين لم يرتادوه. فالبعض يظن أنه يرسو ، ولكنه يغرق وتتحطم سفنه على الصخور المغطاة ، والبعض الآخر الذى لايستطيع أن يعثر على مصر لكونها منخفضة جدًا فيختار من على بعد المكان الصالح للرسو وينزل فى المستنقعات أو فى الرمال التى تحيط به كما سبق أن ذكرنا».

ويذكر مارسلان بدوره «قبل بناء الفنار كانت السفن القادمة من اليونان وإيطاليا وليبيا تحاذى السواحل المتعرجة دون أن ترى أى جبل أو أى تل يمكن أن يدلهم فكانت تغرق وتتحطم على الشاطئ الرملى الرخو». أضف إلى ذلك أنه نظرًا لتسطح الساحل الذى يشبه تمامًا سواحل فلاندر الخطيرة، فإن البحر يدمر من مسافات بعيدة ، ولذلك رأينا كثيرًا من السفن الغارقة أثناء الحملة الفرنسية.

(٦٢) كل صخور بحر الأسكندرية ذات صلابة متوسطة وقد تفتت بفعل البحر. ولكن طرف لسان لوكياس الذى يتعرض أكثر للتيارات المعتادة وللرياح العنيفة تعرض للتآكل أكثر من جزيرة فاروس نفسها. ولم تنفصل صخرة الماس عن هذه الجزيرة إلا منذ قرون قليلة. وهو يبين اختناق المدخل القديم للحوض الكبير. وبقايا أكرولوكياس مغطاة بمياه ضحلة.

ويمكن أن أقترح عملية جيدة إذا كان لدينا مشاريع عامة تتعلق بموانى الأسكندرية: وهى أن نربط هضبة الفنار بصخرة الماس ، وذلك بأن نزيد من طول السور البحرى الحديث بالصخور.

وأقصى عمق للبحر فى هذا المكان ليس إلا ١٥ قدمًا. والموجة ستدخل بعنف أقل وستزيد مساحة الجزء المهم فى الميناء، ذلك لأنه يتم إرساء السفن بمحاذاة ذلك السور وتلقى السفن الحربية بالخطاف بمجرد أن جاءت بمحاذاة صخرة

الماس. وبعد الممر ونحن نتجه نحو الفنار الصغير نجد القاع على عمق يتراوح من ٥ إلى ٦ باعات ولكن دون حماية. وإذا اقتربنا منه أكثر نجد أن الصخر أكثر قربًا من سطح المياه. وثمة شيء آخر مفيد وهو إعادة فتح أحد ممرات الميناء الكبير أونوست خلال البرزخ وإقامة رأس أكرولوكياس في أبعد مكان ممكن بواسطة الصخور. بالإضافة إلى ذلك كان كل شيء قد وضع بطريقة ملائمة من الطبيعة وتم تغييره بإبداع القدماء من أجل تحسين المنشآت البحرية في الأسكندرية لدرجة أن أفضل ما ينبغي اتباعه في أي مشروع مهم هو محاولة إعادة ماكان موجودًا من قبل: وقد اقتربنا كثيرًا من هذه الفكرة جزء من الدراسة يتناول اتصال البحر الأحمر بالبحر المتوسط المتعلق بالأسكندرية.

(٦٣) بما أن بليني وسولان يتحدثان هنا عن خطورة ساحل الأسكندرية وفائدة الفنار الذي كان يبين مداخل المدينة التي امتدت على الميناء الرئيسي فإنهما أرادا كذلك أن يبينا - علاوة على الممر الخاص للميناء الكبير - الممرين الآخرين القريبين جدًا من الجزيرة ومن برج الفنار في غرب رأس التين [١] اللذان كانا يؤديان إلى الأسكندرية عن طريق ميناء أونوست أو القناتين الموجودتين في هذا الميناء الأخير وتؤديان إلى الميناء الكبير عابرين الهبتاستاديوم.

(٦٤) كان من الضروري في عادات القدماء - وكذلك بالنسبة لنا - تضييق هذا الميناء وإحاطته أكثر بالهبتاستاديوم حتى يوقف اتصال الأمواج والتيارات خلف جزيرة فاروس: ولذلك نجد أن تعليق قيصر - بيللوسيڤيلي يبين هذه الجزيرة، وقد استخدمت في تكوين الميناء الكبير.

(٦٥) لإنشاء ميناء ملائم للاستخدام في الشاطئ الغربي، اضطر القدماء إلى بنائه كاملاً عن طريق أعمال مناسبة لتحديده. وتركوا ميناء أونوست كما كان. فقد كان يقتصر في نظرهم على مساحة بسيطة ولم يكن يعتبرونه ميناءً مثالياً : ولذلك أعطوا هذا اللقب للميناء الشرقي. وأطلق عليه الميناء الجديد خلافًا

---

(١) في اللوحة ٣١ أطلق على الممرين اسم ممر المخانق والممر الصغير.

لاسمه «القديم» الذى أطلقه ـ دون سبب واضح ـ المحدثون على ميناء أونوست. ومع ذلك يبدو أنه حين نقلت المدينة فى البرزخ تم عمل إنشاءات عديدة وجديدة فى الميناء الكبير مثل الأسوار والأحواض والأرصفة. وأسست الهيئات الخاصة بالعلاقات مع الأجانب مثل الجمرك والحصن وحى القناصل والوكالات ، أما الميناء القديم الذى خصص للمسلمين وللبحرية العسكرية التابعة للوالى ـ حيث إنه لم يكن مزدحمًا مثل الآخر ـ فقد تركوا فيه ورش البناء والترسانة وأماكن البحرية.

(٦٦) إن الدرجات أو هذا السلم الذى يتحدث عنه استرابون لم تكن منتشرة بطول الميناء بسبب المنشآت الأخرى الغريبة على البحرية ، التى سنراها بعد الهبتاستاديوم بقليل فى اتجاه الشرق. ولم تكن موجودة كذلك على منحدرات كاسر الأمواج أو على الأقل على الجزء الواقع بين الميناءين، لأنه كان طريقًا ضيقًا لايمكن إغلاقه أو إعاقته بصعود ونزول المسافرين وبصفة خاصة البضائع.

(٦٧) بالرغم من تآكل صخور أكرولوكياس على السطح وعدم قدرتها على وقف الأمواج فإنها ظلت تحت الماء ولم يصبح الدخول أيسر من ذى قبل بل على العكس أن الدخول أصبح أكثر خداعًا بسبب اختفاء هذه الصخور ، وأكثر صعوبة لسفننا الحديثة التى تجذب مياهًا أكثر من سفن القدماء ، وأصبح داخل الميناء أكثر اضطرابًا. وقد رأينا كيف أن البحر قد شكل تراكمات الهبتاستاديوم ، كما ندرك كيف أن الأمواج التى تنتهى على الشاطئ المسطح وتدمر بشدة هذه الأمواج تجعل الرمال تتراكم وتقوم بحرثها دون توقف فتشكل تارة منطقة تقلل من محيط الميناء. وتارة تتلف المنشآت المقاومة التى تحيط به فى بعض الأماكن، إذًا فليس هناك أى عمق فى الميناء الجديد فى الممر التابع له. والأمواج العالية التى تدخل فيه بسهولة تضرب أقل السفن فى القاع أو تجعلها تتخبط على الساحل ، والصخور الموجودة فى الميناء تقطع الأسلاك أثناء العواصف. ولذلك فإن السفن الصغيرة التى تضطر لأن تتلاصق بجانب السور البحرى للفناء تعرضت لتلفيات رهيبة واشتكى الملاحون الأجانب دائمًا من هذا الخطر. ومع

ذلك فإن الحكومة التركية كانت تجبرالسفن المسيحية على الوقوف فى هذا المكان وتمنعهم بحجة التشاؤم من الدخول فى الميناء القديم وهو الوحيد الذى يوفر اليوم بعض الأمان فى الأحوال الجوية السيئة. ويؤكد البعض أنه منذ حوالى مائة عام كان الأتراك يجبرون السفن الأجنبية على الرسو وتفريغ البضائع فى غرب الفنار الصغير على الرصيف الردىء لرأس لوكياس ويحرمون عليهم الرسو تحت قصر الفنار. يالها من عدالة عمياء وياله من جهل قبيح بمصالحهم الخاصة!

والآن وبعد أن زال هذا التحيز ـ كما سبق أن ذكرت فى مكان آخر ـ فإنه يتعين اجتياز صعوبة أخرى وتتمثل فى وجود المحلات والجمرك والمبانى الأخرى الحديثة على جوانب الميناء الحديث الذى سيرغم السفن على التردد على الميناء الجديد. ومهما كان فإننا نشعر الآن أكثر من ذى قبل بمساوئ هذا الميناء الكبيرة، وأن هذه العيوب هى التى جعلتنا نهجر الميناء لخدمة بحريتنا بالرغم من المنشآت التى أعدت فيه من أجل التجارة.

الترسانات

(٦٨) إن وجود بعض السفن الشراعية فى أماكن أخرى غير البحر المتوسط، وكذلك أسطول صغير مكون من سفن من هذا النوع تقوم برعايتها وصيانتها السويد فى بحر البلطيق ، لايقلب القاعدة التى وضعتها، وتقول: إن السفينة الشراعية كانت السفينة البدائية فى البحر المتوسط ، ولاحتى النتائج التى استخلصتها بالنسبة لمكان الترسانات وأماكن البناء فى الأسكندرية. وما يذكره بلوتارخ بشأن السفن ذات الـ ١٦ صفًا أو ١٤ صفًا من المجاديف لايهدم ماسبق أن ذكرته حول ملاءمة قاع ساحة الميناء الكبير لبناء السفن القديمة: لأن بلوتارخ يلاحظ بنفسه أن سفينة الأسكندرية ذات الأربعين دكة للمجدافين لايمكن أن تستخدم. ونعرف أن السفن الشراعية ذات صفوف المجاديف القليلة التى تجذب مياهًا قليلة كانت هى فقط التى تستخدم رسومات عمود تراجان وإلى ماقيل حول المعارك البحرية للأسكندرية فى الجزء الثانى (اعتبارات عامة وتاريخية).

المنشآت البحرية

(٦٩) استمر استخدام الأحواض الصناعية المكونة من حواجز مبنية فى كل موانى البحر المتوسط. ومازلنا نرى فيها أشكالا بعضها مغطى لكى تحمى العمال والأخشاب من الرياح العاتية. والساحة التى تشغل اليوم مكان الترسانة البحرية أو المنشآت البحرية القديمة كانت توفر للفرنسيين المقيمين فى الأسكندرية إبان الحملة متنزهًا طبيعيًا وضروريًا ولكنه غاية فى الرطوبة والخطورة. وهذا الندى الذى يظهر فى المساء كان بسبب رياح البحر التى تهب طوال فترة الصيف وكذلك بسبب نزول الأبخرة الكثيفة بفعل الشمس الحارقة. وكان يظهر بعد غروب الشمس مباشرة. فبمجرد أن نمكث لفترة فى هذا المكان كانت ثيابنا تبتل كما لو كانت تعرضت لمطر غزير. وفى بداية الحملة فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ كنا نرى جزءًا كبيرًا من الجيش الفرنسى معسكرًا فى هذا المكان. وكان الجيش يقوم بعمل خيام جميلة من سعف النخيل. وفى قلب هذه الساحة كانت توجد زراعات كثيرة من النخيل تضفى على المكان وعلى المعسكر منظرًا بديعًا[1] وفى نفس هذه الساحة عسكر الجنرال مينو بعد ثلاث سنوات لمدة طويلة وبنى جبهة من التحصينات الجديدة على شاطئ البحر فى مكان الترسانة البحرية القديمة لتغطية مقر القيادة العام من جانب الميناء الجديد. وفى الشاطئ المقابل ينمو نبات الحَّرض بكميات كبيرة. ونرى كثيرًا من السحالى والسمادل على الجدران القديمة المحيطة.

الوكالة التجارية

(٧٠) لاحظ البعض أن كلمة Emporium لاتعنى مكانًا مخصصًا فى المدينة لبيع الأشياء بل تعنى بلدة أو ساحة التجارة.

وهذا صحيح بصفة عامة ، حيث يحدد استرابون فى الأسكندرية ـ وهى مدينة كانت بالفعل ساحة للتجارة بالنسبة لبقية العالم ـ مكانًا خاصًا يطلق عليه

---

(١) انظر اللوحتين ٩٧ و ٩٨ ، الدولة الحديثة .

اسم Emporium فالأمر يتعلق بالتأكيد بسوق أو بورصة. والقضاة الذين وضعهم أمازيس لصالح اليونانيين الذين يتاجرون فى عدد صغير من المدن المصرية قبل حكم الفرس كانوا بلا شك قريبى الشبه من قضاتنا وقناصلنا وكانوا يستقرون فى هذه الأسواق أو المحاكم التى كانت تسمى emporia.

المسلات ـ قيصرون

(٧١) على طول المدينة العربية نتعرف بين الأطلال فى اتجاه أقصى الميناء على بقايا الحمامات التى مازال موجودًا منها حجرات كثيرة مقامة داخل جدران قديمة. والمبانى العربية الكبيرة التى مازلنا نجدها بالقرب من مكان السوق تظهر فيها بعض التفاصيل الفنية: فهناك أفاريز مزينة بزخارف يونانية تحمل القباب ذات القوس القوطى. وهذا المزيج قام به العرب عندما خلطوا بين الذوق وأجزاء من العمارة اليونانية فى بنائهم. وأبواب هذه المبانى مصنوعة من نفس خشب الجميز الذى وجدنا أجزاء منه فى جدران طيبة القديمة. أما هنا حيث كان الخشب معرضًا للهواء فى مناخ يسوده المطر ورطوبة البحر، فإنه ظل محتفظًا بحالة جيدًا مثل المبانى العتيقة فى الصعيد بينما الأجزاء الحديدية اختفت تمامًا منه. ويبدو أن مصر كانت دائمًا فقيرة فى تنوع أخشاب البناء ولم تستخدم أبدًا لهذا الغرض إلا شجر الجميز.

وخلف أبراج الساحة العربية السابق ذكرها توجد الحمامات التركية الحديثة.

(٧٢) يطلق اسم «الفرنجة» على التجار الفرنسيين وحتى الإيطاليين أو أى مسيحيين أوروبيين استقروا فى مصر. وهم الذين ابتكروا اسم حمامات كليوباترا. وقد لاحظ البعض منا أن المسلة كانت تسمى فى البلد «الفرعون» كما لو كانوا يقولون بالعربية «من عمل الفراعنة». ويلاحظ أنه يوجد فى مصر آثار كثيرة بهذا الاسم للملوك القدماء.

(٧٣) من العشر مسلات التى توجد حتى الآن فى روما يوجد سبع منقوشة وثلاث دون زخارف.

(٧٤) لاحظ زويجا أن آخر علامة ـ فى الكتابة الهيروغليفية ـ فى كل صف أفقى كانت مكررة فى بداية الصف التالى، وبمثل هذه الملاحظات أمكنه أن يحكم ما إذا كانت الهيروغليفية تقرأ من اليسار لليمين أو من اليمين لليسار. ولكننا لانرى أن هذا التكرار قد استخدمه الفنانون على المسلتين.

(٧٥) لقد وجدنا نوعين من الرسومات الهيروغليفية:

١-لوحات تصور مشاهد دينية ، منزلية أو عسكرية وخاصة بالآلهة والأمراء أو بأحداث الحياة المدنية.

٢-الحروف الهيروغليفية البسيطة أو الرموز المنفصلة التى تصاحب عادة اللوحات السابقة. وبالنسبة لعلامات الكتابة المتصلة فإنها استمدت شكلها من الأخرى، فنحن نتعرف من خلالها على أشكال الصور الرمزية. ولكن الأخرى أو الهيروغليفية الحقيقية هى التى تسيطر على هذين الأثرين كما فى كل الآثار الأخرى. وأخيرًا نجدها متداخلة فى اللوحات كما ذكرنا وفوق الأهرامات الصغيرة فى طرف المسلة. ولكن نلاحظ أننا لانجد هذه اللوحات على باقى المسلات.

(٧٦) إن زوال لمعان المسلة المصقولة ربما يرجع إلى قربها من البحر (كما يثبت ذلك الواجهات المتدهورة) وإلى طبيعة مناخ الأسكندرية الذى سأتحدث عنه عند تناولى ثلاثة الأعمدة القائمة وعمود بومبى.

والنقوش الهيروغليفية الموجودة على المسلات القائمة فى روما وحتى فى مصر (فى الكرنك والأقصر) محتفظة بحالتها لأنها فى مأمن من أسباب التدهور فى هذه الأماكن. ولكن كثيرًا من بين هذه المسلات لاتظهر عليها الهيروغليفية. إلا من خلال شريط طويل على كل جانب بينما مسلات الأسكندرية كانت كلها مغطاة. ويمكن مقارنة هذه المسلات الأخيرة بكل المسلات الأخرى لجمالها بالرغم من أن بعضها يفوقها فى الطول . وأطول مسلة نعرفها هى مسلة سان جون دو لاتران فهى تبلغ ٩٩ قدمًا طولا و٩ أقدام عرضًا فى الجزء السفلى. إنها مسلة رمسيس التى يتحدث عنها بلينى وهى مغطاة بالهيروغليفية. وقد نقلت من طيبة إلى

الأسكندرية على يد قسطنطين ونقلها ابنه من الأسكندرية إلى روما. وكانت كل العمليات الكبيرة لنقل هذه الأحجار الثقيلة إلى أوروبا تتم فى هذا الميناء (الأسكندرية). إن مسلة ميدان الشعب - التى استخرجها أغسطس من عين شمس لكى يضعها فى الملعب الكبير - كان قد بناها سيزوستريس، وهى مزينة بنقوش هيروغليفية ويبلغ ارتفاعها ٧٤ قدمًا. وتبلغ ٨ أقدام عرضًا. أما بالنسبة لمسلة مونت سوتوريو التى يطلق عليها عادة المسلة الشمسية لأغسطس والتى تطابق المسلة السابقة فى الارتفاع، فأحد جوانبها مطموس كما حدث جزئيًا للمسلة الموجودة فى عين شمس. ومسلة الفاتيكان ليس بها نقوش هيروغليفية وهى الوحيدة التى لم تتعرض للسقوط ثم لإعادة رفعها بفضل الباباوات ويبلغ ارتفاعها ٧٨ قدمًا وأكبر عرض لها يبلغ ٨ أقدام و٤ بوصات. وقد انفق مبلغ ٢٠٢,٠٠٠ جنيه لنقلها من الكنيسة - التى بنيت مكان ملعب كاليجولا فى الفاتيكان وزينت على يد نيرون - إلى موقعها الحالى.

وهذه الاستشهادات التى سأستخدمها فى الدراسات الأخرى التى سأقوم بها حول مسلات الأسكندرية كان من واجبى أن أذكرها هنا كمعطيات أولية.

(٧٧) ان مستوى أرض المدينة القديمة وضواحيها قد ارتفع ارتفاعًا ملحوظًا بسبب البناء وأعمال الهدم وإعادة البناء التى تكررت على التوالى، وكذلك بسبب غزو رمال الصحراء والبحر والبحيرات التى يجرفها الريح منذ أن إهملت هذه الأرض.

ولذلك نجد أن أسفل كل الجدران القديمة والأعمدة والمبانى الأخرى قد غاص تحت الأرض. وأن الجزء السفلى للمسلة القائمة كانت تكسوه الرمال والأنقاض بسمك يقدر بحوالى أربعة أمتار وتسعين سنتيمترًا. وهذا يعطى حوالى ١٥ قدمًا ارتفاعًا فى أرض المدينة فى هذا المكان منذ ١٨ قرنًا.

(٧٨) عندما قال بلينى إن المسلة ذات الـ ٨٠ ذراعًا الخالية من أى نقش، التى أقامها بطليموس الثانى فى الأسكندرية إنه وضعها «فى أرسنوى» فيجب أن نفهم من هذه العبارة: فى مكان ما بالأسكندرية تكرس لأرسنوى وليس فى بلدة

أرسنوى أو كليوباتريس التى كانت واقعة على البحر الأحمر بالقرب من السويس. إذ أن ذلك سيحمل تناقضًا مع ماسبق أن ذكره بلينى من إقامتها فى الأسكندرية.

وتفسيرى أكثر ملاءمة من أن نفترض أن هناك نقصًا فى هذا النص لبلينى وأنه قد نفذ هذا النقل الذى يصف كيفيته - باستخدام سفينتين ملتصقتين - دون أن نذكر قنوات السويس والأسكندرية التى كان من الضرورى اجتيازها. وليس هناك سبب لنفترض أن إقامة المسلة كانت أولا فى مدينة أخرى لأرسنوى أو فى الفيوم. وإذا كنا نميل إلى الاعتقاد بأن المسلة التى رسمها كارتسى على أطلال هذه المدينة الثانية هى نفس مسلة بلينى لأنه تنقصها مثلها الهريم الذى يعلوها، فإننى أود أن أشير إلى أنها تبلغ ١٢ مترًا و٧٠سم ارتفاعًا بدلا من ٨٠ ذراعًا، وأن بها أشكالا منقوشة بدلا من أن تكون بلا نقش.

وإن باقى حديث بلينى يتفق أيضًا مع تفسيرى عندما يقول «ولكن بما أن هذه المسلة كانت تعوق الميناء فإن والى مصر ويدعى «مكسيم» قام بنقلها إلى الميدان العام بعد أن قطع الجزء العلوى. وأراد أن يستبدل هذه القمة بأخرى ذهبية، ولكن هذا المشروع ظل دون تنفيذ». ولاندرى مصير هذه المسلة التى سيتم التعرف عليها بسهولة فى روما أو فى القسطنطينية بسبب إزالة قمتها . وسنرى أنه قد أمكن استخدامها فى عمل عمود دقلديانوس.

وهذه معلومة أخرى حول آثار الأسكندرية: كان هناك مبنى أو معبد أو قصر أو مجرد مكان مكرسًا لأرسنوى فى الترسانات أو فى أطراف الميناء ، حيث إن الحجر كان يشكل عائقًا للملاحة. ثم أقيمت مسلة دون أى نقش ناقصة الرأس فى الميدان العام بالمدينة.

ومن الطبيعى أن نفترض أن الكسور الأولى فى قاعدة المسلتين ، قد حدثت عندما قام البطالمة الأوائل بنقلهما من صعيد مصر ، ولهذا السبب نجد أن الحزوز المربعة قريبة من نهاية الكتابة الهيروغليفية، ثم قاموا بعد ذلك ببناء القاعدة التى نراها، وحفروا الحزوز و وضعوا الحجارة فوق الحامل المعدنى، وأثناء الدمار الذى أصاب الأسكندرية وسقطت فيه المسلات قام الإغريق أو

العرب بإقامة واحدة فوق قاعدة قديمة وكسروا زواياها السفلية وأطاحوا بفتحات الزوايا بحيث أعطوا لها شكلا هرميًا مقلوبًا وغلفوها بالبناء الحديث والرديء الذى نراه حولها . ويبقى مشكوكا فيه أنهم أقاموا المسلة التى نراها قائمة حتى الآن.

(٧٩) لأن كثيرًا من هذه المسلات التى كنا نراها فى روما فى زمن بلينى مازالت موجودة بعد أن سقطت أثناء تعرض هذه المدينة كثيرًا للنهب ثم تم رفعها أو نقلها بفضل عناية البابوات. ويبين هذا العالم مافعله مختلف الأباطرة بهذه المسلات وأنه بعثورنا عليها فى بعض الأماكن التى بها آثار روما القديمة انتهى المحدثون إلى معرفة أصل كل واحدة منها.

إن ميتريه أو مستريه أو ميسفيه وسوخيس (لم يذكر هيردوت وديودور كل من هيتريه وسوخيس) ورمسيس، وسماريه وأرافيوس ونكتابيس وسنوسرت وسيزوستريس ونونكوريه هم ملوك مصر القدماء الذين يشير إليهم بلينى كأصحاب المسلات.

ومسلات سماريه وأرافيوس قام بنقلها كلوديوس أمام ضريح أغسطس. وتوجد إحداها فى سانت مارى الكبرى والأخرى فى مونت كافاللو. ونجد فى الأساطير ملكًا لمصر اسمه ميسفيه عاش سنة ١٦٦٥ قبل الميلاد وقبل هجرة الإثيوبيين.

ويقول بلينى إن مسلات سماريه وأرافيوس ونكتابيس كانت دون نقوش هيروغليفية وأن المسلة الأخيرة التى يبلغ ارتفاعها ٨٠ ذراعًا هى التى وضعها بطليموس الثانى فى الأسكندرية وأهداها لأرسنوى. وبذلك فإننا لانستطيع أن نخلط بينها وبين المسلتين الأخريين الموجودتين. ولكن لايبدو أنه كانت هناك مسلات أخرى بخلاف هذه المسلات الثلاثة فى هذه المدينة. و المسلة الوحيدة التى استخرجت من الأسكندرية هى مسلة چون دو لاتران التى سبق أن أشرت إليها. غير أنه من المفترض أنها لم تقم هناك بل وضعت فقط ، لأن بعد قسطنطين الذى كان يريد توجيهها إلى بيزنطة جاء ابنه قسطنطين وأزالها.

(٨٠) من المحتمل أن اغسطس وكاليجولا - اللذان يذكر بلينى أنهما قاما بإزالة هذه الأحمال الثقيلة - والأباطرة الآخرون الذين نافسوهما فى ذلك قد استخدموا وسائل شبيهة بوسائل بطليموس الثانى لنقلها من صعيد مصر أو الأسكندرية إلى شاطئ البحر. وكان يستخدم بعد ذلك سفينة بُنيت خصيصًا لعبور البحر المتوسط. ومسلات أغسطس وكاليجولا _ التى يحكى عنها بلينى- كانت بديعة[1]. ولكن من المهم أن نلاحظ أن كل مايقوله بعد أن تحدث عن مسلتى الأسكندرية يتعلق بصعوبة نقل هذه الأحجار عامة وبهذه السفن التى بُنيت خصيصًا وليس بالمسلتين بصفة خاصة. ودون ذلك نميل إلى الاعتقاد - مثل كل المفسرين - بأن هاتين المسلتين هما أثرا الأسكندرية اللتان نقل أغسطس أولاهما ونقل كاليجولا الثانية. بينما يستمر بلينى فى القول بأن أغسطس وضع فى الملعب الكبير مسلته التى قام بنحتها سنوسرت ووضع فى حقل مارس المسلة الأخرى التى قام بنحتها سيزوستريس.

وقد رأينا أنهما مسلتا ميدان الشعب و مونت سيتوريو أما مسلة كاليجولا[2] فلم تكن إحدى مسلات الأسكندرية، لأن بلينى يقول بعد ذلك إنها كانت موضوعة فى الفاتيكان، ولم يكن بها أية نقوش هيروغليفية. وهذه الملاحظة كانت ضرورية للحفاظ على كل الملاحظات الأخرى التى جمعتها حول أصل المسلتين الموجودتين حتى الآن فى الأسكندرية.

وفى عهد بلينى لم نكن نرى سوى هذه المسلات الثلاثة فى روما. وبعد ذلك بزمن طويل نقل قسطنطين مسلة سان جون دو لاتران إلى الملعب الكبير وكانت هناك قبلها مسلة إغسطس.

والوزن والتفاصيل الأخرى التى قدمتها حول هذه المسلات ستجعلنا نقدر جيدا أهمية هذه الآثار بالنسبة للشعوب التى تعلقت بها ونقدر عظمة عمل

---

(١) ويضيف سويتون ايضاً إلى فكرة بلينى قائلاً فى «حياة كلاوديوس» : لقد بنى فى مدخل ميناء أوستى سوراً مقاماً على سفينة كانت قد جلبت من مصر مسلة ضخمة تم إقامتها . وعلى هذا السور كان يرتفع برج عال شبيه بفنار الأسكندرية (ترجمة لاهارب).

(٢) ويصف بلينى أيضاً السفينة التى حملتها .

الفارس فونتانا الذى نقلها وأقام العديد منها فى عهد البابا سيكست ـ كينت والخدمات الجليلة التى قدمها هذا البابا وبعض سلفه إلى الفنون. لماذا لم يقم الأوروبيون المحدثون بمشروع جرىء مثل القدماء والرومان عندما قاموا بنقل هاتين المسلتين على أرضنا ؟

إن صخرة بطرسبرج التى نقلت من بعيد، ألم تكن تزن أكثر من مليونى رطل تقريباً من المسلة القائمة؟

(٨١) إن التعارض بين المساحة المصقولة للمسلات وبين الأجزاء البارزة غير المصقولة يبين أن المصقول تم عن طريق الاحتكاك المتجانس لكل المساحة وأن الأشكال التى نقشت قبل أو بعد هذه العملية انتهت بعد ذلك ، وأن المصريين القدماء كانت لديهم وسائل خاصة لصقل المساحات الصغيرة البارزة. فنحن نرى بالفعل فى صعيد مصر مسلات وقد صقلت نقوشها وأخرى لم تصقل.

وهذا العمل كان طويلا ومكلفًا جدًا بسبب صلابة المواد. ولذلك فإن كثيرًا من هذه الآثار الكبيرة قد أقيمت قبل أن تكتمل ، وكانت مع ذلك مدهشة.

(٨٢) دون أن ألجأ لأسلوب خاص لشرح دوافع إقامة هذه المسلات يبدو لى من السهل أن أفترض ـ وأنا أقترب من ذلك من شعور بلينى العام ـ أنه بتزيين هذه الآثار بالنقوش الهيروغليفية. فإن الهدف كان نفسه هو الذى جعل هذه الأشكال والحروف تغطى كل مساحات الجدران وأسقف المعابد التى وضعت أمامها. وفى مدخل أحد المعابد كانت توجد مسلتا فيلة وربما كذلك مسلة عين شمس. وسنرى أن بطليموس الثانى حاكى المصريين فى استخدام مسلات الأسكندرية. فكانت تدون عليها تعاليم الدين ومبادئ الفلسفة والتاريخ وكل العلوم. وكانت هذه الأحجار تستخدم فى نفس الوقت فى تجميل مداخل القصور.

إن مسلتى الأقصر والمسلات الأربعة فى الكرنك الموجودة فى طيبة وضعت فى مدخلى معبدين. ويقول بلينى أيضًا إن خلال سقوط طروادة وضع رمسيس مسلة فى المكان الذى شيد فيه معبد منيفس.

وربما كانت المسلات فى ذلك الوقت مكرسة لمجد الملوك، فنقوشهم لم تكن كلها دينية وكانت لها علاقة بهذا الهدف الأخير. ويقول بلينى إن مستريه الذى كان يحكم فى طيبة وكان أول من أقام المسلات قد تلقى الأمر فى الحلم أثناء نومه كما يبين ذلك النقش على المسلة. ولكن شيئًا لا يمنع من أن نفترض أن ملوك مصر القدماء الذين كانوا خاضعين لإدارة الكهنة كانوا يكرسون فى منازلهم رموزًا دينية بحتة.

(٨٣) إن ما أدى إلى الاعتقاد بأن قدماء المصريين كانوا يستخدمون هذه المسلات كساعات شمسية ، هو أن الرومان قد استخدموا إحدى المسلات لهذا الغرض الأخير، ونستطيع أن نتوصل إلى أنهم نقلوا ما رأوه فى مصر. ولكن بلينى لايؤكد ذلك .

إنه لا يذكر هذه المسلات العديدة التى نقلها إلى روما الأباطرة أغسطس وكاليجولا وكلاوديوس - وهو لايذكر ذلك - إلا عن مسلة أغسطس فى حقل مارس ويستخدم التعبير المميز: «وأعطى استخدامًا رائعًا تجاه ظلال الشمس المفاجئة».

وعندما قام جونوا الرابع عشر بإخراج المسلة من المكان القديم الذى كانت مدفونة به لكى يقيمها بعد ذلك فى منتصف القرن الأخير، تم العثور على بعض أجزاء الساعة المكونة من شرائط من البرونز بداخل بلاطات من الرخام.

(٨٤) إن تعبير "Sunt" التى استخدمه بلينى حول وجود مسلتى منف فى الأسكندرية يثبت أنهما ليستا هاتين المسلتين التى يصف - بعد ذلك - نقلهما بواسطة أغسطس وكاليجولا .

وإذا كان استرابون لايتحدث مطلقًا عن هاتين المسلتين، فإننا لسنا مضطرين لأن نتوصل إلى أنهما قد أقيمتا هنا بعد رحلته : إذ أن هناك أشياءً أخرى كثيرة أغفلها ولم يذكرها. وعندما يذكر القيصرون فإنه يقدم قائمة بأسماء مجموعة الآثار البديعة.

إن ترتيب الأساسات العتيقة الموجودة بالقرب من المسلات فى الأسكندرية على شاطئ البحر ، والتى يقام فوقها مبان عربية يؤكد أيضًا ما افترضه حول تاريخ هاتين المسلتين ويثبت أن العرب قد مهدوا الأرض التى يوجد بها هذه الأساسات لكى يبنوا فوقها دورهم، وإذا افترضنا أن الذراع المصرية تساوى ٢٠ بوصة و٦ خطوط[١] ، فإننا نجد بالنسبة لـ ٤٢ التى ذكرها بلينى ٧١ قدمًا و٩ بوصات وهو مقياس يبتعد أكثر عن الارتفاعين المختلفين لمسلتينا عن ٥٩ قدمًا و٨ بوصات التى نجدها عندما يقيم الذراع بـ ٤٦٢ ملليمترًا كما فعل جومار فى دراسته عن النظام المترى لقدماء المصريين. ولكى نتبنى الافتراض الأول يتعين أن نفترض أن أصغر المسلتين قد نقصت بـ ٧ أقدام و٩ بوصات؛ وقد رأينا أن ذلك غير محتمل: فالثانية لاتعطى إلا فارق يساوى قدمين و ١٠ بوصات. إذا فهى أفضل. وتخميناتى وشهادة بلينى تتأكد لأنها تتفق هنا بطريقة مرضية.

(٨٥) إن قرب البرج العتيق الذى سنراه بعد قليل لايتعارض مع اتجاه محور معبد قيصر من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، لأنه توجد مسافة كافية بين هذين المبنيين. على أنه يمكن أن يكون البرج قد بنى بعد ذلك بكثير أو أن يكون له صلات مع المعبد. وشكله الأسطوانى هو شكل غالبية المقابر الرومانية الكبيرة، مثل مقابر بلوتيوس بالقرب من تيفولى ومقابر سيسيليا ميتلا وهادريان التى مازالت موجودة، ومقبرة أغسطس.

ولانملك إلا أن نقر أن الصلة التى افترضتها بين مقبرة ما وبين معبد أقيم لتكريم إنسان هى صلة طبيعية. والبحر قد التهم كل هذا الساحل لدرجة أن قاع القيصرون يمكن أن يكون قد تقدم قديمًا على الساحل القديم[٢].

(٨٦) إن التكريم الذى يليق بالآلهة ولقبه قيصر من مجلس الشيوخ ثم انتقل إلى الملوك الذين خلفوه وإلى زوجاتهم كان سائدًا فى الأسكندرية بالنسبة للأشخاص الذين لايقلون عنهم عنفًا أو فسادًا، وهم أعضاء أسرة البطالمة. ولكن

---

(١) "Ligne" (سطر) مقياس فرنسى قديم يساوى ١/١٢ من البوصة . (المترجم).

(٢) انظر ما سبق .

إذا كان أنطونيو وكليوباترا قد أقاما معبد قيصر عندما جاء أغسطس إلى الأسكندرية فكيف لم يزره هذا الأخير، وقد أحاط مقبرة الأسكندر بكل مظاهر التكريم ؟ وكيف أن استرابون وهو يذكر هذه الزيارة لم يقم بأى إشارة أخرى للقيصرون إلا باسمه ؟

وخلال الحصار الأخير للأسكندرية قام الفرنسيون ببناء حصن على التل القريب من القيصرون، وأطلقوا عليه اسم حصن كليوباترا. وبذلك نقلنا مسرح الحرب تقريبًا فى نفس النقطة التى كان قيصر قد أقامه فيها من ١٨ قرنا ونصف ، عندما حُوصر فى حى القصور الممتد حتى هذا المكان.

البرج المسمى برج الرومان

(٨٧) إن الحجر الذى يشبه العدس أو الحجر المسكوكى هو حجر مثالى بسبب صلابته وجماله، ومن الملاحظ أن هذه المادة استخدمت فى كل الإنشاءات القديمة التى نراها حتى الآن فى المدينة القديمة. فكل هذه الأحجار سليمة وكاملة بينما الأحجار التى استخدمها العرب ـ بالرغم من أنها وضعت فى مكانها بعد ذلك بوقت طويل ـ تآكلت كلها حتى الأجزاء الداخلية. ويعتقد أن المحجر الذى أخذت منه الأحجار الأولى يبتعد عن الأسكندرية. ولكن بما أن تكوين الحجر فيه كثير الشبه مع الصخرة التى تتكون منها أرض الأسكندرية فمن الممكن أنه تم العثورعليه فى جزيرة فاروس أو فى أحجار الصهاريج أو المقابر العديدة التى بنيت فى هذه المدينة وضواحيها. والتحامها وتشبهها بالصخرة الأخرى لايمنعها أن تأخذ شكلا جميلا مصقولا مازالت تحتفظ به بالرغم من تأثير جو الأسكندرية.

وهذه الصخرة الناعمة التى تشكل أرض الأسكندرية وتمتد فى رأس التين وتصل حتى لسان أبى قير (كانوب القديمة) حتى جزيرة مرابو. ونعثر على هذه الصخرة عندما نتتبع وادى النيل ومصر الوسطى. وقد تعرف هيرودوت على طبيعة هذه الأرض عندما ذكر القواقع التى عثر عليها فوق هذه الصخور.

ومن الواضح أن هذه القواقع قد تكونت بفعل مياه البحر وهى نفسها التى شكلت أرض الأسكندرية.

ولا أستطيع أن أؤكد أن العرب لم يستخدموا كثيرًا الحجر الصوان فى أبراجهم الأخرى، ولكن الشيء المؤكد أنهم لم يستخدموه بمثل هذه الكثرة إلا فى البرج المسمى برج الرومان. وبما أننا نجده عامة فى الأطلال القديمة، فإن وجود هذا الحجر يؤيد التخمين الذى يرجع هذا البناء للرومان.

(٨٨) لما كان من الممكن أن يتبع هذا البرج معبد قيصر فهناك احتمال ضعيف أن يكون الرومان قد أقاموا هنا بناءً عسكريًا. ولكن اسم الرومان إذا اقترن بمبنى مكرس لقيصر وبمكان حدث فيه حصار شهير[١] يؤكد على الزمن الافتراضى للبرج إن لم يكن يثبته تمامًا.

وعلاوة على ذلك يظهر دائمًا أن هذا المبنى قد بنى بطريقة أفضل كثيرًا عن باقى الأبراج التى نجد بعضها مبنى جيدًا. وإن هذا المبنى يتمتع بصفات مختلفة عن باقى الأبراج ، وينتمى لأحد الأبنية القديمة التى احتفظ بها القدماء بعد انهيار القيصرون ثم بعد ذلك العرب فى مدينتهم الجديدة.

بيان الآثار الموجودة فى بقايا أطراف الميناء الجديد

(٨٩) تميل بعض الملاحظات فى أوروبا إلى خفض البحر المتوسط لأكثر من ثلاثة أمتار ونصف على سواحل هذا الجزء من العالم منذ الإغريق. والبعض الآخر على العكس يعتقد (والبقايا التى نشاهدها تحت البحر على طول شاطئ الأسكندرية قد سمحت بذلك). أن مستوى هذا البحر قد ارتفع فى زمن يفوق الألفى عام: ولكنى بينت العكس بسهولة. [٢] ولكى نشرح بعض الحقائق نضطر أن نقر بأن هناك أولاً انخفاضًا ولكن ليس بدرجة الثلاثة أمتار ونصف. وإن أقصى ارتفاع ٦٠ سم لمصب مجرى العيون السفلى الذى وجدناه سيكون على

---

(١) ربما كان هذا الحصار هو الذى جعل الفرنجة والرحالة يطلقون على هذا الأثر اسم برج الرومان.

(٢) انظر ما سبق .

الأكثر جد هذا الانخفاض الذى كان بلاشك بطيئًا جدًا. وقد لاحظ علماء الطبيعة السويديون أن بحر الشمال ينخفض تقريبًا بمعدل ٤ أقدام و٦ بوصات كل مائة عام.

وكل سكان خليج بوتنى مقتنعون جدًا بانخفاضه لدرجة أنهم يسخرون منا إذا أبدنا الرأى المخالف. ولدينا أمثلة شبيهة فى ميناثنا القديم إيج مورت - حيث أبحر لويس التاسع - وموجود حاليًا على اليابسة فى مؤخرة الميناء وفى الميناء الذى بناه أغسطس فى روفن وهو أيضًا الآن بعيد عن الساحل ويحمل اسم كلاس. وكثيرًا ماتسهم مخالفات القارات فى هذا الانخفاض النسبى والظاهر للبحار. فنحن نرى أن التغيرات فى المستوى ليست كلها بنفس الدرجة ، وأنها مرت بمراحل وأن البحر قد أمكنها أن ترتفع على أحد السواحل وتنخفض على ساحل آخر بعيد. ولكن يبدو أن البحر فى مصر قد اقتصر على انخفاض بطىء جدا كما ذكرت.

(٩٠) الخط المائل والمتقدم داخل الماء الذى نجده فى طرف الميناء الجديد يبين ومعه مبان أخرى كثيرة مشابهة قريبة أن سكان الأسكندرية يعرفون استخدام مانسميه بالخرسانة والبازولان وطريقة استخدام هذا الأسلوب للبناء فى البحر.

(٩١) ظل تمثالا سيفيروس وماركوس أوريليوس فى الأسكندرية إبان رحيل الجيش الفرنسى. ولابد أنهما ظلا فى أيدى الإنجليز ، ويحتمل أن يكونا قد نقلا إلى إنجلترا. إن هذه المناسبة تذكرنا بحملة سيفيروس الكبيرة على هذه الجزيرة حيث توفى بعد أن شيد السور الشهير الذى يعبرها.

البوزيديوم - معبد نبتون - التيمونيوم

(٩٢) إن أول مدماك من البناء يبلغ ارتفاعه مترًا. والثانى فوقه يبلغ ٥٠ سم والثالث (يتكون من صف واحد من الطوب) يبلغ ١٠ سم ، والثالث (من الخرسانة الممزوجة بالأحجار) ٩٠ سم والرابع ٣٠ سم ، والخامس (ثلاثة صفوف من الطوب) ١٨ سم ، وهكذا بالتبادل ٣٠ سم و١٨ سم حتى مستوى الأرض العلوى.

(٩٣) إن الطريقة التى أتبعها لوصف الجزء البحرى للأسكندرية هى عكس طريقة استرابون التى تظهر فى نصه. فعندما استنتج شيئًا إذا وضع هو أى شىء قبل أو بعد شىء آخر فإننى أضع حرفى الجر المتعارضين أحدهما مكان الآخر.

(٩٤) إن اسم نبتون وبوزيدون قد ساهم فى تسمية أشياء كثيرة: فالشهر السادس فى أثينا ، كان يسمى بهذا الاسم، وأثينا عاصمة ولايات كرانوس ، وكان اسمها قبل ذلك بوزيدونيا، وكلمة بوزيدونى كانت تطلق على الأعياد اليونانية تكريمًا لنبتون، وكان هو نفسه الإله العظيم عند الليبيين وهم جيران الأسكندرية.

(٩٥) لقد ترجمت حرفيًا كلمة "regia domus" بمنزل ملكى بدلا من قصر حتى لايتعارض مع مايحكى عن المبنى المتواضع الذى بناه أنطوان بعد أن أصبح يتجنب الناس وتواضع الآثار التى نراها هنا.

(٩٦) هناك ملاحظة عابرة: وفقًا لوصف استرابون لهذا الجزء المنحنى والمنخفض من الساحل والمسمى بوزيدوم، لأنه يميزه على مسافة طويلة خارج قيصرون على جانبى هذا المعبد وهو يسميه بخلاف الأثرين: (التيمونيوم ومعبد نبتون)، الواقعين على هذا الساحل أن القيصرون لم يكن يتقدم مثلهما فى المستوى السفلى ، ولكنه كان موجودًا على نقطة مرتفعة أو هضبة الساحل كما وضعته بطبيعة الحال.

(٩٧) فى اللوحة ٨٤ وقبل هذه الكتل توجد علامة قياس مميزة وتدل فقط على عمق ٦ أقدام للمياه، وهذا يتفق مع كل مانعرفه حول تآكل الساحل ومبانيه البارزة. وقد اخترت بين البروزين والأثرين كمكان للتيمونيوم ومعبد نبتون ، لأن الثانى يتقدم أقل من الأول فى الماء ولأنه أوسع ولايظهر أى إشارات على امتداد غير طبيعى وينتهى عند آثار معبد نبتون. ومن غير المجدى أن نفترض أن أنطوان قد أقام التيمونيوم بمد هذا الرأس الممتد طبيعيًا بينما الرأس الآخر كان يحتاج فعلا لبعض الأعمال حتى يكون بارزًا. وإذا كان الأمر كذلك إذًا فكيف لايتحدث استرابون عن المبانى المهمة التى كانت موجودة على الرأس الأول وهو الذى يظهر اليوم بوضوح ؟ !.

(٩٨) لاشىء يمنعنا من افتراض أنه كانت هناك حمامات حول معبد نبتون وفى نفس الوقت الذى وجد فيه هذا المعبد، لأن هذه الحمامات لاتشغل أساسًا إلا جزء القاعدة المنخفض عن المستوى العام للسهل المجاور، وأن الساحة أمام الجزء الذى يرتاده العامة فى المعبد يمكن أن ترتفع من جهة المدينة فوق المستوى الأول.

وفى كثير من المدن القديمة نرى الحمامات ليس فقط حول القصور بل حول المبانى الدينية أيضًا، وتشهد على ذلك حمامات أجريبا التى أقامها للشعب الرومانى وكانت توجد بجوار البانثيون الذى شيده كذلك. وليس مستغربًا أن حمامات مياه البحر (كما يبرهن على ذلك البللورات الكثيرة الملتصقة بالمحار) كانت مقامة تحت بناء وفى جزء من الساحل مخصص لنبتون، علاوة على هذا فإنا لا أزعم أننى أعطى أهمية أكثر مما يجب لكى أحدد بدقة هذه الأماكن غير المؤكدة وغالبية التى تأتى بعدها: فيكفى أنها مقامة بطريقة طبيعية لاتتعارض مع شهادة القدامى لكى نتمكن من عمل خريطة للأسكندرية القديمة كفيلة بتقديم صورة قريبة ومنطقية لما كانت عليه قديمًا هذه المدينة الكبيرة.

الميناء المحضور

(٩٩) ليس مستغربًا ان استرابون لايتوقف كثيرًا حول الاستخدام الخاص للميناء المحضور. فهذه التقسيمات فى داخل الميناء الكبير لم تكن ـ كما سبق إن قلت ـ سوى حدود فاصلة طبيعية فى الساحل وكان يضاف إليها فى بعض الأحيان أعمال فنية كما حدث هنا عندما تم الحفر لتعميق الأرض وغرس انحناء الحوض فى اليابسة، وكذلك بناء حواجز لتكبير الحوض أكثر وغلقه واستخدامها كأرصفة.

ولا يجب أن نخلط بين هذا الميناء الممتد وبين الحوض الصغير الطبيعى الذى كان مخصصًا لاستخدام الملوك وسنراه فيما بعد. فعلاوة على أن صفاتهم ـ التى يبينها استرابون بهذا الوصف ـ مختلفة جدًا فإنه عنى بذكرهم منفصلين:

أحدهما عن الآخر، بالرغم من أنه لايذكر سوى الأول ذكرًا عابرًا بأنه يستخدم استخدامًا عامًا.

جزيرة أنتيرودس

(١٠٠) بما أن أنتيرودس كانت جزيرة فكان يجب أن تقع قبل أو أمام الميناء المحفور فى الاتجاه القادم من البحر إلى اليابسة، عموديًا على انحناء الساحل وليس موازيًا لنقاط هذا المنحنى التى يراها استرابون وهو واقف فى الميناء الكبير. ونستطيع أن نفهم كلمة ante على هذا النحو ولكن فى هذه الحالة ينبغى أن نفترض أن الميناء المحفور كان أكبر كثيرًا، وأنه كان يغوص فى اليابسة باتجاه البوزيديوم وخلف كاسر الأمواج المتهدم، وأن هذا الأخير ليس سوى بقية من جريزه أنتيرودس ومن المبانى المقامة بها، وأن ذراع البحر التى تفصل بين هذه الجزيرة من اليابسة والميناء المحفور قد اندمجت مع الميناء نفسه.

إن هذا الافتراض سيبعد كثيرًا الساحل القديم وهذا يتعارض مع مظهره وسيجعله يقترب جدًا من آثار المدينة الداخلية.

(١٠١) إن التنافس بين رودس والأسكندرية فى القوة والتجارة البحرية كان طبيعيًا. ولكن بالمقارنة بين شيئين كبيرين، عندما نرى الأسكندرية الكبيرة والرائعة وقد تمثلت بجزيرة صغيرة من الطمى، فإننا لانستطيع أن نمتنع عن التفكير فى أن هذا الاشتقاق قد يكون له شبه الصلة بتفوق رودس وسيادتها على كل هذا الساحل خلال شباب الأسكندرية وبالطريقة المستخفة التى أضعفتها بها كليوباترا وفقًا لأميان مارسلان. وفى هذه الحالة، فإن أسم أنتيرودس يدل على سخرية حقيقية مثل الرواية التى ذكرها المؤرخ حول بناء الجسر على يد كليوباترا.

لسان وقصر لوكياس

(١٠٢) ربما لم يكن قصر لسان لوكياس فى الأصل سوى ملحق للقصور الداخلية، وقصرًا للترفيه شيد خارج المدينة القديمة كلما زاد ثراء البطالمة وأنه

لم يصبح قصرًا بمعنى الكلمة إلا فى عهد استرابون. وربما أيضًا كانت القصور الأخرى فى البداية هى الرئيسية ويطلق عليها اسم داخلية لنفس السبب. وكان لها جوانب أكثر توسعًا وكانت تشكل مجموعة كبيرة تتصل بالمبانى الملكية الأخرى وبطريقة أسهل مع المدينة.

(انظر الموضوع الخاص بها فى الوصف، الجزء الأول، المبحث الثانى).

وبالإضافة إلى ذلك فإن كل هذا ليس سوى افتراضات قد يكون لها أساس للتوفيق بين كل عبارات الكتاب. ويكفى - فى مثل هذه الحالة - أن الافتراضات المحتملة تكون قليلة وبذلك فهى ترضى العقل مثل حقيقة فريدة وإيجابية.

(١٠٣) ان اسم «بازار» يبدو لى ملائمًا جدًا لـ Emporium. وعادات سكان الشرق لم تتغير دائمًا. فالبطالمة - الذى اصطحب الإسكندر قائدهم فى حملاته - كانوا يحافظون على هذه التقاليد فى مدينة شرقية. والبازارات الحديثة فى الشرق تمثل هذه الوكالات التجارية القديمة.

أكرولوكياس

(١٠٤) إننى أعترف هنا فقط أن الإغريق القدماء استخدموا - مثل العرب - بقايا الأعمدة لأنها ليست سوى أجزاء غير صالحة للاستخدام إلا فى الحشو، وهذه ملاحظة مهمة يجب الإشارة إليها. ويجب ملاحظة أن الأساسات التى نفحصها قديمة، بينما فى كل مكان آخر وجدنا فيه أعمدة مستخدمة أفقيًا فإن الأساسات مثل المبانى نفسها كانت حديثة.

الشارع الطولى الكبير - الباب الكانوبى

(١٠٥) إن اسم Platea أو الميدان الطويل الذى يطلقه استرابون - فى أحد النصوص - على الشارع الطولى الكبير فى الأسكندرية يبرر عرضه الواسع. ولقد بلغ عرض الشارع مائة قدم أو بليثرونة. ويؤكد ديودور هذه المسافة. وفقًا لبوكتون فإن البليثرونة، مقياس طولى يستخدم فى آسيا ومصر ويبلغ $\frac{٢٦٧}{١٠٠٠}$ ١٤ قامة من المقياس المستخدم عندنا .

وطبقًا لروميه دوليزل فإن البليثرونة عند الرومان كانت تبلغ ١٤ قامة و قدمًا و٦ بوصات، وهو لايرى مقياسًا آخر بنفس الاسم. واسترابون قد استخدم كلمة بليثرونة مرادفها اللاتينى Jugerum . ولكن أيًا كان الاسم المستخدم حتى ولو كان "فدان" فيجب أن نفهم هنا أنه مقياس طولى أو جانب من مقياس مساحى خاص بمسح الأراضى ويبلغ ٨٥,٥ قدمًا وفقًا لعلماء القياس الفرنسيين الذى يتفقون تمامًا حول هذه النقطة. ولقد أعطوا عرضًا كبيرًا لأول شارعين فى الأسكندرية. ونستطيع أن نقارن بين هذا العرض وبين عرض الشوارع فى أكبر مدننا وحتى بشوارعنا الملكية التى تكون أكبر فى فرنسا عن غيرها وتبلغ مع ذلك ٦٠ قدمًا فى الاتساع فى روما القديمة نفسها حيث لم يكن مسموحًا بنقل الأوزان الكبيرة إلا أثناء الليل فإن عرض الشوارع المستقيمة كان مقصورًا على ٨ أقدام (٧ أقدام و٣ بوصات فى فرنسا)، ويبلغ عرض الشوارع الملتوية ١٤,٥ قدمًا (من مقاييسنا) سواء أكانت شوارع عسكرية أم قنصلية أم خاصة بالحاكم أى شوارع رئيسية أو ريفية وتصل بين الشوارع السابقة.

وعندما أعاد نيرون بناء جزء من المدينة ووسع الاتصالات فيها ، فإنه لم يساوها بشوارع الأسكندرية.

إن الشارع الجميل المرصوف الذى مهد فى بومبى يبلغ عرضه ٤ قامات - بما فيها الرصيفان - اللذان يبلغ عرض كل منهما ٤ أقدام. ولاحظ أن الخيل والعربات كانت تمر بسهولة فى الأسكندرية فى كل الشوارع الأخرى، وستتكون لديك فكرة عن العظمة النسبية لهذه المدينة قديمًا وحتى فى وقت الازدهار الكبير لمنافستها التى صارت قلب العالم المتحضر.

(١٠٦) نلاحظ أن استرابون لم يقل: إن هذا الشارع كان يمتد من باب المدينة إلى الباب الآخر، ولكن من الجبانة إلى الباب الكانوبى، وهذا يبين إما أن المسار كان يمتد فى الضاحية التى تحمل اسم مدينة الموتى ، وإما أن هذه الضاحية كانت تلامس الباب المقابل للباب الكانوبى حيث يبدأ من الشارع. وهذه الملاحظة تعطى بعض الحرية لتحديد مكان الساحة القديمة ومدينة الموتى فى الطرف الغربى لتفسير الطول البالغ ٤٠ غلوة، وهما حيث حددهما ديودور الصقلى.

(١٠٧) إن كلمة «حوالى» ثلاثين غلوة التى يستخدمها استرابون لطول المدينة جديرة بالملاحظة. وتثبت أن علماء الجغرافيا لايزعمون أنهم يسجلون هذه المقاييس الكبيرة بدقة أكثر منا فى مثل هذه الحالة. وهذا يترك نوعًا من الحيرة حول التمييز بين ضواحى المدينة وأطرافها ويرضى بالاتفاق بين المقاييس المختلفة التى يقدمها الكتاب لأبعاد المدينة القديمة.

ونستطيع كذلك أن نطبق على الشارع الكبير ما يقوله استرابون عن طول جوانب الرداء ويوسيفوس عن طول المدينة.

ولأن كل الكُتّاب اهتموا بتمييز ضواحى المدينة عندما ذكروا هذه الضواحى، وطبقًا لنص استرابون الدقيق فإن الشارع كان يمتد من مدينة الموتى حتى الباب الكانوبى.

واستخدم دائمًا ـ لكى أوافق هؤلاء الكُتّاب ـ الغلوة الإغريقية التى اعتادوا استخدامها، ولكن كيف يقيس ديودور الصقلى ـ وكان قد زار مصر ـ المسافة من باب إلى آخر بأربعين غلوة؟ لقد سبق أن لاحظت أن هذا الكاتب يستخدم دائمًا غلوة أصغر من الغلوة التى يستخدمها استرابون أو يوسيفوس. (والغلوة التى حاول دانفيل أن يستخرجها من الهبتاستاديوم تقترب من مقياس هذين الكاتبين الذى لايزيد عليها سوى بـ ٢٩٠ قامة أو ٢ غلوة أوليمبية). ويقول ديودور إن المدينة كانت تمتد وتنتهى بطريقين ضيقين، ومن الممكن أن استرابون ويوسيفوس ـ اللذين لايحددان بنفس الدقة موضع البابين ولايتحدثان إلاعن طول المدينة بصفة عامة ـ لم ينظرا إلا إلى حجمها العام كما سنرى من شكل الرداء. وبالإضافة إلى ذلك فقد جاء ديودور بعد هذين الكاتبين ومن الممكن ـ والمدينة قد ازدهرت ونمت منذ الإسكندر - أن يجعلوها تمتد خارج الأسوار التى بناها مؤسسها كما يبين ذلك ـ على الأقل على جوانب لوكياس وبحيرة مريوط ـ التوسع فى أطلالها. وأخيرًا فكل شىء يظهر أن الشوارع كانت تمتد خارج الأبواب على الأقل من جهة مدينة الموتى.

(١٠٨) يقول هويه فى رسالة إلى سيرجى عن أصل الرومان: إن أخيليس الذى أخبرنا عن غراميات كليتوفون ولوسيب كان أصله من الأسكدرية فى مصر.

وقد ترك الوثنية وأصبح مطرانًا، والفترة التى عاش فيها غير مؤكدة. ولكن من المؤكد أنها فترة سبقت حكم الامبراطور قسطنطين الثانى الذى بدأ بعد وفاة والده قسطنطين الأكبر فى سنة ٣٣٧. وبالإضافة إلى الرواية التى تنسب إليه وترجع العظة الأخلاقية فيها إلى شباب الكاتب فيوجد له عملان حول ظواهر أناتوس ترجمهما بيتو فى مقالاته عن تاريخ الأحداث. إن الرواية التى كتبت بشىء من الطبيعية ترجمها دوبيرون دوكاستيرا، وتقدم لنا معلومات مثيرة عن الأسكندرية فى القرن الثالث.

الشارع الرئيسى العرضى

شكل وأبعاد المدينة القديمة

(١٠٩) من الملاحظ أن الشارع الرئيسى العرضى يصل إلى حى القصور وفقًا لمزاعم فيلون.

(١١٠) أجد أن الكاهن تيراسون قد أخطأ فى ترجمة الجملة الواردة فى «الوصف» سابقًا. وللاحتفاظ بهذه الترجمة يجب أن نفترض أن الجزء الأول يتحدث عن الميدان الذى يتكون من الشارعين ، وفى الجزء الثانى يتحدث عن الشارعين وحجمهما.

وإذا أخذنا الجملة كما ترجمت ، فمن الواضح أن هذا العرض الذى يبلغ فدانًا وكل البقية يرجع إلى الميدان - الشارع وليس إلى المدينة، وبينما لاينطبق الأربعون غلوة - التى تزيد على الثلاثين عند استرابون - بالضرورة على المدينة فقط بل أيضًا على الحى الذى يمكن أن يمتد إليه هذا الشارع، وفيما يأتى النسخة الحرفية لديودور: «إن بالمدينة شارعًا كبيرًا يقسمها تقريبًا إلى النصف وهو لافت للنظر بسبب طوله وعرضه وبالفعل يمتد الشارع من باب إلى الباب الآخر ويبلغ طوله أربعين غلوة و بليثرونة عرضًا». وهذا المعنى الجديد الذى ينطبق الآن على الشارع الطولى الكبير يتفق أيضًا مع التفسيرات التى تحتوى عليها هذه الموضوعات.

(١١١) كانت كل الشوارع مفتوحة من البحر حتى بحيرة مريوط. وتقاطع الشارعين الرئيسيين على شكل مستطيل وكذلك شكل الرداء المستطيل فى الأصل يكون مايشبه رقعة الشطرنج على الخريطة. ولم يكن هناك سبب لكى نحاول جاهدين أن نفسر هذه الخريطة بالابتعاد عن المتوازى لكل هذه الحدود. وأعتقد بأنه بمثل هذه الأفكار اعتقد الكثيرون كشىء مسلم به أن داخل الأسكندرية كان مقسمًا كرقعة الشطرنج، بينما لم يؤكد ذلك أى عالم تاريخ أو جغرافيا على حد علمى.

(١١٢) إن هذا الكاتب يخبرنا بأن الأسكندرية كان تحيط بها الأسوار التى بنيت منذ إنشائها. وشكل الرداء ينطبق على هذه الأسوار ويبدو جيدًا أن قصور لوكياس والأحياء المبنية بحدود تلال الآثار المربعة على طول الطرف الشرقى قد أضيفت منذ ذلك الوقت. من الواضح أنه فى كل هذا النص ـ الذى لا أذكره هنا ـ لخص ديودور كلام استرابون. وتعبيراته الأخيرة ـ إذا أردنا الاحتفاظ بكلمة ميدان ـ ستعنى أن قمة المنحنى أو أسفله من الجانب الشمالى والجانب الجنوبى مفتوح بشارع كبير (الشارع العرضى) وعن طريقه يصل إلى ميدان وسط المدينة.

(١١٣) إن رداء الإغريق مثل رداء الحرب عند الرومان وكل الثياب الأخرى من هذا النوع التى كان القدماء يرتدونها فوق ثيابهم على شكل مستطيل متوازى الأضلاع، وكان عرضه ـ الذى يساوى المسافة الموجودة بين الرقبة والساق- يبلغ نصف طوله. ونشاهد هذه الملابس ولكن أقصر كثيرًا على تماثيل عديدة وقديمة للنساء والجنود، ولكنها مصنوعة دائمًا من نفس قطعة القماش التى تتفاوت مقاييسها وتختلف فى طريقة تثبيتها ولفها.

وهكذا نعرف ذلك ونشاهدها على تماثيل كثيرة للإسكندر، فالرداء المقدونى كان ينزل حتى الكعب. والرسام الشهير لويران لاحظ جيدًا ذلك الشكل فى لوحته الجميلة لأسرة داريوس المعروفة للجميع. ولكننا نجهل الأبعاد الأخرى لهذا النوع الخاص من الرداء أى العرض الذى يتتبعه كل الباقى.

وندرك أنه لابد أن يكون أكبر من الرداء اليونانى وأن الرداء المقدونى كان لايختلف عن غيره إلا باتساع مقاساته، لأننا نعرف أن القدماء كانوا يميزونه عن

أردية بقية اليونانيين ويطلقون عليه لهذا السبب اسم الرداء المقدونى. وكان يثبت مثل الثياب الأخرى على الصدر أو على كتف واحد بواسطة مشبكين موضوعين فى كل ثلث من طول أحد الجانبين الكبيرين ، وكانت أطراف الجانب المقابل ترفع على الذراعين ويمكن أن تنزل حتى الأرض. ومن الطبيعى أن يكون هكذا فى الرداء المقدونى، ونرى أنه لم يكن يقترب من المربع الكامل أكثر من الأردية الأخرى من هذا النوع. ولذلك قارن استرابون[1] بين الشكل المستطيل المعروف عند القدماء بالرداء المقدونى المتطور. والنسبة من ١٠ إلى ٣٠ أو من ١ إلى ٣ التى توجد بين محورى خريطة الأسكندرية هى نسبة مناسبة. ونلاحظ أنه طبقًا لكلام بلينى «تجاه النموذج الكلاميدى من مقدونيا المحروم من الحركة تجاه زاوية اليمين واليسار» فليس الرداء الذى كان له الشكل الذى يصفه ولكن صورة هذا الرداء التى دخلت عليها التغييرات التى يبينها.

والعدد الذى يستخدمه لبيان طرف الرداء المستدير يبدو أنه يشير فقط إلى الجزء السفلى للرداء وأن الطرف المقابل للمستطيل كان مستقيمًا كما رسمته. ولاشىء يستدعى أن نفترض أنه كان مستديرًا. والانحناء الذى نجم عن المقاييس التى قدمت كان ضعيفًا جدًا بحيث إنه لايخل بالتناظر. وهذا التفسير يتفق مع مايقوله ديودور عن الجزء السفلى للرداء الذى يراه بلوتارخ مستديرًا مثل الهلال.

وتضاريس أطراف الساحة نتجت عن توزيع الأبراج على طول الأسوار. ووفقا لنص بلينى المحدد ، فإن صورة الرداء كانت محززة باستدارة فى أسفل ومحززة بأسنان على الأطراف.

وهذه هى الطريقة التى أجد بها الصورة التى رسمتها عن خريطة الأسكندرية. وأتصور قطعة من القماش: شالا عرضه ١٠ سم وطوله ٣٠ سم[2]، يثبت على صدر وجل عند النقطتين b,e, الموضوعتين عند الركنين a,d, أكثر من ثلث

---

(١) الجغرافيا ، الكتاب ١٧ .

(٢) وعندما نستخدم مقياس الغلوة يجب أن نضيف مزيدًا من الطول للجانب الكبير، بحيث تصل ´c و ´m إلى o و n على الأرض، مثلما رأينا من قبل، وبناءً على ذلك قمت بقطع النقطتين m و c بتتبع عرض يساوى ٥٠ قامة وهنا تقريبا نجد الشكل المثلث لتقاطع الطريق الطولى الكبير ، بحيث نترك من كل جانب من جوانب الاتصال مساحة لمبنى يخص تحصين البابين n (باب نكر وبوليس) و c (باب كانوب).

المسافة كما يوجد ذلك فى معظم الأشكال القديمة: إن الركنين السفليين n',c, يمران على الذراعين ويجعلان أسفل المستطيل يستدير فى شكل كسرات حتى المرفقين f,g, ثم ينزلان حتى القدم ويشكلان الأطراف n,c,f,g, المقابلة للمشابك فى b,c, تقريبًا عند منتصف ارتفاع الجسم.

والخطوط التى تصل بين g,c, وf,n هى خطوط مستقيمة ـ وفقاً لبلينى وديودور وبلوتارخ ـ والركنين a,d, يختلطان فى ثنايا رأسية فوق الخطوط المستقيمة bnو ec.

الآن أخلع هذا الرداء عن الجسم وأفرده على خريطة ، مع جذب الطرفين cn إلى اليمين وإلى اليسار ، وبذلك نزيل الثنايا الموجودة فى fأو g دون أن يكون ضرورياً أن نفرد كثيرًا قواعد المثلثين egو gf. وأترك الأربعة المثلثات الأخرى فى الزوايا الأربع لمتوازى الأضلاع تختلط بالخطوط bnو ec و fg و gc كما كانت فى وضعها الرأسى، وستحصل على أقرب شكل للشكل الذى نعرفه للرداء المقدونى "ذى الثنيات" وللساحة القديمة فى الأسكندرية. وسترى أن هذا الرداء يلائم جيدًا مقاييس الجسم ويناسب حدود الآثار الرئيسية فى المدينة وطول المحورين اللذين قدمهما الكتاب وتقابلهما فى منتصف الشكل. وأخيرًا سترى أن النصوص التى قمت بجمعها مطابقة تمامًا[1]. وغير مفيد أن نحلل أكثر من ذلك هذه التطبيقات الأدبية.

(١١٤) هناك طرق أخرى افتراضية لإعادة الشارعين الكبيرين ، توافق لبعض الشروط ولكنها تتعارض تمامًا مع طرق أخرى أساسية ، فنستطيع مثلا أن نجعل الشارع العرضى يبدأ من النقطةV باتجاه الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى مارين بمكان خال ومحاط من اليمين واليسار بتلال من الآثار.

وهذا الشارع سيعبر أول كوبرى على القنال الكبير الذى نفترض أن العرب

---

(١) وحتى عندما نطابق ـ فى نص ديودور ـ كلمة (طريق) مع كلمة (ميدان) التى استخدمها القس تراسون، فسوف نرى بوضوح «أن الجزء السفلى من الكلاميد يتصل من جانب لآخر (c و n) بطريق (طولى) يقع فى منتصف (المدينة)».

قاموا ببنائه للحفاظ على وسيلة الاتصال القديمة والرئيسية مع الأماكن خارج مدينتهم، وأخيرًا عند طرف الشارع الغربى V ستخرج إلى أرض صلبة وفى طريق موجود قد يكون جزءًا متبقيًا من امتداده القديم عبر مدينة الموتى.

ولكننا نرى أن أول عيب لهذا الاتجاه هو أن تقع المدينة القديمة إلى الجنوب أكثر، وأن نضع خارج نطاقها فى الشمال نقطًا مهمة نعرف أنها كانت جزءًا من المدينة مثل راكوتيس وشاطئ البحر فى ميناء أونوست وبداية الهبتاستاديوم ومعبد قيصر. والعيب الثانى هو أنه ليس متوازيًا مع الخطوط الكبيرة للساحة العربية ولداخلها وقد حافظ العرب على اتجاهاتها، وهذا شرط أساسى يجب أن يتوافر أكثر من غيره. والشارع العرضى العمودى على هذا الشارع يبدأ من حاجز الأمواج فى موانى النهر ويعبر تلين كبيرين من البقايا ويسلك طريقًا مازال مستخدم اليوم ويقابل على اليسار الدير المسيحى[1] الذى بنى فى أحد جانبى هذا الشارع، وعلى اليمين يمر أمام تل من البقايا الناتجة عن المبانى المقابلة لهذا الدير. ويخرج الشارع من باب الساحة العربية وتم الحفاظ على هذا المخرج القديم من خلالها.

ولكن علاوة على العيب المشترك مع السابق (عدم الاحتفاظ بالتوازى) فإن هذا الشارع به عيب كبير وهو إنه لايقطع الاتصال الطولى الكبير فى مركزه المشترك.

والفرضية الثانية تتلخص فى امتداد هذا الشارع الأخير الكبير من نكروبوليس إلى أبعد من رأس لوكياس على شاطئ البحر بتتبع أثر تلال الآثار الممتد على هذا الجانب باتجاه نكروبوليس، وقبل أن نصل إلى هذه المدينة الصغيرة. وهذا هو أكبر طول بنى للأسكندرية القديمة فى وقت غير محدد وفى اتجاه ما مشتملا على كل تلال الآثار. ولكنه ليس طول ساحتها المحاطة بالأسوار. وهذه التلال التى تمتد حتى أطراف الخط هى بقايا إنشاءات خارجية أو أضيفت بعد ذلك. علاوة على أن هذا الخط به عيب جذرى وهو أنه لايوصل بأى أثر أو أطلال وأنه لايترك أى عرض أو أى شكل للمدينة اليونانية فى شمال

---

(١) انظر اللوحة ٨٤ ، الدولة الحديثة .

الشارع الطولى الكبير، وأنه يسقط كل الجانب الشمالى فى البحر، أو عندما نرسم من الطرف الجنوبى لهذا المحور قوسًا باتجاه الجنوب، فإن باب نكروبوليس سيدخل فى بحيرة مريوط حتى راكوتيس الكبيرة بكل ملحقاتها ستخرج خارج الأسوار القديمة. ويبدو لى أننى قد وجدت كل هذا الطول المبنى الذى نبحث عنه عندما نتتبع المحور الكبير للمدينة المحاطة بسور. وذلك بطريقة أفضل من تلك التى رأيناها.

وهى لاتترك أى وسيلة لضم شارع عمودى يبدأ من موانى النهر ويقطع الشارع السابق عند منتصف كل منهما وبه كل الشروط السائدة مثل التوازى.

وهناك ترسيم ثالث افتراضى وهو ليس إلا تعديلا فى الترسيم الذى قمت به فى خريطة الأسكندرية المعدلة سواء فى الشارعين الكبيرين أو فى الشكل الذى يتوافقان معه. إن الأمر ليس إلا مجرد أن يحرك هذا الإطار بالتوازى مع المحاور فى اتجاه الجنوب والشرق: وإلى الجنوب أكثر حتى لانخرجه من حدود تلال الآثار عند الباب الكانوبى التى تقابل الشارع الطويل فيها - بطريقة أفضل - البروز المتقدم الذى يمكن أن يكون الامتداد الذى أشار إليه ديودور الصقلى، و «إلى الشرق أكثر» حتى لايسقط فى البحر أو على الشاطئ طرف هذا الشارع الذى أسميه "شارع الجبانة». والوصلة العرضية تترك حصن كريتن على اليسار وكذلك القيصرون، وتتجه نحو برج الرومان الذى ربما قد يكون جزءًا من المبانى القديمة الملحقة «بباب القمر» .

إن خط الساحة العربية الذى يبدأ من هنا ليتوجه إلى جنوب شرقى ثم بعد ذلك إلى الشرق قد يكون قد تم بناؤه فى موقع الشارع الذى أصبح خاليًا. إن حى القصور والقلعة والبريشيون سيكون إلى الخارج من الكلاميد(١) .

والجانب الشمالى لمتوازى الأضلاع الشرقى والمختصر للمدينة العربية سيكون من الأفضل افتراض أن هذا الجانب هو الجزء الباقى من هذه القلعة القديمة.

---

(١) سوف نجد فى مكان آخر الأسباب التى أدت إلى أفتراض أن هذه الأحياء كانت خارج المدينة.

وأخيرًا قد يوجد تل من آثار المبانى للباب القديم المسمى بالشمس والتقاء القطرين سيتم بطريقة حسنة. وميناء كيبوتوس سيكون موقعه أفضل فى هذا التخطيط عن التخطيط الآخر الذى عدلته : ولكن راكوتيس- الزاوية البارزة والملحوظة فى المدينة العربية التى تحيط بهذا الحى من المدينة القديمة وهو كبير الحجم وظل موجودًا دائمًا ـ وأخيرًا أجزاء كثيرة بحرية ومهمة فى المدينة ستخرج خارج دائرة المدينة القديمة ـ أو إذا أردنا ـ لكى نحافظ عليها بداخلها ـ لننتقل أقل إلى الجنوب وعندئذٍ سنخرج من حدود الآثار خارج الباب الكانوبى.

والوصلة الكبيرة العرضية ستقع فوق مجموعات كبيرة من المنازل بدلاً من أن تتبع منخفضات الشوارع القديمة، وذلك فى اللوحتين ٣١ و ٨٤ ولقد اخترت طريقة متوسطة بين كل هذه التشكيلات وتوقفت عند تلك التى تقدم الحل لكل هذه الحالات.

(١١٥) وفقًا لكل ماذكرته عن عرض ومحيط الأسكندرية التى كانت تشغل ـ وفقًا لكينت كورس ٨٠ غلوة كمحيط و١٠ غلوات عرضًا، وكانت تشغل كل المساحة الموجودة بين البحر والبحيرة، فمن الواضح أن هذا الجانب قد اتسع منذ ذلك الوقت كما يعلن هذا كل الشواهد التاريخية والطبيعية إما بالطمى وإما بانحسار المياه فى البحيرة.

(١١٦) وفقًا لبوزيه فان كينت كورس عاش فى عهد أغسطس أو تيبريوس والبعض الآخر يقول فسباسيانوس أو فى عهد تراچان. أما بليه فإنه يظن أنه عاش فى عهد نيرون وزمن بلينى. والآن كيف يحدث أن بلينى قد حدد محيط المدينة بخمسة عشر ألف قدمًا ؟

ويكون هذا تقريبًا النصف بزيادة على حساب كينت ـ كورس الذى استنتجه من مقاييس استرابون ويوسيفوس، وهذا يمكن تفسيره بعدة افتراضات طبيعية دون إن يكون من الضرورى الإقرار بأن كينت كورس قد عاش قبل بلينى بزمن طويل، والمدينة قد شهدت فى هذا الوقت نموًا غير محتمل لاسيما وأن الأسكندرية كانت بدأت فى الانهيار فى ذلك الوقت، وأحد هذه الافتراضات أن

بلينى قد أدخل فى حساباته نمو الإنشاءات الواقعة خارج أسوار الأسكندرية بعيدًا عن الدائرة، إذ أنه يتحدث عن كل المساحة المبنية بينما لايعطى المؤرخ إلا محيط الأسوار وبطريقة تقريبية لم يأخذ فى الحساب هذه الإنشاءات.

والفرضية الثانية تتلخص فى أن نوافق على أن بلينى وهو يخفض المقاييس اليونانية إلى مقاييس رومانية - كما هو معتاد على ذلك - بواقع عدد صحيح من الغلوات التى قدمها له أو حتى فى نوع هذه المقاييس التى كانت مختلفة ومتنوعة قديمًا.

عمود دقلديانوس

(١١٧) إن العمود كأثر يتفوق على المسلات الأكبر منه لأنه يجمع بين ضخامة حجمه الذى يقترب كثيرًا من حجمها وجمال النسب والذوق البديع الذى أصبح ذوق كل الأمم.

(١١٨) إن الأجزاء المربعة فى العمود موجهة بالضبط: الشمال الغربى نحو البحر، والشمال الشرقى نحو كانوب، والجنوب الشرقى نحو البحيرة، والجنوب الغربى نحو نكروبوليس . وهذا التوجيه يساعد فى توضيح أسباب الانهيار الذى لاحظته.

وظاهرة تآكل الأحجار الصلبة هى ظاهرة خاصة بمناخ الأسكندرية الذى أظهرت شدة الرطوبة فيه عندما تحدثت عن المدينة: بيد أن هذا المناخ سائد فى كل مصر للأسباب العامة التى بينتها فى النص.

وهذا التآكل وخاصية تشبع الجو والهواء فى مصر بالماء قد لاحظها جيدًا القدامى ويفسرها هيرودوت بطريقته أو حسب رأى الكهنة فى مصر عندما يقول: «يسود فى الجو بخار مالح يأكل حتى الأهرامات». ولا نستطيع هنا - كما بالنسبة للآثار المبنية من الحجر الجيرى حيث تسهم كل التربة المالحة فى الأسكندرية فى إحداث خسائر كبيرة- أن نرجع التآكل فى الجرانيت إلى هذه الأملاح التى لا تقوى على مهاجمته ولذا فهو لا يحمل أى أثر لها. وفى التفسير الذى قدمته نجد أن جزيئات الماء الموجودة داخل التجاويف أو المسام غير المرئية

فى الكتلة المصقولة تتبخر بسرعة. وتحدث شايا صغيرة قبل الصقيع الذى يعطى حجمًا أكبر لهذه الجزيئات فى مناخنا. والفرق بين رطوبة وطراوة الليل وبين جفاف أو حرارة النهار هى سبب التأثير الذى ينسبه بعض الأشخاص عندنا إلى فعل أشعة القمر الضعيفة على الرخام. والتدهور الظاهر على واجهتى المسلة الواقفة على طول ارتفاعها الذى يبلغ أكثر من ٥ أمتار، وعلى الجوانب المقابلة بدلا من أن يتعارض مع التفسير الذى قدمته فإنه يؤكده.

أولا لأن التغير العام بسبب المناخ ينتشر فى الجزء الأسفل لها، ثم لأن المسلة تقع على شاطئ البحر بينما العمود بعيد عنه بقدر كاف ، ولأن هواء البحر ينقل على هذين الوجهين للمسلة كمية من الماء أكثر من تلك التى تأتى من تكثيف بخار الماء فى الأرض. فنرى أن فعل الرياح أو رمال الصحراء _ إذا أخذ منفصلا _ لايحدث هذه الظاهرة اللافتة التى اعتقدت أنه من المهم بيان أسبابها.

ولا نستطيع أن نفترض أن ميل العمود هو الذى سبب الكسرين الكبيرين العالى والمنخفض فى أسطوانة العمود. ونستطيع أن نتصور كيف أن هذا الأخير الذى يدور حول القاعدة حتى الشمال الغربى ، وهو الجانب الذى يميل نحوه العمود يمكن أن يستكمل من هذا الجانب ويكبر أو حتى يتكون فى البداية بفعل ضغط الأجزاء الواقعة على طول الخط الرأسى للغرب. ولكن كيف ننسب بنفس الطريقة إلى هذا الميل انفصال القشرة المنزوعة فى الجزء العلوى لإسطوانة العمود والتدمير الطولى فى نفس الجانب؟ ونستطيع أن (نقر على العكس) أن الكسور هى التى ساعدت على ميل الأثر نحو الغرب وذلك باختلاف الوزن الناتج على الجوانب المقابلة.

والكسر العلوى يرجع فى ظنى إلى حادث يمكن أن يكون قد وقع خلال نقل أو رفع هذا الأثر أو إلى عيب فى هذا الجزء من الكتلة.

(١١٩) حجر الزاوية المسجل عليه نقوش هيروغليفية يبدو وكأنه نوع من الحجر الجيرى يسمى أحيانًا ألبستر. ونرى بعض التماثيل الضخمة المصنوعة من مادة شبيهة بآثار الكرنك.

(١٢٠) سنرى من المادة القيمة ومن طريقة صناعة التابوت فى كنيسة سان أثاناس وتشبه إلى حد كبير الأحجار التى تدعم العمود كيف أن مسلة كاملة من هذا النوع كان من النادر العثور عليها فى المحاجر وصعب استخراجها.

(١٢١) دليل آخر على أن المسلة لم ترفع بعد أن سقطت فى الزمن الحديث، وأن الأتراك كانوا يستخدمونها أو على الأقل يعتنون بها للحفاظ عليها هو هذه الإصلاحات التى قاموا بها فى الأساسات.

وقد جدد الفرنسيون هذه الإصلاحات بغلق كل الفتحات وبعمل قاعدة منتظمة للاحتفال بالعيد القومى الذى جاء بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من وصولهم. وسنرى أن العمود يمكن أن يكون قد تحطم فى الأزمنة القديمة، ثم أعيد رفعه تكريمًا لدقلديانوس بعد أن كان مكرسًا فى البداية لسبتيموس - سيفيروس[1]، وهذا سيفسر كيف حدث الكسر العلوى الكبير: ولكن نظام البناء المشابه لنظام القيصرون - والذى أظهرت أنه قديم - سيحتفظ هو أيضًا بصفته القديمة.

(١٢٢) تحدث بلينى عن مسلات القيصرون. إذًا فكيف يكون قد نسى أن يذكر العمود - كشىء غريب - فى الفصل الذى خصصه للأعمال الكبيرة من الجرانيت ؟ .

(١٢٣) أعتقد أن شاتوبريان وهو أول رحالة أحضر معه النقوش إلى فرنسا. والفضل فى ذلك يرجع إلى بعض الضباط الإنجليز الذين أخذوا نسخًا لها على الجص. والكاتب الشهير استطاع أن يقرأ بالعين المجردة كلمة ÏOK وهى حاسمة بالنسبة للشخص الذى أهدى له. فيما يلى معنى النقوش بعد إصلاحها وترجمتها بمعرفة شاتوبريان: «إلى الإمبراطور الحكيم ، حامى الأسكندرية دقلديانوس أغسطس .. والى مصر».

---

(١) فى عهد سيفيروس كان الفن يتمتع بدرجة عالية من الذوق لا تتناسب وخشونة الأجزاء المضافة إلى بدن العمود وينطبق القول على التاج غير المتناسق والقاعدة.

ومن المحتمل أكثر أن نعتقد أن الوالى - وهو رجل الإمبراطور - قد أخذ على نفسه أن يهدى هذا الأثر إلى دقلديانوس (وهذا شىء سهل يمكن عمله برسومات بسيطة) بدلا من أن ننسب إقامة هذا الأثر إلى شعور سكان الأسكندرية بالجميل وبالحب لهذا الأمير وعلى العكس لقد سنحت له الفرصة لاستخدام القسوة معهم. ولكى يدمر منشآت المدعو أخيليس وكان رجلا قويًا فى المدينة ويريد أن يكون متحررًا - فقام دقلديانوس بحصار مدينة الأسكندرية ودمر بعد ذلك بوزيريس وكويتوس(*)، وقد قام بعمليات انتقام واسعة وإصلاحات كبيرة وصارمة فى إدارة البلاد. والاضطهاد الذى ينسب لاسمه امتد إلى الأقباط أو المصريين أصحاب البلد الذين تحولوا إلى المسيحية فى هذه المدينة الأخيرة. غير أنه كان أول من وزع الحبوب على شعب الأسكندرية.

وسلوك سبتيموس سيفيروس تجاه شعب الأسكندرية يجعل من المعقول أكثر أنهم أقاموا هذا الأثر عرفانا منهم بفضله وتخليدًا لذكراه. ويقول سبارسان «إن الإمبراطور سيفيروس توجه إلى الأسكندرية ومنح سكانها مجلس شيوخ ، وكانوا حتى هذه اللحظة خاضعين لسيطرة الحاكم الرومانى، ولم يكن عندهم مجلس قومى مثل أيام البطالمة حيث كانت إرادة الحاكم هى التى تحكمهم. ولم تقتصر محاسن سيفيروس عند هذا الحد بل إنه عمل على تغيير قوانين كثيرة لصالح الشعب» وسنرى فى موضوع «سوما» أعمالا طيبة أخرى لنفس الإمبراطور تجاه شعب الأسكندرية.

وأخيرًا: إذا كان العمود قد صنع وأقيم خصيصًا لدقلديانوس ، فلماذا لم يتم الإشارة لهذا العمل الكبير فى النقوش واكتفى بذكر اسماء الإمبراطور والوالى ؟ على أية حال إن هذا التسجيل مدون على قاعدة العمود مرتفعة الأبعاد والمنحوتة من جرانيت لونه مختلف عن لون إسطوانة العمود ولم يتم صقلها. ويصبح من المحتمل جدًا أنه تم استبدال القاعدة التى حفر عليها سكان الأسكندرية الإهداء تكريمًا لسبتيموس سيفيروس. والحملة التى استغرقت ٣ سنوات و هى التى قام

(*) ابوصير بنا جنوب سمنود وقفط. (المراجع) .

بها هذا الإمبراطور فى الشرق وفى مصر ترجع إلى سنة ٢٠٠. وتوجه سيفيروس الإسكندر كذلك إلى الشرق فى سنة ٢٣٤ ولكن لايبدو أنه دخل مصر. ويرجع تاريخ حصار دقلديانوس للأسكندرية إلى سنة ٢٩٨ .

(١٢٤) إن أعلى التاج فى عمود الأسكندرية يحمل تجويفًا استخدم فى وضع التمثال. وهو دائرى الشكل ويبلغ قطره ٦ أقدام ٣ بوصات وعمقه بوصتان فقط. ويبدو أن هذا التمثال كان مصنوعًا من الرخام السماقى. وقد وجد الكونت شوازول جوفى فى أسفل العمود قطعة من التمثال توجد الآن فى باريس.

(١٢٥) يبلغ قطر أضخم الأعمدة التى شاهدناها فى الكرنك فى طيبة ١١ قدمًا، وهى منحوتة من الحجر الرملى وليس من الجرانيت، علاوة على ذلك فإنها مبنية بأحجار أسطوانية قليلة الارتفاع مقارنة بارتفاع عمود دقلديانوس. وثلاث الأسطوانات الجميلة (فى العمود) التى مازالت قائمة بالقرب من كنيسة القديس سان أثاناس فى المدينة العربية بالأسكندرية ، لاتقترب من ضخامة هذا العمود و هى مدفونة تحت الأرض بحيث لايمكننا التكهن بها .

وأخيرًا إن أكوام القطع التى ذكرتها فى الوصف سابقًا لا تشكل قطرًا أكبر من هذه الثلاثة الأخيرة.

ولا شىء يؤكد أن هذه الأكوام ـ بالرغم من قربها من عمود الأسكندرية ـ قد أتت من تحطيمه أو من أى مبنى كان ملحقاً به.

(١٢٦) بالرغم من أننى رأيت آثارًا مصرية قديمة استخدم فيها حشو من الأحجار مصدرها تهدم آثار أقدم منها ومغطاة بنقوش هيروغليفية على أحد الوصلات المستترة فإن استخدام جزء من مسلة مصنوعة من هذه المادة الجميلة فى استعمال غير واضح يدعونى إلى الاعتقاد بأن الأسكندرية ـ التى نقلت إليها المسلة للاستخدام الجمالى فقط ـ كانت قد أصابها نوع من التدهور وقت بناء هذه القاعدة الغربية، وكان لايمكن أن يوضع العمود بمفرده فى بناء ثانوى حتى لو بنى على هضبة التل الحالى ولايستطيع أن يغطيه باندماجه معه . وأن يكون العمود محاطًا فقط حتى ارتفاع معين بهذا المبنى كالسور ويوجد بهذا الشكل فى

فناء ضيق يضر كثيرًا بالأثر الذى تتركه للعين. وكان العمود منعزلاً وموجودًا فى ميدان أو مكان مكشوف ومهمل. وأيًا كان مصدر ووجهة هذا الأثر فقد كان على وشك أن ينصرف عنه بطريقة غريبة نوعًا ما فى نهاية الحملة الفرنسية على مصر.

وأدخل فى النظام الدفاعى لميدان الأسكندرية المحاصرة بالإنجليز بناء حصن فوق الارتفاع الذى يرتكز عليه العمود، يسيطر على المساحة بين البحر وبحيرة مريوط تمامًا كما فعلوا بالحصن المسمى حصن كليوباترا بالقرب من المسلات. وهكذا فإن أجمل أثرين فى الأسكندرية - وكان يمكن أن نقترح نقلهما يومًا إلى فرنسا - كادا أن يلاقيا نفس التدمير الذى سببته الحرب. وبهذه الطريقة تعرضت معظم الآثار الأخرى للدمار كلما كانوا يستخدمون فى مشاريع إنشائية جديدة.

وكل ماذكرته حول نقل المسلات سواء من محاجر أسوان عن طريق النيل أو من مصر إلى أوروبا عن طريق البحر كل ذلك ينطبق على عمود الأسكندرية الذى كان مصدره نفس مصدر هذه الآثار وكان له نفس حجمها. والجزء الخاص بآثار المدينة القديمة - حيث نتواجد - هو جزء غير مأهول ويتعرض لغارات الأعراب المجاورين. وعندما ذهبنا لزيارة العمود فى أول أيام وصولنا إلى الأسكندرية وجدنا أسفل الأثر جثة أحد جنود مدفعية البحرية ساقه الفضول إلى هذا المكان وسقط قتيلا برصاص بنادق هؤلاء الأعراب.

الملعب المهجور منذ زمن

(١٢٧) يوجد هنا الملعب خارج المدينة وسورها التى تشبه الكلاميد المقدونى ولكنى اعتقدت إننى يجب أن أتحدث عنه هنا (الجزء الأول المبحث الثانى) لأنه كان قريبًا جدًا من هذه الساحة التى لم يعثر عليها بطريقة أكيدة. وكان يجب أن يوصف هذا الأثر فى المبحث الثانى: ضواحى المدينة.

(١٢٨) كانت الحلبة مزينة بالأعمدة مثل التماثيل هنا والمسلات المصرية فى روما التى نقلت إليها خصيصًا كما سبق أن رأينا عندما تحدثنا عن المسلات. وفى غالبية الملاعب الكبيرة والحلبات كان يجب أن تكون النصب التى توضع فى الطرفين إنشاءات قوية جدًا ومكونة من عدة أجزاء. ولكننا نشعر أنه بالنسبة

لسباق الجرى أو التمارين الأخرى كانت هذه الكتل المبنية غير ضرورية ويمكن الاكتفاء بأعمدة بسيطة. وتبين هذه الملاحظة أن المكان الذى نفحصه والذى ترتفع الحلبة فيه مسافة قليلة عن الأرض لم يكن يستخدم فى سباق العربات أو الخيل. ففى الملاعب الحقيقية مثل ملعب كاركالا فى روما كانت الحلبة مرتفعة جدًا حتى لاتصطدم العربات بالتماثيل والأبراج التى تزينها.

(١٢٩) كل الأماكن المخصصة للألعاب كان بها - بالإضافة إلى الحلبة والنصب الموضوعة فى طرفيها - حاجز لم يكن أحيانًا سوى حبل مشدود أمام صفوف المتنافسين وكان يلقى على الأرض عند إعطاء أول إشارة. وكان حكام اللعبة يجلسون فى أحد جوانب الملعب، بحيث يتوقف دائمًا أمامهم المتسابقون عند انتهاء السباق.

ويلاحظ أيضًا أن مقدمة القاعة الصغيرة التى نراها تقع على نفس الخط مع الحد الداخلى للحلبة وللقاعدة كما كان يجب أن تكون منصة الفائز.

(١٣٠) إن حلبة القسطنطينية التى بدأ فى بنائها سيفيروس وأتمها قسطنطين ومازال مكانها موجودًا حتى الآن يبلغ عرضها ١٢٠ قدمًا وطولها ٥٠٠ قدم. والملعب الكبير فى روما يبلغ عرضه طبقًا لبلينى ٤ جوجير أو ٥٧ قامة و٧ بالمائة من القامة وطوله ٣ غلوات ونصف أو ٣٣٢ قامة و٥٠ بالمائة من القامة بالنظر إلى الملاعب الإوليمبية. وملعب تاركان كان يبلغ طوله ٣ غلوات ونصف وعرضه ٤ جوجير. ومن أسوار ملعب كاركالا نعرف أن طوله بلغ ١٥٢٤ قدمًا وعرضه ٣٩٥ وفقًا لفازى. ويضيف كاتب «رحلة روما» : «لقد كان بالتأكيد أحد الملاعب الفقيرة». وقد تأكدت أن هذا المقياس الأخير يفوق قليلا ٤ جوجير. وطول حلبة أثينا بلغ ٤ غلوات وفقًا لبلوتارخ وبلغ عرضه غلوة وفقًا لسوفوكليس.

ودولا بار[1] يرى أن عرض حلبة الأوليمبى بلغت غلوة وهذا أكثر من النصف بمقياس ٤ جوجير. وحقيقى أن باربيه دو بوكاج فى كتابه عن طبوغرافية

---

(١) مذكرات أكاديمية النصوص والآداب .

الأوليمب وإسبارطة يقلل من عرض الحلبات فى هاتين المدينتين إلى نصف غلوة، ولكن هذا يقرب من ضعف حلبة الأسكندرية.

(١٣١) إن ملعب دوميسيان فى روما الذى يذكره سويتون ـ والذى تسابقت فيه العذارى تلبية لرغبة هذا الإمبراطور ـ كان طبقًا لعلماء الآثار الرومان ممرًا كبيرًا تحوطه الأسوار وكان يستخدم فى سباق الجرى. ولذلك كانت مساحته ضيقة وطويلة.

(١٣٢) نستطيع بالفعل أن نقسم الساحات التى كانت تستخدم قديمًا فى الألعاب العامة ـ وبصفة خاصة عند الإغريق ـ إلى قسمين مختلفين، الأول وهو مخصص لسباق الجرى والألعاب الأخرى التى ذكرتها . والآخر لسباق الخيل والعربات والنبال وللمسابقات البحرية. وهذه الملاعب الأخيرة أو الحلبات الكبيرة المسماة «hippodromes» أى مضمارالخيل فى اليونان وتستخدم فقط فى سباق الخيل أطلق عليها الرومان اسم «Circus» أى ساحة الألعاب، أما بسبب شكل المبنى الذى كان دائريًا ومحاطًا من كل جانب مثل مسرحين مندمجين من قطرهما، وإما لأن الخيل والعربات كانت تسير حول النصب. وعند الشعب الرومانى كانت تستخدم الحلبات فى معارك المصارعين والوحوش المفترسة وكذلك للصيد والتدريبات التى تستلزم مساحة كبيرة. وحتى مسرح مارسيلاس كان يستخدم فى معارك المصارعين ولكنه كان مكانًا فسيحًا فى ذات الوقت. ولم يكن عند الرومان مكانًا خاصًا ـ مثل ملعب الإغريق ـ لسباق الجرى والملاكمة والألعاب الأخرى المماثلة ، وكانوا يؤدون هذه الأنشطة فى ملاعبهم.

وقد ثبت أيضًا أن الأثر الذى نفحصه كان ملعبًا إغريقيًا منذ أسسه الإسكندر أو البطالمة وقبل أن يدخل الرومان هذا الاستخدام إلى المدينة.

(١٣٣) كيف يتم التمسك بنمط واحد للحلبات فى دول وأزمنة اختلف فيها الاستخدام؟ ألم تختلف الأنشطة فى نفس المكان ؟ ألم تكن عدد مرات الدوران تختلف فى نفس السباق ؟ ألم يكن هناك سباق الجرى لمسافة الملعب مرتين وسباق hippicon أو أربع مرات وفقًا لبلوتارخ، والسباق الطويل الذى يبلغ ٦ مرات دوران ؟

ـ إن كلمـة diaule التى أطلقت على السباق ، ألم تنطبق أيضًا على مكان هذا السباق فى الحلبات؟ وفى روما ألم يكونوا يقومون بسبع دورات للفوز بالجائزة ؟ وفى ملاعب الإغريق ألم يؤدوا نفس عدد المرات أو حتى ١٢ مرة ؟

(١٣٤) من المفيد هنا أن نذكر الجملة الكاملة لاسترابون: «من خلال قناة سرابيوم والأماكن المقدسة الأخرى القديمة التى كانت تحيط بالمعبد ودُمرت تمامًا، بالقرب من المعابد التى أُنشئت فى نيكوبوليس».

فى هذا النص نرى المعنى الذى أعطيته لكلمه ibi (فى نيكوبوليس)، ولكن إذا أردنا أن نفترض أنها تنطبق على الجزء الغربى والداخلى للمدينة الذى يصفه استرابون فى هذا النص، وإذا زعمنا أنه ليس من المعقول أن يضع فى الوصف الذى يقوم به للملعب ولمدرج نيكوبوليس ـ وهى المدينة التى يدرسها بعد ذلك ـ فإن هذا المعنى يبقى : «إن ألعاب الملعب والمدرج تقام هنا» .

وسيكون هذا الملعب الذى ذكره استرابون هو الذى عثرنا عليه: وفى هذه الحالة فإنه من الضرورى أن يكون هناك مدرج داخل المدينة القديمة، بيد أننا لم نعثر له على أثر. وليس من المحتمل أن الإغريق الذين لم يمارسوا هذه الألعاب الهمجية التى اخترعها الرومان قد بنوا مدرجًا داخل مدينتهم: ومن المنطقى أكثر أن الرومان هم الذين بنوه. وملعبنا الإغريقى القديم لم يكن كافيًا لهم ولذلك أدركه القدم فى هذه الفترة كما يخبرنا بذلك استرابون.

آثار المدينة العربية وأبوابها

(١٣٥) لكى نوفق هنا بين الترتيب الزمنى للإنشاءات والمسيرة الجغرافية التى تقودنا إلى آثارها، ولكى نبين مافعله العرب بالمدينة الإغريقية سيكون من الأفضل لا نصف الآثار التى توجد فى المدينة العربية إلا بعد أن نفرغ من وصف المدينة والتعرف عليها جيدًا. ولكن ضيق الوقت لايسمح لى بعمل التغيرات التى يستلزمها هذا الإجراء فى عملى ، وقد حاولت أن أتجنب أى غموض ينتج عن عدم وجود هذا التحسين الطفيف فى توزيع أجزاء هذا البحث.

(١٣٦) السلالم التى تصل الأدوار بعضها ببعض فى أبراج المدينة العربية الكبيرة تكون عادة لولبية. ونلاحظ بصفة عامة عندما نزور هذه الأبراج ـ سواء فى التوزيع بالداخل ـ أو فى الوصلات بين القباب المختلفة ـ نوعًا من الانتظام يمكن أن ينم عن بعض المعرفة لدى البنائين فى علم البناء .

وإدخال المواد الصلبة تم بطريقة راسخة وما تبقى من هذه القباب ـ مازال منتظمًا ـ ليدل على القاعدة التى بموجبها تم بناؤها. وهى عادة قباب على شكل حلقات وقباب مقوسة وبصفة خاصة أجزاء من قباب نصف دائرية تخترقها أسطوانات أفقية قطرها يساوى٩٠ درجة للدائرة المشكلة للقبة الدائرية.

ولا نجد نفس الفن ولانفس المعرفة فى البناء. وكل هذه القباب بصفة عامة غير متجانسة ومكونة من مواد متنافرة.

(١٣٧) إن استخدام العرب للخشب فى أجزاء البناء الأساسية وبالرغم من عيوب هذه الطريقة فإنها مازالت مستخدمة حتى الآن عند الأتراك ومن الصعب شرح أسبابها. والإتراك يستخدمون ألواحًا كاملة من خشب التنوب (*) توضع أفقيًا فى جدرانهم.

(١٣٨) إن استخدام أعمدة أفقية فى جدران التحصينات لايثبت أنها حديثة، خاصة إذا كان الإغريق قد استخدموها ـ كما يعتقد البعض ـ ليس فقط بنية عمل وصلات وربط بين الجدران السميكة جدًا وعمل مصاطب مستوية بل أيضًا بنية تقسيم هذه الجدران إلى أجزاء كفيلة بالسقوط منفصلة دون أن تسقط بقية الأجزاء عندما تتعرض هذه الجدران للهجوم وفتح ثغرات بها والانهيار.

وأضخم برجين يقعان فى هذا الحصن المربع الذى جاء ذكره فى النص حيث يوجد الباب المسمى باب البحر. والبرج الأمامى فى الشمال كان يستخدم قديمًا للجمارك وهو مملوك فى الأونة الأخيرة للأغا. أما البرج الآخر فهو مهجور وبه ثلاثة طوابق وخزانات سفلية. وتصل إليه إحدى القناطر العرضية القديمة التى

(*) جنس شجر من فصيلة الصنوبريات . (المراجع) .

سبق الإشارة اليها. و وجود الخزانات يؤكد قدم هذا الجزء من المدينة وأبراجه. ويوجد أيضًا فى أحد الأبراج المستديرة ذات الطابقين بئر مهجورة، وأهل البلد يزعمون أنه يوجد آبار فى الأبراج الأخرى.

(١٣٩) وعلاوة على الأبواب الثابتة للمدينة العربية فهناك أيضًا بعض الفتحات فى الجدران تستخدم للمرور مثل التى تخترق الحدائق فى طرف الساحة. (لوحة ٨٤).

(١٤٠) لم يهتم الأتراك باستخدام العربات لراحتهم على الأقل فى المدينة وفى الأعمال الكبيرة، وحسب شكل أعتاب الأبواب يبدو أن العرب وهم يحترمون التقاليد العربية القديمة لم يكونوا يستخدمون العربات ولم يستعملوا إلا الدواب كما يفعلون الآن وكما فعل آباؤهم. وينبغى أن نلاحظ هنا هذه البلادة المتأصلة لأن المصريين قد أمكنهم فى كل الأوقات أن يعرفوا المزايا التى يجنيها جيرانهم من العربات، بل إننا نجد عربات منقوشة على جدران قصر الكرنك. والإغريق الذين عاشوا فى الأسكندرية كانوا يستخدمونها بالتأكيد: فهذا يشكل استخدامًا ضيعه العرب على هذا البلد.

وقد تهشم مصراعا باب رشيد بفعل القوات الفرنسية عندما اقتحمت المدينة العربية. وتحصيناتها منحت الأتراك الوسيلة لمقاومتهم، وعندما زرتها رأيت كل أهوال الحرب فيها. وعندما نقترب من الباب وكذلك بالقرب من باب سدر نجد بعض المنازل الحديثة التى تشكل مايشبه القرية.

والمنازل الأولى حديثة نوعًا ما وبها ـ حسب العادة التركية ـ نوافذ الطابق العلوى فوق حوائط الطابق الأرضى. وخارج هذا الحى توجد التلال الرملية التى عسكرت فوقها هذه القوات خلال الشتاء الأول.

(١٤١) قلت إن العرب قاموا بالحفاظ على المدينة الإغريقية وأعنى بهذا الجزء الذى يمكن أن يظل موجودًا وأعيد بناؤه من جديد من قبل الرومان أو الإغريق، لأن أسوار الأسكندرية تهدمت وسقطت فى عهد أورليان (فى الربع الثالث من القرن الثالث) كما يشهد بذلك مارسلان.

(١٤٢) إن حــصــار الأسكندرية فى حــوالى سنة ٦٤٠ ، كلف عــمــرو ثلاثة وعشرين ألف رجل ـ حسب المؤلفين العرب ـ ولم يتحرك هرقل ليرسل سفينة واحدة من بيزنطة لتحمل النجدة ، وجزءًا كبيرًا من شباب الأسكندرية لقى حتفه ببسالة فى هذه المعارك .

وبعد مقر الإمبراطورية الجديدة ـ الموجود فى بغداد ـ لم يسمح أبدًا للخلفاء الأمويين أو العباسيين بتشجيع الفنون والتجارة فى الأسكندرية.

ويقول دانفيل (فى صفحة ٦٣ من مذكراته) إن عمرو دمر الأسكندرية، ولكنى لم أعثرعلى شىء يؤكد هذا الادعاء الذى لايبدو لى أن قائله صرح به بطريقة إيجابية.

والسلطان طولون هو أحد حكام مصر الثائرين الذى ذكرته فى النبذة التاريخية وكان هؤلاء الحكام يفكرون فى الحصول على الاستقلال فى عهد الخليفة العباسى العاشر والتاسع والثلاثين من خلفاء محمد. وهو ذائع الصيت فى تاريخ الأسكندرية والقاهرة وترك مسجدًا جميلاً فى القاهرة.

والإصلاحات الكبيرة التى تمت منذ ولايته فى حصون الأسكندرية جعلت بعض الرحالة المحدثين ينسبون انهيار الأسوار القديمة وبناء الأسوار الجديدة إلى خلفاء صلاح الدين أى نحو سنة ١٢١٢. ولكن هذا سيزيد كثيرًا فترة بقاء المدينة الإغريقية ويتعارض مع شهادة المكين الدقيقة دون وجود أدلة على العكس.

(١٤٣) إن محيط المدينة العربية الذى تم قياسه فى اللوحة ٨٤ يبلغ حوالى ٤٣٠٠ قامة أى أكثر قليلا من فرسخين. ونستطيع أن نقارنها بمدينة الأسكندرية الإغريقية التى بلغت ١١٣٤٠ قامة والتى ذكرت فى النص السابق، كما يمكن مقارنتها بمدينة فرنسية شهيرة بوردو مثلا ولها بعض الصلات القريبة معها .

ومحيط الجزء المقام عليه المنازل فى بوردو كان ـ قبل الثورة ـ حوالى ٥٥٠٠ قامة ونستطيع إن نقارن بين اتساع المدينة العربية وبين القاهرة التى يبلغ محيطها ما يقرب من ٢٤,٠٠٠ مترًا أو ١٢,٠٠٠ قامة.

وستفيدنا فى تقويم سكان المدينة الأولى بطريقة عرضية بسبب وجه الشبه الذى كان موجودًا بين عادات السكان المسلمين فى كل من الأسكندرية والقاهرة مثل عادة أن يتكون منزلهم من طابق أو طابقين ولا تسكن فيه إلا أسرة واحدة.

ومساحة المدينة العربية ـ المقاسة فى اللوحة ٨٤ ـ تبلغ سبع أو ثمانمائة ألف قامة. ونستطيع أيضًا أن نقارنها بمساحة المدن المذكورة فى النص السابق. وسنرى ـ كما ذكرت فى النص الرئيسى ـ أن هذه المساحة أقل من نصف مساحة المدينة الإغريقية. وسنعرف كذلك أنها تقل عن مساحة بوردو التى أقدرها بحوالى ١٣٠٤٥٠٠ قامة ويبلغ تعداد سكانها قبل سنة ١٧٨٩ مايقرب من مائة ألف نسمة ، ولكن مما ذكرته عن الشبه فى العادات بين القاهرة والأسكندرية العربية فإنه من الأنسب أن نقارن المدينة الثانية بالمدينة الأولى لكى نكون فكرة كافية عما كانت عليه فى الماضى ومصير المدينة القديمة . ومساحة القاهرة[١] تبلغ ٢٠٨٨٥٤٠ قامة مربعة (٧٩٣,٠٤ هكتارًا = ٢٣٢٠,٦ فدانا)، وسكانها يبلغ عددهم ٢٥٠,٠٠٠ نسمة تقريبًا.

وهذا سيعطى بالقياس ٩٠,٠٠٠ نسمة فى المدينة العربية وسيظهر كيف أن الأسكندرية الإغريقية تقلصت فى عدد السكان وفى الازدهار أثناء وجودها تحت الحكم الإسلامى.

(١٤٤) إن مدينة العرب كانت مزدهرة فى القرن الثالث عشر طبقًا لأبى الفدا. وكانت شوارعها مصطفة كرقعة الشطرنج وهذا الشكل كان من الصعب التفريط فيه نظرًا لأنه الجزء المتبقى من التوزيع الداخلى للمدينة الإغريقية التى لم تهدم، ويعاد بناء منازلها المأهولة دفعة واحدة.

وقد احتفظت المدينة بجزء من مبانيها الداخلية الكبيرة وظلت تبدأ بعيدًا عند البحرين وحتى أيضًا من عند البحيرة فى أوقات الفيضان. ولقد ذكرت سابقًا

---

(١) انظر وصف القاهرة (الجزء العاشر من الترجمة العربية) .

ماكان موجودًا آنذاك من فنار الأسكندرية الشهير: والفتح التركى زاد من انهيار المدينة القديمة واتجه كل السكان إلى المدينة الحديثة.

(١٤٥) إن المدينة العربية يمكن إن تستخدم للدفاع فى بعض الحالات وتسهم بالفعل فى وقف أعمال الشغب التى يقوم بها الأعراب. وبالرغم من الإجراءات التى اتخذها المماليك وبالرغم من مقاومة قواتهم فإن حفنة من الفرنسيين الذين وصلوا حديثًا بدون مدفعية وبدون ذخيرة استطاعوا أن يتسلقوا الأسوار ويحتلوا المدينة فى وقت قصير. وقد واجهوا هجماتهم الأساسية على الجبهة التى تمتد أمامنا وجرح الجنرال مينو والقائد الشهير كليبر. وأثناء الحصار الذى فرضه بقية من هؤلاء الفرنسيين فى نهاية الحملة استغلوا جزءًا من المدينة والفنار والحصن المثلث لكى يشكلوا خطًا دفاعيًا مزودًا بتحصينات اقتطعت فى تلال الآثار. ولكن الآثار التى تحيط بهذه التحصينات جعلت الاقتراب منها سهلا ولاتسمح لها بمقاومة هجوم منتظم لعدة أيام.

وبعض الإنشاءات الفرنسية وبعض أجزاء من الجدران القديمة التى تم إصلاحها قد حافظ عليها الأتراك ويمكن ببعض الأعمال الإضافية أن تكتسب أهمية خاصة. ولكنها ستنهار من جديد بسبب إهمال الحكومة ولاينظر إليها كأعمال محترمة إلا من السكان وقوات البلد التى لاتعى الفن العسكرى.

(١٤٦) يزرع فى حدائق الأسكندرية العربية - بسبب كثرة العمل والرى - إلى جانب الخضروات، النخيل، والحنة، وأشجار الليمون وأشجار البرتقال والتين والتوت والمشمش والبرقوق والرمان.

ولكن الأنواع الثلاثة الأخيرة نادرة نوعًا ما.

(١٤٧) من الممكن - فيما يبدو لى - أن البقايا الكبيرة للشقافات التى نجدها فى أرض الأسكندرية كلها مصدرها تكسير الأوانى الفخارية التى تستخدم فى نقل مياه الخليج إلى الصهاريج كل عام.

الكنيسة القديمة المسماة السبعينية أو جامع الألف عمود

(١٤٨) إن استخدام كلمة كنيسة عند الكلام عن هذا المبنى يستلزم تفسيرًا. أطلق الرومان هذا الاسم على مبانى جميلة (منزل ملكى) بنيت بجوار الأسواق وكان القضاة يقيمون العدل بها عندما كان الجو السيىء لايسمح لهم بالجلوس فى الهواء الطلق. والمبانى الأولى التى خصصها قسطنطين والأباطرة الرومان خلفاؤه للديانة المسيحية كانت من هذا النوع أو على الأقل كانت تحمل اسم بازاليك، وهو الاسم الذى احتفظ به الرومان المحدثون وأطلقوه على الكنائس القديمة، وتلك التى بنيت فوقها كما نشاهد ذلك فى كنيسة القديس بطرس فى روما، أن اسم بازاليك أو مبنى ملكى يناسب هذا المكان الذى استقبل ملوك مصر من أسر كثيرة كما كان من المعتاد فى ذلك الوقت بمعنى إن هذا المبنى خصص لبطليموس فيلادلفوس أثناء اجتماعات الـ ٧٢ عالمًا يهوديًا. ثم خصص للأباطرة الرومان ساحات القضاء ثم الأباطرة الإغريق فى احتفالات وطقوس الديانة المسيحية وأخيرًا للخلفاء فى الديانة الإسلامية.

(١٤٩) تؤكد بعض التقاليد قدم جامع الألف عمود وتدعو للاعتقاد بأنه بنى فوق أحد الكنائس التابعة للكنيسة الأولى. لأنهم يزعمون أنه كانت هناك كنيسة للقديس مرقس حيث استقر بها بطريرك الأسكندرية وأن هذا الرجل استشهد بها.

(١٥٠) يوجد عادة بداخل المساجد الحديثة جانب مخصص لطقوس الصلاة والخطبة وقراءة القرآن. ويتكون من مجموعة صحون متلاصقة وبها عدة صفوف من الأعمدة. وهذا الجانب أكثر اتساعًا من الجوانب الأخرى التى لا تستخدم إلا كممرات وبها عادة صف واحد من الأعمدة.

(١٥١) إن تلال الآثار - الأول بجوار باب المقابر والثانى أمام الكنيسة السبعينية يجب أن تكون - وكذلك هذا الجامع - بعض هذه المعابد المهملة التى ذكرها استرابون.

الصهاريج القديمة

(١٥٢) إن الفتحات العليا فى الصهاريج الرئيسية فى المدينة العربية كثيرًا ماتكون مستطيلة وعرضها بسيط ، وذلك لوضع العجلات التى ترفع بواسطتها المياه وتنقل بعد ذلك إلى المدينة الحديثة فى قربة أو على ظهر الجمال. وبنفس الطريقة تملأ الصهاريج الصغيرة أو الخزانات فى منازل هذه المدينة وذلك بجلب المياه مباشرة من قنال الأسكندرية فى وقت فيضان النيل.

(١٥٣) لقد ترجمت كلمة fons التى أوردها هيرتيوس بكلمة نبع عندما قال إن الأسكندرية لم يكن بها أبدًا أى نبع: لأنه ليس من الممكن ألا يوجد فى مدينة متحضرة مثل الأسكندرية أى نافورة صناعية أو بئر عامة لمياه النيل التى تصل محملة بالطين حيث إنه موجود اليوم فى عهد الحكومة التركية فى الأسكندرية الحديثة. ونشاهد فى لوحة ٣٦ شكل ٩ الآبار التى حفروها فى المدينة العربية.

(١٥٤) عندما يكتشف صهريج قديم ومهمل فى الحفائر التى تُجرى من وقت لآخر فإذا كان قريبًا من المدينة الحديثة فإنه يخصص للاحتياجات العامة أما إذا كان بعيدًا عنها فإنه يفيد فى إنشاء حديقة.

(١٥٥) يقوم الأتراك بتنظيف الصهاريج التى احتفظوا بها من وقت لآخر، ولكنهم لايحسنون هذا العمل ولايقومون به كثيرًا. ولذلك فالمياه تكون لهذا السبب غير صالحة وكذلك بسبب الأملاح، التى تحدثنا عنها وتتكاثر فى المياه فى نهاية الفصل كميات من الحشرات. أما مياه الصهاريج المعتنى بها - مثل صهاريج دير اليونانيين. فإنها دائمًا ممتازة.

(١٥٦) هل صهاريج المدينة العربية قديمة أم عربية ؟

فى انتظار فحص دقيق لمبنى الصهاريج والمواد المستخدمة فيه ليقدم لنا الإجابة ويبين ذلك نستطيع أن نقول ـ وهذا سيقوى الأدلة التى استخلصت من فحص الأشياء ـ إن مختلف الغزاة الفاتحين الذين تعاقبوا على الأسكندرية كانت لهم مصلحة كبيرة فى تكوين منشأة تجارية أو فى الاحتفاظ بالتى كانت موجودة بالفعل فاهتموا أيضًا بتوفير الأشياء الضرورية للسكان الموجودين أو الذين

أحضروهم. وبما أن المياه كانت ستنقص لديهم لو قاموا بتدمير الصهاريج الموجودة فقد استتبع ذلك أن أول اهتمام للغازى المنتصر هو عدم تدمير خزانات مياه النيل. وهذا مافعله الفرنسيون للحفاظ عليها وكذلك فعل الأتراك والعرب، والإغريق والرومان سبقوهم فى ذلك. ويبدو من المنطقى أن نعتقد أنه إذا كانت كل الصهاريج لاتبدو قديمة للوهلة الأولى فذلك لأنها أصلحت فى الآونة الأخيرة. ومن جهة أخرى لقد رأينا أنه منذ أن فتح قيصر واغسطس مدينة الأسكندرية أخذ حالها فى التدهور. ولما أصبحت الصهاريج غير ضرورية بسبب نقص السكان فقد أهمل عددًا كبيرًا منها ولم نعد نجد له إلا بقايا. ولكن ليس من الطبيعى أنه بعد أن دمر العرب أو الأتراك كل الصهاريج أن يقوموا ببناء صهاريج جديدة. فاستخدموا الصهاريج التى رأوها صالحة ولانستطيع أن نفترض أن هذه الصهاريج المبنية بمتانة وموضوعة داخل الصخور قد دمرت بحيث أصبح لزامًا إعادة بنائها كلها وتجديدها بالكامل.

وهذا المنطق يكتسب قوة أكثر إذا ما انتبهنا إلى أن الخليج أو فروع القنوات الأخرى قد جلبت مياه النيل إلى الأسكندرية منذ الأزمنة البعيدة وأنه منذ إنشاء هذا القنال أصبح من الضرورى تخزين المياه فى الخزانات التى لولاها لأصبحت المدينة صحراء على الأقل لفترة من الزمن كان التاريخ سيذكرها لنا.

ومن الواضح أن العرب لم يبنوا الصهاريج الموجودة تحت أطلال المدينة الإغريقية والرومانية القديمة لأن الصهاريج الموجودة بالقرب من منازلهم كانت تجعل هذه الصهاريج غير ذات فائدة. فها هى ذى فئة من الصهاريج المعترف بقدمها . ويتعين الآن عمل التنقيب ومقارنة هذه الصهاريج بتلك الموجودة فى المدينة العربية حتى نقرر - طبقًا لنوع المواد والطريقة التى استخدمت بها - ما إذا كان بناؤهم يرجع إلى نفس الفترة.

ونستطيع أن نؤكد من الملاحظات للصهاريج الموجودة على الضفة اليمنى للخليج أن هناك شبهًا بين هذه الصهاريج وتلك.

(١٥٧) بعد رحيل الجيش الفرنسى وعندما أمر ألفى بك بشق قنال النيل بالقرب من دمنهور لم يعد للأسكندرية أى موارد مائية سوى مياه بعض الآبار المالحة أو المياه القادمة من البحر.

السرابيوم ومكتبته

(١٥٨) كتب سوزومن وهو محام فى القسطنطينية تاريخ الحقبة من سنة ٣٢٤ إلى سنة ٤٣٩ . ويبدو أنه لم يفعل سوى نقل ما كتبه سقراط وتوفى نحو سنة ٤٥٠ .

(١٥٩) روفان الذى ولد فى إيطاليا نحو منتصف القرن الرابع وكان صديقًا لجيروم توجه إلى مصر واستقر فى الأسكندرية وقد ترجم أوريجن واختلف مع جيروم بسببه. وقد اضطهده الأريوسيون (*) وكتب عدة مؤلفات. وكان أيضًا صديق تيوفيل الذى سيلعب دورًا كبيرًا فى تدمير السرابيوم والمعابد الوثنية بصفة عامة.

(١٦٠) كان يقام احتفال فى الغرف السرية للسرابيوم يخصص للإله سرابيس.

(١٦١) بعد أن قاتل اليهود ووجد تأييدًا لمشروعه بالاستيلاء على الإمبراطورية من تيبيريوس الإسكندر والى مصر، وبعد أن أعلن إمبراطورًا فى الأسكندرية سارع فسباسيان باحتلال حصون مصر حيث علم بهزيمة جيش خصمه فى كريمون وسار نحو الأسكندرية، حتى يخضع روما بالمجاعة ثم بإمدادها بالتموين بعد ذلك. وكان مترددًا فى قبول الإمبراطورية فطلب مشورة المنجمين والعرافين «خلال الثلاثة أو الأربعة أشهر التى قضاها فى الأسكندرية انتظارًا لرياح الصيف حدثت بعض المعجزات لصالحه» كما يقول تاسيت[1]. وقد قام فسباسيان. بشفاء شخص أعمى وشخص به شلل توسلا له أن يلمسهما إذ أن

(*) ينكر مذهب اريوس وحدة الثالوث ، ومن ثم يرفض الوهية السيد المسيح . (المراجع) .

(١) فى الكتاب الرابع من تاريخه، وسوف أستعين بترجمة دورو دولا مال.

هذا الشعب يؤمن بالإله سرابيس ويفضله على سائر الآلهة مدفوعاً بالاعتقاد فى الخرافات.

«هذه المعجزات ضاعفت عند فسباسيان الرغبة فى زيارة مقر سرابيس لأخذ مشورته حول الإمبراطورية. وقام بإبعاد الناس عن المعبد: وبمجرد دخوله وذهنه مشغول بالإله أبصر خلفه أحد المصريين الكبار واسمه بازيليد. «معجزة أخرى إذ تبين أن هذا الرجل كان فى الحقيقة على بعد ٨٠ ميلاً من الأسكندرية.. » فسباسيان فسر اسم بازيليد[١]على أنه إجابة العراف له. وحتى الآن لم يكتب الكتاب أى شىء يمس أصل هذه الإله: وفيما يأتى ماقاله الكهنة المصريون فى عهد بطليموس سوتر وهو أول من أقام فى مصر حكم المقدونيين كان يهتم بتجميل مدينة الأسكندرية الجديدة ويزودها بالتحصينات والمعابد ويعطى لها ديانة، ورأى فى منامه شابًا ذا جمال أخاذ وأكبر من الحجم الطبيعى، وصف له هذا الشاب أن يرسل إلى الجسر رجالا ذوى ثقة لأخذ تمثاله ، وأضاف أن هذا التمثال سيجلب الازدهار للمملكة وأنه سيعطى للمدينة التى تضمه العظمة والبريق. وفى نفس الوقت رأى هذا الشاب وهو يصعد إلى السماء فى دوامة من نار.

«كان بطليوس متأثرًا جدًا بالوعد وبالمعجزة فأرسل فى طلب الكهنة المصريين الذين يملكون تفسير الأحلام، وحكى لهم حلمه، ولكن هؤلاء الكهنة كانوا يجهلون الجسر وكل ما هو ليس فى بلدهم، فاتجه إلى تيموتيه وهو رجل من أثينا من سلالة الكهنة[٢] وأحضره من مدينة إلوزيس[٣] ليرأس احتفالات سيرس.

«وعندما استجوب تيموتيه الناس الذين سافروا إلى الجسر عرف أنه توجد فى هذه المنطقة مدينة تسمى سينوب وعلى مقربة منها يوجد معبد كان يخصص للإله بلوتون ـ جوبيتر طبقًا لتقليد قديم فى البلد. وبالفعل بجوار هذا الإله كانت

---

(١) ملك.

(٢) يطلق على كهنة سيرس «إيمولبيد» وذلك لأنهم من سلاسلة إيمولبوس ابن موزيه ، وفقًا لما يقول «سيدامس».

(٣) تشتهر هذه المدينة بمعبد سيرس، حيث تقام الاحتفالات الخاصة بخبايا العلوم والفلسفة.

توجد صورة امرأة يعتقد أنها بروسربين. «ويسبب هذا الطيش المعتاد عند الأمراء وبسبب انغماسه فى ملذاته أكثر من اهتمامة بالآلهة غاب عن نظر بطليموس هذا الشىء دون أن يشعر، وانصرف لشئونه الأخرى عندما رأى نفس الشاب مرة أخرى ولكنه كان رهيبًا وملحًا وهدده بالضياع وضياع مملكته إذا لم ينفذ أوامره:عندئذٍ أرسل على عجل نوابه المحملين بالهدايا إلى سيدروتيميس (وهو الحاكم الذى كان يحكم فى سينوب) وطلب من السفن أن ترسو فى ديلوس لطلب المشورة من أبولون بيتيان. وكان سفرهم سعيدًا. وشرح لهم أبولون بوضوح وطلب منهم مواصلة الرحلة وإحضار تمثال والده وعدم أخذ تمثال أخته.

«وعندما وصلوا إلى سينوب حملوا الهدايا وتعليمات ملكهم إلى سيدروتيميس. واستسلم الأخير تارة لخوفه من الإله وتارة بسبب تهديد ومعارضة شعبه: وكثيرًا ماكانت الهدايا التى يحملها النواب تجذبه. "ومضت ثلاث سنوات فى هذا التردد لم يوقف خلالها بطليموس مسيرته وصلواته، وكان يزيد فى بعثاته وعدد سفنه وقيمة هداياه. وظهر الشاب وهو غاضب جدًا لسيدروتيميس وأمر بألا يؤخرمصير الإله. ولما تقاعس أخذت المصائب والأمراض تصيبه، ويومًا بعد يوم نزل عليه غضب من السماء.

«جمع شعبه وعرض عليه أوامر الإله ورؤيته ورؤية بطليموس والأهوال التى أصابته. ولكن الشعب لم يكن يريد أن يسمع أى شىء. فقد كان يشعر بالغيرة من مصر، وكان يخشى على نفسه وكان يحاصر المعبد. وهنا تأكد الرأى بأن التمثال قد انتقل بنفسه إلى الساحل للرحيل. وبمعجزة أخرى وبالرغم من طول الطريق لم يستغرق السفر إلى الأسكندرية سوى ثلاثة أيام.

«كان المعبد يليق بعظمة المدينة: وقد بنى فى الحى المسمى راكوتيس حيث كان هناك قديمًا معبدًا للإله سرابيس وإيزيس. "هذه هى القصة الثابتة عن أصل ونقل هذا الإله. وأنا لا أجهل أن البعض يظن أنه جاء فى عهد بطليموس الثالث من مدينة سيلوس فى سوريا والبعض الآخر يظن أنه جاء من مدينة منف الشهيرة فى مصر القديمة.

« بالنسبة للإله نفسه وبما أنه يشفى المرضى فيريد الكثيرون أن يكون اسكليبيوس، والبعض الأخر يزعم أنه جوبيتر بسبب القوة التى تنسب إليه، ولكن عددًا كبيرًا يعتقد بإنه بلوتون بسبب صفات مختلفة تنسب له».

(١٦٢) كان بعض الكهنة مكلفين بتدوين حالات شفاء المرض التى تنسب إلى إله كانوب سرابيس والعرافين الذين يذهبون باسمه. وكان ينسب إليه كذلك القدرة على التنبؤ بالمستقبل. والدليل على كل هذه المواهب يوجد فى الزيارة التى قام بها فسباسيان إلى معبده بالأسكندرية لاستشارته فى حالات الشفاء التى حققها هذا الإمبراطور وينسبها إلى الإله الذى يزوره.

(١٦٣) إن رواية تاسيت تظهر كما لو كانت أسطورة اخترعها الإغريق لإيجاد الشبه بين سرابيس الجديد، الذى كانوا يعبدونه فى زمنهم فى الأسكندرية، وبين سرابيس القديم إله المصريين الأوائل. ويروى بلوتارخ كذلك القصة التى شاهدناها، ويقول: بمجرد أن رأى كل من تيموتيه وسيبنيت التمثال الضخم الذى أحضر من سينوب ظن الاثنان عند رؤية حارس وتنين على التمثال أنه تمثال بلوتون و أوعزا إلى بطليموس أنه تمثال سرابيس. ولم يكن يطلق عليه هذا الاسم الذى يطلقه المصريون على بلوتون.

إن تاسيت الذى عاش فى نفس زمن بلوتارخ - أى فى عهد دوميسيان وتراچان فى القرن الثانى - تكلم وفق رواية الكهنة المصريين. ولكن سينوب بالقرب من منف، إذن فإدعائه لايهدف إلا إلى إيجاد تشابه بين سرابيس الأسكندرية وسرابيس مصر القديمة الذى عبد فى منف. وبدون ذلك نستطيع أن نوفق بين رواية تاسيت وبلوتارخ وبين هذه النقطة فى الديانات المصرية القديمة. وحقيقى إن بعض الأشخاص قد زعموا - وفقًا لهذه الرواية - أن البطالمة قد أدخلوا عبادة الإله سرابيس إلى مصر. ولكننا نرى من كل ماسبق أنهم لم يفعلوا سوى إحضار تمثال لهذا الإله ولأى إله إغريقى آخر له صلة به، وأن هؤلاء الملوك الإغريق ربما لم يكونوا يعرفونه جيدا قبل عبادة سرابيس. ونرى كذلك إنه كان يوجد معبد لنفس الإله فى الأسكندرية ونعرف أنه كان يعبد منذ زمن طويل فى مصر ويشهد على

ذلك معبده الجميل فى منف. وكان سرابيس مثل معظم الآلهة فى مصر وأوزوريس نفسه رمزًا للشمس أو هذا النجم فى وضع خاص: الشمس السفلية أو قرب الانقلاب الشتوى أو الإله السفلى الذى أطلق عليه الإغريق اسم بلوتون وهو اسم أحد آلهتهم الشبيهة به. ويقول ديودور (الجزء ١ القسم ١): سمى أوزوريس من البعض سرابيس، ومن البعض الآخر ديونيسيوس، بلوتون، أمون، جوبيتر وبان. ويؤكد البعض أن سرابيس عند المصريين هو بلوتون عند الإغريق».

(١٦٤) كل شىء يثبت وجود سرابيس آخر يطلق عليه سرابيس الأرض وكان يسود فيضان النيل أو أنه كان ينسب لنفس سرابيس الأول القدرة على نماء هذا النهر بالرغم من أن الفيضان كان يحدث فى الانقلاب الصيفى، فأعمدة مقياس النيل كانت تسمى سورى أوبى. وأعمدة المقياس فى اللغة المصرية. (وفقاً لجابلونسكى) وأصبحت - وهى أعمدة خشبية - رمزًا لسرابيس. انظر ملاحظات القس ريكارد صفحة ٣٢٢ وما يليها من ترجمة إيزيس وأوزوريس.

(١٦٥) ولد سقراط المسمى شولاستيكى فى القسطنطينية سنة ٣٨٠، وقد كتب التاريخ الدينى من سنة ٣٠٦ حتى سنة ٤٣٩ .

(١٦٦) حارب بلوتارخ فكرة هؤلاء الذين يذكرهم كليمنيس السكندرى والذين يرون أن سارابيس سوروابيس يعنى ضريح لأبيس. ويذكر سان أو جوستان ذلك طبقًا لفارون: «أن القبر الذى نسميه تابوتًا ... وقد وجد أولا كلمة سوروابيس وتحول حرف فيها فأصبحت سيرابيس»، وعلى كل حال فإن كل المؤلفين يسمون هذا المعبد دون أى فرق سرابيون، سرابيوم، سرابوم المخصص لسرابيس.

(١٦٧) القديس جان كريزوستوم يتحدث أيضا عن مكتبة السرابيوم.

(١٦٨) بالإضافة إلى ماسبق فالنقاش حول حريق مكتبة السرابيوم غير مهم لأن عددًا من الكتب نجت من الحريق واستخدمت كنواة للمكتبة الجديدة لهذا المعبد، وهى التى يذكرها منذ حرب الأسكندرية كل الكتّاب الذين أشرت إليهم.

(١٦٩) قام دوميسيان بإصلاح مكتبات محترقة بتكاليف كبيرة وأخذ يبحث فى كل مكان عن النسخ وأرسل إلى الأسكندرية لاستخراج صور صحيحة للكتب الضائعة (سويتون).

(١٧٠) بعد أن اعتنق سكان الأسكندرية المسيحية اضطروا إلى إنشاء مكتبات جديدة بها بقايا الفلسفة الوثنية والعقيدة المسيحية تحت إشراف البطاركة فى أماكن مختلفة. وهى الكتب التى أحرقها عمرو بعد أن ألقى عمر بيان إدانتها.

الكنيسة القديمة
الشائع تسميتها جامع سان أثاناس

(١٧١) عين القديس أثاناس فى سنة ٣٢٦ بطريركًا لكنيسة الأسكندرية وكان واحدا من الذين أذاعوا صيتها ـ وكذلك المدرسة الشهيرة فى هذه المدينة ـ بفضل فضائلهم ومهاراتهم. وسنتحدث عنه بالتفصيل فى القسم الثانى من هذه الدراسة.

(١٧٢) إن الوصف الحديث والتفصيلى للجامع المسمى جامع سان أثاناس يوجد فى الدولة الحديثة فى هذا المؤلف. ولكنى سأطرح ملاحظة هنا فقط لكى أبين نظام خلط الآثار الذى أحبه العرب بصفة خاصة وهى أنهم وضعوا هنا عمودًا صغيرًا بالقرب من عمود آخر أكبر منه بقطر واحد، والقاعدة تكون موضوعة عادة مكان تاج العمود الذى يشغل بدوره مكان القاعدة. والأعمدة المصرية تختلط بالأعمدة العربية، فتاج العمود الكورنثى يوجد بجوار تاج غريب على شكل سلة، وكل أسطوانات العمود تمسك بعضها ببعض بواسطة قطعة رفيعة من الخشب: ولكن المجموعة شكلها جميل لأن فى العمارة كل ماهو كبير ومتقابل فى الحجم يسر العين ، والمأذنة رشيقة جدًا وتأثير الزخارف الداخلية للجامع رائع... ونجد نفس التناقض بين التهدم والإصلاح وبين العظمة والهمجية فى مبانى العصر العربى الجميل المنتشرة فى مصر كلها. ونجده أيضًا فى بناء المدينة العربية فى الأسكندرية وقصر الفنار وجامع الألف عمود. ونجده فى

إسبانيا فى مسجد قرطبة الشهير وفى قصر الحمراء فى غرناطة. ولكن على الأقل فإن هذا الشعب وهو يمارس الدمار بدافع تعصبه لم يكن ينزلق فى هذا الهوس وهو أعمى لمجرد حب التدمير دون إعادة بناء مثلما فعل الأقباط فى صعيد مصر والأتراك اليوم فى كل مكان: إن العرب كان لديهم حب العلوم والفنون. وإن لم تشهد بذلك المبانى والتاريخ الحديث فإننا نجد شهادة مؤكدة لذلك فى جامع سان أثاناس.

(١٧٣) لقد رأينا فى الهامش ١٤٨ الصلة بين الكنائس والساحات وهذه الصلات قد تسمح - إذا لم توجد معلومات أخرى - أن نفترض أن الساحات القضائية كانت تشغل فى البداية مكان كنيسة جامع سان أثاناس. واسترابون يقول كلمة واحدة عن هذه الساحة بعد أن تحدث عن الجمناز وهو قادم من باب رشيد باتجاه كنيسة أثاناس.

(١٧٤) إن شكل المبنى الصغير المرتفع فى الفناء كالشكل المعتاد لهذا النوع من الغرف التى تستخدم فى وضع حوض الوضوء عند المسلمين. وهو عبارة عن حوض كبير مبنى ومغطى بطلاء موضوع داخل الأرض ، لإن التابوت الذى كان مكانه كان أصغر حجمًا.

(١٧٥) يطلق عادة على نوع السربنتين الذى نُحت منه هذه القطعة اسم «الرخام المصرى الأخضر» وهو اسم عام يطلق فى إيطاليا على أشياء من مواد مشابهة جاءت من مصر. ولون العجينة هنا يميل إلى السواد أو إذا أردنا الدقة أخضر غامق. ويوجد الرخام السماقى والجرانيت فى هذا الرخام والأجزاء ذات الطبيعة المختلفة التى نشاهدها فى هذه العجينة، التى تشبه الحجر الصوان تكون ذات بروز مثل كل الفتحات وليست مستديرة أو ملفوفة.

(١٧٦) إن النمس الذى يُطلق عليه عادة فأر فرعون ، ويحكى عنه المؤرخون اليونانيون أشياء كثيرة غريبة بالنسبة للتمساح يظهر بوضوح بين الصور التى رسمت على الحوض: ومن المؤكد أن هذا الحيوان الصغير يلتهم بيض التمساح ومن هنا كانت القصص.

(١٧٧) إن حوض القاهرة تم رفعه تحت إشراف السيد كوتيل ونقل إلى الأسكندرية بهدف نقله إلى فرنسا أثناء نزول الفرنسيين إلى المدينة بعد اتفاقية الجنرال كليبر للجلاء عن مصر أثناء الاستسلام النهائى للأسكندرية تحت حكم الجنرال مينو ، وكان قد أدخل فى اتفاقية الاستسلام بندًا خاصًا بوقف عمليات الجمع التى يقوم بها أعضاء معهد ولجنة الفنون. وقاوم الأعضاء ذلك بشدة وبشجاعة وهددوا بحرق رسوماتهم وتدمير المجموعات التى يقتنوها. ولم يترك سوى الممتلكات العامة (بضعة تماثيل وثلاثة توابيت). واستحق تابوت الأسكندرية أن يكون محل اتفاقية وهكذا فإنه منذ عهد الرومان والدول الأوروبية تتنافس على ملكية الآثار الثمينة المصرية. وقد أعطت الحكومة الإنجليزية إلى حكومة فرنسا الحق فى رسم هذا الأثر السكندرى لاستكمال كتابنا عن مصر[1]. وجمعية الأثريين فى لندن قامت أيضًا برسمه جزئيًا.

وبذلك لن تحرم الفنون من التعرف على هذا الأثر الجميل الذى كان دائمًا من الصعب على الأوروبيين أن يرسموه ويروه على الطبيعة. والفرنسيون الذين دخلوا الأسكندرية منتصرين لم يكونوا يدخلون إليه إلا نادرًا فى الجامع الذى يضمه بسبب أوامر الحكومة الجديدة الصارمة احترامًا للعادات ولديانة الأتراك. ولكن بعد معركة أبى قير البحرية تحول جامع سان أثاناس إلى مستشفى للبحرية.

وحتى الآن كانت لدينا فكرة بسيطة عن حجم وشكل التابوت، وذلك من خلال رسم كنا نراه فى باريس منذ أربعين عامًا عند السيد بيرتان وزير البحرية: ولكن النقوش الهيروغليفية كانت مرسومة عليه من وحى الخيال وبالصدفة.

---

(١) مثل ذلك أساس المهمة المنوطة للسيد جومار عام ١٨١٤. وكان هذا الأثر والقطع الأخرى التى تنتمى للمجموعة الفرنسية - والتى نقلت إلى لندن عام ١٨٠٢ - كانت هذه الأجزاء جميعها مرسومة فى الكتاب فى ذلك الوقت .

الملحق الأول
للفصل السادس والعشرين
وصف عمود بومبى بالأسكندرية

بقلم المهندس المعمارى السيد / نورى

إن أول شىء تراه العين عند الاقتراب من الأسكندرية هو العمود الشائع تسميته عمود بومبى: الذى يرتفع فى الأفق جنوبى أسوار هذه المدينة التى تبعد عنه بحوالى ١٥٠٠ مترًا.

ويتكون العمود من أربع قطع من الجرانيت: الأساس، القاعدة، الأسطوانة والتاج ويبلغ طولها معًا ٢٨,٧٥ مترًا (٨٨ قدمًا ٦ بوصات). ومن الغريب أن بوكوك ونوردن وآخر الرحالة الإنجليز الذين رأوه ووصفوه لايذكرون سوى ثلاث قطع. أما بالنسبة لموقعه فهو يظهر على تل صغير محاط بالبقايا التى جعلت مؤلفين كثيرين يعتقدون بأنه يشكل مركز مبنى كبير.

ولعلنا سنلقى بأنفسنا فى خضم التكهنات لو أردنا أن نوضح أو أن نوفق مختلف الآراء المتفاوتة فى صحتها الخاصة بالمبنى الذى قد يكون العمود جزءًا منه.

وبعض المؤلفين العرب القدامى تحدثوا عن قصر كبير يقع فى هذا المكان ويطلق عليه «بيت الحكمة»، والبعض الآخر يذكر أن أكثر من ٤٠٠ عمود من نفس المادة ولكنها بمحيط أقل كانت تحيط به، وأن نحو سنة ١١٧١ م تم تقطيعها بأمر

من أحد حكام الأسكندرية الذى نقل بعض أجزائها بالقرب من الميناء على البحر لصد الأمواج أو لمنع نزول الأعداء.

والطبيب العربى عبد اللطيف الذى قام برحلة من بغداد إلى مصر فى القرن الرابع عشر ، يؤكد أنه شاهد كثيرًا من الأعمدة المقامة وهى مكسورة من منتصفها. وكانت مقامة على هذا النحو بغرض عمل ممرات مفتوحة.

ويعتقد بعض الكُتّاب أنه فى هذا المكان أسس الإسكندر أكاديمية قام بالتدريس فيها أرسطو وتلاميذه.

وبوكوك الذى لاحظ أطلالاً متنوعة حول العمود يقول إن التقليد المتبع كان يسمح بوجود قصر لقيصر فى هذا المكان.

ويعتقد لانجليه فى تعليقاته حول نوردن ووفقًا للوصف الذى ذكر سلفًا أنه هو الجمناز الذى تمتد قاعاته ـ وفقًا لاسترابون[١] ـ بطول أكثر من غلوة.

ويتصور دو ساسى فى المذكرات التى صاحبت الترجمة التى قدمها عن تاريخ مصر- بقلم عبد اللطيف[٢] ـ أن السرابيوم كان مكانه هنا، وأن الأثر الذى أطلق عليه بطريق الخطأ عمود بومبى بينما اسمه الحقيقى ـ وفقا لهذا العالم ـ كان عمود الأعمدة بسبب العدد الكبير من الأعمدة الأخرى التى تحيط به. هذا الأثر كان يتبع هذا المعبد.

وكل هذه الإيضاحات لاتوضح استخدام أو شكل أو حجم الأثر. إنها تدعو للتفكير فى أن العمود الذى نراه اليوم لم يقم منفردًا وأنه بدون شك كان جزءًا من مبنى عظيم نستطيع فيما بعد أن نكتشف آثاره عن طريق الحفائر ، إذا لم تكن الهمجية أو الطمع قد ضيعاه كاملا.

وأجدنى مضطرًا إذا أن أتخلى عن كل أنواع البحث عن المبنى الذى يمكن أن يكون موجودًا فى هذا المكان لأنه غير مفيد، وسأكتفى فى هذا الموضع بتناول العمود فقط.

---

(١) الجغرافيا ، الكتاب ١٧ ، ص ٧٩٥ .

(٢) نشرت عام ١٨١١ من المطبعة الحكومية .

إن غالبية الذين تحدثوا عن هذا الأثر العظيم[١] قد حاولوا أن يحددوا ـ عن طريق التاريخ أو عن طريق الفن ـ تاريخ إقامته.

ويلاحظ شو و بوكوك أن عمود بومبى لم يكن موجودًا فى زمن استرابون لأن هذا العالم لم يذكره ، ولأن بوكوك يفترض أنه قد يكون قد تم رفعه تكريمًا لتيتوس أو هادريان اللذين مكثا فى مصر ويعتقد نوردن أن هذا العمود من أصل مصرى وأنه أضيف إليه بعض الأشكال الأخرى وأنه تم رفعه فى عهد البطالمة.

ويزعم مؤلف عربى أن العمود كان يعلوه تمثال من البرونز يتجه ناحية البحر ويشير بأصبعه إلى القسطنطينية، ولكن بناءً على أمر محافظ الأسكندرية هدم هذا التمثال وتحول إلى قطع صغيرة من العملة.

ويمتلك دو شوازول جوفى قطعتين من المرمر لصورة عملاق اكتشفهما كاساس على شاطئ البحر فى ميناء الأسكندرية الجديد، وقد نقلهما إلى فرنسا الأميرال تنوجى وكان وقتها قبطان السفينة. وإحدى هاتين القطعتين تشكل الجزء العلوى من فخذ محارب يرتدى درعًا.

وقد اعتقد كاساس بأن الشكل الذى تأتى منه هذه القطعة يمكن أن يكون قد توج العمود[٢] ، ولكن حسب طول هذه القطعة فإن العمود سيكون ارتفاعه تقريبًا ٧ أمتار (٢١ قدمًا، ٦ بوصات)، وهذا يشكل ثلث الإسطوانة وبالتالى فالنسبة تكون عالية جدًا لأن الأمثلة المشابهة تبين أن التماثيل التى تقام على نهايات هذا النوع من المبانى ليس لها إلا ١/٨ من ارتفاعها[٣] .

ولكن إذا كان هناك شك حول رفع هذا الأثر وحول الإضافات التى ذكرناها فإننا على الأقل قد تعرفنا الآن على هذا العمود. وعندما كان بوكوك يرفع مقاييسه الرئيسية لاحظ فى ضوء الشمس بين الساعة الحادية عشرة والساعة الثانية عشرة أثر كتابة إغريقية على جانب القاعدة الغربى، فنقلها فى كتابه. لكن

---

(١) يجب علينا ـ فى الواقع ـ أن نعتبر جذع هذا العمود لامثيل له فيبلغ طوله ٥٠ و ٢٠م (٦٣ قدمًا ، ١٠ بوصات ، ٣ خطوط) أما قطره فيساوى ٢,٦٦م (٨ أقدام، بوصتان، خطان) ويبلغ وزنه ٢٨٣٩١٠ كجم.

(٢) خلال رحلته إلى سوريا ومصر السفلى.

(٣) هكذا ظهر تمثال تراجان .

النواقص فى هذه الكتابة والأشكال الغامضة لكثير من الحروف منعته من تحديد المعنى بحيث ظل المعتاد أن ينسب هذا العمود إلى بعض الأباطرة (وخاصة الإمبراطور الإسكندر سيفيروس) ولكن بصفة عامة إلى بومبى الأكبر.

واليوم تقدمنا كثيرًا حول هذه النقطة. فكثير من العلماء إنجليز[١] وفرنسيين[٢] قد توصلوا ـ بجهود خاصة بذلوها ـ لرفع الكتابة بحيث صارت واضحة، واعترفوا بالإجماع على أن هذا الأثر كان قد أهداه لدقلديانوس والى مصر اعترافًا بفضل هذا الإمبراطور على سكان الأسكندرية.

وفى الواقع لقد اختلفوا حول اسم الوالى بسبب الأحرف الناقصة فى الكتابة أو الغموض الذى يكتنف هذا الاسم. بحيث إن البعض أطلق على الوالى اسم بوليون والبعض الآخر بونتيوس وآخرين بومبيه. أما العالم فيلوازون فقد سماه بوبليوس أو ربما بومبوتيوس الذى كان قنصلا فى عام ٨٨ مع ماكسيمان.

وعلى أية حال فإن الرواية التى تنسب هذا الإهداء إلى بومبى الوالى يمكن أن تكون هى الرواية المفضلة لعدة أسباب خاصة لأنها تتميز على الروايات الأخرى بأنها تبرر التقليد السائد. وبالفعل ألا يمكن أن نعتقد أن هذا الاسم الذى لايمكن قراءته الآن فى الكتابة كان من الممكن تمييزه بوضوح فى القرون السابقة ؟

ونعتقد أنه يأتى المقام لنذكر هذه الكتابة كما رفعها مختلف العلماء وهى أكثر دقة من تلك التى أوردها بوكوك.

وستليها الترجمة التى قدمها فيلوازون: ولكننا فى نفس الوقت سنعفى أنفسنا من ذكر القراءات المختلفة التى قدمها مختلف العلماء. فهذه القراءات كان هدفها الأساسى المناقشات الخاصة بالكتابات القديمة وليس لها مكان هنا.

الترجمة: بوبليوس (أو بومبونيوس) والى مصر أقام هذا العمود تكريمًا للإمبراطور دقلديانوس ـ أغسطس ـ الإله الحامى للأسكندرية.

---

(١) السيدان «دسادو و دونداس، كتاب عن حملة مصر». نشره والش ، لندن ، ١٨٠٣ والسيدان كلارك وهاميلتون ... علم الآثار الإنجليزى ، المجلد الخامس ، ص ٦٠ .

(٢) السيد چوبير ومن خلال عمله قدم المرحوم السيد دوڤيلوازون تعليقاته حول هذا النص، المجلة الموسوعية، العام الثامن، المجلد الخامس، ص ٥٥ . السيد دوشاتوبريان، رحلة من باريس إلى القدس، المجلد الثالث، ص ١٠٥.

وأيًا كـان اسم الوالى فـإنه مما لاشك فيـه أن هذا العـمـود كـان مكرسًـا لدقلديانوس. ولكن إذا رجعنا إلى ماسبق أن قيل حول المبنى المحيط به وحول الرأى الذى يقول بأن هذا العمود قديم جدًا فإنه يبقى أن نحدد الفترة التى أقيم فيها فى البداية.

إن نظرتنا إلى العمود من وجهة نظر الفن يمكن أن تقودنا إلى التمييز بين أجزائه التى تختلف بجودة العمل وجودة المادة. وبالفعل فإن أسطوانة العمود المنحوتة من الجرانيت الوردى لها شكل جميل وتنفيذ جيد ومصقولة بجمال ماعدا الجانب المواجه للصحراء الذى عانى من الرمال.

والقاعدة والأساس والتاج من الجرانيت الرمادى هى على العكس عمل بدائى وذو نسب متواضعة. فالقاعدة منخفضة جدًا بصورة واضحة ، والمسقط الجانبى مستدير وثقيل وجانب القاعدة مرتفع جدًا. وأخيرًا فإن أجزاء التاج المختلفة وأوراقه ملتصقة بطريقة غير محددة.

ومن الممكن أن هذه الأسطوانة ـ وهى عمل إغريقى ـ قد أقيمت أولاً فى هذا المكان ثم قلبت وتهشمت أجزاؤها الإضافية وقطعت ثم أعيد بناؤها وإهداؤها إلى دقلديانوس بعد إضافة القاعدة والأساس والتاج، التى تختلف بوضوح عن الأسطوانة من حيث الذوق ومن حيث لون المادة.

وإحدى الصفات المميزة والخاصة بإنشاء هذا الأثر هى نقطة الارتكاز التى يستخدمها كدعامة رئيسية. والمحاولات التى تمت لقلب هذا العمود فى فترة ما من أجل اكتشاف الأساسات وأملا فى العثور على كنز قد كشفت الحجر الوسط تحت القاعدة فى الجانب الغربى ـ الجنوبى الغربى. وهذا الحجر ذو اللون الأصفر الشبيه بالحجر المسمى «الحشاد» هو نفسه جزء قديم من أثر مصرى واستخدم هنا بسبب صلابته الشديدة: وهو مغطى بحروف هيروغليفية مقلوبة، وهذا يبين أنه تم استخدامه باتجاه معاكس للاتجاه الأول. ويبلغ مترًا ونصف عرضًا (٤ أقدام و٧ بوصات) فى واجهته الخلفية. أما ارتفاعه وهو أكبر فلا يمكن قياسه بسهولة بسبب أجزاء الرخام و الجرانيت والأحجار التى تحيط به ويرتبط بعضها ببعض بطريقة عشوائية.

وهذا يدعونا للاعتقاد بإنه حدث هزة كبيرة فى كل الأساس. وهذا الرأى يقويه ميل العمود بحوالى ١٩ سم (٧ بوصات) من الجانب الجنوبى الغربى ، كما يقوى هذا الرأى شق رأسى طوله عدة أمتار فى الجزء السفلى نتج عن الهبوط غير المتساوى. ونلاحظ مثل نوردن أن أجزاء كثيرة من الرخام ومن الأحجار التى تشكل الأساسات تغطيها حروف مصرية.

وبعد أن وصفنا هذا العمود - سواء كأثر تاريخى أو كأثر فنى - يبقى أن نبين الوسائل التى استخدمت للوصول إلى تاج العمود والاحتياطات التى اتخذت من أجل الحصول على المقاييس بكل دقة.

وللوصول إلى هذا الهدف توجه أعضاء كثيرون من لجنة الفنون [١] تحميهم فرق الحرس - يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ فى الساعة الخامسة صباحًا إلى أسفل العمود وهم مزودون بالأجهزة الضرورية لعمل القياس له: وقد شهد هذه العملية بعض البحارة وبعض الضباط وبصفة خاصة شقيق القائد العام ، لويس بونابرت.

وحتى يتمكنوا من الصعود فوق تاج العمود تم رفع طائرة ورقية ثبت فيها حبل ذو طول غير محدد. وعندما ارتفعت هذه الطائرة ومرت فى التاج تم الإمساك بالحبل المتدلى باليد وسقطت الطائرة وانفصل عنها الحبل الذى مر فوق التاج مثل البكرة : وتم استبدال هذا الحبل بحبل آخر أكثر سمكًا وحبل ثالث ثبت بأوتاد أسفل العمود، وكان هذا الحبل من القوة بحيث يستطيع أى بحار أن يتسلق التاج وإعداد بكرة بواسطة مجموعة من الحبال تستطيع أن ترفع عدة أشخاص جالسين على مقعد معلق . وبعد هذه الاستعدادات وخلال بضع دقائق صعد ٤ أو ٥ أشخاص على قمة التاج ورفعوا مقاييسه بينما انشغل آخرون برفع مقياس القاعدة والأساس وفى الوقت نفسه عن طريق حبل مشدود من أعلى إلى أسفل حصلوا على المقاس العام الذى تم التأكد منه بواسطة جهاز القياس.

---

(١) السادة لوبير ودوترتر وبروتان ونورى.

والقياسات المختلفة لمحيط تاج العمود تم أخذها بواسطة أحد الفنيين الذى صعد وثبت على التوالى ارتفاع الأساس، والجزء المتوسط فى التاج بالقرب من الجزء الموجود بين الأسطوانة والتاج.

وحتى يتم الحصول بطريقة جيدة على مقاييس المحيط المختلفة استخدم هذا الفنان مثلثًا كبيرًا شمل أفقيا أسطوانة العمود.

وقد ركب فى هذا المثلث سهم متحرك يقسم الزاوية القائمة إلى نصفين ويتقدم نحو نصف قطر العمود فى النقطة التى يلتقى فيها مع الدائرة ، بحيث إن أوتار المثلثات المتكونة بطول السهم كانت تعتبر كجانب من جوانب المثمن، والدوائر بداخل هذه المثمنات كانت تعطى المحيط المطلوب[١].

وبهذه الوسائل المتنوعة وببعض الدقة فى التفصيلات تم الحصول على مقاييس المحيط وكل أجزاء هذا العمود، بدقة كما نستطيع أن نحكم على ذلك من اللوحة التى وضعت عليها هذه المقاييس[٢].

ونختتم هذا الموضوع بملاحظة أن الجزء العلوى للتاج مجوف دائرى فى محيط مترين و٧ سم عمق. ومن المحتمل أن هذا التجويف كان يستهدف لإدخال القاعدة التى حملت الشكل الضخم الذى تحدثنا عنه سالفًا.

وفى قلب هذه الدائرة وجد جناح صغير من الحديد المطروق ، وهذا الجناح كان مقلوبًا وحفر عليه أنه فى سنة ١٧٨٩قام فونال، وهو فنان فرنسى بقياس ارتفاع المبنى الكلى، فوجد أنه يبلغ ٨٦ قدمًا ٩ بوصات وهو مقياس قريب جدًا من المقياس الذى رفعه خبراء اللجنة الذين قاموا بهذا العمل.

---

(١) قام بتصميم وصناعة هذه الأداة السيد لوبير، وتتميز ببساطتها ودقتها .

(٢) انظر اللوحة ٣٤، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

الملحق الثانى للفصل السادس والعشرين
نبذة عن
أثر كبير تحت الأرض فى غرب مدينة الأسكندرية
بقلم السيد / بول مارتن
مهندس فى الهيئة الملكية للطرق والكبارى

عندما قدم الرحالة وصف الآثار القديمة الموجودة حتى الآن فى مدينة الأسكندرية أو بالقرب من أسوارها فإنهم جميعًا تكلموا عن المقابر و الحمامات ومن بين هذه الحمامات يوجد حمام أطلقوا عليه اسم حمام كليوباترا . ولكن لم يتكلم أحد منهم بدقة أو ببعض التفاصيل عن أثر كبير تحت الأرض ينسب إلى ملوك الأسكندرية القدماء.

بل إن بوكوك و نوردن ـ الوحيدين اللذين عرفا بوجوده ـ مشكوك فى أنهما قد رأياه بسبب الوصف المختصر والغامض الذى يقدمانه. فالأول وهو أحد الرحالة الكبار يقول فى كتابه « رحلة إلى الشرق » :إن أجمل هذه المقابر توجد فى طرف الجبانة القديمة، وهى منحوتة فى الصخر وكثير منها به تجاويف مزينة بنوع من الأعمدة ينتمى للعمارة الإغريقية القديمة. «ويلحق بالوصف لوحة ولكنها ليس لها علاقة بالأثر».

أما الثانى فهو يتحدث بطريقة غير كاملة عن المعبد الكبير الذى يظن أنه كان مقبرة أحد العظماء أو حتى ملك[1].

---

(١) رحلة إلى مصر والنوبة ، المجلد الأول ، ص ٢٤ .

إذًا فمن المهم تعريف هذا الأثر الثمين والوحيد الذى يحتفظ ببعض العظمة والانتظام. وطرازه المعمارى يبين أنه ينتمى للعصر الأول لهذه المدينة الشهيرة الذى ازدهر فيه هذا الفن فى اليونان.

وسأترك لغيرى مهمة التخمين حول الغرض من هذا الأثر ، وسأصف بالتفصيل موقعه وحالته الراهنة طبقًا للخرائط التى رفعتها مع زميلى فاى فى ديسمبر سنة ١٧٩٩ .

إذا سرنا بمحاذاة الساحل فى الغرب بعد أن نتجاوز الميناء القديم للأسكندرية فسنجد فى كل خطوة بقايا مقابر منحوتة فى الصخر ومغطاة حاليًا بمياه البحر. والبناء موحد لهذه الآثار المكونة من قاعات بها صفوف كثيرة من التجاويف منحوتة أيضًا فى الصخر وبنسب تلائم استقبال أجساد مكدسة ، و هذا البناء يظهر أنها قد أقيمت لتستخدم كمقابر لهذه الأجساد للاحتفاظ بها محنطة . ونرى بعضها مقامة فى داخل الأرض بجانب المسجد المتهدم الذى نجده على شاطئ بحيرة مريوط.

وفى وسط هذه الإطلال وعلى ساحل البحر وعلى بعد حوالى أربعة آلاف متر من أسوار الأسكندرية نرى الحمامات التى تحمل اسم كليوباترا. ففى هذا المكان يوجد الأثر تحت الأرض الذى أود الكلام عنه، والذى يمكن أن نفترض أنه مقبرة الملوك. والخريطة العامة تبين حجمه وملحقاته.

وتشكل نتوءات الساحل خليجًا صغيرًا عرضه ٢٦ مترًا وعمقه ٦٠ مترًا، وذلك على بعد ٦٠ مترًا شرقى هذه الحمامات. وفتحة الخليج مقفولة تمامًا بصخرتين كبيرتين ولا تترك ممرًا صغيرًا للمراكب. وفى آخر هذا الخليج ترتفع الأرض فجأة ونشاهد فى منتصف الانحدار فتحة صغيرة تشكل المدخل الحالى للأثر ولاننزل منه إلا بصعوبة كبيرة (ويجب أن نحرص على التزود بمشاعل) . وبعد أن نقطع مسافة ١٠ أمتار نجد أنفسنا داخل أول قاعة حيث نستطيع أن نظل واقفين. وعلى اليمين وعلى اليسار توجد غرف صغيرة مربعة مليئة بالرمال(١)،

---

(١) انظر الخريطة ، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة ، اللوحة ٤١ ، شكل ٢ .

ونشاهد بها قبابًا جميلة تستند على أفاريز ضخمة. وتبين مداخل أسطوانية أفقية ذات زاوية قائمة وذوق رفيع يغطيها طلاء وقد رسم فوقه خطوط حمراء نابعة من البداية حتى المفتاح حيث رسمت شمس. وحول جوانب هذه المربعات نفذت تجاويف مقوسة ومزينة بأعمدة بها ثنايا فى الأركان تدعم الإفريز، ويبلغ طول القاعة الأولى ٨,٤ أمتار وعرضها ٨,٨ أمتار.

وندخل بعد ذلك فى قاعة أكبر عن طريق باب موجود فى الوسط يبلغ عرضه ٤، ٣ أمتار ولم نستطع أن نرى طرفها لأنها مملوءة بالتراب حتى السقف. وإذا قمنا ببعض النفقات البسيطة بشق طريق صغير بطول الجدران فإننا قد نتمكن من معرفة الأجزاء الأخرى التى ظلت مجهولة لنا بالرغم من محاولاتنا المستميتة.

وفى جانبى هذه القاعة توجد أيضًا غرفتان صغيرتان شبيهتان بالغرف السابقة.

و بالبحث حول الغرفة التى على اليمين وجدنا فى الجدار شقًا قادنا إلى ممر واسع نصفه ملىء بالرديم وفى سقفه نرى ثلاثة آبار من الأحجار الجافة التى اعتقدنا أنها الثقوب التى من خلالها تم رمى الأحجار التى تعوق المبنى. ويبلغ طول هذا الممر ١٢ مترًا وله عرضان : الأول يبلغ ٥,٦٠ أمتار والثانى ٣ أمتار. ويؤدى هذا الممر إلى ممر آخر يقودنا إلى قاعة كبيرة مربعة سأتحدث عنها فيما بعد.

ويتصل أخيرًا بقاعة جميلة يبلغ طولها بالضبط قطر المربع المقام على عرضها (٦,٨٠م على ٩,٦م). وزخارف القاعة بسيطة وتتناسب مع طابع الأثر. وعلى الجوانب الأربعة فتحت أربعة أبواب: ثلاثة منها مزينة بأعمدة تحمل زخارف ومربعات صغيرة بارزة ويعلوها هلال. وعلى جانبى الواجهة على اليسار يوجد بابان صغيران يزين الجزء العلوى فيهما إفريز أثرى من المربعات البارزة ويمثل القطاعCD[١]. وباقى الجدران عارية تمامًا والسقف على شكل قبة كبيرة نرى فيها خطوطًا حمراء تشير إلى أنه كان يتم تزيينها بتجاويف صغيرة بها ورود.

---

(١) انظر اللوحة ٤١ ، شكل ٤ ، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

ومن هذه القاعة ندلف يسارًا إلى مبنى مستدير وجميل يبدو أنه كان المركز الرئيسى للأثر. ويبلغ قطره ٧ أمتار وارتفاعه ٥,٨٣ م من الأرض إلى الصخرة بما فيها القبة التى تبلغ ٢,٢٥ متر فوق الإفريز الدائرى. وهذا المبنى المستدير مزين بأعمدة منتظمة كما نرى ذلك فى القطاع AB (٢) . ويوجد حوله تسع مقابر مزينة بنفس الطريقة التى وصفتها فى القاعة الأولى.

وكنا قد قمنا بالحفر أسفل أحد الأعمدة ووجدنا ماءً مالحًا تحت القاعدة بقليل. وكنا مترددين فى الظن أنها مياه البحر واعتقدنا أنها ارتشاح مياه الأمطار مختلطاً بالملح الذى تمتلئ به هذه الأرض: ولكن اختفى الشك عندما وجدنا نفس المياه فى التجويفات التى تحيط بالمبنى المستدير وقمنا بمساواة هذه النقطة بالبحر فوجدنا أنها منخفضة عنه بمقدار ٠,٠٧٨ متر، وهذا الفرق يحدثه التأثير العادى للثجاجة بالترشيح. وهذا أثبت لنا أن أرض الأثر لايمكن أن تكون أكثر انخفاضًا من قاعدة هذه الأعمدة. والمساواة التى ذكرتها قدمت لنا ٥,٠٩٢ أمتار لسمك الأرض والصخور فوق القبة.

ولا شيء يثير الدهشة أو العجب مثل تأثير هذا المبنى المستدير تحت الأرض ، التى تضاء بعدد كبير من المشاعل. ونورها المنعكس على الطلاء الذى يغطيها يعطى تأثيرات بديعة للنظر . ونعجب بهذه القاعة التى نراها بكل ارتفاعها وكذلك المقابر التى تحيط بها ، فهى ليست مزدحمة بالرديم مثل باقى القاعات الممتلئة بها لدرجة أنه من المستحيل رؤية كل أجزائها والحكم عليها.

وإذا رجعنا إلى القاعة التى تسبق هذا المبنى فإننا ندخل فى ممر يشكل امتداد الممر الأول وموجود بنفس التناظر ويقود إلى القاعة الكبيرة المربعة التى سبق أن ذكرتها.

فى نهاية هذا الممر نجد قاعة صغيرة طولها ٤,١٠ أمتار وعرضها ٥,٧٠ أمتار . وفى الوسط توجد بئر فى السقف والقاعة محاطة فى داخلها وفى نصف ارتفاعها بقبة من الطوب لانرى إلا بدايتها وتبدو أنها لم تبن إلا لكى تكون دعامة الممر فى هذا المحيط. وتحت هذه القبة يوجد ثقب مربع يبلغ طول ضلعه

---

(١) نفسه ، شكل ٢ .

٠,٦٦ متر وقد دلفنا منه زحفًا على البطن ، وعرفنا أنه يتوسع ويأخذ شكلا متعرجًا ، ولكننا لم نتمكن من الدخول أكثر من ذلك بسبب ، الرديم والمياه التى وجدناها.

وموقعه على الخريطة يمكن أن يدعو للاعتقاد بإنه يستخدم فى الطقوس الدينية وأنه كان يخفى عن الإنسان العادى بعض احتيال الكهنة.

وإذا رجعنا ثانية إلى القاعة التى تسبق المبنى الدائرى ، وإذا تتبعنا محور هاتين القاعتين الجميلتين فإننا نجد فى نفس الامتداد قاعة بديعة مربعة يبلغ طول ضلعها ١٦,٢٠ مترًا ندخل إليها من باب عريض تبلغ فتحته ٤,٢٠ أمتار. وفى وسط هذه القاعة يوجد ١٢ عمودًا ضخمًا تحمل السقف الأفقى. ولم نتمكن من الدخول إلى الوسط ولكن ظهر لنا أن المربع المحدد بهذه الأعمدة يشكل بئرًا كبيرًا كما نستطيع أن نلاحظ من الأرض التى تنزل على شكل تل من فوق تاج الأعمدة فى القاعة. ونظام هذه الأنواع من الأعمدة هو نفس نظام الأعمدة الأصغر حجمًا التى رأيناها فى القاعات السابقة. ومازالت زخارف القاعة تحتفظ بنفس العظمة والبساطة التى سبق أن لاحظناها. والجانبان الموازيان للمحور متماثلان أو على الأقل يبدو أنهما كانا كذلك. ويجب أن نلاحظ أن هذا الأثر لم يتم اكتماله. فالرسومات المرسومة باللون الأحمر - التى ذكرناها من قبل - والتى توجد بعدد أكبر فى هذه القاعة تبين أنه لم تضع اللمسات الأخيرة لها.

وكل جانب من الجوانب يزينه ثلاثة أبواب، باب الوسط تبلغ فتحته ٣,٢٠ أمتار وبابا الجانبين ٢,٢٠ متر. والأخيران فقط هما اللذان تعلوهما زخارف مرسومة باللون الأحمر.

أما الجانبان العموديان على المحور فليس بهما أية زخرفة. وهناك ملاحظة _ ربما غير مهمة _ ولكنها لافتة للنظر واسترعت انتباهنا فى هذه القاعة وهى أن اتجاهات القطرين تقع بالضبط عند الجهات الأصلية الأربعة فى السماء.

وعند تتبعنا امتداد المحور نجد على أحد الجوانب العمودية باب تبلغ فتحته ٣,٢ أمتار ونمر من خلاله بصعوبة كبيرة. وقد بذلنا كل الجهود للدخول إلى

المكان الذى يؤدى إليـه، ولكن كـان مـن العسـيـر علينا أن نعـرف أين ينتـهى هذا المحور الكبيـر الذى نتتبعه منذ عمق المبنى: والرديم قد سد كاملا الممر فى هذا المكان، وقد أجبرنا ذلك على العودة ثانية.

ثم دخلنا من الباب الموجود فى منتصف أحد الجوانب الموازية للمحورالكبير وشاهدنا قاعة جميلة سقفها أفقى. ويبلغ عرضها ٩,٢٠ أمتار وعمقها ٥,٩٠ أمتار. وعلى الجانبين ترتفع ثلاثة صفوف ـ الواحد فوق الآخر ـ من الفتحات التى أعدت لاستقبال الأجساد المحنطة[١] على مترين عمقاً و٠,٦٠ متر عرضًا و٠,٩٠ متراً ارتفاعاً. وحاليًا نزعت هذه المقابر من مكانها ونرى فقط آثارها على الجدران وفى السقف. ووسط هذه القاعة به فتحة باب يبلغ اتساعها ٢,٢٠ متر ومزينة بأعمدة تحمل زخارف صغيرة. وهذا الباب يؤدى إلى حجرة صغيرة ذات قبة مزينة بعمودين ، ونرى بداخلها ممرًا يستطيع الإنسان أن يزحف فيه بصعوبة. وقد دخلنا فيه وبعد أن سرنا فيه لمدة طويلة وجدنا ماء البحر مما منعنا من الاستمرار بالرغم من أن الممر يمتد أكثر أمامنا. وعلى جانبى قاعة الدفن توجد غرفتان صغيرتان جدًا فى مواجهة البابين اللذين تتوجهما الزخارف التى تحدثت عنها. والجانب الثانى الموازى لمحور الأثر مشابه تمامًا للأول كما ذكرت. ونشاهد كذلك قاعة للدفن فى باب الوسط.

واستحالة دخولنا أكثر من ذلك فى امتداد المحور كادت أن توقف هنا أبحاثنا لولم نجد فى الغرفة الصغيرة على يمين قاعة الدفن الأولى فتحة قطرها٠,٢٥م فتحت بالقوة فى الجدار لتسمح بمرور إنسان. فدخلنا من خلالها إلى قاعة كبيرة مربعة يبلغ طول ضلعها ١٠,٩٠ أمتار ولكن ليس بها أية زخارف. وكان السقف أفقيًا. واكتشفنا فى أحد الجوانب بابا مسدودا بالرديم ووفقًا للخريطة كان هذا الباب يؤدى بالضرورة إلى الممر الناتج من امتداد المحور الكبير حيث منعنا تراكم الرديم من الدخول. ورأينا بئرًا فى منتصف القاعة.

---

(١) انظر اللوحة ٤١ ، شكل ٥، القطاع EF، المجلد الخامس من لوحات المصور القديمة.

وعلى أحد الجوانب الأخرى يوجد ممر يبلغ عرضه ٢,٤٠ متر وطوله ٤,٨٠ أمتار يؤدى إلى رواق بأعمدة. وبالرغم من العرقلة فقد استطعنا التعرف على أربعة. وعند تتبعنا جانب هذا الرواق العمودى على المحور رأينا بابًا يخترقه هذا المحور من منتصفه. وقد توقفنا أيضًا عند هذا الباب المسدود كاملا. وجدران هذا الرواق مغطاة بطلاء من الملاط لايثبت كثيرًا وجودته أقل بكثير من طلاء المبنى المستدير والمقابر المحيطة به.

وهذه هى تفاصيل هذا الأثر الكبير الموجود تحت الأرض، الذى يصيب بناؤه بالدهشة عندما نجد أن هذا العدد الكبير من القاعات وكذلك تلك التى لم نتمكن من رؤية سوى أطرافها كلها منحوتة فى صخرة واحدة ومشذبة بطرف الأزميل.

وعندما ننظر الآن إلى مجمل الخريطة نلاحظ انتظامها ونتعرف على مكان الأجزاء التى ظلت مختفية بالنسبة لنا، وقد اتضح لنا وجودها. والمدخل الرئيسى كان على الأرجح عند الباب الأخير الذى شاهدناه والموجود بالقرب من شاطئ البحر.

وعلى الجانب الآخر من المحور يوجد جزء مماثل للرواق الذى شاهدنا أعمدته الأربعة. وفى نفس الجانب نرسم الممر والقاعة المربعة الشبيهة بتلك التى عبرنا من خلالها إلى الرواق.

وعندما نوضح الأجزاء التى شاهدناها فإننا نستطيع أن نعتقد أنه يوجد على يمين الأثر كتلة مماثلة لتلك التى تتكون من القاعتين الأوليين اللتين ذكرتهما. وإذا مددنا *القاعة الثانية فنستطيع أن نتخيل ممرًا يربط بين هاتين الكتلتين العريضتين ونرى عندئذ مبنى ضخمًا وعظيمًا*. ويجب الا نعتقد أن فرض هذا الضم (أو الربط) لايرتكز إلا على الخيال لأنه إذا كانت صعوبة المرور عبر الرديم لم تسمح لنا برؤية أى شىء فى الداخل يمكن أن يؤيد هذه الأفكار فإننا قد تعرفنا فى السطح الخارجى على عدة آبار شبيهة بتلك التى نتحدث عنها وتلائم الأجزاء التى نفترض وجودها[١].

---

(١) انظر الخريطة العامة، اللوحة ٤١ ، شكل ١ ، المجلد الخامس .

ولقد اعتقدنا فى البداية أن مايطلق عليه حمامات كليوباترا هو جزء من هذا الأثر وأن الطريقة التى تربطها به ستقدم لنا بعض الأفكار عن الغرض منه. وبالتالى فقد أخذنا مساقط كل الملحقات. ولكننا وجدنا أن هذه الحمامات المزعومة ليس لها أية صلة بالأثر. فهى تبدو بنيانًا عربيًا وكذلك صهريج موجود بجانبها ولوحة فسيفساء كبيرة نرى بعض بقاياها فوق الحمامات.

ويبدو من التفصيلات السابقة ومن موقع هذا الأثر وسط مدينة الموتى القديمة أنه كان مقبرة مخصصة لضم جثمان شخص عظيم وحولها مقابر أقربائه المقربين. و قاعتا الدفن اللتان رأيناهما على جانبى القاعة الكبيرة المربعة كانتا على مايبدو مخصصتين لحفظ أجساد الأمراء أو الشخصيات المرموقة، والقاعات الأخرى والمبنيين الكبيرين ، كانا مخصصين للحفلات الدينية والجنائزية فى المعبد المكرس لهكاتيه كما يدل على ذلك الأهلة التى توجد على الجزء العلوى من الزخارف. والممر الموجود تحت الأرض الذى شاهدناه تحت القبة المصنوعة من الطوب قد يدعو للاعتقاد بأن بعض الطقوس الدينية لم تكن غريبة عن الطقوس التى تمارس فى هذه المقابر. وأخيرًا فإن الممر الصغير الذى يؤدى من قاعة الدفن إلى البحر كان مخصصًا لتطهير الجسد قبل تحنيطه.

وأخيرًا هل كانت هنا مقبرة البطالمة التى كان سكان الأسكندرية يسارعون فى تقديمها لأوكتافيوس بعد أن زار هذا الحاكم الجديد لمصر قبر الإسكندر[١].؟ هل كانت المقبرة البديعة المزينة بعدد كبير من التجاويف والقباب ، التى يخبرنا التاريخ بأن كليوباترا لجأت إليها وأسرت على يد بروكليوس قائد أوكتافيوس بعد هزيمة ومصرع أنطونيوس[٢]؟ إننى لن أناقش هذا فأنا لم أقترح هنا إلا إعطاء تفاصيل عن البقايا الجميلة لهذا الأثر.

---

(١) سويتون ، فى مصر ، المقطع ١٨ .
(٢) رولان ، التاريخ الرومانى، المجلد ١٦ ، الكتاب ٥٢ ، ص ١١٠ .

(تابع)

الفصل الثامن عشر

وصف عام لمنف والأهرامات مصحوب بملاحظات جغرافية وتاريخية

بقلم السيد / جومار

[القسم الثاني][1]

المبحث الأول: حول عدة مناطق في سهل أو إقليم منف

كي لا أتحدث بعد الآن إلا عن منف نفسها والأهرامات الكبيرة، سأتناول في بضع كلمات في هذا الموضوع مقاطعة منف، وسيتم هذا في نفس الوقت بمدونة هذه المقاطعة التي وضعتها في الفصل ١٦ . وكذلك باسماء الأماكن التي مازالت فيها بعض الآثار.

إننا نجد اليوم آثارًا أو أطلالاً في ميدوم[2] في بمبا[3] في دهشور (أكانتوس)، وفي سقارة، وفي ميت رهينة (منف)، وفي أبي صير (بوزيريس). هذا بخلاف الأهرامات في ميدوم ورقة، والمتانية، ومنية دهشور، سقارة، أبي صير والجيزة. ويضاف لهذه المواقع جزيرة الذهب والكوم الأسود.

---

(١) انظر المجلد الرابع.

(٢) عندما تحدثت سابقًا عن ميدوم لم اذكر أننا نرى هناك أعمدة من الرخام معظمها ملقى على الأرض، ويبلغ ارتفاعها حوالي ٢م وسمكها ٤ ديسيمترات أما سمك التاج فيبلغ $\frac{1}{2}$٥. ويتبع كل من القاعدة والتاج الطراز الكورنثي ولكن طريقة تنفيذهما سيئة.
ونجد في هرم ميدوم فتحة يبدو أنها نفذت بخشونة في الجزء السفلي من الواجهة الشمالية، ونجهل ما إذا كانت تؤدي إلى الداخل أم لا.

(٣) كتب اسم هذا المكان في الفصل ١٦ بمبا وهو نفسه الذي كتب باللغة العربية على الخريطة، وبهجاء آخر بمحا وهو ما يتوافق مع ما ورد في رحلة انطونيانوس.

إن المدن والأماكن التى ذكرها المؤلفون هى : بمبا، دهشور، منف، أبوصير، وفـينوس أوريا[١] والأهرامات. وذكرت اسماء أخرى كذلك : السرابيوم، بساميوس، سنوبيون - وهو جبل قريب من منف- القنال المسمى نهر أشيرون. وهذه الأماكن تتبع منف وسنتحدث عنها فى الفقرة التالية.

أما بالنسبة للكبارى المقامة على قنال الأهرامات فليس لها مكان فى هذا الوصف، إذ أنه من المؤكد أنها من عمل أمراء مسلمين[٢] ولا شىء يدل على أنه قد أعيد بناؤها فوق أساسات قديمة. وبعد هذه الأماكن فإن أقرب موقع لمقاطعة منف هو مدينة ليتوبوليس التى سنتحدث عنها فى دراسة أخرى[٣].

ولقد اتهم أحد العلماء دانفيل بإنه أخطأ فيما يتعلق بموقع المكان المسمى فينوس أوريا الذى ورد ذكره فى النص التالى لديودور الصقلى: «يطلق أهل البلد على فينوس اسم أوريا وفقًا لتقليد قديم. وهناك حقل يسمى حقل ڤينوس أوريا فى أطراف مدينة منف الشهيرة». إن المدينة التى تقع بجوارها ليست منف _ كما يقول هذا العالم _ ولكن مومفيس المكان الذى يقع بعيدًا فى الشمال[٤]. وهذا الانتقاد لا أساس له بالرغم من أنه يُدعم بنص نشره وسلينج. وفى الواقع أن لقب «الشهيرة »أو «مدعاة للفخر» الذى يناسب منف جيدًا هل من الممكن أن يلقب به مكان غامض مقارنة بهذه العاصمة؟ ان استرابون[٥] يقول فى الحقيقة إن ڤينوس كانت تعبد بها، ولكن هذا ليس سببًا كافيًا يمنعنا من أن نلتزم بالنص الذى أوردته.

وبالفعل يوجد فى جنوب الجيزة على بعد ميل ونصف من منف قرية تحمل اسم جزيرة الدهب أو حقل الذهب[٦]. فهل تماثل المكان وتشابه الاسم مجتمعان هنا دون أن يؤكدا تشابهًا فى الموقع ؟ أراد ديودور أن يثبت أن صفة "الذهب" التى

---

(١) يذكر جدول ثيودسيوس فى هذا المكان موقعًا باسم «ڤان» وهو اسم خاطئ تمامًا.

(٢) انظر وصف القاهرة، (الجزء العاشر من الترجمة العربية).

(٣) انظر دراسات الجغرافيا المقارنة.

(٤) طبعة لانجليه لرحلات نوردن، المجلد الثالث، ص٢٠١.

(٥) الكتاب ١٧، ص٨٠٣-١٤٠ هيرودوت، الكتاب الثانى، المقطع ١١٢.

(٦) أذكر أن أكثر من موقع وأكثر من حقل فى مصر الوسطى يسمى "جزيرة" دون أن يكون جزيرة.

أعطاها هوميروس لڤينوس جاءت من مصر، وعمومًا فإن هوميروس ويونانيين آخرين مشهورين قد أخذوا أشياء كثيرة من هذه البلدة. أما إن كان هذا المكان يدين باسمه لخصوبته أو لأى سبب آخر أو أنه أخذ هذا الاسم لأنه مكرس للآلهة التى تسمى بهذا الاسم فهذا شىء أجهله. ولكن يبدو لى أن لا شىء يرفض أن يضع فى هذا المكان شديد الخصوبة " حقل الذهب " أو " حقل ڤينوس الذهبية " التى ذكرها ديودور الصقلى.

وهيرودوت يضع فى منف معبدًا صغيرًا مكرسًا لڤينوس الغريبة (أو ڤينوس التى استقبلت باسم الضيافة): وهذا يكفى لتفسير اسم المكان بعيدًا عن المعنى الذى يجب إعطاؤه لهذا التقليد، وسوف نعود لهذه النقطة فى المبحث الثالث.

والكوم الأسود هو اسم قرية واقعة فى مستوى الهرم الثانى على الضفة الغربية للقنال الغربى وهى أقرب قرية لأبى الهول وهذه القرية تحتوى على أكوام الأطلال وتميل إلى التعرف فيها على مكان أبى صير الذى يبينه هذا النص لبلينى: " الأهرامات التى فى منف فى الجزء القريب من المدينة التى تدعى بوزيريس ومنها يمكن الصعود إلى الأهرامات ".

وإذا كان الأمر قاصرًا على الهرمين الكبيرين فهذا القرب لم يكن يتفق مع المسافة من هذين الأثرين حتى أبوصير وتبلغ ١٣,٠٠٠ مترًا فى خط مستقيم، ولكن موقع أبى صير التابع لمنف محدد جدًا فى أبى صير وهو مكان ملىء بالأطلال وبقايا الآثار القديمة ويصعب تحديده فى الكوم الأسود على بعد ٣ أميال. وهذه نقطة تظل غير أكيدة كما سبق أن لاحظت ذلك وأعتبر أبا صير كأحد ضواحى منف وليس كمدينة منفصلة.

المبحث الثانى: وصف أطلال منف

ليس هناك مؤرخ لتاريخ مصر لم يذكر مدينة منف ولم يتناول آثارها أو تاريخها ونستطيع أن نسهب طويلاً فى هذا الموضوع الشيق. ولكن الموضع الذى

خصص فى هذا الجزء من الكتاب لمنف يجب أن يكون محددًا أكثر؛ حيث إن الآثار الباقية والدالة على عظمة المدينة قديمًا قليلة وغير كافية لتقديم وصف لهذه الآثار.

ولا أعتقد أن كل الآثار القديمة التى كانت تزين هذه المدينة قد تهدمت تمامًا واندثرت بل من المعتقد أننا سنجد بقايا آثار مهمة إذا ما قمنا بحفائر كبيرة فى تلال الآثار الموجودة. ولكن كل شىء مختفى أو مدفون تحت الأرض تقريبًا. فلم نعد نرى أى أثر لمعبد أو قصر أو أى أثر غير متهدم. ولهذا السبب تردد الجميع فى تحديد موقع منف. فكثير من المؤلفين وحتى من الرحالة الجدد مثل شو أو سيكارد اعتمدوا على أسباب واهية وغير دقيقة وظنوا أن منف تارة فى الفسطاط وتارة فى الجيزة أى أبعد ٤ أميال باتجاه الشمال من ميت رهينة (مركز الآثار الواضحة حاليًا).

والرحالة لم يروا أى موقع مغطى بالآثار المهمة لكى ينسبوه بحق إلى العاصمة القديمة. وبوكوك الذى رأى آثارًا فى أم خنان قال إن هناك تلالاً من الآثار فى ميت رهينة وحدد فيها بطريقة غامضة موقع منف دون أن نتأكد أنه ذهب بنفسه إلى المكان. وبعده حدد بروس نفس المكان دون أن يصف فيه أى شىء ملحوظ. وكان دانفيل قد ضمن أنه قد يكون فى مكان أبعد جنوب الجيزة، ولكنه أعتقد أنه يقع على شاطئ النيل، حيث يوجد سهل فسيح وظن أنه أمام العدوية وهو مكان موجود على بعد ميلين إلى الشمال. أما نيبور فقد أقر ـ دون أن يرى المكان ـ أن منف كانت فى الجنوب. وكان مايبه يعتقد كذلك أن منف كانت تبعد عن الجيزة فى منوف[1]. وقد حاول فورمان أن يثبت ذلك ولكن هذه النقطة فى خريطته تقع على بعد ميل ونصف من الهرم الأكبر وبعيدًا جدًا عن ميت رهينة وبالقرب من سقارة وأمام أثر النبى : وهذا شىء غير مفهوم ولا يسمح بتكوين فكرة صحيحة عن موقع هذا المكان الذى ينظر إليه على أنه منف[2].

---

(١) ذكر الأدريسى ـ فى ترجمة جابريل سيونيت (تعليق هارتمان، ص٢٧٨) ـ أن منف تقع فى الجنوب بجوار الفسطاط.

(٢) وصف تاريخى وجغرافى لسهلى عين شمس ومنف، ١٧٥٥، ص٢٠١ وما بعدها. ولعل المعلومات البسيطة التى يذكرها فورمان تجعلنا نشك فى أنه رأى الآثار الحقيقية.

ويجب أن نعرف أن الوادى فى جزئه الغربى كان مغطى بغابات كثيفة من النخيل، وكان يتعين الخوض فى هذه الغابات لاكتشاف الموقع الحقيقى، وهذا ما اضطررت لعمله عندما كلفت بالتعرف على مديريات الجيزة وبنى سويف. ورأيت فى هذه الفترة[١]. آثار منف على يسار الطريق وقمت بتحديدها على الخريطة الطبوغرافية. وكانت عبارة عن تلال مرتفعة جدًا تفوق النخيل فى الطول وشكلها شكل الآثار. وبعد أن وصلت الى غابة ترسة والمنيل على بعد ميل من الجيزة وصلت بعد ميل إلى غابة المنوات[٢] وأم خنان التى يبلغ طولها ميلا ونصف. وهى تخفى بالكامل لعين المسافر مكان أبى صير والآثار الشمالية لمنف. وأخيرًا نمر أمام حاجز ثالث من النخيل يمتد بطول ميل ويستخدم كحزام حول آثار ميت رهينة وما حولها وهى الوحيدة التى مازالت واضحة من منف القديمة والتى لم تختط بحفر الأرض وتسوى بالمحراث. وبعد عام زرت هذا المكان مع أعضاء لجنة العلوم وأتينا من الجهة الشرقية أى سقارة. فرأينا تلالاً طولها حوالى ٣٠٠٠ مترًا ومنها تربة ميت رهينة التى تشكل وسطها وتفصل هذه التلال عن آثار سقارة قناتان وسهل.

وتقع ميت رهينة على مسافة ٢٠٠٠ متر شرقى سقارة و ١٧,٦٠٠ مترًا جنوبى الجيزة وعلى نفس المسافة من الهرم الأكبر، وعلى خط عرض ٥٢´ ٢٩° . وسنرى الآن فى شهادة التاريخ أن منف كانت تمتد حتى هنا بل أبعد من ذلك. وسأكتفى بالقول إن ميت رهينة تقع على مسافة ١٢ ميلاً بالضبط من القاهرة القديمة، كما كانت منف بالنسبة لبابيلون وفقًا لرحلة أنطونيانوس ونستنتج من وصف الطريق أنه من المستحيل رؤية بقايا منف قبل أن نلمسها، وأن هذا ليس إلا جزءًا من المساحة التى كانت تشغلها بالتأكيد فسقارة وأبوصير وحتى جزء من غابة المنوات التى نجد بها آثارًا تبدو ضمن مكانها القديم. وهذا ما سيتفق معنا على أنه محتمل جدًا بعد أن نقيم الأسباب التى أعرضها فى الفقرة التالية. والآن لن نشير إلا إلى تلال الآثار الظاهرة والواقعة بين أكواخ كوم العزيزية فى

---

(٣) جزء من يوميات رحلاتى، ١٧ يناير ١٧٩٩.

(٤) ليس هذا موقع منف.

الشمال، وميت رهينة فى الغرب وقنال البدرشين فى الجنوب : وبالنسبة للنقاط الأخرى المحيطة حيث توجد بعض الأطلال أو آثار قديمة فإننا نرجع إلى اللوحات وتفسيرها[١].

وتشكل هذه التلال سلسلة عريضة من البقايا مغطاة بالنخيل وبالأحجار المكسورة المكدسة فى كل جانب بعضها من الجرانيت والبعض الآخر من مادة الحجر الجيرى. ويفصل سهل صغير بين تلال الأطلال ويخترقها قنال. ويتولد من الفيضان برك يحل محلها حقول مزروعة. وهناك أكوام من الكتل الجرانيتية والأحجار الرملية الضخمة. وكلها مغطاة بنقوش هيروغليفية. وهو مكان لمبنى كبير تهدم تمامًا[٢]. وفى الطريق الجنوبى ـ الشرقى للآثار اكتشف أعضاء لجنة العلوم على عمق صغير تحت الأرض بقايا تمثال ضخم من الجرانيت الجميل[٣]. وهذه البقايا تكفى لإعطاء فكرة عن التمثال أو على الأقل عن المادة التى صنع منها وعن حجمه.

والجرانيت لونه وردى مصقول جيدًا وقد وجدت أجزاء من الكتف ومن الساعد وقطع مختلفة من الجذع والأطراف : والجزء السليم هو المعصم الأيسر الذى وجد كاملاً. وقد نقل هذا الجزء الضخم إلى القاهرة ومنه إلى الأسكندرية حيث لقى مصير الآثار الأخرى التى وقعت فى أيدى الجيش البريطانى[٤]. وطول العقلة الكبيرة فى الأصبع الوسطى بلغ ٠,٦٧٧ مترًا وبلغ عرض الأصابع الأربعة عند المنشأ ٠,٨٦٧ مترًا؛ وبلغ ارتفاع المعصم أو المسافة بين بداية الساعد حتى مفصل الأصبع الوسطى ٠,٨٧ مترًا، وبلغ عرض المعصم عند بداية الساعد ٠,٦٢ مترًا. وراحة اليد إذا قيست على الظهر تبلغ ٠,٩٧٥ مترًا (٣ أقدام).

وأخيرًا المسافة بين مفصل الأصبع الوسطى وعظمة المعصم هى نفس المقياس. وهذا الجزء يبين أن التمثال كان يمسك فى يده لفافة كما نشاهد ذلك بصورة عادية فى أيدى التماثيل أمام مدخل المعابد. ومن هذه المقاييس السابقة

---

(١) انظر على وجه الخصوص لوحة أو اللوحات التالية لها، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

(٢) انظر اللوحة ٣، نفس المجلد.

(٣) انظر المشارية المصرية، رقم ٥٨.

(٤) انظر اللوحة ٤، شكل ١، المجلد الخامس.

أصبح من الممكن الحكم على حجم التمثال العملاق. وكثير من هذه المقاييس ـ وفقًا لحجم الإنسان ـ تفترض قامة طولها ١٧ مترًا والفالبية ١٨,٥ مترًا. فمن المحتمل أن التمثال كان لعملاق يبلغ ٤٠ ذراعًا[١]. وسنعود بعد قليل للحديث عن هذه النسبة الضخمة وعينة وحيدة مماثلة تجعلنا نحكم على ضخامة آثار المدينة وتكفى لتثبيت المكان الذى شغلته هذه العاصمة.

وفى الجزء الجنوبى للآثار تم اكتشاف بئر كبير وعميق مغطى بحجر جيرى أبيض وبجواره سلم بحالة جيدة[٢]. ويذكر شيخ ميت رهينة أنه عند عمل حفائر فى هذا المكان وعلى عمق بسيط تكتشف تماثيل كثيرة. وقد وجدت بالقرب من ميت رهينة آثار جدران سميكة جدًا وعدد كبير من مبانى مصرية أخرى من الطوب النيىء وأجزاء من أعمدة وقطع منحوتة ومواد من الجرانيت. وبالقرب من العملاق الضخم رأيت رأس تمثال آخر مدفون يخرج من تحت الأرض وقد قدر أنه من نفس نوع رأس تماثيل طيبة التى تستند إلى الأعمدة. ونجد فى كل مكان أجزاء من الألبستر والجرانيت والبازلت المُشكل وبصفة خاصة جرانيت أبيض غاية فى الجمال صُنعت منه أوانى مسطحة. وأغرب شىء رجعت به هو قطعة من خزف منحوت تمثل جزءًا من سور غطى بهذه المادة الجميلة. وهذه القطعة تلفت النظر باللون الأزرق الذى يغطيهـا، إنه الأزرق الزهرى؛ فنحن نعـرف أن المصريين كانوا بارعين فى فن التقليد ولكننا نملك عينات قليلة لهذا الحجر المقلد. والشىء الجدير بالملاحظة هو نقاء الصور الهيروغليفية التى نقشت عليه، فالخط دقيق والأركان زاهية كما لو كان هذا العمل قد خرج توًا من أيدى النحات الماهر ولم يخضع لنار شديدة. والصور كانت من عجينة بيضاء محفورة بفن فى معجون الخزف. وللأسف لم أجد الوقت لجمع كل القطع من ذات النوع التى توجد فى هذا المكان، ونستخرجها بإجراء حفائر وهذا النوع قد صُور فى مجموعة الآثار[٣]. وأعتبر هذا النوع من الزخارف الجدارية مشابهًا لزخارف

(١) انظر دراسة نظم القياس.

(٢) سجل السيد جراتيان لوبير هذه الملحوظة، وقد حصل هذا الرحالة على تمثال مصرى بالحجم الطبيعى عثر عليه شيخ القرية فى سقارة.

(٣) انظر اللوحة ٢٨٧ شكل أو الشرح، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

دواوين قصر القاهرة حيث نرى الجدران مغطاة ببلاط من الخزف رُسمت عليه موضوعات متنوعة[١]. وهذا النوع من الفسيفساء القديم يستحق أن يهتم الرحالة بالبحث عنه وفى داخل الآثار توجد بحيرتان أو بركتان فى شرق ميت رهينة وسط سهل صغير يرويه قنال البدرشين: وهاتان البحيرتان نتجتا عن تدفق هذا القنال، فطبقًا للفصول تتكون هذه البحيرات أو تختفى. وبعد انحسار المياه بل وفوق المياه نشاهد آثارًا فى مكان البحيرة الكبيرة الأقرب من شرق القرية. وأعتقد أننى تبينت إتجاه كثير من الشوارع الرئيسية. وأخيرًا فالنقط الثلاث التى لاحظت وجود بقايا قديمة أكثر فيها كانت فى جنوب ميت رهينة داخل وجنوب البحيرة الكبيرة. وفى نهاية هذا الوصف غير الكامل لآثار منف الحالية لا نملك إلا أن نكرر المزاعم التى طرحناها فى البداية وهى أن تلال الأطلال الحالية تحوى كذلك بقايا وأساسات الآثار وكمية من الحطام تستحق أن يدرسها محبو الآثار. والتاريخ والفنون يحققان مكاسب كبيرة بالحفائر التى تتم فى أرض طيبة الثانية وهى حفائر تتكلف الكثير ولكنها فى نفس الوقت تعتبر شرفًا للحكومة التى تقوم بها؛ علاوة على أن خريطة الأبحاث المطلوب عملها فى هذه الأطلال جاهزة تمامًا. إن معهد (الآثار) بمصر كان قد عين لجنة لهذا الغرض وهذه اللجنة كتبت تقريرًا مطولاً وتم نشره. وإذا كنا نوصى الرحالة بدراسة هذا الأثر المهم الذى يتناول كل ما يتعلق بأهرامات الجيزة وسقارة علاوة على الأبحاث المطلوبة فى أرض منف فإننا ندعو قراءنا كذلك لفحصها.

المبحث الثالث: ملاحظات جغرافية وتاريخية حول مدينة منف

كان فى منف العديد من الآثار البديعة وفقًا لما ذكره المؤرخون. واليوم لا نكتشف أى أثر؛ اللهم إلا بعض أجزاء من تماثيل وبقايا آثار متنوعة : فماذا حدث لها ؟ إننا نتساءل ألم تكن القصور والمعابد وغالبية المبانى بخلاف التماثيل والمسلات منشأة من الحجر الجيرى المستخرج من المحاجر القريبة ؟ هذا ما

---

(٤) انظر الدولة الحديثة، المجلد الثانى، اللوحة GG، شكلى ١٣، ٤، ووصف القاهرة.

نميل إلى الاعتقاد به عندما نرى أن فى مصر ـ فى كل مكان استخدم القدماء هذا الحجر فيه ـ قام السكان الجدد بتحويله إلى جير بينما نجد المبانى المصنوعة من الحجر الرملى مازالت قائمة، وتعرضت لسبب آخر للتدمير الذى لحق بالآثار (دون ذكر الدمار الذى سببه قمبيز) وتسبب فى اختفاء كل هذه المبانى من على سطح الأرض. وقد تلت منف عواصم مختلفة : الأسكندرية، الفسطاط والقاهرة. وكل أثر من آثارها تم استغلاله كمحجر لتوفير مواد بناء المدن الجديدة. وهذا ما يشهد به تاريخ العرب ورؤية هذه الأماكن.

١- امتداد وحدود منف

طبقًا لنا فإن موقع منف يحدده جيدًا شهادة القدامى بالمقارنة بالطوبوغرافية الحالية، بعيدًا عن الآثار الموجودة، ومن المدهش أن المؤلفين الجدد والرحالة قد أخطأوا، وهذا بسبب غياب الانتباه الكافى.

١- هيرودوت : لا نستخلص منه إلا معلومات غير مباشرة حول موضع منف على الإطلاق. ويتعلق هذا بالنص الذى يقول فيه إن مينا عندما أراد أن يحول مجرى النيل الذى كان يمر بمحاذاة الجبل الليبى وجعله يجرى على مسافة متساوية من الجبلين حتى يبنى مدينة مكان النهر القديم، فأخذ يردم المنحنى الذى يشكله النهر وبنى سدًا على بعد ١٠٠ غلوة تقريبًا أعلى من مكان المدينة (وكان يعتنى بالسد ويقوى كل عام) وحفر بحيرة فى شمال هذا المكان[١] وغربه؛ ولكن عندما نفحص بعناية خريطة الوادى نعرف أن هذا الوصف ينطبق جيدًا على موقع ميت رهينة. وبالفعل على بعد ١٠٠٠٠متر[٢] أو ١٠٠ غلوة جنوبيًا فى قرية مدجونة يتجه النيل شرقًا نحو التبين ويسلك من ذلك المكان خطًا وسطًا بين سلسلة الجبال الليبية والسلسلة العربية تاركًا بذلك الاتجاه الغربى التى ربما كانت تصل به قديمًا إلى دهشور التى ينطبق عليها المنحنى الذى أشار إليه المؤرخ.

---

(١) هيرودوت، الكتاب الأول، الفصل ٩٩.

(٢) هذا بمقياس ١٠٠ غلوة من غلوات هيرودوت أو الغلوة المصرية الصغيرة.

إن مـا يؤكـد الرواية التى ينقلها هيـرودوت هو القنال الغربى : فـهذا القنال الواسع والعـميق نوعًا مـا يتبع سفح جبال السلسلة الليبيـة وقد جذب انتبـاه المهندسين الفرنسيين. لقد رأيته وعبرته فى عدة نقط وأعتقد مع كثير من رفاق السفر إنه الجزء الباقى من مجرى قديم للنيل وليس من عمل الإنسان.

وبالنسبة لامتداد منف وحدودها فإن هيرودوت لا يقدم أى مقاييس، ولكن الأمر مختلف بالنسبة للمؤلفين الذى سنقوم باستعراض آرائهم.

٢- يذكـر ديودور الصـقلى أن مـحـيط المدينة كـان يبلغ ١٥٠ غلوة فى وقت مؤسسها المسمى أوخوروس[١]. ولا يمكن أن نتردد هنا بين المقياسين اللذين استخدمهما ديودور فى كتابه، علاوة على انه استخدم فى كثير من الأحيان غلوة الـ٦٠٠ درجة، خاصة فى المسافة من الأهرامات إلى النيل التى يحددها بـ ٤٥ غلوة. وبالفعل أن غابة المنوات الكبيرة فى شمال ميت رهينة تحتوى على أكوام كبيرة من الأطلال يمكن أن ننسبها إلى منف القديمة، وإلا فإنه يتعين صرف النظر عن مسافة السبعة أميال ونصف التى يحددها بلينى بين منف والأهرامات وتحدد هذه المدينة نحو أبى صير فى الجانب الشمالى ويبلغ المحيط ١٥٠ غلوة بمقياس هيرودوت[٢].

٣- يحدد استرابون ثلاثة - المسافة الواقعة بين الدلتا ومنف (الكتاب ١٧، ص٨٠٧). وقد بينت فى دراسة حول نظم القياس عند المصريين القدماء وفى الفصل العشرين من "وصف الآثار" ماهى نقطة البداية التى تحسب من عندها المسافة : إنها طرف الفرع القديم بالقرب من باسوس : ولكن إذا قسنا هذه المسافة من هذه النقطة فإننا نصل إلى حوالى ٢٠٠٠ متر جنوبى ميت رهينة، وربما كان يوجد هنا أحد مداخل الجنوب[٣]. ووفقًا لنفس المؤلف فإن الهضبة التى بنيت عليها الأهرامات الكبيرة وعدد آخر كبير كانت على مسافة ٤٠ غلوة

(١) الكتاب الأول، المقطع ٥٠.

(٢) لقد عرضنا هذا الرأى فى دراسة نظم القياس عند المصريين القدماء، واعتمدنا فقط على الرقم: ١٢٠ غلوة الذى حدده ديودور للمسألة بين الأهرامات ومنف، وربما يقصد هنا الغلوة الصغيرة.

(٣) يحدد الإدريسى ٣ باراسنج للمسافة من منف إلى الدلتا، وبذلك يخلط بين الباراسنج والشون: انظر الدراسة حول نظم القياس، دراسات العصور القديمة، المجلد السابع.

من المدينة وهذا المقياس يوافق مقياس آخر يقدر بستة أميال سنتحدث عنه بعد قليل إذا ما ميزنا بين الأهرامات والهضبة التى بنيت عليها. وينتج عن ذلك حد فى الشمال الغربى لمدينة منف، ونرى فى هذه النقطة سدًا قديمًا متهدمًا (الخريطة الطوبوغرافية لمنف)(١).

٤- ويعطى بلينى مسافتين تحددان بالضبط الحد الشمالى لمنف أو على الأقل حد الضواحى المتقدمة. فالمسافة الأولى تبلغ ١٥ ميلا بداية من الدلتا والثانية تبلغ ٧,٥ أميال بداية من الأهرامات. فإذا رسمنا قوسين فى دائرة وتكونٌ هذه المسافات نصف القطر فإن القوسين سيتقابلان بالقرب من المنوات ؛ وهو المكان الموجود داخل المحيط الناتج من شهادة ديودور. إذًا فيمكن أن ننظر لهذا المكان كأحد الأبواب _ وإذا لم يكن للمدينة باب _ فهو على الأقل الحى الشمالى. وتشير أحدى مخطوطات بلينى فقط إلى ٦ أميال: وإذا فضلنا هذا المقياس فإنه يصل إلى السد المهجور شمال غربى أبى صير وهى النقطة التى أشرنا إليها، ويحتمل أن تكون بابًا آخر للضاحية.

وهذا على الأقل نقطة فى الشمال ونقطة فى الجنوب يمكن أن نشكل منهما تخطيطًا تقريبيًا لمحيط منف القديمة الخارجية وهو تخطيط يشمل فى الداخل أبوصير و ميت رهينة. وهذا الخط سيمر تقريبًا بأم خنان، والمنوات ، والسد القديم، والأهرامات فى شمال غربى سقارة وهذه القرية الأخيرة ونقطة على بعد ٢٠٠٠ متر اجنوبى ميت رهينة وشمالى أبى رجوان ومن هنا _ عندما ندور _ نجد خطًا بين النيل وطريق مصر العليا(٢). وإذا قمنا بقياس محيط هذا المعين المستدير فإننا نجد الـ ١٥٠ غلوة التى يحددها ديودور الصقلى على حساب غلوة الـ ٦٠٠ درجة.

٥- ويمكن أن نذكر بطليموس عند الحديث عن الفرق فى خط العرض بين منف ونقطة معروفة هى بابيلون. وهذا الفرق كان وفقًا له ٣٠ درجة ويصل عند جنوبى ميت رهينة.

---

(١) انظر اللوحة ١، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

(٢) ذكر العلماء الفرنسيون الذين قاموا بوضع ترجمة لكتاب استرابون أن المدينة كانت تمتد إلى الشمال أكثر أى أبعد من ميت رهينة.

(١) وفقًا لبنيامين دو تودل فإن عرض مصرايم القديمة بلغ ٢٠٠٠ شون وتقع على مبعدة ٢ بلراسنج من

٦- وفي رحلة أنطونيانوس نجد مقياس يبلغ ١٢ ميلاً بين بابيلون ومنف. وهذا المقياس يصل بالضبط عند ميت رهينة. ونفس الشيء بالنسبة لمسافة العشرين ميلاً بين ليتوبوليس (كوم الأحمر) ومنف. وكان هذا الموقع أو أي موقع آخر إلى الغرب عبارة عن نقطة بداية _ غير مركزية _ كان يبدأ عندها حساب المسافات.

ويمكن أن نذكر هنا مسافة تبلغ ١٨٠ غلوة حددها يوسيفوس من مدينة منف إلى أونيون (وفقًا لما أرى لتل اليهودية) شريطة أن نعتبر أن عدد ١٠٠ متر قد أدخل مكان ٢٠٠ ؛ لأن الخريطة تبين ٢٨٠ غلوة طبيعية بين هذا المكان والطرف الجنوبي لمنف، وهناك نحدد مسافة الثلاثين شونًا[1].

وهكذا نجد ١٢ نصًا مختلفًا (دون أن يتضمنها نص الإدريسي) تحدد موقع منف القديمة وكلها تتفق مع بعضها بالإضافة إلى أنها تقدم نقاطا كثيرة عن حرمها. ويمكننا باعتبارات جغرافية[2] صرفة _ أقل غموضًا من مجرد النبذة التي نستخلصها من الأهمية التي يعطيها لها المؤرخون أو من الآثار التي زينتها _ أن نكون فكرة معقولة عن حدود هذه المدينة الكبيرة وعن المساحة التي كانت تشغلها. وبواسطة هذه الحسابات يمكننا أن نقوّم تقريبًا المساحة وحتى استخلاص بعض المعلومات عن سكانها القدماء. وحيث إن الأمر هنا لا يتعلق بتحديد هندسي فإننا سنكتفي بتقدير ذلك برقم صحيح.

إن طول منف مشتمل على الأحياء الخارجية قد يبلغ ١٠٠٠٠ متر ويبلغ متوسط عرضها ٥٠٠٠ متر؛ ومساحة المستطيل الذي يمر بالنقط القصوى تبلغ ٥٠٠٠ هكتار؛ ولكن ليس هناك أساس يجعلنا نعترف بأن كل هذه المساحة كان

مصرايم الجديدة (يقصد هنا بلا شك القاهرة) وبالإضافة إلى ذالك فهي على مبعدة ٢١٣ شونًا من رأس الدلتا القديم في ميت رهينة (مسافة تبلغ ٣ شون) ويبلغ محيط الآثار التي تتاخم ميت رهينة ما يقارب ٣٠٠٠ شون.

(٢) لكي ندرك هذه النتيجة بطريقة ملموسة ومحددة، يجب أن نلقي نظرة على خريطة توضح المسافة المتضمنة بين باسوس وميت رهينة، بالإضافة إلى الإشارات لكل المسافات التي ذكرناها منذ قليل (في غياب هذه الخريطة، انظر الخريطة القديمة والمقارنة لمصر السفلى، المجلد التاسع).

(١) في القاهرة يوجد ٢٦٣٧٠٠ نسمة لكل ٧٩٣ هكتارًا أي ٣٣٢ نسمة لكل هكتار وفي منف ٧٠٠٠٠٠

يسكنها سكان كثيرون. و $\frac{1}{4}$ هذه المساحة على الأقل كان غير مأهول، سواء كانت تغطيه الحدائق والميادين والأماكن العامة والأراضى أو كان ينظر إليه كجزء من الريف الواقع بين الشوارع الممتدة فى الأحياء الشمالية والشمالية الغربية المتجهة نحو عين شمس والدلتا أو نحو الأهرامات.

وتساوى المساحة المأهولة فى منف فى هذه الحالة أكثر قليلاً من مساحة طيبة أى ٣٥٠٠ هكتارًا. وأميل إلى الاعتقاد بأنه فى فترة أوج ازدهارها _ عندما فقدت طيبة الرخاء _ جذبت هذه المدينة إليها عددًا كبيرًا من سكان العاصمة القديمة واستطاعت أن تضم فى جنباتها سبعمائة ألف نسمة بهذا الحساب ولكى نتجنب أى مبالغة فإننى أقدر سكان منف بـ $\frac{٥}{٩}$ فقط سكان القاهرة.[1]

ويجب أن نتجنب أن نقول فى النهاية أنه كان يوجد فى مصر فى نفس الوقت مدينتان يبلغ سكان كل منهما ٧٠٠٠٠٠ نسمة. لأننى أعتقد أن منف وطيبة مجتمعتان لم يكن لديهما فى نفس الوقت أكثر من مليون نسمة وإن المدينة الأولى لم تزد إلا على حساب المدينة الأخرى، وهذا حدث عندما توقفت طيبة عن أن تكون مقرًا ملكيًا. أما بالنسبة للمدينة الثالثة فى مصر، أى هليوبوليس، أو عين شمس؛ فنستطيع _ حسب مواقع النقط القصوى التى مازلنا نرى فيها آثارًا _ أن نقارن مساحتها بمساحة القاهرة ونقر بأن عدد سكانها كان يتراوح بين ١٥٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ نسمة. وإذا نظرنا إلى الاسماء التى تطلق على الأماكن الحالية فى مدينة منف القديمة؛ فإننا يمكن أن نلقى بعض الضوء على حدود هذه العاصمة : ولكنى أترك هذا للعلماء والقراء الذين يدفعهم الفضول لتعميق هذه النقطة فى الجغرافيا التاريخية. وسألفت نظرهم فقط إلى كلمة طهما وهى قرية تقع فى شمال المدينة على شاطئ النهر، واسمها كان موجودًا فى طيبة.

وأبوصير الواقعة داخل حرم المدينة لا تفسح المجال لأى مشاهدة جديدة. والمنوات على حدود الحى الشمالى هى اليوم الاسم الوحيد فى كل سهل منف الذى له علاقة بمنوف التى يتحدث عنها الرحالة الجدد، وهذا الاسم الأخير هل

نسمة لكل ٣٧٥٠ هكتار أمسكون أى ٢٨٧ نسمة لكل هكتار.

(١) كفر طهرمس، بركة الخيام، ساقية مكى، جزيرة الدهب، الكنيسة، الكوم الأسود، نزلة القفة،

تم إحلاله منذ قرن أو قرنين أو هل سمع الرحالة اسمه خطأ وهم يبحثون فى هذا المكان عن بقايا اسم منف مثل بقايا الآثار القديمة، أم هل اختفت قرية منف كلية ؟ إننى لا أستطيع أن أجيب على هذه الأسئلة إلا إذا وضعت فى الهوامش أمام القارئ قائمة بكل القرى والأماكن المختلفة منذ الجيزة بخلاف الأهرامات[١].

إن فورمونت وهو يحدد منوف كموقع لمنف القديمة قد تأثر بالتأكيد بتناغم الاسماء، ألم يرَ هذا الاسم الأخير فى قوائم القرية القديمة ؟ فى الواقع أنه لا يحدد ولا يصف أى مكان محدد، بالرغم من أنه يضع قرية تحمل هذا الاسم فى خريطة سهل منف ومن المؤكد أن كلمة منوف و(منف) اللتين جاء ذكرهما عند المؤلفين العرب تحتوى على بقية الاسم القديم المدون طبقًا للإملاء الصحيح[٢] مثلما اشرت فى وصف أقليم بنى حسن[٣].

٢ - الآثار المقامة فى منف

أحياء المدينة

إن تاريخ ملوك منف هو نفسه تاريخ معالمها الأثرية ؛ لأنه طاب لهم أن يثروه بالعديد من الآثار الملفتة التى تعكس عظمة وبهاء طيبة التى تنافس العاصمة القديمة. ومن خلال الوصف الذى قام به المؤرخون نستطيع أن نحكم على أهمية وحجم هذه الآثار، بل نستطيع إلى درجة معينة - أن نحكم على أسلوبها وصفاتها عندما نقرب حكايات المؤلفين عن المدينة الأولى أو الأخرى ونعقد مقارنة بمعالم طيبة التى نعرفها جيدًا. وإذا كانت كل البناء تختلف باختلاف مواد البناء فهذه

الطالبية، ترسه، بنى يوسف، الحرانية، شبرامنت، زاوية شبرامنت، أبو النمرس، منيل شيحة، ابو سيفين (دير) طهما، المنوات، ميت شماس، ميت قادوس، أم ختان، الشيخ عثمان، منى الأمير، الحوامدية، ابو صير، كوم العزيزية، ميت رهينة، سقارة، البدرشين، الشنباب، دراجلى، أبو رجوان...وميت هى الاختصار المعتاد لكلمة منية التى تعنى مقر مثل منى.

(٢) انظر اللوحة ٥٨، شكل ٢٠، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

(٣) انظر الفصل ١٦، المجلد الرابع من وصف الآثار.

(١) هيردوت، الكتاب الثانى، الفصل ٩٩، ترجمة السيد ميوت.

ضرورة محلية طبيعية، ولكن كل التماثيل والمسلات كانت ـ مثل طيبة ـ من الجرانيت أو الحجر الصلب ويصعب تشكيلها. وأهم ما يميز منف ليس فقط عن طيبة ولكن عن كل العواصم هو الأسلوب المتبع فى شكل المقابر. فبينما نجد أن كل المقابر فى طيبة كانت عبارة عن غرف تحت الأرض ومحفورة، إلا أن المقابر فى منف كانت كلها ذات شكل هرمى: ويبدو أن هذا الأسلوب قد نشأ فى منف، وهو موضوع يستحق أن تتم فيه أبحاث متعمقة ليس فقط من أجل تاريخ الفن ولكن للعلوم والفلسفة. وستكون لنا فرصة العودة لهذا الموضوع وقبل أن أذكر شهادة المؤرخين حول الآثار يجب أن أسرد اسماء الأحياء والمحليات التى يشيرون إليها ونحاول التعرف عليها ؛ إنها طبقًا للاسماء الأغريقة: جبل بساميوس، السرابيوم، السنوبيوم، المكان المسمى كوشوم، أنهار اشيرون و كوسيت وليتا. وأول هذه الأماكن كان جبل بنيت منف عند سفحه. وهذا الجبل ليس إلا الجبل الليبى فى الجزء البارز منه فى الشرق من موقع الأهرامات فى سقارة حتى الأهرامات المتهدمة فى شمال شرقى أبى صير. ونعتقد أن هذا الاسم مشتق من كلمتين مصريتين ولكن طبيعة الأماكن تخبرنا بإنه يعنى فقط الجبل الرملى. ومنذ وقت استرابون كانت رمال ليبيا ـ مثل الآن ـ تحيط بأرض منف. ويذكر استرابون "كان معبد سرابيس " يقع فى مكان رملى حيث تقوم الرياح بتجميع الرمال، وكان بها مجموعة تماثيل أبى الهول بعضها مدفون حتى نصف الجسم والبعض الآخر حتى الرأس" وتراكم الرمال يتزايد اليوم بعد أن اختفت الحواجز ويغطى أكثر فأكثر موقع منف ، فالرمال تأتى من واد يقع فى جنوب غربى أبى صير.

والسرابيوم أو معبد سرابيس لا يمكن أن يكون بعيدًا عن هضبة الجبل الليبى. وللعثور عليه يجب القيام بأعمال حفر كبيرة بين سقارة، والهرم المدرج الموجود فى الشمال وحفر الرمال على عمق لكشف تماثيل أبى الهول. وهذه التماثيل تشكل ممرًا ـ مثل ما فى طيبة ـ يؤدى إلى باب المعبد. وكان أبيس يدفن فى هذا المكان وكان يحوى مقياسًا للنيل.

وفى الموضوع التالى سنتكلم عن سرابيوم بمختلف صلاته وأصله والديانة الخاصة به.

والسنوبيوم كان جبل منف، ولهذا السبب كان أوستات ينظر إلى سرابيس كأصل جوبيتر السينوبى عند هوميروس. ووفقًا جابلونسكى يعنى هذا الاسم مكان القياس لأن مقياس النيل كان يوجد هنا، وبدون شك كان القنال الغربى هو الذى يحمل المياه إلى هذه النقطة وحيث إنه كان يأخذ المياه من نقطة مرتفعة فى الوادى فإنه كان يمكن أن يدلنا على بداية الزيادة فى المياه قبل اليوم الذى تظهر هذه الزيادة فى النيل نفسه أمام منف.

إن أوزاب وسينسللا يذكران مكانا اسمه مدينة "كو" على مقربة من الأهرامات، ولكننا لا نملك أى معطيات لاكتشاف هذا المكان.

ووفقًا لديودور كان الأغريق قد استعاروا من مصر أنهارها الجهنمية الكوسيت والليتا. ويقول المصريون" إن اورفى قد أحضر معه من سفره أسراره وعريدته وكل أساطير جهنم ". ومن المحتمل أن الفكرة الأولية لجهنم عند الإغريق تكون قد أخذت من مصر ؛ ولكن أن نبحث فى مصر عن أصل أساطيرها بكل تفاصيلها وكذلك أنهارها ـ وهى من عمل خيالهم الخصب ـ وستيكس وفليجتون وتينار وتارتار وكارون وسيربر ومينوس وإيياك ورادامنت فإننا بذلك نكون قد قمنا بتقريب مفتعل، ونكون قد ضيعنا الوقت فى أبحاث غير مفيدة إذا ما أردنا أن نجد مكان كوسيت أو اشيرون على خريطة أرض منف. ولكن أحاول أيضًا أن أجد مكان بحيرة آشيروس الموجودة بالقرب من منف وفقًا لديودور والجزيرة المجاورة حيث يوجد معبد مكرس لعبادة ديدال. وبعد أن قال المؤلف أن أورفى وهوميروس قد استقا حكاياتهما من المصريين، وينسب إلى ديدال مدخل معبد فولكان فى منف ويؤكد أن تمثال فتان يونانى قد وضع فى هذا المعبد الشهير ـ وهو تمثال صنعه بنفسه ـ وهذا المؤلف لا يتفق مع نفسه حتى يمكن أن نسترشد به فى عمل تقارب غير واضح.

فى تقرير هيرودوت[١] أن مينا الذى أسس منف، وأقام السدود لتحمى هذه المدينة من الفيضانات وحفر البحيرات فى الشمال. وفى الغرب أقام معبدًا باهرًا تكريمًا لبتاح. ومن الصعب أن تتفق هذه الرواية مع صفة ملك مصر الأول التى يعطيها المؤرخ لنفس الملك إذا اعتبرت منف هنا كعاصمة. وبالفعل إن منف تلت مدينة طيبة كعاصمة(*)؛ ولكن ألا يجب أن نفهم من هذا أن مينا كان أول ملك لمصر يختار منف مقرًا له ؟ إذا كان ذلك فليس هناك ما يدعو للدهشة فى إقامة معبد كبير وبديع فى منف كما " نندهش عند رؤية مثل هذه الآثار منذ مهد الحضارة، إذ أن هذه الأمثلة كانت موجودة فى طيبة القديمة ؛ غير أننا ننظر كأمر طبيعى أن تكون منف مكانًا مأهولاً منذ القدم وقبل هليوبوليس، وكان مأهولاً بحكم موقعه كنقطة محصورة فى الوادى أعلى بداية الدلتا مثل مفتاح مصر العليا. وكما يراها هيرودوت تقع فى الجزء الضيق من البلد. فالعملية التى تنسب لمينا؛ وهى تعديل مسار النهر فى هذه النقطة _ لايمكن أن تكون قد تمت فى البداية، فكان يتعين فى البداية دراسة انحدار المياه والتأكد من إمكانية عمل هذه العملية الضخمة والاستفادة أخيرًا من المعلومات المحلية التى اكتسبها السكان المقيمون فى هذا المكان. وعلى أية حال فإن الملك موريس الذى سبق هيرودوت بتسعة قرون فقط قام ببناء المداخل المسقوفة الضخمة فى معبد بتاح التى تتجه نحو الشمال[٢]. وبعد رجوعه من فتوحاته سخر سيزوستريس الأسرى فى استخراج الأحجار الضخمة من المحاجر التى استخدمت فى عهده فى بناء المعبد. ووضع أمامه ستة تماثيل عملاقة، يبلغ طول أكبر اثنين منهما ٣٠ ذراعًا ويمثلان هذا الملك وزوجته. أما الأربعة الآخرون ويبلغ طولها ٢٠ ذراعًا فتمثل أولاده الأربعة[٣]. ويقول نفس المؤلف: "إن الملك بروتيه (هكذا يسمى فى لغة الإغريق)[٤] أطلق اسمه على ساحة مقدسة بديعة ومزينة بثراء إلى الجنوب

(*) كانت منف هى أول عاصمة لمصر الموحدة. (المراجع) .

(٢) هيرودوت، الكتاب الثانى الفصل ١٠١ .

(٣) هيرودوت الكتاب الثانى، الفصلان ١٠٨، ١١٠ .

(٤) ست عند المصريين (ديودور، الكتاب الأول، المقطع ٦٢).

(١) هيرودوت، الكتاب الثانى المقطع ١١٢ .

قليلاً من معبد بتاح. ونرى فى هذه الساحة مقصورة مكرسة لڤينوس التى استضافوها. وحول ساحة بروتيه نرى المساكن والحي المسمى معسكر التيرويون(١). وترك خليفته رامبزينيت_ كآثار لعهده _ بوابات معبد بتاح التى تتجه ناحية الغرب. وأمام هذه البوابات يوجد تمثالان يبلغ ارتفاعهما ٢٥ ذراعًا. ويطلق المصريون اسم " الصيف " للبوابة التى تواجه الشمال واسم " الشتاء " للبوابة التى تواجه الجنوب. وهم يقدسون تمثال الصيف ويقدمون له القرابين بينما يتعاملون مع تمثال الشتاء بطريقة عكسية(٢). وبوابات المعبد التى تواجه الشمس (جهة الشرق) قام ببنائها اسيشيس. وهذه البوابات أجمل وأكبر من البوابات الأخرى. وكل البوابات تزينها صور منقوشة وتبدو للناظرين فى تنوع كبير فى بنائها. ولكن البوابات الأخيرة أكبر من حيث الحجم(٣)، وبعد أن أصبح أبسماتيك ملكًا على كل مصر قام ببناء البوابات التى تواجه الجنوب فى معبد بتاح فى منف؛ وأقام الفناء الذى يقدم فيه الطعام إلى أبيس عندما يظهر. وهذا الفناء يقع فى مواجهة البوابات، ويحيط به رواق تغطى جدرانه صور منقوشة، وهذا الرواق به بدلاً من الأعمدة ١٢ تمثالاً ضخمًا يبلغ ارتفاعها ١٢ ذراعًا(٤). وقد كرس أمازيس فى المعابد الشهيرة عددًا كبيرًا من الآثار كلها لافتة للنظر بسبب حجمها وكبرها. ومن بينها يوجد تمثال لعملاق نائم على الأرض فى مواجهة معبد بتاح فى منف يبلغ طوله ٧٥ قدمًا. ونفس هذا الملك قام ببناء تمثالين عملاقين من حجر أثيوبيا يبلغ ارتفاع كل منهما ٢٠ قدمًا وموضوعان أحدهما على اليمين والآخر على يسار المبنى. كما نرى فى سايس تمثالاً من نفس الحجم مصنوع أيضًا من الحجر ونائم على الأرض مثل تمثال منف. وأخيرًا فإن هذا الملك نفسه أقام فى هذه المدينة معبد إيزيس اللافت للنظر بسبب حجمه وجماله ".(٥) وهكذا فإنه على مر ١٢ قرنًا لم يتوقف ثمانية ملوك عن

---

(٢) نفسه، المقطع ١٢١ .
(٣) نفسه، الفصل ١٣٦ .
(٤) نفسه، الفصل ١٥٣ .
(٥) نفسه : الفصل ١٧٦ .
(١) قام أبسماتيك بتقديم هدايا الى الكاريين والأيونيين الذين خدموه عبارة عن قطع من الأرض

تزيين معبد بتاح الكبير أو تجميل مدينة منف. وهذه الروايات تكفى لإعطائنا فكرة عن مبنى لايقل جمالاً عما نشاهده فى طيبة: ولكننا مضطرون لعمل افتراضات حول حالته ومساحته وحجمه. وفى طيبة تتوالى البوابات فى خط مستقيم ويفصل بينها فناء صغير، ونرى هنا بوابات إضيفت على التوالى إلى الشمال والغرب والشرق والجنوب. ويتعين أن نستنتج بالضرورة أنه كانت هناك عدة مداخل مختلفة _ خلافًا على العادة _ أو أن هذه البوابات كانت تؤدى فقط إلى ساحة خارج المعبد. وإحدى المعلومات التى جاءت فى وصف هيرودوت تجعلنى أعتقد أن المعبد الذى شيده فى البداية مينا كان مدخله يتجه ناحية الشمال. وبالفعل أن أول بوابة أضيفت أمام المعبد كانت بوابة موريس وأقيمت فى الجانب المواجه للشمال وغالبًا أمام المدخل. وإذا قمنا بدراسة متأنية لهذا الوصف وعملنا مقارنة مع آثار طيبة _ نظرًا لعدم وجود آثار متبقية _ فلن يكون من المستحيل أن نتوصل إلى اكتشاف شىء عن حالة معبد بتاح أو معبد بتاح وحتى حجم هذا المبنى الكبير.

وبالفعل فإن المصريين كانوا يتبعون القواعد ويلاحظون النسب فى جميع أجزاء مبانيهم. فمثلاً أنهم لم يقيموا تماثيل طولها ٢٠، ٢٥، ٣٠ ذراعًا وأكثر من ذلك أمام أعمدة ذات ارتفاع متوسط. ونستطيع أن نقارن معبد الكرنك الكبير بمعبد بتاح ونستخلص من ذلك ارتفاع الأعمدة المختلفة لهذا المبنى الأخير. ومن هنا نستنتج الأبعاد التقديرية لأروقة وبوابات المعبد. غير أنه إذا جازفنا بهذه المقارنات للوصول إلى حجم المبنى فإن ذلك يعد عملاً بدافع الفضول وليس مجديًا أو مرضيًا. وبالرغم من سهولة هذه المحاولة وأننا قد رسمنا خريطة تخمينية ملائمة للمعلومات الموجودة فإننا سنتحاشى أن نضعها أمام أعين القراء.

ونعترف مع ذلك بصعوبة تفسير التمثال الضخم الذى يبلغ طوله ٧٥ قدمًا ووضعه أمازيس أمام المعبد وكان مستلقى على ظهره، نظرًا لأننا لا نعرف إلا نوعين من التماثيل الضخمة المصرية، بعضها ينتصب واقفًا وبعضها جالس، وإذا نظرنا إلى أشكال أبى الهول على أنها تماثيل نائمة فإن الوضع معكوس ويخالف

وضع تمثال أمازيس العملاق. هل هو صورة مماثلة لتمثال النيل الشهير الذى يملأ حجرته ويحيط به أطفال يمثلون الستة عشر ذراعًا لفيضان النهر؟ إن هذا التمثال نائم على ظهره ولكن طرازه غريب على مصر، وفترة أمازيس بعيدة عن الفترة التى اختلط فيها أسلوب الإغريق بالإسلوب المحلى بالرغم من أن أبسماتيك كان قد سمح للأجانب بدخول مصر ـ قبل هذه الفترة ـ ونال من المؤسسات الوطنية[1].

وبصرف النظر عن محاولة استرجاع شكل المكرس لبتاح يتبقى دراسة عدة نقط لا تقل أهمية ولكنها مع الأسف غير واضحة. ماذا يجب أن نفهم من تمثال الصيف وتمثال الشتاء العملاقين اللذين أقامهما رامبزينيت فى مواجهة بوابات الغرب؛ الأول باتجاه الشمال والثانى باتجاه الجنوب؟ وما الصفات التى تميز هذين الفصلين؟ ونحن نعلم أن المصريين قسموا السنة إلى ثلاثة فصول وليس إلى أربعة.

إن أكثر الفصول ضررًا فى مصر تقابله فترة الربيع عندنا، ففترة رياح الخماسين هل يمكن اعتبارها كالشتاء للجو البارد الذى يصل فى نفس الوقت عندنا ؟ أشك فى ذلك. وندرك على كل حال كيف أن التمثال المتجه إلى الشمال كان يناسب الصيف لأنه فى هذه الفترة تكون الشمس أقرب شىء للجزء الشمالى.

وينتج من وصف هيرودوت أنه بالإضافة إلى معبد بتاح كان هناك جنوبى هذا المبنى حى للتيريين به ساحة مقدسة مكرسة للملك بروتيه وكذلك معبد صغير مخصص لفينوس الأجنبية بالإشارة إلى الضيافة التى لاقتها هيلين ابنه تندار من هذا الأمير الذى عاصر فترة حرب طروادة. وهذه التقاليد غامضة وتفتقر إلى

متقابلة ويفصلها النيل وأطلق عليها اسم معسكر؛ ثم وفى بوعوده لهم وعهد إليهم بأطفال مصريين لكى يتعلموا اللغة اليونانية. وينحدر من هؤلاء المصريين الذين تعلموا بهذه الطريقة من يعملون الآن كمترجمين. وقد أقام الكاريون طويلاً فى هذه الأراضى التى تقع بالقرب من البحر. ولكن أمازيس أخرجهم منها وجعلهم يقيمون فى منف ويحرسونه ضد المصريين. وقد استطعنا نحن اليونانيين أن نتعلم منهم تاريخ مصر من خلال علاقاتنا التجارية (هيرودوت الفصل ١٥٤).

(١) استرابون، الكتاب ١٧، ص ٨٠٧ .

وثائق تاريخية. وليس من السهل أن نفهم كيف أن خليفة سيزوستريس ـ الـذى جاء بعده عدة ملوك مخلصين للدين القومى ـ جرؤ على إقامة مبنى دينى وخصصه لإنسان عادى وهى امرأة يونانية. هل كان المصريون يتأثرون - أبدًا - بالجمال الغربى لكى يقيموا له معابد فى مواجهة معابد بتاح وأوزوريس وإيزيس؟ إننا نحتاج للرجوع إلى المصادر الأصلية للتقاليد التى اطلع عليها هيرودوت سطحيًا لكى نقيم حكمنا على هذا الجانب من تاريخ منف. أما بالنسبة لى ـ بالرغم من أن استرابون[1]. يقول إنه كان يوجد معبد لڤينوس الإلهة اليونانية ـ فإننى أعتقد أن ڤينوس المصرية حتحور التى كان لها معابد كثيرة فى مصر كان لها معبد أيضًا فى منف وأن الإغريق عقدوا فوقه مقارنة كان الغرض منها إثبات حقيقة أحداث حرب طروادة.

ويذكر هيرودوت كذلك مبنى شيده أبسماتيك جنوبى معبد بتاح (أو فى مواجهة أبواب الجنوب). وكان المبنى على شكل رواق كان الإله أبيس يأكل فيه. وبدلاً من الأعمدة كان الرواق يستند على تماثيل عملاقة ارتفاعها ١٢ ذراعًا. والوصف غير كامل ويشير إلى أحد الأروقة التى تفصل فى طيبة بين الأبواب المختلفة للمبنى الرئيسى. وأخيرًا نرى أن أمازيس قد شيد معبدًا واسعًا وبديعًا مكرس للإلهة إيزيس ولكن هيرودوت لا يخبرنا عن الحى الذى كان يحويه ولا عن حالة المبنى[2].

والنص الآتى لاسترابون يؤكد قرب معبد أبيس من معبد بتاح. وفيما يأتى النص الكامل : " إن منف مقر الملوك المصريين قريبة من بابيلون. إذ أننا لا نحصى إلا ثلاثة شون من الدلتا حتى هذه المدينة. وتحتوى على معابد، من بينها معبد أبيس وهو نفسه معبد أوزوريس. وفى فناء بداخله يقدم الغذاء للعجل أبيس الذى يقدس كإله كما قلت... وأمام هذا الفناء يوجد فناء آخر لأم أبيس : وفى هذا الفناء يطلق سراحه فى ساعة معينة لكى يظهروه على الأجانب؛ وعلى

---

(٢) هيرودوت، الفصل ١٧٦ .

(١) استرابون، الكتاب ١٧، ص ٨٠٧ من الترجمة الفرنسية.

الرغم من أنهم يستطيعون رؤيته داخل الفناء من خلال نافذة فهم يرغبون كذلك في رؤيته خارجه. وبعد أن يتركوه يقوم ببعض القفزات في الفناء يدخلونه إلى مقره. وبجوار معبد أبيس يوجد معبد بتاح وهو مبنى بديع تكلف بناؤه كثيرًا سواء بسبب كبره أو بسبب كل مايوجد فيه.

وأمام المعبد يوجد تمثال عملاق في الحلبة التي يتصارع فيها الثيران. وهم يربون هذه الثيران لهذا الغرض كما تربى الخيول (للسباق). وبمجرد أن يطلق سراحها يتصارع الثيران، وتقدم جائزة للفائز منها. وهناك كذلك في منف معبد ڤينوس التي ينظر إليها كإلهة يونانية. والبعض يقول إن هذا المعبد مخصص للقمر. ويوجد بالإضافة إلى ذلك معبد سرابيس في مكان رملي تكدس فيه الرياح تلال الرمال وشاهدنا تحتها تماثيل أبي الهول المدفونة بعضها لنصفها والبعض الآخر لرأسها. ومن هنا نستطيع أن نخمن أن الطريق المؤدي إلى هذا المعبد لن يكون آمن إذا ما فاجأتنا الرياح.

ومدينة منف تحتل المركز الأول بعد الأسكندرية. إنها كبيرة، آهلة بالسكان مثلها من مختلف الجنسيات. وأمام المدينة تمتد البحيرات والقصور الملكية التي تهدمت الآن وأصبحت خاوية، وكانت هذه القصور مبينة على ارتفاع وتمتد حتى الجزء المنخفض في المدينة، وفي أسفل هذا العلو نرى غابة وبحيرة(١).

والحلبة التي يتحدث عنها هنا استرابون نجد لها تعريفًا في الوصف العام لمعابد مصر. إنها لم تكن موجودة فقط في معبد بتاح ولكن يخبرنا إليان أن معبد أبيس كان به العديد منها. ويذكر أن عجل أبيس كان له طرق وحلبات(٢).

واسترابون هو المؤلف الوحيد الذي يذكر مصارعة الثيران التي تظهر في هذه الحلبات، وهو غرض مختلف تمامًا عن كل ما ذكرته العصور القديمة عن ثور منف الشهير. وسأضيف أن الكلمة التي يستخدمها للتعبير عن مقر أبيس يمكن أن تترجم إما بحظيرة أو بمعبد ؛ وقد سبق أن قام المعلقون بهذه الملاحظة.

---

(٢) استرابون، الكتاب ١١، الفصل ١٠ .

(١) يضع ديودور ـ التماثيل التي ذكرها هيرودوت أنها وضعت خارج المعبد ـ في الداخل.

واسترابون هو الوحيد كذلك الذى يذكر تماثيل أبى الهول كجزء من معبد سرابيس والغابة التى تشغل جزءًا سفليًا.

وكل هذه الخطوط المختلفة تساهم فى عمل صورة لمنف القديمة؛ فالغابات هنا وفى أبيدوس كانت تحتوى على نباتات شوكية تكون وهى مجتمعة حاجزًا قويًا أمام غزو الرمال. وكان محرمًا قطع هذه النباتات. ويعتقد أنه كانت هناك مكتبة فى أحد معابد منف. وبرغم أن هوميروس قد استلهم فيها فكره وأشعاره، إلا أن سخف هذا الادعاء _ الذى يستحق أن يستبعد _ لا يمنع الاعتقاد بوجود المكتبة. على أن الأرشيف الكهنوتى الذى اطلع عليه ديودور يؤكد وجودها. ومدينة منف التى تنافس مدينة طيبة كان يجب أن يكون لديها _ مثلها _ مكتبة.

وديودور لا يذكر شيئًا كثيرًا عن آثار منف، ولكن كل ما يذكره بخصوص هذه المدينة يستحق أن يذكر. " إن منف أشهر مدن مصر بناها ثامن خلفاء الذى سمى مثل والده أوكوريوس. وقد اختار لذلك أفضل مكان فى كل البلاد وهو المكان الذى يتفرع فيه النيل إلى قنوات كثيرة ويشكل الدلتا التى سميت كذلك لشكلها. ومن هنا يحدث أن منف تستخدم كحاجز لهذا الجزء فى مصر فى مواجهة الذين يبحرون إلى مصر العليا. وقد أعطى لقلب المدينة ١٥٠ غلوة فى المحيط وحصنها بطريقة بديعة؛ ولأن النيل يجرى حول المدينة ويفيض وقت الفيضان فقد أقام عليه جهة الجنوب سدًا كبيرًا كان يستخدم كمانع ضد فيضان المياه ومن جهة الأرض كان يستخدم كسور أو كحصن ضد الأعداء. كما حفر أيضًا بحيرة واسعة وعميقة كانت تستقبل مياه النهر وتحصن المدن من كل الجوانب الأخرى. وقد جعل هذا المكان مريحًا وجميلاً حتى أن غالبية الملوك من بعده هجرت مقر طيبة ونقلت إليه بلاطها ومقر الحكم. ومنذ ذلك الوقت قل شأن طيبة أكثر فأكثر وارتفع شأن منف أكثر حتى عهد الإسكندر المقدونى... (الكتاب الأول، المقطع، ٥٠).

"يقول البعض إن منف تأخذ اسمها من اسم ابنه مؤسسها، وبعد اثنى عشر جيلاً أصبح موريس ملكًا لمصر فشيد فى منف بوابات الشمال وهى أكثر جمالاً من الأخريات.. (الكتاب الأول، المقطع، ٥١).

و "أنشأ سيزوستريس عدة قنوات بدءًا من منف من النيل حتى البحر مارة بكل أجزاء البلاد حتى يسهل عملية نقل المنتجات والبضائع ولكى ينعم الشعب بالرخاء وبمزايا التجارة المتبادلة.. ووضع فى معبد بتاح فى منف تمثاله وتمثال زوجته ويبلغ ارتفاعهما ٣٠ ذراعًا وكذلك تماثيل أولاده التى يبلغ ارتفاعها ٢٠ ذراعًا[١].. (الكتاب الأول، المقطع، ٥٧).

"عندما أخضع داريوس والد إكزركس مصر لحكم الفرس أراد أن يضع تمثاله فى منف أمام تمثال سيزوستريس. ولكن الكاهن اعترض فى اجتماع الكهنة الذى طرح فيه هذا الموضوع معللاً بأنه لم يقم حتى الآن بأعمال تفوق أعمال الملك المصرى.. (الكتاب الأول، المقطع، ٥٨).

"ولما أصبح أبسماتيك ملكًا لمصر أقام بوابة الشرق وكرسها لإله منف. وأحاط الفناء بساحة واستخدم كدعائم تماثيل ضخمة يبلغ ارتفاعها ١٢ ذراعًا بدلاً من الأعمدة.. (الكتاب الأول، المقطع، ٦٧).

"لقد درسنا بعناية كل ما كتبه الكهنة المصريون فى أرشيفهم وسجلاتهم وهناك ثلاثة اختلافات ملحوظة بين رواية هيرودوت ورواية ديودور. فطبقًا للأول فإن أبسماتيك شيد بوابة الجنوب وطبقًا للثانى، فإنه شيد بوابة الشرق.

وديودور ينسب إلى معبد بتاح المبنى الذى تدعمه التماثيل ذات الاثنى عشر ذراعًا، بينما - طبقًا لهيرودوت - فإن الرواق شيده أبسماتيك تكريمًا لأبيس. وأخيرًا نرى هنا أن مؤسس منف هو أوخوروس وليس مينا. ولكن بالنسبة للمؤرخين فإن موريس هو الذى أقام بوابات الشمال وسيزوستريس هو الذى أقام التماثيل الكبيرة ذات الثلاثين ذراعًا. ولقد قمنا بدراسة محيط منف، فالسدود والبحيرات التى كانت تستخدم كساحة للمدينة لا تتعارض مع الأوصاف الأخرى. أما فيما يتعلق بالقنوات العديدة التى أنشأها سيزوستريس لكى يوصل بين أجزاء مصر المختلفة والبحر فإن الأب تيراسون قد تخيل أنها كانت تهدف لوصل النيل ببحر الجزيرة العربية. وطبقًا لرواية استرابون فإن القنال الذى يصب فى

---

(١) أرجو أن أهمية هذه الرواية ستغفر طول الاقتباس. وكتاب عبد اللطيف والملاحظات والتعليقات

بحر أريتريا أو الخليج العربى قد أنشأه أولاً سيزوستريس ولم يرد ذكر هذا القنال فى نص ديودور. فهو لم يتكلم عنه إلا فى مناسبة قنوات النيل، وينسبه إلى نيكاو ابن أبسماتيك الذى كان أول من فكر فى حفره. ولكى تكتمل هذه النصوص المختارة من ديودور بالنسبة لمنف فإننى سأضيف ـ وفقًا لروايته ـ أنه لكى يخففوا من قلق الشعب بسبب فيضان النيل قام الملوك ببناء مقياس للنيل فى منف يستخدم لمعرفة ونشر قياس ارتفاع مياه النهر بالذراع والإصبع وأنه خلال أجيال عديدة قام المصريون بتسجيل هذه الملاحظات بعناية. ولا يمكن أن نقول شيئًا عن المعبد الذى كرس لديدال ـ وفقًا لديودور ـ فى إحدى الجزر القريبة من منف وكان سكان مصر يقدسونه. وعلى فرض أن المصريين قد رفعوا رجلاً إلى مصاف الآلهة وهو رجل أجنبى فإننا نقع فى حيرة للعثور على موقع هذا الأثر فى طبوغرافية منف وما حولها.

وفى رأى بلينى ان أبيس كان لديه معبدان يستخدمهما العرافون " الضريح المزدوج الذى يدعى ثلاموس ". وأخيرًا يوزانياس يذكر معبد أبيس وعرافه.

ولم يذكر القدامى عن معبد لافت للنظر رآه عبد اللطيف فى منف وذكره المقريزى أيضًا بحيث إن وجوده غير مشكوك فيه. ويمكننى أن أذكر هنا ترجمة النصوص التى أوردها هؤلاء العلماء الشرقيون كتكملة لشهادات القدامى. وبما أن الأول يدخل فى تفصيلات كثيرة حول منف وأنه يتكلم عنها لأنه رآها بنفسه فلن أجد صعوبة فى استعارة جزء كبير من الوصف الذى قام به تاركًا للقارئ الفضولى مهمة دراسة تفصيلات أخرى ثانوية ربما لا تقل عنها أهمية[1] من جهة دخل المؤلفون اليونانيون فى تفصيلات قليلة ومن جهة أخرى قام المخربون بتدمير آثار منف القديمة بضراوة شديدة تجعلنى أعوض هذا النقص برواية رجل صادق وعاقل وشاهد عيان.

المهمة التى أضيفت يمكن أن ينظر إليها ككنز قيم من الوثائق حول هذا البلد : وبنشرها قدم هذا المستشرق السيد دوساسى خدمة جليلة لدراسة مصر. إن محبى الآداب يدينون له بالفضل لهذا الكتاب.

(١) هيرودوت: الكتاب الثانى، المقطع ١٥٣.

ولكنى يجب أن أحذر أن شعورًا بالإعجاب يظهر بوضوح فى روايته لأنه لم يكن قد رأى آثار طيبة، وعلى القارئ ان يستشف المبالغة. " ننتقل الآن إلى آثار أخرى من مصر القديمة العظيمة. إننى أريد أن أتحدث عن آثار العاصمة القديمة للبلاد الواقعة فى الجيزة جنوب الفسطاط بقليل. وهذه العاصمة كانت منف. فى هذه المدينة كان الفراعنة يجعلون مقرهم، وكانت هذه المدينة مقر ملوك مصر (رواية عبد اللطيف، الترجمة الفرنسية صفحة ١٨٤). " وتشغل آثار منف حاليًا طريقًا يبلغ نصف يوم فى كل اتجاه.. مصر القديمة. وبالرغم من اتساع هذه المدينة الشديد والماضى السحيق الذى تعود إليه وبالرغم من تغييرات مختلف الحكومات التى تحملت وطأها وبالرغم من بعض الجهود التى قام بها مختلف الشعوب لتدميرها والقضاء على آثارها وذلك بنقل الأحجار والمواد التى شيدت بها وتخريب مبانيها وقطع وتكسير الأشكال التى تزينها وأخيرًا بالرغم من أن أربعة آلاف عام وأكثر قد أضافت لكل أسباب التدمير السابقة بالرغم من كل ذلك؛ فإن آثارها مازالت تظهر لأعين الناظرين كمجموعة عجائب تبهر العقل ويعجز أفصح الرجال عن وصفها. وكلما نظرنا لهذه الآثار ؛ شعرنا بزيادة الإعجاب الذى تثيره فينا. ومن بين العجائب التى نعجب بها فى آثار منف توجد غرفة أو تجويف يطلق عليها الغرفة الخضراء. وهى مشيدة من حجر واحد يبلغ ارتفاعه ٩ أذرع وطوله ٨ أذرع وعرضه ٧ أذرع. وقد حفر فى وسط هذا الحجر تجويف سمكه ذراعان فى جانبه وفى أعلاه وأسفله، وكل الباقى يشكل الاتساع الداخلى للغرفة. وهى مغطاة كاملة من الخارج ومن الداخل بنقوش غائرة وبارزة وأحرف قديمة. وعلى جانبها الخارجى نرى شكل الشمس فى جزء السماء الذى تشرق منه وكذلك عددًا كبيرًا من أشكال النجوم والدوائر والرجال والحيوانات. ويصور الرجال فى أوضاع مختلفة ؛ فالبعض ثابت والبعض يسير ؛ وهؤلاء يمدون أقدامهم فى وضع السير بينما الثابتون فى وضع مستريح. والبعض قد كشف عن ساعديه لكى يعمل والبعض الآخر يحملون أدوات. كما نشاهد آخرين وهم يعطون الأوامر الخاصة بالعمل. ونرى بوضوح أن هذه اللوحات كانت بغرض إظهار أشياء مهمة وأعمال مميزة ومناسبات غير عادية وتصوير الأسرار العميقة

بالرموز. ويستمر اقتناعنا بأن كل هذا لم يكن بغرض التسلية وأن كل الفنون لم تستخدم فى مثل هذه الأعمال لغرض واحد فقط وهو تجميلها وتزيينها. وهذا التجويف كان راسخًا فوق قاعدة من الأحجار الجرانيتية الكبيرةَ والضخمة. ولكن قام رجال طائشون وبلهاء بحفر الأرض تحت القاعدة على أمل العثور على كنوز مخبأة. مما أخل بوضع هذا التجويف ودمر قاعدته وغير مركز ثقل الأجزاء المختلفة التى تراكمت بثقلها فوق بعضها وسببت تشققات خفيفة فى الكتلة. وهذا التجويف كان موضوعًا فى معبد بديع مبنى بأحجار كبيرة وضخمة ومتلاصقة بانضباط كبير وفن رائع. ونرى فى نفس المكان قواعد تماثيل مقامة على قواعد ضخمة.

والأحجار التى تخلفت عن تدمير المبانى تملأ كل مساحة الآثار، ونجد فى بعض الأماكن أجزاء من الجدران القائمة مبنية من الأحجار الضخمة التى ذكرتها من قبل. وفى مكان آخر لم يتبق سوى الأساسات أو أكوام من الأطلال. ولقد رأيت قوس أحد الأبواب العالية شيد كل من جداريه الجانبين بحجر واحد، والقبة العلوية المبنية من حجر واحد سقطت أمام الباب.

"وبالرغم من الدقة المتناهية فى وضع وتركيب الأحجار فى هذه المبانى فقد قاموا بعمل ثغرات بين الأحجار حجمها شبر وارتفاعها أصبعان نرى فيها صدأ النحاس والزنجار. وأدركت أنهم بهذه الطريقة استطاعوا تثبيت الأحجار جيدًا أو الربط بينها بطريقة أقوى وذلك بوضع النحاس بين الحجرين المتجاورين وصب الرصاص فوقهما. ولكن المخربين قاموا بالبحث عن هذه الأربطة النحاسية وانتزعوا عددًا كبيرًا منها. وحتى يصلوا إلى هذه الأربطة قاموا بتدمير كثير من الأحجار. وفى الحقيقة لقد تكبدوا مشقة كبيرة لانتزاعها وأظهروا بذلك كل نذالتهم وشراهتهم.

"أما بالنسبة لأشكال الآلهة التى نجدها بين الأطلال فسواء نظرنا لعددها أو تأثرنا بحجمها الكبير فإنها تمثل شيئًا يفوق كل وصف ولا يمكننا إعطاء فكرة عنها. ولكن الذى يستحق أن يثير إعجابنا هو دقة شكلها ونسبها ومحاكاتها للطبيعة. وقد قمنا بقياس إحداها وكانت تبلغ أكثر من ثلاثين ذراعًا وكانت

سميكة من الأمام إلى الخلف. وهذا التمثال من قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر. وكان مغطى بطلاء أحمر أضفى عليه قدمه نضارة جديدة.

"وليس هناك بالتأكيد أروع من أن نرى كيف استطاعوا أن يحافظوا _ في تمثال عملاق ضخم _ على دقة النسب الطبيعية. إن كل أعضاء الجسم لها بعض الأبعاد الخاصة بها ولكن لها أيضًا بعض النسب المتعلقة بالأطراف الأخرى. ومن هذه الأبعاد الخاصة والأبعاد النسبية يتكون ويتشكل الجمال الكلى وأناقة الشكل العام. وإذا نقص أى شيء لهذه الشروط فإنه ينتج عنها نوع من التشويه حسب كبر أو صغر هذه العيوب. والعلاقة النسبية بين كل الأجزاء تم الحفاظ عليها فى هذه الأشكال بدقة تثير الإعجاب أولاً للنسب الصحيحة لكل طرف منفصلاً وثانيًا للنسب التى توجد بين مختلف الأعضاء فى الشكل (كتاب عبد اللطيف صفحة ١٨٦).

"وهناك بعض هذه الأشكال وقد صورت وهى تمسك بيدها نوعًا من الأسطوانة قطرها شبر. ولم ينسوا أن يصوروا التجاعيد والثنايا التى تتكون على جلد اليد عندما تقفل باتجاه الجزء الخارجى الملامس للأصبع الصغير. إن جمال وجه هذه التماثيل ودقة التناسب التى نلاحظها هنا، من أجمل ما يمكن أن يصنعه إنسان ومن أبدع ما تشكله الأحجار. ولا ينقص هذه الأشكال سوى تقليد اللحم والدم. إن صورة الأذن وثناياها منحوتة بدقة وتحاكى الأذن الطبيعية.

"وقد رأيت أسدين كل منهما في مواجهة الآخر وعلى مسافة قريبة. كان منظرهما يثير الرعب ؛ فقد تمكنوا من أن يجعلوهما يحتفظان بكل الشكل والأبعاد الطبيعية بالرغم من ضخامتهما وحجمهما الذى يفوق الحجم الطبيعى وقد تحطما وغطيا بالتراب.

"ولقد وجدنا جزءًا كبيرًا من أسوار المدينة المبنية من الأحجار الصغيرة والطوب. وهذا الطوب كبير وضخم ومستطيل وحجمه يساوى تقريبًا نصف طوبة العراق التى وجدت فى عهد خسرو (نفسه، ص ١٨٩).

"ومهما كان عدد هذه التماثيل كبيرًا فإنها تعرضت لفعل الزمن لدرجة إنها _ باستثناء عدد قليل جدًا منها _ قد تحطمت حاليًا ولم تعد سوى أكوام من الأنقاض. وقد رأيت تمثالاً كبيرًا نحتوا فى جانبه رحى يبلغ قطرها ذراعين دون أن يتشوه التمثال أو يطرأ عليه تغيير ملحوظ. ورأيت كذلك تمثالاً كان يوجد بين ساقيه تمثال آخر أصغر منه منحوت فى نفس الكتلة : وكان التمثال الصغير مقارنة بالتمثال الكبير يبدو كأنه طفل ؛ ومع ذلك فإن التمثال الصغير كان يساوى حجم الرجل الكبير. وكان جماله وحسنه يسر الناظرين ولا نمل من النظر إليه. (كتاب عبد اللطيف ص١٩٤).

ويتحدث المقريزى كذلك عن هذه المقصورة التى كان يوجد بالقرب منها قديمًا تمثالان كبيران. " كان يوجد فى المقصورة تمثال لعزيز، وكان هذا التمثال من الذهب ومكان العينين كان له حجران كريمان من أغلى الأحجار : والمقصورة والتمثالان القريبان منها تم تدميرها إلى قطع بعد عام ٦٠٠ من الهجرة. " ثم يستطرد بطريقة إيجابية بعد بضعة أسطر: "وكان فى منف منزل مبنى من حجر الجرانيت الصلب الذى لا يتأثر بطرق الحديد عليه، وكان من كتلة حجر واحدة، ونرى عليه صور منقوشة وكتابات. وعلى واجهة الباب يوجد أشكال لثعابين تظهر صدورها. وهذا المنزل كان كبيرًا وثقيلاً بحيث أن عدة آلاف من الرجال لم يكونوا قادرين على تحريكه. ويقول عبدة الأصنام إنه كان معبدًا مكرسًا للقمر وإنه كان جزءًا من سبعة معابد مشابهة مكرسة للسبعة كواكب وكانت موجودة فى منف. وقد هدم الأمير سيف الدين شيخون عمرى هذا المنزل الأخضر بعد عام ٧٥٠ (١٣٤٩) ومازلنا نرى أجزاءه فى الدير الذى بناه والجامع الذى بناه فى حى السلبية خارج القاهرة ".

ومؤلف " تحفة الألباب " يقول عنها :

"رأيت فى قصر الفرعون المعاصر لموسى منزلاً كبيرًا جدًا يتكون من غرفة واحدة خضراء رسمت عليها الكواكب والكرة السماوية. ولم أر أبدًا شيئًا أجمل من ذلك" (نفسه، ملاحظات للسيد دوساسى، ص٢٤٧، ٢٤٨).

«ويذكر بعض المؤلفين من الشرق أنه كان فى منف ٧٠ بابًا من الحديد وأربع قنوات تحت الأرض وكبارى وأسوار ؛ كما ذكروا أنه بواسطة آلة كان الماء يرتفع حتى قمة الأسوار ومن هناك كان ينقل بواسطة القنوات المختلفة إلى كل المنازل. وهناك روايات أسطورية ملحقة بهذا الحديث».

وبعد أن قرأنا الوصف الذى قام به عبد اللطيف كم نندم على أن مثل هذه الكتب القيمة فى تاريخ الفن أو العلوم قد اختفت تمامًا ! وعلى كل حال إننا لن نقدم أى تعليق على هذه الكتب بالرغم من أهميتها، فهى تستحق أن تكون مادة لكتاب منفصل قد نتناوله يومًا.

وسنضيف بعض كلمات لهذا التاريخ المختصر لمنف: بعد أن توالى عليها الدمار أو الاحتلال من الأثيوبيين والفرس واستعادها الحكام من أهل البلاد استقبلت فى النهاية بين أسوارها الإسكندر الأكبر كمحرر لها ؛ ولقد تنبأ حكماء البلاد بهذه الكارثة. فمنذ عهد أبسماتيك شكل اليونانيون فى مصر حزبًا كان يزداد قوة كل يوم. وبعد أن استقر المليسيون والكاريون والأيونيون فى نقراطيس وسيطروا على مصب النيل الشرقى وأقاموا معسكرات فى نقاط كثيرة فتحوا لمواطنيهم أبواب البلاد. ونعلم أنه بالرغم من تفوق الأسكندرية فقد استمرت منف فى عهد ملوك اليونان فى نفوذها. ففيها كان يتم تنصيب الملوك وكان كهنة منف يطيعون الملوك الأجانب كالعبيد ولكنهم فى نفس الوقت احتفظوا بديانتهم ومزاياهم. وخضع حجر رشيد لليونانيين سادة البلاد. وفى عهد الرومان انهارت منف أكثر فأكثر. ويبين استرابون آثارها المتهدمة، فمنذ وقت طويل كانت هذه الآثار تستخدم لتجميل الأسكندرية. وبعد عهد استرابون تعرضت هذه الآثار لهجوم شرس. وكان مصيرها أسوأ فى عهد العرب الذين أقاموا عاصمتين على حسابهما غير أنه فى القرن الثامن الميلادى كان مقياس النيل فى منف مازال مستخدمًا.

وهذا الحجر الجميل الذى ذكرته لم يتعرض للتدمير إلا فى القرن الرابع عشر (٧٥٠ هجرية) بأوامر من الأمير سيف الدين وفى هذه الفترة قام الأمير بالقضاء على ما بقى من كل هذه الآثار.

وقليل من المؤلفين الجدد لم يتكهنوا أو يبحثوا فى اسم منف ، وكذلك فى أصل ومعنى هذه الكلمة، ولا أعتقد بأنه يتعين علىّ أن أحذو حذوهم. إن ما نشر فى هذا الشأن ليس مرضيًا ولن نستطيع إيضاحه إلا باكتشافات جديدة. وسأكتفى بذكر أن التدوين الصحيح لهذه الكلمة هو Menfis إذا كنا نسترشد بأثر حقيقى هو الميدالية الكبيرة التى سبق ذكرها. أما فى التوراة فإن هذا المكان يطلق عليه نوف وموف. كما قارنت روايات القدامى حول وضع منف مع الجغرافيا الحالية لهذه الأماكن فكان يجب علىّ أن أعمل بعض المقارنات بين الوصف الذى تركوه لنا لهذه الآثار وبين البقايا التى لاحظناها على الأرض أو بين البقايا التى رآها عبد اللطيف وهى أكثر أهمية. وكدت ألاحظ أن التمثال الذى قام بقياسه عبد اللطيف يتوافق مع أحد التماثيل الكبيرة التى أقامها سيزوستريس أمام بوابات الشمال فى معبد بتاح. ووفقًا لهيرودوت وديودور كانت هذه التماثيل تبلغ ٣٠ ذراعًا. والمؤلف العربى قد وجد أن التمثال العملاق كان يبلغ أكثر من ٣٠ ذراعًا وأنه يتكون من قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر. والمقاييس التى رفعتها للرسغ المنحوت من الجرانيت الوردى تفترض أن قامة التمثال تبلغ ١٨,٥ مترًا وهذا يتوافق مع ٤٠ ذراعًا وليس ٣٠ ذراعًا. كما أشار عبد اللطيف - ربما يعتمد حسابى النسبى على جزء صغير جدًا من الجسم لكى أكون دقيقًا جدًا.

وقبل أن أنتقل إلى موضوع آخر سأذكر هنا مرة أخرى إحدى الخصائص المهمة ؛ فالنباتات غير عادية فى أرض منف وإذا ما رجعنا إلى شهادة عالم الأحياء الرومانى الذى يقول : "يوجد فى منف أشجار ضخمة جدًا بحيث إن ثلاثة رجال لا يقدرون على أن يحيطوا بها". فالنصّ الذى أورده لافت جدًا ويستحق أن أذكره هنا كاملاً. " هناك حول مدينة منف حيث يقال إن شجرة البرقوق المصرى ذات الشوك القريبة جدًا غير متباينة، حيث إن شجرة الفاكهة تنضج فى الشتاء، وتتساقط أوراق النبات القريبة من بعضها، وتكون شجرة الفاكهة طويلة وكبيرة ويكون لها نفس الجسم وتكون طبيعية ووفيرة الثمار للقاطنين حيث ينظفونها وينقونها ويسحقونها ويحفظون الحبوب. والغابة الممتلئة

بالأشجار حول منطقة منف، ولكن لم يكن ممكنًا فى الأجزاء الأخرى زراعتها حيث كانت إحدى العجائب الخاصة وأنه لم يكن يوجد أشياء أخرى. وكان يوجد بها أوراق ذات شكوك مثل الأجنحة التى كانت تهز فروعها بأيدى الناس ليسقطوا الفاكهة وبعد ذلك تنمو من جديد ". وفى موضع آخر يذكر بلينى الأشجار ذات الأوراق الدائمة : " ولكنها كانت كثيرة فى هذه الأماكن، وخاصة حول مدينة منف فى مصر، وفيلة وطيبة. ولم توجد أشجار فى مناطق أخرى ".

٣- ديانة منف ومقياس النيل

ما ديانة سكان منف الرئيسية؟ يبدو فى البداية أن الإجابة عن هذا التساؤل ستأتينا من شهادة التاريخ غير إنها مازالت مليئة بالغموض. ونعرف أن هناك معابد فيها كرست لآلهة مختلفة مثل ڤولكان المصرى وأبيس وإيزيس وسرابيس، ونستنتج ذلك من النصوص التى ذكرناها ؛ ولكن هذه الديانات هل كانت قائمة فى نفس الوقت أو توالت وانفردت كل منها بحقبة زمنية ؟ نلاحظ أولاً أن أول هذه الديانات وأقدمها جميعًا كانت ديانة بتاح. ومؤسس منف أقام معبدًا وكرسه له، وهو المعبد الذى تمسك كل الملوك بتوسعته وتزيينه بهباتهم وأعمالهم الفنية العظيمة ؛ فالإصرار على إثراء نفس المعبد دام دون توقف. أى تقريبًا طوال وجود منف نفسها أو على الأقل حتى فتح الفرس. وفى الأصل لم يكن الإله بتاح أو ڤولكان المصرى و جابلونسكى و كودورث وبو، وكثير من علماء الأساطير رمزًا للنار المادية، بل كان رمزًا للنار الإلهية وللروح اللانهائية التى تسود العالم وتنسق كل شىء. إن الكلمة القبطية الموجودة تعنى المنسق. وإذا حكمت حسب أثر مهم احتفظ بصورته فإننى أستطيع أن أنسب لهذه الكلمة معنى أكثر شمولاً بمعنى الذى يرى ويسمع إنه عبارة عن حجر جميل منحوت أزرق اللون وضعت كلمة أخرى بين العين والأذن منقوشة بدقة شديدة. وعلى الجانب الآخر يوجد جعران. وكان بتاح الإله الأعظم الذى يدين له الآخرون بالطاعة. ويرى جابلونسكى فى هذا الإله والمبدأ الخنثى لهوورابولون الروح الإلهية التى خلقت كل شىء بمفردها وفقًا لما يذكر طاليس أيضًا.

وقد اقتبس المصريون هذه العقيدة من هذا الفيلسوف ومن أورفى قبله. فالاختلاف الذى يظهر فى شهادة أوزاب ؛ هو أن بتاح قد ولد من سنيف المصرى مهندس الكون؛ ولكن جامبيليك يقول : إن المصريين يطلقون اسم بتاح على الروح التى تخلق كل شىء. وأخيرًا نجد هرمابيون يطلق اسم فولكان على والد الآلهة، وكان أيضًا أول ملوك مصر (هكذا يتحدث ديودور حسب تقرير الكهنة) وهو أول ملك لأول أسرة عند مانيتون، ولكن الأمر يتعلق بحكم الإله أى بحكم أسطورى ومانيتون يفسر ذلك بقوله : ليس هناك وقت لبتاح... إن النور موجود فى كل لحظة.

ووفقًا لديودور فإن بتاح كان قد اكتشف النار وهذا ما وضعه على عرش مصر؛ فالرواية التى يذكرها كانت بالتأكيد اختراعًا فى الزمن الحديث لا تثبت إلا شيًا واحدًا وهو أن العقيدة القديمة قد تلاشت مع الوقت وأن بتاح لم يعد سوى رمز للنار المادية ومن هنا جاء الإله فولكان فى الأساطير اليونانية، وأنه بهذا المعنى فقط استطعنا أن نقول أن بتاح كان فولكان عند المصريين. ويجب أن نستنتج من ذلك أنه فى فترة بعيدة جدًا طرأ على المصريين _ وربما كانوا أول من فعل ذلك فى العالم _ فكرة الروح الأبدية والنار الإلهية والمعنوية والعقل الخلاق اللانهائى الذى يأمر ويحكم كل الأشياء.

ولكن بينما كانت عبادة الإله الكبير آمون فى طيبة تأخذ شكلاً ملموسًا فى صورة الجدى كانت منف تعبد الإله الكبير بتاح بدون أن ترمز له بأى رمز مادى، أو على الأقل لم يحتفظ التاريخ أو أى شهادة بذكرى لهذا الرمز. وكان الملوك يزينون معبده ويقيمون بوابات ويرفعون أمامها التماثيل، ولكن هذه الأشكال لم تكن للإله. كانت أشكال لسيزوستريس وزوجته وأولاده موجودة أمام البوابات الجنوبية. أما بوابات الشمال فكانت تزينها أشكال من الصيف والشتاء. ومما يثبت أن التماثيل التى أقامها الأمراء لم تكن مكرسة لإله، أن داريوس أراد أن يقيم تمثالاً له وأن الكهنة وجدوا الشجاعة لمعارضته لأنه لم يتفوق على سيزوستريس العظيم. إذًا فنحن نجهل الرمز الملموس والواضح الذى يرمز إلى العبادة التى خصصها سكان منف للإله بتاح.

إن قصة الآثار التى أقاموها للآلهة تؤكد أن عبادة بتاح كان لها السبق والسيطرة. وبالفعل إننا لا نرى معبد الإله أبيس أو على الأقل الرواق الذى خصص له إلا فى عهد أبسماتيك[١]. وكما يقول استرابون : كان هو نفسه الإله أوزوريس[٢] وكان معبده ملحقًا بمعبد بتاح. وكان يعبد فيه البقرة أو الثور المقدس.

وكانت هذه العبادة فى أوج ازدهارها فى عهد أمازيس؛ ولكننا نرى هذا الأمير يقيم ثلاثة تماثيل أمام معبد بتاح وواحدًا يعادل حجم ضعف تمثال سيزوستريس. كما أقام أيضًا لإيزيس معبدًا بديعًا. ويتعين إذًا علينا أن ننظر إلى عبادة أبيس _ بالرغم من شهرته _ على أنها أكثر حداثة وأقل أهمية بالنسبة لسكان منف من عبادة بتاح. والذى ساعد على صيتها الذائع وشهرتها غير العادية هى الحفلات والأعياد وعرافيها وتزامن الفترة التى ازدهرت فيها مع وجود اليهود فى مصر وأعمال العنف التى مارسها قمبيز والخرافات غير المعقولة التى صاحبتها فيما بعد، وأشار إليها الكتاب الرومان وكهنة الكنيسة كأحد الانحرافات الشائنة للفكر الإنسانى، والفتن التى اشتعلت وتعجّل الأباطرة فى الذهاب إلى منف لزيارة الثور المقدس. إننى لا أعتقد أن مثل هذه الأخطاء قد وجهت إقامة عبادة أبيس بل إنها كانت بفعل الزمن وتأثير القضاء على مبادئ الفلسفة المصرية بينما يقوم طموح الفتوحات بفك رباط العقيدة القديمة ودخول الأجانب كان من شأنه القضاء على القوانين والهيئات. ولا نستطيع أن نقر مع جابلونسكى بأن مصر كلها كانت تقدس الإلهة أبيس ؛ فمزاعم بومبونيوس ميلا، لا يمكن أن تثبت ذلك ولا حتى نصوص إليان و لوسيان فكل ما ذكر فيها عن المصريين ينطبق على سكان منف. وعلى أية حال كان أوزوريس نفسه حسب شهادة الكهنة التى ذكرها ديودور واسترابون وكان وفقًا لمكروب مكرسًا للشمس ووفقًا للكتاب الأحداث منه كان مكرسًا للقمر.

---

(٢) الكتاب ١٧، ص ٨٠٧ .

ويوفق بورفير بين هذين الرأيين عندما يقول إن أبيس يحمل إشارات الشمس والقمر، ولن أذكر الطقوس والاحتفالات المختلفة التى كانت تقام تكريمًا لأبيس فكثير من تفاصيلها قد ذكرت فى المقال السابق. ونفس الشىء بالنسبة للعرافين المزعومين والتجلى الإلهى أو ظهور وموت أبيس. ولكنى سأشير إلى بئر كان يستخدم فى سقيه بخلاف مياه النيل ؛ لأن هذه المناسبة تحدد وضع المبنى الذى كان مخصصًا له : هو بئر محفور فى الوادى ويعطى نفس مياه النهر، وهذا يدعو للاعتقاد بأن هذا البئر كان قريب جدًا من الجبل الليبى.

ووفقًا لبلينى كان يوجد فى النيل بالقرب من منف مكان مخصص لاحتفال سنوى كبير" منف ومكانها يوجد على النيل حيث كان شكلها يطلق عليه فيلا ".

ولا نملك أى وسيلة للعثور على هذا المكان ومن المهم أن نتوقف عند الرواية الخاصة بفترة حياة أبيس، هذه المدة كانت ٢٥ عامًا كما يقول بلوتارخ ويلاحظ أن هذا الرقم كان يساوى الجذر التربيعى لعدد ٥ ولعدد الحروف المصرية. وكان أيضًا يماثل عدد السنين فى فترة قمرية ـ شمسية دقيقة تتوافق مع حركات النجمين. إذًا فنرى مع بورفير لماذا كان أبيس مكرسًا للشمس وللقمر، لأوزوريس وإيزيس. إن تجديد أبيس كل ربع قرن والطقوس المقامة بهذه المناسبة كان له غرض منفعى جدير بالملاحظة. وإذا نظرنا إلى عبادة أبيس من هذا الشكل فإنها تمثل أهمية حقيقية للدراسات والأبحاث التى يقوم بها العلماء.

والاحتفال السنوى المقام يوم فيضان النهر يفسر لماذا كرس أبيس إلى أوزوريس ـ النيل والاحتفال كل ربع قرن يفسر تكريسه إلى أوزوريس ـ الشمس وإيزيس ـ القمر. وكان الملوك يُتبايعون فى معبد أبيس وفيه أيضًا كانوا يحلفون اليمين ـ بعد أن يدخلوا هيكل المعبد ـ بعدم إضافة شهر أو يوم إلى السنة وأن يحافظوا على السنة المكونة من ٣٦٥ يومًا كما وضعها القدماء، وهذا دليل جديد على ملهية هذه العبادة. وقد قورن أبيس بالثور المقدس ولوحظ أن الثور كان رمزًا للأرض الخصبة، ولكن هذا ليس موضوعنا هنا.

ونريد أن نعرف بتأكيد أكثر موقع نيلوبوليس القديمة لأنه فى هذا المكان كان الثور المقدس يعيش قبل أن يدخل إلى منف: فى الفصل السادس عشر وضعنا

هذا المكان فى ميدوم التى تبعد عن منف بأحد عشر ميلاً. ولكننا نعترف إننا نفتقر إلى معلومات أكيدة لتحديد مكانه.

وهناك موضوع لا يقل أهمية عن كل ماسبق وهو قياس زيادة النهر على فترات فهى ترتبط بوجود الإله أبيس.

وكما قلت : ففى كل عام كان يقام بهذه المناسبة احتفال كبير تكريمًا له، عيد وفاء النيل : وكان ذلك فى الانقلاب الصيفى. وكانت أداة قياس النيل الموضوعة فى معبد سرابيس تستخدم فى تتبع الزيادة اليومية للنهر وكان المقياس البالغ ذراعًا ينقل إليه فى احتفال مهيب. وظل هذا الاستخدام سائدًا حتى عهد المسيحية. وفيما بعد كانت الذراع تنقل سنويًا إلى الكنيسة بأمر من الأمبراطور قسطنطين.

ويؤكد كل من سوزومن وسقراط هذا الأمر الأخير، ولكن فى عهد الأمبراطور جوليان عادوا إلى نقل ذراع النيل إلى معبد سرابيس.

وهذه المناسبة جعلت جابلونسكى يخمن أن اسم أبيس لا يعنى أى شىء سوى عدد، مقياس؛ وهى مقياس السعة عند اليهود بل إنه يجد تطابقًا بين Api ومقياس النيل Nilometre. ولكن العلماء لم يتبنوا هذا الاشتقاق.

وتقودنا هذه الملاحظات بطبيعة الحال إلى أن نتحدث قليلاً عن العبادة الأخيرة التى سنذكرها : عبادة سرابيس، فقد أعطت اسمها إلى السرابيوم وهو الأثر الكبير الذى وصفه استرابون. وكل شىء يخبرنا إنه كان على هضبة أو جانب الجبل الليبى، لأنه فى عهده كانت تماثيل أبى الهول التى تسبق المبنى مدفونة تحت الرمال. ويقول بوزانياس": عند وفاة أبيس كان من المعتاد أن يدفن فى هذا المعبد الذى لم يكن يفتح للأجانب ولا للكهنة أنفسهم إلا فى هذه الفترة فقط. وأشهر معبد خصص لهذا الإله كان موجودًا فى الأسكندرية وأقدم المعابد كان فى منف. ويقول أوستات فى تعليقه على دنيس لوبريچيتيه: " إن جوبيتر اسينوبى كان إلهًا من منف لأن السنوبيوم كان جبلاً فى منف ". ولماذا لا يقر جابلونسكى بأن السرابيوم الذى ذكره استرابون هو نفسه المعبد القديم لسرابيس الذى يشير إليه بوزاياس؟ وكان النيل يصل إليه دون أى صعوبة سواء عن طريق

القنال الغربى أو عن طريق أى فرع آخر ولكنى أعتقد بأن هذا القنال لأنه يقدم الوسيلة لمعرفة تزايد ارتفاع المياه مبكرًا. وقد انقسم العلماء حول قدم سرابيس المصرى لأن معظم المؤلفين الذين ذكروه كانوا من الجدد، على أن العلاقة التى توجد بين الاحتفالات المقامة فى معابد سرابيس وأبيس تجعلنا نقر بشهادة بوزايناس بالإضافة إلى ذلك يقول بلوتارخ وهو ملم بشئون مصر : إن سرابيس كلمة مصرية، وفى الحقيقة إنه لا يفسر إلا جزءًا من هذه الكلمة. وأخيرًا كان يوجد فى أزقة مصر أثر يرجع إلى ماقبل الإغريق وهو تمثال ضخم لسرابيس. ويقول سيداس: إن البعض يعنى بسرابيس : جوبيتر والبعض الآخر : النيل. ويقول ارستيد إنه هو الذى يسبب فيضان النيل فى الصيف ويقضى على العواصف. وعلى كل حال فإن جابلونسكى ينظر إلى اسم سرابيس كأنه نفس اسم أداة قياس النيل. أى عمود المقياس والعدد. ولكن هذه الفكرة تبتعد عن فكرة بلوتارخ، ولا يجدر أن نهجر هذه الفكرة مهما كان الاشتقاق الآخر مبتكرًا.

القسم الثالث

وصف أهرامات الشمال أو أهرامات الجيزة(١)

إن التذكير باللقب المعروف «عجائب الدنيا» الذى نسب إلى أهرامات الشمال منذ زمن بعيد يكفى لكى يسمح لنا بعمل وصف كبير ودراسات مستفيضة، ولكن ذلك سيدخلنا فى طريق طويل ويعرضنا لكثير من التكرار نظرًا لعدد الكتاب الذى تناولوه. وخطة هذا الوصف تنحصر فى حدود أضيق. فلن أهتم كثيرًا بما قاله السابقون ولكن ملاحظاتى الشخصية والوقائع التى نقلها إلىّ رفقائى فى السفر ستكون هى الأساس وسأعود إلى الرحالة الذين سبقوا الحملة الفرنسية فى كتابات أخرى. وأخيرًا لن أنسى أن جريفث قد تناول هذه الآثار فى عمل خاص قديم. وسأخصص أولاً فقرة للطبوغرافية العامة وفقرة لكل من الهرمين الكبيرين وفقرة بعد ذلك للهرمين الثالث والرابع وللمقابر المجاورة.

وسأتكلم فى دراسات أخرى عن أبى الهول والطرق والمحاجر التى وفرت هذه الكمية الهائلة من المواد. وسأقدم مقارنات ودراسات منفصلة عن هذه الآثار،

---

(١) هذه التسمية يستخدمها عادة السكان فى مصر " هرم _ الجيزة "ونحن لم نستخدمها فى لوحات الكتاب وسميناها أهرامات منف منعاً للبس. وهضبة الأهرامات منذ الكوم الأسود حتى سقارة تعتبر كجبانة الأموات للعاصمة القديمة.

وهى مادة لا تنضب ولكنى لن أتمكن من التعمق فيها فى هذا الكتاب. غير أنى لن أتجاهل أى شىء أساسى فى هذا الموضوع المهم الذى يتطلب منفردًا عملاً آخر.

المبحث الأول: طبوغرافية الأهرامات ونظرة عامة

كل هرم من الأهرامات الكبيرة يغطى أو يخفى مكانًا فسيحًا لدرجة أنه من المستحيل أن نتصور بدقة مكانها بمجرد النظر ؛ لذلك كان من الضرورى عمل خريطة طبوغرافية[1] - ترفع هندسيًا - لعمل وصف دقيق وصحيح للمكان. وقد قام الكولونيل جاكوتان بهذه المهمة وعاونته بقياس جوانب وارتفاع الأهرامات وكذلك المبنى الشرقى والطريق الضخم الذى يؤدى إلى الهرم الثالث (المعبد بالجرانيت) وأخيرًا برفع نقاط أخرى عديدة فى موقع الأهرامات.

يشكل هذا الموقع هضبة ناقصة تتقدم نحو السهل وتشغل فجوة داخل الجبل الليبى بين رأسين أكثر ارتفاعًا يحيطان بها نحو الجنوب والشمال. وارتفاع الهضبة يبلغ ٤٢ مترًا (حوالى ١٣٠ قدمًا) فوق الوادى[2] ويبلغ طولها حوالى ٢١٠٠ مترًا (١٠٥٠ قامة) من الشرق إلى الغرب بين حدود الأراضى المزروعة وآخر فروع السلسلة الليبية. ويبلغ عرضها من الجنوب إلى الشمال أكثر من ١٥٠٠ مترًا، وهذا هو مجال الرؤية. ونصل إلى هذه الصخرة عندما نتسلق طريق رملى به انحدار. ومن الجيزة وهى نقطة البداية للقادمين من القاهرة نسير لمدة ساعتين، والمسافة تبلغ ٨٣٠٠ مترًا فى خط مستقيم، ونعبر قرى كفر طهرمس وبركة الخيام[3] ثم القنال الغربى تاركين على مسافة نصف ميل إلى اليمين جسرين عربيين جميلين بعشرة أقواس من الحجر المنحوت[4] وأحيانًا يجبرنا

---

(١) انظر اللوحة ٦، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

(٢) ويمثل $\frac{1}{5}$ من ارتفاع السلسلة العربية.

(٣) يقطنها أعراب مزارعون وليسوا فلاحين (انظر الملاحظات حول أعراب مصر الوسطى، المجلد ١٢).

(٤) إن تنفيذ هذين الجسرين ملفت للنظر، ويتمتعان بدرجة حفظ عالية.

الفيضان أن نسلك طريقًا جانبيًا ونمر بساقية مكى والكنيسة والطالبية ونزلة الأقطة والكوم الأسود، وهذا يزيد من طول المسافة بحوالى ٢٠٠٠ متر.

والهضبة والمنحدرات التى تؤدى إليها ليس فى شكلها أى شىء خاص اللهم إلا العديد من القواقع المتحجرة. كما يوجد محار متحجر على القمم المنفصلة. والرمال يغطيها الزلط والبلور الصخرى والحجر الصوان الأبيض والوردى والحجر الجيرى. وكل هذه الرمال مكونة من حبات البلور الصخرى. وهنا وهناك نرى عروق الحديد. والجفاف والجدب ينتشران فى كل مكان مثل بقية صحراء ليبيا : والأرض نفسها عبارة عن تربة جيرية لونها أبيض مائل للرمادى. وطرف الصحراء محدد كاملاً بالزراعة الغنية التى تظهر فجأة وبالأرض الخضراء مع جانب من الحصى لونه أبيض يميل إلى الاصفرار. وهو تعارض شبيه بتباين شريط ذى لونين مختلفين. فعلى أحد الجوانب نجد حقولاً شاسعة تغطيها طبقًا لفصول السنة البرسيم والفول والذرة أو القمح. وعلى الجانب الآخر نجد الرمال التى تمتد على مرمى البصر. وباتجاه الجنوب الشرقى وفى وادٍ صغير منحدر حيث توجد مساحة عربية صغيرة بها أربع شجرات جميز نجد الأرض مغطاة بأجزاء من الجرانيت والبازلت والحصى والفخار وأجزاء من الصخور جاءت من الجبل نفسه. هذا هو المكان الذى اختاره بناة الأهرامات ليقيموا فيه هذه الإنشاءات العملاقة.

ولقد مهّدوا بلاشك الهضبة أولاً، وأعدوا الطرق التى لاتقل ضخامة، لتستخدم فى نقل ورفع المواد حتى مستوى الأرض. وبقايا ثلاثة من هذه المستويات المنحدرة مازالت باقية من جهة الشرق وتظهر من أى طريق جاءت مواد البناء.

وتقع الأهرامات الثلاثة الكبيرة على هذه الهضبة فى الاتجاه من الشمال إلى الجنوب أو من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى بسبب ضخامتها وقدمها. وأكبر الأهرامات وأقدمها يوجد فى الطرف البارز للشمال الشرقى والهرم الأصغر والأحدث يوجد فى الطرف البعيد فى الجنوبى الغربى. وهى على خط

مستقيم. وقد تم حفر بعض الحفر فى الصخر حول الهرمين الرئيسيين ولكنها اليوم ملئت بالرمال: ونرى كذلك الساحات التى كانت تحيط بالهرمين الثانى والثالث. وحول الهرم الأول توجد تسعة أهرامات صغيرة مهدمة وهى بقايا عدد أكبر من الأهرامات كانت تحيط به كالحزام فى الجنوب وفى الشرق.

وفى غرب نفس الهرم يوجد العديد من المقابر الكبيرة المستطيلة (٢٤ مترًا × ١٠ أو ٧٤ قدمًا × ٢١)، وتغطيها الرمال ولكن شكلها منتظم وواضح. وتشكل هذه المقابر مربعًا فسيحًا كالهرم ويبلغ عددها ٧ فى جانب و ١٤ فى جانب آخر[١]. ونحكم بأنها مقابر بواحدة منها أكبر من الآخريات ونزلنا فيها.

وهذا المربع موجود بالتحديد فى شمال الهرم الثانى وغربى الهرم الأول، وهو على جوانب الهرمين مما يشكل تنظيمًا متقابل ينتج عن خريطة منتظمة. ويوجد كذلك وبعدد كبير مقابر على سطح الأرض: وأخرى عبارة عن مقابر أرضية فى قلب الصخر. ولكى يتم حفرها اضطر القدماء إلى كسر جوانب الجبل رأسيًا مثل مقابر طيبة.

وفى شرقى الهرم الثانى نرى بقايا مبنى مربع يبلغ طول ضلعه ٥٠ مترًا (١٥٠ قدمًا) وفى الغرب نشاهد مقابر بنيت مداخلها داخل تجاويف. وفى شرقى الهرم الثالث نرى بقايا أثر عظيم بحالة أفضل وأكبر حجما سنتحدث عنه فى مكانه. وأخيرًا ففى جنوب هذا الهرم نرى هرمًا رابعًا أصغر كثيرًا من الأهرامات الأخرى بالإضافة إلى هرمين مدرجين. أما بالنسبة لأبى الهول فهو منعزل على بعد حوالى٦٠٠ متر (٣٠٠قامة) شرقى الهرم الثانى ويلتفت تجاه الشرق.

والشكل العام لهذه الآثار يقود إلى ملاحظة مهمة ؛ وهى أن قمم هذه الآثار - إذا رأيناها من بعيد - لها نفس التأثير الذى تحدثه قمم الجبال العالية الهرمية الشكل التى تنطلق إلى السماء.

---

(١) قدم بوكوك - فى الخريطة التى رسمها (اللوحة ١٦، المجلد الأول) عدداً كبيراً من الأهرامات الصغيرة التى تحيط بالهرمين الأول والثالث وتختلف هذه الخريطة - من نواحى أخرى - مع خريطة القائد جاكوتان.

وكلما اقتربنا من الأهرامات كلما قل هذا التأثير، ولكن إذا كنت على مسافة صغيرة من هذه الكتل المنتظمة، فإنك تشعر بانطباع مختلف : ستندهش وبمجرد أن تتسلق الجانب ستتغير أفكارك فجأة. وأخيرًا عندما تقترب أكثر وتكاد تلمس أسفل الهرم الأكبر فإن شعورًا قويًا يتملكك يخفف منه الشعور بالدهشة. ويصعب رؤية القمة والزوايا. وما تشعر به ليس الإعجاب الذى يتولد عند رؤية تحفة فنية ولكنه إحساس عميق، والأثر يأتى من عظمة وبساطة الأشكال ومن التباين وعدم التناسق بين حجم الرجل وضخامة العمل الذى صنعه بيديه: والعين لايمكن أن تحتويه وكذلك الفكر. حينئذٍ نبدأ فى أخذ فكرة كبيرة عن هذا الكم الهائل من الأحجار المنحوتة المتراكمة بنظام على ارتفاع شاهق. ونرى ونلمس مئات الأحجار فى القاعدة التى تبلغ ٢٠٠ قدم مكعبة وتزن ٣٠ ألفًا وآلاف أخرى من الأحجار لاتقل عنها ونحاول أن نفهم أى قوة حركت ونقلت ورفعت[١] هذا العدد الكبير من الأحجار الضخمة وكم رجل ساهم فى هذا العمل وكم من الوقت لزم لهذا وماهى الأدوات التى استخدموها. وكلما عجزنا عن تفسير كل هذه العقبات، كلما زاد إعجابنا بالقوة التى استمتعت بمثل هذه المهارات.

وهناك إحساس آخر يسيطر على عقلك عندما تنظر إلى حالة التدهور التى أصابت الأجزاء السفلى؛ وهو شعور بأن الإنسان - أكثر من الزمن. قد عمل على تدميرها.

وإذا كان الزمن قد هاجم القمة فإن الإنسان قد أوقع الأحجار منها فسقطت على القاعدة وهشمتها، وكذلك استغل القاعدة كمحجر. وأخيرًا فإن الكساء قد اختفى بأيدى الهمجيين. إنك تحزن لأفعالهم التخريبية ولكنك تقارن بين هذه الهجمات وحجم الهرم الذى لم ينقص منه ١/١٠٠ بسببها وتقول مع الشاعر: " إن حجم الأهرامات غير القابلة للهدم قد أتعبت الزمن ". فلنتوقف هنا عن التفكير فى هذا الأثر الذى سنتحدث عنه بعد قليل باستفاضة ولنلقى نظرة عامة على المكان.

بمجرد أن يصل المسافر إلى هضبة الأهرامات يشعر بالرغبة فى أن يدور حولها أو على الأقل حول الهرم الأكبر. وهذه الجولة تعطيه فكرة أفضل عن

---

(١) ترتفع أحجار القمة بحوالى ٥٨٠ قدماً فوق أرض الوادى.

الهرم. وتستلزم الجولة على الأقل ربع ساعة مع المشى السريع بسبب أكوام الرمال والبقايا المتراكمة فى الجزء السفلى لكل واجهة.

وكل من يأتى بدافع الفضول لرؤية هذه الآثار ولكن دون أن يكون له أفكار مسبقة يشعر بالدهشة للمنظر الموجود أمامه. ويطلق العنان لمشاعره وفكره حول مصير الأهرامات الذى يجهله. ويمعن التفكير فى التضحيات والمتاعب التى تكبدها الشعب - الذى يجهلها - وهو لايرجع إلى المزاعم التى ليس لها سند ويقولها بعض المنحازين ولا إلى شكوك علم الاشتقاق. ويشاهد ويقارن ولايحكم إلا على الوقائع التى أمامه، ويرى أن الذين قاموا ببناء الهرم الأكبر - مهما كانوا - قد شيدوا الأثر الأكثر عمرًا والأكثر ارتفاعًا. وسيخلص إلى أن المصريين يحتلون الصف الأول بين شعوب الأرض. وإذا أطلق مثل بلينى على هذه الكتل اسم عجيبة وخارقة فإنه يتحاشى أن يقرر مثله أن الهرم ثمرة تظاهر مجنون وغير مجدى لثراء الملوك. وأخيرًا أنه يمتنع أن يقول مثل بوسويه إن هذه الآثار ليست سوى مقابر، إذ أنه يشعر بأن هذا الكاتب الكبير أراد أن يصل إلى فكرة أخلاقية كبيرة دون أن يفكر فى تاريخ الفن عند المصريين، وفى تقدمهم فى العلوم وهو شىء لم يتمكن من معرفته.

ولكى يتمكن القارئ من تكوين فكرة جيدة عن شكل كل هذه الآثار - دون أن يزور المنطقة - ويشاهدها من الشرق والشمال والجنوب ويتعرف على الأشكال المختلفة التى تقدمها التربة، عليه أن يراجع المناظر الشاملة التى تظهر كل هذا[1]، وسيجد أن الأشخاص الذين رسمهم الفنانون فى اللوحات يؤدون دور مقياس الرسم الجيد للحكم على حجم وأبعاد هذه المنشآت.

---

(١) انظر اللوحات من ٧: ١٢ المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة، وقد رسم الهرم الأول كاملاً فى اللوحات ٧ ، ٨، ٩، ١١، من المجلد الخامس والهرم الثانى فى اللوحات ٧ ، ٨، ٩، ١٠، ١٢ وقد ظهر الباقى ومازال يغطى ربعه العلوى، والهرمان الثالث والرابع فى اللوحات ٧ ، ٨، ٩، ١٠ وأخيراً أبو الهول فى اللوحتين ٧ ، ٨ واللوحتين ١١، ١٢ على وجه الخصوص، ونلاحظ أن قمة الهرم فى اللوحة ٧ مقطوعة بصورة كبيرة، بينما فى اللوحة ١٠ ظهر الجزء السفلى من الهرم الأول متهدم بطريقة مبالغ فيها.

المبحث الثانى: الهـرم الأول[1]

الموقع الجغرافى

إن الهـرم الأكبر الذى يقع جهة الشمـال ويعتبر أشهـر الأهرامات يطلق عليه بحق "الأول"، لأنه الأكبر والأكثر ارتفاعًا، ويأتى ترتيبه الأول إذا ما قـدمنا من ناحيـة النيل. ويسمى أيضًا هرم خوفو وهو الاسم الذى أطلق عليه بشكل عام، كما ذكر هيرودوت، لأنه اسم الملك الذى خصص الهرم له، وكان مظهره الخارجى موضوعًا للعديد من الدراسات، وسأقتصر هنا على بعض الملاحظات التى تتناول النقـاط المحيطة فنحن نصل عادة إلى الهـرم من جهـة الشـمـال ؛ وهـذا الطريق يؤدى إلى مدخل الأثر وهو عبارة عن فتحة غير ظاهرة، تقع على بعد ١٤ مترًا تقـريبًا (٤٣ قـدمًا) فـوق القـاعـدة، غـيـر أن التكدس الكبيـر المكون من الرمال والأنقاض المتراكمة عند السفح يصل على وجه التحديد إلى هذا الارتفاع، وإذا ما تسلقناه ؛ فسوف نصل بدون مجهود إلى مدخل الهرم. ففى الجزء الأمامى من تل الرمـال يمكن أن نتعـرف على ضلع الهـرم وآثار لحفـرة يبلغ عـرضـهـا مـا يقرب من ١٨,٦م، كان قد تم حفرها فى الصخر ولا يعرف مدى عمقها لأنها شبـه مـردومة تمامًا. ويمكن أن نقـدر ذلك بالقيـاس، إذا مـا فـحصنا الحـفـرة الموجودة فى الهرم الثانى و من السهل ملاحظاتها. أما بالنسبة للكتلة المرتفعة نفسها فعندما نقترب منها بشدة نلاحظ من كل وجه درجات سلم مدخل كبير مرتفع للغاية نهايته مدببة ؛ كان عليها فى الماضى الكساء الذى اختفى تمامًا اليوم، وهذه الدرجات لا تزال سليمة من جهة الزوايا ومهدمة فى وسط الواجهة.

والهرم موجه بدقة، وقد وجد الفلكى السيد نويه عن طريق عمليات هندسية وفلكيـة[2] أن جـهـة الشـمـال تميل عند خط الشـرق والغرب بمقـدار (درجـة ١٩ دقيقة و٥٨ ثانية) ونحو الجنوب من هنا استخلص أن الخط الطولى الذى كان قد

---

(١) لن يكون لدينا سوى فكرة غير متكاملة عن هذا الأثر؛ إذا لم نرجع إلى اللوحات التى رسمها السيد لوبير المهندس اللوحتان ١٤، ١٥ المجلد الخامس وكذلك دراسة السيد كوتيل (المجلد ٩، ص٢٦١).

(٢) أنظر المشارية المصرية .العدد الثالث ص ١٠٥ وما يليها.

وضع لتوجيه الأثر يميل بمقدار(٢٠ َ) نحو الغرب غير أنه باختفاء الكساء، فليس من المؤكد أن هذا الفرق البسيط يأتى من الاتجاه الأصلى للوجهات، كما أنه من الطبيعى أن ننسب ذلك على الأقل جزئيًا إلى صعوبة تحديد - بدقة شديدة - اتجاه الدرجات التى تحدد الوجهات اليوم، ومن المعروف أن الباحث بيكارد قد وجد أن اتجاه مرصد تيشو - براهيه فى أورانيبورج مخالف بنسبة (١٨ دقيقة) ومن جهة أخرى، ووفقًا للملحوظة التى جاء بها المراقب نفسه، طالما أن الخط الطولى كان قد وضع واتجه بدقة نحو الشمال، كان ينبغى، إذا ما رفعنا هنا خط عمودى أنه لا يميل بمقدار ثلاثة ديسيمترات، على طول ١١٣,٥ مترًا، وهذا مقدار كاف لإحداث ميل يصل إلى ٢٠ دقيقة، وكان يجب، كما ذكرت، أن نلاحظ اتجاه مسقط أول ممر للهرم وهو الذى يؤدى إلى المدخل الذى تحدثت عنه أعلاه: فالعملية كانت تبدو صعبة دون شك ؛ غير إن التوازى الدقيق والمحافظة الكاملة على الوجهات قد يزودنا بخط هندسى دقيق، إذا ما قورن مع الخط الطولى للمكان. ونحن نعرف زاوية المسقط التى تتشكل بنهاية هذا الممر مع الأفق، وهذا المفهوم يُعطى بالفعل ملاحظات مهمة، وقد تزداد أهمية هذه الملاحظات عندما نعرف بدقة، إذا وجدت، ميل المسقط الرأسى مع الخط الطولى، وهذا العمل الذى يهم تاريخ الفلك لن يكون سوى استمرارية للأبحاث التى فرضتها أكاديمية العلوم فى القرن السابع عشر من أجل مقارنة رصد هذا النوع، عند مختلف الشعوب.

وقد حدد الفلكى نفسه الوضع الجغرافى للمكان بعمليات رصد متكررة، ووجد أن من ناحية خط العرض (٢٨ درجة ٥٩ دقيقة، ثانية) جهة الشمال، ومن ناحية خط الطول (٢٩ درجة ٥٩ دقيقة ٦ ثانية) شرق الخط الطولى لباريس، ونستخلص أيضًا من هذه العمليات المتعلقة بعلم حساب المثلثات أن الهرم الأول يبعد ١٢٠٨٠ مترًا عن مدينة القاهرة و قصر المجمع المصرى (فى الجنوب الغربى: $\frac{١}{٤}$ غربًا).

وقد قدر القائد جاكوتان أن هذا الهرم يبعد ٢٦٥٦٠ مترًا جنوبى النقطة الحالية لالتقاء الدلتا، و٢٣٧٦٠ مترًا جنوب غربى مسلة عين شمس، و١٤٣٢٤

مترًا شمال غربى ١/٤ شمال الهرم الأول المدرج عند هضبة سقارة و٢٢١٨٠ مترًا شمال غربى الهرم الثانى المدرج الذى يقع جنوبى الهضبة نفسها، بالإضافة إلى أن المسافة التى يبعدها عن شاطئ النيل، و "ساقية مكى" تقدر بنحو ٨٣٠٠ مترًا. ووفقًا لحسابات المهندس نفسه، فإن الهرم الأول يبعد ٤٨٣ مترًا شمال شرقى الهرم الثانى، و٩٢٦ مترًا شمال شرقى ١/٤ شمال الهرم الثالث، و٥٤٩ مترًا شمال غربى ١/٤ شمال " أبى الهول " الكبير.

و عمليات تسوية البحرين - وهى أحدى الأعمال الكبرى التى قام بها مهندسو الحملة الفرنسية قد ارتبطت - وفقًا لفكرة ذكية للغاية جاء بها السيد لوبير الأب، مدير هذا العمل - بالأرض التى شيد عليها الهرم الأكبر، وهذا العمل سوف يستخدم فيما بعد كمرجع ثابت لجميع الملاحظات التى سوف تدون بعد ذلك فيما يتعلق بمنسوب فيضان النيل وارتفاع مجرى النهر والوادى. وتعد هذه النقطه الأرضية التى تضم وزرة قاعدة الهرم من الزاوية الشمالية الشرقية[١]، وترتفع بمقدار ٤٢,٨٨م (١٣٢قدمًا) عن أعلى ذراع منقوشة على الجدار الداخلى لمقياس النيل بالروضة، و٤٢ مترًا (١٢٩ قدمًا ٣ بوصات ٩ خطوط) فوق الهضبة ومتوسط أعلى منسوب للمياه (١٧٩٨ إلى ١٨٠١)، و٤٩ مترًا ٩٧ أعلى من متوسط أقل منسوب للمياه فى الموسم نفسه. وعلينا ألا نغفل هذه المعطيات القيمة، وسوف أقوم فيما بعد بمقارنة هذه القياسات مع مستوى السراديب والآبار الموجودة فى الهرم (أنظر أدناه فى نهاية الفقرة بعنوان «داخل الهرم»).

أبعاد الهرم الأول

قبل أن أقوم بعرض قياسات الهرم، يجب أن أوضح لماذا يبدو لى من العبث أن أستعرض القياسات التى أخذها الرحالة منذ قديم الأزل، والمقارنة فيما بينها،

(١) أنظر ما يلى.

وإبداء النقد لها. إذ سوف أسرد أقوالاً كثيرة دون جدوى، وبالتالى أصدر أحكامًا قاسية على من سبقونا وعدم الإنصاف لمجهوداتهم ولتفانيهم فى دراسة الآثار. بل سيكون ظلمًا بينًا، نظرًا لقلة الإمكانيات التى كانت لديهم. كما أننا لا نهتم كثيرًا بعدم مطابقة القياسات التى اتخذوها أو التباعد الشديد بينها : لأن القليل منهم تمتعوا بالأمان، وكان لديهم الوقت الكافى للعمل بدقة، أو لأنهم لم يستطيعوا تجنب العقبة التى تتمثل فى الأنقاض المتراكمة عند سفح الوجهات. وكلفنى الفلكى بقياس جانبين من جوانب الهرم وسأذكر لكم كيف قمت بهذه العملية فى ٢٤ من الشهر التاسع من العام الثامن للتقويم الجمهورى (١٥ ديسمبر ١٧٩٩) : فبدأت فى وضع عدد كبير من العلامات على الدرجة السفلى فى أكثر الأجزاء ظهورًا من الرمال على ارتفاع المدماك الكبير الذى نحت فى الصخر، أولاً على الواجهة المتجهة ناحية الشرق ثم على الوجهة الغربية، ومددت هذه الاتجاهات نحو الشمال ونستطيع أن نرى الصخر فى أغلب الأحيان على سطح الأرض بحيث يكون من السهل معرفة المدماك المستخدم كنقطة بداية. وبعد ذلك وضعت علامة على الطرف الشمالى الشرقى أو سفح الضلع الحالى، وقمت بمد ذلك إلى الأرض، مما أعطانى المسقط الرأسى، مرورًا بالضلع وقطر القاعدة : وتكررت نفس العملية فى الطرف الشمالى الغربى. ووضعت علامات عند هذين الطرفين ومددت هذين الخطين السابقين بمقدار ٣٠ مترًا كل منهما نحو الشمال، ابتداء من هذه النقاط حتى أرض أفقية وسوية، بين الأطراف التى مدت، وبواسطة عدد كافٍ من العلامات، وضعت سلسلة مترية من ثلاثين مترًا مدرجة جيدًا، وكانت نتيجة العملية الأولى من الشرق إلى الغرب ٢٢٧,٨٠م والثانية من الغرب إلى الشرق ٢٢٧,٨م، وبعد قياس جهة الشمال، اعتقدت بأن من الواجب قياس واجهة الغرب لأن الكثير كان يزعم أن القاعدة ليست على شكل مربع، وأتبعت نفس الطريقة ومددت الاتجاهات المتوازية بمقدار ٢٠ مترًا لأن الأرض كانت خالية فى هذا الجانب. وكان طول هذه الواجهة ٢٣٦,٧٠م : فالفرق يعد طفيفًا بالنسبة لمساحة كبيرة بهذا القدر. وأخذت المتوسط، وأبلغته

إلى السيد نويه، الفلكى ليستخدمه فى حساباته[١]. وبذلك يبلغ مقياس القاعدة المرئية ٢٢٧,٢٥م، على أن يكون مقياس المتر المبدئى هو (٦٩٩ قدمًا ٩٢ بوصات ٦٢خطوط) والمتر النهائى هو ٢٧٧,٣٢م وهذه القياسات هى التى تم نشرها فى العشارية المصرية. وقد ظهر أحد الأبعاد فى تخطيط الهرم (لوحة ١٥، شكل عند النقطة g، المجلد الخامس). ووجدت، عندما قمت بقياس الجانب الشمالى، أن مدخل الهرم كان يبعد ١٢٠ مترًا من الزاوية الشمالية الغربية : وسوف نرى فيما بعد إتفاق هذه الملاحظة مع التخطيط الداخلى للهرم. وقمت أيضًا بقياس جميع الأهرامات الأخرى، وسوف أذكرها كل هرم فى مكانه. وكان هذا فى الشهر التاسع للعام الثامن (ديسمبر ١٧٩٩) وفيه كل ما عرف عن طول قاعدة الأثر. وبدأت فيما بعد أبحاث جديدة تحت رعاية المجمع المصرى : وقد تم تكليف السيد لوبير المهندس المعمارى، وقائد الكتيبة السيد كوتيل بالقيام بعمليات التنقيب لإيجاد الأرض الأصلية، وأطراف القاعدة التى كان يعتقد بحق أن كل واحد منها أكثر تباعدًا عن الآخر. وقام الثانى بوصف العمليات، أما الأول فقد أعطى الرسومات الأكثر دقة[٢] : ويصبح إذًا من العبث الدخول فى أية تفاصيل فى هذا الموضوع، فالنتيجة هنا هى وحدها التى يجب أن تذكر. فقد تعرفا تمامًا على الهضبة التى شُيِّد فوقها الهرم واكتشفا لحسن الحظ فى الزاوية الشمالية الشرقية تجويفًا كبيرًا محفورًا فى الصخر، على شكل مستطيل كامل لا يزال سليمًا، وحيث إنه قد وضع فيه حجر الزاوية : فهو مربع غير سوى يبلغ طول أحد جوانبه ٣ أمتار، والجانب الآخر ٣,٥٢ مترًا، ويبلغ عمقه ٠,٢٠٧متر[٣]. ثم قاما بنفس الأبحاث فى الزاوية الشمالية الغربية ووجدا فيها تجويفًا مشابهًا للأول ويعتبر التجويفان فى نفس الارتفاع، وقد أخذ قياس القاعدة بعناية شديدة بين هاتين النقطتين الأكثر ظهورًا لهذه التجويفات. ووجدا أن القاعدة تبلغ

(١) العشارية المصرية ، العدد الثالث ص ٦٠٤ وهذا العرض لم يتم ذكره فى الدراسة لأننى كنت قد عملت بأمر من مدير المهندسين الجغرافيين.

(٢) فيما يتعلق بتخطيط الهرم والمقطع الجانبى له أنظر لوحة ١٤ وشرحها، المجلد الخامس .

(٣) أنظر لوحة ١٥ ، الشكلين ١ ، ٢ .

٢٣٢,٧٤٧م (٧١٦ قدمًا، ٦ بوصات) وأتوق فى إضافة أنهما وجدا القاعدة الظاهرة، بمعنى الخط الذى يربط أطراف الأضلاع الحالية الممتدة حتى الأرض المرئية وهى تساوى ٦٩٩ قدمًا ٩ بوصات. وهكذا كان هذا القياس الأخير الذى أخذ بعد قياسى بعام واحد، قد تم بوسائل ربما تكون أكثر دقة، وثبت أنه مطابق تمامًا للأول، بفارق ستة خطوط، مما يؤكد دون شك أن هناك تعويضًا للخطأ، إلا أن هذا التأكيد ليس إثباتًا بأنه يمكن الاعتماد على قياس ٦٩٩ قدمًا ٩ بوصات بفارق بسيط، وأنه غير قابل للنقد. وبذلك يختلف قياس القاعدة فى الوقت الحالى عن القياس الذى أخذ بين الزوايا الخارجة للتجويف (أى أكبر مسافة بين أحجار الزاوية بمقدار ٥,٥٠م) (٢٣٢,٧٥م - ٢٧٧,٢٥م). ومن الواضح أن نصف هذا الفرق، أو ٢,٧٥م، يمثل سمك الكساء للجزء السفلى بالإضافة إلى أى بروز فى وزرة قاعدة الهرم الأول، وهى التى نراها فى الهرم الثانى وجميع الآثار المصرية.

ويقاس ارتفاع وزرة هذه القاعدة بالمدماك السفلى المكون كله من الصخر: وعندما قاموا بتمهيد الهضبة تركوا كتلة من الحجر ليقام عليها البناء كأنها منطقة ما تحت الأساس : ويبلغ ارتفاع هذا المدماك المحفور فى الصخر ١,٨٤٩٠م (٥أقدام و٨ بوصات ٤ خطوط) وهو القياس الذى أخذه السيد لوبير والسيد كوتيل حتى المستوى الأعلى للتجويف. ووجدت فى عام ١٨٠٠، أن قياس هذا الارتفاع يبلغ ١,٠٨٣م (٣ أقدام و٤ بوصات) ووجد السيد نويه أنه يبلغ ١,١٤م، ولكن ذلك فقط ابتداء من الضلع العلوى للمدماك الصخرى حتى الأرض المرئية.

ويخص هذا القياس الارتفاع الكلى للهرم. وسوف أتناول هذا الموضوع فيما بعد، غير أننى كان على أن أذكره هنا على الرغم من أننى لم أهتم بالقياسات الأفقية ؛ وذلك لأن هذه القياسات تساعد على فهم العرض أو البروز الذى كانت عليه وزرة القاعدة، إذ أنه لا يمكن أن يتعدى الكساء فى الواقع ١,٨م فى الجزء الأسفل، على ضوء ما وجدنا عليه كساء الهرم الثانى :وبالفعل لم نجد أحجارًا أكثر سمكًا فى الأثر بأكمله.

ولعدم قطع هذا العرض للقياسات الدقيقة للهرم، وهو ما أجده أهم ما جاء فى هذا الكتاب، سوف أتناول فورًا ما يتعلق بارتفاع وميل الوجهات وكذلك بحساب الحجم والمساحة، وهناك وسائل عديدة قد استخدمت لقياس ارتفاع الهرم. أبسطها قياس ارتفاع كل درجة، وهى الوسيلة التى لجأ إلها عدد كبير من بيننا. والوسيلة الثانية هى القياس المتعلق بحساب المثلثات. والوسيلة الأخيرة فهى القياس البارومترى وقد قام السيد سيسيل وكنت معه باستخدام الوسيلة الأولى فى ٢٦ نيفوس من العام السابع (٥ يناير ١٧٩٩)[١]. وقمنا بقياس عدد كبير من المداميك واحدًا تلو الآخر من أعلى إلى أسفل ووصل عددها إلى ٢٠٣ بما فيها المداميك الموجودة فى وسط مصطبة القمة المهدمة للغاية (الارتفاع الكلى ٨٣, ١م أو ٣ أقدام و ٤بوصات) وكذلك يبلغ ارتفاع مدماك القاعدة المحفورة فى الصخر ١,٠٨٣ (٣أقدام و٤ بوصات) وقد طبقنا ببساطة على واجه الدرجة مقياسنا وذلك بوضع مسطرة أفقية على الدرجة. وكان المجموع الكلى ١٣٨,٣٠ (٤٢٥ قدمًا و٩ بوصات)[٢] ثم خصمنا الدرجتين الصغيرتين للمصطبة فتبقى ١٣٧,٢١٨م (٤٢٢ قدمًا، ١٥ بوصات) لارتفاع هذه المصطبة.

---

(١) لقد كان من الخطأ أن أذكر فى "دراسة نظم القياس".. إلخ نفس التاريخ لهذه العملية ولعملية قياس القاعدة فإنه لمزيد من الدقة أن أذكر هنا هذا التعديل ، ولو أنه قليل الأهمية ، لأنه لم يطرأ أية تغيرات على ارتفاع الهرم خلال العام ، وهناك خطأ أكثر أهمية يجب تصويبه : ونقرأ فى نفس الكتاب ص ٦٧ إننا قمنا بقياس الدرجات بفارق ستة خطوط تقريباً ، و كان يجب أن نقول ٢ أو ٣ خطوط تقريباً. أنظر ما جاء فى يوميات رحلتى " لقد قمنا بقياس جميع المداميك بالقدم بفارق خط أو إثنين تقريباً وترجع الأخطاء التى وردتُ إلى أن عدداً كبيرًا من الدرجات غير متساوية ومتآكلة من أثر الزمن وأخذناها بعناية فائقة ، ولذلك فإن هذه الأخطاء يمكن تعويضها فى ١٦ نيفوس العام السابع (يناير ١٧٩٩). وهكذا إذا ما افترضنا أننا قد أخطأنا فى كل مرة فى ثلاثة خطوط يصبح الخطأ الكلى المفترض يزيد بقليل عن ٣,٥ بوصات ، بدلاً من ٧ بوصات. وفيما يتعلق بتعويض الاختلاف سواء زيادة أو نقص أنظر : نظم القياس المجلد السابع، دراسات العصور القديمة.

(٢) لقد نشرت فى مكان آخر تفاصيل قائمة لدرجات الارتفاعات التى كان قد قام بقياسها السيد لوبير والسيد كوتيل (انظر نظم القياس ... إلخ المجلد السابع وأنظر أيضاً المجلد التاسع وملاحظات السيد كوتيل حول الأهرامات : فهذه القوائم تقدم قياسات لدرجات الهرم الأكبر التى ذكرت فى شرح اللوحات القديمة.

وقام السيد نويه الفلكى، بواسطة عمليات متعلقة بحساب المثلثات ليس من الضرورى وصفها (وسوف نجدها فى بحثه)[١] بتحديد ارتفاع المصطبة فوق الأرض بما فيها الدرجة السفلى المحفورة فى الصخر، و كان قد قاس جزءًا منها، ويبلغ ارتفاعها ١٤, ١م ؛ ووفقًا لحساباته يصل ارتفاع المصطبة إلى ١٣٧,٥٣١م (٤٢٣قدمًا تقريبًا).

ووضع السيد كونتيه على قمة الهرم بارومتر من اختراعه، كفيل بقياس ضغط الهواء بدقة، و تنحصر العملية فى قياس كمية الزئبق التى انخفضت فى العمود البارومترى[٢]. ووجد أن النتيجة تقترب بشدة من النتيجة التى حققها الفلكى، ولكنى لن أستطيع أن أذكرها هنا، لأنها لم تنشر قط، ولم نجدها من بين أوراق العالم، وهو مهندس ماهر كما أنه فنان بارع وكان فقدانه المبكر خسارة للفن والصناعة.

وأخيرًا، وفى عام ١٨٠١، قام السيدان لوبير و كوتيل بأخذ قياسات جميع درجات الهرم بآلة صنعت خصيصًا لهذا الغرض، بدقة فائقة. ووجدا أن عدد المداميك يصل إلى ٢٠٣[٣]، ويبلغ الارتفاع الكلى ١٣٩,١١٧م (٤٢٨قدمًا و٣ بوصات وخطين $\frac{١}{٦}$) بما فيها الدرجتان العلويان (١١٧, ١م أو ٣ أقدام ٥ بوصات ٣ خطوط)، ويبلغ ارتفاع الدرجة السفلى بأكملها حتى الهضبة (٨٤٩, ١م أو ٥ أقدام ٨ بوصات ٤ خطوط). وإذا خصمنا الدرجتين العلويين يتبقى ١٣٨م، والدرجة السفلى، أو وزرة القاعدة، يتبقى ١٣٦,١٥١م. وكما نرى أن هذا القياس لا يختلف عن القياسين السابقين، إلا بالمدماك الصخرى. وهذا المدماك الذى يتوقف ظهوره وفقًا للزمن الذى تم فيه أخذ القياسات،اكتشفه بأكمله السيدان لوبير وكوتيل حتى مستوى الهضبة ويصل ارتفاع مصطبة الهرم الأول فوق

---

(١) العشارية المصرية ، العدد الثالث ص ١٠٥.

(٢) كان السيد كونتيه قد قام قبل ذلك بتجارب أمام أعضاء المجمع وكان يقيس على ارتفاعات صغيرة لأن الآلة مصنوعة تمامًا من المعدن ويصعب حملها.

(٣) ولا أدرى على أى شىء اعتمد نيبور ، عندما قال إن من يصعد الهرم من أماكن مختلفة ، لن يجد بالطبع نفس عدد الدرجات (المجلد ١ ص ٦٠) ودون شك أن هذه الدرجات غير متساوية فى الارتفاع غير أن كل منها ينتهى إلى مسقط أفقى يعبر الهرم بأكمله.

الهضبة إلى ١٣٨م، وفوق المدماك أو القاعدة المحفورة فى الصخر أى وزرة القاعدة إلى ١٣٦,١٥١م و هذه هى النتيجة التى تكون مع من سبقتها نتائج مؤكدة كفيلة لحساب ميل الهرم وجميع قياساته بدقة.

ومن الضرورى ملاحظة مطابقة قياستنا مع قياس الذى أخذه السيدان لوبير وكوتيل ليس فقط بالنسبة للارتفاع الكلى ولكن لعدد الدرجات، الذى يساوى ٢٠٣ درجة. وفى الواقع إن بعض الرحالة كان قد ذكروا أن عددها يصل إلى ٢٠٨ غير أن البعض الأخر ذكر أنها ٢٢٠ ... إلخ.. ويعتبر التطابق التام على هذه النقطة، وكذلك على قياسات القاعدة والارتفاع التى أخذناها مثلاً لا يقل أهمية عن مثال الأهرامات، ويكون هذا المثل بمثابة دليلاً (إذا كان هناك حاجة لإثبات ذلك) على العناية الشديدة التى دون بها مهندسو وفنانو الحملة ملاحظاتهم. وقبل أن نطرح من القاعدة والارتفاع باقى قياسات الهرم يجب أن أشير إلى اختلاف ارتفاع درجات السلم من أسفل إلى أعلى لأنه من الطبيعى أن يقل السمك، فابتداء من ٤١١,١م (٤ أقدام و٤ بوصات و خط $\frac{1}{٦}$) حتى ٥٥٩,٠م (قدم ٨ بوصات ٧ خطوط) وأقل سمك هو ٥١٤,٠ م. كما يبلغ الارتفاع المتوسط ٦٨٥,٠م (قدمين وبوصه و٣خطوط $\frac{٥}{٨}$) والبروز المتوسطة يبلغ ٥٤٤,٠م (قدم ٨ بوصات و خط $\frac{٤}{٥}$) وهذا هو قياس المصطبة التى وجد أن الجانب فيها يبلغ ٩,٩٦م (٣٠ قدمًا ٨ بوصات)[1].

ومن السهل الآن أن نحسب جميع خطوط الهرم المغطاة بالكساء.. فإذا كانت مسافة أبعاد التجويف تصل إلى ٢٣٢,٧٤٧م بما فيها الكساء ووزرة القاعدة، كما تم إثباته، و إذا كان ارتفاع نواة الهرم يبلغ ٢٢٧,٢٥م، كما هو مثبت أيضًا، فيتبقى لنصف الفرق - كما ذكر أعلاه - ٢,٧٥ ويمكن أن نرجع الثلثين أى ١,٧٩ إلى الكساء والثلث الآخر لبروز وزرة القاعدة. ومع ذلك، فإن كساء الهرم الثانى الذى لا يزال الربع العلوى فيه على حالته وله لمعة مشعة من بعيد يبلغ سمكه ٣٠,١م ؛

---

(١) وهذا القياس الذى استخدمه السيد نويه فى عرض نظم القياس، المجلد السابع، غير أننى فى يوميات رحلتى ذكرت ٣٠ قدمًا ١٠ بوصة .

و لقد قمت بقياسه بنفسى، بدقة شديدة، على قدر المستطاع[1] و بما أن قاعدة هذا الهرم أقل بمقدار العُشر من قاعدة الهرم الأول، فأقر بأن كساء هذا الهرم كان أقوى بنفس النسبة، وكان ارتفاعه يبلغ ١,٤٦ م. وبذلك يكون لدينا هرم ينقص منه جزء و لكن كل شىء عنه معروف : نصف القاعدة العليا تساوى ٤,٩٨+١,٤٦=٦,٤٤م، ونصف القاعدة السفلى (فوق المدماك الصخرى)، يساوى ١١٣,٦٦م + ١,٧٩م = ١١٥,٤٥م ويبلغ ارتفاع الواحدة فوق الأخرى ١٣٦,١٥١م[2]. وبناء على حساب المثلثات يصل ارتفاع قمة الهرم المكسو إلى ١٤٤,١٩٤م إذا كان الهرم قد اكتمل بناؤه حتى القمة (مثلما هو الحال فى الهرم الثانى) فيكون قد انخفض بمقدار ٨,٠٤م، أو إذا أخذنا فى الاعتبار الدرجتين المهدمتين وهما ٦,٩٢م.

وفيما يأتى المقاييس الأخرى لخطوط ولزوايا الهرم نفسه طبقًا لما ورد فى الحساب :

ضلع الهرم	٢١٧,٨٣م
الارتفاع المائل أو الخط العامد	١٨٤,٧٢٢م
قطر القاعدة	٢٦,٥٤م
مثلثات الواجهات، زاوية العمود مع القاعدة	٥٧ درجة ٥٩ دقيقة
مثلثات الواجهات، زاوية القمة	٦٤ درجة ٠ دقيقة ٤٠ ثانية
الزاوية المحصورة بين ضلعى كل وجهين متقابلين	٩٧ درجة ٦ دقيقة٠ ثانية
زاوية الضلع مع قطر القاعدة	٤١ درجة ٢٧ دقيقة ٠ ثانية
زاوية الوجهين المتقابلين	٧٧ درجة ٢١ دقيقة ٥٠ ثانية
زاوية الوجه مع مسقط القاعدة	٥١ درجة ١٩ دقيقة ٤ ثانية

---

(١) انظر فيما يلى الجزء الخاص بالهرم الثانى.

(٢) انظر ما سبق.

وسنلاحظ إذا كانت واجهات الهرم قد اعتبرت لفتره طويلة متساوية الأضلاع، فذلك لأنها تمثل مثلثًا متساوى الأضلاع، غير أن النظر يمكن أن يخطئ بسهولة. والآلآت فقط هى التى يمكن أن تقدر الفرق.

ويقدر محيط القاعدة بـ ٩٢٣,٦م أما محيط وزرة القاعدة فهو ٩٣٠,٩٩م.

ومن السهل أيضًا حساب المساحة، فتبلغ مساحة القاعدة ٥٣٣١٤,٨١م٢(١). أما بالنسبة لوزرة القاعدة فتبلغ ٥٤١٧١,١٧م٢ أى ما يقرب من ٥ هكتارات $\frac{1}{2}$ و٥ هكتارات $\frac{٤٢}{١٠٠}$ ونجد لكل وجه بدون وزرة القاعدة ٢١٣٢٥,٩٢م٢ أو هكتارين و١٣، وبالنسبة لمجموع الواجهات الأربع ٨٥٣٠٣,٦٦م٢، أو ٨ هكتارات و٥٣ .

ويبلغ حجم الهرم ٢٥٦٢٥٧٦,٣٤م٣ (بخلاف وزرة القاعدة) وتمثل هذه الكمية بالإضافة إلى الكتلة الصلبة للبناء، الممرات والسراديب والآبار الداخلية.

وكان السيد نويه قد قام بحساب ارتفاع زوايا الهرم، بخلاف الكساء، ولكنى لم اضطر إلى أن اتبع هذه الحسابات ولا سيما أن النهايات الحقيقية لم تكن معروفة حين قام بهذه الحسابات. ونستطيع أيضًا أن نقدم حسابات أخرى تختلف نتائجها بعض الشىء عن حساباتى، فعلى سبيل المثال، حين ننظر إلى القاعدة الخارجية مثل قاعدة الهرم نفسه، وحين نفترض وجود كساء له سمك كبير يصل إلى ٢,٧٥م (٥ أقدام ٥ بوصات) ؛ غير أنه يجب أن نضع دائمًا فى الحسبان، كساء الجزء العلوى، وهذا ما لم يفعله هذا الفلكى ولا كل الآخرين الذين كانوا قد حسبوا الارتفاع والمساحة والصلابة الكلية.

ومن السهل عمل مقارنات متعددة، فنستطيع أن نقارن مساحة الهرم مع مساحة الآثار الأكثر شهرة فى أوروبا ... إلخ على سبيل المثال واجهة التيلورى وسنرى أن هذه الواجهة وتلك الخاصة بالانفاليد يعطيان تقريبًا فكرة عن طول القاعدة غير أننا سنتوقف عن هذه المقارنات التى ستؤدى بنا بعيدًا.

---

(١) اكثر من ضعف مساحة اللوفر ، وهى تصل إلى ٢٦٨٠٤,٢٤م٢.

صعود الهرم الأول

ما من مسافر وصل إلى سطح الهرم إلا وتمنى أن يصل إلى قمته : إذ أن الشكل المدرج للسلم من الخارج يدعو إلى ذلك، كما أن صعود الآثر يبدو فى بادئ الأمر الشىء الأكثر سهولة : غير أنه عندما نتسلق الدرجات الأولى، نكتشف بعض الصعوبات. فعندما نبدأ فى ذلك، نجد أن ارتفاع الدرجة الأولى فوق الصخر يبلغ ١,٤١١م أو أكثر من (٤ أقدام ٤ بوصات وخط) ولتسلقها يجب بالتأكيد من استخدام اليدين والركبتين ولا يوجد هناك إلا نقطة ارتكاز واحدة ولكنها غير مريحة على واجهة الدرجة (القائمة)، وهى ضيقة للغاية مقارنة بالارتفاع. فبعد صعود الدرجة الأولى نجد درجة أخرى يبلغ ارتفاعها ١,٣٥١م (٤ أقدام بوصة ١١ خطاً) وتختلف بعض الشىء عن السابقة، ثم درجة ثالثة يبلغ ارتفاعها ١,٠٤٢م (٣ أقدام بوصتان ٥ خطوط). وإذا كنا قد تسلقنا هذه الدرجات الثلاثة بحماس شديد ونكون الآن قد تعبنا وندرك ضرورة حسن اختيار خط الصعود، وإذا ما بدأنا الصعود فوق إحدى الواجهات، فعلينا أن نسرع فى الاتجاه نحو أحد الأضلاع الذى نجد عند سفحه مساحة أكثر اتساعًا، ونتجنب الصعود من الخط العامد على وجه الخصوص لأنه الخط الأكثر ميلا على كل واجهة، ومنه يقع فى أى وقت بعض الأحجار المكسورة من الدرجات أو من أى نقاط أخرى من هذا الخط. وكان سقوط أجزاء الحجارة فى هذا الاتجاه قد أصاب درجات السلم بالتآكل حتى صار الصعود إلى ارتفاع عشرين قدمًا عن يمين أو يسار الخط العامد غير مأمون العاقبة. ثانيًا، فإن الزاوية التى نتبعها عندما نصعد فى اتجاه الضلع ليست سوى ٤١ درجة و ٢٧ دقيقة، بينما عندما نتبع الخط العامد تصل الزاوية إلى ٥١ درجة ١٩ دقيقة ٤ ثانية، ويكون من الأفضل الصعود من ناحية الضلع وخاصة الضلع الشمالى الشرقى وذلك لتجنب التعب ولمزيد من الراحة والأمان. فباتباع هذا الطريق، لن يكون الصعود صعبًا إلا فى بدايته : وهذا ما وجدته خلال مرات الصعود التى قمت بها. فعلينا فقط ألا نتعجل، ونتوقف من حين لآخر ولكن لفترات غير طويلة خشية أن تيار الهواء الذى يزداد شدة باطراد يضايق التنفس.

ونستغرق أكثر من ساعة للوصول إلى المسطح : فيوم صعدت الهرم للمرة الأولى فى ١٦ نيفوس العام السابع (٥ يناير ١٧٩٩) كان ارتفاعه يبلغ (٣ أقدام ١٠أبوصات)[١]. لقد ذكرت الزمان بالتحديد، لأن هذا المسطح اتسع حجمه بمرور الوقت، وفى الوقت نفسه تناقص الارتفاع. كما أن المناخ يؤثر قليلا دون شك على الأحجار الموجودة فى القمة، وعندما تتزحزح هذه الأحجار لسبب أو لآخر يقوم الأعراب والرحالة بخلعها عشوائيًا، وتتساقط من أعلى إلى أسفل محدثة صوت شديد ، وتكسر بسقوطها حافة الدرجات السفلى. وحتى لا نقطع هذا الوصف، سأرجئ، عرض للتطورات التى تبعها، منذ قديم الأزل، تهدم القمة وأتساع المسطح.[٢] ووجدت فى المنتصف ما تبقى من درجتين ستختفيان تمامًا، وكان عليهما آثار حديثة لرفع الأحجار المتأخمة.

يا له من منظر شامل، ومن مشهد رائع يتمتع به المرء من هذا الارتفاع، بمجرد الوصول إليه! فالقرى تشبه خلية من النمل ، والناس فى الأسفل يكادون لا يرون بوضوح. ففى أوروبا لا تبدو الأشياء التى ينظر إليها من مكان أعلى من ذلك بكثير مصغرة بهذا القدر، فعندما نميز بالكاد عند سفح البناء، كل هذه المخلوقات تغدو وتروح وتتحول كالنمل، نتسأل إذا كانوا بالفعل هؤلاء مثل هذه المخلوقات التى يتفاوت حجمها بشدة مع الأثر وهم من قاموا بجمع كل هذه الخامات، وحملوا مثل هذه الأحجار حتى بلغت هذا الارتفاع المهول. هذا هو التفكير بعد المفاجأة، فعمل البشر يقلل من شأنهم فى بادئ الأمر ثم يرفعهم، وسرعان ما نكتشف عندما نتأمل أنه لم يكن أبدًا مجرد نتيجة جهود مادية، ولكنها نتيجة عبقرية جريئة ومثابرة وأنه من صنع الذكاء وليس القوى الجسمانية.

وفقط من أعلى قمة الهرم نستطيع أن نأخذ الفكرة الصحيحة، كما أن المشهد يفوق الانتظار. فمن هنا ممكن أن نرى على مسافة ١٢ فرسخًا إذا كان البصر

---

(١) وليس ٩,٩٠ أقدام ٦ بوصات كما نشرت فى العشارية المصرية (العدد الثالث ص ١٠٦) ، بحث السيد نويه الذى ذكرت له هذا المقياس.

(٢) أنظر فيما يلى الملحق المبحث الثانى.

يمكنه أن يصل إلى هذا. و من على هذا الارتفاع، وعلى هذه القمة الهائلة يبدو أن النفس تسمو والمواهب ترقى و كل شىء يعمل على أن يلهب الخيال. ومما يذهلك أكثر بعد أن مررت بنظرك على الأفق الشاسع أنه على شكل قرص شبه مقسم إلى نصفين، النصف الأول أخضر والأخر أبيض، والخط الذى يفصلهما يتجه نحو الشمال الغربى، وأنت واقف على مقربة من هذا الخط. فالجزء الأبيض هو الصحراء والأخضر هو وادى مصر والدلتا من جهة ليبيا هذا المحيط الواسع بدون مياه، ورماله المحرقة، وتلال الرمال التى تشبه أمواج البحر، والجهة الأخرى هى الأرض الخصبة تكسوها الخضرة، أو تغمرها المياه وفقًا لفصول السنة : و على اليسار تبدو أهوال الجفاف، ومنطقة تيفون المحرقة، حيث جادت عليها الطبيعة البخيلة ببعض الواحات القليلة - لتروى ظمأ الرحالة وليستردوا أنفاسهم : أما على اليمين خصوبة لا تنضب لطبيعة سخية، لا تنفذ أبدًا ؛ وهناك الوحدة، البؤس الفراغ، وهنا تزاحم البشر، ومدينة القاهرة الشاسعة والغنية ومئات القرى المزدهرة بالزراعة والتجارة الرائجة[1].

وإذا وجهت نظرك طويلاً وبعناية أكثر إلى الجزء الأخضر من الأفق، فسوف تكتشف هناك خطًا ضيقًا لامعًا مثل الشريط الفضى هو نهر النيل. ويمكن أن ترى الجبال التى تحد السهل من الجانبين، من اليمين الجبل العربى أو المقطم الذى ينحدر تدريجيًا ليختفى عند البحر الأحمر. وعند سفح المقطم توجد مدينة القاهرة والميناءان : ومن جهة اليسار سلسلة الجبال الليبية وهى سلسلة من الجبال الأكثر انخفاضًا لها ربوات مستديرة تبدو كأنها تغوص فى الرمال. وأننى للأسف لم أتمتع بهذا المنظر عند شروق الشمس : فهذا التباين الذى وصفته لا بد أن يكون أكثر روعة عند الشروق وعند الغروب وأوضح منه فى وضح النهار.

وإذا ألقيت حجرة من أعلى الهرم بقوة شديدة فهى لا تصل بالكاد إلا إلى قاعدة الهرم، وعادة فهى تقع على الدرجات ولا تصل إلى ثلثى أو ثلاث أرباع

(١) وقت الفيضان ، تكون مثل البحر الذى ينتشر عليه عدد لا نهائى من الجزر الصغيرة و كان هيرودوت قد شبه هذه الظاهرة بالجزر الموجودة على البحر الأيونى .

الارتفاع : وهذه التجربة قمت بها لمرات عديدة وكذلك قام بها زملائى فى الرحلة وتوصلنا جميعًا إلى النتيجة نفسها : ويؤكد الأعراب أنه إذا استخدمنا نبلة فإن الحصى لن يصل إلى مسافة أبعد من ذلك. إلا أن الحجر عند انطلاقه، ويجعلنا نشك فى هذا الأمر، لأن خداع النظر يجعله يبدو أبعد بكثير فى بادئ الأمر، ونتوقع أنه سوف يقع بعيدًا، ولكن بالنظر إليه وتتبع حركته نعتقد أنه سرعان ما سوف يعود إلينا بحركة دائرية مقوسة، ثم يتخبط الحجر على الدرجات وبقفزة عالية يتجه إلى أعلى قبل أن يلمس الأرض كما أنه لا يستطيع أقوى وأمهر رامى قوس أن يوصل السهم إلى قمة البناء[١] أو حتى يتعدى ارتفاع القاعدة. وكان أحد زملائنا قد رمى أسهمًا لمرات عديدة من قمة الهرم إلى الأسفل إلا أنها كانت تقع دائمًا على جسم الهرم[٢] ومن الصعب أن نفهم أنه لا يستطيع رجل ذو قوة عادية أن يلقى بحجر من أعلى إلى أسفل على مسافة أفقية أقل من ١٠٩ م (٣٣٦ قدمًا) : فضلاً عن أنها تجربة تتكرر كثيرًا. ويحكى عبد اللطيف أن رامى سهام كان فى رفقته أثناء زيارته للأهرامات فأطلق سهمًا فى اتجاه الارتفاع وفى اتجاه السمك (القاعدة) وأن السهم وقع تقريبًا عند منتصف هذه المسافة[٣].

من على البناء يمكن أن نرى عند سفح الهرم عددًا كبيرًا من المبانى المستطيلة، ممتدة ومتساوية تمامًا، أطرفاها مصطفة من الجنوب إلى الشمال ومن المشرق إلى المغرب. وأحصيت أربعة عشر صفًا فى الاتجاهين سواء شرق أو غرب الهرم الأكبر، مما يصل بها إلى أربعمائة تقريبًا، فتحت الرمال التى تغطى عددًا كبيرًا من المبانى، يظهر الشكل بوضوح. ولقد رأيت على أحجار المسطح اسماء كثيرة حفرها الرحالة، وكثير منها بصفة خاصة اسماء إنجليزية من بينها اسم جريفث، واستطعت أن أقرأ أيضًا على الهرم اسم نيبور، مكتوبًا بشكل غير

---

(١) ملاحظات بيلون كتاب ٢ فصل ٤٢ فى نصوص الأهرامات بقلم: جريفث لندن ١٦٤٦ ص ٧٧ وكان جريفث قد شك فى ذلك.

(٢) السيد جراتيان لوبير الذى أنقل عنه هذا العمل وعدد آخر من الملاحظات.

(٣) عبد اللطيف حكاية مصر ترجمة السيد سلفستردوساسى ص ١٧٤ .

صحيح وكذلك عدد من الاسماء اللاتينية والإيطالية من بينها اسم مكتوب معه عام ١٥٥٥ على هذا النحو ٥٥ + ١٥ وأخيرًا وبجوار الفتحة نقرأ عددًا كبيرًا من الأسماء المشهورة. وغطى الفرنسيون الأثر بتاريخ ١٧٩٨ .

ونُقِل إلى سمعى أن الهبوط من قمة الهرم أكثر صعوبة وأكثر تعبًا من الصعود إليها مما جعلنى أفكر فى طريقة كانت فى ظنى سوف تجعل النزول أقل صعوبة، وتتيح فى الوقت نفسه، الفرصة لعمل شىء مفيد. وهو أن أقيس جميع المداميك واحد تلو الآخر : و كان من المنتظر أن تستغرق العملية وقتًا طويلاً، وتتطلب صبرًا جميلاً. لذلك استعنت برحالة آخر حرصًا على الدقة فى العمل : وتخطينا كل الصعوبات وبدأنا العمل[1].

و لقد أخذت من خلال هذا العمل الطويل فكرة جيدة عن الهرم. وبعد أن عملت بجد لمدة ساعة، كنا فى شدة الإعياء ونفذ صبرنا، و كنا نظن أننا قطعنا شوطًا طويلاً، غير أنه بالنظر تحت أقدامنا، اكتشفنا أنه لا يزال أمامنا عمل كثير.

و ربما كان هذا يزيد من صعوبة العمل و الجهد الذى يتطلبه هبوط كل واحدة من هذه الدرجات التى كان معظمها يفوق بأربع أو خمس أو ست مرات حجم الدرجة العادية، وتأثير الشمس الساطعة والوضع الشاق الذى كان يفرضه هذا العمل. وهناك انطباع آخر أقوى انتابنى عندما كنت فى منتصف ضلع الهرم الذى كنت أقوم بقياسه وفكرت فى النظر إلى الضلع الآخر. فكان يبدو لى أن أرى خطًا يمتد بلا حدود حتى الأفق لينزل تحت الأرض. وفى هذه اللحظة شعرت بشىء من الدهشة يتملكنى أو الخوف أو الإعجاب أو بالأحرى كل هذه الأحاسيس فى الوقت نفسه، وبحركة تلقائية مسكت بالأحجار. و نظرًا لأن قافلتنا غير مرتبطة بشىء، صدر الأمر بالرحيل، ودَوى صوت النفير، بينما لم نكن قد أنجزنا إلا ثلاث أرباع العملية، وعلى الرغم من ذلك تمكنا من إتمامها بالكامل. ووصلنا إلى الدرجة الأخيرة منهكين من التعب والحرارة. وتمكنا بالكاد أن نتخذ ركائبنا حتى نلحق بالقافلة التى كانت قد نزلت بالفعل إلى الوادى.

---

(١) انظر ما سبق .

وهناك ثلاثة طرق أخرى للهبوط من الهرم، والأسهل هى التى تتفادى الدوار الذى يتعرض له الآخرون وهى عبارة عن النزول من الخلف أى أن ننظر إلى الهرم أثناء النزول فلن يكون أمامنا سوى الدرجات نفسها التى نلمسها. أما إذا نزلنا هذه الدرجات من الأمام فمن الممكن أن ننزلق نظرًا للضيق النسبى للدرجة بالمقارنة بارتفاع الجزء المواجه للدرجة. وأخيرًا إذا ما قفزنا من درجة إلى أخرى فسنتقابل مع مشقة أكبر وأخطر.

داخل الهرم الأول

عندما نهبط من الهرم، يجب أن نستريح بعض الوقت قبل أن نجوب فى السراديب الداخلية وعلينا أن نباشر الاحتياجات العكسية بحرص شديد. ففى الوقت الحالى، يوجد المدخل أو الحافة الحالية (والأصل) للممر المنحدر فى المدماك[1] الثالث عشر أو على ارتفاع ١٢,٦٤ م أى واحد من ثلاثة عشر من الارتفاع الكلى للهرم بشكله الناقص فى الوقت الحالى فوق الصخر. ويوجد مسقط الرأس الشمالى والجنوبى الذى يمر بالجانب الشرقى لهذا المدخل على بعد ١٢٠مترًا من الزاوية الشمالية الغربية وبالتالى على بعد ٦,٣٤ أمتار شرقى الخط العامد (١٢٠ مترًا، ناقص نصف ٢٢٧,٣٢م) : وعلمًا بأن عرض الممر يبلغ ١,١١ م، بالتالى فإن المسقط الرأسى المار بهذا السرداب يتعامد على الواجهة الرأسية لوزرة القاعدة المتجهة من الشرق إلى الغرب. وفى الواقع (١) إن الغرفة المسماة بغرفة الملك التى لها نفس محور الهرم والتى تتجه حوائطها شرق غرب وشمال جنوب يبلغ طولها ١٠,٤٧٢م ويبلغ نصفه ٥,٢٣٦ م (٢) أما المسافة بين الممر والخط العامد فتبلغ ٦,٣٤م إذا طرحنا منها نصف عرض الممر، وهو ٠,٥٥٥م، و يتبقى لنا ٥,٧٩ أمتار ونجد أن الفارق على ارتفاع ٥,٢٣٦م ليس إلا

---

(١) فى عرض نظم القياس نقرأ «المدخل يوجد فى المدماك رقم ١٥»، فابتداء من السهل يمكن أن نعد المدماك الصخرى مرتين (انظر لوحة ١٠ شكل ٢ المجلد الخامس) إذا ما قارنا الارتفاع من نقطة الفتحة السابقة بالنسبة للارتفاع الكلى يجب أن نأخذ فى الاعتبار الأحجار المهدمة للكساء .

٠,٥٤٩ مترًا. وهذا مثال آخر للدقة المتناهية فى عمل المهندسين اللذين قاموا ببناء الهرم فى جميع مراحل التشييد.

ونصل بسهولة إلى المداخل عن طريق تل من الرمال يتراكم تحت الأنقاض، المكونة من جزء كبير من الحطام الذى سقط من القمة، ودخل الممر، ثم يتم إلقائها من الفتحة عند عمليات التنظيف. ويجب تكرار هذا العملية كل مرة ينزل فيها زائرون جدد، وسوف نرى السبب فى ذلك فيما بعد.

وقبل أن يدخل الرحالة إلى الممر يشد الانتباه للمظهر الخارجى للفتحة[1] وهى شديدة الضيق والانخفاض إذ أنها لا يتعدى عرضها ١,١١م (ما يقرب من ٣ أقدام ٤,٥ بوصة) ونفس المقياس بالنسبة للارتفاع العمودى، وتبدو أيضا أصغر بكثير مقارنة بحجم المداميك الضخمة التى تحيط بها. وهناك حالة لافتة أكثر هى وضع أربعة الأحجار الكبرى الموضوعة من أعلى على شكل قوس فطولها يبلغ أربعة أمتار (١٢ قدمًا ٤ بوصات تقريبًا) ومن الواضح أنها تستخدم كوسيلة لتفريغ الحمل، وقد قامت بهذه المهمة على أكمل وجه، لأن الحمل الثقيل لكل الكتلة العليا التى تضغط على الممر لم تقم بهدم أى جزء منه وحوائطه كلها سليمة، على حالتها الأصلية، بمعنى أنها تشكل منشورًا مجوفًا على شكل مستطيل تمامًا، له قاعدة مربعة، و واجهة قائمة ملساء على امتداد طوله الحالى الذى يبلغ ٢٢,٣٦٣م (٦٧ قدمًا وبوصتان) وفوق الممر وأمام العقود يوجد حجر كبير طويل طوله ٣,٨م، وعرضه ٢,٦م، وسمكه قد يبلغ مترًا ونصف، ويزن ٦٠ ألفًا. وتبلغ الزاوية التى يمر من تحتها الممر ٢٦°[2]، أى أن مسقط العمق يشكل مع المسقط الرأسى زاوية ٦٤°. وحتى ندخل الممر، ونجوب فى كل مكان، علينا أن نتخلص من الجزء الأكبر من ملابسنا ونتزود بشعلة أو شمعة مضاءة. وتقع الفتحة الحالية للممر على عمق مترين ونصف تقريبًا من مسقط الواجهة، وبهذا يكون جزء من المسقط مائلا للخارج، كما أن المنحدر ذا ميل منزلق فمن الصعب

---

(١) أنظر لوحة ١٤ ، الأشكال ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، فى لوحات العصور القديمة.

(٢) يفترض بعض الأشخاص أن الزاوية تبلغ ٢٧° ، غير أن المقياس الأدق يتفق على أنها ٢٦° أو على الأكثر ٢٦درجة و ثلاثة خطوط .

أن يقف المرء عليه منتصبًا. ونحاول على قدر المستطاع أن ندخل الهرم قبل أن يدخله أحد أو على الأقل قبل أن يقوم عدد كبير من الأشخاص بامتصاص الهواء وتلويثه. فيتقدمنا بعض الأعراب، ونحن نسير خَلفهم واحدًا تلو الآخر. ويجب النزول إما منحنيين، وإما فى وضع القرفصاء، ونتوقف فى كل خطوة على الحزوز الموجودة فى أرضية الممر. وكلما نزلنا لاحظنا السقف ينخفض تدريجيًا حتى إن الرأس يقترب أكثر من الركبتين : وأخيرًا نصل إلى مكان حيث يكون من الضرورى الانبطاح على الأرض والزحف على البطن والرأس فى الرمال مستعينين باليدين والركبتين. كما أن الحرارة الشديدة التى تنبعث من الأضواء والهواء الثقيل، الخانق الذى نتنفسه يجعلنا نفرز الكثير من العرق، و التعب يبلغ هنا ذروته. ولحسن الحظ، فإننا لا نمكث طويلاً فى هذا الوضع غير المريح ويرجع الضيق التدريجى للممر إلى الأنقاض والرمال التى تنزلق فيه بحكم وزنها لتتراكم داخل الممر وبخاصة أسفله مما يجعل من الصعب إزالتها تمامًا. وعند الخروج من هذا الممر الضيق، نكون قد قطعنا مسافة أكثر من ٦٧ قدمًا، (كما سبق أن ذكرت)، وعند ذلك نكون قد وصلنا إلى نقطة يمكن الوقوف فيها لنتنفس بحرية أكثر، وهنا، ندرك أن من قاموا بسلب الهرم، حين أرادوا أن يدخلوا الممر الثانى توقفتهم الكتل الجرانيتية الثلاثة الكبيرة، فحاولوا فتح ممر مصطنع سواء فى امتداد الممر الأول أو عن يمينه، غير أنهم لم يستطيعوا الخروج منها ففتحوا فوقها، ونجحوا فى ذلك[1] و لمتابعة السير يجب ـ على الجانب الأيمن - عبور مرتفع يبلغ ارتفاعه مترين تقريبًا (٦ اقدام) وسرعان ما نصل إلى الممر الصاعد الأول.

وسأمر سريعًا على وصف الممر الثانى. فيوجد على نفس المسقط الرأسى للقناة الأولى و له نفس ميل الممر الأول، ولكن فى الاتجاه الآخر، ولوحظ أن

---

(١) "قد ذكرت فى يوميات رحلتى هذه الكلمات : وبما أنهم كانوا يعتقدون أن الممر الأول يستمر فى الهبوط ، فحفروا فى الاتجاه نفسه ، ولكن حينما أيقنوا الخطأ الذى وقعوا فيه ، اتجهوا نحو اليمين وقاموا بمحاولة دون جدوى ، ولا يزال موجودًا فى هذا المكان حفرة كبيرة . إلا أنهم اتجهوا بعد ذلك نحو الشمال ، بعد أن طافوا فى شكل نصف دائرة حول الطريق الصحيح واكتشفوا القناة الثانية .

الزاوية تزيد عن ٢٦° بقليل، وبحساب الزاوية وجدناها تبلغ (٢٥ درجة ٥٥ دقيقة ٣٠ ثانية). كما يبلغ عرضها وارتفاعها أيضًا ١١,١م. غير أن هذا الممر خال تمامًا. فجداره مصقولة أيضًا، وتستخدم الحزوز الموجودة فى القاع فى الصعود. ويبلغ طولها ٣٣,١٣٤م (١٠٢ قدمًا). وعندما ننتهى من الصعود، نصل إلى سطح واسع يبلغ ٥,٤م. وهنا يختلف المشهد تمامًا، فالهواء يسير بحرية وبذلك نتشبع من هذا العنصر الذى كنا قد أفتقدناه حتى الآن. ثم تجد فوق رأسك مساحة أكبر على شكل قبة، وعلى اليمين، تحت الأقدام تقريبًا، توجد فتحة البئر الشهير أمام سرداب طويل أفقى، يؤدى إلى الغرفة التى يطلق عليها بين العامة الملكة، وأخيرًا، فوق السرداب العالى البديع، الذى يؤدى إلى غرفة الملك. وهذا السرداب له نفس ميل الممر السابق باختلاف ٢٦°، وأرضه مرتفعة كثيرًا. والوصول إليه، يتطلب أن نتسلق منحدرًا ارتفاعه ٢,٣م (٧ أقدام وبوصتان تقريبًا) مما يتم باستخدام سلم أو الصعود على ظهر رجل أو بالاستعانة بيديه وكذلك يمكن وضع أقدامنا فى الحفرة المستطيلة المحفورة على كل جانب على بعد ٠,٦م (قدمين) من القاع، مع استخدام الأيادى للصعود إلى أعلى. ولقد عبرت عن هذا التسلق والأجراء الأخرى فى المشهد الذى وصفته الآن فى رسم مؤثر كفيل بأن يعطى فكرة صحيحة عن هذا الجزء الداخلى للهرم وبصفة خاصة سرداب غرفة الملك، والوضع الغريب للغاية الذى هو عليه[1].

ويوجد على جانبى السرداب درابزين أو مقعد صغير يصل ارتفاعه إلى ٠,٥٧م (قدم و ٩بوصات)[2]، يرتكز عليه من يصعد بمساعدة الحزوز المحفورة فى الأرضية، كما هو الحال فى الممرين السابقين. والمنحدر زلق للغاية بما أن الأرض قد تآكلت من سير آلاف الزائرين الفضوليين عليها.

---

(١) وقد نقل هذا المشهد السيد سيسيل، انظر لوحة ١٢ شكل ٢ المجلد الخامس وشرح اللوحة رقم ١. ويجب الرجوع خاصة إلى خريطة الهرم ومقطع له رسمه السيد لوبير المهندس الذى كان كلف مع السيد كوتيل بالتنقيب وأخذ جميع قياسات الهرم . ويظهر هذان الرحالان بنفسهما فى اللوحة المذكورة (لوحة ١٣ شكل ١) انظر اللوحتين ١٤ و ١٥ المجلد الخامس .

(٢) انظر لوحة ١٣ شكل ١ : لقد صورت الرسوم ذلك على ارتفاع أكثر مما هو عليه . (لوحة ١٥ شكل ٤) .

ويفضل البعض الصعود بوضع الساقين مفتوحتين على المقعدين الموجودين على جانبى السرداب غير أن القيام بذلك يعرضهم للارهاق و المخاطر بما أن المسافة بين الجانبين تبلغ ١,٠٨٨م (٣ أقدام ٤ بوصات)، أما البعض الآخر فيسير على المقعد (الذى يبلغ عرضه ٠,٥٠٢م أو قدم و٦ بوصات ونصف) لأنه به فتحات وتجويفات على شكل منشور مساحتها ١٤ × ١٤ ديسيمترات تقريبًا. (١,٤٣ م أو ٤ أقدام ٦ بوصات)[1] توجد فى جدار السراديب يصل عددها إلى ٢٨ على اليسار جهة الصعود و٢٦ على اليمين، ويستغل مكان الاثنين الناقصين كمدخل للبئر. وأيًا كان استخدامها فى الماضى فهى الآن لها فائدة كبيرة فى الصعود والهبوط.

ومن الصعب أن يعبر الكلام عن الأثر الغريب الذى يحدثه هذا السرداب العالى: فالشعلات تضىء القبة بصعوبة حتى إن الخيال يفترض أنها أكثر ارتفاعًا مما هى عليه[2] ويبلغ عرضه الكلى ٢,٠٩٢م (٦أقدام ٥ بوصات ٥ خطوط) وارتفاعه ٨,١٢١م (٢٥ قدمًا ٦ بوصات تقريبًا). وكلما اتجهنا إلى أعلى تقترب الحوائط، لأن السبعة مداميك التى تكونها (فوق المدماك الأول المزدوج) خارجة، بمعنى أنها تزداد بروزًا واحدًا تلو الآخر ونظرًا لأن طول البروز يبلغ ٠,٠٥٤م فالنقص الكلى يبلغ ٠,٣٧٨ م وهذا المقدار يتضاعف إذا طرح من ٢,٠٩٢م يبقى ١,٣٣٦م[3] (٤ أقدام وبوصة و٤خطوط) فقط كمساحة لعرض السقف. ويجعل خداع النظر، هذه الحوائط تبدو مقوسة على الرغم من أن واجهة كل مدماك عمودية فهى تبدو على شكل قوس شديد الحدة كما أن بريق الأحجار وقطعها بمهارة يجعلان عددًا كبيرًا من الذين يرافقونى ظنوا فى بادئ الأمر أنه من حجر الجرانيت، أما جريفث فظن أنه من الرخام. وفواصل المداميك تكاد أن تكون غير مرئية إذ أنه لا يمكن إدخال سكين بين أحجارها. فالبناء بأكمله جدير بالإعجاب لإتقانه وكذلك لصلابته إذا أنه لا يزال على حالته الأولى على الرغم من الكتلة

---

(١) يبلغ طول التجويف ٠,٣٢٥ م، وعرضه ٠,١٦٢ م، وعمقه ٠,١٢٠م.

(٢) ونلاحظ فى آخر الممر الأول الهابط وجود مشاعل على مدخل غرفة الملك. على الرغم من كونها على مسافة ٧٢,٥ م (٢٤٢ قدمًا تقريبًا) مما يكفى لإثبات أن عمق الممرين الصاعدين يشكلان مسقط هندسى دقيق.

(٣) يبلغ الجانب ١,٠٥٤م.

الضخمة التى تضغط على هذه القبة غير الأصلية. ومن هذه الناحية، استطاع المهندسون أن يحققوا الهدف الذى كانوا قد حددوه منذ ثلاثة آلاف عام أو أكثر.

و طول أرض السرداب الذى نسير فيه يبلغ ٤٠,٣٥٨م (١٢٤ قدمًا وبوصتان و ١١ خطًا) ويستلزم للوصول لقمة الوجه المائل نصف ساعة و فى أغلب الأحيان أكثر من ذلك. وعند الوصول إلى هذه النقطة علينا أن نعبر مدخل يبلغ ارتفاعه ٠,٩٠٣م (قدمان ٩ بوصات ٤ خطوط) وعندئذٍ نكون أمام ممر جديد يتساوى فى عرضه مع الممرين السابقين (١,٠٤٩م) وبنفس الارتفاع تمامًا (١,١١م) : فابتداء من هذه النقطة يكون البناء كله من حجر الجرانيت. ولدخول الممر، علينا السير بانحناء مرة أخرى، إذ أن طوله يبلغ ٨,٣٨٥م : ويقطعه عند النصف تقريبا جزء أكثر ارتفاعًا على شكل غرفة كالبهو، لا يزيد عرضها عن ١,٢١٥م ولكن يبلغ ارتفاعها حوالى ٣,٨م تقريبًا وطولها ٢,٩٥٦م. وينقسم هذا المكان الغريب إلى أربعة أجنحة، موجودة داخل أربعة إطارات تشبه الكواليس، وهذه الأجنحة لا تصل إلى السقف. أما عن الأول فهو مملوء بحجر يشبه الجرانيت[١] يبدو معلقًا رأسيًا على ارتفاع ١,١١م من الأرض، وهى مرتكزة على بروز شديد الصغر مما يهيئ للمرء أنها يمكن أن تقع بأية حركة بسيطة، فتسد المخرج تمامًا. ويبلغ سمك هذه الحجرة ٤ ديسيمترات (١٥ بوصة) وارتفاعها ما يقرب من ١,٤٥م أما عرضها فيبلغ أكثر من ١,٠٥م، و أيا كان المقصد من هذه الحجر فنحن نجهله. فهى تتميز أيضًا بأربعة حزوز أو أضلاع أسطوانية مجوفة على الواجهة الأمامية، ويبقى الغرض منها لغزًا من الصعب حله. وينطبق هذا الكلام على ثلاثة الأجنحة الأخرى التى تحيط بالحجرة.

وبعد المرور فى البهو ننحنى أكثر فى ممر طوله ١,١١٠م وأخيرًا نصل إلى قاعة مرتفعة جدًا : وهى الغرفة المسماة بغرفة الملك. فمحورها تقريبًا هو نفس محور البناء[٢] وطولها من الشرق إلى الغرب : أما عن الجانبين الأكثر طولاً

---

(١) لقد ذكرت فى يوميات رحلتى ثلاثة أحجار متشابهة ربما فى غير محلها .

(٢) محور الهرم يتوسط تمامًا الجزء الغربى للغرفة والمحور المشترك بين الممرات والسراديب .

فيلغان، الجانب الجنوبى ٤٦٢, ١٠م، والجانب الشمالى ٤٦٧, ١٠م أما الجانبان الآخران، فالجانب الشرقى يبلغ ٢٣٥, ٥م والغربى ٢٠٠, ٥م والأخير هو الموجود فى آخر الحجرة وهكذا يكون العرض نصف طول الحجرة تمامًا، أما عن الارتفاع، فيبلغ ٨٥٨, ٥م(١)، وشيدت الحجرة بحجر الجرانيت الذى تم صقله وجليه تمامًا على كل الجوانب : ومن الصعب تبين الفواصل بين المداميك التى يبلغ عددها ستة بنفس الارتفاع. أما الفتحات الوحيدة التى لا يمكن رؤيتها فهى ممرات صغيرة مستطيلة على ارتفاع ٥ أقدام الواحد أمام الآخر متوجه نحو الشمال والآخر نحو الجنوب، أما القاعدة فهى على شكل مستطيل يبلغ طول الجانب من ٧ إلى ٨ بوصات. غير أنه تم فى الوقت الحالى إغلاقها على عمق ٣ إلى ٤ أقدام. ولم يعرف بعد إلى أى مدى كانت تمتد هذه الفتحات. كما أن هذه الفجوات ليست فى وسط الغرفة، فداخل الغرفة نجده مظلمًا تمامًا من أثر الدخان. أما السقف فهو مكون من كتل من الأحجار الأحادية الطويلة تصل إلى أكثر من ستة أمتار (١٨ قدمًا ونصف) ويوجد تسعة موضوعة بشكل مستعرض : و يصل حجم كل حجرة على الأقل إلى ١٣٠ قدمًا مكعبة وتزن ٢٠ ألفًا. ونلاحظ نفس الشىء فى السراديب والممرات. فلا يوجد أى هبوط ولا اهتزازات واضحة، إذا كل شىء فى مكانه الأصلى ثابت أو على نفس المستوى. فالجرانيت الذى بنيت منه جدران الغرفة مصقول تمامًا وشديدة الصلابة بحيث لم يتمكن واضعوه من حفر أى اسماء على صفحته : و كل ما هو مكتوب عليه مدون بالمداد الأسود. وبصفة عامة، فهذا العمل متقن تمامًا والأحجار مرصوصة بشكل يدعو للإعجاب. وقد أجمع الرحالة على هذه النقطة وهو أن جمال العمل يتفق مع جمال الخامة.

وعند زاوية الغرفة، عندما ندخل من اليمين، نجد صندوقاً من الجرانيت يسمى تابوتًا ويبلغ طوله ٢,٣٠١م أما عرضه فيبلغ ١,٠٠٢ م وارتفاعه ١,١٣٧م

---

(١) يحتمل أنه قد تم أخذ كل مقاييس هذه الحجرة بدقة متناهية ، ومنها استخلص نوتيون نتائج نسبية للمقاييس القديمة.

وعمقه ٩٤٨,٠م، كما أن سمكُ الجوانب يبلغ ١٦٢,٠م وسمك القاع ١٨٩,٠م. وعلى الرغم من أن الغطاء كان موجودًا، فانه الآن قد اختفى[١] أما التابوت فهو مهشم من الخارج وليس عليه أية كتابة أو نقوش هيروغليفية، كما لا توجد أية حروف محفورة فى أرجاء تلك الغرفة بأكملها، كما لا يلاحظ شيئا فى الغرف الأخرى ولا فى السراديب أو أى مكان آخر. وقد فتح - عدم وجود أية كتابات أو نقوش - الباب أمام الكثير من الاجتهادات ولكنها - فيما أرى - غير مقنعة : وهذه مشكلة أخرى تساعد على ممارسة الاجتهاد، وسأتناول هذا الموضوع فيما بعد.

وقد لاحظت وراء التابوت آثار محاولة اختراق الجدران مما يدل على حدوث تنقيب فى هذا المكان ولم تتجاوز المحاولة مساحة ٨ أقدام فى قدمين تقريبًا.

وقبل الدخول فى السرداب الكبير، يجب أن أذكر أن هناك غرفة كانت غير معروفة تقريبًا حتى وقت الحملة الفرنسية، وكان نيبور قد تحدث عنها ولو أنه لم يرها، وقد نسب هذا الاكتشاف إلى السيد دافيسون الذى جاء إلى مصر مع السيد مونتاج، وكان ذلك بعد زيارة نيبور[٢] إلى مصر: وكان السيد مينار وهو تاجر فرنسى قد رأى هذه الغرفة فى نفس الوقت. فنستطيع أن ندخلها من فتحة موجودة فى الزاوية العليا للسرداب، أعلى من اليسار جهة الصعود أى من ناحية الشرق. و لذلك علينا أن نتزود بسلم عالٍ جدًا. وقد ظهرت عملية الصعود فى اللوحات[٣] بعد المرور بممر منحنى قليلاً، نصل فوق غرفة الملك، وهنا نكون قد وصلنا إلى الغرفة التى نتحدث عنها. ويبلغ ارتفاعها ٠٠٢,١م (٣ أقدام وبوصة) فهى منخفضة ومن الواضح أنه ليس لها منفعة إلا لتخفيف الحمل عن سقف

---

(١) فمنذ الحملة الفرنسية كان التابوت قد تم كسره على أيدى الجنود الإنجليز كما يزعم الناس.

(٢) رحلة إلى شبه الجزيرة العربية المجلد الأول صـ ١٦١. و يجب إضافة كلمة لشرح لوحة ١٣ فى المجلد الخامس وتقرأ غرفة فى الأسفل غير معروفة تقريبًا للرحالة.

(٣) انظر لوحة ١٣ ، المجلد الخامس شكل ١ عند النقطة ٥ وكذلك لوحة ١٤ شكل ٢ عند النقطة c. ولوحة ١٥ شكلى ٣ و٥ عند النقطة a شكل ٤ عند النقطة a. ففى اللوحة الأولى يظهر السيد لوبير المهندس عند السلم والسيد كوتيل فى أعلى السلم الذى يصل نصفه إلى الغرفة التالية التى كان يعتقد أنه أول من يزورها.

حجرة الملك نظرًا لأن لها نفس مقاييس هذه الغرفة وأنها تقع فوقها تمامًا. وعندما دخلها الفرنسيون وجدوا طبقة سميكة من فضلات الخفافيش(١).

والصوت داخل الهرم له صدى عظيم، فهو يكرر الموجات الصوتية عشر مرات عندما يخرج الرحالة من غرفة الملك من أعلى الساحة العليا. فكانوا يتمتعون بإطلاق بعض الأعيرة النارية التى كانت تحدث دويًا هائلا. ومن العسير أن أصف الأثر العجيب الذى تحدثه هذه الفرقعة على ممرات الهواء، وهو أثر غاية فى العمق داخل الممرات المظلمة لم أسمع فى حياتى قط دويًا أكثر منه رهبة : فيبدو أن الأذن ترتعد وذبذبات الصوت تدوى، وتنعكس بلا انقطاع، وتجتاز كل هذه الممرات المصقولة من الداخل، وتصطدم بجميع الحوائط، ثم تصل أخيرا إلى نهاية الممر ضعيفة قريبة من دوى الرعد عندما يتضائل فى جو السماء. أما فى الداخل، فإن الصوت يتضائل بالتدريج وسط الصمت الرهيب الذى يسود هذه الأماكن ويشد إليه من يلاحظه : فهى تجربة يتمتع بها من يكررها كما أننا أعتدنا أن نطلق بعض الأعيرة النارية من الفتحات الصغيرة فى غرفة الملك. ويذكر بلوتارخ أن الأصوات تتكرر أربع أو خمس مرات فى الأهرامات(٢) : وقد يحتاج الأمر إلى معرفة أى الأهرامات تصدر عنها هذه الخاصية الصوتية.

وإذا كان صعود الممر الكبير عملاً شاقًا، فإن الهبوط يتطلب قدرًا كبيرًا من الحرص حتى يكون المرء فى مأمن من المخاطر، ففى كل خطوة يجب أن يتحسس الحزوز بقدميه وقد يكون أكثر تحقيقًا للسلامة أن يجلس الهابط على المقعد الكبير ثم ينزلق تلقائيًا، وذلك أفضل من المشى منتصبًا. وعندما نصل إلى النهاية السفلى وحتى نستطيع مواصلة الطريق علينا أن ننزل هذا الميل بنفس الطريقة التى عبرنا بها أثناء الصعود. وعند الوصول إلى هذا المكان، نأخذ فى الرجوع، ونتجه نحو الجنوب عن طريق أفقى له نفس مقاييس الممرين السابقين للهرم" فيبلغ طوله ٣٨,٧٩١م (١١٩ قدمًا ٥ بوصات) ويؤدى إلى غرفة توجد فى الآخر

(١) أنظر فيما يتعلق بالملاحظات الأخرى دراسة السيد كوتيل حول الأهرامات .

(٢) عن الفلسفة الكتاب الرابع دار نشر رايسك ١٧٧٨ الجزء ٩ ، ص ٥٧٥ . المر الغريب ، خاصة مما يحمل على الاعتقاد إن الأهرامات كانت مفتوحة أو كان هذا تقليدًا فى زمن الكاتب .

على اليمين، طولها ٥,٢٢٤م فى ٥,٧٩٣م وهى ما يطلق عليها بين العامة غرفة الملكة. وقد بنيت هذه الغرفة من حجر الجرانيت مثل الغرفة الأولى، والأحجار مرصوصة بإتقان : والسقف على شكل مثلث، وارتفاع الغرفة إلى بداية المثلث يبلغ ٤,١١٤ م، أما الارتفاع إلى قمة المثلث فيبلغ ٦,٣٠٨م، وهى أعلى من غرفة الملك. ويوجد جزء من أحجار السقف بارز فوق الآخر. والغرفة مملوءة بالأنقاض حتى أننا لا نستطيع أن نبقى فيها خمس دقائق دون الشعور بالاختناق بسبب تلوث الهواء فى بعض الأحيان. ويوجد فى اليسار فجوات مصطنعة. وتغطى أرضية الممر مغطاة بالملح، الذى يتكون أيضًا على جدران الممرات الأخرى ويرفع على شكل لوحات يصل سمكها إلى خطين[١].

ونخرج من هذه الممرات غارقين فى العرق، والوجوه محمرة والأجساد مرهقة، ولا يتبقى من الجهد للهبوط إلى البئر التى توجد مدخلها بجوار الممر : فمن الضرورى أن نستريح بعض الوقت، لنستعيد قوانا بتناول بعض المشروبات الكحولية أو أى وسيلة أخرى. وعادة ما نرجئ زيارة البئر إلى رحلة أخرى، وهذا ما حدث لى، غير أنه هناك عائق منعنى من القيام بها خلال زيارتى التالية. وسأستند إذا فيما يتعلق ببئر الهرم إلى مذكرات السيد كوتيل وإلى المقاييس التى أخذها السيد نوبار المهندس ويبلغ عرض البئر عند فتحتها ١,٤م فى ٠,٦م ثم يتناقص ليصل إلى ٠,٦٥م ـ ٠,٦م وأن هذا البئر لا يهبط بشكل رأسى فيقع الجزء الأول من مجرى البئر على عمق ٤٧,١٠٢م أما الثانى يصل إلى١٦,٢٤٢م وبذلك يصبح العمق الكلى ٦٣,٣٤٤م وأخيرًا كانت هناك غرفة قد بنيت على ارتفاع ٩ أمتار تستخدم كاستراحة لمن يصعد أو يهبط أو لتلقى الأنقاض التى تقع فى القاع أو لأى استخدامات أخرى. كما أن الغرفة منحوتة فى الصخر وليس بها شىء غريب يميزها : فارتفاعها يبلغ ٣ أمتار، وعرضها يزيد على ذلك بمقدار النصف[٢].

---

(١) وقد وجدوا فى مدافن الأهرامات رقائق من الملح يصل سمكها إلى بوصتين : وأرى من الضرورى ذكره.

(٢) كان السيد دويوا إيميه قد نزل فى أعماق البئر، غير أننى لم أعرف ملاحظاته.

وتصل الحرارة فى عمق البئر ٢٥° فى داخل الهرم إلى ٢٢° وفقًا لما ذكره السيد كوتيل ونستفيد من أهمية الملاحظة حول الحرارة الداخلية للأرض كإضافة إلى قيمة المجهود المبذول فى تخطى الصعوبات حيث إن الوصول إلى هذا العمق الشديد تتطلب تضحيات كثيرة والتعرض لخطر الهلاك لأسباب عديدة. ونحن نعرف أن حرارة الهواء فى قاع بئر يوسف فى القلعة بالقاهرة تصل من ١٧° إلى ١٨° (١). أما فى قاع القبوات فى طيبة والقبوات المجاورة فى الهرم فتصل إلى ٢٥° .

ووفقا للحسابات التى أجراها السيد جراتيان لوبير، كان عمق البئر بنفس مستوى متوسط أعلى وأقل منسوب لمياه النيل. ويحتمل أن جزء البئر الذى لم نصل إليه إلى الآن. لأنه لم يمهد بالدرجة الكافية، يتفق مع مستوى النيل : ولكن على ما يبدو أن قياس العمق الذى أخذه يختلف مع هذا الرأى. وفى الواقع، أن فتحة البئر تبعد ٦٨,٧١م فوق متوسط أقل منسوب للمياه فى الوقت الحالى (وهى أبعد من القياسات القديمة) : وكان قد تم قياس عمق البئر على مرحلتين يصل مجموعهما إلى ٦٥,٣٤م فقط. وفى الحقيقة أن متوسط أعلى منسوب للمياه هو أعلى من قاع البئر غير أن مستواه قد ارتفع منذ حفر هذا البئر. ولذلك نستطيع أن نؤكد أن قاع البئر كان يتصل فيما مضى مع مياه النيل. ومع ذلك فإننى لم أبحث فيما أكده بلينى، كما هو لا يتناقض تمامًا مع الملحوظة السابقة وسوف نتناول ذلك فيما بعد.

---

(١) مثل متوسط الحرارة فى القاهرة . أنظر وصف مدينة القاهرة.

البنـــاء

إن عـمليـة بناء الهـرم سـواء الجـسم الأسـاسـى الذى يشكل نواته أو كسـاءه الخـارجى أو توزيعاته الداخلية سوف تشـمل فصـلاً كامـلاً من دراستنا. ولحسن الحظ أن هذا الجزء من مهمتى تمت تغطيته باستفاضة فى مجمل بحثى الذى ذكرته توًا والذى يدور تحديدًا حول هذه المادة؛ وأذكر القارئ بذلك وكلى ثقة أن ما كتبته فى هذا الصدد سوف يرضيه بالنسبة لهذه النقاط؛ على أن عملية نقل الأحجار والعمل الفنى فى حد ذاته واستخدامات المواد المختلفة وهو ما لم يتم تناوله بعـد سـوف تكون المحـور الرئيسـى لبـعض الملاحظات. وهنا ينشـأ لدينا سؤالان يتعلقان بهذا الجزء من الوصف الحاضر ويحتاجان للتفسير والملاحظة، حتى وإن افتقدنا إلى المشاهدة العملية:

(١) هل تم بناء الهـرم بأكـمله أم أنه مكون من غـلاف خـارجى يحـيط بنواة داخلية عبارة عن جبل؟

(٢) وهل يحـتـوى الهـرم - على افـتـراض أنه مـبنى بالكامل - على فـراغـات ملموسة أيًا كان حجمها ومشابهة لما نعرف؛ أم هو بناء مصمت، أى يشكل كتلة واحدة؟

هذا ويجب أن نقـر بأننا لا نجد وسيلة للإجابة على أى من هذين السـؤالين سواء جزئيًا بالنسبة للسؤال الثانى ولا باكامل بالنسبة للأول؛ ولسـوف نكتشف بلاشك بعض المنافذ فى أعـماق هذا البئـر وربما فى بعض القنوات التى لازالت باقية ولذا فإنه من المنطقى أن نعترف أن الفراغ الذى تملؤه مساحة الهرم ليس مصمتًا فى جملته مما يستوجب أن ننقص ونقلل الحسابات التى نجريها عن حجم مكعب الأحجار التى يحتويها هذا الهرم؛ وأما بالنسبة للسؤال فمن المرجح أنه لن يمكننا أبدًا الإجـابة عليـه إلا أننا سـوف نجـد بناء على بعض الحـفـائر والتنقيب الداخلى أجزاءً ليس لها علاقة بأية مداميك حجرية مبنية وإنما تنتمى إلى الصخور. فما الذى يمكننا أن نستخلصه عندئذٍ بالنسبة لمعرفة مدى امتداد النواة الأصلية؟ وفيما بين الافتراضين فإنى أعتقد اعتقادًا راسخًا بأننى يمكننى

الميل إلى الافتراض الأول وهو أن الهرم قد تم بناؤه بالكامل. أما إذا ما رجعنا الافتراض الثانى فكيف يمكننا تفسير لغز اختفاء أى حجر يمكن أن يصل ارتفاعه من مائتين إلى ثلاثمائة قدم من الأحجار المحيطة بأهرامات الجيزة؟[١]. وكيف يمكن التوفيق بين هذا الافتراض وبين كون الأرضية التى ترتكز عليها هذه الأحجار هى المستوى الأعلى لهذا بينما يحيط بالمكان على بعد كبير. وذلك إن حدث فإنما يدل على أن هذا الفعل فى حقيقته يدهش أكثر من عملية بناء الأهرامات بكاملها بأحجار منحوتة كمداميك منتظمة. ولسوف يمكننى الأخذ بهذه الاعتبارات والاسترسال وراءها واستدعاء التاريخ لتأكيد هذه الافتراضات ولكن حيث إن البيانات تنقصنا مما يفتح المجال للحدس والتخمين، فإنه من الحكمة أن نكف عن ذلك.

المبحث الثالث

الهرم الثانى

إن ما قلته عن الهيئة العامة للأهرامات وكذا فيما يختص بالتصميم العام والموقع الرائع[٢] يعفينى من القيام بوصف الهيئة الخارجية للهرم الثانى.

إن هذا الهرم معروف باسم خفرع وهو الملك الذى قام هيرودوت بنسبه إليه. وبعض الكلمات سوف تكفى لوصف ما يحيط بهذا البناء. إننا نصل عادة إلى الهرم الأول من جهة الشمال، وإلى الهرم الثانى من جهة الشرق، وذلك بجعل أبى الهول على اليسار، وبالالتفاف حول بعض الأنقاض القريبة من ناحية شرق الهرم من هذه الجهة، نجد أن الخندق العريض الذى يبدو أنه كان يحيط بالأثر شبه مردوم، وكذا من جهة الجنوب، بينما هو بكامل عمقه من جهة الشمال وجهة

---

(١) لا يوجد أى رءوس لجبل بارز ومعزول على هذا الجزء من الهضبة.

(٢) انظر اللوحات من ٦ إلى ١٢، المجلد الخامس من لوحات العصور القديمة.

الغرب. وشرح ذلك لا يمكن أن يتم عن طريق السور المزدوج الموجود بهذه الجهة الأخيرة وهو نفس السور الموجود بجهة رياح الغرب التى تجلب الرمال من ليبيا. والمسافة الفاصلة بين هذين الهرمين ومن أقرب نقطة بينهما حوالى ١٨٠ مترًا (أى ٥٥٥ قدمًا).

وهذا الخندق نفسه قطعة فنية فى حد ذاته؛ إذ أنه محفور بالكامل فى الصخر على عمق من ٨ إلى ٩ أمتار[١] (أى ٢٥ إلى ٢٨ قدمًا) وعرضه من جهة الشمال يبلغ ٥٩,٥مترًا أى (١٨٣,٦ قدمًا و٦ بوصات تقريبًا) وجزء منه مخبأ أسفل الرمال؛ وهو أيضًا واسع من جهة الغرب بعرض ٣١,٤ مترًا (٩٦ قدمًا و٩ بوصات و٦ خطوط) وهذا الخندق منحوت ومخطط بإتقان وكذلك المصطبة المؤدية إلى الهرم، وهى ترتفع عن قاعة الأثر ومن أعماق هذا الخندق يرتفع الهرم بذاته.

وجدير بالذكر أن كتلة الحجر التى تم قطعها من داخل خذا الخندق لا يمكن أن تقل عن ١٢٤٥٠٠,٠ مترًا مكعبًا، وربما تكون ضعف هذا الحجم، ويمكن أن تكون قد استعملت فى بناء الهرم الثانى نفسه. والخندق من جهة الغرب يشكل شبه سور يمتد بعيدًا فى اتجاه الجنوب وعلى بعد ١٠٠ متر من الواجهة وفقًا للخرائط.

وفى الجزأين الأوسط والأدنى فإن الهرم الثانى يبين وجود درجات؛ ولكنه لايزال مغطى بكسائه فى جزئه العلوى، وقد قدرت أن الجزء المكسو يصل إلى ربع الارتفاع[٢]. ويلاحظ أن الدرجات قد حفظت أحسن كثيرًا من درجات الهرم الأول (الأكبر).

ومقاسات هذا الهرم أقل قليلاً ولايزال يحتفظ بكسائه حيث يقوم لمعانها بعكس أشعة الشمس ويجعلها تبدو بازغة من بعيد من بين باقى الأهرامات وإنَ

---

(١) يحمل الرسم ٦ أمتار، انظر المجلد الخامس، اللوحة ١٦.

(٢) هذا ما دونته فى مذكراتى عن هذه الرحلة ولقد سجلت فى الرحلة الثانية التى قمت بها أن الجزء المكسو يقدر بالخمس، وهو ما يختلف وفقًا لاختلاف أضلاع الهرم. انظر أدناه.

كان على الرغم من ذلك لا يحظى مثلها بنفس درجة الاهتمام، ومن جهة أخرى فإن هذا الهرم أصعب من غيره كثيرًا فى تسلقه وخاصة قمته التى تكاد تبدو مدببة، وليس لها مسطح يمكن أن نرتاح عليه، وأن ننعم بمتعة تأمل الآفاق مثل الأهرامات الأخرى. وعلى الرغم من ذلك فإن لفظ عجائب الدنيا قد زطلق منذ القدم على كليهما معًا.

والهيئة العامة واللمعة الساطعة للجزء العلوى توحى بالتأثير الجميل الذى لابد وأن رؤية الهرم بالكامل بل الهرمين معًا كان يحدثه فى نفوس الناظرين.

وحيث إن ـ وبلا أى شك ـ كل من الهرمين الأول والثانى قد تم تجميله بهذا الكساء اللامع، ولو أننا قد سمحنا لأنفسنا بارتكاب خطأ الظن بأن الأهرامات لم تكن مكسوة فإننا نكون قد ارتكبنا خطأ أكبر لو أن الأهرامات كانت مكسوة بالرخام أو المرمر.

إن الحجر المستخدم فى الكساء كان جيريًا رمادى اللون متماسك وأكثر صلابة وأكثر تجانسًا من الأحجار المصفوفة المستخدمة للبناء نفسه وبه شىء من اللمعان وإن كانت تبدو فى هذه الأيام وكأنها منطفئة عند رؤيتها من قريب؛ على أن الأزمنة قد جعلتها أكثر لمعانًا وخصوصًا عن بعد كما أعطت تأثيرًا جميلاً للمعانها. ونجد فى هذا الحجر حفريات، وكذلك نجد بالنواة أصدافًا.

ونلاحظ على البعد وجود بقع كبيرة على الكساء، وهذا هو أصل الرأى الدارج بوجود هذا الممر المزعوم بهذا بالكساء؛ ولكن بعضها ليس أكثر من روث بعض الطيور أما الأخرى والتى تبدو بدرجة تميل للإحمرار فكانت ناتجة من نبات بهق الحجر وهو نبات يعلو الصخور؛ ولقد تأكدت من ذلك بنفسى عندما تسلقت هذا الهرم فى سفرى الثانى. إلا أننى أجد نفسى أكثر ميلاً للتفكير بإن الهرم الثانى كان مكسوًا بالحجر الجرانيتى على الجزء السفلى فقط، حيث رأيت عند أسفل درجات السلم الكثير من كتل الجرانيت المسنونة والمشطوفة وخصوصًا فى اتجاه الجنوب ولاحظت أيضًا وجود بلاطة جرانيت مسنونة أو منشورة بواجهة مائلة وكانت تبدو فى مكانها ومبتعدة قليلاً عن زاوية تقدر بحوالى ٢,٤ متر من

الزاوية الجنوبية الغربية من الهرم فى اتجاه الشمال ويمكن الظن بأنها قد تكون انحرفت قليلاً عن مكانها الأول.

وهذا الهرم يتخذ نفس اتجاه الهرم الأول ولا يوجد أى دافع للاعتقاد أنه لم يتم توجيهه بنفس دقة توجيه الهرم الأول على الرغم أننا لم نلاحظ الأزيموث (الزاوية المصورة بين مستوى رأسى ثابت ومستوى رأسى آخر يمر بجسم رأسى ومتقاطع مع المستوى الثابت) حيث أعطتنى البوصلة نفس زاوية اتجاه الشمال المغناطيسى للهرم الأكبر بالرغم من استخدام البوصلة على كل وجه من وجوه الهرم. وفى المقام الثانى عند تسجيل الرسم الهندسى فإن السيد العقيد "چاكوتان" قد اكتشف التوازى الكامل بين أوجهه وأوجه الهرم الأكبر وكذا بالنسبة للهرم الثالث.

وقاعدة هذا الهرم مغطاة من كل وجه من الأوجه الأربعة بالرمال وبالبقايا التى تراكمت عليها حيث كونت سطحًا مستديرًا مثل الهرم الأول بمعنى أن البناء يبدأ من الزوايا أى أضلاع القاعدة بينما الجزء الأكثر ارتفاعًا فوق العمود (وهو الخط الواصل من رأس الهرم إلى منتصف تلك القاعدة) ويبلغ أقصى ارتفاع رأسى لهذا التل من ١٠ إلى ١٢ مترًا وإن كان لا يبلغ هذا المدى أمام الأوجه.

ولقد اجتهدت فى أن أقيس بدقة مقاسات واجهات الهرم الثانى(١) واستخدمت نفس الطريقة التى استخدمتها فى قياسات الهرم الأول، وقد وجدت هنا بسهولة أكبر إذ أن القاعدة واضحة جدًا؛ حيث أن أسفل الدرجات توجد درجة أعلى بكثير من الباقين وتكون ركيزة مزخرفة ترتكز على وزرة أكثر انخفاضًا. وبقياس الجانب الشمالى بواسطة سلسلة جيدة (جهاز قياس للأطوال

---

(١) الهرم الثانى ينقص قليلاً من أعلاه، انظر اللوحات رقم ٨، ٩، ١٠، ١٢، المجلد الخامس، ولكن فى اللوحة رقم (٧) نرى أن الرسام قد بينه على نحو به شىء من الاختلاف وإن كانت الصور الأخرى أكثر صدقًا وتعبيرًا عن الواقع.

بواسطة سلسلة) وعلى خط متوازى ومرسوم على بعد ٣٠ مترًا، وفيما بين امتدادات الجانبين المتجاورين وجدت أن المسافة وصلت إلى ٢٠٧,٩ مترًا بما فيها الوزرة. وقد قمت بالقياس من عمق الخندق على أرضية مستوية أفقية مكونة من الصخر فى جزء كبير منها. ومن الجانب الغربى ألصقت السلسلة عند أسفل المنحدر أو الجدار الرأسى المكون من الممر؛ وفى النقطة التى يتلاقى فيها الخط الموازى المذكور بعاليه بهذا بالمسقط (المستوى) وامتدادًا لمسقط الوجه الجنوبى وجدته ٢٤٠ مترًا، ويبقى من الطول الجانب الغربى ٢١٠مترًا، وهذا المقاس أيضًا يشمل عرض الوزرة؛ ولكن قياس الوجه الشمالى يجب أن يكون مميزًا إذ يساوى ٢٠٧,٩ مترًا وبدون الوزرة يساوى ٢٠٤,٩ مترًا.

- أما قياس الارتفاع فقد تم بواسطة الجرافومتر (وهى آلة هندسية لقياس الزوايا) وبلغ ١٣٨ مترًا بما فيه الوزرة السفلية أو ١٣٥ مترًا تقريبًا من أعلى الوزرة(١). وهذا ما يبين خطأ الكثير من الرحالة الذين كانوا يظنون أن ارتفاع كلا الهرمين واحد، وهذا الخطأ يأتى من الالتباس؛ حيث إننا عندما ننظر من جهة القاهرة على سبيل المثال فإن القمتين تبدوان وكأنهما على نفس الخط الأفقى على أننا ومن هذا البعد أو من أى بعد غيره لا يمكننا ملاحظة القاعدتين تحديدًا أم مقارنة منسوبيهما علاوة على أن قاعدة الهرم الثانى تقع فى هوة عميقة(٢)؛ فالأولى قد تقلص ارتفاعها حوالى ٨ أمتار تقريبًا بينما لم ينتقص من طول الثانية سوى نحو متر مما يعنى أن الأولى كانت فى الماضى تفوقها ارتفاعًا بقدر كبير.

---

(١) إن قياس الـ ١٣٢ مترًا بدون الوزرة والمبين فى دراسة النظام المترى (الجزء رقم٧ ص ٥١٧) يعتبر ضعيفًا جدًا حيث لاحظت أن الارتفاع كان ١٣٨,٧ مترًا بالوزرة.

(٢) السيد جراتيان لوبير يبين أن عمق الخندق يتراوح بين ١١ إلى ١٢ مترًا؛ هذا وما لم أكن أنا شخصيًا قد أخطأت فإنى أجهل كيفية أن يكون قد بين قياسًا مختلفًا عن قياسى: الايحتمل أن يكون قد دون (٦ قامة) بدلاً من ٦ أمتار، ثم بعد ذلك قام بالتحويل إلى أمتار؟ إن الحجر المنحوت فيه الخندق أعلى من المستوى الأرضى للأول. وجريفث يبدو أنه كان يشير إلى ذلك الخندق عندما كان يتحدث عن عمل متميز منحوت بالصخور بطول أكبر من ١٤٠٠ قدمًا (أى حوالى ٤٢٥,٥ مترًا) وبعمق ٣٠ قدمًا (أى حوالى ٩ أمتار تقريبًا) انظر اللوحة ١٦ شكل رقم ١ و٢ و٢َ من المجلد الخامس والشرح المدون أسفل اللوحة.

وبدون أجهزة قياس فإنه من المستحيل ملاحظة تلك الفروق؛ وبالتالى فلو كانت القمتان على نفس المستوى فإن الوزرتين كان لابد أن يكونا كذلك، وفى الواقع عند ارتفاع ١٣٦,١٥ مترًا يوجد المسطح بأعلى الهرم الأول، وبإضافة ١,٨٥ متر له وهو ارتفاع الوزرة السفلية فيكون إجمالى الارتفاع هو ١٣٨ مترًا وهو نفس ارتفاع الهرم الثانى الكلى. ومما ينتج من هذه القاعدة وهذا الارتفاع الذى يبلغ ١٣٩ مترًا أن زاوية ميل الهرم أى الزاوية المحصورة بين مسقط الأوجه والقاعدة تساوى حوالى ٥٠َ ٥٢ْ؛ ومساحة القاعدة بدون الوزرة تبلغ ٤١٩٨٤ مترًا مربعًا ومساحة كل وجه تبلغ ١٧٥٧٠ مترًا مربعًا والحجم يبلغ ١٩٠٣٢٧٥ مترًا مكعبًا والزاوية البارزة وهى المحصورة بين الوتر وجانب القاعدة تساوي تقريبًا ٢٠َ ٦٢ْ والمساحة المحصورة بداخل الخط الخارجى للوزرة تبلغ ٤٣٢٢٢ مترًا مربعًا والضلع طوله ١٩٩,٨ مترًا والمتعامد يبلغ طوله ١٧١,٥ مترًا. وهذه الحسابات تشمل الكساء. ولا أعتبرها دقيقة مثل حسابات الهرم الأول على اعتبار إننى لم أستطع قياس الجزء المكسور حيث كان فى غاية الصعوبة الوصول إلى القمة وحتى فى حالة الوصول إليها كان سيصعب لصق أداة القياس فوقها، ولذلك تم افتراض أن ارتفاع هذا الجزء هو متر تقديريًا. علاوة على أن الحساب تم إجراؤه من جهة الشمال بالنسبة للقاعدة كما إنى لم آخذ المتوسط الحسابى بين ذلك الخط والخط الذى قمت بقياسه من ناحية الغرب حيث إن الفرق بينهما يبلغ حوالى ٢,١ متر ولذلك فإن الأرقام التى قدمتها قد تحتوى على بعض الأخطاء البسيطة وغير المقصودة، وأخيرًا إن قياسات الأساسات لا تدخل ضمنها.

أما بالنسبة لمنطقة ما تحت الأساسات أى الركيزة فهى تستحق منا أن نتوقف عندها حيث تم تصويرها فى إحدى لوحات هذا العمل(١) إذ أنه كل مرة نبحث فى أى عمل إنشائى مصرى غالبًا ما تكون الركيزة مردومة كفالبية باقى الأعمال، ونجد أن الأرضية التى بنيت عليها تحتوى على وزرة أو أساس حيث يرتكز المنشأ عليها؛ ولقد اكتشفنا وزرات مشابهة أسفل الأعمدة والمسلات؛ ولذا لا يوجد

---

(١) انظر اللوحة رقم (١٦). المجلد الخامس شكل رقم (٢).

بالتأكيد أى شىء مفاجئ أو مستغرب أن نجد مثلها عند سفح الأهرامات. وعمومًا فإن تلك الركائز لا تعين فقط على إعطاء الأثر أساسًا صلبًا أو حتى الإيحاء بذلك وإنما ترضى العين المحبة لمظهر الصلابة ذاته علاوة على دورها فى توفير الحماية اللازمة للبناء ضد عوامل الضرر والتآكل على مر الزمان مهما كانت نوعيتها. إن هذه الأساسات قديمة قدم فن الإنشاء والعمارة نفسه ويمكن اعتبارها بمثابة جزء لا يتجزأ من أى بناء معمارى ضخم(١). وما لاحظته عن منطقة الركائز بالنسبة للهرم الثانى أنها تتكون من جزأين؛ حيث تبلغ الركيزة بكامل جزأيها حوالى ٣ أمتار ارتفاعًا و٥,١ متر(٢) عرضًا، ولكنها ترتكز على وزرة أصغر منها بارتفاع متر واحد تقريبًا، وإن كنت أعتقد بأن هذا القياس لن يختلف عن الأصلى اختلافًا ملموسًا لأن رسوماتى ومخططاتى التى رسمتها لها ليست مرفقة. وعملية تسلق الهرم الثانى أصعب بكثير من الهرم الأول وعادة فإن الهرم الثانى غير مقصود من الزوار؛ ولقد شاهدت الكثير من الناس يحاولون تسلقه ثم يحجمون بعد ذلك اعترافًا بفشلهم. ولقد حاولت الاقتداء بهم فى خلال زيارتى الأولى وهذا على الرغم من أن أحد الشباب كاد أن يصل فى وقت سابق إلى المنطقة المكسوة مما شجعنى على ذلك؛ ولكننى فى زيارتى الثانية عقدت العزم وتمكنت من الصعود على الهرم لأقصى نقطة ممكنة حيث تمكنت من فصل قطعة من الكساء على أساس ملاحظة زاوية ميل وجه الهرم بأسفلها، ولقد أنجزت ما نويته(٣)، مستعينًا (بشريط مترى وقلم رصاص ومطرقة). ودرجات سلم هذا الهرم (الثانى) كانت تالفة جدًا وكثيرًا ما كانت الأحجار تتدحرج من فوقها. لذلك يجب أخذ احتياطات مضاعفة لتسلقها بأمان، إذ يجب الارتكاز على (الركبتين والكوعين). والجزء الأول لصعودى كان الأكثر خطورة حيث كنا نصعد كثيرًا على أحجار تنهار دون أن نجد أرضية ثابتة وهذا كان على

---

(١) انظر فى موضوع الوزرات فى دراسات حول الأهرامات، المجلد ٩.

(٢) فى شرح "اللوحة" تحددت بمتر واحد فقط.

(٣) كان برفقتى زميلى عالم النبات السيد/ ديليل، حيث كان المسئول عن الجزء الخاص بالنباتات بالبعثة.

الأقل فى الناحية التى تسلقتها وهى الوجه الجنوبى. أما ما بعد هذا الجزء من صعودنا فإن الدرجات كانت أكثر ثباتًا وأسهل، وإن كانت أكثر ارتفاعًا. وأخيرًا وبعد انقضاء ساعة أو ساعتين من التعب والجهود المضنية وصلنا إلى الأحجار البارزة للكساء وهذا البروز لايقل أبدًا عن ١,٣ متر (٤ أقدام)[١]؛ حيث نكون فى الظل وكأن فوقنا سقف ولكنه سقف خطير حيث يبدو لنا وكأنه غير ممسوك بأى شىء؛ إنها بلاشك نتيجة للوهم الذى أصابنا والذى تسببت فيه تلك الصخور الضخمة المشطوفة والمائلة بهذه الطريقة الحادة التى تهدد رءوسنا.

وفى هذه الواجهة ينخفض بروز الكساء إلى أسفل أكثر فى الوجه الغربى عن باقى الأوجه؛ حيث تمتد أكثر فى الوجه الشرقى لما يصل إلى ٤٠ مترًا طولاً أو ما يزيد عن ربع الارتفاع من القمة؛ بينما ينخفض بروز الكساء بدرجة أقل على كل من الوجهين الشمالى والجنوبى[٢]. وقد لاحظت عند الزاوية البارزة للقمة الطريقة الخاصة بتنظيم الأحجار، حيث كانت متداخلة ومدمجة بطريقة لا تمكن من انفصالها كما تربط بين البروز مع نواة المنشأ بطريقة صلبة وشبه غير قابلة للتهدم[٣]. ولقد لاحظت من أسفل وجود بعض المناطق التى يميل لونها للإحمرار، والتى وصلت إلى الكساء، ولقد كان من السهل على التعرف على أغلب هذه البقع على أنها بهق الحجر واكتشف السيد ديليل نوعية منها غير موصوفة سابقًا وأسماها "بهق الحجر الهرمى" وقد أحسست بالسعادة غير المسبوقة لإحضارى عينة من هذه الحشائش علاوة على بعض أجزاء الكساء البارزة، وقد وجدت وزنها خفيفًا بالرغم من بعض المضايقات التى شعرت بها أثناء نزولى من جراء حملها مما اضطرنى لاتخاذ بعض الاحتياطات الخاصة أثناء عملية النزول تفوق تلك التى اتخذتها أثناء صعودى. وأنا عمومًا لا أنصح الأفراد المعرضين لأى من أنواع الدوار بالصعود وخصوصًا بتسلق الهرم إلى القمة.

---

(١) السيد/ كوتيل وجد مقاس سمك بروز الكساء ١,١٥ متر وأنا وجدته ١,٣٠ متر.

(٢) انظر اللوحة رقم ١٦ شكل ٢، المجلد الخامس، وكذا الشرح أعلاه.

(٣) السيد/ جراتيان لوبير الذى صعد حتى مكان الكساء قد أبدى أيضًا نفس الملاحظة.

إن الفضول فقط يمكن أن يوضح قلة الحذر والتهور؛ أما بالنسبة للمعتادين القيام بالتمرينات الرياضية فإن عملية التسلق تكون أقل خطورة عليهم ومثال على ذلك جنودنا الأكثر نشاطًا والأكثر جسارة فمنهم من استطاع الوصول إلى القمة. ولقد تمكنت من تبين أن الأماكن التى كانت تبدو أشد بريقًا عن بعد كانت فى حقيقتها شبه منطفئة، فطبيعة الحجر تجعله يعكس اللمعان إلى حد يصل إلى الكمال.

ولقد أصابتنا الدهشة عند القراءة فى كتاب "جريفث" وهو مشاهد ذكى ومنتبه أن الجوانب لا تبدى أى تدريجات ولكن سطح متساوى، وإن كل المنشأ يبدو كتلة واحدة خالية من أى تدريجات(١). فيما عدا الوجه الجنوبى. ولا نستطيع أن نصدق بأنه منذ عامى ١٦٣٨ و١٦٣٩م، وهى الحقبة التى سافر جريفث خلالها، قد طرأ كل هذا الدمار على الأهرامات إذ أنها لم تكن لتتأثر منذ هذه الحقبة وحتى زماننا هذا بالدرجة التى شاهدناها عليها. ولقد لاحظنا من جهة الشمال أحجارًا متراكمة بارتفاع معين تشير لبعض المحاولات للدخول إلى داخل الأثر. ولا ينقصنى إلا الحديث عن المقابر المحفورة فى الجهة المقابلة للواجهة الغربية للهرم؛ إن مدخلها يقع فى عمق الخندق عند انحدار الصخر، وسبعة أبواب هى المبينة فقط فى الخريطة(٢)، ولكن العدد يفوق ذلك بكثير، إذ يبدو أن الفتحات مسدودة بالرمال، لأجل ذلك فإنى لم أتبينها ولقد أمكننى تمييز إحدى هذه المقابر حيث أخذت مقاسها ورسمها لأجل الزخارف البديعة التى كانت تزين سقفها، وتتكون من جزوع النخيل(٣) حتى إن قشر النخل كان موضحًا بيد الفنان بطريقة حية. ومما لاشك فيه أنه كان يقلد شكلاً من أشكال الأسقف لمسكن من زمانه ذلك أن الفلاحين حتى فى هذه الأيام يغطون عششهم بمثل هذه الجذوع من النخيل. ويمكن الرجوع إلى "اللوحة" لتبيان تفاصيل هذه المقبرة

---

(١) ص ١٠٤ من كتاب وصف الأهرامات بمصر تأليف جون جريفث، لندن ١٦٤٦م. ونفس المؤلف كان يفترض أن كلا الهرمين الأول والثانى كان لهما نفس منسوب القاعدة ونفس الارتفاع وكان هذا خطأ كبيرًا.

(٢) انظر اللوحة رقم (١٦) شكل رقم ٢، المجلد الخامس.

(٣) نفسه، الأشكال ٢، ٣، ٤.

وتحتوى على حجرتين يمكن رؤيتهما وبئر، وأكتفى هنا بأن أشير إلى أن واجهتها كلها كانت منحوتة بكل عناية والزوايا قائمة والنهايات حادة وللإيجاز فإن مستوى التنفيذ كان دقيقًا وهو ما يتميز به عامة مستوى تنفيذ العمارة المصرية القديمة.

هذا وأود أن أشير إلى نقش هيروغليفى منقوش بعناية فائقة على الصخور عموديًا فى الجهة المقابلة للواجهة الغربية، إذ أنها الوحيدة على ما أعتقد التى يمكن رؤيتها بجوار الأهرامات (أى فى مكان آخر غير المقابر المجاورة)، وهذا النقش محصور بين خطين متوازيين وسوف نجده مصورًا باللوحات(١)، كما توجد مقابر أكثر عظمة واقعة شرق الهرم باتجاه الزاوية الجنوبية الشرقية(٢)، حيث نلاحظ على جدرانها نقوشًا مماثلة لمقابر بلدة "طيبة" وهى عبارة عن رسومات تنتسب إلى الحياة الريفية، عن الصيد البرى والصيد البحرى بواسطة الشباك، والمسيرات والمواكب... إلخ، والنزول إلى داخل الآبار يتم عن طريق منحدرات سريعة حيث نجد فى قيعانها الكثير من المومياوات(٣). ولسوف أتحدث عن هذه المدافن فيما بعد.

وفى مكان لا يبعد كثيرًا عن الهرم وعند منتصف الجانب الشرقى توجد أنقاض تختلط أحجارها على نحو غير منتظم لا يمكن أن نتعرف من خلالها على أية معالم واضحة لبناء ما.

المبحث الرابع
الهرمان الثالث والرابع
والأهرامات المدرجة وما حولها

أولاً: الهرم الثالث والأثر الشرقى والحاجز الخاص به:

---

(١) انظر اللوحة رقم ١٤ شكل رقم (١٥)، المجلد الخامس

(٢) انظر اللوحة رقم (٦)، المجلد الخامس واللوحة ٧ النقطة ٢.

(٣) ملاحظات السيد جراتيان لوبير.

إن الهرم الثالث كان يحمل اسم "منكاورع" وذلك وفقًا للمؤلفين، وهو الملك الذى يُنسب له هذا الهرم، ونسميه أيضًا هرم "رودوب" وبالرغم من فرق الضخامة الكبير لأبعاده مقارنة بالهرم الأول إلا أنه يقارن به من منطلق نوعية العمل والنفقات التى صرفت على إنجازه. وهذا هو السبب. إذ أنه وبينما كان كل من الهرمين الأول والثانى مكسوين بالأحجار الجيرية[١] بطريقة بسيطة فإن كسوة الهرم الثالث كانت من الجرانيت الشرقى وهو حجر صلب، إلا أن جماله يغطى على صلابته.

والتقارير الخاصة بالمؤرخين فيما يتعلق بمادة هذا الهرم تتأكد صحتها من الحالة الحالية للأماكن، ونجد أجزاءً جرانيتية مسنونة بميل معين لازالت مرصوصة فى أماكنها[٢] وأجزاء موجودة وسط الأنقاض وأجزاء أخرى سقطت بعيدًا حتى مستوى سطح الأرض وتتراكم مغطية بذلك سفح الأثر؛ والجرانيت لونه أحمر قاتم ومطعم بحبيبات سوداء كبيرة. وهو ما يتوافق بالكامل مع مقطع "بلينى عالم الطبيعة اللاتينى" الذى يقول فيه: (ملون بلون الحديد الكتاب ٣٦ الفصل ٧) وكأن جزءًا من محاجر شلالات مصر العليا قد تم نقله بالكامل بالاستعانة بالسحر، بالقرب من مدينة القاهرة لاستخدامات سكانها.

والأسكندرية أول من استنفد كميات كبيرة منها، وهكذا اختفى رويدًا رويدًا عمل من الأعمال الأكثر تميزًا من عصر الحضارة الأولى ولذلك فإنه لا يوجد طائل من التوجه إلى «أسوان» لاستخراج كتل الجرانيت بصعوبة وذلك بهدف جلبها خام؛ حيث نجدها هنا حاضرة ومنحوتة ومسنونة وعلى مسافة متوسطة من نهر النيل. وأيضًا ومن كل الجوانب فإننا نجد أحجارًا مسنونة على هيئة الرحى وجاهزة للانتقال إلى طواحين القاهرة وضواحيها وبالطبع فإن ما يتبقى

---

(١) إلا أنى قد سجلت فى ملاحظة سابقة لى أن كتلاً من الجرانيت كانت عند سفح الهرم الثانى.

(٢) انظر اللوحة رقم ١٦، المجلد الخامس، شكل ٩ النقاط A,B,C,D. بالإضافة إلى شرح اللوحة.

من القواعد الجرانيتية لن يكون كافيًا لكسوة كل الهرم أو حتى نصفه حسبما يخبرنا هيرودوت ولكن كم من الأحجار لم يتم نقلها منذ أن بدأت الأعمال التدميرية له. وفضلاً عن ذلك فإن جسم الهرم سليم أكثر من باقى الأهرامات وقمته لازالت سليمة ومحفوظة وفى حالة لا تقل عن حالة الهرم الثانى على قدر استطاعتنا الحكم سواء نظرنا لها من أسفل أو من على بعد معين. ومن بعد ما سبق لى قوله، وهى حقائق شاهدها ولاحظها كافة الرحالة الفرنسيين، نجد صعوبة فى تفسير مزاعم جريفث الذى لم يكتف بتأكيد أن كل الهرم كان مكونًا من أحجار بيضاء، بل أنه أدان بثقة مطلقة شهادة المؤلفين حول الكساء الحجرى الذى كان يأتى من أثيوبيا (الحبشة) كما انتقد بصرامة أكثر من الرحالة الحاليين؛ ولكنه يبدو أنه كان يكتب من الذاكرة عن الهرم الثالث وهو ما تثبته بعض كلمات روايته "لو أن عيونى وذاكرتى لم تخدعنى[١]؛ أى بمعنى آخر: أى شاهد عيان يمكنه أن ينكر فعلاً بمثل هذا الوضوح بل وكان جليًا بدرجة أكبر منذ قرنين ماضيين[٢].

ولقد قمت بقياس قاعدة الهرم الثالث بنفس طريقة قياس الهرمين الآخرين، حيث قمت بمد طول الأوجه من جهات الشرق والغرب والجنوب بمسافة ٢٠ مترًا. فمن ناحية الشمال وجدت المقاس ١٠٢,٢ مترًا ومن جهة الغرب ١٠٤,٩ مترًا: والقياسان الأول والثانى وخاصة القياس الثانى يشير إلى الزيادة بسبب تداخل الزوايا، ولذا قمت بتبنى القياس الأول كقياس مفضل ثم قمت بخصم ثلاث أرباع من المتر والوزرة من كل جانب أى ١,٥ متر إجمالاً مما يترك مسافة ١٠٠,٧ متر بطول الجانب الشمالى. وارتفاع الهرم حوالى ٥٣ مترًا وليست لى

---

(١) يبدو الهرم بكامله من الحجر الأبيض الناصع انظر نصوص الأهرامات ص١٢٢.

(٢) نفسه ص١١١ وجريفث نفسه لمح بالكاد الهرم الثالث وبذلك فهو لم يقم بقياسه قط وكذا الأثر الذى فى جهة الشرق أو الممر الخاص به.

أية مـلاحظات مـحـددة عن هذا القـيـاس مـثلمـا فـعلت فى حـالة الهـرم الأكـبـر، وافترضنا أن هذا القياس مضبوط بدرجة كافية فلنحسب مساحة الهرم؛ ها هو حجمه ونتاج حساباته كالتالى: ارتفاعه الجانبى ٧٣,١ مترًا أى المسافة العمودية من القـمـة وحتى أى من جوانب القـاعـدة، وارتفـاع الزاوية البـارزة ٨٨,٧ مـتـرًا وزاوية الميل المحصـورة بين أى من الوجـوه مع قـاعـدته تقـتـرب قليـلاً من ٤٥°، ومسـاحـة القـاعـدة ١٠١٤٠,٥ مترًا مـربعًا ومسـاحـة الوجه الواحد تبلغ ٣٦٨٠,٦ مترًا مربعًا وحجمه ١٧٩١٨٢,٥ مترًا مكعبًا ويمكن ملاحظة بأن زاوية ميل هذا الهرم أقل من زاوية ميل الأول الثانى.

ولقد روى لنا أحد زملائنا فى البعثة أنه صعد إلى قمة هذا الهرم[1] من جهة الزاوية البـارزة باتجـاه الشمـال الغربى؛ وأشـار إلى أن ارتفـاع المداميك قد فـرض عليه الاستعانة بيديه وركبتيه في الصعود حيث قام بإحصاء عدد ٧٨ مـدماكًا كل منها ارتفـاعه المتوسط ٠,٦٨ متر وهو ما يعطى ٥٣,٤ مترًا كارتفـاع الهرم. وهذا القيـاس الذى ذكـرته مسبقًـا وأنظر إليه كمؤيد لبياناتى. وقد تبينت من أسفل الواجهة الشمـالية وجود فتحة مغلقة وقليلة العمق. ولكن لا يمكن المرور منها[2]. وقيل لنا أن أحدًا لم يجرؤ على اكتشاف مدخل الهرم هذا إلا قبل سنوات قليلة من حملتنا وأن هذه المحاولة كانت متبناه من مراد بك ولما لم تعط أى نتائج فقد اضطر للتخلى عنها؛ وذلك بلا شك كان خطأ فى عمليات الاتصال والتنسيق بين أفـراد المحاولة مما لم يمكنهم من اكتشـاف الممـر. وغنى المادة المستـخدمـة فى كسـوة هذا المبنى ووصف القدماء لها والحدث الذى يروونه، والمذكور فيه أن اسم الملك المحـفـور عليـهـا كـان "منكاورع"، كل ذلك كـان لابد أن يؤدى إلى تجـديد المحاولة. فلو استطعنا الدخول إلى الهرم فإننا بلاشك سنكافأ باكتشافات قيمة.

---

(١) السيد جراتيان لوبير.

(٢) انظر اللوحة رقم ١٦، المجلد الخامس، شكل ٩، النقطة ٩.

وعلاوة على السور الفاصل بين الهرم الثالث والثانى والذى يحتوى على ثلاثة أهرامات أصغر حجمًا فهناك آخر من جهة الجنوب وسوران آخران من جهة الغرب لحمايتها من غزو الرمال حيث يوجد خارج نطاقها سهل رملى كبير.

إن "الأثر الشرقى" يثبت أهمية الهرم الثالث بالنسبة للمصريين حيث إنه عمل مميز للغاية بالنسبة إلى سطح قاعدته وامتداده وكبر حجم الأحجار التى استخدمت فى بنائه؛ وقاعدته شبه مربعة بمقاس ٥٣,٨ مترًا (١٦٦ قدمًا تقريبًا) فى اتجاه منها، وفى الاتجاه الآخر تبلغ ٥٦,٣ مترًا (أى ١٧٣ قدمًا تقريبًا) مع امتداد دهليز باتجاه الشرق بطول ٣١,٠٠ مترًا (أى ٩٥ قدمًا تقريبًا) فى ١٤,٢ مترًا عرضًا (أى ٤٤ قدمًا تقريبًا). فهل كان هذا مبنى دينى؟ أم هل كان مكانًا مخصصًا لمشاهدة شروق الشمس؟ أم كان مكانًا لسكن الكهنة أو للحراس؟ أو أخيرًا مكانًا لتخزين الآلات أو المؤن؟ وبالتأكيد إن شكل القاعدة وما تبقى من الصرح لا يعطينا أى ضوء على ذلك. وبالخروج من الدهليز دخلنا إلى حوش ضخم يحتوى على مدخلين جانبيين أو مداخل وهمية؛ ومن وراءنا عن بعد كان هناك العديد من الصالات الشاسعة لاتزال خمسة منها بحالة سليمة والصالة التى فى الجزء الأخير كانت لها نفس مقاسات الدهليز وتقع بالضبط فى منتصف الهرم حيث تبعد عنه بمسافة ١٣ مترًا فقط (أى ٤٣ قدمًا) ولكننى لم أجد أى فتحات فى الجهة المناظرة. وأيًا كان فإن التناسق والتماثل يثبت وجود علاقة بين هذا الأثر وبين الهرم.

ولانزال مندهشين من ضخامة حجم المواد المستخدمة فى الإنشاء والعناية التى تبذل فى ترتيب الحجارة وذلك بالرغم مما درسناه فى مدينة طيبة عن خامات وعمليات الإنشاء. ويبلغ سمك الجدران ٢,٤ متر أى (٨ أقدام) وهو ما يمثل عرض الأحجار؛ بينما طولها يتراوح بين ١٠ إلى ٢٠ قدمًا. وهذه الأحجار كنت أظنها فى البداية الصخور نفسها منحوتة ومسنونة وكنا سنظل على ظننا الخاطئ هذا لو لم يمكننا رؤية الملاط الذى ترتبط به مداميك الأحجار.

والامتداد من جهة الشرق يشتمل على جدارين ضخمين لا يقل سمكهما عن ٤,٢ أمتار (أى ١٤ قدمًا). وقد تساءلنا هل من الضرورى بناء جدارين بهذه الضخامة على الرغم من أن تصغيرهما إلى النصف من حجمهما لم يكن لينتقص من صلابتهما شيئًا وبالطبع لم نجد الإجابة الشافية على هذا السؤال. ولكننا نتساءل عن نوعية الرجال التى أنتمى إليها قدماء المصريين هؤلاء الذى كانوا يحركون هذه الكتل الحجرية الضخمة؛ إذ أن كل هذه الأحجار كانت بمثابة كتلة حجرية واحدة بمعنى أن كل واحدة منها تصلح لأن تشكل بناءً قائمًا بذاته. وعلى الرغم من ذلك فإن نحت هذه الأحجار ونقلها ثم رفعها ووضعها فى أماكنها وعملية جمعها مع غيرها من الأحجار التى تصل أوزانها إلى ٤٠ أو ٥٠ أو ٦٠ ألفًا وربما تزيد؛ كانت بالنسبة لهؤلاء الرجال أعمالاً بسيطة وسهلة يؤدونها يوميًا، أليس مسلمًا به أنه لو كانت هذه العمليات تتكلف وقتها نفس تكلفة اليوم من ناحية الوقت والمادة لما شيدوا من هذه الأبنية بمثل هذه الكثرة.

إن البناء الذى قمت بوصفه توًا، يستمد شهرته أيضًا من الممر المائل الذى يرتبط به ويتبعه والذى يتخذ نفس زاوية اتجاه ومحور الهرم الثالث. وهذا الممر يعتبر عملاً آخر يليق بالمصريين، حيث يبلغ عرضه ١٤,٢ مترًا (أى حوالى ٤٧ قدمًا و٤ بوصات) وطوله يبلغ ٢٦٠ مترًا (أى ٨٦٦ قدمًا و٨ بوصات تقريبًا) بينما قياس درجة ميله يزيد عن ١ إلى ١٥[1]. وبإضافة ما أسميته بالدهليز فإن الممر والدهليز يصل طولهما الكلى إلى ٢٩١ مترًا تقريبًا (أى حوالى ٩٧٠ قدمًا). وفى طرف هذا المسقط المائل يوجد منحدر أكثر ميولاً ينحرف نحو الجنوب الشرقى؛ وهذا الجزء غير مبنى ولكن الجزء الأول محمل بكامل طوله ومن جانبيه على جدار مبنى بمداميك عادية وطول أحجار أطول من أحجار الآثر الشرقى، فإن لم أكن مخطئًا، فلقد لاحظت أن بعضها يصل طوله من ٨ إلى ١٠ أمتار (أى ٢٥ إلى

---

(١) لقد سجلت أكثر من ذلك فى يومياتى حوالى ٦ (قامة) (حيث إن القامة تساوى ١,٩٤٩ متر).

٣٠ قدمًا تقريبًا). أما فى قمة المنحدر فإن جدار التحميل هذا يبلغ ١٣ أو ١٤ مترًا ارتفاعًا ومكون من ستة مداميك حيث يبلغ ارتفاع الحجر الواحد أكثر من مترين. ونحن لا نستطيع إنكار أن هذا المبنى لا يستحق المقارنة بالأعمال المصرية العظيمة ولكنه لا يحظى اليوم بالاهتمام الذى كان يمكنه أن يحظى به لو عرفنا الهدف من بنائه. ولكن بلاشك فإنه من المحتمل أن هذا الممر كان ضمن تلك التى استخدمت، وفقًا لهيرودوت، فى نقل الأحجار الضخمة للأهرامات(١) والمحتمل أن ذلك كان بالذات لنقل كتل الجرانيت المستخدمة فى كساء الهرم الثالث. ووفقًا لروايتى فإن هذه الكتل الحجرية تم إحضارها بواسطة المراكب عن طريق القناة الغربية وهى الذراع القديم لنهر النيل حتى قرية مجاورة هى قرية "الكوم الأسود" وباتجاه الممر وبها اليوم بعض البقايا والأطلال. وهذه القرية ربما يكون لاسمها (الكوم الأسود) علاقة بلون الأحجار وذلك وفقًا للعادة فى هذه المنطقة، على أنه وحسب المعلومات عن القدماء فإن هذه الأحجار كانت تستقدم من أثيوبيا أى من جبال مجاورة لأسوان فلماذا إذا كانوا يحملونها عن طريق النهر ويجدون أنفسهم مرغمين على نقلها عن طريق البر من خلال طريق يمتد على الأقل لنحو فرسخين (حوالى ٨كم)؟ إن تخميناتى قد تأكدت بسبب بقايا ممر له نفس طول الممر السابق على بعد حوالى ٦٠٠ متر وفى نفس الاتجاه الذى كان يمثل باقى الطريق للهرم الثالث(٢).

ثانيًا: الهرم الرابع والأهرامات المدرجة.

إن الهرم الرابع والمبنى قريبًا جدًا وإلى الجنوب من الهرم الثالث (على بعد

---

(١) وفقًا للسيد جراتيان لوبير نجد على واجهات جدران هذه الممرات أشكالاً لحيوانات ونقوش أخرى هيروغليفية استنتج منها إنها لم تكن تستعمل فقط لنقل الأحجار، وإنما كان لها هدف دينى وإنها كانت مستخدمة للاحتفال ببعض المناسبات، وإذا كان السيد لوبير قد شاهد تلك الصور منقوشة على واجهات جدران ممر الهرم الثالث، وهو ما لم يوضحه، فإن تلك الملاحظة تكون قد فاتتنى، ولكن أؤكد أن هذا الرحالة لم يشاهدها.

(٢) انظر اللوحة رقم (٦)، المجلد الخامس، ولوحة رقم (١) من نفس المجلد.

٣٠ مترًا تقريبًا) ليس إلا بناءً متوسطًا سواء من ناحية الحجم أو من ناحية الإتقان بالمقارنة بالأهرامات التى قمت بوصفها، ولذا لا يستحق بأن أتوقف عنده كثيرًا، غير أنه يتميز بعض الشىء عن أهرامات أخرى ثانوية كثيرة تقع شرق الهرم الكبير؛ ولكن وبسبب أنه لم يتهدم فإن معظم الرحالة كانوا دائمًا يذكرونه. ولقد قمت بقياسه من ناحية الوجه الجنوبى والوجه الغربى الأكثر خلوًا من الرمال وجدت أن طول جانبيه على الترتيب هو ٣٨,٥م و٤٢,٩م.

والفارق كبير بحيث يجعلنى بالضرورة أنسبه إلى عائق ما حال دون تمكنى من ضبط قياس الأوجه بدقة. إذ أننا لا يمكن أبدًا أن نسلم بأن قاعدة الأثر ليست مربعة. وأيًا كانت النتيجة فإن المتوسط سيكون ٤٠,٧م (١٢٥ قدمًا تقريبًا)، ووفقًا للتصميم الذى قام الأستاذ العقيد/ چاكوتان برسمه فإن محوره يقع فى خط تصنيف الهرم الثالث، وهو التصميم الذى تم بالضرورة التقيد به فى الرسم الطبوغرافى؛ وعلى أية حال ففى الرسم الذى رسمته بنفسى فإنه يصطف مع ذلك الهرم فى الجانب الشرقى ومع أحد الأهرامات المدرجة من جهة الغرب، وأستطيع أن أذكر ذلك الاختلاف فى الرأى وهو الوحيد الذى تقدمه لنا فى هذا المقام ملاحظات المهندسين الفرنسيين، ولكن دون افتراض أن الخطأ ليس من جانبى. وعلى بعد متر جنوب هذا الهرم نرى حدود خندق، ولم أستطع التأكد عما إذا كان قديمًا محيطًا بالأثر أم لا فارتفاع واجهته يقل بمسافة تتراوح بين ٦ إلى ٨ أقدام عن ارتفاع الهرمين المدرجين المجاورين لهذا الهرم. فذلك الهرم هو الذى باشر السيد لوبير والسيد كوتيل أعمال هدمه وهو عمل استغرق وقتًا أطول مما افترضاه؛ فلم يصلا وبعد جهد كبير وعمل مضنى إلا لنصف ارتفاع هذا الهرم وذلك يعنى أنهما لم يزيلا إلا الجزء الرابع والستين من أحجار كتلة ذلك البناء الضخم وذلك حينما أُرغموا على التخلى عن هذا المشروع. وأثناء انشغالهم بأعمال الهدم، رأوا الكثير من الأحجار المكسوة بالحروف أو الخطوط الملونة باللون الأحمر على مساحة من ١٢ إلى ١٥ بوصة على كل حجر(١).

---

(١) انظر اللوحة رقم (١٤) شكل ١٦. المجلد الخامس.

وهناك هرمان أصغر من من الهرم الرابع يصطفان معه فى الاتجاه من الشرق والغرب، ويتميزان بشكلهما الذى يتكون من أربعة كتل مرتبة بتراجع مطرد إلى الداخل من القاعدة إلى القمة، وتبدو وكأنها درجات كبيرة، وكل كتلة من تلك الكتل تنقسم إلى درجات مرتفعة جدًا وضيقة للغاية، حيث يبلغ عرض كل منها من ٠,٢٥ متر إلى ٠,٤٠ متر وواجهة الجدار مائلة، بينما نجد القمة مسطحة على هيئة مصطبة ولقد رفعت كل مقاسات الهرم حيث إن قياس قاعدة إحداهما هو ٣١,٦م، والآخر هو ٣١,٨م وهو ما يخلط فيما بينهما. أما الجسم الأول أو الجسم السفلى فيبلغ ارتفاعه ٤,٤م والثانى ٥,٦م والثالث ٥,٤م والرابع ٣,٢م، ويبلغ فرق الثانى إلى الأول ٣,٢م وفرق الثالث إلى الثانى ٣,٢م وفرق الأخير إلى الثالث ٣,٣م ومنها نستنتج أن الارتفاع الكلى هو ١٨,٦م وأن زاوية الميل تبلغ تقريبًا ٤٦° أما الدرجات الثلاثة السفلى فيبلغ ارتفاعها (١,٤م و١,٥م) أما التاليتان فهما منخفضتان قليلاً، والدرجة الأخيرة يبلغ ارتفاعها أيضًا ٠,٠٨ متر. ونحن لا نعرف شيئًا على وجه الخصوص عن هذا التنوع من الأهرامات. إلا أننا نجد الكثير منها والمشابه لها فى منطقة سقارة وأيضًا منها بالجنوب. وإنه مما يدعو إلى الاعتقاد أن مشيدى هذه الصروح الهرمية كانوا يسعون إلى التميز، والأكثر احتمالاً أنهم كانوا يريدون اختصار خطوات العمل اللازمة لإمكان الوصول سريعًا إلى قمة الهرم وذلك بتخفيض سمك كتلته.

المبحث الخامس

أبو الهول

المقابر والممرات والآثار الأخرى

إن كل الزائرين للأهرامات سوف يدفعهم فضولهم إلى تقديم الولاء للتمثال الضخم والشهير المنحوت على شكل أبى الهول، وهو يقع تقريبًا على بعد حوالى

٦٠٠م (١٨٠٠ قدمًا) فى الجانب الشرقى للهرم الثانى فى منتصف سهل مغطى بالرمال، على مستوى أدنى من الهضبة[1].

ولقد نحته القدماء بالكامل فى الصخر، على الرغم من أن الرأس تحمل آثار طبقات تبين بوضوح مداميك منتظمة. إن أبا الهول يبدو كالعادة على هيئة أسد جالس ويحمل رأس إنسان ولكن بنسب عملاقة، ويعتبر أكبر شكل من أشكال البشر أو الحيوان التى نحتها المصريون القدماء على الإطلاق وتتشابه زينة رأس أبى الهول مع تلك الخاصة بتماثيل الأقصر الضخمة ومع باقى الأشكال المصرية، وتتمثل فى خطوط غائرة أفقية من الأمام ومتقاربة ومتحدة الاتجاه على مؤخرة رأس التمثال والجسم لا يقل طوله عن ٢٩ مترًا تقريبًا (٣٢ قدمًا و٦ بوصات) ويوجد جزء من العجز مدفونا تحت الرمال. أما الرأس فتبلغ ابتداءً من القمة (٨,٥٥م أى ٢٦ قدمًا)، وبطرح سمك زينة رأس التمثال فإنها تبلغ حوالى ٨,٣م. ومن هنا وبمقارنة ذلك الشكل مع أمثاله من التماثيل المتواجدة بطيبة، فمن الممكن أن نستخلص أن مسافة الأرض التى تطأها أرجل الأسد الرمزى إلى ما فوق الرأس أو على نحو آخر فإن ارتفاع الأثر (دون ذكر الوزرة السفلية) يجب أن يبلغ ٢٤م أو ٨٠ قدمًا، وعلى الأقل فإن العلاقة بين نسبة الرأس إلى طول التمثال والمتواجدة فى أشكال تماثيل طيبة وتلك المتواجدة فى صورة تمثال الأهرامات تمكننا من عمل مقارنة واستنتاج ذلك الارتفاع. فمنذ العصور القديمة غطت الرمال الجسم بأكمله تقريبًا، وربما أيضًا كانت تخبئ وزرة كان يرتكز عليها وجه التمثال مثلما هو الحال فى جميع الآثار من نفس النوع. أما اليوم فإن أعلى الرأس يبعد ٤٢ قدمًا عن سطح الأرض وتبعد الذقن ١٦ قدمًا إلى أسفل قليلاً

---

(١) ذقن التمثال على بعد ٢٥,٨٢م أسفل سفح هضبة الهرم الأكبر، وهى أعلى بمسافة ١٨,٦٧م لأقصى عمق للمياه فى القناة الغربية (١٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨م) انظر لوحة منسوب قناة البحرين.

من مستوى منشأ الأكتاف وهى كلها مخبأة، أما الجزء السفلى أو الرقبة فقد هشم، إذ يبدو أنه ملىء بثقوب مسامية مثل الصخور الموجودة بجوار الشاطئ بالأسكندرية والتى ينخرها هواء البحر ولكن ذلك من حيث الشكل الخارجى فقط. وسيكون بدون فائدة أو بالأحرى مستحيلاً أن نصف بالحديث شكل أبى الهول المجاور للأهرام، والرجوع إلى الأصل هو الطريقة الوحيدة لإعطاء فكرة(١) صحيحة نوعًا ما ولو أنها مازالت ضعيفة أيضًا. ولسوف نرى فيها على الأقل مدى تناسب قوام الإنسان مع ذلك العملاق. فإن رجلاً واقفًا على البروز الذى فى أعلى الأذن سيواجه مشقة للوصول إلى أعلى الرأس بأيديه الممدة لأعلى. وعندما نرتفع إلى قمة التمثال من جهة الخلف بواسطة سلم يبلغ ارتفاعه ٢٥ قدمًا نجد هنا فتحة وتلك الفتحة خاصة ببئر ضيق يهبط إليه عادة الفضوليون، ولكن جزءًا كبيرًا منها ممتلئ بالرمال وعلى عمق بضعة أمتار نجد القاع حيث لم يمكن تبين إلى أين كان يمكن أن تؤدى لو كان بالفعل أعمق قليلاً وهذا أمر مشكوك فيه.

إن وجه أبى الهول قد طلى بلون أحمر مائل للبنى وقد دام حتى الآن وهو بالتقريب اللون الذى أعطاه المصريون لأنفسهم فى الصور المتعلقة بالحياة المنزلية أو فى مشاهد المعارك الحربية. وقد لخصنا الأمر دون الاستناد على أساس متين أن تلك الرأس كانت تعطى بدقة هيئة وجه المصريين وذلك دون التطرق لا إلى النحت ولا إلى التصوير ولا إلى المومياوات التى تعطى كلها وبدون أى غموض الملامح الحقيقية لوجوه المصريين فى ذلك الزمان. ولكننى لا أعلم كيف كاد البعض واستنادًا لأى نظرية أن يفترضوا أن المصريين القدماء وبالرجوع لشكل أبى الهول، كانوا زنوجًا أى رجالاً لونهم داكن

---

(١) انظر اللوحات ٨ و١١ و١٢، المجلد الخامس مع الشرح الخاص بها.

السمرة وبشعر مجعد خشن أشبه بالصوف فطساء وذوى جبهات منخفضة من فوقها... إلخ.

إن وجود تلك الصفة الأخيرة قد أكدت بلاريب لمن ادعوا هذه المزاعم الحقيقة وبما أن أنف أبى الهول قد تهشمت وتقريبًا انتزعت، فهذا ما قاد إلى هذه المزاعم القاطعة للغاية؛ ولكن لماذا كان الفنان عندما يرسم الصورة الأصلية لوجه الإنسان المصرى لم يلونها باللون الأسود؟ ولماذا ترك النحات شكل الجبهة شبه منتصب؟ ونحن أبعد ما نكون عن تحقير الجنس الأسود بتلك الملاحظة، ولكن حين نرى هذا الجنس مصورًا من المصريين أنفسهم فى مناظرهم وبالطريقة الأكثر تميزًا وعندما نتفحص بحرص وبانتباه رءوس المومياوات المحفوظة جيدًا ورءوس التماثيل المصرية الجميلة وتلك الرسومات والنقوش قليلة البروز فى المقابر وتلك على جدران المعابد ثم نقارنها أخيرًا بأهل بلدة طيبة، فهل يمكن عندئذ الشك فى أن المصريين القدماء كانوا ينتمون إلى هذا الجنس الذى أطلق عليه دون وجه حق الجنس "القوقازى"؟

وفى الحقيقة فقد امتلكوا شفاة محددة قليلاً ووجنات بارزة، ولكن ذلك لا يغير أبدًا من الطابع البدائى. ولا أعتقد أنه من الضرورى أن نصر كثيرًا على هذا الموضوع الذى تناولته بإسهاب عند وصف مقابر مدينة طيبة[١]، ولقد وجدت أن الطابع المصرى يتميز بالذات بامتداد خط الأنف (وهو خط على العكس من ذلك يمتاز بالقصر الشديد لدى الزنوج بوسط أفريقيا) وبحدوده المعقوفة وأيضًا بالاتجاه المشترك للأنف والجبين تبعًا لمستوى واحد يميل ميلاً خفيفًا، وهذا ما يكون الاختلاف الأساسى بين الطابع المصرى والطابع الإغريقى الذى يتميز بالاتجاه العمودى المشترك للجبهة والأنف معًا بينما هو عند المصريين مائل من ٧٦ إلى ٧٨ درجة.

---

(١) انظر فيما سبق، المجلد الثالث.

وبالعودة لموضوع أبى الهول فإننا نجد هذا الجزء من وجهه مشوهًا للغاية مما لا يمكن من تمييز طابع هيئة الوجه جيدًا. وعلى الرغم من أن البعض كان قد اكتشف ذلك التشويه إلا إننا وابتعادًا عن هذه الفكرة نلاحظ عملاً دقيقًا ومبتكرًا فى تنفيذ الأعين ومحاور العينين وكذلك الفم والأذن. ولكن عملية تكبير المقاسات لأكثر من ٣٦ مرة عن الحجم الطبيعى للأشكال الإنسانية قد أدت إلى خلق صعوبة فى عمل النحات. ونشعر بذلك بسهولة بدون أن يكون ضروريًا أن نؤكد على تلك الملاحظة.

ولقد لقب العرب ذلك الشكل بأبى الهول أى أبى الرعب والذعر، وهى تسمية غريبة كانت جديرة بأن تصيب بالدهشة من قاموا بنحته لو أنهم كانوا قد استطاعوا التنبؤ بالاسم الذى سوف يطلق عليه مستقبلاً[1]. هل كان التمثال فى الحقيقة يمكنه أن يرعب أى شخص سوى الأطفال؟ وفى نفس الوقت وبنوع من التناقض فإن العرب قد اعتبروا التمثال بمثابة تميمة جبارة تجابه اجتياح الرمال، وتحمى وادى النيل ضد عدوه اللدود الرهيب، وهنا خطأ آخر أكثر فداحة، أدركوه فيما بعد نتيجة لعدم معقوليته وذلك برؤية الرمال تتجرف إلى ارتفاع ٥٠٠ متر فيما وراء تمثال أبى الهول. مع العلم بأن جسم أبى الهول نفسه كاد أن يكون مدفونًا تمامًا تحتها.

وفضلاً عن ذلك فإنه يعطى ظهره وليس وجهه للرمال التى كان من المفترض أن يوقفها بفضل تأثير سحرى لا يقاوم. وذلك الوجه قد استدار جهة الشرق ولكن ليس بالضبط، فإن محور الجسم يكون زاوية مع الخط الرابط بين الشرق

---

(١) وهى مشتقة من الكلمة القديمة والتى كانت وفقًا للمقريزى وأسيوطى: بلهيت أو بلهوت. وقد ترجمها السيد لانجليه إلى القبطية بعبارة (أوكولوس ـ تريبيلس) (العين المرعبة) انظر رحلة نوردن كتاب رقم ٣ ص ٣٤٢. ولكن المترجم دو ساسى ترجمها إلى أوكولوس ومعناها الشخص الذى لا يتكر أو الذى يمتلك قلبه فى عيونه. (ترجمة عبداللطيف ص٥٦٩).

والغرب مقدارها (٣٠ َ ١٨ ْ) وذلك وفقًا للخريطة الطبوغرافية[١]. وربما (وهذا يمكن أن يكون من الناحية النظرية فقط) أن بناة الأهرام قد أرادوا أن يوجهوا الوجه تجاه المشرق أى تجاه الشمس الساطعة، وذلك فى خلال فترة الانقلاب الصيفى التى تكون فيها الشمس أبعد ما يمكن فوق خط الاستواء. وذلك ما سوف أقوم ببحثه فى موضع آخر[٢]. ويبقى لى لإنهاء ذلك الوصف أن أتكلم باختصار عن بعض آثار العصور القديمة التى نراها فى موقع الأهرامات بدءًا بالممرات المعبدة. وهنا فى أثناء وصفى لأحد الممرات وصفت ممرًا كان محفوظًا جيدًا؛ وللعلم فهناك آخر قد يكون مكملاً له ويبلغ طوله أيضًا ٢٦٠م ويقع فى الشرق، ويتخذ تقريبًا نفس الاتجاه ويبعد قليلاً عن الأرض الزراعية[٣]؛ وممر أخير يمكن رؤيته شرق الهرم الأكبر وهو ذو أركان ويكاد يتاخم السهل؛ ويبلغ طوله ٤٠٠م؛ والجزء الأول منه يتجه نحو الزاوية الجنوبية الغربية للأثر والجزء الثانى يتجه نحو منتصف الواجهة الشرقية. وذلك الممر متهدم جدًا ولكننا نسلكه جيدًا على الأرض وربما هو ما تبقى من ذلك الذى ذكره هيرودوت ويبلغ طوله ٥ غلوات أى ٩٢٤م حيث كان ينظر إليه كعمل شبه أخاذ كالهرم وقد ساعد حسب قوله على نقل الأحجار المسحوبة من الجبل العربى. ولما كان المؤرخ يعطينا كل المقاسات فمن السهل أن نقدر مدى يقينه؛ فالعرض كان ١٠ أورجى أو ١٨,٧٢م وأقصى ارتفاع له كان ١٤,٩٨م وهو بالتالى بافتراض أن القاعدة أفقية فإن انحدار ذلك السطح المائل لم يكن أقل من ١ إلى ٦٠ أى الربع فقط من نسبة ميل الممر الأول، ولكن رواية هيرودوت نفسه تعترض على تلك الكلمة ونصف فيها

---

(١) انظر اللوحة رقم (٦)، المجلد الخامس.

(٢) انظر دراسات عن الأهرامات.. إلخ، المجلد التاسع.

(٣) السيد جراتيان لوبير لم يعتقد أنها كانت تستخدم فى النقل ولكنه اعتقد أنها سد قد أنشئ لنقل مجرى النيل نحو الشرق؛ ولكن وللعلم فإن السد الذى كان يستخدم لهذا الغرض كان مبنيًا جنوب منف وليس شمالها.

الميل ميل ضعيف؛ فالأهرامات كانت حسب وصفه أعلى السهل بمسافة ١٠٠ قدم أى ١٦ أورجى ٢/٣ أى حوالى ٣٠,٨م، لذا فإن المسافة من الهرم (قياسًا من منتصف الواجهة الشرقية) إلى نفس تلك النقطة ليست إلا ٧٠٠م ومهما أرجعناها بما يكفى لنجد الـ ٥غلوات أو الـ ٣٠٠٠ قدم، فإن الميل الكلى سيكون ١ إلى ٣٠ طالما أن أقصى ارتفاع ووفقًا لنفس الطريقة فى الحساب كان يجب أن يكون ١٨ أورجى بدلاً من ٨ ولكن من المحتمل أن الممر قد بنى على أرض منحدرة أى على سفح الجبل. أما بالنسبة للمقارنة بين هذا العمل والعمل فى الهرم نفسه وبعدم أخذ أى شىء آخر فى الاعتبار غير مكعبات الأحجار، نجد أن لها أساسًا أقل عمقًا حيث إن أى من هذه الأحجار الضخمة يمثل جزءًا من ٢٠ جزءًا من الأخر. ولسوف أعود لهذا المقطع من مؤلف هيرودوت فيما بعد.

ولن أضيف إلا أشياء قليلة لما قلته عن المنطقة المسورة المزدوجة التى تحيط بالأهرامات. حيث لا نرى أسوارًا مثلها أبدًا إلا حول الهرم الثانى والثالث والرابع وحول الأهرامات المدرجة علمًا بأن تلك الخاصة بالهرم الأكبر قد اختفت؛ وكما قلت عنها مسبقًا، فيبدو أن غايتها الأساسية كانت صنع حواجز ضد اقتحام رمال ليبيا.

وعدد تلك الأماكن المسورة أقل كثيرًا على خريطتنا الطبوغرافية من تلك التى تصاحب رواية «بوكوك» وأعتقد أن الكثير منها لم يعد له وجود، ولكن من جهة أخرى فإن الرمال قد تسببت فى تغطية العديد منها منذ زمن رحلتى، وعلى الجانب الآخر فإننا ندرك أن مصمم خريطته وإن لم يكن الرحالة نفسه، فقد رسم خريطته وبها تلك الخطوط الخاصة بالنطاق المسور تبعًا لتوزيع تماثلى، إذا كان مقتنعًا بأن كل الأهرامات والمبانى الملحقة بها والمكملة لها قد خضعت لخريطة مضبوطة تمامًا فى أجزائها، ولكن ذلك ليس صحيحًا على الإطلاق.

وتلك الأنواع من الترميمات الكاملة والتى لا تتوافق إلا مع هندسة معمارية يكون نظامها معروفًا تمامًا، ليست ميسورة ولا يسهل تطبيقها على الآثار المصرية، وعلى الأخص فى حالتنا هذه؛ لأننا لو لاحظنا فإنه يوجد توازى مدهش بين تلك الأهرامات الضخمة وكل الصروح والمقابر المجاورة؛ ومن جهة أخرى فإننا ندرك للوهلة الأولى أن عوارض التربة والشكل الخارجى للموضع وعوامل أخرى كثيرة قد منعت من أن نختار لكل تلك المجموعة من الأبنية والتى تقل المساحة التى تشغلها عن ١٤٠٠ مترًا مربعًا تنسيقًا متماثلاً تمامًا، أو أن نفترض أن رسوماتها قد صممت معًا دفعة واحدة. وكل هرم من تلك الأهرامات الكبيرة قد نفذه مهندس معمارى مختلف كما أنها تنتمى لحقبة مختلفة عن الأخرى فلماذا يستوجب علينا أن نبحث فى التوزيع المعمارى لتلك الهضبة الكبيرة، عن فكرة واحدة وموحدة ونظامًا واحدًا أى باختصار عن وحدة فى التصور والتنفيذ؟.

والبنايات الكثيرة التى توجد فى محيط الأهرامات ليست موضوعة بدون نظام، فبالملاحظة نجد أنها كلها موجهة بأوجهها دائمًا ناحية الشرق والغرب والشمال والجنوب. ولقد تكلمت من قبل عن أكبر تلك الأهرامات التى تقع شمال الهرم الثانى وغرب الهرم الأول ويلاحظ أنها تشغل مستطيلاً أشبه بالمربع ويكاد يعادل هذا الهرم الأخير فى مساحة سطحه. وعددها وفقًا ليوميات رحلتى يبلغ ١٤×١٤ أى ١٩٦[١]. إنها مقابر ضخمة على هيئة أهرامات ناقصة وذات قاعدة مستطيلة وهنا تكون المقاسات من الأسهل التنبؤ بها عن قياسها بسبب وجود عائق الرمال التى تردم بعض أجزائها؛ وعرضها يتراوح من ٩ إلى ١٠ أمتار. وإلى

---

(١) انظر ما سبق ولقد أحصيت عددًا مماثلاً منها من جهة الشرق ويبلغ عددها حوالى ٤٠٠ ولكن هذه الملحوظة تتعارض مع الخريطة الطبوغرافية للأهرامات. انظر اللوحة رقم (٦)، المجلد الخامس.

جانب تلك فيوجد غيرها أيضًا وهى أهرامات أكبر وقريبة جدًا من الهرم الأكبر. أما الأحجار التى صنعت منها فمختارة بعناية وغاية فى الجمال.

وأوجه الجدران صنعت بعناية كبيرة؛ وغطيت بمادة لامعة، والمداميك منتظمة تمامًا، كما نلاحظ هنا وصلات مائلة وهى طابع إنشائى مميز لأبنية مدينة طيبة الغاية فى القدم، والكثير من تلك الآثار كتب عليها بحروف هيروغليفية. وإحدى تلك المقابر ذات الشكل الهرمى الناقص تتميز من بين كل أقرانها بحجمها الضخم فعرضها يبلغ ٤٥,٦٦م (١٤٠,٥ قدمًا) × ١٥,٣م (٤٨ قدمًا تقريبًا) وارتفاعها يبلغ ٦م (١٨,٥ قدمًا تقريبًا) ويبلغ الارتفاع من الخارج ٩,٥ أمتار، وكان نصفها مختبئًا تحت الرمال. وعلى الواجهة الشرقية يوجد بابان يقودان إلى بعض القاعات والجزء العلوى عبارة عن لوحة عليها كتابة هيروغليفية، وبارتفاعنا على المصطبة فإننا نكتشف فتحة بئر اتساعها حوالى ٢,١٤م (٧ أقدام وبوصتان). وعندما وصل المهندسون إلى هنا وجدوها شبه ممتلئة بالرمال والصخور؛ وقد قام كل من السيد لوبير والسيد كوتيل بتفريغها. وعندما وصلا إلى عمق ١٦,٥ مترًا (حوالى ٥١ قدمًا) وجدا قاعة محفورة فى الصخر مقاسها حوالى ٧م×٣,٧م وبارتفاع يبلغ ٢,٨٢م، كما وجدا بداخلها تابوتًا صخريًا من البازلت الأسود الجميل المنحوت بدقة وذى حبيبات دقيقة جدًا وغير لامعة ويعلوه غطاء سميك يغطيه بإحكام ولقد فتح هذا التابوت على يد الأعراب وتم نهبه تمامًا وجرد مما يحتويه. وشكل الأثر بسيط وأوجهة ملساء وتفتقر إلى الزخارف؛ ولكن التنفيذ كان سليمًا ودقيقًا للغاية والزخرفة الوحيدة إذا ما اعتبرناها كذلك تتكون من أربع زوائد بارزة ومستديرة توجد على طرفى الغطاء وتفيد فى تثبيته فى مكانه، ويبلغ طوله ٢,٦٨م (٨ أقدام و٣ بوصات تقريبًا) وعرضه ١,١٣م (٣ أقدام و٥,٨ بوصة تقريبًا) وارتفاعه ١,٧م أى (٣ أقدام و٣,٦ بوصة).

والمقاسات الداخلية تبلغ ٢,٩×٢,٦٠م×٠,٦٧م وهى مساحة كافية لوجود مومياء فى صندوقها. وذلك الأثر قد صور بالتفصيل فى اللوحات[١]؛ ورسمنا أيضًا بالتأكيد الجزء الخارجى والشكل الجانبى لآخر يقع أيضًا غرب الهرم الأول ويتميز بشريط يطوق من كل جانب المصطبة العليا[٢]، وتلك المقابر كلها قد دفنت على عمق كبير ولا يبدو لنا ظاهرًا أبدًا[٣] غير القمة علاوة على ثلاثة أو أربعة مداميك عليا، وهى تثبت إذا توجب الأمر أن الرمال قد غطت أيضًا أرضية الهرم الأكبر. وإذا صعدنا على المصطبة فإننا نلاحظ آبارًا مربعة كبيرة مسدودة أيضًا بالرمال مثلما هو الحال فى المقبرة التى وصفتها.

والمبانى التى تحدثنا عنها توًا سوف يلاحظ وجود مثلها فى كل مكان، وهنا نلاحظ أنها طمست بواسطة ما يجاورها؛ والحجم العملاق لأبى الهول وعظمة الأهرامات والممرات وضخامتها وكذا ضخامة المواد كل ذلك يطمسها فهى تختفى عن الأنظار وتصبح كأشياء غير محسوسة مقارنة بما حولها مما ذكرناه. إن كل (مساكن)[٤] مدينة الموتى العتيقة هذه كما يسميها المصريون؛ ليست آثارًا مبنية؛ فالكثير منها عبارة عن إنشاءات تحت الأرض مثلما فى الجبانة الخاصة بمدينة طيبة؛ ولكنها ليست مجهزة على هيئة سراديب أى على شكل قنوات وممرات طويلة ومتاهات؛ فهى تشبه المقابر لأنها محفورة فى الصخر مثلها.

وقد قام الفنانون بتزيين الجدران وتصوير مشاهد من الحياة الريفية والمدنية والمنزلية ولقد زرت الكثير من المقابر هذه شرق الهرم الثانى. والصخر فيها منحوت على هيئة أسوار قائمة أو مائلة؛ وقد أوجدوا فيها فتحات تحاكى الأبواب

---

(١) انظر اللوحة رقم ١٤ الأشكال من ٥:١٠، المجلد الخامس والشرح.
(٢) انظر اللوحة رقم ١٦، المجلد الخامس، الشكلين ١٥ و١٦، واللوحة رقم ١٥ الأشكال من ١١:١٤ وكذلك إلى الشرح.
(٣) انظر اللوحة رقم ١٤، الأشكال من ١١:١٤.
(٤) ديودور الصقلى تاريخ المكتبة، ج١.

المبنية حيث يمكن النزول منها أحيانًا بواسطة درجات منحوتة فى الصخر، وإحدى هذه المقابر مصورة فى اللوحات[١] وتتميز بما تحتويه من لوحات منقوشة معظمها وإن كان غير دقيق من حيث زوايا منظور رسوماتها إلا أنها تجذب الانتباه بفضل موضوعاتها وبساطة تنفيذها[٢]، وبفضل وجود حائط رفيع جدًا (محفور ومحفوظ فى الصخر) ينتهى الجزء العلوى منه بغطاء جدار (وهو غطاء من قرميد أو معدن يوضع على جدار مكشوف من أعلى ليمنع تأثير الأمطار عليه).

هذا ويمكن ملاحظة ضمن هذه المواضيع المرسومة والمنقوشة بعض الراقصين[٣] ومنظر موسيقى يتكون من ثلاثة عازفين للناى مصاحبين لقيثارة ذات خمسة أوتار مع اثنين من عازفى الإيقاع يصفقون بأيديهم ويبدو أن طول الناى كان ثلاثة أو أربعة أقدام[٤] وحاملى القرب وحمالين المقاطف على كتف واحد أو على الكتفين بواسطة رافعة طويلة مرنة أو بواسطة رقاص وهو استخدام مايزال يستعمل حتى الآن فى مصر[٥]، كما نلاحظ وجود رسومات لوظائف أخرى مختلفة مثل الملاحة[٦] وفن عصر الفواكه[٧] وعملية نحر الذبائح[٨]، وأعمال التجارة[٩] والزراعة[١٠] والسفن تذكر بهيئتها الزوارق المنبسطة التى يدخل فى صناعتها سيقان البردى واللوتس وحيث نجد لوحة لثلاثة رجال

---

(١) اللوحة رقم ١٦، المجلد الخامس، الأشكال ٦ و٧ و٨ والشرح.

(٢) انظر إلى رسومات اللوحتين ١٧، ١٨ نفس المجلد وفقًا لرسم «ودترتر».

(٣) انظر إلى رسومات اللوحة ١٧، الشكلين رقم ٢ و٤.

(٤) انظر اللوحة ١٧ شكل ٦.

(٥) نفسه، شكلا ١١، ١٢.

(٦) انظر اللوحة ١٨ شكلى ٥ و٧

(٧) لوحة ١٧ شكل ٥ لوحة ١٨ شكل ٢٠.

(٨) لوحة ١٨ شكل ٦.

(٩) لوحة ١٧ أشكال ٣، ٨، ٩، ١٠.

(١٠) نفسه، الأشكال ١٣، ١٥، ١٦، ١٧.

على وشك الانتهاء من العمل فى إحدى هذه المراكب. ونرى بعض الرجال يحملون اللوتس ويحضرونه للعمال. وعصارة الفواكه بتركيبها البسيط وهندستها المبتكرة تستحق وصفها؛ حيث تتكون من حقيبة كبيرة مبرومة ومليئة بالمواد التى سوف يتم عصرها ويتم حملها من طرفيها عن طريق (قصبتين خشبيتين طويلتين وقويتين) ويتم تعليق الحقيبة أعلى دلو عميق وواسع موضوع على قاعدة وتستند عليها القصبتان ثم يقوم رجلان بجذب القصبتين بأرجلهما وفى اتجاههما بجهد كبير ثم يقوم رجلان آخران يتعلقان فى الجزء العلوى على بعد ١٠ أقدام من سطح الأرض بمحاولة إبعادهما بدورهما بهدف زيادة الضغط وذلك بإضافة وزنيهما إلى قوة جذبهما، وأخيرًا يأتى رجل خامس منبطح أفقيًا بين القصبتين بنفس ارتفاعهما ويحاول بدوره إبعادها بالأرجل والأيدى ويقوم بالضغط على نقاط معينة تبدو محسوبة من العمال الآخرين.

وفى صورة أخرى يبدو ثور مخصص للذبح ويهتم بأمره ما لا يقل عن أحد عشر رجلاً؛ إذ يقوم ثلاثة رجال بجذبه بحبل من أرجله الأمامية بينما رجل آخر يجذب الرجل الأخرى ثم أربعة رجال آخرون يجذبون رجلا من الأرجل الخلفية بينما رجل تاسع يمسك الذيل وعاشر يمتطى جوادًا يمسك به من منخاره ورجل أخير يقف على أحد القرون وأرجله متباعدة جدًا عن بعضهما ويقوم بجذب القرن الآخر بكلتى يديه بجهد كبير.

ونرى رجالاً ونساء يبدون أنهم مشغولون بالبيع أو يحملون علبًا إلى الأسواق أو قربًا أو قلائد للزينة وأساور وغزلان أو ظبيان أو دوابًا أخرى ذات قرون من أنواع مختلفة مع صغارها أو طيور وحيوانات ذوات الأربع أو أوعية أو خبزًا أو حقائب محملة بالبضائع.

وأخيرًا فإن المشاهد الزراعية تمثل أعمال الفلاحة، والثور والكبش وأنواع كثيرة من الحيوانات[1]، والرجال يقومون بسكب الحبوب فى الطاحونة

---

(١) انظر اللوحة ١٧ شكلى ١٦، ١٧.

«الرحى»[١]. كما نرى عمليات ملئ الجرار بسائل أحمر يبدو أنه نبيذ. وكل هذه المشاهد مصحوبة بكتابات هيروغليفية. ونجد الكثير من المقابر أن الجدران مغطاة بطبقات سميكة من الأملاح تكونت بعد تنفيذ أعمال الحفر بداخل هذه المقابر.

المبحث السادس
المحاجر التى استخدمت فى بناء الأهرامات

إن كثيرًا من الآراء نشأت عن المحاجر المستخدمة فى بناء الأهرامات. والبعض يقرون بالتقارير المقدمة من المؤلفين الذين يؤكدون أن الأحجار جاءت من الجبل العربى؛ بينما الآخرون يتشككون فير ذلك ويدعمون رأيهم بأن الجبل الليبى قد زود المكان نفسه بالأحجار وبكميات كافية؛ وأنا أعترف بأننى كنت أميل أكثر لهذا الرأى وهو ما أعتقته فى البداية، مع أن هذا الزعم خادع كثيرًا حيث إن الصخور تحتوى على طبقات متشابهة مع الحجارة المستخدمة فى بناء الأهرام، ثم استلزم الأمر الحفر حول مكان أبى الهول ومن ثم رفع الهضبة وهو ما يوفر الكثير من المواد. ولكن يجب التخلى عن هذا الرأى ولسوف أبين ذلك العدول نظرًا للاعتبارات التى سوف أسوقها للقارئ فيما بعد. فلو لم تكن لدينا غير شهادة هيرودوت والكتاب الآخرين فإنه كان بإمكاننا القول بأنهم قد جانبهم الصواب بسبب انسياقهم وراء غرور الكهنة المصريين مع أن هذا الدليل قد بلغ الإسراف والمغالاة فيه حد التعسف. ولكن توجد شهادة أكثر إيجابية وغير قابلة للمناقشة وهى شهادة الآثار نفسها.

لقد رأينا فيما سبق أنه كان يوجد ثلاثة ممرات، اثنان منها شبه مدمران تمامًا والثالث سليم. وكيف يمكن شرح مدى أهمية هذه الأعمال العظيمة، والتى

---

(٢) انظر اللوحة ١٧ شكل ١٠.

تم توجيهها تحديدًا جهة الشرق أى ناحية الجبل العربى الذى يبدأ انحداره من نقطة تجاور المنطقة الزراعية، وهذا العمل الذى استغرق الكثير من الوقت والجهد والمال. من الذى يستطيع القول بأنهم عند نقل الأحجار، لم يستخدموا هذه الممرات التى يصفها المؤلفون، ويوضحون أهميتها والغاية وراء وجودها. وفى المقام الثانى فإنه من غير الممكن أن نعتقد أنه قد تم رفع الكثير من الأحجار من هضبة الأهرام وأنه قد تم الاستعانة بها فى البناء؛ إذ أنه كان من الأفضل تركها فى مكانه (حتى لا تختل الهضبة من سحب الأحجار منها). أما بالنسبة لأبى الهول الذى كان يشيرون إلى أن رأسه كانت عند المستوى القديم لسطح الأرض وربما كانوا محقين فى ذلك إذ ربما يكون مثل تلك الشواهد التى يتركها من يعملون فى مجال المحاجر والحفر وسط المكان الذى تم التنقيب فيه، ولكنه من السهل أن نرى أن الحجر الذى يريدون الإشارة إليه على أنه قد استعمل بغرض نحته من حول رأس التمثال وعنقه وصدره، هذا الحجر لا يمثل ١ إلى ٥٠ من حجم الهرم الأكبر، ولا حتى يمكن أن يصل إلى واحد على مائة من حجم أى من الأهرامات الثلاثة ويمكن بالطبع أن يكون القدماء قد قاموا بالحفر حول الهضبة واستغلوا بعض الأجزاء من الأحجار التى كانت بالممرات؛ ولكننا لا يمكن الاعتماد على تلك الفروض وحدها بدون أن نبحث عن أماكن أخرى تكون هى مصدر تلك الأحجار. أما فى المقام الثالث، فإن طبيعة الحجر بالسلسلة الليبية ليست دائمًا متشابهة مع تلك المستخدمة فى مداميك الأهرامات، حيث لا يوجد غير جزء واحد على الأقل تكون أحجاره هى المماثلة لأحجار الأهرام. فهى فى المعتاد أقل صلابة وأقل تماسكًا وأقل من حيث احتوائها على أصداف وحفريات؛ علاوة على أن جزيئاتها أقل تماسكًا. وهى أكثر عرضة للتآكل بفعل الهواء والدليل على ذلك الجزء الأمامى لأبى الهول، والمفترض أنه قد وفر المواد الخاصة بالبناء.

رابعًا، إن كساء الهرم الثانى وكذا الكثير من الأجزاء التى رأيتها عند سفح الهرم الأكبر والتى أظن أنها استخدمت فى كسائه، لها جميعًا لون رمادى خاص بها ومميز بنصف لمعة على درجة عالية من الجمال وهى صفة غريبة عن

الأحجار الموجودة بهذا الجزء من الجبل الليبى والأكثر بياضًا ونعومة. وأخيرًا نجد محاجر طرة[1] على الشاطئ الأيمن فيما بين الأهرامات والأطلال الحالية لمدينة منف، وهذه المحاجر التى نجد بها آثارًا لأعمال متميزة، ألم تكن تلك المحاجر هى التى رآها هيرودوت عندما أفاد بأن بناة الأهرام قد نقلوا الأحجار من الجبل العربى؟ والصخرة لها تمامًا نفس صفات أحجار الأهرامات لاسيما تلك الخاصة بالكساء. وعندما نهبط مجرى نهر النيل ونتوقف قليلاً فى المواجهة لرؤية مناطق الحفر، فإننا نندهش من امتدادها ومن هيئتها ولكن من جهة أخرى فإن عمقها السحيق يدهشنا عندما نطأها بأقدامنا؛ وطريقة عمل المصريين يمكن التعرف عليه بسهولة، وفى أثناء تجوالنا داخلها، لم يتبق لدينا أدنى شك فى أن المصريين كانوا مميزين جدًا فى استغلال المحاجر وذلك لكى يحملوا تلك الكتل الكبيرة من الجبل تاركين السقف بلا دعامة.

والجدران مرفوعة والأعمدة والدعامات منحوتة والتوزيعات الداخلية ترتكز على زاوية قائمة، كما لو كانوا يريدون نحت آثار تحت الأرض وليس استخراج الصخور فقط وبذلك نرى أن الفراغ الموجود بعد سحب تلك الأحجار من أماكنها يمكن أن يبين جيدًا حجم الأهرامات.

وفى الحقيقة فإننا نلاحظ باتجاه الشمال بالنسبة للهرم الأكبر أن جزءًا من السلسلة الليبية مستغل أيضًا وفى العراء حيث إن طبيعتها متشابهة لنوعية ذلك الصخر المستخدم فى الدرجات الأخيرة، لذا فيمكننا التسليم بأن جزءًا من كتلة الهرم قد تم الاستعانة فيها ببعض من أحجار الجبل الليبى سواء من المكان نفسه أو من مكان مجاور له ولكن الجزء الأكبر لهذا الهرم تم استخراجه وفقًا لى من محاجر طرة. وفضلاً عن ذلك فإنى أود أن أسلم بتعديل الرأى الأول الذى ناقشته وهو أن الأحجار المستخرجة من طرة لم يتم نقلها عبر كل الوادى،

---

(١) انظر وصف مدينة القاهرة.

فإحساسى يقول إنهم كانوا يقومون بشحن الأحجار فى مراكب تسير فى القناة المستعرضة المارة بشمال منف حيث تخرج منها إلى القناة الغربية فتهبط منها إلى بداية الممرات الموصوفة بأعلى. ورواية هيرودوت نفسها تدعم هذا الشرح وبه تتوافق شهادات الكُتّاب مع طبيعة الأماكن والآثار والوجود الحالى للمرات التى مازالت قائمة سواء بحالة جيدة أم لا ويتم بذلك فى النهاية تفسير وضعها واتجاهها بالنسبة لما حولها. والرسم الذى ذكرته يعطى فكرة عن الجزء الشمالى لمحاجر طرة وفيما ورائها، فإن الجبل قد نحت بنفس الطريقة وأيضًا بعمق أكبر إلى مسافة كبيرة، ناحية الجنوب ولذا فالمكان يستحق أن يفحص بالتفصيل. وضمن المحاجر التى زرتها فقد لاحظت محجرًا يبلغ ارتفاعه ستة أمتار ونصف (٢٠ قدمًا) وبه عدد كبير جدًا من التفرعات[١]. والأركان والحوائط فى ذلك المحجر وفى كل المحاجر الأخرى قد نحتت على زوايا بارزة، والأسقف صنعت بعناية مماثلة، ونجد فى كل مكان طريقة ومستوى تنفيذ «المنحت المصرى» وفى النهاية، ونظرًا لضخامة العمل، فإننا نتعرف على المصدر الواضح، الذى لا يدع مجالاً للشك والذى أمد آثار منف بالخامات التى استلزمها تشييدها[٢].

---

(١) انظر رسم جزء من هذه المحاجر، اللوحة ٤، شكل ٨، المجلد الخامس.

(٢) بإنهاء هذا الوصف المختصر للأهرامات فإنه يتوجب علينا أن نكرر بأنها لا تعفى القارئ من مراجعة الوصف الخاص بمن سبقونا وإننا نحيله فى نفس الوقت إلى الملاحظات والأبحاث عن الأهرامات.... إلخ. وهى مدرجة فى المجلد التاسع، ونستطيع أن نعتبره كتكملة للوصف.

ملاحظة: إن اتساع حجم هذا المجلد أرغمنا أن نرجع إلى المجلد التاسع الفصلين رقم ٢٠ و٢٢، ويعدا ملحقًا خاصًا مكملاً لمجلد وصف الآثار المذكور أعلاه (انظر المجلد التاسع).

الفهرس

* كما ورد فى الأصل الفرنسى تم إلحاق الفصلين «العشرون والثانى والعشرون» بالجزء الثامن والعشرين من الترجمه الغربية (المراجع).

مراجعة وتقديم: **منى زهير الشايب**

ترجمة

د. منال بشير

د. عشيرة محمد كامل

د. منى هاشم

إشراف

أ.د. فوزية شفيق الصدر

مدير التحرير

حسين البنهاوى

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٩١٦/ ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8742 -9

تمت الطباعة بالتعاون مع
شركة نهضة مصر للطباعة والنشر







وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة. تتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية.

سوزان مبارك



التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

السعر خمسة جنيهات